



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان  
عليكم يا صابرين

WWW. **Ghaemiyeh** .com  
WWW. **Ghaemiyeh** .org  
WWW. **Ghaemiyeh** .net  
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

أنت دعيت

# الإمام الصادق

## والمذاهب الأربعة

مع إضافات وتحقيقات علمية

المجلد الأول



دار الفکر للطباعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامام الصادق و المذاهب الاربعه

كاتب:

اسد حيدر

نشرت في الطباعة:

دار التعارف للمطبوعات

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

5	الفهرس
27	الامام الصادق و المذاهب الاربعه المجلد 1
27	اشارة
27	اشارة
33	الجزء الأول
33	مقدمات التحقيق
33	الإهداء
35	المقدمة الأولى
37	المقدمة الثانية
39	مقدمة الطبعة الثالثة
41	كتاب الإمام الصادق
47	الإمام الصادق بين عهدين
47	اشارة
49	العهد الأموى
49	بنو أمية فى عهد عثمان:
51	على . . . و مبايعة معاوية لطلحة و الزبير:
53	طلب معاوية بدم عثمان:
54	موقف عائشة و عمرو بن العاص:
55	موقف معاوية من عثمان:
58	عائشة و عثمان:
60	معاوية و الخلافة:
62	بيعة يزيد و أعماله:
63	تحول الحكم من آل أبى سفيان إلى بنى الحكم:

64	ولادة الإمام الصادق:
65	نشأة الإمام الصادق:
66	عصر الإمام الصادق:
66	اشارة
67	المرحلة السعيدة:
69	العهد العباسي
69	اشارة
70	السفاح:
70	المنصور:
70	اشارة
71	أعمال المنصور:
72	مع المنصور و بنى الحسن:
73	الإمام الصادق و مشاكل العهدين:
74	اتهامات المنصور للإمام الصادق:
79	الإمام الصادق شخصيته
79	اشارة
79	شخصية الإمام الصادق:
81	أقوال العلماء في الإمام الصادق:
95	الإمام الصادق
95	اشارة
95	مدرسة الإمام الصادق:
98	تلامذة الإمام الصادق و رواة حديثه:
98	اشارة
102	أبان بن تغلب:
106	مع البخارى

106	شهرة البخارى:
114	آية التطهير
114	اشارة
114	تخریج الحفاظ لآية التطهير:
122	حديث الغدير
122	رواة حديث الغدير من الصحابة:
123	خطبة النبی يوم الغدير:
125	عناية الشيعة بعيد الغدير:
127	حديث الثقلين
127	تخریج الحفاظ لحديث الثقلين:
135	الإمام الصادق
135	اشارة
135	تمهيد:
138	موقف الإمام الصادق من الظالمين:
140	ملوك عصره
140	اشارة
140	عبد الملك بن مروان:
140	اشارة
142	توليته للحجاج:
145	الوليد بن عبد الملك:
145	اشارة
147	مقتل سعيد بن جبیر:
148	سليمان بن عبد الملك:
151	عمر بن عبد العزيز:
151	اشارة

- 152 ..... سيرته فى الخراج:
- 153 ..... أخطاء تاريخية:
- 154 ..... يزيد بن عبد الملك:
- 156 ..... هشام بن عبد الملك:
- 156 ..... إشارة
- 157 ..... هشام و زيد بن على:
- 159 ..... مقتل زيد بن على و ملابسائه:
- 161 ..... الوليد بن يزيد:
- 161 ..... إشارة
- 163 ..... مقتل يحيى بن زيد:
- 164 ..... يزيد الناقص:
- 165 ..... إبراهيم بن الوليد:
- 165 ..... مروان بن محمد:
- 166 ..... ولاة المدينة فى العهد الأموى:
- 166 ..... إشارة
- 167 ..... هشام بن إسماعيل:
- 167 ..... عمر بن عبد العزيز:
- 167 ..... إشارة
- 168 ..... سبب عمارته لمسجد النبى:
- 169 ..... عثمان بن حيان:
- 170 ..... أبو بكر بن محمد:
- 170 ..... عبد الرحمن بن الضحاك:
- 171 ..... عبد الواحد النضرى:
- 171 ..... إبراهيم بن هشام:
- 171 ..... خالد بن عبد الملك:



172	.....	محمد بن هشام:
172	.....	يوسف الثقفي:
173	.....	ولاية المدينة في العهد العباسي:
183	.....	المذاهب الأربعة
183	.....	إشارة
183	.....	تمهيد:
183	.....	نشأة المذاهب:
184	.....	المدينة والحركة العلمية:
186	.....	أهل الحديث وأهل الرأي:
188	.....	نشوء المذاهب:
189	.....	سفيان الثوري:
190	.....	سفيان بن عيينة:
190	.....	الحسن البصري:
191	.....	الأوزاعي:
191	.....	ابن جرير الطبري:
192	.....	داود بن علي الظاهري:
193	.....	الليث بن سعد:
193	.....	عمر بن عبد العزيز:
194	.....	الأعمش:
194	.....	الشعبي:
196	.....	المذهب الحنفي:
199	.....	المذهب المالكي:
204	.....	المذهب الشافعي:
205	.....	المذهب الحنبلي:
206	.....	السلطة وانتشار المذاهب:

210	..... خلاصة البحث:
213	..... آراء حول الاجتهاد والتقليد:
219	..... كلمات حول التقليد:
221	..... الاجتهاد:
222	..... التقليد:
223	..... حركة التنازع بين المذاهب
223	..... كلمات حول تنازع المذاهب:
226	..... التعصب بين المذاهب:
229	..... التحول من مذهب إلى مذهب:
231	..... التعصب لائمة المذاهب:
235	..... حركات التعصب بين المذاهب:
238	..... محنة خلق القرآن:
240	..... بين السنة والشيعة:
245	..... انتشار المذاهب الأربعة في الأقطار الإسلامية:
247	..... انتشارها في الوقت الحاضر:
249	..... مدارسها في الأقطار الإسلامية:
253	..... المذهب الجعفري
253	..... اشارة
253	..... مذهب أهل البيت:
254	..... العداء لأهل البيت:
255	..... معارضة معاوية
258	..... بذرة التشيع ونموها:
259	..... أخطاء تاريخية لابن خلدون:
261	..... المذهب الجعفري و الدولة العباسية:
261	..... اشارة

- 263 ..... معارضة المنصور والرشد للمذهب:
- 265 ..... تغلب المذهب الجعفري:
- 266 ..... قوة المعارضة أيام المتوكل:
- 267 ..... الشيعة و نصرة أهل البيت:
- 269 ..... أحاديث النبي في أهل البيت:
- 275 ..... الغلاة
- 275 ..... موقف أهل البيت من الغلاة:
- 278 ..... عبد الله بن سبأ:
- 283 ..... انتشار المذهب الجعفري
- 283 ..... انتشاره في الأقطار الإسلامية:
- 291 ..... تصفية الحساب
- 291 ..... أسباب الخلاف وعوامل التفرقة:
- 292 ..... الاتهام بالتشيع:
- 295 ..... ضحايا المبدأ:
- 299 ..... أحاديث النبي في حب علي و شيعته:
- 300 ..... تحريف الأحاديث:
- 303 ..... أحكام جازة:
- 308 ..... الوضع... و الحديث النبوي
- 308 ..... حركة الوضع:
- 309 ..... السلطة وضع الحديث:
- 312 ..... القصاصون و أثرهم في المجتمع:
- 314 ..... عدول الناس عن المذاهب:
- 315 ..... المتعة و تشريعها:
- 317 ..... الطلاق الثلاث واحدة:
- 319 ..... المسح على الرجلين:

320	الأذان وحى على خير العمل
323	الإمام أبو حنيفة
323	تمهيد:
324	مع الأستاذ عفيفى فى روايته:
326	المناقب:
328	البشائر فى أبى حنيفة:
328	حديث السراج وإحياء الدين:
332	حديث غياث لكل مهموم:
332	أبو البخترى:
332	إشارة
333	فتوى أبى البخترى:
334	بين المد والجزر:
336	سماعه من الصحابة:
339	حديثه وعنايته بالرواية:
341	أبو حنيفة بين أنصاره وخصومه.
346	نشأته ونبوغه:
348	الموالى وأوضاع عصره:
349	اتجاهه العلمى:
351	فقهه وتلامذته:
351	إشارة
352	أبو يوسف:
352	محمد بن الحسن الشيبانى:
352	الحسن بن زياد:
353	زفر بن الهذيل:
355	علماء الحنفية ونشر المذهب:

359	مناظرته للإمام الصادق: .....
359	إشارة .....
360	مناظرته فى القياس: .....
361	رواياته عن الإمام الصادق وميله لأهل البيت .....
364	أسباب مقتل أبى حنيفة: .....
367	شيوخ أبى حنيفة من الشيعة: .....
369	خلاصة البحث .....
376	الجزء الثانى .....
376	إشارة .....
379	الإمام الصادق .....
379	إشارة .....
379	تمهيد: .....
380	عصره ومشاكله: .....
380	إشارة .....
383	مشكلة الخراج: .....
385	سيرة الحياة: .....
387	الموالى و الثورة: .....
388	الموالى ووظائف الدولة: .....
390	أسباب انهيار الدولة: .....
393	عظات و عبر: .....
395	قيام الدولة العباسية: .....
399	مواقف الإمام الصادق .....
399	مواقف الإمام فى الحكم الأموى: .....
401	موقف الإمام فى دعوة الخلال لبيعته: .....
402	إخباره بصيرورة الأمر لبني العباس: .....

- 403 ..... موقفه من الحركات الفكرية: .
- 403 ..... اشارة .
- 404 ..... موقفه من حركة الغلاة: .
- 407 ..... الإمام الصادق .
- 407 ..... اشارة .
- 407 ..... توجيهه الأمة إلى الشعور بالمسؤولية: .
- 410 ..... حثه على التجارة و طلب الرزق: .
- 411 ..... دعوته إلى العمل: .
- 414 ..... دعوته للألفة و الأخوة الإسلامية: .
- 416 ..... سياسته تجاه الظلم و الظالمين: .
- 420 ..... عزة النفس: .
- 422 ..... قوة الإرادة: .
- 423 ..... مراسلاته: .
- 423 ..... اشارة .
- 424 ..... رسالة لعبد الله النجاشي: .
- 426 ..... رسالته في الصفات: .
- 426 ..... رسالته إلى جماعة من أصحابه: .
- 427 ..... وصاياه: .
- 427 ..... اشارة .
- 428 ..... وصيته لحفص بن غياث: .
- 428 ..... وصيته لسفيان الثوري: .
- 429 ..... وصيته لعبد الله بن جندب: .
- 431 ..... جوامع الكلم: .
- 439 ..... الإمام الصادق .
- 439 ..... اشارة .

- 439 ..... الأمويون وحديث أهل البيت:
- 443 ..... بعض المؤلفين من تلامذته:
- 445 ..... تلامذته ورواة حديثه:
- 445 ..... 1-إبراهيم بن سعد:
- 445 ..... 2-إبراهيم بن زياد:
- 445 ..... 3-إبراهيم بن محمد:
- 445 ..... 4-إبراهيم بن طهمان:
- 445 ..... 5-إبراهيم بن علي:
- 445 ..... 6-إبراهيم بن مهاجر الأزدي:
- 445 ..... 7-إبراهيم بن محمد:
- 447 ..... 8-بسام بن عبد الله:
- 447 ..... 9-بشار بن قيراط:
- 447 ..... 10-بشار بن ميمون:
- 447 ..... 11-تليد بن سليمان:
- 447 ..... 12-الجراح بن مليح:
- 447 ..... 13-جرير بن عبد الحميد:
- 449 ..... 14-حبيب بن النعمان:
- 449 ..... 15-حبيب بن يسار:
- 449 ..... 16-الحسن بن عياش:
- 449 ..... 17-الحكم بن عتبة:
- 450 ..... 18-الحارث:
- 450 ..... 19-الحارث:
- 450 ..... 20-حميد بن قيس:
- 450 ..... 21-حماد بن عيسى:
- 450 ..... 22-الحارث بن عمران الأسدي:

- 450 ..... 23-حاتم بن إسماعيل:
- 451 ..... 24-داود بن الزبرقان:
- 451 ..... 25-الربيع بن حبيب:
- 451 ..... 26-رحيل:
- 451 ..... 27-رقبة:
- 451 ..... 28-الركين بن الربيع:
- 451 ..... 29-زكريا بن إسحاق:
- 452 ..... 30-زياد بن سعد:
- 452 ..... 31-زيد بن عطاء:
- 452 ..... 32-زهير بن محمد التميمي:
- 452 ..... 33-زيد بن الحسن:
- 452 ..... 34-سعيد بن سالم:
- 452 ..... 35-سعيد بن عبد الجبار:
- 452 ..... 36-سعيد بن عبد الرحمن:
- 454 ..... 37-سلمة بن كهيل:
- 454 ..... 38-سليمان بن مهران الأعمش:
- 454 ..... 39-سليمان:
- 454 ..... 40-سفيان الثوري:
- 455 ..... 41-سفيان بن عيينة:
- 455 ..... 42-سعيد بن عبد الرحمن:
- 455 ..... 43-سنان بن هرون:
- 455 ..... 44-سعيد بن طريف:
- 455 ..... 45-سعيد بن أبي خثيم:
- 455 ..... 46-سعيد بن حسان:
- 455 ..... 47-سعيد بن سالم:



- 457 ..... 48-سعيد بن مسلمة:
- 457 ..... 49-سالم بن عبد الواحد:
- 457 ..... 50-شعبة بن الحجاج:
- 457 ..... 51-شعيب بن خالد:
- 458 ..... 52-الضحاک بن مخلد:
- 458 ..... 53-طلحة بن زيد:
- 458 ..... 54-عاصم بن عمر:
- 458 ..... 55-عاصم بن حميد:
- 458 ..... 56-عاصم بن سليمان:
- 458 ..... 57-عامر بن السمط:
- 459 ..... 58-عتبة بن عبد الله:
- 459 ..... 59-عثمان بن فرقد:
- 459 ..... 60-عثمان بن عبد الرحمن:
- 459 ..... 61-عثمان بن مطر:
- 459 ..... 62-عطاء بن مسلم:
- 459 ..... 63-علي بن حمزة:
- 460 ..... 64-علي بن صالح:
- 460 ..... 65-العوام بن حوشب:
- 460 ..... 66-عيسى بن عمر:
- 460 ..... 67-عبد الجبار:
- 460 ..... 68-عبد العزيز:
- 460 ..... 69-عبد العزيز:
- 461 ..... 70-عبد العزيز:
- 461 ..... 71-عبد العزيز:
- 461 ..... 72-عبد الوهاب:

- 461 ..... 73-عبد الملك بن جريح:
- 461 ..... 74-عبد الله بن رجاء:
- 462 ..... 75-عبد الله بن جعفر:
- 462 ..... 76-عبد الله بن جعفر:
- 462 ..... 77-عبد الله بن الزبير:
- 462 ..... 78-عبد الله بن دكين:
- 462 ..... 79-عبد الله بن ميمون:
- 462 ..... 80-عبيد الله بن عمر:
- 463 ..... 81-علي بن هاشم:
- 463 ..... 82-علي بن عبد الأعلى:
- 463 ..... 83-عمرو بن خالد:
- 463 ..... 84-عمرو بن هرون:
- 463 ..... 85-عمر بن قيس:
- 463 ..... 86-عمر بن دينار:
- 465 ..... 87-فضيل بن عياض:
- 465 ..... 88-فضيل بن مرزوق الكوفى:
- 465 ..... 89-فليح بن سليمان:
- 465 ..... 90-القاسم بن معن:
- 465 ..... 91-القاسم بن عبد الله:
- 465 ..... 92-محمد بن اسماعيل:
- 467 ..... 93-محمد بن اسحاق:
- 467 ..... 94-محمد بن فليح:
- 467 ..... 95-محمد بن الحسن:
- 467 ..... 96-محمد بن راشد:
- 468 ..... 97-محمد بن مجيب:

- 468 ..... 98-محمد بن ثابت:
- 468 ..... 99-محمد بن جعفر:
- 468 ..... 100-معلی بن هلال:
- 469 ..... 101-معمربن راشد:
- 469 ..... 102-معمربن یحیی:
- 469 ..... 103-منصور بن المعتمر:
- 469 ..... 104-المنهال بن عمر:
- 469 ..... 105-میسرة بن حبيب:
- 469 ..... 106-مالک بن أنس:
- 469 ..... 107-مکی بن ابراهیم:
- 471 ..... 108-مسعود بن سعد:
- 471 ..... 109-مسلم بن خالد:
- 471 ..... 110-مصعب بن سلام:
- 471 ..... 111-معاوية بن صالح:
- 471 ..... 112-معاوية بن عمار:
- 471 ..... 113-معروف بن خربوذ:
- 472 ..... 114-مفضل:
- 472 ..... 115-النعمان بن ثابت:
- 472 ..... 116-نوح بن دراج:
- 472 ..... 117-هرون بن سعد العجلي:
- 472 ..... 118-هرون بن موسى:
- 472 ..... 119-هلال بن أبي حميد:
- 472 ..... 120-وهيب بن خالد:
- 474 ..... 121-یحیی بن سعید:
- 474 ..... 122-یحیی بن قیس:

- 474 ..... 123- يحيى بن سليم:
- 474 ..... 124- يعلى بن الحرث:
- 475 ..... الرواة:
- 475 ..... اشارة
- 477 ..... مشاهير الثقات:
- 477 ..... اشارة
- 479 ..... جابر بن حيان:
- 482 ..... الفرق:
- 485 ..... الإمام الصادق
- 485 ..... اشارة
- 485 ..... تمهيد:
- 485 ..... الإمام الباقر:
- 485 ..... اشارة
- 486 ..... كنيته و لقبه:
- 488 ..... أقوال العلماء فيه:
- 493 ..... من تلامذته ورواة حديثه:
- 493 ..... عمر بن دينار
- 494 ..... عبد الرحمن:
- 494 ..... عبد الملك:
- 494 ..... قرّة بن خالد:
- 494 ..... محمد بن المنكدر:
- 494 ..... يحيى بن كثير:
- 494 ..... الزهري:
- 495 ..... ربيعة الرأي:
- 495 ..... الأعمش:

- 495 ..... عبد الله بن أبي بكر:
- 495 ..... زيد بن علي:
- 496 ..... موسى بن سالم:
- 496 ..... موسى الحنط:
- 496 ..... القاسم بن الفضل:
- 496 ..... القاسم بن محمد:
- 497 ..... محمد بن سوقة:
- 497 ..... حججاج:
- 498 ..... معروف:
- 499 ..... أصحاب الإمام الباقر ورواة حديثه من الشيعة
- 499 ..... اشارة
- 499 ..... أبان بن تغلب:
- 499 ..... بريد العجلي:
- 500 ..... بكير بن أعين:
- 500 ..... أبو حمزة الثمالي:
- 500 ..... جابر الجعفي:
- 502 ..... محمد بن مسلم:
- 503 ..... حمران بن أعين:
- 503 ..... زرارة:
- 504 ..... عبد الملك بن أعين:
- 505 ..... مدرسة الإمام الباقر:
- 505 ..... اشارة
- 508 ..... حكمه:
- 510 ..... وصيته لعمر بن عبد العزيز:
- 510 ..... وصيته لجابر الجعفي:

- 511 ..... من تعاليمه:
- 513 ..... الإمام الباقر وعبد الملك:
- 517 ..... الإمام الصادق
- 517 ..... اشارة
- 517 ..... تمهيد:
- 518 ..... محاولة المنصور قتل الإمام:
- 527 ..... الإمام الصادق و ولاية المنصور:
- 530 ..... سياسة المنصور تجاه العلويين:
- 530 ..... اشارة
- 533 ..... حديث الخزانة:
- 534 ..... تظاهر المنصور بالعدل:
- 539 ..... الشيعة و أهل البيت:
- 541 ..... الإمام مالك بن أنس
- 541 ..... تمهيد:
- 542 ..... من هو الإمام مالك:
- 542 ..... اشارة
- 544 ..... ولادته:
- 546 ..... المناقب:
- 547 ..... عالم المدينة:
- 549 ..... أمين زمانه:
- 551 ..... أطيب حول مالك:
- 552 ..... مالك و أقوال العلماء:
- 554 ..... مع الخلفاء و الولاية:
- 554 ..... اشارة
- 556 ..... مع المنصور:

- 559 ..... اتصاله بالمنصور: اتصاله بالمنصور:
- 564 ..... شيوخ مالک: شيوخ مالک:
- 564 ..... إشارة . إشارة .
- 565 ..... ابن هرمز: ابن هرمز:
- 565 ..... نافع: نافع:
- 566 ..... الزهري: الزهري:
- 566 ..... رسالة الإمام زين العابدين للزهري: رسالة الإمام زين العابدين للزهري:
- 568 ..... أبو الزناد: أبو الزناد:
- 568 ..... ربيعة الرأي: ربيعة الرأي:
- 569 ..... تلامذة مالک: تلامذة مالک:
- 569 ..... إشارة . إشارة .
- 570 ..... ابن وهب: ابن وهب:
- 570 ..... ابن القاسم: ابن القاسم:
- 570 ..... أشهب: أشهب:
- 571 ..... عبد الله بن الحكم: عبد الله بن الحكم:
- 571 ..... ابن الفرات: ابن الفرات:
- 571 ..... الليثي: الليثي:
- 572 ..... ابن الماجشون: ابن الماجشون:
- 572 ..... كتب المذهب المالكي: كتب المذهب المالكي:
- 572 ..... إشارة . إشارة .
- 572 ..... المدونة: المدونة:
- 578 ..... أصول الفقه المالكي: أصول الفقه المالكي:
- 579 ..... عمل أهل المدينة: عمل أهل المدينة:
- 581 ..... المصالح المرسله: المصالح المرسله:
- 582 ..... الاستحسان: الاستحسان:

- 584 ..... القياس:
- 584 ..... الرأى:
- 586 ..... إنكار الإمام الصادق للقياس:
- 588 ..... رسالة الإمام الصادق حول القياس:
- 590 ..... عصر مالك وحوادثه:
- 593 ..... الخراج فى عهد مالك:
- 596 ..... رسالة مالك:
- 599 ..... تدوين العلم
- 599 ..... أول من دون العلم:
- 602 ..... الشيعة و التدوين:
- 603 ..... أهل البيت أول من دون العلم:
- 604 ..... عهد الإمام علىّ لمالك الأشر:
- 605 ..... رسالة الحقوق للإمام زين العابدين:
- 606 ..... مسند زيد بن علىّ و مدونته الفقهية:
- 607 ..... عصر الإمام الباقر:
- 609 ..... عصر الإمام الصادق:
- 610 ..... حركة التدوين عند الشيعة:
- 612 ..... موطأ مالك:
- 614 ..... صحيح البخارى:
- 615 ..... صحيح مسلم:
- 616 ..... صحيح الترمذى:
- 617 ..... صحيح أبى داود:
- 617 ..... صحيح النسائى:
- 618 ..... صحيح ابن ماجة:
- 619 ..... عود على بدء:



620	الكتب الأربعة:
620	إشارة
620	1-الكافي:
620	2-من لا يحضره الفقيه:
620	3-4-التهذيب والاستبصار:
622	مسألة التفضيل
622	مالك ومسألة التفضيل:
624	الاختلاف في التفضيل:
626	العباسيون والتفضيل:
628	تطور الخلاف في مسألة التفضيل:
631	فضل عليّ و امتيازته وخصاله:
640	أقوال الصحابة في عليّ:
645	خلاصة البحث في مسألة التفضيل:
649	الشيعة والصحابة
649	تمهيد:
652	مسألة الصحابة:
652	إشارة
654	شمول الصحبة و مميزاتها:
654	إشارة
661	تعريف الصحابي و نقطة الخلاف:
663	موالاة الشيعة للصحابة:
664	الصحابة في حدود الكتاب و السنة:
666	قدامة بن مضعون:
667	سياسة عمر تجاه بعض الصحابة:
668	رواية الصحابي:

671 .....حديث أهل الصفة:

672 .....حديث أبي هريرة:

675 .....حديث أمهات المؤمنين:

677 .....تهمة سب الصحابة:

681 .....نهاية البحث:

682 .....الثبت قبل الحكم:

689 .....تعريف مركز

## الامام الصادق و المذاهب الاربعة المجلد 1

### اشارة

عنوان و نام پديدآور: الامام الصادق و المذاهب الاربعة / اسد حيدر

مشخصات نشر: دارالتعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان - 1422

زبان: عربى

مشخصات ظاهرى: 4ج

موضوع: امام صادق عليه السلام

موضوع: مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 1

### اشارة





عنوان و نام پديدآور: الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حيدر

مشخصات نشر: دارالتعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان - 1422

زبان: عربى

مشخصات ظاهري: 4ج

موضوع: امام صادق عليه السلام

موضوع: مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 4

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »

توبه 19

ص: 5

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: 6



إلى صادق بيت الوحي. رضيع ثدى النبوة وريب مهد الإمامة. إمام الأمة بالحق و قدوة الأئمة بالصدق. إلى منهل شرائع الكتاب و سنة المصطفى. إلى سيدى الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه صلوات من ربه و رحمة. أرفع صحيفتى هذه و هى مجهودى الضئيل راجيا حسن القبول فهو غاية النجاح و منتهى الأمل و السعادة لعبدكم. أسد حيدر



فى ساعة من ساعات الفراغ أويت لمكتبتى، أروح النفس من عناء الدراسة الشاقة بمطالعة كتب السير و التاريخ، و كل كتاب تناولته لم أجد فيه بغيتى و رغبت عن مطالعته من دون أن أعرف السبب الحقيقى لذلك، حتى وقعت على مقدمة ابن خلدون بدون مقدمة، و كأنه كان هو المطلوب دون غيره. فطالعتة و ما كنت مستوفيا أبحاثه من قبل، فراقنى أسلوبه و جذبنى تعبيره، و لم أستوف الغرض من مطالعته حتى فوجئت بهذه الكلمة القاسية و القول المؤلم: «و شذ أهل البيت فى مذاهب ابتداعوها و فقه انفردوا به». فأخذتنى الدهشة استغرابا، إنها لجرأة على مقام أهل البيت، و أصبحت عند ذلك «كالمستجير من الرمضاء بالنار». و هناك نسيت ترويح نفسى و تجردت عن العوامل التى دعتنى إلى ملاقة هذا الرجل و الاجتماع به، و شعرت أن الرجل كان منقادا للعاطفة العمياء فى هذه الجرأة، و جعلت أعلل نفسى فى البحث عن المذاهب الإسلامية و تكوينها، و بيان مذهب أهل البيت و مكانته فى التشريع الإسلامى، و بقيت الفكرة تخامرني و أتى لى بتحقيقها، و أنا تحت سلطة شواغل لا تعرف الرحمة، و لا تحلم بالعدل، و لكن إذا أراد الله شيئا هيا أسبابه، فتسلمت رسالة من صديق فاضل من أهل الموصل هو الأستاذ هاشم زين العابدين الصرّاف الموصلى كنت قد اجتمعت به خارج النجف الأشرف، و اتصلت به اتصالا- و ثقيا، و دارت بيننا أبحاث يطول ذكرها، و كان يطلب فى رسالته أن أذكر له شيئا عن حياة الإمام الصادق، لأنه لا يعرف عنه، إلا أنه ابن محمد الباقر أستاذ أبى حنيفة. و هذا ما حفزنى على نشر الحقيقة بالبحث عن حياة الإمام الصادق عليه السلام

و بيان مذهب أهل البيت، و فقههم الذى انتشر فى عصره، و لا يتسنى لى الدخول فى هذا المضممار دون أن أتعرض لذكر المذاهب الإسلامية و نشأتها و التعرف على أئمتها بدراسة حياتهم دراسة تاريخية إظهارا للحقائق، و خدمة للحق، فوضعت هذا الكتاب و قد منحتة وقتا من أوقاتي، بالرغم من تلك العراقيل الشائكة التى كدستها الظروف فى طريق الوصول إلى الغاية، و واجهت المصاعب و جها لوجه، فجاء هذا المؤلف فى عدة أجزاء متتالية و موسوعة كبيرة، و قد أعطيت فيها صورة واضحة عن تلك العصور التى لها أثرها فى إيجاد عوامل التفرقة بين المسلمين، و التى فسحت المجال لخصومهم فى التدخل بين صفوفهم بدافع التشفى و الانتقام لبث روح العدا و التباغض. و لم أجهد نفسى فى إبراز الكتاب مؤنق العبارة رشيق اللفظ، و لئن فاتنى التفوق فى الإنشاء و سعة الخيال و مهارة الفن فى إبرازه فلن يفوتنى إخلاص النية، و صدق القول و الثبوت فى النقل و الاتزان فى الرد، فهو بهذا الشكل أتقدم به خدمة لأهل البيت عليهم السلام بما استطعته، و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب. النجف الأشرف 1375 هـ - 1956 م أسد حيدر

صدر هذا الجزء وهو الأول من كتابنا (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) فكان الإقبال عليه يبعث على التشجيع ومواصلة البحث، و المضى فى خوض هذا الموضوع الشائك الذى يتطلب دراسة عميقة، وتحمل مصاعب، بعزيمة لا تستكين لصعوبة، ولا يحد من قوتها ملل. وإن موضوع البحث عن المذاهب قد أحيط بغموض وملاسات، وكان من وراء ذلك حصول مشاكل فى المجتمع الإسلامى، تحتاج إلى حل وعمل جدى، وتفكير صحيح، ليزول ما خلفته تلك العصور من ترسبات، وما أودعت فى المجتمع من أفكار، نتيجة للتعصب، مما أدى إلى وقوع حوادث مؤلمة، جرت على الأمة بلاء الفرقة، إذا اتسعت فيها شقة الخلاف، ووجد أعداء الإسلام مجالاً واسعاً، لبث روح التباغض بين طوائف المسلمين، وأصبحت المفاهيم معكوسة، وعندها توارت الحقيقة وراء سحب الخصومات، من جراء النعرات الطائفية. وقد تكفل هذا الجزء لبيان الكثير من ذلك، بآراء حرة، وبيان مستفيض عما نجم من وراء ما أحدثته الخلافات من خطر على الجامعة الإسلامية. ومهما تكن أهمية هذا الموضوع فقد تناولته-قدر الاستطاعة والإمكان- بدراسة واقعية، مستفيضة الجوانب، تزيل اللبس، وترفع الغموض، فطالما رافق اللبس والغموض أكثر الدراسات التى صدرت فى هذا الموضوع؛ لأنها لم تكن خالية من نزعة التعصب، الذى جرّ على هذه الأمة ويلات الدمار، وعوامل الانهيار. وإنى أجد فيما لقيه الكتاب من إقبال واهتمام لدى الكتّاب والقراء جانباً يكشف أنى قد وفقت إلى ما صبوت إليه.

وكان من عناية الله و توفيقه أن يصدر من هذا الكتاب- في فترات متتالية- ستة أجزاء، تتكفل بالبحث عن المذاهب الإسلامية، ونشأتها و عوامل انتشارها، و التعرف على شخصيات رؤسائها، عن طريق الواقع مع إعطاء صورة عن الخلافات المذهبية، و الآراء الفقهية و الحوادث التاريخية، و غير ذلك مما له صلة بالموضوع. و قد نفذ الجزء الأول و الثاني حتى آخر نسخة منهما، قبل إكمال السلسلة فأصبح من اللازم إعادة الطبع مع كثرة الطلب، و شدة الإلحاح، من مختلف الجهات. و هذا هو الجزء الأول أقدمه للقراء الكرام بطبعته الثانية مع زيادة و تنقيح، راجيا منهم التنبه على ما يقفون عليه من خطأ، فإني لا أضمن لنفسى السلامة، مما لا يخلو منه مؤلف، و الله الموفق و منه أطلب حسن القبول و عليه الاتكال و هو حسبي و نعم الوكيل. النجف الأشرف 1383 هـ- 1963 م أسد حيدر

بسمه تعالى: يكاد يمر عقد من السنين على صدور الطبعة الثانية من كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» وها أنا ذا أستجمع بقايا قدراتي وأتحامل على نفسى لأعدّ الكتاب لطبعة ثالثة إن شاء الله بعد أن احتل مكانا مشرفا فى المكتبة الإسلامية. ولقد كانت «الطبعة الثانية» حكاية غريبة وتجربة صعبة بتفاصيلها وما كانت عليه من أخطاء وتلاعب حتى كأن يدا قصدت الإساءة والعبث بالكتاب. وما تعرضت إليه من نمط تجارى فى التعامل تمكن من تحقيق المصلحة المادية بلبوس من العاطفة وإظهار غاية شريفة روعى بها وضوح قصدى وذيوع منهجى فى إصدار الكتاب الذى أنفقت عليه ما أجهدنى تحصيله واستغرق منى شطرا مهما من حياتى. وخرج منى تاجر الكتب بالموافقة على قيامه بطبع الكتاب طبعة ثانية. وراح يطبع الكتاب بآلاف النسخ ويوزعها فى العالم الإسلامى ولم يراجعنى فى الأمور التى تتعلق بالإصدار أو الوفاء بالالتزامات التى ترتبت عليه. وقد طلب منى كثير من المخلصين أن أقوم بما يضمن حفظ الكتاب كأثر إلى جانب حقى الذى هو آخر ما أفكر فيه. زارنى مرة أحد السادة من الباكستانيين بصحبة صديق فى منزلى فى النجف الأشرف وطلب موافقتى على ترجمة الكتاب إلى اللغة الأردية لأن هناك إقبالا شديدا وطلبا كثيفا. ثم أذنت للعلامة السيد حيدر كراورى بترجمته وطبعه. وترجم الكتاب ونشر فى

لاهور و لم نتطرق حتى اليوم إلى شىء اسمه اتفاق أو شروط لأنى أعلم بدوافع الأخوة فى الباكستان. و فى آخر زيارة لى لبيروت كنت أتوقع من الناشر أن يأتينى و هو يعلم بوجودى و يعرف محل إقامتى فى بيروت ليؤدى ما عليه أو لأحصل منه على النسخ التى أحتاجها و التى هى من شروط الاتفاق، فإن من عادتى أن أهدي إخوانى العلماء و الباحثين فى بعض الأقطار الإسلامية نسخا من مؤلفاتى. و أقوم بالإشراف على إرسالها و طريقة إيصالها إلى بعض الأجزاء من الوطن العربى التى منع فيها الكتاب و أصبح اقتناؤه يعاقب عليه القانون فأضطر إلى شراء النسخ من المكتبات أو أحضر معرض الكتاب العربى الذى يقام فى الكويت و أشتري بضاعتى بمالى من جناح الناشر نفسه. و لقد كانت نواقص الطبع و أخطاء الطبعة مؤلمة تحزّ فى النفس و يوحى تكرار الأخطاء بأفكار لا سبيل إلى التغلب عليها، و لقد تطلب ذلك تحقيقا مرهقا و تدقيقا صعبا أوقعنى فى حال من الإرهاق و التعب المضنى فإن التحقيق يكون فى أعمال الآخرين و أسفارهم لدواعى الزمن و عوامل التاريخ لا فى عمل أناملك و نتاج فكرى و لا أقول بأنى استطعت تدارك كل ما فى الطبعة من خلل. و ختما أسأل الله العلى القدير أن يفسح فى الأجل و يمدنى بالعون لأكمل الجزء الثامن بعد أن أكملت الجزء السابع و توسعت فى أجزاء الكتاب و قد قدمت إعداد الأجزاء الستة للطبعة الثالثة على إنهاء الجزء الثامن و إنجازها. و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين و صلى الله على نبينا محمد و على آله الطيبين الطاهرين. أسد حيدر الكويت/ربيع الأول/1399



بقلم الدكتور حامد حفنى داود أستاذ الأدب العربى بكلية الألسن فى القاهرة > منذ أكثر من عشرين عاما استرعى التفاتى -و أنا أبحث فى تاريخ التشريع الإسلامى و العلوم الدينية- الإمام جعفر الصادق سليل البيت النبوى الكريم، و ما كان له من شخصية عظيمة فى الفقه الإسلامى و منزلة لا تجارى فى عالم الفكر العربى، و فى الجانب الروحى بصفة خاصة. فوضعت فى ذلك الوقت بحثا تناولت فيه جوانب من سيرته و علمه و منهجه الفكرى و الفقهى، و استغرق ذلك منى قرابة ثمانين صفحة. ثم عرضت الفكرة على أستاذنا المرحوم عبد الوهاب عزام، و هو من نفر القليل المشهود لهم- فى نظرى- بالقدرة على الجمع بين أخلاق القدماء و مناهج المحدثين. و لكن الأستاذ الوقور لم يكذب يسمع بعنوان البحث حتى علت وجهه السمع بسمة خفيفة، فهتمت منها كل شىء. . . فهتمت أن هذه الشخصية-على الرغم مما تحتله من مكانة عظيمة- هى مما يهم علماء الشيعة أكثر مما يعنى علماء السنة، و لو كان ذلك البحث فى مجال «الجامعة» التى يجب أن تكون أرحب صدرا مما تدعو إليه الطائفية المذهبية من تخصص أو تقرضه البيئة من مخططات محدودة ضيقة فى مجال الفكر. خامرتنى هذه الفكرة أمدا طويلا و كدت أن أعيش فيها و أخرج بها إلى الناس فى كتاب خاص، أردت أن يكون عنوانه «جعفر الصادق: إمام العلماء الربانيين و أول المبعوثين من المجددين» .

وعلى الرغم من كثرة ما كتبت و ما حصلت من مراجع حول هذه الشخصية العظيمة منذ عام 1943- فإن الدوافع البيئية والوجدانية لمن يعيشون حولي كانت تردني إلى الوراء و تحملني على اليأس أكثر مما تحملني على الكتابة والانطلاق في الموضوع. وقد ضاعف من الزهد في إتمام ما بدأت ما قرأته من أبحاث مهلهلة هنا وهناك حول شخصية هذا الإمام، فطويت صحافى و تركت الكتابة، و تأبيت على التعليق و الرد. و لكن يأبى الله سبحانه إلا أن يظل الحق حقا، و أن تكون قوته فوق طاقات الزمان و حواجز المكان. و هكذا بعد عشرين عاما قضت إثر انقطاعى عن الكتابة حول هذه الشخصية الفذة، تخللتها ألوان من التخبط المنهجي، و صور من الكتابات التى لا تقوم على أساس علمى، طالعتنا الأقدار التى تأبى إلا أن تضع الحق فى نصابه بمن يميظ اللثام عن وجه الحق سافرا، و يحمل السحب على الانتشاع بعد الذى طال من تلبد. كان هذا الفتح الجديد فى دراسة الإمام منذ عشرة أعوام حين خرج إلينا الباحث الأديب و العالم العراقى الحضيف الأستاذ أسد حيدر بالجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة»، و الذى تم نشره على ما يبدو من مقدمة الطبعة الأولى سنة 1375 هـ- 1956 م. فكان هذا الكتاب الجامع إيذاانا بإنهاء مرحلة التخبط حول سيرة الإمام الصادق، كما كان نقطة الانطلاق التى عرفنا من ورائها الكثير عن تاريخ «المذهب الجعفرى»، و ما بينه و بين المذاهب الفقهية الأربعة من صلات و روابط يجهلها الكثيرون من علماء هذه الأمة على الرغم مما حصلوه من ثقافات تاريخية و فقهية و فلسفية. و أول ما يسترعى التفاتنا من هذا السفر الضخم شموله و سعة آفاقه و استيعابه أكثر جوانب هذه الشخصية العظيمة، و لعل ذلك راجع إلى سعة اطلاع المؤلف فلا يكاد يرى رأيا لصاحب رأى حول شخصية الإمام إلا و أتى به، و لا قضية تتصل بالموضوع من قريب أو بعيد إلا و ساقها و ناقشها فى أسلوب أدبى أقرب ما يكون إلى الموضوعية و النهج الفنى و أبعد ما يكون عن التحيز المسف و التعصب الأعمى. و فى كتابات المؤلف و استرسالاته التحليلية حول هذا الموضوع- نلمس اتزان العالم الحضيف حين يهرع إلى كلمة الحق و يفر بنفسه عن كل ما يشوه هذه الكلمة. و إن من يقرأ صدر الجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» يقف على

عجالة دقيقة في الخلافة الإسلامية أرسلها المؤلف واضحة المعالم سافرة الأركان، يقرأها القارئ فيخيل إليه أنه يعيش في هذه الحقبة من التاريخ. إن هذا الأسلوب العلمي في علاج التاريخ الإسلامي خليق بأن ينال من النقاد الحظوة من التقدير، و خليق بأن يكون أساسا لما بعده من مؤلفات. إننا في حاجة إلى دراسة التاريخ دراسة علمية، و في حاجة أشد إلى دراسة المذاهب السياسية و الفقهية في صورة أعمق مما وصل إلى أيدينا لنقول للمحق أحققت و للمخطئ أخطأت. و تشتد حاجتنا إلى هذه الدراسة حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك القدر الذي لعبته السياسة الأموية و السياسة العباسية في تصوير المذاهب الفقهية، و حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك مدى ما أصاب الشيعة من عنت و اضطهاد في ظل هاتين الأسرتين الحاكميتين خلال ثمانية قرون كاملة. إن هذا الإحياء الصادق الذي يقوم به علماء الشيعة في صرح الثقافات الإسلامية يعتبر في نظري انعكاسا لهذه الثورة النفسية التي أشعلت نيرانها السياسة الأموية و العباسية في نفوس شيعة الإمام عليّ و الأئمة من بعده. و لقد كان اضطهاد هذه الشيعة بالقدر الذي خامر أعماق الإيمان و استقر في النفوس بحيث توارثه هؤلاء الشيعة في معارج التاريخ كلها و امتزج منهم بالدم و اللحم امتزاج الإيمان الصادق في نفوس المؤمنين. فالشيعة-من هذه الناحية بالذات-مؤمنون عقائديون و ليس إيمانهم من هذا النوع الذي يقف عند حدّ التقليد و القول باللسان. و هذا الإيمان العميق المسلك العقائدي الذي يحياه الشيعة في كل قرن هو-وحده-سرّ هذا النشاط المستمر الملحوظ في دعوتهم، و هو أيضا سرّ الانبثاقات المتلاحقة في مؤلفاتهم و هذا النفس الطويل الذي نلمسه في كتاباتهم. و لو شئنا أن ننصف المؤلف فيما كتبه عن «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» لاستوعب منا ذلك مجلدا، فقد أصدر المؤلف من هذا الكتاب ستة أجزاء كاملة مهد في أولها للتاريخ الإسلامي و الأدوار التي لعبها في خلق الأحداث المؤثرة في كيان المذاهب الفقهية، و كيف كانت حياة الإمام الصادق منها، و أين كان يقف المذهب الجعفري، ثم مدى تأثيره في المذاهب الأربعة الأخرى، و مدى ما بينه و بينها من خلافات أكثرها في الفروع و قليل منها في الأصول.

نعم لو أردنا أن نصف المؤلف فيما أطرف به مكتبة التاريخ، وفيما أطرف به مكتبة الفقه لاستوعب منا ذلك قرابة المجلد الكامل. ولكننا نكتفى من هذا القدر العظيم بالإشارة السريعة التي ترسم بعض معالم هذه الصورة العلمية عن الإمام الصادق، معبرين فيها عن مشاعرنا إزاء هذا النهج القويم الذي سلكه المؤلف في سفره الضخم. ولعل أروع ما يستوقف النظر ويطمئن الناقد على ما بلغه المؤلف من توفيق في هذا الكتاب إرساؤه القواعد في مشكلة الخلافة التي أشرت إليها آنفا. وأنا في هذا الصدد-أوافق المؤلف أن المشكلة بدأت في خلافة عثمان حين انتهز بنو أبيه خلافته فعبثوا بمصائر البلدان الإسلامية. ولكنى كنت أود أن يبدأ حديث الخلافة ومشكلتها في الصورة الجذرية التي بدأت بانتقال الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى. وقد أنصف المؤلف تاريخ الإمام «عليّ» حين صور المشاكل التي كانت تحيط بخلافته من خروج أم المؤمنين «عائشة» إلى مؤامرات «معاوية» وعبثه بشخصيتين كبيرتين هما: «طلحة» و«الزبير» حين بايعهما لا لذاتهما ولا لسبقهما في الإسلام ولكن ليجعل منهما جسرا لمعارضته وموضوعا لبث أهوائه الشخصية، إلى غير ذلك من المطالبة بدم عثمان وعليّ برىء من هذا الدم. وقد كانت هذه المشاكل من الكثرة بالقدر الذي استعصى على فلاسفة التاريخ من عرب ومستشرقين، فأخطئوا فهم شخصية «الإمام عليّ» ونزعوا عنه صفة السياسة واكتفوا بوصفه بالورع والزهد. ولكن اجتهاد الإمام عليه السلام ونزوعه الشديد إلى منهج التوفيق بين الورع في الدين والصراحة في السياسة كان فوق مدارك هؤلاء المؤرخين. وكم كنت أود أن يشير مؤرخنا البارع إلى مهارات المستشرقين وضحالة تفكيرهم في إدراك معنى «التكامل النفسى» - كما أسميه - فى شخصية «الإمام عليّ»، وهو القدر الذى أخطأ فيه «جولدتسيهر» وغيره. ونحن نرى أن انتصار معاوية على الإمام إنما هو صورة من صور الثأر والتآمر التى نزع إليها الشرك بعد أن غلبه الإسلام، فهى على حد تعبيرنا قصاص المتمسلمين وأدعياء الإسلام من المسلمين المؤمنين حقا وهم الذين قتلوا آباءهم وأجدادهم من أجل الحق وإعلاء كلمة الإسلام. ولا أحب أن أطيل فى التعليق على هذا الكتاب القيم الذى أعتبره دائرة معارف عامة وموسوعة قيمة فى تاريخ المذهب الجعفرى والمذاهب الفقهية لا غنى للباحثين

عنه. و أوثر في ختام هذه الكلمة أن أنه بما كتبه المؤلف عن محمد بن إسماعيل البخارى و كتابه في الحديث. و قد لاحظت في تعليق المؤلف على «البخارى» جانبين: جانب موضوعى و هو الذى تناول فيه المؤلف الأحاديث الموجودة فى هذا الصحيح كما تناول أسانيدها و رجالها. و جانب اجتهادى تحدث فيه المؤلف عن انصراف البخارى عن الأحاديث التى تروى فى فضائل بيت النبوة. أما الجانب الأول فنحن فيه على اتفاق تام، ذلك لأن أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لم تدون فى حياته إلا ما روى عن صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص، و من ثم لا بد من أن يخضع الحديث سندا و متنا للنقد النزىه، فما وافق منه القرآن الكريم و روح السيرة النبوية العطرة جزمنا بصحته، و ما كان بعيدا عنهما صار موضع نظر، و هنا يأتى -فقط- الخلاف بين نقاد الحديث. و أما الجانب الثانى -و هو الذى يتلخص -ظاهرا- فى إعراض البخارى عن الأحاديث المروية عن أئمة آل بيت النبوة. فإنى أرى فيه رأيا لا أُلزم فيه أخى المؤلف. ذلك أن هذا الإعراض عن أحاديث هؤلاء السادة هو من أفعال القلوب التى لا تستطيع الحكم عليها إلا بعد الاستقصاء التام، و كما نستطيع أن نقول: إن إعراضه عن الأحاديث المروية عن الأئمة كان آتيا بدافع عدم التوثيق، نستطيع -بلا شك و لا ريب- أن نقول: إنه امتنع عن روايتها خوفا و فرقا من حكام العباسيين الذين كانوا يناصرون آل محمد العداء. و هو يعلم أنه لو روى عنهم لأهمل كتابه فى حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، أو لقضى عليه و قبر و هو فى مهده. فإذا كانت الشجاعة الأدبية قد تخطت الإمام البخارى فيما يتعلق بأحاديث فضائل آل محمد فإن ذلك لا يقضى على ما بذله من جهد و لا أقل من أن يقال فى هذا الصدد: إنه اجتهد و أخطأ، و لعل إهماله لهذا الجانب من الأحاديث كان درءا لما يخشاه من سطوة الحاكم، فاكتفى من ذلك أن يقر بقلبه دون المشافهة باللسان و التسجيل بالقلم و ذلك ما يطابق أضعف الإيمان. هذا إن ثبت خوفه من حكام ذلك العصر -و إلا فإننا لا نستبعد أنه حاول الرواية عن رجال البيت النبوى و استعصى ذلك عليه بسبب ما كان يضربه الحكام حول أفراد هذا البيت من سياج منيع ليحولوا بينهم و بين اتصال طلاب العلم بهم، و نحن نعرف مدى اضطهاد الحكام لهم و حقدهم عليهم.

وقصارى القول فإن إغفال البخارى لهذه الأحاديث لا يضعف من شأنها ولا ينقص من قدرها وقد رواها أصحاب السنن، كما أن ذلك-  
علميا- لا يصبح دليلا قاطعا على موقفه من الأئمة رضوان الله عليهم. و إنى لأرجو الله سبحانه أن يأتينا فتصفح ما فاتنا من صفحات هذا  
الكتاب القيم، متمنين لمؤلفه العلامة الأستاذ أسد حيدر التوفيق والسداد فى إتمام ما بدأ، وإنا لمنتظرون. دكتور حامد حفى داود

ص:20







## بنو أمية في عهد عثمان:

أتاح القدر لبنى أمية فرصة نادرة، إذ انتخب عثمان (1) خليفة للمسلمين بعد عمر بن الخطاب، فأصبح زعيم الأمة ورب دستها المطاع، و أميرها المسلط و خليفة صاحب الرسالة، و بذلك برقت لهم الآمال من بين ظلمات اليأس، و تنشقوا روائح الراحة فتعلقوا بعري الفوز، و طلع فجر ليلهم الذي باتوا ينشدون فيه أملهم الضائع و يأسفون لحزبهم الفاشل. بعد أن خاب كل أمل في نيل بغيتهم لإعادة ذلك الحزب المنحل، و المنهزم في ميدان المعارضة للحق. و لكن الأقدار تجرى بين عشية و ضحاها لامتحان الخلق و غربلة الناس فإذا بهم يسوسون الأمة و يتلاعبون بالإمرة. و لسنا بصدد البحث عن حوادث عهد الخليفة عثمان، و ما فيه من بلاء و محن و ما لقي المسلمون من أبناء أبيه. عند ما أصبح مروان بن الحكم (2) أمينا عاما و وزيرا خالصا للخليفة الجديد،

ص: 23

1-1) عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس و أمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، بويع له بالخلافة سنة 23 هـ- و 24 هـ- و قتل صبيحة الجمعة 18 ذى الحجة سنة 35 هـ- فكانت خلافته 12 سنة و حوصر في داره 22 ليلة و دفن في حش كوكب مقبرة لليهود و اختلف في عمره فقيل 90 و 88 و 75 و 86 و 63 انظر الطبري ج 2 [1] حوادث سنة 35.

2-2) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد يوم أحد و قيل عام الخندق و قيل بالطائف. قال ابن عبد البر: ولد على عهد رسول الله (صلى الله عليه و آله) سنة 2 من الهجرة و طرد رسول الله أباه و هو طفل لا يعقل، و بهذا لا تثبت له صحبة. و يعرف مروان بخيطة الباطل و لما بويع بالخلافة قال فيه أخوه عبد الرحمن بن الحكم: لحا الله قوما أمروا خيطة باطل على الناس يعطى ما يشاء و يمنع و نظر إليه على (عليه السلام) فقال: ويلك و ويل أمة محمد منك و من بنيك، بويع له بعد معاوية بن يزيد سنة 64 هـ- و مات سنة 65 هـ- قتلته زوجته أم خالد بن يزيد و هو معدود فيمن قتلته النساء- انظر ابن عبد البر ج 3 ص 428 [2] بهامش الإصابة [3] ط الأولى سنة 1328، و الحكم بن العاص نفاه النبي (صلى الله عليه و آله) إلى الطائف ثم أعيد إلى المدينة في خلافة عثمان و روى الزهري و عطاء أن أصحاب النبي (صلى الله عليه و آله) دخلوا عليه و هو يلعن الحكم فقالوا: يا رسول الله ماله؟ قال: دخل على شق الجدار و أنا مع زوجتي فلانة فكلح في وجهي، و مر النبي (صلى الله عليه و آله) بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي (صلى الله عليه و آله) باصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغا فزحف مكانه. و مر الحكم يوما فقال (صلى الله عليه و آله): ويل لأمتي مما في صلب هذا. و من حديث عائشة أنها قالت لمروان أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله لعن أباك و أنت في صلبه و طرده النبي (صلى الله عليه و آله) و نفاه إلى الطائف و مات في خلافة عثمان سنة 32 هـ- و ضرب فسطاطا على قبره و عاب الناس عليه ذلك- انظر الإصابة ج 1 ص 346. [4]

يحبى بالأموال ويختص بخمس الغنائم ويتنعم بأموال الأمة بعد ذلك الشقاء، ويتقلب بأحضان الراحة بعد العناء. والأغيلة الذين على أيديهم هلاك الأمة، يتولون الحكم ويتلاعبون بالإمرة كتلاعب الغلمان بالكرة، وينزون على منبر رسول الله نزو القردة (1). فلنترك ذلك العهد وما فيه من أحداث وحوادث، ولا نناقش ذلك الانتخاب الذي فاز فيه عثمان، لا بسابقة في الإسلام، ولا قرابة في رحم، وما هو بأولى من على عليه السلام لو كان هناك انتخاب حر ومقاييس صحيحة. نعم لا نريد أن نتعرض لما خلفته تلك الأحداث من آثار مؤلمة، وأوضاع شاذة مما دعا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مقاطعة الخليفة، عند ما أصبحت مقاليد الحكم بيد بنى أبيه، فعم الاستياء جميع الأقطار الإسلامية مما أدى إلى قيام ثورة مخضت عن قتل عثمان في داره، ومبايعه على عليه السلام وانتصار معاوية بعد قتله وقد خذله في حياته.

ص: 24

---

1- 1) حديث-اخرج ابن جرير في تفسيره قال: رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنى الحكم بن أبى العاص ينزون على منبره فسأه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات وأنزل الله في ذلك: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ [الإسراء: 60] و [1] أخرجه السيوطى فى اللؤلؤ المنشور من حديث عبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن على وغيرهم (و طرق هذا الحديث كثيرة).

وجد معاوية (1) نفسه بدائرة ضيقة بعد قتل عثمان و مبايعة على بالخلافة أ يعلن معارضة على؟ و قد عقدت بيعته على أكمل وجه و ناصره أصحاب محمد. و القلوب تغلى على بنى أمية، أم يدخل فيما دخل فيه الناس كارها كدخوله فى الإسلام هو و أبوه من قبل، و هو لا يجهل مكانة على و منزلته فى الإسلام فهو أول القوم إسلاما و أقدمهم إيمانا و أفضل الناس بعد رسول الله و أقربهم منه. و على قد طبعت نفسه على العدل لا تأخذه فى الله لومة لائم، و لا يستطيع معاوية أن يعمل فى عهد على عمله الذى يحاول به نجاح مهماته، و تأبى نفس معاوية أن ترضخ للعدل، و تستسلم للواقع، لأنه يعرف عليا و سيرته و خشونته فى الأمر. و على يعرف معاوية، و على أى طابع طبعت نفسه، و هو أدرى بحركاته و ما يهدف إليه فى دهائه الذى استطاع أن يستجلب به رضا عمر و يخاتل عثمان من قبل. إذا كيف يصنع معاوية؟ إذا اشتد جانب على و عظمت شوكته، فكان موقفه تجاه هذه المشاكل موقف حيرة و ارتباك، و دنياه حبلى و لا يعلم ما تلد فى الغد. كاد معاوية أن يفر من ميدان المعارضة لعلى لأنه أعزل من كل سلاح يستطيع به مقابلة على إن أعلن حربه، و ليس له حجة يستهوى بها قلوب الناس. بما ذا يدعى معاوية و أى أمل له بالخلافة و الإمرة على المسلمين؟ و هو يعرف نفسه و لا يفوته منها كل شىء، فهو ابن هند (2) و ابن أبى سفيان (3) زعيم المشركين و مثير الحرب على صاحب الرسالة.

ص: 25

1-1) معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد قبل البعثة بخمس سنين و قيل سبع سنين أسلم عام الفتح و مات فى رجب سنة 60 هـ - قال أبو عمر معاوية و أبوه من المؤلفلة قلوبهم و قال ابن أبى الحديد كان معاوية مطعون فى دينه انظر ج 1 ص 111 و قول الزمخشري فى ربيع الأبرار فى نسبه و كانت إمارة معاوية عشرين سنة و لاه عمر بن الخطاب الشام و حاسب عماله إلا معاوية و بعد وقوع الصلح تم الأمر لمعاوية فاستقل مدة عشرين سنة.

2-2) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد مناف و الدة معاوية - كانت تثير شعور المشركين بأراجيزها فى حروبهم على النبى و تشجعهم هى و باقى نساء المشركين و كانت ترجز يوم أحد (نحن بنات طارق) و بذلت لوحشى ما يحب أن قتل حمزة عم النبى (صلى الله عليه و آله) فلما قتل مثلت به و استخرجت كبده فشوت منه و أكلت - انظر الاستيعاب [1] بهامش الإصابة ج 4 ص 426 و [2] توفيت فى عهد عمر بن الخطاب فى اليوم الذى مات فيه أبو قحافة و ولد أبى بكر الصديق.

3-3) أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس و أمه صفية بنت حرب الهلالية مات فى خلافة عثمان سنة 34 هـ - و قيل 31 هـ - و هو ابن ثمان و ثمانين سنة و كان يكنى بأبى حنظلة الذى قتل يوم بدر كافرا قتله على (عليه السلام).

نعم كاد معاوية أن يهزم ويخضع لسلطان علي و هو كاره له، ولكن خروج أم المؤمنين عائشة (1) و تقض طلحة (2) و الزبير (3) بيعة علي فتحا له باب أمل ارتج عليه من قبل، فأسرع بالكتاب إلى الزبير: (إني قد بايعتك و لطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق). و ليس له بغية بهذه البيعة إلا الفرار من علي و الخروج عن سلطانه، إذ لا يجد من نفسه قدرة على اتباع علي (فعلى مع الحق و الحق مع علي). و بهذه البيعة انتهى رأيه ليتخلص من المشاكل الشائكة، و وجد فسحة في الأمل و فرجا بعد الشدة ان انتصر حزب المعارضين لعلي عليه السلام.

ص:26

1-1) عائشة بنت أبي بكر الصديق زوجة النبي (صلى الله عليه و آله) أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ولدت بعد المبعث بأربع سنين دخل بها النبي (صلى الله عليه و آله) في السنة الثانية من الهجرة و هي بنت تسع سنين و توفى عنها و هي بنت 17 أو 18 سنة و ماتت سنة 58 هـ و قيل سنة 57 هـ و دفنت بالبقيع بأمر منها و أن تدفن ليلا و صلى عليها أبو هريرة.

2-2) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة و أمه الصعبة الحضرمية شهد أحدا و أبلى بها بلاء حسنا و لم يشهد بدرا و أخى النبي (صلى الله عليه و آله) بينه و بين الزبير و قيل بينه و بين كعب بن مالك و كان أحد أبطال الثورة على عثمان و قتل يوم الجمل مع عائشة قتله مروان بن الحكم أخرج البغوي بسند صحيح قال: لما كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال لا أطلب ثأري بعد اليوم فنزع بسهم فقتله و كان ذلك في جمادى الأولى سنة 36 هـ و مات و له أربع و ستون سنة و دفن بالبصرة ثم نقل لمكان آخر فيها- انظر الإصابة ج 2 ص 230 و [1] ابن كثير ج 7 ص 246. [2]

3-3) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشى أمه صفية بنت عبد المطلب أحد أصحاب الشورى الستة قتل يوم الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة 36 هـ و عمره 66 و لا يعرف قبره أما قبره الحالى الواقع فى مدينة الزبير قريبا من البصرة فقد شيد على الخطأ يقول ابن كثير فى تاريخه ج 11 ص 319 فى حوادث 386 ما هذا نصه و فى محرمها كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فإذا هم بميت طرى عليه ثيابه و سيفه فظنوه الزبير بن العوام فأخرجوه و كفنوه و دفنوه و اتخذوا عند قبره مسجدا و وقفوا عليه أوقافا كثيرة و جعل عنده خدام و قوام و تنوير. و يقول أبو الفرج ابن الجوزى فى المنتظم ج 7 ص 187 [3] فى حوادث سنة 386 ما هذا نصه: (فمن الحوادث فيها أن أهل البصرة فى شهر المحرم ادعوا أنهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتا طريا بثيابه و سيفه و أنه الزبير بن العوام فأخرجوه و كفنوه و دفنوه بالمريد بين الدريين و بنى عليه الأثير أبو المسك عنبر بناء و جعل الموضع مسجدا و نقلت إليه القناديل و الآلات و الحصر و السمادات و أقيم فيه قوام و وقف عليه و قوفا).

و هل كان معاوية في غفلة عن سلاح فاتك يستطيع به أن يأمل نجاح أمره و تكون له حجة في مقابلة على و هو الإعلان في الطلب بدم عثمان، و استبعد بعد ذلك عن تفكيره أو أنه غافل عنه، فهو بدهائه و مكره لا تعزب عنه هذه الفكرة، و لكن في نظر الواقع أنها فكرة خاطئة و حجة ليس لها برهان، فعثمان قتل بأيدي المسلمين، و ما هو ولى دمه، و ليس منه في شىء، و بنوه أولى بذلك، و لا يعزب عن معاوية مثل هذا فهو بحاجة إلى من يدعم حجته، و يؤيد هذه الدعوى الكاذبة، و لكنه جعل هذه الفكرة في جعبة آماله و لم يستطع استعمالها إلا بعد أن عرف نجاحها بيد غيره و استخدمها من قبل الآخرين فهذه أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر من تيم تعلن الطلب بدم عثمان الأموى، و هى التى فتحت باب المؤاخذة عليه و أزرها على ذلك قوم أراقوا بأيديهم دمه بالأمس، و هم يمسخون بها دموع الحزن المصطنعة اليوم ( و عثمانه إنه قتل مظلوما) دوت هذه الصرخة و إذا بالشام تقوم لها و تقعد. و قاموا بحركات عاطفية و أعمال تقليدية من دون وقوف على حقيقة الأمر و هم يشاركون قاتل عثمان فى الندبة عليه و يؤازرون من خذله فى الأمس و من حرص الناس على قتله.

### طلب معاوية بدم عثمان:

انتحل معاوية لنفسه حق الطلب بدم عثمان و انه أقرب الناس إليه و أولاهم بدمه، و ان عثمان قتل مظلوما و قد جعل الشارع لوليه سلطانا. إذا لمن يطالب معاوية و الكل مشتركون فى إثارة الناس عليه؟ و هؤلاء الذين يبكون عليه اليوم قد فتحوا عليه باب المؤاخذة من قبل و أعلنوا للناس انحرافه عن جادة الصواب، لسيره فى ركاب بنى أبيه، إذا فالأمر يحتاج إلى مزيد من التأمل و التفكير فليس لمعاوية غرض إلا مناوأة على و جعله هو القاتل وحده، و لم يلتفت إلى المعارضات التى قام بها أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم ضد عثمان، فإنهم عند ما لمسوا ميله لأبناء أبيه و اختصاصهم بالغنائم و توليتهم الأمر، و تقريب مروان بن الحكم و جعله أمينا للدولة، و إهانة بعض الصحابة و تبعيد آخرين- حتى أعلنوا مقاطعته و الغضب عليه، فهذا عبد الرحمن بن عوف (1) المناصر لعثمان و الباذل جهده فى انتخابه، هجره

ص: 27

1- 1) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى اسمه فى الجاهلية عبد عمر- و قيل عبد الكعبة. أمه الشفاء بنت عوف بن الحرث بن زهر ولد بعد الفيل بعشر سنين و كان من المهاجرين و شهد بدر و المشاهد كلها مع رسول الله (صلى الله عليه و آله) و هو أحد الستة أصحاب الشورى و كان من أهل الثروة الطائلة و خلف من بعده ألف بغير و ثلاثة آلاف شاة و مائة فرس و أوصى بأن يتصدق من ماله بخمسين ألف دينار و صولحت إحدى نسائه التى طلقها فى مرضه عن ربع الثمن بثلاث و ثمانين ألف انظر الرياض النضرة ص 389 و [1] كان عنده من الذهب ما كسر بالفؤوس و توفى سنة 32 هـ و قيل 31 هـ و دفن بالبقيع.

و أوصى أن لا يصلّى عثمان عليه (1) وكان يقول: عاجلوه قبل أن يتمادى فى ملكه، وقال لعلّى عليه السّلام: خذ سيفك و آخذ سيفى فإنه قد خالف ما أعطانى. و كان طلحة من أشد الناس على عثمان حتى كان عثمان يدعو ويقول: اللهم اكفنى طلحة فإنه حمل على هؤلاء و ألهم علىّ، و الله إنى لأرجو أن يكون منها صفرا و أن يسفك دمه (2).

### موقف عائشة و عمرو بن العاص:

و هذه أم المؤمنين عائشة تعلن معارضة عثمان، و تخرج شعرا من شعر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و ثوبا من ثيابه و نعلا من نعاله ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم و هذا شعره و ثوبه و نعله لم يبل بعد (3) فغضب عثمان غضبا شديدا حتى ما درى ما يقول، و كانت تقول: إن عثمان عطل الحدود، و توعّد الشهود، و أغلظت لعثمان و أغلظ لها، و قال: ما أنت و هذا إنما أنت امرأة، أمرتى أن تقرى فى بيتك، فقال قوم مثل قوله، و قال آخرون: و من أولى بذلك منها فاضطربوا بالنعال، و كان أول قتال بين المسلمين بعد النبى صلّى الله عليه و آله و سلم (4) و هذا عمرو بن العاص وزير معاوية و شريكه فى الأمر كان من الثائرين و المحرضين على عثمان يقوم إليه فى ملاء من الناس و يقول: إنك ركبت نهابير و ركبتها معك فتب نتب (5) و قال له: اتق الله يا عثمان، فقال له عثمان: و إنك هناك يا ابن النابغة قملت جبتك منذ عزلتكم عن العمل. و نودى من ناحية أخرى تب إلى الله (6) فخرج إلى فلسطين و أقام هناك و جعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة

ص:28

[1-1] البلاذرى ج 5 ص 75. [1]

[2-2] الكامل لابن الأثير ج 3 ص 86. [2]

[3-3] البلاذرى ج 5 ص 48. [3]

[4-4] البلاذرى ج 5 ص 84. [4]

[5-5] الطبرى ج 3 ص 369. [5]

[6-6] الكامل ج 3 ص 80. [6]

الغنم و لما بلغه قتله قال: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها (1). و جل الصحابة أظهروا الإنكار على عثمان لسوء ما ارتكبه بنو أبيه الذين حملهم على رقاب الأمة، و كان جيش مصر-الذى حاصر عثمان و اشترك فى قتله-تحت قيادة عبد الرحمن بن عديس البلوى من كبار الصحابة و هو ممن شهد الحديبية و بايع بيعة الشجرة، كما اشترك فى حصار عثمان جمع من أهل بدر كرفاعة بن رافع الأنصارى و غيره. و قتل نيار بن عياض و هو من الصحابة المحاصرين له. كما أن النصوص التاريخية مجمعة بالاتفاق على مكاتبة الصحابة من أهل المدينة إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلموا إليه فإن دين محمد قد أفسده خليفتمكم (2). و مهما يكن من أمر فقد أعلن معاوية الطلب بدم عثمان و لا يريد بذلك إلا إعلان الحرب على على عليه السلام، لأنه يبغض عليا بغضا لا يحمله قلب إنسان على وجه البسيطة؛ إن معاوية يبغض عليا لإيمانه و عدله، و على يبغض معاوية لنفاقه و ظلمه. لذلك سلك معاوية طرق المكر و الخداع و اتخذ أعوانا هم على شاكلته يثيرون الناس لحرب على عليه السلام بتهمة قتل خليفة المسلمين، و دب و هم هذه الفكرة فى أفئدة ضعفاء العقول و الإيمان، و أحاطوا بقميص عثمان ليكون عليه، و يتوقدون لطلب القود من قاتله. قدم قبيصة العبسى إلى المدينة رسولا من معاوية، فقال على: ما وراءك؟ قال: تركت قوما لا-يرضون إلا بالقود. قال: ممن؟ قال: من خيط رقبتك، و تركت ستين ألف شيخ سيكون تحت قميص عثمان، و هو منصوب لهم قد ألسوه منبر دمشق فقال على: أمنى يطلبون دم عثمان؟! (3)

### موقف معاوية من عثمان:

ما هذا العطف من معاوية على عثمان و هذه الرحمة المرتجلة. أين كانت عاطفة

ص:29

1-1 (1) البلاذرى ج 5 ص 74. [1]

2-2 (2) الكامل ج 3 ص 83 و [2] البلاذرى ج 5 ص 60 و الطبرى ج 3 ص 400. [3]

3-3 (3) الكامل ج 3 ص 100. [4]

معاوية على ابن عمه يوم كان محصورا و ترده أخباره، و يستنجده فلا يجيبه بشىء، و يستغيث به و كأن فى أذنيه صمم؟! .!! يحدثنا الطبرى (1) أن عثمان كتب إلى معاوية بن أبى سفيان و هو بالشام: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن أهل المدينة كفروا و خلعوا الطاعة، و نكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب و ذلول. فلما جاء معاوية الكتاب تربص به و كره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم و قد علم اجتماعهم. لا يريد معاوية نصره عثمان و إنما يحاول أن ينتصر المسلمون عليه فيقتل فتكون له وسيلة لنجاح الخطط التى رسمها ضد على و بنى هاشم، لأن الأمويين يحاولون أن يكيلوا لهم صاع الانتقام كل أذى، و كانوا فى حذر من تنازل عثمان عن العرش فتفشل ريحهم، و يخيب كل أمل لهم فى الأمر، لذلك كان مروان و باقى الحزب الأموى يقفون حاجزا دون تحقيق الأهداف التى أراد المصلحون الوصول إليها فى إبعاد المفسدين من الأمويين عن الحكم و تجرد الخليفة عن معاوتتهم، و كان الأمر المهم الذى يتطلبه إصلاح وضع الأمة هو إبعاد عثمان عن الحكم، و قد قام الإمام على بمعالجة الوضع و كلما أراد إصلاح أمر عثمان بالاتفاق بينه و بين الثائرين، من طريق التفاهم و إيقاف تيار الخلاف عند حده، كان الأمويون يسلكون طرق الشغب، و يوقدون نار الفتنة، فكانت مواعيد عثمان كلها فاشلة، و أعمال بنى أمية و فى طليعتهم مروان تزيد حراجة الموقف. و تضاعف الحال تعقيدا. و كان الخليفة المقتول يأمل من معاوية نصره فى تلك المشكلة و لكنه خذله بصورة لا مجال للتشكيك فيها. و لما ازداد نشاط الثوار عاود عثمان أمله فانتصر بمعاوية مرة أخرى، فأرسل معاوية جيشا تحت قيادة يزيد القسرى، و أمره أن يقيم بذى خشب و لا يتجاوز، و قال له: لا نقل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فإنى أنا الشاهد و أنت الغائب. فأقام الجيش حتى قتل عثمان، فاستقدمه معاوية إلى الشام، و إلى هذا يشير أبو أيوب

ص:30



الأنصاري صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقوله لمعاوية: إن الذي تربص بعثمان و ثبط يزيد بن أسد عن نصرته لأنت. فمعاوية بطلبه لثأر عثمان بعد موته و خذلانه له في حياته دليل على سوء نواياه و ما يقصده من وراء ذلك. و هو مخطط أموى للاستيلاء على السلطة و مقابلة على بكل وجه. و إن معاوية لا يقيم لقتل عثمان وزنا و لا يرى له قيمة و لكنها حجة استهوى بها أمة أخضعها لإرادته و سيرها كما شاء، و إلا فإن من قتلة عثمان من أصبحوا أنصار معاوية و حزبه و هو يعرف ذلك، و يعلم جيدا أن الإمام على أكثر الناس حرصا على الدماء، و أن ما كان من قواعد الولاية أن تكون البيعة ثم تفوض الأمور بالأموال و الدماء و كل الحقوق إلى صاحبها كما هو العهد في حكم من سبق الإمام، و لكن الأمر لم يكن الفصاخص أو الثأر لعثمان و إنما كراهية دولة الحق و سلطان الدين و قد جاء عليا ليعيدها بأصولها، و على من اليقين بالله و الثقة بدينه ما يجعله يجد في الخلافة أمرا يتعلق بالدين لا بالدنيا، و لذلك كان تجاوزه من قبل، فليس أمام معاوية إلا الخديعة و المكر و التظاهر بأمر هو من أدرى الناس بملابساته. و ليس لمعاوية نصيب من خصائص على و دين على، و عليه أن يظهر للناس بأمر مقبول يجند له كل ما يمكنه من الخديعة و الدهاء. و قد نجح معاوية في مخاتلته و مكره، فقد أصبح خصما لعلي عليه السلام و طرفا مقابلا، و التف حوله ضعفاء العقول الذين يحاولون الوصول لغاياتهم بكل وسيلة، فها هم يقومون في الأندية و المجتمعات، و يثون بين الأفراد و الجماعات يذيعون بين الناس أن خليفة المسلمين قتله على بن أبي طالب عليه السلام، و هم يبكون و يتألمون و استدرجوا لهذه الغاية من عرف بالنسك و وسم بالصلاح لتكون كلمته أوقع في النفوس، و سرت هذه الدعوى المفتعلة بخطى واسعة، و تلقتها النفوس الضعيفة بكل قبول فأصبح شتم قاتل عثمان على ألسنتهم، و هم يتقدون بنار الغيظ لطلب الثأر، و معاوية و حزبه يحركون شعور الناس بنشر قميص عثمان فيطول بكأؤهم و يعلو نحيبهم، و أقسموا أن لا يمسه الماء إلا للغسل من الجنابة و أن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان و من قام دونهم قتلوه. و جاء عمرو بن العاص إلى دمشق راجلا و معه ابنه و هو يبكي كما تبكي المرأة و يقول: و ا عثماناه أنعى الحياء و الدين حتى دخل دمشق، و انضم لجانب معاوية على

حرب على، وذلك لما بلغه بيعة على لأنه يكره ولاية على عليه السلام وبيعته (1) ولكنه اشترط على معاوية أن يعطيه ولاية مصر ما دام على قيد الحياة ثمنا لافتعاله واصطناعه التظلم لمقتل عثمان، فرضى معاوية بذلك ولا يهمه اشتراك عمرو بن العاص بقتل عثمان في التحريض عليه لهياج الرأي العام، كل ذلك لا يهم معاوية ما دام ابن العاص أصبح عدوا لعلى وكان أكثر اعتماد معاوية على المتمردين على الإمام على بن أبي طالب عليه السلام. وازداد نشاط خصوم على بهذه الفكرة وقويت شوكة معاوية، وعظم جانبه، وبرأ الكل من دمه إلا على وحده، وانقلب بعض المعارضين لعثمان والثائرين عليه من قبل إلى جهة الشفقة والحنان عليه.

## عائشة و عثمان:

و كانت أم المؤمنين عائشة تتطلع أخبار المدينة وهي في مكة، وقد تركت عثمان محصورا، فقدم عليها رجل يقال له أخضر فقالت: ما صنع الناس؟ قال: قتل عثمان المصريين، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون أ يقتل قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم؟! والله لا نرضى بهذا. فهي بهذه اللحظة متمسكة بالإنكار على عثمان وإن من رأيها أحقية المطالبين لعثمان، والثائرين عليه ثم لقيها رجل آخر فسأله ما صنع الناس؟ قال: قتل المصريون عثمانا. قالت: العجب لأخضر زعم المقتول هو القاتل ولم يظهر إلى هذا الحد منها تغير وتبدل، ولكن عند ما بلغها قتل عثمان وبيعة على عليه السلام وهي تريد الخروج إلى المدينة نادى: ردونى إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا بدم عثمان (2). ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك (تعنى عليا) ردونى قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه. فقال لها الرجل: ولم؟! والله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر، قالت: قلت وقالوا، وقولى الأخير خير من الأول فقال لها:

ص:32

[1-1] الكامل ج 3 ص 129. [1]

[2-2] الطبرى ج 3 ص 369 و [2] الكامل ج 3 ص 102. [3]

فمنك البداء و منك الغير و منك الرياح و منك المطر

و أنت أمرت بقتل الإمام و قلت لنا إنه قد كفر

و التف حولها بنو أمية الذين هربوا إلى مكة، و جاء طلحة و الزبير فأيدوا هذا الرأي و انضموا لجانب عائشة، و من هناك تألف جيش البصرة، و كثر نعي عثمان و إعلان الحرب على على عليه السلام. فكانت حرب الجمل (1) و بعدها صفين تلك الحرب التي طال أمدها و عظم وقعها فلجأ معاوية إلى المكر و الخداع و انتهت بذلك التحكيم الذي جرى بغير ما أنزل الله ثم كانت حرب النهروان التي أثارها المارقون عن الدين و الخارجون على إمام المسلمين فانتصر عليهم و شتت شملهم. و ارتحل على عليه السلام إلى دار البقاء شهيدا بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه و أقام في الأمة العدل و سار بسيرة الرسول (صلى الله عليه و آله) و اهتدى بهديه فصلوات الله عليه و رحمته و مغفرته و رضوانه. و قام من بعده ولده الحسن عليه السلام بنص من أبيه من جهة، و اجتمع المسلمين على بيعته من جهة أخرى و هو ريحانة رسول الله و سبطه الذي خلفه في أمته، فكان ما كان من مقابلة معاوية له بإعلان الحرب عليه، و مقابله له بما يكره، و استعماله طرق الخداع و المكر لتفريق الناس عنه، ليضرب معاوية ضربه القاضية، و يتم له الأمر بالظفر و الغلبة. فكان من حنكة الحسن عليه السلام و حسن تدبيره تنازله للصالح ليوقف تيار غلبة معاوية عنده حده، فإن معاوية لو تم له الأمر بالغلبة لكان ما كان من أفعال انتقامية كما هو شأن الظافر الذي لا وازع له يحجزه عن ارتكاب ما يريد وقوعه في خصومه، و لكن الحسن عليه السلام قيده بشروط تقف حاجزا دونه و دون مآربه و تجعله لا يشعر بسلطة الظفر الذي يبيح ما يريد، و كان يثقل عليه وجود الحسن في الوجود فتوصل إلى قتله بالسم فإننا لله و إنا إليه راجعون و تم لمعاوية ما أراد (وإن ربك لبالمرصاد).

ص:33

---

1-1) كانت حرب الجمل في سنة 36 هجرية في جمادى الآخرة و قتل فيها من الطرفين عدد لا يقل عن عشرة آلاف و فيها قتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله و قد اشتهر عنه قوله أينما أصابت فتح و كذلك وقعة صفين ابتدأت في هذه السنة و انتهت في أمر التحكيم في شهر رمضان سنة 37.

ما كان معاوية يحلم يوماً ما بتلك العظمة فيتسنم عرش الخلافة الإسلامية، لقد كان صعلوكاً لا مال له، و ذليلاً تحت عزة الإسلام، و وسم هو و أبوه و حزبهم الفاشل بالطلاق، يوم فتح الله على نبيه و نصره نصرًا عزيزاً «و دخلوا في الإسلام و قلوبهم مملوءة بالحقد على الإسلام يتربصون الفرص لمحو سطورهم و قلع جذوره و ما تغير شيء من نفسيات أبي سفيان بعد دخوله في حضيرة الإسلام قلامه ظفر». فلا يستغرب من معاوية تلك المقابلة التي قابل بها علياً بوجه لا يعرف الخجل، لأنه وريث ذلك العداة المتأصل بين بني هاشم و بني أمية فتلك «عداوة جوهريّة ذاتية يستحيل تحويلها و يمتنع زوالها» فما أعظم محنة المسلمين و ما أشد بليتهم عند ما يعود أمرهم لخصوم لا يعرفون الرحمة، و لا عهد لهم بالعدل، و ناهيك بما في القلوب من حقد، و بما في النفوس من حب الانتقام، و قد آن الأوان لتحريك ساكن الغل و إظهار مكنون العداة. و إنه ليثقل على معاوية ذكر علي بخير، و تأبى نفسه أن يرى في الوجود أنصاراً لعلي يحفظون به وصايا محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و يرعون حقه، لذلك أصدر أمره إلى عماله عامة بنسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً و أهل بيته فامحوه من الديوان و أسقطوا عطاءه. فما أعظم بلاء الأمة عند ما فتح معاوية عليهم باب التشفى و الانتقام، و ما أكثر المأخوذين بهذه التهمة، و معاوية يحاول بذلك أن يوقع بين صفوف الأمة عداة تتوارثه الأجيال، و يبعث العصبية بين القبائل ليشق الطريق إلى غايته. و يحدثنا المدائني في كتاب الأحداث أنه كتب إلى عماله نسخة واحدة أن برأت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب و أهل بيته. و قام الخطباء في كل كورة ينالون من علي و يقعون فيه و في أهل بيته، و كان أشد الناس بلاء أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي، إذ استعمل عليهم المغيرة بن شعبة (1) ثم زياد بن سمية و ضم إليه البصرة فكان يقتل كل من اتهمه بحب علي،

ص: 34

1-1) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود المتوفى سنة 50 و كان أحد الدهاة استعان به معاوية و استعمله على الكوفة و كان عمر قد ولاه البصرة و عزله لقضيته مع أم جميل، قال قبيصة بن جابر: لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بالمكر لخرج المغيرة منها كلها.

و يهدم الدور و يقطع الأيدي و الأرجل، فكان ذلك الدور من أهم أدوار الإرهاب و الانقلاب على مفاهيم العدل الإسلامى و إحياء لدور الجاهلية فى قتل أهل التوحيد. و الذين على شاكلة معاوية أخلصوا له و قاموا بما يحب فأعلنوا شتم على و البراءة منه. فكان المرتزقة يتقربون إليه بذلك، و علماء سوء يوازره فى نشر الحكايات المفتعلة حتى أدت الحالة فى الشام بأن تختتم مجالس الوعظ بشتم على عليه السلام (1). و بعد ذلك فكر معاوية أن هذا العمل الذى يقوم به لا يثمر كثير فائدة لأنه عمل إرهابى و سرعان ما يتبدل الوضع، فضم لهذا العمل شيئاً آخر من تقريب خصوم على و المتظاهرين بعدائه و المعروفين بشيعة عثمان و إغداق العطاء عليهم و منحهم الصلوات الجزيلة، و رعايتهم و العناية بهم و تسجيل أسمائهم و أسماء عشائهم، ليكونوا فى محل الاعتبار، و رفع أسماءهم للبلاط الأموى ليشملهم بعطفه و يرعاهم بلطفه، فما أكثر المتقربين إليه خوفاً من شفرة السيف و ظلمة السجن، و ضيق اللحد و عناء المطاردة و التباعد. و قد تلقى شيعة على عليه السلام كل ذلك بصبر و ثبات، و تحملوا ظلم معاوية و جوره، و لم يتحولوا عن عقيدتهم أو تزل بهم قدم خوف الإرهاب و الفتك. ثم فكر معاوية بشيء يستطيع به إنجاح خطته عند ما يستعمل أولئك الدجالين و ذوى الضمائر الرخيصة لوضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالة بما تشاء نفسه و تتطلبه مصلحة ملكه، بدون التفات إلى مؤاخذه و عدم مبالاة بجريمة الكذب على الله و على رسوله، و لم تقف أمامه حواجز عند ارتكاب جرائم قتل المسلمين على الظنة و التهمة، و سلب الأموال، و هتك الأعراض، و سبى النساء، و هدم الدور، و إلقاء الجثث فى الطرقات، و القتل فى المساجد و أخذ البرىء بالسقيم، إلى غيرها من جرائم يتصدع لها قلب المسلم و تكاد نفسه تذهب حسرات. و ها نحن نتخطى عهد معاوية و لا نقف موقف المدقق الذى يريد حصرها فليس من غرضنا ذلك، و قد كفانا رجال التحقيق من علماء الأمة، و التاريخ الصحيح بيان ذلك إذ ليس لنا من الوقت ما يتسع لنشر تلك الصحائف السود و ذكر تلك الفضائع المؤلمة.

ص:35

فأعمال معاوية سجلها التاريخ عليه و هي بعيدة عن روح الإسلام و مجانية للعدالة، و إن ضرب الحصانة عليه باسم الصحبة بدعة في الدين و افتراء محض.

## بيعة يزيد و أعماله:

و مضى معاوية لسبيله مثقلا بأوزاره تاركا وراءه ولى عهد فرضه على المسلمين بشكل قسرى، كما فرض على نفسه الحلم الاصطناعي، و مداراة الناس ليحملهم على إجابته، و من سوء حظ الأمة أن يلي أمرها فاسق لا يعرف إلا الرذيلة و هو أشدّ خلق الله و ألعنهم (1) و سيعلم الذى مهد له ذلك أى نوعية قدم للمسلمين و ولاء رقابهم. و لا يستبعد من معاوية و كيدته للإسلام و محاربتة له من البداية إلى النهاية، أن يرشح يزيد لعلمه بما طبعت عليه نفسه من الفسق و عدم المبالاة بما يرتكبه، ليتم له نجاح الخطط التى رسمها معاوية فى حياته لمحاربة الإسلام و أهل البيت، و شرع فى تطبيقها فى حياته و عهد إلى يزيد لتنمو فى عهده فينال معاوية غرضه. فكان يزيد كما أراد أبوه فقد قام بدور خطر و مثل تلك العظائم التى يقف القلم عند بيانها. فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول الله و سبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل إنسان مهما اختلفت ملته و نحلته فضلا عن المسلم الذى يعرف الحسين و منزلته من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و مكاتته من الإسلام، و ما أعظمها من جريمة تقشعر لها الجلود و تذوب لها النفوس حسرات فكانت وقعة الطف سلسلة فجائع مروعة و نكبات أليمة، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

ص:36

1-1) مما يثير الأسى أن ينجم عن سياسة إضفاء الصحبة و طابع القداسة على معاوية و أمثاله الإيمان بالطاعة لأولى الأمر ممن ظلموا أو سفكوا دماء المسلمين و ما نتج من آراء بعدم الطعن بمعاوية أو لعن ابنه يزيد أو تكفيره أو حتى رواية قتل الحسين و ما جرى بين الصحابة لأنه يبعث على ذمهم و عندهم لا يجوز نسبة المسلم إلى الفسوق، بدون تحقق، بما ذا سيجيبون نبهم و هم يلقونه غدا؟ نعوذ بالله من خطل القول و زلل اللسان و كل ما يسخط رسوله (صلى الله عليه و آله) و يرضى أعداءه. أما أولئك الذين أفسد دينهم النصب و أعمى قلوبهم التعصب و وقعوا ضحايا حملات التضليل فمن فقد عقله راح يفصح عن سخائم سريرته، و من تزييا بزى العلم على طريقة علماء بلاط ملوك الأمويين فجاهر بالكفر بالتزامه سياسة يزيد فنشد فى وصفهم ما قاله الجوهري صاحب الصحاح و قد رمى الزمن أمامه من أمثال هؤلاء: رأيت فتى أشقرا أزرقا قليل الدماغ كثير الفضول يفضّل من حمقه دأبا يزيد بن هند على ابن البتول

وفى السنة الثانية أباح مدينة الرسول وأصبح جنده يجوسون خلال ديار الوحي ليفسدوا فيها و يهلكوا الحرث و النسل، يتدفقون فى شوارع ذلك البلد الطيب، يهجمون على البيوت، ليهتكوا أعراضا، و يسلبوا أموالا فلا- تزعجهم أصوات النساء المعولات على أزواجهن و أولادهن. و لم تلن قلوبهم لأنين الأطفال و ذعرهم. و ترى مخدرات ذلك البلد كأسراب القطا تتخطفها البراة الجارحة، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضارية، فهن تحت تصرف أولئك الوحوش ثلاثة أيام يفعلون ما شاءوا، و مروان بن الحكم ينظر الفجائع فيهتز طربا و مرحا يعجبه أن يرى شيوخ الصحابة و وجوه العرب و أبطال الإسلام يقادون لقائد الجيش ليأخذ منهم البيعة ليزيد بيعة عبودية. فبعين الله ما لقيت الأمة، و لا تخفى على الله خافية فى الأرض و لا فى السماء. و فى السنة الثالثة هدم الكعبة و لعلها أبلغ أمنية لنفس الأمويين و أعظم إنجاز لعائلتهم أن ينالوا من البيت الذى كان مهبط الوحي على ابن عبد الله (صلى الله عليه و آله) و قبلة الإسلام الذى قضى على مكائهم و أباد رجالهم، و حرم التوحيد و الإيمان، فبنار مجانيقهم يكون يوما بيوم هبل و اللات و العزى. هذا هو ولى عهد معاوية الذى عرف لياقته للحكم و صلاحيته للأمر. فلنترك عهده و نتخطى فظائعه بدون تفصيل فهى أشهر من أن تذكر، و إن ريك لبالمرصاد. فلم يطل عهده و أراح الله منه الأمة و الله شديد الانتقام.

### تحول الحكم من آل أبي سفيان إلى بنى الحكم:

و تحول الأمر من بعد يزيد بن معاوية من آل أبي سفيان إلى بنى الحكم لأن عهد معاوية بن يزيد (1) لم يطل و قد فر بنفسه من ولاية وراثتها بدون حق، و هو يعرف أهلها، و إن أباه و جده غاصبون لها، فصرح بذلك فى خطبته فقال:

ص:37

1-1) معاوية بن يزيد أبو عبد الرحمن و يقال أبو يزيد و يقال أبو ليلى استخلف بعهد من أبيه فى ربيع الأول سنة 64 و كان شابا صالحا و كانت مدة خلافته أربعين يوما و لم يخرج إلى الناس بعد هذه الخطبة و لا فعل شيئا و لا صلى بالناس و مات و هو ابن 21 سنة و قيل 23 و قيل غير ذلك و دفن بمقابر باب الصغير بدمشق و لما حضرته الوفاة قيل له أ لا توصى فقال: لا أتزود مرارتها و أترك حلاوتها لبنى أمية و لما دفن حضر مروان دفنه فقال أ تدرون من دفنتم؟ قالوا نعم معاوية بن يزيد فقال: مروان نعم هو أبو ليلى الذى يقول فيه الغزاري: إنى أرى فتنة تغلى مراجلها و الملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

إن هذه الخلافة حبل الله، وإن جدى معاوية نازع الأمر أهله، و من هو أحق به منه على بن أبي طالب عليه السلام وركب بكم ما تعلمون، حتى أتته منيته فصار في قبره رهينا بذنوبه، ثم قلد أبي الأمر، و كان غير أهل له، و نازع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم فقصف عمره، و انبتر عقبه، و صار في قبره رهينا بذنوبه. ثم بكى و قال: إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه و بس منقلبه، و قد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم و أباح الخمر، و خرب الكعبة. و لم أذق حلاوة الخلافة. فلا أتقلد مراتها فشأنكم أمركم و الله لأن كانت الدنيا خيرا فقد نلنا منها حظا و لأن كانت شرا فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها (1) ثم تنازل عن عرش أقيم على جماجم الأبرياء من المسلمين، و خلع بردا نسج على نول المكر و الخداع و التمويه، و فر بنفسه عن التلبس بتلك الجرائم فعفى الله عنه. و ولى الأمر مروان بن الحكم، بعد أخذ ورد و وقوع فتن في الشام و غيره و تعصب بين القبائل، و حروب في جميع الأقطار و كثرة الدعاة ضد بني أمية. فأصبح مروان خليفة المسلمين، و لم تطل أيامه و مات سنة 65 هـ - قتلته زوجته أم خالد بن يزيد، و هو معدود فيمن قتلته النساء. ثم جاء دور عبد الملك بن مروان، بويع له بعد أبيه و الأمور مضطربة و البلاد تموج من فوضى الأمويين و سوء سيرتهم، و عبد الله بن الزبير قارب أن يتم له الأمر، و المختار بن أبي عبيدة نهض لطلب ثار الحسين عليه السلام و نكل بقاتليه و مزقهم كل ممزق، و شفى صدور قوم مؤمنين، و قضى على علوج الشرك، و قتلة أولاد الأنبياء فرحمه الله و جزاه خيرا، فكان مجيء عبد الملك للحكم، مجيء فاتك لا يقف عند حد، و ناظم لا يعرف قلبه الرحمة، و ظالم لا عهد له بالعدل فكان دوره دور إرهاب و جور.

### ولادة الإمام الصادق:

و بهذا الدور في عهد عبد الملك بن مروان ولد الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام في ليلة الجمعة في السابع عشر من ربيع الأول سنة 82 هـ - و قيل في

ص: 38



غرة شهر رجب و الأمة الإسلامية تلاقى تلك الأحكام القاسية، وقد انتشر فيها دعاة الفساد، و تحكّم أئمة الجور، و استولى على الأقطار الإسلامية أولئك الجزارون الذين يتقربون لأنتمهم بضحايا البشرية بدون جنانية، و الأخيار من الأمة الذين ينكرون تلك الأعمال الوحشية عرضة للأخطار و محلا- للنقم. ولد عليه السّلام فى حجر الرسالة، و نشأ فى بيت النبوة، و ترعرع فى ربوع الوحي، و تربى بين جده زين العابدين و أبيه الباقر عليهما السلام. أقام مع جده على بن الحسين عليه السّلام اثنتى عشرة سنة، و قيل خمس عشرة سنة، و على رواية المدائنى ست عشرة سنة، و أخذ عنه فى حياته و تربى فى مدرسته. و بدون شك ان جده زين العابدين هو أفضل الهاشميين، و سيد أهل البيت فى عصره، و أعلم الأمة فى زمانه و أورعهم و أصدقهم حديثا، و بعد وفاة جده تفرد بتربيته أبوه الباقر عليه السّلام (1) و هو هو فى عمله و ورعه، فنشأ الإمام تلك النشأة الصالحة و هو خليفة أبيه، و المتحمل أعباء الإمامة من بعده و عاشر أباه بعد وفاة جده تسع عشرة سنة.

### نشأة الإمام الصادق:

ولا- شك ان الإمام الصادق نشأ فى وسط مجتمع لا يتصل بآل البيت إلا من طريق الحذر و التكتّم لشدة المراقبة التى تحوط بهم من السلطة الأموية، و شاهد طلاب العلم يتصلون بمدرسة جده و أبيه و هم بأشد حذر، لأن ذلك الدور لا يستطيع أحد أن يتظاهر بالاتصال بآل محمد و من عرف فى ذلك فإنما مصيره القبر أو ظلمة السجن إلى حيث الأبد. نشأ الصادق فى عصر تتنازع فيه الأهواء، و تضطرب فيه الأفكار و طغت فيه موجة الإحن و الأحقاد، و تلاطمت فيه أمواج الظلم و الإرهاب. و تقرب الناس إلى ولاية الأمر بالوشايات و الاتهامات فلا- حرمة للنفوس و لا- قيمة للدين و لا- نظام يشمل الرعية، بل هى فوضى و الأمراء يحكمون بما شاءوا و الرعية بين أيديهم ألعوبة لأغراضهم.

ص:39

وأشد الناس بلاءهم أنصار آل محمد وشيعتهم واتخذ خصومهم شتم عليّ سنة يتمون به فرضهم، فلا يدخل الداخل إلى مسجد ولا معبد ولا مجلس ولا حلقة علم إلا ويسمع تلك العبارات التي يعبر بها أولئك القوم عن سوء سريرتهم، ولا يكاد يصغى لخطيب أو قصاص أو واعظ إلا وكانت براعة استهلاله شتم علي عليه السّلام. فكان آل محمد يلاقون تلك المشاق ويواجهون تلك المصاعب بقلوب مطمئنة بما وعد الله الصابرين، وكل هذه الأمور شاهدها الإمام الصادق في نشأته، أو أخذ عنها من أبيه صورة واقعية بعد حدوثها حتى شمله العسف الأموي عند ما جرى به مع أبيه الباقر إلى الشام مقر الظالمين وموطن البغاة. فبعين الله ما لقيت الأمة الإسلامية وما لقي آل محمد الذين هم حملة العلم ومبلغى رسالات الإسلام. أدرك الإمام الصادق صلوات الله عليه ثلاث سنين من خلافة عبد الملك، وتسع سنين وثمانية أشهر من خلافة الوليد بن عبد الملك، وثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام من خلافة سليمان، وستين وخمسة أشهر من خلافة عمر بن عبد العزيز، وأربع سنوات وشهرا من خلافة يزيد بن عبد الملك، وعشرين سنة من خلافة هشام بن عبد الملك، وسنة واحدة من خلافة الوليد بن يزيد، وستة أشهر من خلافة يزيد بن الوليد، وبعده لم يبق خليفة للأمويين بعينه لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم في سنة 132 هـ. كل هذه الأدوار شاهدها الإمام الصادق، وهو يعيش وأهل بيته بتلك الدائرة الضيقة محاطا بالرقابة، وبتلك الاتهامات التي يحوكها ضده المتقربون لخصوم آل محمد، وهو يرى بين آونة وأخرى مصارع زعماء الشيعة وسجن آخرين ومطاردة السلطة لبقية السيف منهم، وكان يطرق سمعه مدة تسع عشرة سنة شتم جده على عليه السّلام وانتقاص آله، وكان يرى بعض ولاة المدينة يجمع العلويين يوم الجمعة قريبا من المنبر يسمعونهم شتم علي وانتقاصه، حتى ولى عمر بن عبد العزيز سنة 99 هـ - فرفع السب عن علي عليه السّلام كما سيأتي بيانه.

## عصر الإمام الصادق:

### إشارة

كانت نشأة الإمام الصادق نشأة خشونة وملاقاة مصائب، وخوض غمرات محن وبلاء، من ولاة أضاعوا الحق وظلموا الأمة، واتبعوا شهواتهم وأعلنوا العداء لآل

محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّمَ ومع هذا كله فإنه كان لا يمتنع من الجهر بالحق وإرشاد الناس وتحذيرهم من مخالطة أولئك الظلمة، وكان ينهى عن المرافعة إليهم وينهى عن الاختلاط بهم وإعاتهم فى شىء، والتولى لهم وقبول أى عمل منهم. وفى أيامه كان خروج زيد بن على فى الكوفة ولما قتل زيد كان يؤبنه بكلماته البليغة، ويلعن قاتله وذلك فى أيام هشام بن عبد الملك ذلك الجائر الذى أظهر العدا لآل أبى طالب بصورة إرهابية بعد قتل زيد، وأمر عماله بالتضييق عليهم، وأن تمحى أسماءهم من ديوان العطاء وملأ منهم السجون، وكتب لعامله يوسف بن عمر الثقفى بقطع لسان الكميت ويده لأنه رثى زيدا، كما منع العطاء عن أهل المدينة لاتهامه إياهم بالميل إلى زيد، وألزم آل أبى طالب بالبراءة من زيد، إلى آخر ما هنالك من فجائع وأمر كانت تحوط بالإمام، وتكد عيشه، ولكن عناية الله قضت بأن يزداد شعور الناس نحو آل محمد مع تلك المحاولات التى اتخذها الأمويون، فكانت هناك اجتماعات ومؤتمرات سرية سعى إلى انقلاب عام يزيل مملكة الأمويين وتحويلها لآل محمد، وانتشار الدعاة لهذه الفكرة وحصول خلاف بين الأمويين أنفسهم اضطربت الدولة، ودب فى جسمها الضعف، وأحاطت بها عوامل الانهيار، فكانت فترة سعيدة ولكنها كانت فترة مؤلمة فى الوقت نفسه، إذ كان الإمام الصادق يرى ما يصيب الدين الإسلامى من وهن وتشويه وانتهاك فانبرى لفتح أبواب مدرسته، وليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس، وبث الأحكام وتعاليم الدين فهو بين شيخوخة الدولة الأموية، وطفولة الدولة العباسية قام فى عصر ازدهار العلم لتعليم الناس حتى عد تلامذته أربعة آلاف رجل.

### المرحلة السعيدة:

وكان بيته عليه السلام فى تلك الفترة كالجامعة، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار فى الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه فى أغلب الأوقات ألقان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين. (1) وكان يؤم مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الأقطار النائية، لرفع الرقابة وعدم الحذر فأرسلت الكوفة والبصرة واسط والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ

ص: 41

أكبادها، و من كل قبيلة من بنى أسد و مخارق، و طى، و سليم، و غطفان، و غفار، و الأزدي، و خزاعة، و خثعم، و مخزوم، و بنى ضبة، و من قريش، و لا سيما بنى الحارث بن عبد المطلب، و بنى الحسن بن الحسن بن علي (1). و نقل عنه الحديث و استفاد منه العلم جماعة من الأئمة و أعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، و ابن جريح، و مالك بن أنس، و الثوري، و ابن عيينة، و أبي حنيفة، و شعبة، و أيوب السجستاني، و غيرهم، و عدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها و فضيلة اكتسبوها (2). و نالت مدرسة الصادق شهرة عظيمة ففي تلك الفترة السعيدة، كان هوزعيم الحركة الفكرية في ذلك العصر، و يعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية في الإسلام، و لم يكن يحضر حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة و المتفلسفون من الأنحاء القاصية (3)، و ستطلع على جوانب تكوين هذه المدرسة الكبرى و وجوه نشاطها المختلفة. و إن من جوانب عظمة الإمام الصادق أن ينهض في هذا الدور من التاريخ الإسلامي الذي شهد تلك الأحداث السياسية و التحولات الفكرية، و يقيم صرحا فكريا على قواعد دينية و مناهج علمية و هو يواجه سياسة الضغط و حملات العنف و يعالج روح الأمة و يتجه إلى أفكار أبنائها، و بقيت مدرسة الإمام الصادق- برغم سياسة الأمويين- في محو آثار أهل البيت جامعة تمد الرجال بعلوم الدين و زاد الإيمان، يتخرج منها الطلاب للدعوة إلى الحق، كما بقيت على استقلال نهجها و وضوح مناهجها في عهد العباسيين، و قد حفظت لنا مصادر التاريخ صورة لمكانة الإمام الصادق في عصره و مدى انتشار علمه في الأقطار الإسلامية، حتى كان اسمه في الحديث و الرواية من أمارات الصحة و علامات العلم، ففي كل مسجد من مساجد المسلمين المعروفة راح الرواة و المحدثون ينهلون من فيضه و كلّ يقول: حدثني جعفر بن محمد، حتى قال أحدهم: أدركت في جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين و الورع كلهم يقول: حدثني جعفر بن محمد.

ص:42

1-1) كتاب جعفر بن محمد لسيد الأهل.

2-2) كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في مطالب السنول ج 2 ص 55.

3-3) تاريخ العرب للسيد مير على الهندي ص 179.

ما كاد المسلمون يلمسون من الأمويين انحرافهم عن الدين واستهانتهم برجال الأمة، و محاربتهم أهل البيت حتى اشتد إنكارهم على تلك السيرة الملتوية و ذلك النظام الجائر الذي لا يعرف العدل و لا عهد للمسلمين به من قبل. و كانت نهضة الحسين عليه السلام صرخة داوية، فهي على دعاة الجور بركان بلاء و نقمة، و لدعاة الحق شعلة هداية و رحمة يستتيرون بها في طريق الوصول إلى الدعوة الصالحة، أعقبتها سلسلة ثورات دموية، مهدت الطريق لحدوث انقلاب الحكم و إبعاد أولئك القوم الذين تربّعوا على دسسته، فقد ثقلوا على الناس و طال عهدهم الجائر، فكان أفقهم مثقلا بسحب السخط على أعمالهم، فتألفت الجمعيات السرية التي كان هدفها تحقيق ثورة إصلاحية، لنقل الحكم من أمية-التي تعتبر في الواقع عدوة للإسلام من البداية إلى النهاية-إلى آل محمد الذين هم دعاة الحق و أئمة العدل. و كان العباسيون في طليعة أنصار العلويين، و كانوا أشد الناس حماسا لتحقيق ذلك الغرض. و كان لمحمد بن عبد الله بن الحسن نشاط سياسي في ذلك العهد، و بويح في مؤتمر عقده الهاشميون من العباسيين و العلويين، و أول من بايعه السفاح و أخوه المنصور. و مهما يكن من أمر فقد اندلعت نيران الثورة و هتافات الثوار: الدعوة إلى الرضا من آل محمد، فوقعت الواقعة بأمية و دارت بهم الدوائر، و زال ملكهم و أراح الله العباد و البلاد منهم، و تطلع المسلمون إلى العهد الجديد الذي يأملون به انتشار العدل و تطهير الأرض من الفساد، لا سيما إذا قام على رأس الدولة الجديدة زعيم علوي لا شك في حقه بالخلافة. فانتحل العباسيون أحقيتهم بالأمر و انهم آل محمد و أهله الأذنون.

وجرت الحوادث و دارت عجلة الزمن، و انتقل الأمر إلى بنى العباس الذين استغلوا شمولهم باسم آل محمد ثم انتحلوا انطباقه عليهم دون غيرهم، و بويع السفاح (1) فكان عهده عهد ثورة، و قد شغل الناس بمطاردة الأمويين و تتبع البقية منهم، و استطاع السفاح بمهارته أن يظهر للناس عطفه على أبناء عمه يكرامهم، و عدم التعرض لهم و هو يحاول بذلك جلب قلوبهم، و إقناع الأمة التي ترى أن الحق لهم دونه، و أنه أحد الأفراد المطوقين بالبيعة لآل على عليه السلام فافتضت سياسة الدولة الفتية أن يسير على خطة المجاراة لأبناء عمه، و التظاهر بأخذ الثأر من قتلة الحسين عليه السلام لمصانعة الناس الذين بدعوا يدركون بأن العباسيين كانوا يسعون في تحصيل الخلافة لأنفسهم باسم (آل البيت) و ما كانوا يقصدون بآل البيت إلا أنفسهم دون العلويين. تمويها على الرأي العام.

### المنصور:

### إشارة

و لم تطل أيام السفاح حتى مضى لسبيله و قد عهد بالأمر لأخيه المنصور (2) و هو ذلك الداهية الذي أعطته التجارب درسا من التيقظ و جعلته يحذر أشد الحذر حتى من أقرب الناس إليه. فقد قام المنصور و الدولة لم تركز دعائمها على أسس قوية فهي مهددة من نواح شتى: فالعلويون يرون العباسيين دعواتهم و أنصار دعوتهم و الأمة متجهة بأنظارها إليهم، و ان الأمر لهم دونهم، و قواد الثورة يرون أن قيام العباسيين بالأمر كحكومة مؤقتة يستطيعون أن يحولوا الأمر عنهم متى شاءوا، و بقية السيف من الأمويين يخشى على الدولة من انتشارهم في الآفاق. و كان علماء المدينة يجهرون بالفتوى بأن بيعة العباسيين غير صحيحة، فتعددت

ص:44

- 
- 1-1) السفاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع له بالخلافة سنة 132 هـ- و توفي بالجدري في الأنبار يوم الأحد 11 ذى الحجة سنة 136 هـ- و كانت خلافته أربع سنين و تسعة أشهر.
- 2-2) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس و هو أكبر من أخيه السفاح و أمه أم ولد اسمها سلامة و كان أكبر من أخيه أبي العباس بويع له بالخلافة سنة 136 هـ- و كانت خلافته 22 سنة و توفي سنة 158 هـ-.

صور معارضة العباسيين على أن أهم ما كان يثير القلق في نفس المنصور هو أمر العلويين، وفي طليعتهم جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) فكان يحذر منه أشد الحذر ويحاول زوال تلك العقبات بكل حيلة ولا يقف عند حد. و المنصور عند ما يلي الخلافة يرجع بتفكيره إلى الوراء و يتذكر سالف أيامه و ماضيه المحزن، يوم كان جوالاً، تتقاذفه أمواج الخوف، و تسوقه الحاجة و طلب العيش إلى رواية الحديث، و هو لا ينسى ضرب السياط و ظلمة السجن في عهد الدولة الأموية، و لا ينسى استعطف الناس بمدح آل محمد، و هو أحد رواة حديث الغدير (1) كل ذلك لا تتمحى صورته عن مخيلته فهو أمامه و معه.

## أعمال المنصور:

و الآن و قد أصبح أمير المؤمنين تجبى له الأموال من الشرق و الغرب و أودع في خزائنه ما يكفى للدولة عشر سنين بعد أن كان لا يجد درهما واحدا و تحوط به آلاف من الجنود، بعد أن كان يقطع المسافة البعيدة وحده خائفا فهو بحكم الغريزة النفسية يشح بما أوتي حتى على نفسه، فكان يرقع ثيابه بيده و يحاسب على الدائق، حتى عرف به، و يكون في حذر من أقل واهمة يتخيل بها زوال ملكه، فحصنه بالسيف، و جعل بينه و بين الخطر سورا من أشلاء الأبرياء و بحرا من الدماء التي حرم الله إراقتها. و قد اتخذ طبيبا نصرانيا يستعين به على قتل من لا- يود أن يتظاهر في قتله، فكان يدس السم بالدواء، فهذا الطبيب النصراني (كان زنديقا معطلا) لا يبالي بمن قتل، أرسل إليه المنصور يأمره بأن يقتل محمد بن أبي العباس. فاتخذ سما قاتلا ثم انتظر علة تحدث به، فوجد محمد حرارة فقال له الطبيب: خذ شربة دواء، فقال هيئها فهيأها له و جعل فيها ذلك السم ثم سقاه منها. فكتبت أمه تخبر المنصور فأمر بضرب الطبيب ثلاثين سوطا خفيفة و سجنه ثم أطلقه و أعطاه ثلاثمائة درهم (2). . هذه دية القتل في شرع المنصور. و هناك نوع آخر من ألوان العذاب الذي كان يعذب بها من وقع تحت قبضته، و هو وضع الأحياء في البناء، فهو اطلال الهاشمية و بغداد لو تمكنت من الإفصاح عن

ص:45

1-1) تاريخ بغداد ج 12 ص 344.

2-2) الطبرى ج 7 ص 309. [1]

شئ لكان أول شئ تقصحه عنه هي جثث الأبرياء الذين دخلوا في بطونها بدون جرم، وعند الله تجتمع الخصوم. لقد سلبت الرحمة من قلبه فلا يعرف لها فيه موزعا، و كان يقف أمام المشاهد المحزنة موقف رجل لا تؤلمه مناظر البؤس أو ترعجه مواقف الشقاء، وقد جمع بين دمامة الوجه وقبح السيرة. يمر موكبه عند ما أراد الحج بابنة عبد الله بن الحسن (عليه السلام) و كان أبوها تحت أسره و قد حمل مع من حمل من العلويين، فأرادت استعطافه، و الرفق بحال أبيها فأنشأت: ارحم كبيرا سنة متهدم في السجن بين سلاسل و قيود

و ارحم صغار بنى يزيد انهم يتموا لفقدك لا لفقد يزيد

إن جدت بالرحم القريبة بيننا ما جدنا من جدكم ببعيد

فكان جواب المنصور: أذكرتني. ثم أمر به فأحدر في المطبق و كان آخر العهد به. هذه صورة من جور المنصور و مساوته لم تعطفه عاطفة الرحم، و لم تدعه الإنسانية إلى الرحمة بهذه المسكينة، و لم يراقب القربى و حرمة النسب و ذل موقفها بين يديه، و كيف يؤمل منه العطف على أهل بيت ينظر إليهم نظر خصم ملاً قلبه عليهم حقدا و نفخ في أوداجه غضبا.

### مع المنصور و بنى الحسن:

إنه لا يرى لملكه بقاء إن بقى منهم أحد في الوجود، و كان الفتك بهم هو شغله الشاغل و لا يتوقف في تنفيذ إرادته مهما كلفه الأمر فقام بذلك العمل الإرهابي و فتك بهم فتكا ذريعا يوم دخل المدينة محتجا بأداء فريضة الحج، و ما الحج أراد و لكنه أراد أن يعرف حقيقة الأمر عند ما يقوم بمهمة الفتك بآل محمد. و ها هو يدخل المدينة و بنو الحسن في سجن رباح، فأمر بالقبض على من بقى منهم فترى شرطته و قواده يعلوهم الغضب، و يرتكبون الشدة، يأتون بأبناء على واحدا بعد واحد و يودعونهم في السجن بأشد ما يتصور من القسوة.



وكان العباس بن الحسن بن الحسن (1) واقفا على باب داره وأمه تراقبه وقلبها كجناح الطير من الخوف، فقبض عليه الشرطة، فأخذتها الدهشة ولم تستطع شيئا في الدفاع عنه، إلا أنها طلبت منهم أن تشم ولدها وتودعه، فكان الجواب بشدة وغلظة: لا يكون ذلك، وقبض على محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو بني الحسن لأهمهم، فأحضره أمامه وكلمه بما لا يليق ذكره، وأمر بأن يشق إزاره لتبدو عورته، وأمر بضربه بالسياط فضرب حتى سال دمه، وأرجعه لإخوانه فأقعد إلى جنب أخيه عبد الله بن الحسن، وكان قد أخذ العطش منه مأخذا فاستقى ماء فلم يجسر أحد أن يسقيه إلا خراساني رق عليه فسقاه ماء. ثم أصدر المنصور أمره بحملهم من المدينة إلى العراق، بعد أن أثقلوا بالحديد وضربوا بالسياط، وهو مطرب لنغمة السلاسل، وأنين المعدين، فسار ذلك الموكب في شوارع المدينة محاطا بالجنود، وهو يسرع الخطى من المدينة إلى الكوفة، إلى مقرهم الأخير فأودعوا ذلك السجن المظلم، الذي لا يعرف فيه الليل من النهار. لقد أودعهم المنصور في بطن الأرض، وفعل بهم ما لا يفعل الحيوان المفترس بفريسته، وعاملهم بأقسى ما يتصور من الشدة، فهم لا يعرفون الليل من النهار، وكان الواحد إذا مات من شدة العذاب بقيت جثته ما بينهم، وهم صابرون محتسبون، يتلون الكتاب، وقيمون الصلاة ولا يعرفون أوقاتها إلا بأجزاء من القرآن يقرءونها، وكانت خاتمة مطافهم أن هدم عليهم السجن فماتوا تحت أنقاضه.

### الإمام الصادق ومشاكل العهدين:

وعلى أي حال فقد لقي أبو عبد الله في هذين العهدين كثيرا من المشاكل، فهو في العهد الأموي عرضة لأخطار أولئك القوم الذين يكيدون آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويتوقعون الفرص للفتك بهم، وهو في عصره عميد البيت النبوي وسيد الهاشميين، والمبرز من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن رجال الأمة الذين كانوا يهتم الدولة أمرهم باتجاه الأنظار إليهم،

ص: 47

1-1) هو العباس بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب وأمه عائشة بنت طلحة الجود بن عمر بن عبد الله التيمي وكان العباس أحد فتيان بني هاشم وله يقول إبراهيم بن علي الشاعر: لما تعرضت للحاجات واعتلجت عندي وعاد ضمير القلب وسواسا جعلت أسعى لحاجاتي ومصدرها برا كريما لثوب المجد لباسا توفي في سجن المنصور سنة 145 هـ - لسبع بقين من شهر رمضان وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

و لا يستبعد من الأمويين أن يقابلوه بكل أذى و شدة، و لكن الله سبحانه و تعالى عصمه منهم، ورد كيدهم عنه. و لما دب الضعف فى جسم الدولة كانت فترة مريحة استطاع الإمام أن يركن إلى الراحة و الاطمئنان مدة من الزمن فتوافد عليه طلاب العلم من رجال الأمة كما مر ذكره. أما فى العهد العباسى فهو قذى فى عيونهم لأنه زعيم أهل بيت ثارت الأمة لأجلهم، و انهارت الدولة الأموية بالدعوة لهم، و رفعت شعارات البيعة لهم. و قد كان فى أيام السفاح برفاهية نظرا للظروف و الأوضاع التى سايرها السفاح بمقتضى سياسة الدولة. و فى زمن المنصور كانت المشكلة أشد مما هى عليه من قبل، فقد كان المنصور يقظا لا يفوته ما لجعفر بن محمد من المنزلة فى المجتمع، و يعظم عليه اتجاه الأنظار إليه، و قد عاشره من قبل و عرف منزلته و علمه لذلك كان حذرا منه أشد الحذر، و المخاوف تحيط به و الأوهام و الشكوك تساوره، كما أن الوشاة ملأوا سمع المنصور من الأكاذيب على جعفر بن محمد عليهما السلام مما جعله يحاول الفتك به، و كانت سياسة جعفر بن محمد و انعزاله و نظره إلى الأمور بعين الواقع برهنت على كذب أولئك الوشاة و خففت من سورة غضب المنصور قليلا و لكنها لم ترفع أصل الاتهام، فهو على حذر دائم لأنه يعرف مقام الإمام جعفر بن محمد و منزلته العلمية و مكانته الاجتماعية.

### اتهامات المنصور للإمام الصادق:

و مهما يكن من أمر فقد كثرت الوشاة على أبى عبد الله عليه السلام فأثارت من المنصور كوامن ضغنه و حركت عوامل غيظه، فحج فى سنة 147 هـ. و دخل المدينة و أمر الربيع بإحضار الإمام جعفر الصادق و قال له: ابعث إلى جعفر من يأتينا به تعباً قتلنى الله إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينسأه، ثم أعاد ذكره و قال: أرسل إليه من يأتينى به متعباً، فلما حضر الصادق عليه السلام أعلم أبا جعفر حضوره، فلما دخل عليه قابله بوحشية و كلام لا مجال لذكره. و قال: اتخذك أهل العراق إماما يجبون إليك زكاة أموالهم، و تلحد فى سلطاني و تبغى الغوائل، قتلنى الله إن لم أقتلك، فقال الصادق عليه السلام: يا أمير إن سليمان أعطى فشكر، و إن أيوب ابتلى فصبر، و إن يوسف ظلم فغفر. فقال أبو جعفر: إلى و أنت عندى يا أبا عبد الله البرىء الساحة السليم الناحية، القليل الغائلة، جزاك الله من

ذی رحم أفضل ما جزى ذوی الأرحام عن أرحامهم، ثم تناول يده فأجلسه معه ثم قال: عليّ بالمتحفة فأتى بدهن فيه غالية فخلقه بيده. ثم قال: في حفظ الله و في كلاءته. ثم قال: يا ربيع ألحق أبا عبد الله جائزة و كسوة. قال الربيع فلحقته فقلت له: إني قد رأيت قبل ذلك ما لم تره و رأيت بعد ذلك ما قد رأيت فما قلت يا أبا عبد الله حين دخلت؟ قال عليه السلام قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، و اكفني بركنك الذي لا- يرام، و اغفر لي بقدرتك عليّ، لا- أهلك و أنت رجائي، اللهم إنك أكبر و أجل ممن أخاف و أحذر، اللهم بك أدفع في نحره و أستعيد بك من شره (1). و تركزت في ذهن المنصور فكرة الفتك بجعفر بن محمد، لأنه يعلم أن مئات الآلاف يقولون بإمامته و تجبى له الأموال، و ينظر بعين العظمة و الاحترام، كما أن أكثر الملتفين حول المنصور و المؤازرين له يذهبون إلى القول بإمامته. و أراد امتحانه مرة ليكون له طريق في المؤاخذة. فدعا ابن مهاجر و قال: خذ هذا المال و آت المدينة و اتق عبد الله بن الحسن و جعفر بن محمد و أهل بيتهم و قل لهم: إني رجل غريب من أهل خراسان من شيعتكم، و قد وجهوا إليكم بهذا المال، فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط كذا و كذا فإذا قبض المال فقل: إني رسول و أحب أن يكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتم مني. و مضى فلما رجع قال له أبو جعفر: ما وراءك؟ فقال: أتيت القوم و هذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد فإني أتيت به و هو يصلي في مسجد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فجلست خلفه و قلت: ينصرف و أذكر له فعجل و انصرف، فالتفت إليّ فقال: يا هذا، اتق الله و لا تغرن أهل بيت محمد، و قل لصاحبك اتق الله و لا- تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان و كلهم محتاج، فقلت: و ما ذاك أصلحك الله؟ فقال: ادن مني فدنوت، فأخبرني بجميع ما جرى بيني و بينك حتى كأنه ثالثنا، فقال له: يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا و فيهم محدث و ان جعفر بن محمد محدثنا اليوم (2). و صعبت على المنصور تلك الطرق التي اتخذها جعفر بن محمد في حذره

ص: 49

---

1- 1) ابن الجوزي في صفة الصفوة ج 2 ص 96 و [1] ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ص 207 و [2] المفيد في الإرشاد ص

25. [3]

2- 2) ابن شهر آشوب ج 2 ص 302. [4]

و احتياطه عن أى مؤاخذه من المنصور له ليستحل بها دمه فإنه لم يبق طريقاً إلا سلكه، من إرسال الكتب المزورة عن لسان شيعة جعفر بن محمد يدعونه للنهوض وإرسال الأموال الكثيرة مع أناس استخدمهم المنصور لهذه الغاية عساه أن ينجح بموافقة جعفر عليه السلام فى قبض المال أو جواب الكتب، لتكون له وسيلة للقضاء على الإمام، ولكن تلك المحاولات ذهبت بدون جدوى و كان نصيبها الفشل. و إن المنصور ليهمه أمر جعفر بن محمد أكثر من غيره و له معه أخبار أهمل كثير من المؤرخين ذكرها، و كانت بينهما صلة أيام بنى أمية و عاشره فى خلافته أكثر من عشر سنين، و لقي فى هذه المدة جهداً و امتحن غير مرة، و كان الخطر محققاً به و المنصور لا يجهل مكانته عليه السلام، فهو الشخصية التى كان يتطلع إليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية، و كان لمدرسته حركة واسعة و نشاط علمى، و ازدحم عليه طلاب العلم، و اشتهر ذكره، و كان زعيم أهل الحديث فى معركة أهل الرأى و أهل الحديث كما يأتى بيانه. فكان المنصور يخشى خطر هذه الشهرة، و يحذر من حدوث انقلاب مفاجئ من قبل العلويين ينضم إليه علماء الأمة الذين اتصلوا بجعفر بن محمد و عرفوا منزلة أهل البيت، مع علمه بمعارضته لبيعة محمد بن عبد الله فإنه اعترض على هذه البيعة معلناً أنها جاءت سابقة لأوانها، و لكن المنصور يخشى أن يت رأس الإمام الصادق دعوة العلويين فيشتد الخطر على الدولة الجديدة. و لكن جعفر بن محمد كان بحدسه الصائب و نظره الثاقب يخترق الحجب و يستشف أحداث المستقبل و يخبر بكثير من الكوائن قبل وقوعها. فكان من رأيه عدم التعرض لطلب الأمر، و نهى قومه عن عقد تلك البيعة و كان ينصحهم فى التجافى عن شئون الدولة فى عصره، و قد عرض عليه الخلافة أبو سلمة الخلال وزير آل محمد فى بدء الدعوة، قبل وصول الجند إليه فأبى الإمام قبولها، و لم يفتح أبو سلمة بهذا الرد و حاول إقناع الإمام بكل صورة، و عند ما أقبلت الرايات كتب أبو سلمة إليه: إن سبعين ألف مقاتل وصل إلينا فانظر أمرك (1) فأجابه بالرد و أن الأمر للسفاح و للمنصور من بعده. كما أنه عليه السلام لم يستجب لما دعاه إليه أبو مسلم الخراسانى قائد الثورة فى

ص:50

بلاد فارس، وصاحب السلطان في ذلك الدور، فإن أبا مسلم كان يدعو الناس إلى الرضا من آل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأعلن غضبه على بني أمية لأنهم ظلموا أهل البيت، وأراقوا دماءهم، وأراد إسناد الأمر لآل علي عليه السلام لأنهم أحق بهذه الدعوة من غيرهم، فكتب إلى الإمام الصادق عليه السلام وهو زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره، وإليه تطلعت الأنظار، واتجهت القلوب -وقال في كتابه للإمام الصادق عليه السلام: إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فلا مزيد عليك. فأجاب الإمام الصادق عليه السلام: ما أنت من رجالي، ولا الزمان زمانى (1). فهو عليه السلام بنظره الصائب ومنهجه السديد، وعلمه بما وراء الحوادث، لا يرى أن يستجيب لدعوة لا تتركز على ما يؤمل فيه تحقيق أهداف الأمة الإسلامية وإصلاح الأوضاع الفاسدة، لعلمه بأن هؤلاء الذين أظهروا الولاء لم يكونوا مخلصين في ذلك وإنما هناك غايات لا يمكنه أن يوافقهم على تحقيقها فهو ينظر إلى الأمور بمنظار الواقع، ويسير على خطط حكيمة وآراء سديدة في تقدير الظروف ومناسباتها. وقد أخبر عليه السلام من قبل بصيرورة الخلافة لبني العباس دون غيرهم من الهاشميين (ولذلك كان أسد الهاشميين رأياً بمعارضته لبيعة النفس الزكية. والواقع أن أئمة أهل البيت كثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمية وتعددت إشاراتهم إلى ملك بني العباس، وأنهم سيضطون أعناق الرجال، ويملكون الشرق والغرب و يجمعون من الأموال ما لم يجتمع لأحد من قبلهم، وأن مدة ملكهم ستطول، وتكون أضعاف مدة الدولة الأموية، وقد أخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها) (2). كما أنهم كانوا ذوي تجارب سياسية، واختبارات اجتماعية تقيض لخواطرهم نوعاً من الفراسة واستطلاع الحوادث التي لا بد لها أن تقع في ميادين الانقلابات الحزبية والثورات المتشابكة في طول الدولة الإسلامية وعرضها.

ص: 51

1-1) الممل و النحل ج 1 ص 241. [1]

2-2) مؤرخ العراق ابن الفوطى لفضيلة العلامة الشيبى.



### شخصية الإمام الصادق:

التاريخ هو مرآة تعكس الصور فتحفظها للأجيال بصفحات تضم الأحداث، وهو للجميع لا يختص بأمة دون أخرى، ولا يتقيد برأى دون رأى، وهو أمين، والأمين يقبح به أن يخون أمانته. ولئن تحتم عليه أن يحتفظ بالحقائق والأضاليل معا فليس ذلك إلا إلى أمد الآماد ثم تنكشف الحقائق لتثبت وحدها سليمة من مجاورة الأضاليل. والتاريخ يسجل الحوادث على ما هي عليه بصورها وأشكالها، فلا تغيير ولا تبديل، ولا نقل صورة وترك أخرى؛ هذه هي وظيفة التاريخ الصحيح في كل دور من الأدوار. ولكن التلاعب السياسي الذي لعب دورا هاما في سيطرته على نظام التاريخ وتصرفه في سيره، وسلب حرته في أداء أمانته، جعلنا نعتزف بأنه لم يتمكن من أداء واجبه على الوجه الصحيح، وقد أودعت في طياته أشياء هي أعظم عليه من وخز المدى، وتركت أشياء هي مفخرته عند ما يؤديها للأجيال، وان من المؤسف جدا أن يفقد التاريخ حرته، وتلتوى به الطرق، وإذا به ينظر في مرآة الغير ولا ينظر الغير في مرآته. بفعل المسيطرين عليه لا بفعله هو. ولئن كَبَل التاريخ بتلك القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئن إليها كل باحث، وها نحن على ضوء تلك الحقائق ننتزع من أشواك العصبية والأهواء زهرة حياة الإمام الصادق، وإن أكثر المؤرخين قد أهملوا أخباره وسيرته ولم يذكروا إلا النزر منها، ومن وقف على ما كتبه ابن كثير في تأريخه عن بعض الشخصيات التي لا قيمة لها في

سوق الاعتبار يعرف مدى انحرافه وأنه أهمل الواقع وظلم الحقيقة، و تراه عند ما يأتي لذكر جعفر بن محمد الصادق في حوادث 148 هـ - يقتصر على قوله: وفيها مات الإمام جعفر الصادق. ولا يروق له ذكر شيء عن حياته. وكثيرون أمثال ابن كثير من قبل و من بعد. و أغرب شيء وقفنا عليه أن الباحثة محمد محيي الدين المعروف بالتتبع وضبط الألفاظ في تصحيحه و تعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد و غير اسمه، فيقول عند ذكر وفاته في العنوان: وفاة محمد بن جعفر العلوي (1). و هب أن ذلك غلط مطبعي أو من الناسخ في أصل الكتاب فإن الواجب عليه التنبيه و الإلفات لهذا الغلط. و ما نرى ذلك إلا من نتائج جهود النواصب و أعداء أهل البيت الذين اتجهوا بنشاط واضح إلى الأفلام المعاصرة في مصر العروبة و الإسلام للتأثير في واقعيتها و التحول عما اتصفت به من الدقة و الصدق في مواقف كثيرة. و مثل شخصية جعفر بن محمد تلك الشخصية الإسلامية العظيمة يجب على التاريخ إعطاءها حقها من البحث، فهو أبرز شخصية في عصره و أعلم الأمة على الإطلاق. و لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ان الإمام الصادق عليه السلام كان أعلم أهل عصره و هو أولى الناس بحفظ أمانة الدين، و لا نبعد عن الواقع، إن قلنا ان تلك الخطوات التي سار عليها في عصر ازدهار العلم قد أعطت الأمة دروسا، و علمتهم كيف يجب أن يكون المصلح الذي يقتدى به عظماء الأمة و رجال الدعوة، و أن يستقل العلم بمؤهلاته النفسية و يفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية، بدون التزام بالقوة. بل الأولى أن يكون مقبولا من حيث هو، لا من حيث الإرهاب و السلطة أو المغريات الخداعة، و إن الكثير ممن درسوا حياة الإمام الصادق عليه السلام إنما سلكوا طرق الحذر و التكتم، فتلك دراسة سطحية لا تتجاوز حدود دائرة الحذر أو التعصب، و قد رسمت صورته في إطار التاريخ بريشة مفن مرتعشة لذلك لم تبرز طبق الأصل و مع هذا جاءت سليمة من التشويه و فريدة في الإبداع. لم تنل منها أغراض الحكام، و لم تتمكن من منزلته سياستهم، فكان غاية ما في وسع من أشيع بروح العداة أو نذر نفسه لخدمة أغراض

ص:54



الملوك، أو خشى السيف و ظلمة السجون أن يغفل ذكر الإمام أو يهمله، فكان عملهم هذا كأنه إشارة بالغة و صرخة عالية للدلالة على فضل الإمام جعفر الصادق. و لو تأملنا شخصية الإمام لرأيناها موضع الاهتمام الأول من قبل السلطة و مصدر همومهم، و لوجدناها محور حركة علوم الدين و الفقه، فقد أثر نبوغه و تفردته الذى أثار الحكام فى مجموع النشاط العلمى. و غرضنا فى البحث عن حياة الصادق بيان منزلته العلمية بالقياس إلى غيره ممن أخذ الشهرة و ما هو منه فى شىء، و الأسباب غير مجهولة و الحقيقة غير صامتة. و هنا يلزمنا أن نتخلى عن الموضوع و نستمتع إلى أقوال علماء الأمة و رؤساء المذاهب، و حفاظ الحديث، و كبار المؤرخين و الكتّاب من القدماء و بعض المعاصرين فى انطباعاتهم عن شخصية الإمام الصادق عليه السلام بدون إحاطة للكل، بل من يحضرنا ذكره فلنصغ لأقوالهم تمهيدا للبحث.

## أقوال العلماء فى الإمام الصادق:

«فى كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، و حجة زماننا ابن أخى جعفر لا يضل من تبعه و لا يهتدى من خالفه» (1). زيد بن على (عليه السلام) «إن جعفرا كان ممن قال الله فيه: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا). و كان ممن اصطفاه الله و كان من السابقين فى الخيرات (2) و إنه ليس من أهل بيت إلا- و فيهم محدث و إن جعفر بن محمد محدثنا اليوم» (3). المنصور الدوانيقى «جعفر بن محمد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال، إما مصل، و إما صائم و إما يقرأ القرآن (4)، و ما رأيت عين و لا سمعت أذن و لا

ص:55

1-1) مناقب ابن شهر آشوب ج 2 ص 147. [1]

2-2) اليعقوبى ج 3 ص 177. [2]

3-3) المناقب ج 2 ص 302. [3]

4-4) إلى هنا عبارة التهذيب، و ما بعدها زيادة فى كتاب المجالس السنوية ج 5 و قد ذكر ابن تيمية فى كتاب التوسل و الوسيلة ص 52 ط 2 هذه العبارة فى جملة طويلة فى ضمنها هذه الجملة.

خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علما وعبادة وورعا» (1). مالك بن أنس «كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين» (2). عمرو بن المقدام «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهبّئ له من المسائل الشداد فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه و أوما إلى فجلست ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. قال جعفر: نعم. ثم اتبعها قد أتانا. كأنه كره ما يقول فيه قوم انه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت المنصور إلى فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك. فجعلت ألقى عليه فيحيني، فيقول: أنتم تقولون كذا و أهل المدينة يقولون كذا و نحن نقول كذا فربما تابعهم وربما خالفنا جميعا حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس» (3). أبو حنيفة «ما هذا ببشر و إن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء، و يتروح إذا شاء، فهو هذا. و أشار إلى الصادق». ابن أبي العوجاء «جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير و أدب كامل في الحكمة و زهد في الدنيا و ورع تام عن الشهوات و قد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه و يفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق و أقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، و لا نازع في الخلافة أحدا، و من غرق في بحر المعرفة لم يقع في شط، و من تعلا إلى

ص:56

1-1) تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [1]

2-2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [2]

3-3) مناقب أبي حنيفة للموفق ج 1 ص 173 و جامع مسانيد أبي حنيفة ج 1 ص 222 و تذكرة الحفاظ للذهبي ج 1 ص 157.

ذروة الحقيقة لم يخف من حط» (1) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني «الإمام الصادق كان بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره. كان رأساً في الحديث، روى عنه يحيى بن سعيد و ابن جريح و مالك بن أنس و ابن عيينة و أبو أيوب السجستاني وغيرهم». . القرماني في تاريخه «جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقها و علما و فضلا». ابن حيان «جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله» (2). الحافظ أبو حاتم «جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت و ساداتهم، ذو علوم جمّة، و عبادة موفورة، و أوراد متواصلة، و زهادة بينة، و تلاوة كثيرة، يتتبع معاني القرآن و يستخرج من بحره جواهره و يستنتج عجائبه، و يقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر بالآخرة، و استماع كلامه يزهد في الدنيا، و الاقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، و طهارة أفعاله تصدق أنه من ذرية الرسالة، نقل عنه الحديث و استفاد منه العلم جماعة من أعيان الأمة و أعلامهم، مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، و ابن جريح، و مالك بن أنس، و الثوري، و ابن عيينة، و أيوب السجستاني، و غيرهم، و عدوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها و فضيلة اكتسبوها» (3). كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي «جعفر بن محمد الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة و الخضوع، و أثر العزلة و الخشوع و نهى عن الرئاسة و الجموع» (4). أبو نعيم

ص: 57

1-1 (1) الملل و النحل ج 1 ص 272- [1] ط 2.

2-2 (2) تهذيب ج 2 ص 104.

3-3 (3) مطالب السؤل ج 2 ص 55.

4-4 (4) حلية الأولياء ج 3 ص 192.

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة» (1). عبد الرحمن بن الجوزي «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكنيته أبو إسماعيل و يلقب بالصادق و الطاهر و الفاضل، و أشهر ألقابه الصادق» (2). أبو المظفر يوسف شمس الدين «أدركت في هذا المسجد (يعنى الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد» (3). الحسن بن علي الوشاء «جعفر بن محمد، ازدحم على باب العلماء، واقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، و كان يتكلم بغوامض الأسرار و علوم الحقيقة و هو ابن سبع سنين» (4). عبد الرحمن بن محمد الحنفى البسطامى «جعفر بن محمد، الذى ملأ الدنيا علمه و فقهه، و يقال: إن أبا حنيفة من تلامذته و كذلك سفيان الثورى، و حسبك بهما فى هذا الباب» (5). أبو بحر الجاحظ «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق» (6). ابن حجر العسقلانى «مناقب الصادق فاضلة، و صفاته فى الشرف كاملة، جرى على سنن آبائه الكرام و أخذ بهديه و هديهم عليهم السلام، و وقف نفسه الشريفة على العبادة و حبسها على الطاعة و الزهادة، و اشتغل بأوراده و تهجده و صلواته و تعبده لو طاوله الفلك لتزحزح عن مكانه». الوزير أبو الفتح الأربلى

ص: 58

1-1 (1) صفوة الصفوة ج 2 ص 94. [1]

2-2 (2) تذكرة الخواص ص 351. [2]

3-3 (3) المجالس للسيد الأمين ج 5 ص 209.

4-4 (4) مناهج التوسل ص 106.

5-5 (5) رسائل الجاحظ للسندوبى ص 106.

6-6 (6) تقريب التهذيب ص 68.

«أبو عبد الله الإمام المعظم جعفر الصادق، صاحب الخارقات الظاهرة والآيات الباهرة المخبر بالمغيبات الكائنة أمه و أم أخيه عبد الله أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر و أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر و لذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدني أبو بكر مرتين ولد سنة 83 و توفي سنة 148 هـ و دفن بالبقيع» (1). نقيب حلب محمد بن حمزة بن زهرة «جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان و انتشر صيته في جميع البلدان، و روى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد و ابن جريح و مالك و السفينان و أبي حنيفة و شعبة و أيوب السجستاني» (2). أحمد بن حجر الهيثمي «ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سنة 83 و عاش 65 سنة و كانت إمامته أربعاً و ثلاثين سنة، و قد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم و دياناتهم ما سارت به الركبان، و قد عد أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل. توفي في شوال سنة 148 و دفن بالبقيع مع أبيه و جده و قيل قتله المنصور الدوانيقي بالسم» (3). محمد سراج الدين الرفاعي «جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، سمي الصادق لصدقه، و ينسب إليه كلام في صفة الكيمياء و الزجر و الفال ولد سنة 80 بالمدينة بالبقيع». عمرو بن الوردي في تاريخه «جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام السيد أبو عبد الله الهاشمي العلوي الحسيني المدني، و كان يلقب بالصابر و الفاضل و الطاهر، و أشهر ألقابه الصادق. حدث عنه أبو حنيفة و ابن جريح و شعبة و السفينان و مالك و غيرهم» (4). جمال الدين أبو المحاسن

ص: 59

1-1) غاية الاختصار ص 62.

2-2) الصواعق المحرقة ص 120. [1]

3-3) صحاح الأخبار ص 44.

4-4) النجوم الزاهرة ج 2 ص 8. [2]

«و جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب السادس من الأئمة الاثني عشر والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد بن أبي بكر (رض). ولد الإمام جعفر في المدينة المنورة سنة 82 هـ وهو أكبر أولاد الإمام محمد الباقر وتلمذ على والده فريد زمانه في العلم والفضل، استمر على حلقة تدريس وإفادات جعفر الصادق الإمام الأعظم أبو حنيفة، واستفاد منه أولاً في المعارف الظاهرية والباطنية، وكان للإمام اليد الطولى في الجفر والكيمياء والإلمام بسائر العلوم، وكان ممن تتلمذ على الإمام موجد فن الكيمياء جابر، لم يكن له نصير في الزهد والتقوى، والقناعة وحسن الأخلاق، ولصدق حسبه سمي بالصادق. كان أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين يدعو إلى تعظيم الإمام وتكريمه ويستتير بآرائه وإرشاداته ونصائحه، وعرض أبو مسلم الخراساني الخلافة ابتداء على الإمام جعفر الصادق فلم يقبلها، كان له من الأولاد سبعة أبناء وثلاث بنات، توفي في سنة 148 عن عمر ناهز 65 سنة في المدينة المنورة ودفن بجوار جده والديه، عرف صاحب الترجمة بإمام المذهب الشيعي والمنتهم إليه سمووا بالجعفرية» (1). «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني المعروف بالصادق أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. . . متفق على إمامته و جلالته» (2). علي القارى «جعفر بن محمد الصادق وهو ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي رضى الله عنهم، ويكنى أبو عبد الله وأمّه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأمّه أم فروة أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، و كان من سادات أهل البيت، سمع أباه ومحمد بن المنكدر وعطاء بن أبي رباح، روى عنه عبد الوهاب الثقفي، وحاتم بن إسماعيل، وهيب بن خالد، وحسن بن عياش، وسليمان بن بلال، والثوري والداروردي ويحيى بن سعيد الأنصاري، وحفص بن

ص:60

1-1) قاموس الأعلام تأليف ش سامي ج 3 ص 1821 استانبول وقد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية.

2-2) شرح الشفاء لعلي القارى ج 2 ص 35. [1]

غياث و مالك بن أنس، و ابن جريح، ولد سنة ثمانين و مات سنة ثمان و أربعين و مائة و هو ابن أربعة و ستين سنة» (1). محمد بن طاهر بن على المقدسى «جعفر الصادق أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمى القرشى، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية: كان من أجل التابعين، و له منزلة رفيعة فى العلم أخذ عنه جماعة منهم: أبو حنيفة، و مالك و جابر بن حيان، و لقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بنى العباس، و كان جريئاً عليهم صداعاً فى الحق، و صنّف تلميذه جابر بن حيان كتاباً فى ألف ورقة يتضمن (رسائل الإمام جعفر الصادق) و هى خمسمائة رسالة، مولده و وفاته بالمدينة» (2). خير الدين الزركلى «لولا السنن لهلك نعمان». أبو حنيفة يقول الألوسى: «هذا أبو حنيفة و هو من أهل السنة يفتخر و يقول بأفصح لسان لولا السنن لهلك نعمان» يعنى السنن اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق (3). «جعفر الصادق فاق جميع أقرانه من أهل البيت و هو ذو علم غزير، و زهد بالغ فى الدنيا، و ورع تام عن الشهوات، و أدب كامل فى الحكمة». الشيخ عبد الرحمن السلمى «جعفر الصادق كان من بين اخوته خليفة أبيه و وصيه، نقل عنه فى العلوم ما لم ينقل عن غيره و كان إماماً فى الحديث و مناقبه كثيرة». السويدى فى سبائك الذهب «جعفر الصادق له عمود الشرف، و مناقبه متواترة بين الأنام، مشهورة بين الخاص و العام، و قصده المنصور الدوانيقى بالقتل مراراً فعصمه الله». جمال الدين الدراوردى

ص: 61

1-1) الجمع بين رجال الصحيحين ج 1 ص 70.

2-2) الاعلام ج 1 ص 186. [1]

3-3) التحفة الاثنى عشرية ص 8. [2]

«و لا مشاحة ان انتشار العلم فى ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة فى كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامى، و لا يفوتنا أن نشير إلى أن الذى تزعم تلك الحركة: هو حفيد على بن أبى طالب المسمى بالإمام الصادق، و هو رجل رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملم كل الإمام بعلم عصره، و يعتبر فى الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة فى الإسلام، و لم يكن يحضر حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسى المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة و المتفلسفون من الأنحاء القاصية» (1). السيد مير على الهندى جعفر الصادق بن محمد الباقى بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، و كنيته أبو عبد الله و قيل أبو إسماعيل و ألقابه الصادق و الفاضل و الطاهر و أشهرها الأول، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته فى جميع البلدان، و روى عنه الأئمة الكبار كىحيى و مالك و أبى حنيفة» (2). محمود بن وهيب البغدادى «الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم الهاشمى المدنى الصادق، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم، روى عن أبيه و القاسم بن محمد و نافع و عطاء و محمد بن المنكدر و الزهرى و غيرهم، و روى عنه محمد بن إسحاق و يحيى الأنصارى و مالك و السفينان و ابن جريح و شعبة و يحيى القطان و آخرون- و اتفقوا على إمامته و جلالته، قال عمر بن أبى المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبیین» (3). أبو زكريا محبى الدين بن شرف

ص:62

1-1 (1) تاريخ العرب ص 179.

2-2 (2) جواهر الكلام ص 13. [1]

3-3 (3) تهذيب الأسماء ج 1 ص 155. [2]



«جعفر الصادق أبو عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب روى عنه كثيرون كمالك و السفينان و ابن جريح و ابن إسحاق، و اتفقوا على إمامته و جلالته و سيادته، ولد سنة 80 هـ و توفي سنة 148 هـ قيل مسموما، وثقه في روايته الشافعي و ابن معين و أبو حاتم و الذهبي و هو من فضلاء أهل البيت و علمائهم». أحمد شهاب الدين الخفاجي «كان جعفر بن محمد الصادق مستجاب الدعوة إذا سأل الله شيئا لا يتم قوله إلا و هو بين يديه». الشبلنجي في نور الأبصار «جعفر بن محمد سيد بني هاشم أبو عبد الله العلوي». الذهبي «جعفر بن محمد أبو عبد الله فقيه صدوق» (1). الزرقاني «أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم أجمعين أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية و كان من سادات آل البيت، و لقب بالصادق لصدقه و فضله أشهر من أن يذكر». ابن خلكان في وفياته «سلالة النبوة و معدن الفتوة أبو عبد الله جعفر الصادق بن أبي جعفر محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين الهاشمي العلوي، و أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، فهو علوي الأب بكرى الأم ولد سنة ثمانين في المدينة

ص:63

وفيهما توفى ودفن بالبقيع فى قبر فيه أبوه محمد الباقر، وجده زين العابدين، وعم جده الحسن بن على رضوان الله عليهم أجمعين وأكرم بذلك و ما جمع من الأشراف الكرام، أولى المناقب، وإنما لقب بالصادق لصدقه فى مقالته، وله كلام نفيس فى علوم التوحيد وغيرها وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفى كتابا يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله وهى خمسمائة رسالة» (1). اليافعى وقال الشيخ المناوى (2) عند ذكر الإمام جعفر الصادق: وكانت له كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة منها: «انه سعى به عند المنصور فلما حج أحضر الساعى و قال للساعى: أتحلف؟ قال نعم، فحلف، فقال جعفر للمنصور: حلفه بما أراه فقال: حلفه. فقال: قل برئت من حول الله وقوته والتجأت إلى حولى وقوتى لقد فعل جعفر كذا وكذا فامتتع الرجل، ثم حلف فما تم حتى مات مكانه. ومنها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصلى ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجة بموته. ومنها لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي فى عمه زيد: صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهديا على الجذع يصلب

قال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك. فافترسه الأسد. ومنها ما أخرجه الطبرى من طريق ابن وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول حججت سنة ثلاث عشرة ومائة فلما صليت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا رب، حتى انقطع نفسه ثم قال: يا حى يا حى حتى انقطع نفسه ثم قال: إلهى إنى أشتهى العنب فأطعمنيه وإن بردى قد خلق فاكسنى قال الليث: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنبا إلى آخر ما ذكره». المناوى

ص:64

1-1 (1) مرآة الجنان ج 1 ص 304. [1]

2-2 (2) الكواكب الدرية ج 1 ص 94. [2]

«السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة، روى عنه الحديث كثيرون مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة و يحيى بن سعيد، وابن جريح والثوري، ولد رضى الله عنه بالمدينة المنورة سنة ثمانين من الهجرة و غرر فضائله على جبهات الأيام كاملة، و أندية المجد و العز بمفاخره و مآثره أهلة و توفي رضى الله عنه سنة 148» (1). عبد الله الشبراوى «جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى أبو عبد الله الصادق المدنى أحد الأعلام حدث عن أبيه و جده و أبى أمه القاسم بن محمد و عروة و عنه خلق لا يحصون فمنهم ابنا موسى و شعبة و السفينان قال الشافعى و ابن معين و أبو حاتم ثقة مات سنة 148 عن 67» (2). الجزرى «أبو عبد الله جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، و لقب بالصادق لصدقه فى مقالته، ولد سنة ثمانين و روى عنه مالك بن أنس و أبو حنيفة و كثيرون من علماء المدينة» (3). محمد الخضرى «و أكبر شخصيات ذلك العصر فى التشريع الشيعى بل ربما كان أكبر الشخصيات فى ذلك فى العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق، و على الجملة فقد كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات فى عصره و بعد عصره، و قد مات فى العام العاشر من حكم المنصور». الدكتور أحمد أمين

ص: 65

1-1) أتحاف الأشراف ص 54.

2-2) الخلاصة ص 76.

3-3) التشريع الإسلامى ص 263.

«جعفر بن محمد كان إماما مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنما بقي منها في كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ، يعلم الزهاد زهدا؛ ويكسب العلماء علما، يهدى المضطرب ويشجع المقتحم، يهدم الظلم و يبنى للعدالة، و هو ينادى بالمسلمين جميعا أن هلموا واجتمعوا، و ان قوما لم يختلفوا في ربهم و في نبيهم لمجموعون مهما اختلفوا في يوم قريب» (1). عبد العزيز سيد الأهل «كان بيت جعفر الصادق كالجامة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث و التفسير و الحكمة و الكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان و بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، و قد ألف تلاميذه من جميع الأحاديث و الدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري». السيد محمد صادق نشأة الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة «أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية كان من سادات أهل البيت النبوي لقب بالصادق لصدقه في كلامه». فريد و جدي «جعفر الصادق و هو ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين كان من سادات أهل البيت و لقب بالصادق لصدقه، و فضله عظيم، له مقالات في صناعات الكيمياء و الزجر و الفال و كان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن «رسائل الصادق» و هي خمسمائة رسالة، إليه ينسب كتاب الجفر و سيزكر، و كان جعفر أدبيا تقيا دينا حكيما في سيرته» (2). بطرس البستاني

ص:66

1-1) كتاب جعفر بن محمد ص 6.

2-2) دائرة المعارف ج 6 ص 468.

«عند ما يتفرغ الباحث لدراسة شخصية الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب دراسة صحيحة على ضوء الضمير النقي، والواقع العقلي، والتجرد العلمي، متبعاً الأصول الحديثة، مبتعداً عن العاطفة، ومرض التعصب، وأثر الجنسية، فلا يستطيع إلا الإقرار بأنها مجموعة فلسفية قائمة بذاتها، تزخر بالحيوية النابضة، والروحية المتجسدة، والعقلية المبدعة التي استنبطت العلوم، وأبدعت الأفكار، وابتكرت السنن، وأوجدت النظم والأحكام» (1). معهد البحوث الشرقية عارف ثامر، والأب أ. عبده خليفة اليسوعي وهذا نكتفي عن ذكر أقوال بقية العلماء الآخرين، وسيأتي محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين وغيرهم. ويلزمنا التنبيه على شيء مر ذكره في بعض هذه الأقوال وهو نسبة الزجر والقال إلى الإمام الصادق عليه السلام، وهذا من الخطأ والاشتباه، وإنما كان الإمام يستشف ما وراء الحجب باستقراء الحوادث السياسية، وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه، يخبر بالحوادث قبل وقوعها، وقد أخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور وتبقى في أولاده من بعده، وأخبر بمقتل محمد وإبراهيم علي يد المنصور، وكان معارضا لبيعة محمد في المؤتمر الذي عقده الهاشميون من عباسيين وعلويين لبيعة محمد بن عبد الله، وقال لعبد الله بن الحسن: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، فقال عبد الله لقد علمت خلاف ما تقول، قال الصادق: لا، ولكن هذا وأبناؤه دونك وضرب بيده على أبي العباس. ثم نهض فأتبعه عبد الصمد بن علي وأبو جعفر المنصور فقالا له: أ تقول ذلك؟ قال: نعم أقوله والله وأعلمه. وليس في وسعنا بسط القول في علمهم (عليه السلام) وانكشاف حقائق الأشياء لهم، فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها، وقد صدر عن الصادق كثير من ذلك مما لا يتسع المجال لذكره. وأما نسبة الزجر والقال إليه فهو خطأ نشأ من اشتباه في الاسم وتقارب في

ص:67

الزمن، و ذلك أن جعفر بن محمد البلخي المعروف بأبي معشر الفلكي كان مشهورا بالزجر و الفال و أستاذ عصره في التنجيم، و نقل الناس أخباره و شاع ذكره. قال ابن كثير: و الظاهر أن الذي نسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر و الطرف، و اختلاج الأعضاء إنما هو منسوب إلى جعفر بن أبي معشر هذا و ليس بالصادق و إنما يغلطون (1). هذا ما يتعلق بالانطباعات عن شخصيته عليه السّلام و سيأتي في الجزء الرابع إن شاء الله ما له صلة بالموضوع.

ص:68

---

1-1) البداية و النهاية ج 11 ص 51. [1]

### مدرسة الإمام الصادق:

لم يكن من المبالغة وصف مدرسة الإمام الصادق بأنها جامعة إسلامية، خلفت ثروة علمية و خرجت عددا وافرا من رجال العلم، و أنجبت خيرة المفكرين و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء، و قد عدت أسماء تلامذته و المتخرجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل، و قد صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتابا جمع فيه رجال الصادق و رواية حديثه و أنهاهم إلى أربعة آلاف. روى الشيخ الصدوق أن سليمان بن داود المنقري قال: كان حفص بن غياث (1) إذا حدثنا عن جعفر بن محمد قال: حدثني خير الجعافر جعفر بن محمد (عليه السلام). قال الشيخ المفيد في الإرشاد: «إن أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم في الآراء و المقالات فكانوا أربعة آلاف». و قال الشيخ محمد بن علي الفتال في روضة الواعظين: «و قد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء و المقالات فكانوا أربعة آلاف». و قال السيد علي بن عبد الحميد النيلي في كتاب الأنوار: «و مما اشتهر بين

ص: 69

---

1-1) القاضي أبو عمر حفص بن غياث النخعي من الثقات روى عن الإمام الصادق و روى عنه إسحاق و أحمد و خلق، وثقه ابن معين و العجلي و كان متشددًا في الرواية، وصفه ابن عمار بأنه كان عسرا في الحديث جدا، توفي سنة 194 هـ، خرّج حديثه أصحاب الصحاح.

العامة و الخاصة أن أصحاب الحديث جمعوا أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف» . وقال الشيخ الطبرسي في أعلام الوري: «و لم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عنه، فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل، وقال في القسم الثالث: «وروى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان» . وقال ابن شهر آشوب في المناقب: «نقل عن الصادق من العلوم ما لا ينقل عن أحد، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء فكانوا أربعة آلاف» . وقال المحقق في المعبر في جملة كلامه عن الصادق: «فإنه انتشر عنه من العلوم الجمة ما بهر به العقول و روى عنه جماعة من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل» . و قال الشهيد في الذكرى: إن أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق كتب من أجوبة مسائله أربعمئة مصنف لأربعمئة مصنف، و دون من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق و الشام و الحجاز» . وقال الشيخ حسين والد العلامة البهبهاني في ذكر الصادق: «و دون العامة و الخاصة ممن تبرز بعلمه من العلماء و الفقهاء أربعة آلاف» . و على أى حال فإن مدرسة الإمام الصادق، كانت مصدرا للعلم و ينبوعا يفيض على الأمة بالعلوم و المعارف الإسلامية، و أغدقت على العالم الإسلامى بخدماتها الجليلة، فى بث تلك التعاليم القيمة فى عصر ازدهر فيه العلم، و أقبل المسلمون على انتهاله. و لو تسنى لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام الظهور التام لأدت رسالتها على أحسن ما يتطلبه واقع المسلمين و ما هم فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيمة فى بث روح الأخوة الإسلامية، و العدالة الاجتماعية، و محو المعتقدات الفاسدة و الآراء الشاذة. و لكن بمزيد الأسف أن السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير لمحاربة تلك المدرسة، لأن شهرة الإمام الصادق عليه السلام فى العالم الإسلامى كانت تقضى



مضاجعهم، و تبعث في قلوبهم الوجل من نشاطه العلمى إلى جانب ما لأهل بيته من النشاط السياسى، و لهذا فقد كانوا يضعون الخطط التى يأملون فيها الوصول إلى غلق أبواب تلك المدرسة و القضاء على الإمام الصادق بكل وسيلة، لأن الأنظار أصبحت متجهة إليه، و كانت وفود رجال الأمة و طلاب العلم تتسابق إلى الحضور عنده، و الاستماع منه حتى كان ذكره حديث الركبان، و كانت أندية العلم فى العواصم الإسلامية تلهج بذكره، و ينتهى الاحتجاج فى الاستشهاد بقوله. «و الحقيقة، أن مدرسة الإمام جعفر الصادق الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين، و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء، و إذا كانت هناك حقيقة يجب أن تقال فهى: أن الحضارة الإسلامية و الفكر العربى مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور و الرقى و الخلود، و لعمريها الصادق بالمجد العلمى و التراث الثمين». كما أنها وجهت الأمة إلى قواعد الاستنباط و نقد الحديث و بعثت على النشاط فى مجال التأليف و تبويب الأحكام فكانت ملتقى العلماء، و مجمعا لطلابه رغم تلك المحاولات التى تبذل فى طريق شهرتها، و الوقوف أمام انتشار ذكرها. و أود بأن أسارع هنا فأشير إلى ما يأتى فيما بعد: بأن مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام: كان طابعها التى طبعت عليه و منهجها الذى اختصت به، هو استقلالها الروحى، و عدم خضوعها لنظام السلطة، و لم تقسح المجال لولاية الأمر بأن يتدخلوا فى شئونها، أو تكون لهم يد فى توجيهها و تطبيق نظامها لذلك لم يتسنّ لذوى السلطة استخدامها فى مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم فى شئون الدولة، و من المستحيل ذلك-و إن بذلوا جهدهم فى تحقيقه-فهى لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، و لا تركز إليهم كما لا ترتبط و إياهم بروابط الألفة، و لم يحصل بينها و بينهم انسجام، و بهذا النهج الذى سارت عليه، و الطابع الذى اختصت به أصبحت عرضة للخطر، فكان النزاع بينها و بين الدولة يشتد و العداء يتضخم، الأمر الذى جعل المدرسة عرضة للخطر. و رغم ذلك كله فقد صمدت لتلك الهجمات التى توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود، و قد عانت من بطش الجبارين و عسف الظالمين ما لا يحيط به البيان. و على كل حال فإن مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام كانت بعيدة عن التأثير بآراء

الحكام الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية. وقد بذل المنصور كل ما في وسعه لجلب رضا الإمام الصادق عليه السلام والفوز بمساييرته له، ولكنه لم يفلح، فقد أعلن عليه السلام مقاطعته، و أوعز إلى أصحابه ذلك، فسارت مدرسته على ذلك الاستقلال الروحي، ونالت تلك الشهرة العظيمة، وخلفت ذلك التراث الثمين و المجد العلمي، وإن الحضارة الإسلامية مدينة لها بالتطور والخلود. وسيأتي في الأجزاء القادمة مزيد بيان لذلك.

## تلامذة الإمام الصادق و رواية حديثه:

### إشارة

أما تلامذته فقد أجمع العلماء على أنهم كانوا أربعة آلاف، و هم من مختلف الأقطار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم، وقيل: إن الثقات منهم كانوا بهذا العدد، ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى البعض منهم مقتصرين على ذكر أسمائهم بدون تفصيل لأننا سنشير إلى جملة منهم في الجزء الثاني، كما اننا لم نذكر منهم إلا من اشتهر بالعلم و خرج حديثه أصحاب الصحاح كالبخارى، و مسلم، و الترمذى، و أصحاب السنن. و ان منهم من أصبحوا رؤساء طوائف، و أئمة مذاهب: كأبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة 150 هـ-صاحب المذهب المنسوب إليه و قد اشتهر قوله: ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد. . و قوله: لولا الستتان لهلك النعمان (1) و كانت له مع الإمام الصادق اتصالات متفرقة بالمدينة و الكوفة، و قد لازمه مدة سنتين متواصلتين بالمدينة. فجعل هاتين السنتين نجاة له من الهلكة. مالک بن أنس المتوفى سنة 179 هـ-رئيس المذهب المنسوب إليه و كانت له صلة تامة بالإمام الصادق عليه السلام و روى الحديث عنه و اشتهر قوله: ما رأيت عين أفضل من جعفر بن محمد. سفيان الثوري المتوفى سنة 161 هـ-و هو من رؤساء المذاهب و حملة الحديث و أعلام الأئمة و قد بقي مذهبه معمولا به إلى ما بعد القرن الرابع، و كان لسفيان الثوري اختصاص بالإمام الصادق و قد روى عنه الحديث كما روى كثيرا من آدابه عليه السلام و أخلاقه و مواعظه.

ص:72

سفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 هـ - والمدفون بالحجون و هو من رؤساء المذاهب البائدة. وغير هؤلاء من حملة الحديث و أعلام الأمة و لا يتسع المجال لذكرهم الآن و نكتفى بذكر البعض منهم فى عرض موجز و هم: شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى المتوفى سنة 160 هـ - خرج له أصحاب الصحاح و السنن و روى عنه خلق كثير. قال الشافعى: لو لا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. و قال أحمد: شعبة أمة وحده. و فضيل بن عياض بن سعد بن بشر التميمى اليربوعى المتوفى سنة 187 هـ - قال الجزرى: «هو أحد أئمة الهدى و السنة، روى عنه الأعمش و سليمان التيمى و ابن المبارك و ابن القطان و أحمد بن المقدم و خلق كثير، و ثقته النسائى و غيره، و خرج له البخارى و الترمذى و مسلم و النسائى». و حاتم بن إسماعيل المتوفى سنة 180 هـ - كوفى الأصل خرج له البخارى و مسلم و الترمذى و الجماعة و كان ثقة فى الحديث، أخذ عن الصادق و أخذ عنه خلق كثير منهم إسحاق و ابن معين (1). و حفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفى المتوفى سنة 194 هـ - روى عن الصادق و روى عنه أحمد، و إسحاق، و أبو نعيم، و يحيى بن معين، و على بن المدينى و عفان بن مسلم، و عامة الكوفيين، و لى قضاء بغداد ثم عزل و لى قضاء الكوفة، و كان كثير الحديث حافظا له ثبتا فيه مقدما عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث، خرج له الجماعة أجمع (2). و زهير بن محمد التميمى أبو المنذر الخراسانى المتوفى سنة 162 هـ - أخذ عن الإمام الصادق و عنه أبو داود الطيالسى، و روح بن عباد، و أبو عامر العقدى، و عبد الرحمن بن مهدى، و الوليد بن مسلم، و يحيى بن بكير، و أبو عاصم و غيرهم و ثقته أحمد و يحيى و عثمان الدارمى و هو من رجال الصحاح. يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصرى المتوفى سنة 198 هـ - روى له رجال الصحاح و حدث عنه ابن مهدى، و عفان و مسدد و أحمد و إسحاق و ابن معين.

ص:73

[1-1] خلاصة الكمال 56. [1]

[2-2] تاريخ بغداد ج 8 ص 188 و [2] الخلاصة ص 74.

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري المتوفى ببغداد سنة 180 هـ - روى عنه محمد بن جهضم ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو الربيع الزهراني، وأبو معمر الهذلي وغيرهم، قال ابن سعد: ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد ولم يزل بها حتى مات، خرج له البخاري ومسلم والجماعة (1). إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة 191 هـ - روى عن الصادق، وله كتاب مبوب في الحلال والحرام، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست، وروى عنه إبراهيم بن طهمان والثوري وهو أكبر منه وكنى عن اسمه، وابن جريح والشافعي وسعيد بن أبي مريم وأبو نعيم وآخرون ويعد من مشايخ الشافعي وقد أكثر عنه في كتبه (2) وقد اتهم إبراهيم بالحط من السلف فضعف ونسب إلى الكذب، ولعل سبب ذلك اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره. الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل البصري المتولد سنة 122 هـ - والمتوفى سنة 214 روى عنه الصادق وعنه البخاري وأحمد بن حنبل وابن المديني وإسحاق بن راهويه، قال ابن شيبان: والله ما رأيت مثله. محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة 177 هـ - روى له البخاري والنسائي وابن ماجه. عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى 194 هـ - روى عنه محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني وغيرهم؛ قدم بغداد في أيام المنصور وحدث بها وثقه ابن معين وكانت غلة عبد الوهاب في كل سنة مائتين وأربعين ألف ينفقها على أصحاب الحديث لا يحول الحول على شيء منها. خرج له مسلم والبخاري. عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري خرج له البخاري في صحيحه والترمذي وروى عنه ابن المديني وابن المثنى وزيد بن أحزم، قال ابن حبان مستقيم الحديث.

ص: 74

1-1) تاريخ بغداد ج 8 ص 188 و [1] الخلاصة ص 74.

2-2) تهذيب التهذيب ج 1 ص 282-760. [2]

عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الزهري بن أبي ثابت الأعرج المدني المتوفى سنة 197 هـ - خرج له الترمذى فى صحيحه. عبد الله بن دكين الكوفى خرج له البخارى فى الأدب المفرد وثقه أحمد وروى عنه يحيى الوضاحى و موسى بن إسماعيل. زيد بن عطا بن السائب روى عنه إسرائيل و جرير بن عبد الحميد وثقه أبو حاتم. و خرج حديثه النسائى و الترمذى. مصعب بن سلام التميمى الكوفى روى عنه أحمد و أبو سعيد الأشج و خرج له الترمذى، قال ابن معين: ليس به بأس، و قال أبو حاتم: شيخ محلة الصدق. بشير بن ميمون الخراسانى المتوفى سنة 184 هـ - روى عنه أحمد بن عاصم الخراسانى؛ قدم بغداد و روى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام خرج له ابن ماجه. إبراهيم بن سعد الزهري المتوفى سنة 183 هـ - أحد الأعلام و من رجال الصحاح و هو من شيوخ أحمد بن حنبل. سعيد بن مسلمة الأموى المتوفى سنة 201 هـ - و هو من رجال الصحاح و شيوخ الشافعى. الحارث بن عمير البصرى نزل مكة روى عن الصادق عليه السلام و عنه ابن عينة و ابن مهدي و أبو أسامة. المفضل بن صالح الأسدى أبو جميلة الكوفى خرج له الترمذى و روى عنه محمد بن عبيد الله المحاربي. أيوب بن أبى تميمة السخيتانى أبو بكر البصرى مولى عنزة، و يقال مولى جهينة روى عنه الأعمش و قتادة و هو من شيوخه و الحمادان و السفينان و شعبة، و خلق كثير، وثقه ابن سعد و ابن معين، ولد سنة 66 هـ - و مات سنة 121 هـ. عبد الملك بن جريح القرشى أحد العلماء المشهورين و يقال: إنه أول من صنف الكتب فى الإسلام، ولد سنة 80 هـ - و توفى سنة 149 هـ. و غير هؤلاء ممن نسب لمدرسة الصادق، و أخذ عنه و روى حديثه، و قد ذكر ذلك ابن حجر فى تهذيب التهذيب و لسان الميزان و تقريب التهذيب، و الذهبى فى

ميزان الاعتدال و تذكرة الحفاظ، و الجزرى فى الخلاصة، و الخطيب فى تاريخه، و ابن أبى حاتم فى الجرح و التعديل و غيرهم. و لا يصعب على المتتبع إحصاءهم، و قد أفرد بعض علمائنا رسائل فى عددهم و ذكر أسمائهم و سيأتى فى الجزء الثانى بيان جملة منهم. أما حملة فقهه عليه السلام و خواص أصحابه، الذين كانت لهم اليد الطولى فى خوض معارك الحياة الاجتماعية و السياسية، و محاربة أهل الإلحاد و الزندقة، و مناظرة أهل العقائد الفاسدة و الآراء الشاذة و مقابلة الظلمة فى شدة الإنكار عليهم و توجيه الانتقاد إليهم، فسيأتى فى الجزء الثالث تفصيل عن حياة بعضهم و المشهورين منهم، كأبان بن تغلب، و مؤمن الطاق، و هشام بن الحكم و غيرهم. و نكتفى هنا بالتنويه عن بعضهم:

### أبان بن تغلب:

أبو سعد الكوفى، روى عن السجاد، و الباقر، و الصادق، و مات فى أيامه. قال الشيخ فى الفهرست (1) «أبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكرى الحريرى مولى جرير بن عباد، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة فى أصحابنا، لقي أباً محمد على بن الحسين و أباً جعفر الباقر و روى عنهم، و كانت له عندهم حظوة و قدم»، و قال له أبو جعفر الباقر: «اجلس فى مسجد المدينة و افت الناس فإنى أحب أن يرى فى شيعتى مثلك. . . و كان فقيها لغويا» و كان غزير العلم متضلعا فى عدة علوم و له كتب ذكرها ابن النديم فى الفهرست منها كتاب معانى القرآن، كتاب القراءات، كتاب من الأصول فى الرواية على مذهب الشيعة (2). و قال ابن سعد فى الطبقات: أبان الربعى توفى فى الكوفة فى خلافة أبى جعفر و عيسى بن موسى و آل على الكوفة، و كان ثقة و روى عنه شعبة، و قال فى التهذيب روى عنه موسى بن عقبة، و شعبة، و حماد بن زيد و ابن عيينة و جماعة، و ثقة أحمد، و يحيى، و أبو حاتم، و النسائى.

ص: 76

1-1 (1) الفهرست ص 17. [1]

2-2 (2) ابن النديم ص 308. [2]

قال الذهبي في ميزان الاعتدال أبان بن تغلب الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق فلنا صدقه و عليه بدعته (1) وقد وثقه أحمد بن حنبل و ابن معين و أبو داود خرج له مسلم و أبو داود، و الترمذي، و ابن ماجه. قال الجوزجاني: أبان بن تغلب زانغ مذموم المذهب، قال ابن حجر: و أما الجوزجاني فلا- عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عثمان، و أن عليا كان مصيبا في حروبه و أن مخالفه مخطئ مع تقديم الشيخين، و ربما اعتقد بعضهم أن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و إذا كان معتقد ذلك و رعا ديننا صادقا مجتهدا فلا ترد روايته (2). أبان بن عثمان بن أحمر البجلي أبو عبد الله أصله كوفي، و كان يسكنها تارة و البصرة أخرى، و قد أخذ عنه أهلها منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى و أبو عبد الله محمد بن سلام، و أكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء و النسب و الأيام، روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام و أبي الحسن موسى عليه السلام و له مؤلفات منها كتاب المبتدى، و البعث و المغازي و الوفاة، و ذكره ابن حبان في الثقات، قال محمد بن أبي عمر: كان أبان من أحفظ الناس بحيث إنه يرى كتابه فلا يزيده حرفا، توفي على رأس المائتين (3). و هو من الستة أصحاب أبي عبد الله (عليه السلام) الذين أجمعت العصاة على تصحيح ما يصح عنهم و الإقرار لهم بالفقه و هم: جميل بن دراج، و عبد الله بن مسكان، و عبد الله بن بكير، و حماد بن عيسى، و حماد بن عثمان، و أبان بن عثمان. بكير بن أعين الشيباني أخوزارة روى عن الباقر و الصادق عليه السلام و مات في أيام الصادق عليه السلام و لما بلغه خبر موته قال: أما و الله لقد أنزله الله بين رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أمير المؤمنين عليه السلام. و ذكره يوما فقال: رحم الله بكيرا. و هو من الثقات، و قد روى عنه جماعة.

ص: 77

1-1) لم يكن أبان مبتدعا و لكنه بتفضيله لعلي و قوله بإمامته أصبح مبتدعا في نظر الذهبي و أضرا به ممن حملهم التعصب على تضعيف المشاهير من الحفاظ من أهل السنة و غيرهم لأنهم يروون الأحاديث الصحاح في أهل البيت كما حدث لابن جرير الطبري لأنه يروى حديث: من كنت مولاه. و الحاكم لتصحيحه حديث الطير، و حديث الموالاة. و غيرهم كثير سيأتيك بيانه.

2-2) تهذيب التهذيب ج 3 ص 93. [1]

3-3) لسان الميزان ج 1 ص 24.

جميل بن دراج بن عبد الله النخعي روى عن الصادق والكاظم وتوفى أيام الرضا، وهو من الستة الذين أجمعت العصاة على تصحيح ما يصح عنهم. حماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي روى عن الصادق عليه السلام والكاظم والرضا عليه السلام، وهو من أصحاب الصادق عليه السلام ومن الستة المار ذكرهم توفى سنة 190 هـ. الحارث بن المغيرة النصرى روى عن الباقر عليه السلام وعن الصادق (عليه السلام) والكاظم (عليه السلام)، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة. هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولى بنى شيبان كنيته أبو محمد وقيل أبو الحكم أصله من الكوفة وانتقل إلى بغداد قال ابن النديم: هو من جلة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) وهو من متكلمي الشيعة ممن فتق الكلام في الإمامة وهدب المذهب والنظر وكان حاذقا بصناعة الكلام حاضر الجواب سئل عن معاوية أشهد بدرا؟ فقال: نعم من ذاك الجانب، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام وتوفى بعد نكبة البرامكة مستترا، وقيل في خلافة المأمون وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب الدلالات، ثم ذكر له أكثر من عشرين مؤلفا. ودعى له الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، وكان أولا من أصحاب جهنم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة بالدلائل والنظر، وكان الصادق (عليه السلام) يقول فيه: هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ويقول أيضا: هشام بن الحكم رائد حقنا وسائق قولنا المؤيد لصدقنا والدامغ لباطل أعدائنا. وكان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولاه الله من سمائه فعزلوه، وإلى من عزله الله من سمائه فنصبوه، ولهشام أخبار كثيرة ومحاججات ومناظرات مع خصوم آل محمد، وكان يخوض غمرات البحث فيخرج منها وحليفه النصر. روى الكليني في الصحيح أنه ورد على الصادق (عليه السلام) رجل من أهل الشام فقال له: إني صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك. فقال له الصادق (عليه السلام): كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من عندك؟ فقال الرجل: بعضه من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وآله وسلم وبعضه من عندي، قال الإمام



الصادق (عليه السلام) : فأنت إذا شريك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ! قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله تعالى؟ قال: لا، قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ قال: لا، فقال الصادق (عليه السلام) : هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم أخرج الصادق (عليه السلام) رأسه و كان في خيمة في الحرم قبل الحج بأيام فإذا هو ببيعر يخب فقال (عليه السلام) : هشام و رب الكعبة. فإذا هشام بن الحكم قد ورد و هو أول ما اختطت لحيته و ليس في أصحاب الصادق (عليه السلام) إلا من هو أكبر سنا منه فوسع له الصادق (عليه السلام) و قال: ناصرنا بقلبه و لسانه و يده، ثم قال للشامي: كَلِّمْ هَذَا الْغُلَامَ. يعني هشام بن الحكم. فقال الشامي لهشام: سلني في إمامة هذا. يعني الصادق (عليه السلام) . فغضب هشام حتى ارتعد و قال: يا هذا ربك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال: بل ربي أنظر لخلقه، قال هشام: فعل بنظره لهم في دينهم ما ذا؟ قال: كَلِّفَهُمْ وَأَقَامَ لَهُمْ حُجَّةً وَ دَلِيلًا عَلَى مَا كَلَّفَهُمْ وَأَزَاحَ فِي ذَلِكَ عَنْهُمْ. قال: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال: هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال: فبعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ قال: الكتاب و السنة، قال: فهل ينفعنا اليوم الكتاب و السنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف؟ قال: فقال الشامي: نعم. فقال هشام: فلم اختلفنا نحن و أنت و جئتنا من الشام تخالفنا و تزعم أن الرأي طريق الدين و أنت تقرر أن الرأي لا يجتمع على القول الواحد للمختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكر فقال له الصادق (عليه السلام) : مالك لا تتكلم؟ قال: إن قلت ما اختلفنا كابرته، و إن قلت إن الكتاب و السنة يرفعان الاختلاف أبطلت لأنهما يحتملان الوجوه، و لكن لي عليه مثل ذلك. فقال الصادق (عليه السلام) : سله تجده مليا. فقال لهشام: من انظر للخلق ربهم أو أنفسهم؟ قال: بل ربهم، قال: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم و يرفع اختلافهم و يبين حقهم من باطلهم؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و أما بعده فغيره، قال: من هو غيره؟ قال: في وقتنا هذا هو هذا الجالس الذي تشد إليه الرحال. يعني الصادق (عليه السلام) إلى آخر ما ذكره (1). المعلى بن خنيس كان من أصحاب الإمام و مواليه و من عذب في الله و قتل

ص: 79

يحب آل محمد، قتله الأمير داود بن علي وصادر أمواله-و الأسباب غير مجهولة في ذلك-لأن المعلى كان من خواص الإمام الصادق (عليه السلام) بصورة تستدعي غضب الوالي، وكان داود بن علي عند ما ولى المدينة أو الجزيرة برمتها استعمل العسف والجور و الاضطهاد للطالبيين فكان شديدا في مطاردتهم و تتبع أنصارهم. و بطبيعة الحال ان مثل المعلى بمواقفه و اتصاله بالإمام لا يسلم من شر هذا الوالي و قد تلقى الإمام الصادق هذه الحادثة بالاستياء و أثر في نفسه و مشى إلى ديوان الأمير و هو محنق على خلاف عادته و قال له: قتلت مولاي و أخذت مالي أ ما علمت أن الرجل ينام على الثكل و لا ينام على الحرب، و قابله الإمام بالشدة و العنف و حاول ذلك الأمير أن يسند هذا الجرم لصاحب الشرطة و يبرأ من تبعته، فأمر بقتله ليتستر بذلك، و لكن صاحب الشرطة فضح أمره فأعلن للملا عند ما سيق للإعدام بقوله: يأمر و ننى بقتل الناس فأقتلهم لهم ثم يأمر و ننى بقتلى. و قد اختلفت أقوال المؤرخين في الحادثة فتارة يذكرونها في عهد السفاح و أخرى في عهد المنصور. هذا و ليس في إمكاننا إحصاء أصحابه عليه السلام و رواة الحديث عنه من الشيعة و غيرهم و نكتفى بهذا القدر، و قد أرجأنا ذكر بعض الأعيان منهم إلى الجزء الثالث: كعبد الملك بن أعين و زرارة و ابنه، و علي بن يقطين، و عمار الدهنى و عمرو بن حنظلة، و الفضيل بن يسار، و أبو بصير، و مؤمن الطاق، و محمد بن مسلم، و معاوية بن عمار، و المفضل بن عمر، و هشام بن سالم، و غيرهم.

## مع البخارى

### شهرة البخارى:

قطع صحيح البخارى (1) شوطا بعيدا من الشهرة و نال قبولا دون غيره من كتب الحديث، فأصبحت له منزلة لا يشاركه بها غيره، و من العسير مؤاخذته بشيء لأن

ص: 80

---

1-1) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن (بردزبه) بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء، معناه بالعربية الزراع، و كان جده المغيرة مجوسيا كأبيه أسلم على يد اليمان البخارى الجعفى لذلك قيل للبخارى جعفى لأنه مولى يمان الجعفى ولد سنة 194 و توفي سنة 256 و دفن بخرتنك قرية على فرسخين من سمرقند.

ذلك يدعو إلى الرمي بالبدعة والخروج عن سبيل المؤمنين (1) ولهذا تهيب أكثر الحفاظ نقده، ووقفوا أمامه موقف خضوع وتسليم. يقول الذهبي في ذكره لبعض الأحاديث: ولو لا هيئة الصحيح لقلت إنها موضوعة. وذهب ابن حزم إلى تكذيب بعض أحاديثه (2) فعنف، لأن التسليم بجميع ما في كتاب البخاري أصبح سنة وصحيحه أصبح معمولاً به، فلا يمكن لأحد أن يعمل بحرية الرأي، ومع هذا فإن بعض الحفاظ من كبار المحدثين تناولوه بالنقد بصراحة وحرية في الرأي من وجوه أهمها: 1- ترتيب الكتاب والعلاقة بينه وبين الترجمة وما تحتها. 2- أنه يقطع الحديث فيذكر بعضه في باب وبعضه في آخر، وقد تختلف الرواية في الأجزاء المختلفة، وقد يذكر بعضها متصل السند وبعضها منقطعه، وقد أخذ عليه في هذا الباب بعض ما أخذ لم يستطع المنتصرون له أن يجيبوا عنها (3) 3- انتقده الحفاظ في بعض أحاديث بلغت 110 منها 32 حديثاً اتفق فيها هو ومسلم ومنها ما انفرد بتخريجه وهو 78. 4- إن بعض الرجال الذين روى لهم غير ثقات وقد ضعف الحفاظ من رجال البخاري نحو الثمانين. وعلى كل حال فإن صحيح البخاري كان محلاً للوثوق والاعتماد عند أكثر المحدثين فهم يقبلون روايته بدون نقاش تهيباً لمكانته، وحذراً من المؤاخذات القاسية والتهجم المر، لأن أكثر الناس يزعمون أنه أعظم كتاب على وجه الأرض، أو أنه: «هو عدل القرآن وأنه إذا قرأ في بيت أيام الطاعون حفظ أهله منه، وأن من ختمه على أي نية حصل ما نواه، وأنه ما قرأ في شدة إلا فرجت، ولا ركب به في مركب فغرقت» (4). وقد جرى على العمل بذلك كثير من رؤساء العلم، ومقدمي الأعيان إذا ألم

ص: 81

1-1) قواعد التحديث ص 241. [1]

2-2) تهذيب التهذيب ج 8 ص 146. [2]

3-3) ضحى الإسلام ج 2 ص 116.

4-4) قواعد التحديث للقاسمي ص 250. [3]

بالبلاذ نازلة، يوزعون أجزاءه على العلماء و الطلبة (لكشف الخطوب و تفريغ الكروب، فهو يقوم عندهم فى الحرب مقام المدافع و الصارم و الأسل، و فى الحريق مقام المضخة و الماء، و فى الهيضة مقام الحيطه الصحيحة و عقاقير الأطباء، و فى البيوت مقام الخفراء و الشرطة، و على كل حال هو مستنزل الرحمات و مستقر البركات) (1). و الحاصل أن صحيح البخارى قد أحيط بهالة من التقديس و الإكبار فهو عدل القرآن و هو أصح كتاب على وجه الأرض- كما يقال- و لهذا فقد تهب أكثر الحفاظ عن نقد أحاديثه و من أقدم على ذلك عنف. و من أظرف الأشياء: أن مجلس المبعوثان فى عهد الأتراك بالعراق قد قرر مبلغاً جسيماً لوزارة الحرية جعلوه لقراءة البخارى فى الأسطول، فقال الشاعر العراقى الزهاوى- و كان عضواً فى المجلس:- أنا أفهم أن هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف، أما الحرية فالمفهوم أن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى فثار عليه المجلس و شغب عليه العامة (2). و نحن لا ننكر عظمة حديث النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بركة آثاره، و لكن لنا أن نتساءل لآى شىء اختص صحيح البخارى دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث؟ و لما ذا كانت له هذه المنزلة دونها؟! و نتساءل لم لم يقرأ القرآن و فيه شفاء للناس و دفع لما يكرهون؟! و لما ذا كان صحيح البخارى عدلاً للقرآن و أصبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة و يوزع أحزاباً فى المساجد و البيوت كما حدث فى مجاعة سنة 798 فى مصر؟؟ فإن كان لصحة أحاديثه فلما ذا لم تكن هذه الخصوصية لموطأ مالك الذى قيل فيه إنه أصح كتاب بعد كتاب الله؟!!! و صحيح مسلم الذى قالوا فيه: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم (3) و يقول ابن حجر: حصل لمسلم فى كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث إن بعض الناس كان يفضل على صحيح محمد بن إسماعيل و ذلك لما اختص به من جمع الطرق و جودة السياق و المحافظة على أداء الألفاظ من دون تقطيع و لا رواية بمعنى. و قال الحاكم: سمعت

ص:82

- 
- 1-1) من مقال لأحد علماء الأزهر نشر فى إحدى المجلات المصرية فى معرض نقده لذلك الاعتقاد السائد نشر سنة 1320 هـ- و قواعد التحديث ص 251. [1]
- 2-2) مجلة الرسالة السنة الخامسة ص 403.
- 3-3) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 104.

أبا الوليد يقول، قال لى أئبى: أى كتاب تجمعم؟ قلت أخرج على كتاب البخارى، قال: عليك بكتاب مسلم فإنه أكثر بركة. وهذا صحيح الترمذى بحسن ترتيبه و تتميقه و تتبعه للصحيح من غيره لم يكن بمنزلة البخارى؟! و قد قالوا: إن كتاب الترمذى أنور من كتاب الترمذى أنور من كتاب البخارى. فإن كانت تلك العظمة التى أحرزها صحيح البخارى لما حواه فالقرآن أولى بأن يتخذ لدفع تلك المشاكل، أو كان لعظمة البخارى نفسه؟ فإن مالك بن أنس صاحب الموطأ أعظم منزلة و أعلى كعبا، و أعرق نسبا، و أغزر علما. و لا نريد أن نقسو على البخارى بالحكم، أو نجحف بحقه، و نقول بمقالة جمال الدين الحنفى: «من نظر فى كتاب البخارى تزندق» (1). و لا نذهب بعيدا عن الواقع فنقول: إن كل ما فيه صحيح يلزم الاعتقاد به و التصديق له، و إن عدم التصديق بدعة، أو كفر بالله و تكذيب لأحاديث الرسول صلّى الله عليه و آله و سلم كما ذهب إلى ذلك كثير من المقلدين الذين لا يعقلون. إن كتاب البخارى لا يخلو من أحاديث لا تتصف بالصحة كما لا يخلو من أحاديث عليها علامة الوضع كحديث «إن النبى كان مسحورا.» و غيره من الأحاديث التى لا يمكن القول بصحتها، لتناقضها أو تعارضها مع غيرها مما يصعب الجمع بينها، و لا ننكر أن الرجل كان همه خدمة الدين و لكنه كان جماعة يتلقى كل ما يسمع بالقبول رغم أنه كان ينتقل من مصر إلى مصر، و يتحول من أفق إلى أفق، و قد جاب العالم الإسلامى من موطنه الأسمى و محل إقامته حتى الحرمين، و من السهولة عليه التمييز فى النظم و السياق و الغرض لكنه صرف همه إلى الرواية فحسب، ففتح أوعية آذانه و لم يفتح أوعية أفهامه لأن أمر تدقيق الطرق و فحص الروايات يحتاج إلى خصائص لا تتوافر إلا بعد جهد، و من الناس من جبل على خصلة أو فطر على شىء لا يستطيع تجاوزه، فكان البخارى مقبلا على الجمع، و لم يحذر إلا من أمر واحد ستجدنا مضطرين إلى إثباته و هو خوف الملوكة الذين يعادون أهل البيت، و ليس عليه من خوف إن أخذ الحديث بطرق الخوارج و المارقين و الوضّاع و الضعفاء. و كل ما يسمعه البخارى يراه مادة حتى نجد أن بعض الأبواب التى تخص السيرة النبوية تضم

ص:83

من الأحاديث التي تتعلق بحياة الرسول الأعظم التفصيلية فيها توغل لا مبرر له ولا حاجة، بل إن عدم ذكرها أولى صيانة للنبي الأعظم ومكانته من تسويته بباقي الخلق، ولكنه الوضع والكذب اللذين جعلاً أصحابهما يتناولون كل ناحية ليكذبوا على الرسول الكريم وهم تتحكم فيهم أغراض شتى نفسية وسياسية واقتصادية. والهالة التي أحاط بها الحفاظ شخصية البخاري والقدسية التي رفع إليها بتضافر أوساط و جهات مختلفة لم تمنع بعض علماء الستة (حفاظاً ومحدثين) من التوقف عن الأخذ بكل ما جاء به البخاري، وعدم تقليد ما جرى عليه ذوو الشأن في الحديث والسياسة، بل تركوا البخاري في بعض ما لا يصح من رواية أو قول كأبي حاتم وابنه عبد الرحمن، وكأبي زرعة، كما ضعف الحفاظ أبو الحسن الدارقطني طائفة كبيرة من أحاديثه. والعلماء الذين أنكروا صحة بعض أحاديثه لم ينكروها إلا بأدلة قامت عندهم، ولا ندري كيف يعد ذلك طعناً في دين الإسلام، وهذا للسنن كما يذهب بعضهم. وقد انتقد العلماء من أحاديث البخاري أكثر من مائة حديث، كما انتقدوا رجاله وطعنوا في كثير منهم لأنهم أناس لا قيمة لهم في ميزان الصدق والعدالة، ومنهم ضعفاء لا يتصف حديثهم بالصحة. ولقد ترك البخاري الرواية عن كثير من علماء الأمة وأعلام الحديث، ومن هم أدرى بحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأشد عناية فيه وإحاطة له، وفي طليعتهم الإمام الصادق عليه السلام فلم يقدح ذلك فيهم أو يحط من مقامهم. وقد خرج أحاديث أناس لم يسلموا من الطعن، سواء في العقيدة أو العدالة، أو الوثاقة، فإن منهم من اتهم بالكذب، ووصف بوضع الحديث، وللمثال نذكر منهم: إسماعيل بن عبد الله بن أويس بن مالك المتوفى سنة 226. قال يحيى بن معين: إن إسماعيل مخلط كذاب. وقد تكلم فيه النسائي كما أنه عرف بوضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فيما بينهم. وزياد بن عبد الله العامري المتوفى سنة 282 فإنه منهم بالكذب. قال الترمذي عن وكيع: إن زياد بن عبد الله على شرفه كان يكذب في الحديث. والحسن بن مدرك السدوسي الطحان رماه أبو داود بالكذب، وتلقين المشايخ وغير هؤلاء ممن لا نحب إطالة الحديث عنهم وبسط القول فيهم.

أما الضعفاء فقد ذكروا منهم عددا لا يقل عن الثمانين أمثال: الحسن بن ذكوان البصرى فقد كان قدريا يدلّس، و عرف بالخطب، و ضعفه أحمد و ابن معين، و النسائي، و الترمذى، و ابن المدينى. و منهم أحمد بن أبى الطيب البغدادى، و سلمة بن رجاء التميمى، و بسر بن آدم الضريير و غيرهم ممن نص الحفاظ على ضعفهم. أما القدرية، فهم عدد كثير كعبد الله بن أبى ليبيد المدنى، و عبد الله بن أبى نجيح المكى، و كهمس بن منهال السدوسى، و هارون بن موسى الأزدي و سفيان بن سليمان، و عبد الوارث بن سعيد، و غيرهم. و القول: بأن تخريج البخارى هو دليل الوثاقه، و شاهد العدالة، و أن من يروى له البخارى «فقد جاز القنطرة» كما يقول بعضهم بمعنى أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه. فهذا مجرد افتراض لا يدعمه دليل، و تخالفه القرائن و الشواهد، فليس قول البخارى فى الشخص هو الحكم العدل و القول الفصل، فالخلاف فى الجرح و التعديل لم ينته إلى حد أو يقف عند قول أحد، على أنهم قد أحصوا على البخارى أخطاء فى معرفة الرجال و أسمائهم، كجعله اسم الرجل الواحد اسمين أو ثلاث، كالوليد بن أبى الوليد مولى عبد الله بن عمر، و هرون بن سعد مولى قريش، و كثير بن خنيس و غيرهم، فقد جعل اسمين لكل واحد منهم، و كذلك جعل محمد بن أيوب اليمامى ثلاثة أسامى و هو واحد، كما نسب عبد الملك بن أخى القعقاع إلى القعقاع، و ذكر فى باب النون اسم ناسح الحضرمى، و هو عبد الله بن ناسح الذى يروى عنه شرحبيل بن شفيعة، إلى غير ذلك من المؤاخذات عليه. و هناك ناحية ذات أهمية فى الموضوع و هى تخريجه لأناس عرفوا بالنصب و العدا لعلى عليه السلام و بغضهم لآل محمد من خوارج و غيرهم أمثال: عمران بن حطان السدوسى البصرى المتوفى سنة 84 هـ. كان من رءوس الخوارج و المعننين عدا الإمام على عليه السلام و هو الذى مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادى بقوله: يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

فهذا الرجل قد تحدى مقام النبى صلى الله عليه و آله و سلم فسمى من و سمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأنه أشقى

الأولين والآخرين، بأنه تقي، وقد صح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه قال: «يا علي أتدرى من أشقى الأولين؟ فقال علي عليه السلام: الله ورسوله أعلم فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عاقر الناقة. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا علي أتدرى من أشقى الآخرين؟ فقال علي عليه السلام الله ورسوله أعلم، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: قاتلك يا علي». أخرجه أحمد بن حنبل وابن الضحاك ورواه الطبري (1). وروى صهيب عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مثله وكان علي عليه السلام لأهله: والله وددت لو انبعث أشقاها. أخرجه أبو حاتم. فأى ثقة وأى عدالة لمن يخالف قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويتجرأ على مقامه، فيسمى من سماه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شقيا تقياً ويعلم مدحه والثناء عليه. وقد انبرى للرد عليه كثير من علماء الإسلام نظماً ونثراً مما لا يتسع المجال لذكرهم. وأبو الأحمر السائب بن فروخ المتوفى سنة 136 وكان شاعراً هجاء خبيثاً فاسقاً مبغضاً لآل محمد، وهو القائل لأبي عامر بن وائلة الصحابي المعروف بأبي الطفيل (2). لعمرك إنني وأبا طفيل لمختلفان والله الشهيد

لقد ضلوا بحب أبي تراب كما ضلت عن الحق اليهود

(3) فهذا الرجل كسابقه أيضاً قد تحدى ما روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «علي مع الحق والحق مع علي» وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «علي مع القرآن والقرآن مع علي» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن الهدى فى اتباع علي عليه السلام والضلالة فى خلافه ولكن هذا الشاعر الأموى قد رد أقوال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتحدى مقامه، فأى عدالة يتصف بها وأى ثقة تدعو إلى الاطمئنان بقوله؟! وحرير بن عثمان الحمصي (4) المتوفى سنة 163 هـ- كان من المشهورين بالنصب والمعلنين العدا لعل عليه السلام، وكان ينال منه ويقول: لا أحب علياً قتل أبائى.

ص: 86

1-1 (1) ذخائر العقبى ص 115. [1]

2-2 (2) أبو الطفيل عامر بن وائلة بن عبد الله بن عمر الليثي الكنانى صحابى جليل وهو آخر الصحابة وفاة. بقى إلى سنة 100 هـ- وتوفى فيها وكان من شيعة علي شهد معه حروبه كلها.

3-3 (3) نكت الهميان [2] للصفدى.

4-4 (4) تهذيب التهذيب ج 1 ص 238 و [3] تاريخ بغداد ج 2 ص 295 و شذرات الذهب ج 1 ص 257 وغيرها.



و يقول: لنا إمامنا (يعنى معاوية) و لكم إمامكم (يعنى عليا) . و غير هؤلاء من رجال صحيح البخارى الذين عرفوا بالنصب أمثال إسحاق بن سويد التميمى المتوفى سنة 131 هـ، و عبد الله بن سالم الأشعري المتوفى سنة 179 هـ، و زياد بن علاقة أبو مالك الكوفى المتوفى سنة 129 هـ، و غيرهم من النواصب و الخوارج الذين أعلنوا العدا لعلى و تظاهروا بالتحامل عليه، و قد قال صلّى الله عليه و آله و سلم: «يا على لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق» . و إن المنافقين لفى الدرك الأسفل من النار. فكيف تصدق أخبارهم و يؤخذ بأحاديثهم (و الله يشهد أن المنافقين لكاذبون). فمن الحق و واجب العلم أن نستنكر على البخارى تخريج حديث أناس خالفوا أحاديث الرسول صلّى الله عليه و آله و سلم فى وجوب حب آل حبه صلّى الله عليه و آله و سلم و أعلنوا العدا لهم و عرفوا بالنصب، و لعل هناك أمرا خفى علينا و كان هو الداعى له على إقدامه لروايته عنهم و احتجاجه بهم، و لست أدري أخفى على البخارى قول النبى لعلى: لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق. حتى اشتهر فى عصر الصحابة أنهم كانوا لا يعرفون المنافقين إلا ببغضهم على بن أبى طالب. و بغض على بغض رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم؟! أم خفى على البخارى قوله صلّى الله عليه و آله و سلم: يا على حريك حربي و سلمك سلمى أليس على هو من النبى بمنزلة هرون من موسى كما يحدثنا البخارى نفسه فى صحيحه ج 2 ص 199؟! و هناك آلاف من الأحاديث فى فضل على عليه السلام و أهل بيته و قد خرجها الحفاظ من طرق عديدة، و لكن البخارى لم يخرج إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها، و ليس من المعقول أن عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها، و لكن هناك شىء غير هذا، و لعله كان يفقد الشجاعة و الجرأة الأدبية كما لاحظ ذلك منه بعض الكتاب فقال ما مضمونه: إن كتاب البخارى لا تتجلى فيه الشجاعة و عدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنه-أى مسند أحمد-لم يتخرج من ذكر أحاديث كثيرة فى ذكر مناقب على و شيعته. و عكسه البخارى. و للإيضاح نذكر بعض ما ورد فى أهل البيت مما خرج حافظ الحديث و علماء الأمة من طرق صحيحة ليتضح لنا مدى تحفظ البخارى و إعراضه عن ذكر فضائل آل محمد.

وأنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين

### تخريج الحفظ لآية التطهير:

1- قوله تعالى: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (1)**. أخرج مسلم في صحيحه عن طريق عائشة: خرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعليه مرط من شعر أسود فجاء الحسن بن علي عليه السلام فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (2)**. وأخرج الترمذي من طريق عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: نزلت هذه الآية على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في بيت أم سلمة فدعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء ثم قال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»** قالت أم سلمة: يا رسول الله وأنا معهم؟ قال: أنت علي مكانك وأنت علي خير (3). وأخرج الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة 303 هـ - من طريق سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي (4). وأخرج الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية وكان في البيت علي وفاطمة والحسن والحسين، قالت: وكنت علي باب البيت فقلت: أين أنا يا رسول الله؟ قال: أنت في خير وإلى خير (5).

ص: 88

1-1 (1) سورة الأحزاب، الآية 33. [1]

2-2 (2) صحيح مسلم ج 4 ص 127.

3-3 (3) الترمذي ج 4 ص 304. [2]

4-4 (4) الخصائص ص 4.

5-5 (5) الخطيب ج 9 ص 127.

وأخرج أيضا من طريق أبي سعيد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي نَزْوْلِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: جَمَعَ رَسُولُ اللهِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا ثُمَّ أَدَارَ عَلَيْهِمُ الْكِسَاءَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي. . . الخ. وأخرج ابن عبد البر (1) قال: لما نزلت إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاطِمًا وَعَلِيًّا وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فِي بَيْتِ أُمِّ سَلْمَةَ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَادْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً» وَأَخْرَجَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ مِنْ طَرِيقِ أُمِّ سَلْمَةَ (2). وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي خَمْسَةِ: فِيَّ، وَفِي عَلِيٍّ، وَحَسَنِ وَحُسَيْنٍ وَفَاطِمَةَ. إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. وَأَخْرَجَ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَيْتِهَا وَأَنَّ فِي الْبَيْتِ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالحسنَ وَالحسينَ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، اللَّهُمَّ اذْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً. وَأَخْرَجَ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ مِثْلَهُ، وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهُ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ. وَأَخْرَجَ عَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ (3) عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالحسنَ وَالحسينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمُرُّ بِبَيْتِ فَاطِمَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ كَلَّمَا خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَيَقُولُ الصَّلَاةُ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

ص: 89

1-1 (1) الاستيعاب [1] بهامش الإصابة ج 1 ص 27. [2]

2-2 (2) أسد الغابة ج 5 ص 521. [3]

3-3 (3) وائلة بن الأسقع بن كعب بن عامر من بني ليث بن عبد مناة أسلم قبل تبوك وشهدها، روى عن النبي (صلى الله عليه وآله) وكان من أهل الصفة وأشار ابن حجر في الإصابة [4] إلى وهم البخاري فيه.

وَ يُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً وَعَنْ أَبِي الْحَمْرَاءِ مِثْلَهُ (1). وَقَالَ السَّيُوطِيُّ (2) مِنْ طَرِيقِ أُمِّ سَلْمَةَ: أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي بَيْتِهَا عَلَى مَنَامٍ لَهُ وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ خَيْبَرِيٌّ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ادْعِي لِي زَوْجَكَ وَابْنِيكَ حَسَنًا وَحَسِينًا فَدَعْتَهُمْ فَبَيْنَمَا هُمُ يَأْكُلُونَ إِذْ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ... . الْآيَةَ فَأَخَذَ النَّبِيُّ بِفَضْلَةِ إِزَارِهِ فَغَشَاهُمْ ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الْكِسَاءِ وَأَوْمَأَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي. الْخَبَرُ (3). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَالِكِيُّ: رَوَى الْوَاحِدِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمَسْمُومِ سَبَابَ النَّزُولِ يَرْفَعُهُ بِسَنَدِهِ إِلَى أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي بَيْتِهَا يَوْمًا فَاتَتْهُ فَاطِمَةُ بِبُرْمَةٍ فِيهَا عَصِيدَةٌ فَدَخَلَتْ بِهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي لِي زَوْجَكَ وَابْنِيكَ. فَجَاءَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَدَخَلُوا يَأْكُلُونَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ عَلَى دَكَّةٍ وَتَحْتَهُ كِسَاءٌ خَيْبَرِيٌّ قَالَتْ: وَأَنَا فِي الْحِجْرَةِ قَرِيبٌ مِنْهُمْ فَأَخَذَ النَّبِيُّ الْكِسَاءَ فَغَشَاهُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَادْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً» فَادْخَلَتْ رَأْسِي وَقُلْتُ: وَأَنَا مَعَكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ... . الْآيَةَ (4). وَأَخْرَجَهُ مَحَبُّ الدِّينِ الطَّبْرِيُّ قَالَ: فِي بَيَانِ أَنَّ فَاطِمَةَ وَعَلِيًّا وَحَسَنًا وَحَسِينًا هُمُ أَهْلُ الْبَيْتِ الْمَشَارِ الْإِيهَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ. وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ أُمِّ سَلْمَةَ، وَ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِ بْنِ أَبِي سَلْمَةَ رَيْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَ مِنْ طَرِيقِ زَيْنَبِ بِنْتِ أَبِي سَلْمَةَ، وَ مِنْ طَرِيقِ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ وَ مِنْ طَرِيقِ عَائِشَةَ (5).

ص: 90

- 
- 1-1 (1) تفسير ابن جرير ج 7 ص 22.  
 2-2 (2) الدر المنثور ج 5 ص 198. [1]  
 3-3 (3) الدر المنثور ج 5 ص 198. [2]  
 4-4 (4) الفصول المهمة ص 6. [3]  
 5-5 (5) ذخائر العقبى ص 21-24. [4]

و عن أبي سعيد الخدرى أنها نزلت فى خمسة: رسول الله، و على، و فاطمة، و الحسن، و الحسين، أخرجهم أحمد فى المناقب و الطبرانى. و أخرجهم الخطيب البغدادي عن سعد بن أبى عوف عن أبى سعيد عن أم سلمة. و عن أبى سعيد الخدرى أنها نزلت فى على و فاطمة و الحسن و الحسين (1) و أخرجهم البغوى من طريق عائشة (2). و أخرجهم الحاكم فى المستدرک عن عطاء بن يسار عن أم سلمة (3). و قال عبد الملك الثعالبي النيسابورى: جمع النبى عليا و فاطمة و الحسن و الحسين، ثم قال: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمُ تَطْهِيرًا قَالَ: و يروى أن جبرائيل انضم إليهم و اندس فيهم تقربا إلى الله تعالى بمدخلتهم و قال: كساء آل محمد يضافون إليه فيقال: آل الكساء كما قال ديك الجن فى مدحهم: و الخمسة الغر أصحاب الكساء معا خير البرية من عجم و من عرب

(4) و قال ابن تيمية فى جواب من سأله عن دخول على عليه السلام فى أهل البيت: مما لا خلاف فيه بين المسلمين، و هو أظهر عندهم من أن يحتاج إلى دليل بل هو أفضل أهل البيت و أفضل بنى هاشم بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و قد ثبت عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه أدار كساء على و فاطمة و حسن و حسين فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» (5). و قال ابن حجر الهيتمى فى شرح همزية البوصيرى ص 319 عند قوله: و بأمر السبطين زوج على و بنيتها و من حوته العباء

و هم النبى صلى الله عليه و آله و سلم و فاطمة و على و ابناهما الحسن و الحسين. و قال: و صح أنه صلى الله عليه و آله و سلم جعل على و فاطمة و ابنيهما كساء و قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى و خاصتى، اذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» ، فقالت أم سلمة:

ص: 91

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 9 ص 129 و ج 10 ص 278. [1]

2-2 (2) معالم التنزيل [2] بهامش الخازن ج 5 ص 213. [3]

3-3 (3) المستدرک ج 2 ص 416.

4-4 (4) ثمار القلوب 483-484.

5-5 (5) الفتاوى لابن تيمية ج 1 ص 230. [4]

و أنا منهم؟ قال: إنك على خير، وفي رواية ألقى عليهم كساء و وضع يده عليهم و قال: «اللهم إن هؤلاء آل محمد صلّى الله عليه وآله و سلم فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد». و قال الشيخ عبد القادر الرافعي: عند ذكر بيت البوصيري و من حوته العباء هم: النبي و علي و فاطمة و ابناهما (1). و ذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط، و هم محمد صلّى الله عليه وآله و سلم و علي و فاطمة و الحسن و الحسين في خمسة عشر موردا. و نود الإشارة إليها زيادة في التوضيح و تأكيدا للبيان: 1- حديث أبي الحمراء أن النبي صلّى الله عليه وآله و سلم كان إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي عليه السلام و فاطمة و قال: الصلاة الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا. 2- حديث شداد بن عمار عن واثلة، قال ابن عمار: إنني جالس عند واثلة بن الأسقف إذ ذكروا عليا فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه، كنت عند رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم إذ جاء علي و فاطمة و حسن و حسين رضی الله عنهم فألقى عليهم كساء له، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا. 3- حديث أبي رباح عن حدثه عن أم سلمة أنها نزلت في الخمسة. 4- من طريق أبي هريرة عن أم سلمة أيضا. 5- عن حكيم بن سعد: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت في بيتي نزلت: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . 6- عن عطية عن أبيه عن أم سلمة. 7- عن أبي سعيد عن أم سلمة. 8- عن شهر بن حوشب عن أم سلمة. 9- عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة.

ص: 92

10- عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ذات غداة و عليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. 11- وعن العوام بن حوشب، عن ابن عم له قال: دخلت مع أبي علي أم المؤمنين عائشة فسألتها عن علي فقالت: تسألني عن رجل كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و كان ابنته تحته، رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليا و فاطمة و حسنا و حسينا فألقى عليهم ثوبا، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله و أنا من أهل بيتك؟ فقال: تنحى إنك على خير (1). 12- عن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها نزلت في خمسة: فيّ و في علي و فاطمة و حسن و حسين. 13- عن عامر بن سعد عن سعد قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلت عليه فأخذ عليا و ابنه و فاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: ربي هؤلاء أهلي و أهل بيتي. 14- عن أبي جميلة عن الحسن بن علي عليه السلام. 15- عن السدي عن أبي ديلم عن علي بن الحسين عليه السلام. هذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره سلكتنا في نقله طريق الاختصار و أعتقد أن المنصف يكتفي بما ذكرنا و لا نحتاج إلى ذكر تفاصيل أخرى حول تخصيص نزول هذه الآية في أهل البيت خاصة، فالأمر أجلى من الشمس. و كان صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة، لذلك كان يمر علي باب فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم و يتلو هذه الآية. روى الترمذي في صحيحه عن أنس بن مالك. قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى صلاة الفجر و يقول: الصلاة

ص: 93

---

1-1) أخرجه البغوي عن عائشة في معالم التنزيل ج 5 ص 213 [1] المطبوع بهامش تفسير الخازن، و [2] كذلك الخازن نفسه ذكره عن طريق عائشة ج 5 ص 213 و فيه زيادة أنت من أزواج النبي و لا تتكلف البحث عن قوله (صلى الله عليه وآله) لعائشة تنحى. و إلحاق أنت على خير أو أنت من أزواج النبي.

يا أهل البيت إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (1). وفي رواية أبي الحمراء: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يمر ببيت فاطمة وعلى عليه السَّلَام فيقول: السَّلَام عليكم أهل البيت إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. رواه السيوطي عن أبي الحمراء أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يمر على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى الصلاة الغداة إلا وأتى باب فاطمة ويقول: السَّلَام عليكم أهل البيت إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ. . . الآية (2). ورواه ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أبي الحمراء قال رواه الثلاثة (3). وعن ابن عباس: شهدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب على عليه السَّلَام عند وقت كل صلاة فيقول: السَّلَام عليكم أهل البيت إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ. . . الآية خمس مرات. وهذا البيان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ زيادة في البيان لأُمَّته وتأكيداً لهم في إبراز أهله بتلك المنزلة العظيمة وبديهي أنه ما كان قصده أن يوقظهم للصلاة فهم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا. ولكن لشدة اهتمامه بآله وياظهار فضلهم للأمة كان يعمل هذا ليطبقه تطبيقاً عملياً. وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى (4). ثم إنه يختلف تفسير آله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باختلاف المقامات، ففي مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الصدقة كبنى هاشم وفي مقام المدح هم أهل بيته الكرام الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المرام. وفي الحديث: من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له. ولله در القائل: أرى حب آل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربى

فما اختار خير الخلق منا جزاءه على هديه إلا المودة فى القربى

ص: 94

1-1) شرح الترمذى لابن العربى ج 13 ص 85 و ابن عبد البر فى الاستيعاب [1] بهامش الإصابة ج 4 ص 46. [2]

2-2) الدر المنثور ج 5 ص 174. [3]

3-3) الدر المنثور ج 5 ص 99 و [4] أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب ج 4 ص 64. [5]

4-4) شرح الشافية ص 123.



و هم أهل العبا جمعهم النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم تحت الكساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فأنزل الله عز وجل: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ... الآية. وهم الحسن والحسين وأمهما وأبوهما كما قال بعضهم: إن النبي محمدا ووصيه و ابنه و ابنته البتول الطاهرة

أهل العباء و إننى بولائهم أرجو السلامة و النجا فى الآخرة

وراه الشيخ عبد الله الشبراوى (1). و أخرجه ابن عساكر فى تاريخه و أطال البحث فى تحقيقه (2). و محمد بن يوسف الشافعى فى كفاية الطالب (3). و الشيخ أبو بكر بن ملا- الحنفى فى كتاب قرّة العيون (4). و ابن عبد ربه فى العقد الفريد (5). و الشيخ نعمان الألوسى فى غالية المواعظ قال أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أن الآية نزلت فى على و فاطمة و الحسن و الحسين و أخرج البيهقى و الترمذى و ابن المنذر عن أم سلمة... (6). و أخرجه الواحدى فى أسباب النزول عن أبى سعيد عن أم سلمة (7). و يطول بنا البحث، فى تتبع إيضاح هذه الآية، و ذكر روايتها، و بيان اختصاصها بأل محمد و لا يشاركهم بتلك المنزلة أحد، فنقتصر على هذا البيان الموجز بالنسبة لما تقتضيه من إيضاح يستدعى إلى وضع مجلدات كثيرة للخوض فى نتاجات روح التعصب و الطائفية التى رعتها و غذتها سياسات الملوك و الأمراء الذين صبوا جام حقدهم على أهل البيت الأظهار و شيعتهم و راحوا يجندون علماء سوء و عبدة السلطان للتأثير على أفهام الناس و التحكم فيهم حتى اختلط على الناس ما هم فيه و جازت عليهم البدع و الضلالات التى يروجها هؤلاء، فما بين شتم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) على سنة معاوية و بين إرهاب أهل البيت (عليه السلام) على سنة أولاد عم

ص: 95

1-1) الأتحاف السننية ص 5.

2-2) تاريخ ابن عساكر ج 4 ص 204.

3-3) كفاية الطالب ج 2 ص 13. [1]

4-4) قرّة العيون ج 1 ص 189.

5-5) العقد الفريد ج 1 ص 37.

6-6) غالية المواعظ ج 2 ص 86.

7-7) أسباب النزول ص 267. [2]

النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم من العباسيين الذين كانوا يقسمون بلا خجل بهذه القرابة وأيديهم ملطخة بدماء أبنائه، كان الناس يحنون الرقاب لأصحاب السلطان والملك و يدعون (لأولى الأمر)، وليس أولو الأمر غير أئمة الحق والدين وورثة علم النبي المصطفى وحملة رسالته من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وإنها لرزية أن يتكلف مسلم مناقشة أمور هي من أنصع الحقائق.

## حديث الغدير

### رواية حديث الغدير من الصحابة:

رواه جماعة من الصحابة، ينوف عددهم على المائة، وفي طليعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري المتوفى سنة 21 هـ-الذي قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «ما أضلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبي ذر»، رواه عنه جماعة من الأعلام. و حذيفة اليماني المتوفى سنة 29 هـ-و البراء بن عازب، و جابر بن عبد الله الأنصاري، و أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري المتوفى بغزوة الروم سنة 50 هـ-، و سعد بن أبي وقاص، و سلمان الفارسي المتوفى سنة 36 هـ-و طلحة بن عبيد التيمي، و عائشة زوجة النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أخرج حديثها ابن عقدة (1) في كتاب حديث الولاية. و عبد الله بن عباس المتوفى سنة 68 هـ-و العباس بن عبد المطلب عم النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم و عثمان بن عفان، و أبو اليقظان عمار بن ياسر العنسي شهيد صفين سنة 27 هـ-، و الصديقة فاطمة بنت النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم و غيرههم إلى عدد يتجاوز المائة. ورواه من التابعين عدد ينوف على الثمانين، و كانت عناية الجميع بهذا الحديث

ص:96

1-1) هو أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المتوفى 230 قال الذهبي: هو حافظ العصر والمحدث البحر، كان إليه المنتهى في قوة الحفظ وكثرة الحديث، وقال الدارقطني أجمع أهل الكوفة أنه لم يكن بالكوفة من زمن ابن مسعود إلى زمن ابن عقدة أحفظ منه، وقال أبو علي الحافظ: ما رأيت لحديث الكوفيين أحفظ من أبي العباس بن عقدة، و كان ابن عقدة يقول: أحفظ مائة ألف حديث بأسانيدها ويقول أجيب في ثلاثمائة ألف حديث من أحاديث أهل البيت قال الذهبي و كان مقدما في الشيعة، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج 3 ص 16 و ذكرنا ترجمته هنا لأنه من الذين ألفوا في حديث الغدير في القرن الرابع و أخرج الحديث من مائة و خمسين طريقا.

ظاهرة، وقد خرج جماعه من العلماء فى كتبهم المعتمده كمسلم فى صحيحه، و الترمذى و الحاكم، و عدد لا يمكننا حصره بهذه العجالة، و قد ألف فيه جماعه كتباً خاصة يربو عددهم على الثلاثين. و شهد به لأمر المؤمنين عدد من الصحابة، يوم ناشدهم بحديث الغدير فى مواطن عديدة كيوم الشورى، و أيام عثمان، و يوم الرحبة، و قام له فى ذلك اليوم من الصحابة عدد ليس بالقليل و فى طليعتهم: أبو الهيثم بن التيهان و أبو هريرة الدوسى؛ و أبو سعيد الخدرى، و غيرهم عدد لا يقل عن العشرين و تواتر النقل بتعدد مناشدة أمير المؤمنين أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم يظهروهم للملا هذا الحديث الشريف كما ورد أنه ناشدهم يوم الجمل، و يوم الركبان فى الكوفة، و شهد له بذلك جماعه من الصحابة منهم عمار بن ياسر و هو من البدرين، و أبو الهيثم بن التيهان، و خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين، و قيس بن سعد بن عباده، و هم ممن شهدوا بدرًا، و قد أخفى ذلك الحديث جماعه من القوم لمؤثرات العاطفة و عوامل التعصب فدعا عليهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: اللهم من كنتم هذه الشهادة و هو يعرفها فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها، فبرص أنس، و عمى البراء بن عازب، و رجح جرير اعرابيا بعد هجرته و هم ممن كنتموا شهادتهم و لم يؤدوا ما حملوا، و منهم زيد بن أرقم، و يزيد بن وديعة. و كذلك ناشد أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم يوم صفين، و احتجت به فاطمة (عليه السلام) و الإمام السبط الحسين بن على عليه السلام و عبد الله بن جعفر و غيرهم، و لزيادة البيان نورد طرفاً من خطبة النبى صلى الله عليه و آله و سلم يوم الغدير.

### خطبة النبى يوم الغدير:

أخرج ابن جرير الطبرى المتوفى سنة 210 هـ فى كتاب الولاية بسنده عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبى صلى الله عليه و آله و سلم بغدير خم فى رجوعه من حجة الوداع و كان فى وقت الضحى و حر شديد فأمر بالدوحات فقمنا و نادى الصلاة جماعه فجمعنا فخطب فخطب خطبة بالغة ثم قال: إن الله تعالى أنزل إلى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس و قد أمرنى جبرئيل عن ربي أن أقوم فى هذا

المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخى ووصيى وخليفتى والإمام بعدى، فسألت جبرئيل أن يستعفى لى ربي لعلمى بقله المتقين وكثرة المؤذنين لى واللائمين لكثرة ملازمتى لعلى، وشدة إقبالى عليه حتى سمونى أذنا، فقال تعالى: وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ [التوبة: 61] ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكنى بسترهم قد تكرمت، معاشر الناس فإن الله قد نصبه لكم وليا وإماما وفرض طاعته على كل أحد ماض حكمه جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلى إمامكم، ثم الإمامة من صلبه إلى القيامة. ومنها: «افهموا كتاب الله، ولا تتبعوا متشابهه ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضده ومعلمكم: إن من كنت مولاه فعلى مولاه ومولاته من الله عز وجل أنزلها على. ألا وقد أديت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت»، إلى آخر خطبته صلى الله عليه وآله وسلم التى رواها الثقات من رجال الأمة. ومن أراد الاطلاع وسعة البيان فليراجع ما كتبه الحجة المتتبع فقيه التاريخ شيخنا العلامة الأمين الشيخ عبد الحسين الأمينى فى كتابه «الغدیر» ففیه نجعة الرائد وبغية الطالب. فهذا بيان موجز عن حديث الغدير، الذى تخرج البخارى عن إخراجة وتكر له كما تنكر لكثير من فضائل أهل البيت، وحادثة الغدير أهم الحوادث الإسلامية التى سجلها التاريخ بصورة لا مجال لأحد إنكارها، ومن المؤسف إنكار بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة، مكابرة منهم بعد وضوح الحجة والدليل القاطع يوم قام النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك الحفل الرهيب، وجمع الحاشد وفى ذلك الهجير المضطرم، فى غدیر خم حيث مفترق المدنيين والمصريين والعراقيين، وعدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، وبلغ ما أمره به ربه «بأن ينص على على عليه السلام وينصبه علما للناس من بعده، وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن ذلك سوف يثقل على الناس وقد يحملونه على المحاباة والمحبة لابن عمه وصهره، ومن المعلوم أن الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا فى مستوى واحد من الإيمان واليقين بنزاهة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعصمته عن الهوى والغرض، ولكن الله سبحانه لم يعذره فى ذلك فأوحى إليه: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [المائدة: 67]، فلم يجد بدا من الامتثال بعد هذا الإنذار

الشديد، فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدیر خم فنادى و جلّهم يسمعون: أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: «من كنت مولاه فهذا على مولاه» إلى آخر ما قال ثم أكد ذلك فى مواطن أخرى تلويحا و تصریحا و إشارة و نصا حتى أدى الوظيفة، و بلغ عند الله المعذرة، و لكن كبار المسلمين بعد النبی صلی الله علیه و آله و سلم تأولوا تلك النصوص نظرا منهم لصالح الإسلام حسب اجتهادهم فقدموا و آخروا و قالوا: «الأمر يحدث بعده الأمر» (1).

### عناية الشيعة بعيد الغدير:

و كان عيد الغدير محل عناية أهل البيت و شيعتهم على ممر العصور يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف، و فى عهد آل بويه أقيم فى بغداد سنين متطولة بصورة علنية نظرا لرفع الرقابة و عدم الحذر، و قد عظم ذلك على خصوم الشيعة فثاروا ضد إعلان هذا العيد و حدثت ثورات دموية بين السنة و الشيعة على فترات من الزمن، و الشيعة متمسكة بإظهار هذا العيد لا تقف تلك المحاولات فى طريق إقامة شعائره، و لما رأى خصوم الشيعة أن وسائلهم التى قاموا بها ضد هذه الشعائر كان نصيبها الفشل، التجأوا إلى المغالطات العلمية فقاموه فى إحداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر. و هو يوم الغار و جعلوه عيدا و أقاموا الزينة و نصبوا القباب فى اليوم السادس و العشرين من ذى الحجة، و زعموا أن النبی صلی الله علیه و آله و سلم و أبا بكر اختفيا فى الغار، و هذا من الجهل و الغلط البين، فإن أيام الغار إنما كانت فى آخر صفر أو أول شهر ربيع الأول (2) و استمروا على ذلك مدة ثم كان مصير هذا العيد إلى الإهمال و النسيان. أما الشيعة فقد استمروا على إحياء عيد الغدير و إقامة المآتم يوم عاشوراء فضايق بأعدائهم ذرعا فى سنة 363 هـ عمدوا إلى مقابلة الشيعة و أركبوا امرأة و سموها عائشة، و تسمى بعضهم بطلحة و بعضهم بالزبير، و قالوا: نقاتل أصحاب على فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير (3). و استمرت الفتن بين الطرفين بسبب إقامة هذه الشعائر، و بلغت مبلغا شديدا

ص: 99

1-1 (1) أصل الشيعة و أصولها ص 108. [1]

2-2 (2) شذرات الذهب لابن العماد ج 3 ص 120. [2]

3-3 (3) تاريخ ابن كثير ج 11 ص 275.

حتى التجأ خصوم الشيعة إلى الاستعانة بالجند والسودان وذلك في سنة 350 هـ-961 م وكان الجنود يسألون من يجدونه في الطريق من خالك؟ فإن لم يقل معاوية ضربه. و طاف أحد السودان المتهجمين بالطرقات وهو يصيح بين الناس: معاوية خال على فتابعه العامة، و أصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حينما يريدون قتال الشيعة (1). ويحكي عن بعض الشيعة في تلك المحنة قيل له: معاوية خالك فقال: لا أدرى أكانت أمى نصرانية. كل ذلك محاولة منهم لإرغام الشيعة على ترك إقامة هذه الشعائر، ولكنها مرت على ذلك غير مبالية بتلك المقابلات الفاشلة. كما أنهم قابلوا يوم عاشورا بيوم مصرع مصعب بن الزبير، وأقاموا عليه النياحة وزاروا قبره يومئذ بمسكن (2) ونظروه بالحسين عليه السلام لكونه صبر وقاتل حتى قتل، ولأن أباه ابن عمه رسول الله وحواريه، كما أن أبا الحسين عليه السلام ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفارس الإسلام فنعوذ بالله من الهوى والفتن (3). وناهيك ما جرى في بغداد من حروب دامية مبعثها الجهل والتعصب التي يقف القلم عند وصفها، وأعظمها محنة وقعة الكرخ التي تجلت فيها نفسية قوم أشرب قلوبهم بغض آل محمد والقضاء على من يواليهم، فقد هجمت طوائف يبعثهم صلف الولاية وميلهم للنزعات، حتى أحرقوا دور شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقتلوا الرجال والأطفال فكانت عاقبة الدولة إلى الدمار والانهيار بعد تلك الحادثة بقليل، وليس في وسعنا التعرض لذكر تلك الفجائع السود ولا نود نبش تلك الدفائن التي مرت في تلك العصور المظلمة، ونحن في عصر ما أحوجنا فيه إلى الاخوة والاتحاد لتقابل من يكيّد الإسلام ويحاول القضاء على تعاليمه ولا يروق له اتحاد المسلمين لأن في اتحادهم يكون القضاء على المستبدين بأمور الأمة، وكلنا أمل بالوعى المتعاضم بوجوب تطبيق نظام الإسلام ومن الله نسأل تحقيق ذلك.

ص:100

1-1) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم مترج 1 ص 112.

2-2) مسكن موضع على نهر دجيل في العراق دارت الحرب فيه بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة 72 هـ-فقتل مصعب ودفن فيه.

3-3) شذرات الذهب ج 3 ص 130. [1]

تخريج الحفاظ لحديث الثقلين:

أخرج مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم خطبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم الغدير وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيها: و أنا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي (1). وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما (2). وأخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض (3). وعن أبي سعيد أيضا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا بم تخلفوني فيهما (4)؟ ورواه البغوي في مصابيح السنة (5) والقاضي عياض في الشفاء. وأخرج الخطيب البغدادي من طريق حذيفة بن أسيد أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: يا أيها الناس إني فرط لكم وأنتم واردون على الحوض، وإني سائلكم حين تردون على عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم واستمسكوا به (6).

ص: 101

- 1-1) صحيح مسلم ج 7 ص 122.
- 2-2) سنن الترمذي ج 2 ص 308. [1]
- 3-3) مسند أحمد ج 2 ص 14 [2] ط 1.
- 4-4) مسند أحمد ج 2 ص 17-26. [3]
- 5-5) مصابيح السنة ج 2 ص 204.
- 6-6) تاريخ البغدادي ج 8 ص 443. [4]

وأخرجه الحاكم من طريق زيد بن أرقم في المستدرک (1) ورواه السيوطي من ثلاث طرق: من طريق زيد بن أرقم، وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدرى. وأخرجه فقيه الحرمين محمد بن يوسف الشافعى فى كتابه كفاية الطالب، وأخرجه الطبرى فى الذخائر من طريق زيد بن أرقم. وأخرجه ابن حجر فى الصواعق المحرقة ثم ذكره بطرق مختلفة وقال: ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابيا (2). و ذكره الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوى فى كتاب الاتحاف بحب الأشراف و السيوطى فى كتاب إحياء الميت بفضائل أهل البيت المطبوع على هامش الاتحاف، و ذكره الشيخ العدوى فى مشارق الأنوار عند ذكره لفضائل أهل البيت (3) والعلامة السيد خير الدين أبى البركات نعمان أفندى الألوسى فى غالية المواعظ (4). وقال ابن حجر الهيتمى فى شرح الهمزية عند ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم: و فى الحديث و الذى نفسى بيده لا- يؤمن عبد بى حتى يحببى و لا- يحببى حتى يحب ذوى قرابتى، أنا حرب لمن حاربهم و سلم لمن سالمهم و عدو لمن عاداهم، ألا و من آذى قرابتى فقد آذنى، و من آذنى فقد آذى الله، ثم ذكر حديث الثقلين و اختصاصه بآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. و رواه ابن كثير فى تفسيره، من طريق زيد بن أرقم قال: قام فىنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما خطيبا بماء يدعى خمأ بين مكة و المدينة فحمد الله و أثنى عليه و وعظ و ذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، و أنا تارك فىكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى و النور فخذوا بكتاب الله و استمسكوا به. فحث على كتاب الله عز و جل و رغب فيه ثم قال: و أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى (5). و قال الشيخ عبد الرحمن النقشبندى فى كتابه العقد الوحيد بعد ذكره أهل البيت: كيف و هم أنجم ديننا و مصدر شرعنا و عمدة أصحابنا، فيهم ظهر الإسلام

ص: 102

- 1-1) المستدرک ج 4 ص 109.
- 2-2) الصواعق المحرقة ص 136. [1]
- 3-3) مشارق الأنوار ص 146.
- 4-4) غالية المواعظ ج 2 ص 87.
- 5-5) تفسير ابن كثير ج 3 ص 486. [2]



وفشى، وبهم تأيدت أركانه ونشأ، ومن ثم صح أنه صَلَّى اللهُ عليه وآله قال: إني تارك فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني. وصح عنه عليه السلام قال: من سره أن يكتال بالميكال الأوفى إذا صَلَّى علينا أهل البيت فليقل، اللهم صل على محمد وآله وروى عن الشافعي أنه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير وروى له قوله: يا آل بيت رسول الله حاكم فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

(1) وجاء في مجلة المسلم: أهل البيت حراس هذا الدين وورثة هذا المجد إلى أن يقول: وكان أهل البيت هدفا للطعن والأذى المنوع، بل وللإبادة في كل عصور التاريخ من عهد الإمام على رضي الله عنه، وقد اتخذ أعداؤهم محاربتهم دينا نسبه ظلما لجدهم صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ولعبت أطوار التاريخ في ذلك أدوارا مريرة، حتى جردوهم من أنسابهم وأملاكهم وأوقافهم؛ بعد أن أفاءوا عليهم صنوف المهانات وألوان العذاب باسم الدين المظلوم ما لا يعلمه إلا الله، ولم يكفهم أن ينالوا منهم حتى دفعهم سوء الطبع وسوء الأدب وسوء الإيمان والغل الدفين إلى تأليف الكتب في اضطهاد آل الرسول وسبهم باسم إحياء السنة واجتهاد الرسول والعياذ بالله. انتهى (2). وقال في القاموس في مادة ثقل: الثقل كعنب، ضد الخفة، والثقل محرقة متاع المسافر وحشمته وكل شيء نفيس مصون، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي». وقال محب الدين في التاج في مادة ثقل عند ذكر الحديث: جعلهما ثقلين إعظاما لقدرهما وتفخيما لهما، قال ثعلب: سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما ثقيل، قال الأزهري: وروى شريك عن الركين عن القاسم عن حسان عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: إني تارك فيكم الثقلين خلفي: كتاب الله وعترتي فإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض. قال محمد بن إسحاق: وهذا حديث حسن صحيح، ورفعته نحوه زيد بن أرقم وأبو سعيد الخدري وفي بعضها: إني

ص: 103

1-1) العقد الوحيد ص 78.

2-2) مجلة المسلم ع 1 س 2-1371 هـ ص 8.

تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي. فجعل العترة أهل البيت. وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه قال: العترة ولد الرجل و ذريته و عقبه من صلبه. قال: فعترته النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ولد فاطمة البتول (عليه السلام) (1). وقال ابن أبي منظور في لسان العرب: روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في آخر عمره: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» ثم ذكر قول ثعلب و قال: واصل الثقل إن العرب تقول لكل شىء نفيس مصون خطير ثقل فسماهما ثقلين إعظاما لقدرهما و تفخيما لشأنهما و يقال للسيد العزيز ثقل، إلى آخره. و قال ابن الأثير في النهاية بعد أن ذكر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما و العمل بهما ثقل، و يقال لكل خطير ثقل، و قال في العترة: و المشهور المعروف أن عترته أهل بيته الذين حرمت عليهم الزكاة (2)، و قال في المصباح: العترة نسل الإنسان قال الأزهرى و روى ثعلب عن ابن الأعرابي: أن العترة ولد الرجل و ذريته و عقبه من صلبه و لا تعرف العرب من العترة غير هذا (3). و قال السيد محمد صديق حسن البخارى في كتاب الدين الخالص بعد ذكره لهذا الحديث من طريق زيد بن أرقم: هذا الحديث فيه فضيلة أهل البيت و بيان عظم حقهم فى الإسلام، و انهم قرين القرآن فى التعظيم و الإكرام، و ليس بعد هذا البيان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيان، و لا قرية بعد عبادان. و قال: و عندى أن المراد بهم «أى بأهل البيت» هم الموجودون فى عصر النبوة أولا بالذات، و لكن يدخل فيهم أيضا من وجد بعدهم من السادة القادة إلى العلم و العبادة، كالأئمة الاثنى عشر من العترة. إلى أن يقول: و المراد بأهل البيت-هنا-العترة الطاهرة، و الذرية المطهرة خاصة دون أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم. (4)

ص:104

1-1 (1) تهذيب اللغة ج 2 ص 264. [1]

2-2 (2) النهاية ج 3 ص 177. [2]

3-3 (3) المصباح المنير ج 2 ص 597. [3]

4-4 (4) الدين الخالص ج 3 ص 511-514.

و يطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث وبسط القول فيه، وقد اقتصرنا على هذا القدر من طرقه وقد ألف الحافظ محمد بن طاهر بن علي المعروف بالقيصراني كتابا خاصا جمع فيه طرق هذا الحديث وقد خرج عن 27 صحابيا. وهناك أمر يستدعي الانتباه وهو أن يد التحريف التي لا زالت تبعث في الأمة عوامل التفرقة قد جنت جناية عظيمة، إذ امتدت إلى نص الحديث فتلاعبت به فإن الحديث يقول: كتاب الله وعترتي، فبدلوه إلى: «كتاب الله وسنتي» وهم يقصدون من وراء ذلك تغيير الواقع والتمويه لما يتضمنه هذا الحديث الشريف الذي قرن العترة بالكتاب، وجعلهما كتوأمين يلزم التمسك بهما، وإيثار حقهما، وأن العترة باقية إلى يوم القيامة. قال الشريف السهمودي: هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلا للتمسك به من عترته صَلَّى الله عليه وآله وسلم في كل زمن إلى قيام الساعة حتى يتوجه الحث المذكور على التمسك به، كما أن الكتاب كذلك، ولذا كانوا أمانا لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض (1). وقال الشيخ الزرقاني -بعد شرحه لهذا الحديث-: أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية، والأسرار والحكم الشرعية، وكنوز الحقائق، وخفايا الدقائق. وأما العترة فلأن العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق، ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته، وأكد صَلَّى الله عليه وآله وسلم تلك الوصية وقواها بقوله: «فانظروا بما ذا تخلفوني فيهما» هل تتبعوني فتسروني، أو لا فتسيئونني؟ (2). وهو صَلَّى الله عليه وآله وسلم أعرف بالمصالح العامة، ورأى أن مصلحة أمته في التمسك بهذين الثقلين من باب رعاية المصلحة لهم، وتحصيلا لسعادتهم، فأكد (صلى الله عليه وآله) في عدة مواطن على لزوم اتباع أهل بيته وأنهم أولى الناس برعاية شئون الأمة ولذا جعل مثلهم كمثال سفينة نوح. حدث أبو ذر الغفاري عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم -وهو آخذ بباب الكعبة- أنه قال: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

ص: 105

1-1) الدين الخالص ج 3 ص 511-514.

2-2) شرح المواهب اللدنية ج 8 ص 2. [1]

خرجه أحمد بن حنبل والحاكم في المستدرک، وغيرهما من المحدثين. وأخرج الطبرانی عن أبي سعيد الخدری أن النبی صلی الله علیه وآله وسلم قال: «إنما أهل بيتی فيکم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له». وغير هذه الأحاديث الواردة بالطرق الصحيحة مما ملأ سمع الدنيا ورددتها الأجيال وأوردها العلماء فهي تقضى بوجوب التمسك بأهل البيت واتباعهم وحبهم وناصرتهم، فهم دعاة الحق وهداة الخلق، وأعلام الرشاد وقادة العباد. ونحن نقطع بأن المسلمين لو توفرت لهم حرية الرأي توافرا تاما ليعلنوا غير خائفين فيمن يجب أن يرشحوه خليفة عليهم، ويؤهلوه لرعاية أمورهم وولاية أمرهم لتحقيق المصالح العامة وسعادة المجتمع الإسلامي من جميع الوجوه، لما عدلوا عن أهل بيت النبي صلی الله علیه وآله وسلم رعاية لوصاياه صلی الله علیه وآله وسلم واتباعهم وامتثالاً لأمره، وإن أهله المرشحين للخلافة قد اجتمعت فيهم خصال الكمال وأهلية الرعاية وولاية الأمر ولم يستطع أحد أن يلصق بهم عيباً وإن كان خصماً لهم، وحرماً عليهم. ولكن الأمر أصبح وراثياً في أسرة معينة، ينتقل من واحد لواحد بالوصاية وولاية العهد، كما رأينا من فعل معاوية ببيعة يزيد بالسيف وقوة السلطان، وهكذا من بعده في ولاية الحكم ولا رأى للأمة في ذلك. ولننظر إلى ما عليه الحكام وما ارتكبه بحق الأمة والدين وكيف كانت العلاقات. يقول السيوطي: وأخرج البخاري والنسائي وابن أبي حاتم في تفسيره-واللفظ من طرق-إن مروان خطب بالمدينة وهو على الحجاز من قبل معاوية فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين في ولده يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر-وفي لفظ-: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر، إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: أأنت الذي قال لوالديه أف لكما. فقال عبد الرحمن: الست من اللعين الذي لعن أباك رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقالت عائشة رضی الله عنها: كذب مروان، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان بعض من لعنه الله (1).

ص:106

و على أى حال فإن أهل البيت هم هداة الأمة، و كانت الأنظار تتجه إليهم فى جميع الأدوار، و سنوضح فيما بعد التفاف الناس حول الإمام الصادق و ترشيحه لولاية الأمر، لأنه زعيم أهل البيت و سيدهم فى عصره. و نعود إلى القول: بأن عدم تخريج الشيخ البخارى أحاديث الإمام الصادق هو شىء يعود إلى البخارى نفسه و لا يقدر بشخصية الإمام الصادق عليه السلام الذى أجمعت الأمة على صدقه فلقبوه بالصادق، و قد خرّج البخارى أحاديث تلامذة الإمام الصادق عليه السلام و لكنه تجنب الروايات التى يروونها عنه عليه السلام. و ليس بغريب أن تقضى الظروف القاسية بأن يبتعد الناس عن أهل البيت حبا للسلامة أو استسلاما لعوامل أخرى. و لا بد لنا أن نشير هنا إلى أن البخارى لم يجمع الأحاديث الصحيحة عنده كلها فإنه قد ترك الكثير منها. حدث الإسماعيلي عنه أنه قال: لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحا و ما تركت من الصحيح أكثر (1). و قد نقل عنه أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح (2) و ليس فى كتابه بالنسبة لذلك إلا القليل، فإن جميع ما فيه أربعة آلاف و المكرر ألفان فىكون المجموع ستة آلاف. و مع هذا فلا يمكن القطع بصحة كل ما يرويه أو أنها أصح الأحاديث. قال المحقق ابن همام فى شرح الهداية: و قول من قال: أصح الأحاديث ما فى الصحيحين، ثم ما انفرد به البخارى، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما اشتمل على شرطهما، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما تحكم لا يجوز التقليد فيه، إذ الأصححة ليست إلا لاشتمال روايتها على الشروط التى اعتبرها، فإن فرض وجود تلك الشروط فى رواية حديث فى غير الكتابين أفلا يكون الحكم بأصححة ما فى الكتابين عين التحكم؟! و بعد هذا نقول: لعل ترك البخارى للأحاديث الصحاح فى فضائل أهل

ص: 107

1-1 (1) هداية البارى ص 5.

2-2 (2) شرح ألفية العراقي ج 1 ص 48.

البيت (عليه السلام) لم يكن لعدم وثوقه بصحتها، أو توقفه عن قبولها، ولكنه مع ذلك تركها عمدا اختصارا لكتابه، أو تهيبا مما وراء ذلك من اتهام. كما أن عدم تخريج أحاديث الإمام عليه السلام لا يعود بالتأثير السلبي على شخصية الإمام الصادق أو أنه يشكل غضا من مكانته يعتدّ به، فإن ذلك ما عجز عنه ملوك العصر بكل ما أوتوه من إمكانات، وفشل أذناهم فيه أيضا. كذلك لم يستطع البخارى ولا غيره أن يجرحوا الإمام الصادق عليه السلام بشيء أبدا. و الأمة الإسلامية قد تقبلت رواياته وأخذت بأقواله عليه السلام حتى لقب بالصادق، وكان المرجع الوحيد لإيضاح المبهم وحل ما أشكل عليهم: وقد ملأ رواة حديثه الأقطار الإسلامية، وكان فى الكوفة ألف شيخ محدث كل يقول: حدثنى جعفر بن محمد. ولا نطيل الحديث هنا وسيأتى فيما بعد ما له صلة بالموضوع إن شاء الله.

ملوك عصره وأمرائه بلده

## تمهيد:

لقد رفضت الدولة الأموية الأخذ بنظام الإسلام في حرية الرأي و الإجماع الصحيح من أهل الحل والعقد، و دعت إلى محاربتة و ارتبطت أشد الارتباط بفوضى الجاهلية، و جمعت شتات ذلك الجمع الذي فرقه المصلح الأعظم بدعوته. فالإسلام يأمر بوحدة وهم فرقوا الكلمة، و ينهى أن تراق الدماء و قد ولغوا فيها، و يأمر بالإحسان و العدل و قد جاروا في الحكم و أساءوا السيرة في الأمة، فإذا رجعنا إلى ماضى الجاهلية و التاريخ الذي سجل تلك العصور الوحشية أدركنا أنه تمثل في عصرهم بأوضح صورة، و قد دفعوا الناس إلى التخبط عن حدود الدين الإسلامى الذى جاء بتعاليم تحسبها النفوس الشريرة سجنًا ضيقًا تتمنى الخروج منه، و التمرد على أوامره و نظمه التى سنّها الشرع المقدس لحفظ النظام و سعادة البشر؛ فهو يعاقب على ترك الصلاة، و شرب الخمر، و قتل النفس و أكل الأموال بالباطل، و حدد حدودا، و نظم قوانين يعاقب بها المجرم بمخالفته حسب جريمته، و لم يفرق فى تطبيقها بين أفراد الأمة جمعاء، فهى بعمومها تشمل الشريف و الوضيع، و الحر و العبد، و الذكر و الأنثى، و لم تكن هناك رخصة لأحد فيها، و لا ميزة تطبق من أجلها على طبقة دون أخرى، فالكل يخضعون لذلك النظام على حد سواء، و ليس هناك طبقة فوق القانون الذى شرعه الإسلام، و ما ذلك إلا لقلع جذور الشقاء، و غرس السعادة، و رعاية المصلحة العامة، ليجتنى الناس ثمر ذلك الغرس الذى غذاه محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم بتعاليمه، و أجهد نفسه أى جهد فى تفهيم الناس منافعه و مصالحه. و لا ريب ان هذه التعاليم التى تكفلت للأمة السعادة فى اتباعها تحتاج إلى تنفيذ

و تطبيق، و لا يقوم بهذه المهمة إلا الإنسان الكامل الذى لا تهمه مصلحة نفسه، بل إن أهم شىء عنده المصلحة العامة، و هو الذى يغذى الأمة بعلمه لتتال السعادة على ضوء تعاليمه، و تحيى، الحياة المطلوبة فى صعيد إرشاداته. و ما الإسلام إلا مجموعة نظم و قوانين سماوية هبطت إلى الأرض بواسطة النبى الأعظم، فهو الذى يتولى تطبيقها فى حياته، و من يختاره لذلك بعد وفاته يأمر من المشرع الأعلى وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ (1). قال الإمام كاشف الغطاء رحمه الله: فالإمامة منصب إلهى كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة و الرسالة فكذلك يختار للإمامة من يشاء، و يأمر نبيه بالنص عليه و أن ينصبه إماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبى، و إنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهى، فالنبى مبلغ عن الله و الإمام مبلغ عن النبى، و الإمامة متسلسلة فى اثنى عشر، كل سابق ينص على اللاحق و هو معصوم-كالنبى-عن الخطأ و الخطيئة، و إلا-لزالَتِ الثَّيْبَةُ إِنِّي جَاعِلٌكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (2) لأن الغرض هو تكميل البشر و تزكية النفوس بالعلم و العمل الصالح: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (3) و الناقص لا يكون مكملًا- لغيره و الفاقد لا- يكون معطيا. انتهى (4). و لأن شريعة الإسلام قائمة إلى قيام الساعة فلا بد من استمرار الدعوة و بقاء مقتضيات الإرشاد و وسائل التوجيه، و من اللازم أن يكون الدوام و البقاء فى الدين على يد مؤهل يحمل صفات صاحب الرسالة الأصلية و يتحلى بخصائص مميزة تمكنه من الاضطلاع بمهمات النيابة عن صاحب الرسالة و تمثيل أحكام الشريعة و أداء أعباء قيادة الناس و تصدّره بحيث لو انقادت الناس فى أمر دينى و شرعى إلى غيره لبان جليا الفرق فى مباشرة الأمر من قبل مؤهل بطريق الاختيار و الحكمة الإلهية عنه من قبل مرشح آخر تتداخل فى إظهار أمره عوامل كثيرة لا حاجة للدخول فيها. أما لو اتفق الناس فى

ص: 110

1-1 (1) سورة القصص، آية: 68. [1]

2-2 (2) سورة البقرة، آية: 124. [2]

3-3 (3) سورة الجمعة، آية: 2. [3]

4-4 (4) أصل الشيعة و أصولها ص 102. [4]



الانقياد إلى حاكم زمني فإن أمر الدين سيكون أوضح وأكثر جلاء كما حدث على مر العصور، فإن الإمام من أهل البيت الأطهار كان في ورعه وتقاه وعلمه لا يزيده إجرام الحكّام وتعسفهم إلا تمسكا بموقعه ومسئوليّاته في ولايته الدينية فيزداد سلطانهم في النفوس ويتسع اتجاه الناس إليهم بعوامل الإيمان والتمسك بأهداب الدين في مقابل الإذعان والخنوع لقوة السلطة وحراب المتحكمين. والإمام الصادق هو سادس الأئمة الاثني عشر، وهو صاحب هذه الولاية وولي أمر المسلمين، وهو الإنسان الكامل الذي اختاره الله لتطبيق ذلك النظام المقدس في عصره. وحسبك دليلا على نزاهته وعظمته أن خصومه -على كثرة عددهم واختلاف عقائدهم- لم يستطيعوا أن يشبّوا عليه زلة أو منقصة اجتماعية، أو نكسة علمية حتى ساعة وفاته. وظلت الأنظار متجهة إليه فهو المبرز من أهل البيت وسيدهم في عصره وقد طلب منه قواد الثورة أن يبايعوه، لأهليته للخلافة ولثقة المجتمع به ولكنه امتنع عن ذلك لما يراه من وراء سير الحوادث كما سنبينه إن شاء الله. ولسنا في موقف الراغب هنا في البحث عن الإمامة والولاية العامة، فلها محل آخر. ولكننا في معرض بيان موجز، عن أعمال الولاية في عصر الإمام الصادق عليه السلام الذين يفترض أن يتولوا رعاية الأمة وليس لهم قدرة على إصلاح أنفسهم فكيف تصلح بهم الأمة؟! وقد شاهد عليه السلام صنيعهم السيئ وسيرتهم الملتوية في منهجهم السياسي الفاتك من اضطراب حبل الأمن، وانصرافهم إلى أعمال تسيء إلى الدين وترهق المسلمين لا يهمهم شيء إلا الرئاسة والسيطرة على الرعية وإشباع رغباتهم، من أي طريق كان، إلى ما هنالك من جرائم هي سلسلة عذاب ونقمة أضعفت الأمة، خالفوا الكتاب والسنة، ووقفوا حاجزا دون المجتمع ودون سعادته التي جعلها الله لهم باتباع أوامر الدين والخضوع لنظامه. وسنعرض بعض الحوادث التي جرت في ذلك العصر لنعرف مقدار ما تحمله الإمام الصادق عليه السلام من عظيم المسؤولية وصعوبة ما أحاط به من أوضاع مؤلمة قاسية انتهج فيها الإصلاح الروحي وهو وسط ظروف سياسية يتوقع فيها الأذى كل

حين، فكان (عليه السلام) يتجه إلى المسلمين فيشاركهم أحوالهم و يعمل على إبقاء نظام الدين في الحياة كما هو في نفوسهم، كما كان عليه في ذات الوقت أن يتحاشى نقمة الحكام الذين تعددت وسائل مراقبتهم له و عيون رصدهم و مضايقاتهم.

### موقف الإمام الصادق من الظالمين:

فكان موقفه عليه السلام في تلك المدة موقف الرجل المصلح الذي يصلو بيد جذاة لقلعة أعوانه، فهو يراقب الحوادث عن كثب، و يتألم لتلك الفظائع و يشارك المسلمين في مآسيهم. و لم يكن عليه السلام ليترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إرشاد الناس مع شدة الرقابة و نصب حبايلهم له ليلحقوه بشهداء آل محمد و لكن الله دفع شرهم عنه. فكان عليه السلام يبث تعاليمه في معارضتهم، و يحذر الأمة من مخالطة أئمة الجور، كما اشتهر ذلك عنه فكان عليه السلام يقول: إياكم أن يخاصم بعضكم بعضا إلى أهل الجور. أيما مؤمن قدم مؤمنا في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر، فقصى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم. أيما رجل كان بينه و بين أخ له ممارسة في حق فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه و بينه فأبى إلا أن يرافعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز و جل فيهم: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَ مَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ (1). اتقوا الحكومة فإن الحكومة للإمام العالم بالقضاء، العادل بالمسلمين كنبى أو وصى نبى. و سأله رجل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فأجابه عليه السلام: إن ذلك سحت. و قال: العامل بالظلم، و المعين له، و الراضى به كلهم شركاء ثلاثتهم، إلى كثير من ذلك، و سنذكر بعضها فيما بعد. و كان يحث الناس و يدعوهم إلى مقاطعتهم و عدم الركون إليهم، و يدعو الأمة

ص: 112

[1-1] سورة النساء، آية: 60. [1]

إلى الاتحاد ضد أولئك الظلمة أمثالا- لقوله تعالى: وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ (1) فهو يبيث نصيحته بين طبقات ذلك المجتمع بصفته إمام زمانه ويواصل جهاده في سبيل الدعوة الإصلاحية، ليفك أسر الأمة من يد من أفسدوا ذلك المجتمع الصالح، وقد عاش عليه السلام مدة من الزمن وعاش كثيرا من ملوك عصره فما ركن لهم، وما استطاعوا أن يستميلوه وقد حاول المنصور أن يستميله عليه السلام ليوهم الناس أن ولايته على حق، فأرسل إليه: لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ . وكان المنصور يظن أن ينال من الإمام جوابا يحقق هذا الطلب إذ المنصور سلطان العصر و مهاب الجانب. فكان جواب الإمام عليه السلام: «ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه و لا عندك من الآخرة ما نرجوك له، و لا أنت في نعمة فنهنيك عليها، و لا تعدها نعمة فنعزيك عليها، فلم تغشاك؟» و عظم هذا الجواب على المنصور ولكنه يعرف منزلة الصادق عليه السلام و صدقه في ذلك، و حاول أن يسلك طريقا لضم الإمام إلى جانبه كما ضم غيره، إذ يصعب عليه انعزاله و ترفعه عن مخالطته، فأرسل إليه: إنك تصحبنا لتصحنا. و لم يخف مراده على الإمام فأجابه: «من أراد الدنيا فلا ينصحك و من أراد الآخرة فلا يصحبك» . و قد استخدم المنصور وجهى سياسته من الفضاضة الدنيئة و الليونة المصطنعة ليجعل الإمام كالأخرين الذين يتحاشونه ثم ينفذون ما يريد منهم، و الحقيقة أن موقف الإمام الصادق من المنصور كان يمثل مشكلة سياسية و دنيئة احتلت أهمية كبيرة في سياسة المنصور، و ما دام الإمام يقطن في المدينة فقد كانت الشكوك تأكل قلب الدوانيقي فيهب إلى الموسم أو العمرة و غرضه أن يرى بنفسه ما يفعل الإمام جعفر الصادق و قد احتل تلك المكانة السامية في نفوس العلماء و العامة، و يقوم المنصور بإحضاره إذا ما جاء المدينة أو هو في حاضرة ملكه فنرى في أحاديثه و أقواله مع الإمام محاولاته المختلفة حتى أعياءه، فهو يقصد رجلا يفيض علما و إيمانا و من صفوة استتر المنصور و أهله بشعارهم حتى تمكنوا من الحكم، و منزلة آل البيت تزداد قوة،

ص:113

فكل ما يصدر عن المنصور بحق الإمام يسرى سريعا بين الناس، فإن من شيعته من هم فى قصره لأن الأوضاع لم تصل بعد إلى درجة التفريق بين من يأبى سياسة العباسيين وهم يستأثرون بالحكم وبين من بقى بانتظار تحقيق ما قامت عليه الثورة. وقد حاول المنصور أكثر من مرة الانتقاص من الإمام إذ اعترض الإمام قائلا: لا تتفقه علىّ، فأجابه الإمام: أين يذهب منى الفقه؟ فانزجر المنصور. كما أنه صرّح مرات بعزمه على قتل الإمام ولكن الله أحبط عمله و مسعاه، و حفظ لهذه الأمة إمامها.

## ملوك عصره

### إشارة

عاصر الإمام الصادق عليه السلام عشرة من ملوك بنى أمية وهم: عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار وهو آخر ملوكهم. وعاصر (عليه السلام) من العباسيين عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بالسفاح، وأخيه المنصور الدوانيقى. ولا بد لنا من الوقوف على تراجمهم وذكر بعض الحوادث التي جرت فى أيامهم.

## عبد الملك بن مروان:

### إشارة

عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص، فهو أموى بين أمويين. وكان جده المغيرة من أشد الناس عدااء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فظفر به (صلى الله عليه وآله) فى خروجه لغزوة حمراء الأسد فأمر بضرب عنقه (1) وقال ابن كثير: المغيرة جد عبد الملك لأمه هو الذى جدع أنف حمزة يوم أحد (2).

ص: 114

1-1) السيرة لابن حزم ص 175.

2-2) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 63.

تولى عبد الملك بعهد من أبيه مروان سنة 65 هـ - وبقى فى الملك إلى سنة 86 هـ - وهى سنة وفاته. و كان قبل ولايته يجالس العلماء، و يحفظ الحديث و يتعبد فى المسجد و كان متقشفا، و قد أنكر على يزيد بن معاوية حربه لعبد الله بن الزبير، و قال - لبعض من سار فى ذلك الجيش - : ثكلتك أمك أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام، و من حنكه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و ابن حواريه، و ابن ذات النطاقين. أما و الله إن جثته نهارا و جدته صائما، و ليلا و جدته قائما، فلو أن أهل الأرض اطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعا فى النار. قال ذلك الرجل الذى خاطبه عبد الملك بهذا: فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك و جهنا عبد الملك مع الحجاج حتى قتلناه، أى ابن الزبير (1). و ذلك أن عبد الملك بن مروان عند ما ولى الخلافة أرسل الحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير فى جيش من أهل الشام، و حوصر ابن الزبير ستة أشهر و سبع عشرة ليلة، و كان الحجاج يرمى الكعبة بالمنجنيق من أبى قبيس. (2) روى ابن عساکر: أن الحجاج لما رمى الكعبة بالمنجنيق أخذ قومه يرمون من أبى قبيس و يرتجزون: خطارة مثل الفنيق المزبد ارمى بها أعواد هذا المسجد

فجاءت صاعقة فأحرقتهم، فامتنع الناس من الرمى، و خطب بهم الحجاج فقال: ألم تعلموا أن بنى إسرائيل كانوا إذا قربوا قربانا فجاءت نار فأكلته، علموا أنه قد تقبل منهم، و إن لم تأكله النار علموا أن القربان لم يقبل و لم يزل يخدعهم حتى عادوا فرموا (3). و دام الحصار و الرمى للكعبة حتى قتل عبد الله بن الزبير فى جمادى الآخرة سنة

ص: 115

1-1) التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة للسخاوى ج 3 ص 317. [1]

2-2) شفاء الغرام [2] للقاضى تقى الدين المكى ج 1 ص 169.

3-3) تهذيب تاريخ ابن عساکر ج 4 ص 50.

83 و صلبه الحجاج منكوسا بعد قتله و بعث رأسه إلى عبد الملك بن مروان فطيف به في البلاد (1). و لما أفضى الأمر إليه كان المصحف بيده فأطبقه و قال: هذا آخر العهد بك أو هذا فراق بيني و بينك (2). قال ابن كثير: حج عبد الملك في سنة 75 هـ و خطب الناس بخطبة قال فيها: إنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون و يوكلون، و إنى و الله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، و لست بالخليفة المستضعف- يعنى عثمان- و لا الخليفة المداهن- يعنى معاوية- و لا الخليفة المأبون- يعنى يزيد بن معاوية- أيها الناس إنا نحتمل منكم ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه قرابته و ابنه قال برأسه هكذا قلنا بسيفنا هكذا، و إن الجامعة التي خلعتها من عنقه عندي، و قد أعطيت الله عهدا أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء فليبلغ الشاهد الغائب. (3) و عمرو بن سعيد هو المعروف بالأشديق قتله عبد الملك بيده سنة 69 و قال بعد أن فرغ من قتله: كان أبو أمية أحب إليّ من زهر النواظر و لكن و الله ما اجتمع فحلان في شول قط إلا أخرج أحدهما صاحبه (4) و كان قتله لعمرو بن سعيد غدرا لأنه آمنه و حلف له و جعله ولي عهد من بعده. و كان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء و لما قالت له أم الدرداء: بلغنى أنك شربت الطلى بعد العباداة و النسك! فقال: أى و الله و الدماء أيضا شربتها (5). و كانت أول بادرة صدرت منه و تعتبر منهاجا لسيرته أنه نهى عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و قال: لا يأمرنى أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه.

### توليته للحجاج:

و هو الذى حمل الحجاج بن يوسف على رقاب المسلمين عند ما ولاه على الحجاز و العراق.

ص: 116

- 1-1 (1) شفاء الغرام ج 1 ص 170. [1]
- 2-2 (2) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 84 و [2] تاريخ ابن كثير ج 9 ص 63.
- 3-3 (3) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 64.
- 4-4 (4) تهذيب التهذيب ج 7 ص 37. [3]
- 5-5 (5) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 84 و [4] البداية و النهاية ج 9 ص 66. [5]

و الحجاج ذلك الطاغية الذي أذاق الأمة أنواع العذاب، يغمد سيفه في رقاب الأبرياء، وقد اتخذ ذلك السجن المكشوف الذي يضم بين جدرانه عددا لا يقل عن مائة وعشرين ألفا بين رجل و امرأة، يلاقون فيه حرارة الشمس و ألم الجوع، و يكابدون غصص وضع الرماد على الرؤوس، و هم يموجون من الشدة، و يغلون كالمرجل، تحرقهم حرارة الشمس و تقلبهم السياط و بعج الرياح و صرخات السجنانين، و لقد اتخذ الحجاج في معاملة الناس عند ولايته أقصى ما يتصور من القسوة و الشدة، فهو يضرب بسيفه أتي شاء و كيف شاء، و له أساليب في إنزال العذاب و العقوبة بمن يظفر بهم، فأصبح إمام سنّة الظلمة و أستاذ القتل من الحكام. فهذا سجين يشد عليه القصب الفارسي المشقوق و يجر عليه ثم ينضح عليه الخل، و ذاك أسير آخر أصيب ساقه بنشابة ثبت نصلها في ساقه. و علم الحجاج أن أشد عذاب يعامل به أسيره أن يحرك النصل ليسمع استغاثة السجنين و صياحه فتأخذه نشوة الطرب تجبرا و طغيانا. قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثتها و جننا بالحجاج لغلبناهم (1). و قال عاصم: ما بقيت لله عز و جل حرمة إلا قد ارتكبتها الحجاج (2). و كان الحجاج قد تطلع إلى إمرة العراق و هو يرى عبد الملك قلقا على ملكه مما يحدث فيه و يخاطب أصحابه: و ليكنم! من للعراق؟ و تم للحجاج ما رغب فيه و اتجه رضيع الدماء المبير إلى العراق حيث الثوار فكان غاشما عاتيا في فعله و قوله. و من جملة أقواله: يا أهل العراق هل استنبحكم نابح، أو استشلاكم غاو، أو استخفكم ناكث، أو استتصركم عاص إلا تابعتموه و بايعتموه و أويتموه و كفيتموه؟ يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو ربي كاذب إلا كنتم أنصاره و أشياعه (3). و يخاطب أهل الشام: يا أهل الشام أنتم العدة و العدد، و الجنة في الحرب، إن نحارب حاربتهم أو

ص:117

- 
- 1-1) انظر الكامل لابن الأثير ج 4 ص 236-282. [1]  
2-2) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 132.  
3-3) مروج الذهب ج 3 ص 140. [2]

نجانب جانبتم و ما أنتم و أهل العراق إلا كما قال نابغة بنى جعدة: وإن تداعيهم حظهم و لم ترزقوه و لم تكذب

كقول اليهود قتلنا المسيح و لم يقتلوه و لم يصلب

و أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة. يقول ابن الأثير: و هو أول من أنزل الجند فى بيوت غيرهم و هو إلى الآن لا سيما فى بلاد العجم و من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة. و قيل أحصى من قتله الحجاج صبيرا فكانوا مائة ألف و عشرين ألفا. و روى أن الحجاج مر بخالد بن يزيد بن معاوية هو يخطر فى مشيته، فقال لرجل لخالد: من هذا؟ قال خالد بخ بخ، هذا عمرو بن العاص، فسمعهما الحجاج فرد عليهما بكلام منه: أنا الذى ضربت بسيفى هذا مائة ألف كلهم يشهد أن أباك كان يشرب الخمر و يضم الكفر (1). و سئل الحسن البصرى عن عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول فى رجل الحجاج سيئة من سيئاته (2). و يقول ابن الأثير و هو يصف خوف عبد الملك من الموت و هو فى ساعاته الأخيرة: «و يحق لعبد الملك أن يحذر هذا الحذر و يخاف فإن من يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أى شىء يقدم عليه». و كان عبد الملك يشجع الحجاج و يشد أزره، و لا يسمع عليه أى شكاية و لا يرق لأى استغاثة، و لما أدركه الموت أوصى ولى عهده الوليد برعاية الحجاج و إكرامه (3) و كيف لا يوصيه برجل كان من رأيه أن عبد الملك أفضل من النبى صلّى الله عليه و آله و سلم. و لا عجب من الحجاج بل العجب ممن يطلب له المعاذير و يحاول أن يوفق بين أعماله القبيحة و بين الدين، و يريد أن يدخله الجنة رغم الحواجز، و ليس ببعيد عن التعصب و العاطفة حصول هذا و أمثاله، و نستطيع أن نعرف نفسية عبد الملك و ما هو فيه من جراءة على سفك الدماء، فى ولايته للحجاج و توليته أمور المسلمين مع علمه بجوره

ص: 118

1-1) ابن الأثير ج 4 ص 282 و [1] ابن عبد ربه ج 3 ص 242. [2]

2-2) تاريخ أبى الفداء ج 1 ص 209. [3]

3-3) السيوطى ص 85.



و تعسفه، وقد كانت تصله أخباره و ترفع إليه الشكايات و الاستغاثة منه فلا يرون عنده إلا تشجيع الحجاج على عمله. و لما حضرته الوفاة أوصى ولده الوليد، فى أخذ البيعة له بالسيف و قال و هو فى آخر ساعة من الدنيا: يا وليد حضر الوداع و ذهب الخداع و حل القضاء. فبكى الوليد، فقال له عبد الملك: لا تعصر عينك كما تعصر الأمة الوكاء، إذا أنا مت فغلسنى و كفننى و صلى علىّ و أسلمنى إلى عمر بن عبد العزيز يدلبنى فى حفرتى، و اخرج أنت إلى الناس و البس لهم جلد نمر، و اقعده على المنبر، و ادع الناس إلى بيعتك، فمن مال بوجهه كذا فقل له بالسيف كذا، و تنكر للصديق و القريب، و اسمع للبعيد، و أوصيك بالحجاج خيرا (1). و بهذا نأخذ صورة عن كيفية أخذ البيعة من الناس لخليفة جديد، يتولى إدارة شئون الأمة، فهل للأمة اختيار فى الانتخاب أم أنها مرغمة ليس لها أى رأى؟! و لا يحق لها الاعتراض على شىء من ذلك، و المعارض يقتل، فهل تصح مثل هذه البيعة التى سن نظامها العهد الأموى، و هل يصح أن يسمى من يفوز بمثل هذا التعيين الإجبارى بأمير المؤمنين و يكتب ذلك بحروف بارزة؟ أنا لا أدرى و لعل هناك من يدرى و إلى القارئ النبيه الحكم. و كان عبد الملك يبتعد عن دماء بنى هاشم لا تدينا و لكنه رأى عاقبة آل أبى سفيان السيئة من وراء ذلك ما يشير بكتابه للحجاج بن يوسف فى عدم التعرض لهم و مع هذا فقد حمل الإمام زين العابدين عليه السلام مقيدا من المدينة إلى الشام كما حدث الحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء (2). و لا يسعنا التوسع فى البحث عن عبد الملك و أعماله و سوء سيرة عماله فى الرعية، و سيأتى بعض منها.

## الوليد بن عبد الملك:

### إشارة

ولى الأمر بعد أبيه يوم الخميس فى النصف من شوال سنة 86 هـ- و هو اليوم الذى مات فيه عبد الملك. و كان الوليد ولى عهده، و بقى واليا إلى أن مات يوم

ص: 119

[1-1] الإمامة و السياسة ج 2 ص 74. [1]

[2-2] حلية الأولياء ج 3 ص 135.

السبت في النصف من جمادى الأولى سنة خمس وتسعين، وكانت مدة ولايته تسع سنين وسبعة أشهر، وله ست وأربعون سنة. وأمه ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي. وكان الوليد له سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، وكان كثير النكاح والطلاق، يقال إنه تزوج ثلاثا وستين امرأة (1) غير الإمام. وكان لجوجا كثير الأكل. وكان يغلب عليه اللحن. وهو الذي بنى جامع دمشق، والذي عرف بالجامع الأموي، وأنفق على ذلك أربعمئة صندوق من الذهب، وفي كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وقيل كان في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وقد لأمه الناس على ذلك وأنه أنفق مال بيت المسلمين فخطبهم وقال: إنما هذا كله من مالي لأن الأمويين يعدون الأموال التي تجيء لهم هي ملكهم يتصرفون بها كيف شاءوا. كما أنه زاد في مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وزخرفه ونمقه، ورصعه بالفسيفساء وهي الفصص المذهب، وأدخل فيه حجر أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسائر المنازل التي حوله (2) فقال له خبيب بن عبد الله بن الزبير أنشدك الله أن تهدم آية من كتاب الله إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ فَأَمْرُ الْوَلِيدِ بَضْرِبِهِ حَتَّى مَاتَ، وسيأتي بيان السبب الذي من أجله وسع الوليد مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وفي أيامه مات الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام مسموما، وذلك في الخامس والعشرين من شهر محرم الحرام سنة 95 هـ، وكان الوليد هو الذي دس إليه السم ويقال: إن هشام بن عبد الملك هو الذي دس إليه السم بأمر من الوليد (3) وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

ص: 120

1-1 (1) الانافة في مآثر الخلافة ج 1 ص 133.

2-2 (2) الانافة في مآثر الخلافة ج 1 ص 136.

3-3 (3) ذكر ذلك جماعة من الحفاظ والمؤرخين كالقرماني في تاريخه، وابن حجر في صواعقه، وابن الصباغ المالكي في الفصول، وابن جرير في دلائل الإمامة، وروضة الواعظين للحافظ النيسابوري وغيرهم مما لا يترك مجالاً للشك في ذلك.

وفي أيامه قتل سعيد بن جبير، قتله الحجاج بن يوسف في شعبان سنة 95 هـ، وكان سعيد قد هرب من الحجاج إلى أذربيجان، ومنها توجه إلى مكة مستجيرا بالله، ولائذا في حرمه. وكتب الحجاج إلى الوليد: إن جماعة من التابعين قد التجؤوا إلى مكة فكتب الوليد إلى عامل مكة خالد القسري: يأمره بحملهم إلى الحجاج. وكانوا خمسة وهم: سعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وطلق بن حبيب، وعمر بن دينار. ولما دخل سعيد على الحجاج دارت بينهما محاوره، وأسمعه الحجاج كلاما شائنا ثم سأله عن عبد الملك؟ فقال سعيد تسألني عن امرئ أنت واحد من ذنوبه. وأمر الحجاج بقتله فقال سعيد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له استحفظكها يا حجاج حتى ألقاك يوم القيامة، ولما قتل هلك رأسه ثلاثا أفصح فيها بمرّة، والتبس عقل الحجاج يومئذ وجعل يقول: قيودنا قيودنا فظنوها قيود سعيد التي في رجله فأخذوها من رجله بعد أن قطعوا رجله من ساقه. وجعل الله من مقتل هذا التابعي الجليل بداية لعذابه في الدنيا قبل أن يلحق بأوليائه في جهنم في الآخرة، فإذا نام الحجاج رأى سعيدا بمنامه وهو يأخذ بمجامع ثوبه قائلا: يا عدو الله فيما قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير. (1) ولم يبق الحجاج بعد ذلك إلا أياما، فإنه قتل سعيدا في شعبان ومات هو في شهر رمضان من السنة المذكورة. وكذلك الوليد فإنه مات في السنة الثانية 96 هـ في النصف من جمادى الآخرة. أو الأولى. قال بعض من هرب من جور الحجاج: مررت بقريّة، فوجدت كلبا نائما في ظل حب، فقلت في نفسي ليتني كنت مثل هذا الكلب و كنت مستريحا من خوف الحجاج.

ص: 121

---

1-1) انظر الطبري ج 8 ص 95. و [1] ابن الأثير ج 4 ص 279. و [2] تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 65. [3]

قال ثم عدت بعد ساعة فوجدت الكلب مقتولا فسألت عنه؟ فقيل: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب (1). لقد تركت سلطة الأمويين الحجاج يفعل ما يشاء و يتصرف مع أعدائهم بسيفه دون أن تحرك ضمائرهم مناظر القتل و التشريد و انتهاك الأعراض، فهو «جلدة ما بين العينين» فى أعز موقع من وجه السلطة الدموى. كما تركوه يتمادى فى الكفر و يأتى بما يشاء من الكفر و الخروج عن الإسلام. فكان يدعى نزول الوحي عليه و أنه لا- يعمل إلا بوحي من الله تعالى (2) و بلغت به الجرأة القول: إن خليفة الله فى أرضه أكرم عليه من رسوله (3) و بهذا ينطبق عليه الحديث الشريف «إن فى ثقيف مبير و كذاب». و قد حققنا ذلك فى غير هذا المكان.

### سليمان بن عبد الملك:

ولى الأمر بعد أخيه الوليد يوم السبت فى النصف من جمادى الآخرة سنة 96 بعهد من أبيه عبد الملك، وبقى واليا إلى أن مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة 99 هـ و كانت ولايته عامان و تسعة أشهر و أيام، و هو شقيق الوليد. و أراد الوليد أن يعزل سليمان عن ولاية العهد، و يباع لولده عبد العزيز فأبى سليمان، فكتب الوليد إلى عماله، و دعى الناس إلى ذلك، فلم يجبه إلا الحجاج، و قتيبة بن مسلم (4). و لهذا غضب سليمان على آل الحجاج و نكبهم، و قتل قتيبة بن مسلم سنة 96 و عزل عمال الحجاج، و عذب أهله، و أطلق فى يوم واحد من المسجونين فى سجن الحجاج أحد و ثمانين ألفا من الأسراء، و أمرهم أن يلحقوا بأهاليهم، و وجد فى سجن الحجاج ثلاثين ألفا ممن لا ذنب لهم، و ثلاثين ألف امرأة (5).

ص:122

1-1 (1) ابن نباتة فى سرح العيون ص 96. [1]

2-2 (2) ابن عساکر ج 4 ص 70.

3-3 (3) ابن عبد ربه ج 3 ص 266. [2]

4-4 (4) سمط النجوم العوالى [3] لعبد الملك العصامى المكى ج 3 ص 187.

5-5 (5) ابن عساکر ج 4 ص 80. [4]

وسجن يزيد بن مسلم كاتب الحجاج، وأدخل عليه وهو مكبل في الحديد فلما رآه سليمان ازدراه فقال: ما رأيت كالأيوم قط، لعن الله رجلا أجرک رسنه و حکمک فی أمره. فقال له يزيد: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنك رأيتني والأمر عنى مدبر و عليك مقبل. ثم قال سليمان: عذمت عليك لتخبرنى عن الحجاج ما ظنك به أتره يهوى بعد فى جهنم أم قد استقر؟ قال: لا تقل هذا فى الحجاج، فقد بذل لكم نصحه، وأحقن دونكم دمه، وأمن وليكم، وأخاف عدوكم، وإنه يوم القيامة لعن يمين أيبك عبد الملك، و يسار أخيك الوليد، فاجعله حيث شئت، فقال سليمان: اخرج عنى إلى لعنة الله (1). و كان سليمان يأخذ برأى عمر بن عبد العزيز فى بعض أموره يستشيره فيها، و قال له: إنه قد ولينا ما ترى، و ليس لنا علم بتدييره، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب. فكان رد الصلاة إلى ميقاتها، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها (2). و سمع سليمان ليلة صوت غناء فى عسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، و إن الجمل يهدر فتضع له الناقة، و إن التيس لينب فتستخذى له العنز، و إن الرجل ليغنى فتشتاق له المرأة، ثم أمر بهم فقال: أخصوهم. فيقال إن عمر عبد العزيز قال: يا أمير المؤمنين إنها مثله، و لكن انفهم. فنفاهم (3). و قد أجمع المؤرخون على شدة نهم سليمان و أنه يأكل كثيرا يجوز المقدار. و قال بعضهم: كان يأكل مائة رطل و غير ذلك مما ذكروه. و كان يلبس الثياب الرقاق؛ و ثياب الوشى، و لبس الناس جميعا الوشى جبابا و أردية و سراويل، و عمائم و قلانس، و ألبس جميع أهله و حاشيته الوشى؛ حتى الطباخين و أمر أن يكفن فيه (4).

ص: 123

1-1 (1) مروج الذهب ج 3 ص 187. و [1] العقد الفريد ج 3 ص 171. [2]

2-2 (2) البداية و النهاية ج 9 ص 178. [3]

3-3 (3) ابن كثير ج 9 ص 180. [4]

4-4 (4) مروج الذهب ج 3 ص 185. [5]

و كان مجحفاً فى جباية الأموال، فمن ذلك أنه كتب إلى عامله على خراج مصر - وهو أسامة بن زيد التنوخى - : احلب الدر حتى ينقطع، و احلب الدم حتى ينصرم. قال الكندى: فذلك أول شدة دخلت على أهل مصر. وقد أعجب سليمان بفعل أسامة و قال: هذا أسامة لا يرتشى ديناراً و لا درهماً. فقال له عمر بن عبد العزيز: أنا أدلك على من هو شر من أسامة و لا يرتشى ديناراً و لا درهماً. فقال سليمان: و من هو؟ قال: هو عدو الله إبليس. فغضب سليمان و قام من مجلسه (1). و قدم أسامة على سليمان بما اجتمع عنده من الخراج و قال: يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية و جهدت، فإن رأيت أن ترفق بها و ترفه عليها، و تخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادنا فافعل، فإنه يستدرک ذلك فى العام المقبل. فقال له سليمان: هبلك أمك، احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم (2). و غضب سليمان على أعظم قائد فتح الفتوحات العظيمة فى بلاد المغرب و هو موسى بن نصير، و كان من رجال الكوفة العسكرين، و زهادها المؤمنين! ممن عرف بولائه لأهل البيت و استقامته، و لعل من هذا كان سخط سليمان عليه بعد تلك الأعمال الجليلة و الفتوحات العظيمة كما هو مشهور. و قد أهمل كثير من المؤرخين عظيم بلائه و جهاده فى نشر الإسلام، و اتساع رقعته، و أشادوا بذكر مولاه طارق بن زياد الذى كان تحت إمرته و يسير على مخططاته العسكرية. كانت لموسى هذا مواقف مشهورة، ففتح بلاد المغرب، و غنم أموالاً طائلة و كان يوجه ولده عبد العزيز، و مولاه طارق بن زياد لافتتاح المدن، و لكن سليمان وجد على موسى فقتل ولده عبد العزيز الذى افتتح فى إمارته مدائن كثيرة، و كان عبد العزيز متصفاً بالزهد و الصلاح و لكن بعض المؤرخين حاكوا حوله تهمة لا تتفق مع ما يتصف به من الاستقامة و حسن السيرة، و كان قتله سنة 98 هـ. قال ابن الأثير: و يعدون ذلك من زلات سليمان.

ص:124

[1-1] النجوم الزاهرة ج 1 ص 232. [1]

[2-2] الجهشيارى ص 32. [2]

و كان والده موسى قد سخط عليه سليمان و عذبه أنواع العذاب، و ضمنه أربعة آلاف دينار و ثلاثين ألف درهم. و لما قتل ولده عرض رأسه عليه فتجلد للمصيبة و قال: هنيئاً له بالشهادة و قد قتلتموه و الله صواماً قواماً. و كان موسى ممن عرف هو و أبوه نصير بولائه لآل محمد و لقد غضب معاوية عليه إذ لم يخرج معه لصفين.

## عمر بن عبد العزيز:

### إشارة

أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، و أمه أم عاصم ليلي بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. و لى بعهد من سليمان بن عبد الملك، يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة 99 هـ، و بقى والياً إلى أن مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة 101 هـ. و مدة خلافته سنتين و خمسة أشهر و خمسة أيام. و كان أبوه عبد العزيز المتوفى سنة 86 هـ و لى عهد مروان بعد أخيه عبد الملك، و لكنه مات قبله. و قد وجد الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز عدلاً فقدوه زماناً، و استراحوا فى أيامه القليلة مما كانوا يتحملونه من ظلم و تعسف، و جور فى الحكم، و استبداد فى الأمر من حكام سبقوه، و هم لا يتقيدون بقانون سماوى أو وضعى و لا ينظرون إلا لأنفسهم و أنصارهم، فيستأثرون بما يجبونه من الأموال، و ينفقونه فى مصالحهم الخاصة. و كان الخراج فى عهده من أسوأ مظاهر السياسة التى تواجهها الأمة لسوء تصرف العمال، و جشع الولاة، و كانت جبايته غير محدودة و لا مقررّة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم، فظلموا العباد و خربوا البلاد. و لما ولى عمر بن عبد العزيز عالج هذه المشكلة، و يعطينا كتابه لعامله فى العراق صورة واضحة عن سوء الحالة و تردى الأوضاع.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل الكوفة: أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء و شدة في أحكام الله، و سنة خبيثة سننها عليهم عمال السوء، و إن قوام الدين العدل و الإحسان، فلا يكن شيء أهم إليك من نفسك، فلا تحملها قليلا من الإثم، و لا تحمل خرابا على عامر، و خذ منه ما أطاق و أصلحه حتى يعمر، و لا- يؤخذن من الغامر إلا وظيفة الخراج في رفق و تسكين لأهل الأرض، و لا تأخذن أجور الضرابين، و لا هدية النوروز و المهرجان، و لا ثمن الصحف، و لا أجور الفتوح، و لا أجور البيوت و لا درهم النكاح، و لا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمرى فإنى قد وليتك ما ولانى الله، و لا تعجل دونى بقطع و لا حلب حتى تراجعنى فيه، و انظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها و السلام (1). و قد عامل العلويين معاملة حسنة و فرق فيهم أموالا و كتب إلى عامله بالمدينة: أن أقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار. فكتب إليه العامل: ان عليا قد ولد له فى عدة قبائل من قريش ففى أى ولده؟ فكتب إليه عمر: إذا أتاك كتابى هذا فأقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم و السلام (2). و دخلت عليه فاطمة بنت على عليه السلام فقال لها يا بنت على و الله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلى منكم، و لا أنتم أحب إلى من أهل بيتى (3). و قال ابن الأثير: و كان سبب محبته عليا أنه قال: كنت بالمدينة أتعلم العلم، و كنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فبلغه عنى شيء من ذلك، فأتيته يوما و هو يصلى، فقال لى: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر و بيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك. قال: ما الذى بلغنى عنك فى على عليه السلام؟ قلت: معذرة إلى الله و إليك و تركت ما كنت عليه.

ص: 126

1-1) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 29 و [1] الطبرى ج 8 ص 139. [2]

2-2) مروج الذهب ج 3 ص 194. [3]

3-3) طبقات ابن سعيد ج 5 ص 333.



وكان أبى إذا خطب فنال من على رضى الله عنه تلجلج، فقلت: يا أبت إنك تمضى فى خطبتك، فإذا أتيت على ذكر على عرفت منك تقصيرا! قال: أو فطنت لذلك؟ قلت نعم. فقال: يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده. فلما ولى الخلافة لم يكن عنده من الدنيا هم مثل ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجله، فترك ذلك وكتب بتركه وقرأ عوضه: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ الْآيَةَ [النحل:90] فحل هذا الفعل عند الناس محلا حسنا وأكثروا مدحه بسببه (1). وصعب على الأمويين ترك هذه البدعة، و حاولوا إعادتها بعد عمر بن عبد العزيز. حج هشام بن عبد الملك سنة 106 هـ-فقال له سعيد بن الوليد بن عثمان: يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين، وينصر خليفته المظلوم ولا يزالوا يلعنون فى هذه المواطن الصالحة أبا تراب، فأمر المؤمنين ينبغى أن يلعنه فى هذه المواطن الصالحة، فشق على هشام ذلك وقطع كلامه وقال: ما قدمنا لشتم أحد (2). وعلى أى حال فإن عمر بن عبد العزيز قام بأمر مشكورة ووجد الكثيرون فى عهده ما لم يجدوه فى عهد غيره من الأمويين. ولقد ثقل على الأمويين ما قام به عمر بن عبد العزيز من الأعمال الصالحة ومعالجة مشاكل المجتمع، ولذا قيل: إنه مات بالسسم من بنى أمية علما منهم أنه إن امتدت أيامه أخرج الأمر عنهم، و أنه لا يعهد بعهد إلا لمن يصلح للأمر فعاجلوه (3).

### أخطاء تاريخية:

ذكر بعض المؤرخين: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر ذات يوم بمكة فقال:

ص:127

1-1 (1) ابن الأثير ج 5 ص 20. [1]

2-2 (2) الطبرى ج 8 ص 86. [2]

3-3 (3) الانافة فى مآثر الخلافة ج 1 ص 142.

أيها الناس من كانت له ظلامه فليتقدم. فتقدم على بن الحسين بن علي عليه السلام فقال: إن لي ظلامه عندك. فقال: و ما ظلامتك؟ . فقال على بن الحسين: مقامك هذا الذي أنت فيه. فقال عمر: إنى لا أعلم ذلك، ولكن لو علمت أن الناس يتركونه لك و الله لتركته (1). ونحن لا ننكر اعتراف عمر بن عبد العزيز بأحقية أهل البيت للأمر، و لا ننكر مطالبة أهل البيت في حقهم عند سنوح الفرص، و انهم مظلومون، و أيديهم من حقهم صفرات. و لكننا ننكر اتخاذ أمثال هذه الوسائل من إمام عصره، و سيد أهل البيت زين العابدين، فهو أعرف الناس بالأوضاع السائدة، و أعلمهم بالظروف و مناسباتها. هذا من جهة و من جهة أخرى أن التاريخ لا يقر ذلك، فإن وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام كانت في سنة 95 هـ و ولاية عمر بن عبد العزيز في سنة 99 هـ فكيف يصح ذلك؟ و مثل هذه ما ذكره بعضهم: أن على بن الحسين عليه السلام اقترض من مروان بن الحكم أربعة آلاف دينار، فلم يتعرض له أحد من بني مروان حتى استخلف هشام، فقال لعلي بن الحسين: ما فعل حقنا قبلك؟ فقال عليه السلام؛ موفور و مشكور. فقال هشام: هو لك. و هذا لا يصح من جهات أهمها التاريخ فإن خلافة هشام كانت سنة 105 هـ - كما سيأتي، و وفاة على بن الحسين كانت سنة 95 هـ - أي قبل أن يلي الأمر هشام بعشر سنوات (2).

### يزيد بن عبد الملك:

يزيد بن عبد الملك بن مروان أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية. تولى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز سنة 101 هـ - و بقي إلى أن مات ليلة الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة 105 هـ - فكانت ولايته أربعة أعوام و شهرا واحدا و يومين.

ص: 128

[1-1] سمط النجوم العوالي للمكي ج 3 ص 204. [1]

[2-2] تاريخ ابن كثير ج 9 ص 252.

أراد عند ما ولى الخلافة أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز، فشق ذلك على قرناء السوء، وأعوان الظلم و دعاة الباطل، فأتوا إليه بأربعين شيخاً، فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب (1). فخدعوه بذلك فانخدع بهم، وكان كلامهم موافقاً لهواه، فانهمك في اللذات و اللهو الطرب، و لم يراقب الله و لم يخش (2). فعادت الأمور إلى وضعها قبل عمر بن عبد العزيز، و عادت مشكلة الخراج و عزل جميع عمال عمر، و كتب إلى عماله: أما بعد فإن عمر بن عبد العزيز كان مغروراً، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، و أعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجذبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا (3). و قال ابن الأثير: و عمد يزيد بن الوليد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده، و لم يخف شناعة عاجلة، و لا إثماً عاجلاً، فمن ذلك: أن محمد بن يوسف أخا الحجاج كان على اليمن، فجعل عليهم خراجاً مجدداً، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بالاعتصار على العشر، و ترك ما جده محمد بن يوسف، و قال: لأن يأتيني من اليمن حصة ذرة أحب إلى من تقرير هذه الوضعية، فلما ولى يزيد بعد عمر أمر بردها، و قال لعامله: خذها منهم و لو صاروا حرصاً و السلام (4). و كان يزيد صاحب لهو و لذة، و هو صاحب حباة و سلامة و هما جاريتان و كان مشغولاً بهما، و ماتت حباة فمات بعدها بيسير أسفاً عليها، و كان قد تركها أياماً لم يدفنها، لعدم استطاعته فراقها، فعوتب على ذلك، فدفنها، و يقال إنه نَشَّها بعد الدفن حتى شاهدها (5).

ص: 129

- 
- 1-1 (1) ابن كثير ج 9 ص 232. [1]
  - 2-2 (2) سمط النجوم العوالي ج 3 ص 209. [2]
  - 3-3 (3) العقد الفريد ج 3 ص 180. [3]
  - 4-4 (4) الكامل ج 5 ص 22. [4]
  - 5-5 (5) الانافة في مآثر الخلافة ج 1 ص 146 و البدء و التاريخ ج 3 ص 48. [5]

إشارة

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولي الأمر بعهد من أخيه يزيد بن عبد الملك سنة 105 هـ -لخمس بقين من شعبان وبقى إلى سنة 125 هـ -وهي سنة وفاته، وكانت مدة ملكه تسع عشرة سنة وسبعة أشهر غير أيام، وأمه بنت هشام بن إسماعيل المخزومي. كان هشام يعد من دهاة بني أمية، وقرنوه بمعاوية، وعبد الملك، وقد عرف بالغلظة، وخشونة الطبع، وشدة البخل، وسوء المجالسة، وكان أحول، وهو الرابع من أولاد عبد الملك الذين تولوا الحكم. وكان شديد البغض للعلويين، حاول الانتقام منهم، وانتقاصهم كلما أمكنته الفرصة. حج هشام قبل أن يلي الخلافة فطاف في البيت ولم يتمكن من استلام الحجر من شدة الزحام، فنصب له منبر وجلس عليه، وأهل الشام حوله. وبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين زين العابدين عليه السلام فانفرج الناس له وصاروا سماطين، إجلالا وهيبة واحتراما، فعظم على هشام وغاضه ذلك. وقال: من هذا؟ استنقاصا له. وكان الفرزدق حاضرا فقال: أنا أعرفه. فقال هشام: من هو؟ فأنشأ الفرزدق قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها: هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

إلى آخر القصيدة، فغضب هشام، وأمر بسجن الفرزدق. وحج هشام بن عبد الملك في أيام خلافته سنة 106 هـ -وكان الإمام محمد الباقر عليه السلام في المسجد، وقد أحاط به طلاب العلم، وهو في تلك الحلقة يلقي عليهم تعاليم الدين الإسلامي، ويعلمهم الأحكام والفرائض، فصعب ذلك على هشام، فقال لرجل من جماعته: اذهب إليه واسأله وقل له يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكله الناس و يشربونه في المحشر إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فلما سأله

الرجل قال عليه السّلام: قل له يحشر الناس على مثل قرص النقي (1) فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب. وكان هشام يقصد من وراء هذا السؤال أن يظفر بشيء يستطيع به أن يضع من منزلة الإمام في ذلك المجتمع ولو من باب المغالطة، لأنه حانق عليه، فلما رجع الرسول إليه بما أجابه الإمام ظن هشام أنه ظفر بما أراد ونجح بما دبر. فقال: الله أكبر، اذهب إليه فقل له يقول لك: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟ فقال أبو جعفر الباقر عليه السّلام: هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. فسكت هشام وعرف فضله. وهو الذي سير الإمام الباقر عليه السّلام وولده الصادق عليه السّلام من المدينة إلى الشام، يقصد بذلك إهانتهمما والتشفي منهما لما رآه وسمعه عند ما حج في تلك السنة، وحج فيها الإمام محمد الباقر وولده الصادق عليه السّلام فقال الإمام الصادق في ذلك المأل: الحمد لله الذي بعث محمدا بالحق نبينا وأكرمنا به، فنحن صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده وخلفائه، فالسعيد من تبعنا، والشقي من عادانا. فبلغ هشام ذلك، وعظم عليه فلم يتعرض لهما بشيء، حتى انصرف إلى دمشق، وأمر ياشخاص الإمام وولده الصادق عليه السّلام إلى دمشق. قال الإمام الصادق عليه السّلام فلما وردنا دمشق حجبتنا ثلاثا، ثم أذن لنا في اليوم الرابع إلى آخر ما هو معروف من هذه القصة.

### هشام و زيد بن علي:

ودخل عليه زيد بن علي عليه السّلام فسلم عليه بالإمرة فلم يرد السلام إهانة له، وأغلظ في الكلام ولم يفسح له في المجلس. فقال زيد: السلام عليك يا أحول، فإنك ترى نفسك أهلا لهذا الاسم. فغضب

ص: 131

---

1-1) النقي كغنى، قال في النهاية: الحديث: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقي يعني الخبز الحواري.

هشام، و جرت بينها محاورة كان نصيب هشام فيها الفشل، و خرج زيد و هو يقول: ما كره قوم حر السيوف إلا ذلوا. و أمر هشام برده و قال له: اذكر حوائجك. فقال زيد: أما و أنت ناظر على أمور المسلمين فلا. و خرج من عنده و قال: من أحب الحياة ذل (1). و مضى زيد إلى الكوفة و بها استشهد في الثالث من صفر سنة 121 هـ - بعد ثورة أزرتة فيها مختلف الطاقات، و جرت حوادث لا يتسع المجال لذكرها. و بعد شهادته رضى الله عنه صلب جسده عريانا منكوسا بأمر من هشام و بقى الجسد مصلوبا أربع سنين، و نسجت العنكبوت على عورته (2) و أرسل يوسف بن عمر أمير الكوفة رأس زيد إلى هشام، فصلبه على باب دمشق ثم أرسله إلى المدينة، فنصب عند قبر الرسول يوما و ليلة، ثم نصب في مؤخر المسجد على رمح، و أمر الوالى باجتماع الناس، فقام خطباء الأمويين بشتم أهل البيت، و هكذا بقى الرأس سبعة أيام (3) ثم أمر هشام بإرسال الرأس إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر سنة 122 هـ - فأمر حنظلة بتعليقه، و أن يطاف به (4). أما الجسد الشريف فقد بقى مصلوبا إلى أيام الوليد بن يزيد و قد أقام عليه يوسف بن عمر حراسا خوفا من أن ينزل الجسد فيغسل و يكفن، و كان الموكل بحراسة الجسد زهير بن معاوية، أحد رجال الصحاح و حملة الحديث. و كان زهير يحدث الناس: بأنه رأى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في النوم، و قد وقف على الخشبة و قال: هكذا تصنعون بولدى من بعدى؟! يا بنى يا زيد قتلوك قتلهم الله صلبوك صلبهم الله (5).

ص: 132

- 
- 1-1 (1) تاريخ الطبرى ج 8 [1] حوادث سنة 121 و ابن عساکر ج 6 ص 22-23. [2]
  - 2-2 (2) تاريخ الخميس ج 2 ص 320. [3]
  - 3-3 (3) زيد الشهيد للعلامة السيد عبد الرزاق المقرم ص 162-164.
  - 4-4 (4) النجوم الزاهرة ج 1 ص 281. [4]
  - 5-5 (5) تهذيب تاريخ ابن عساکر ج 6 ص 323.

و نود أن نوضح هنا-بإيجاز-نقطة ذات أهمية في الموضوع و هي: ان المشهور بأن الشيعة اجتمعوا إلى زيد فسألوه عن أبي بكر و عمر و ما هو رأيه فيهما؟ أو انهم سأله البراءة منهما، فأجابهم بخلاف ما أرادوه من الطعن في الشيخين. فتفرقوا عنه فسامهم الرفضة. و على هذا فقد وسم الشيعة باسم الرفضة، و انهم الذين رفضوا الشيخين أو رفضوا زيدا إلى غير ذلك مما هو مشهور في هذه القضية. و عند ما نرجع إلى الواقع و ندرس الحوادث على ضوء العلم و عدم التحيز و نشبت-قدر الإمكان-من صحة القول فبدون شك يبدو لنا عدم صحته، و رب مشهور لا-أصل له. و حقيقة الأمر أن الشيعة لم يسألوا زيدا عن الشيخين و رأيه فيهما بذلك الموقف الحرج، وإنما كان ذلك من قبل المندسين في صفوف جيشه، و انها كانت حيلة من قبل الوالي يوسف بن عمر ليوقع الفرقة، و يثير غبار الخلاف لأن جيش زيد كان يتألف من عناصر مختلفة الآراء و العقائد، ففيهم الخوارج و فيهم الناقمون على الأمويين، و فيهم الجواسيس و غير هؤلاء. قال ابن عساكر: فخرج زيد في أربعة آلاف بالكوفة، فاحتال عليه بعض من كان يهوى هشاما، فدخلوا عليه و قالوا: ما تقول في أبي بكر و عمر؟ فقال زيد: رحم الله أبا بكر و عمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم قال: أين كنتم قبل اليوم؟! (1). و كان الغرض من إلقاء هذا السؤال في ذلك الموقف الحرج في ساعة حرب و تجمع، و هياج و تحزب، هو أحد أمرين و في كليهما نجاح تلك الخدعة، و تحقيق هدف تلك المؤامرة، فإما أن يتبرأ زيد من الشيخين و يسىء القول فيهما، فيكون حينئذ أقوى سبب لقتل زيد، لأنه يسىء القول في الشيخين و تلك وسيلة اتخذها الأمويون و من بعدهم للقضاء على خصومهم.

ص:133

و إما أن لا- يتبرأ فيقولون كيف لا- يتبرأ ممن ظلمهم حقهم، وبالفعل قالوا ونجحت هذه المؤامرة، و تفرق أهل الغدر وذوو الأطماع، و كانت هذه الحيلة من الوالى يوسف بن عمر أقوى سلاح لجأ إليه. يقول الأستاذ الخربوطلى: و لجأ يوسف بن عمر إلى الحلية فدرس لزيد بين أنصاره من يسأله عن رأيه فى أبى بكر و عمر. . . الخ (1). كما أنه أعطى لبعض جواسيسه الأموال ليتعرف على أصحاب زيد (2) و إن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من إقامة الشواهد على اهتمام الأمويين فى اتخاذ الوسائل لإفشال ثورة زيد، و أن نفسيات الأكثرية التى انضمت إليه قد طبعت على الغدر و نقض العهود. و ان قول زيد لمن سألته: أين كنتم قبل هذه؟ ليدل بصراحة على ما فى الأمر من هدف معين و أمر مبيت. إن الشيعة هم محور تلك الثورة، و ليس من الصحيح أن ينسب إليهم إثارة موضوع هم فى غنى عنه، و هم لا- يجهلون رأى أهل البيت فى ذلك الأمر فما معنى هذا السؤال فى ذلك الموقف الحرج؟ كما انهم يعرفون الجيش و اختلاطه من عناصر مختلفة، فكيف يهبط بهم الشذوذ فى التفكير إلى هذا المستوى الذى لا يتفق مع عقائدهم و لا يسير مع خططهم الثورية؟ و الواقع أن الشيعة لم يثيروا هذا الموضوع لأنهم لا يجهلون خطره فى ذلك الموقف الحرج، و إنما كانت إثارته من الخدع السياسية، و الحيل الأموية. و لقد نجحت تلك المؤامرة و تسربت الفرقة بين صفوف الجيش، و تفرق عن زيد من لم يأت لنصرته عن عقيدة ثابتة، و لم يبق معه إلا الخلف من الشيعة، فدافعوا عنه دفاع الأبطال، و ثبتوا معه إلى أن قتل رحمة الله عليه، و قد قتل بين يديه جماعة منهم، و آخرون صحبوا ولده يحيى و قاتلوا معه، و لم ترفض الشيعة زيدا بل إنما رفضت المعاونة معه أنصار الأمويين و أعوان الظلمة. و ليس باستطاعتنا التفصيل لهذه القضية الآن و الإحاطة بها من جميع الوجوه،

ص:134

---

1-1) الدولة العربية الإسلامية ص 305.

2-2) الطبرى ج 8 ص 277.



ليتضح الأمر كما يجب وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان في دراسة هذا الموضوع و الوقوف على الحوادث التي أدت إلى فشل ثورة زيد بن علي عليه السلام.

## الوليد بن يزيد:

### إشارة

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أخى الحجاج الثقفى. ولى الأمر بعد هشام بعهد من يزيد بن عبد الملك، و تربع على دست الحكم يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الأول سنة 125 هـ. وقيل لعشر خلون من ربيع. بقى فى الحكم إلى أن قتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة 126 هـ. فكانت ولايته سنة واحدة و شهرين. قال ابن حزم: و كان الوليد فاسقا خليعا ماجنا (1). وقال ابن فضل الله فى المسالك: الوليد بن يزيد فرعون ذلك العصر الذاهب، يأتى يوم القيامة فيورد قومه النار، ويرديهم العار، وبس الورود المورود، رشق المصحف بالسهم، ولم يخش الآثام. وقال القلقشندى: و كان مصروف الهممة إلى اللهو، و الأكل، و الشرب و سماع الغناء. . . (2). وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش، مصرا عليها، منتهكا محارم الله عز و جل لا يتحاشى من معصية، و ربما اتهمه بعضهم بالزندقة و الانحلال. و لما ولى هشام أكرم ابن أخيه الوليد، حتى ظهر عليه أمر الشراب، و خلطاء السوء، و مجالس اللهو. . . وقال هشام للوليد: ويحك و الله ما أدرى أعلى دين الإسلام أنت أم لا؟ فإنك لم تدع شيئا من المنكرات إلا أثبته غير متحاش و لا متستر. فكتب إليه الوليد: يا أيها السائل عن ديننا دينى على دين أبى شاعر

ص:135

1-1) السيرة ص 363.

2-2) الانافة فى مآثر الخلافة ج 1 ص 156.

(1) و أبو شاعر هو مسلمة بن هشام بن عبد الملك. و على أى حال فإن للوليد أعمالا منكرا، و جرائم لا توصف، و قبائح تشمئز منها النفس، و يقف القلم عند بيانها خجلا. و كانت له جرأة عظيمة على انتهاك حرمة الإسلام، فمن ذلك أنه كان يستهدف بالمصحف و يقول: تهدد كل جبار عنيد فيها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جنت ربك يوم حشر فقل يا رب خرّقتى الوليد

(2) و هو الذى كتب إلى عامله على الكوفة يوسف بن عمر: خذ عجل أهل العراق فأنزله جذعة (يعنى زيد بن على عليه السلام) و أحرقه بالنار ثم انسفه باليم. فأمر يوسف به فأحرقه ثم رضه و حمله فى سفينة، ثم ذراه فى الفرات (3). و قد وردت فى الوليد أحاديث بأنه فرعون هذه الأمة منها: ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه ولد لأخى أم سلمة غلاما فسموه الوليد فقال النبى صلّى الله عليه و آله و سلم: «سميتموه فراعينكم، ليكونن فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشد فسادا لهذه الأمة من فرعون لقومه» و فى لفظ لهو أضمر على أمتى. و أخرج البيهقي عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: دخل النبى صلّى الله عليه و آله و سلم و عندى غلام من آل المغيرة اسمه الوليد، فقال صلّى الله عليه و آله و سلم: من هذا يا أم سلمة؟ قالت: هذا الوليد. فقال صلّى الله عليه و آله و سلم: «قد اتخذتم الوليد حنانا؛ غيروا اسمه فإنه سيكون فى هذه الأمة فرعون يقال له الوليد» (4). و عند ما ولى كان يكتب إلى الناس:

ص: 136

- 
- 1-1) ابن الأثير ج 5 ص 124 و [1] تاريخ ابن كثير ج 10 ص 2-6.  
2-2) البدء و التأريخ للمقدسى ج 3 ص 53، و [2] تاريخ الخميس ج 2 ص 320، و [3] ابن الأثير ج 5 ص 137 و [4] الحور العين [5] لابن نشوان ص 190 و غيرها.  
3-3) الطبرى ج 8 ص 122 و [6] ابن الأثير ج 5 ص 127. [7]  
4-4) ابن كثير ج 10 ص 6 و [8] تاريخ الإسلام للذهبي ج 5 ص 173. [9]

ضمنت لكم إن لم تعقني منيتي بأن سماء الضر عنكم ستقلع

(1) ولما عم ظلمه و جوره و فسقه و استهتاره، قال فيه الشاعر العربي حمزة بن بيض: وصلت سماء الضر بالضر بعد ما زعمت سماء الضر  
عنا ستقلع

فليت هشاما كان حيا يسومنا و كنا كما كنا نرجى و نطمع

و قال أيضا: يا وليد الخنا تركت الطريقا واضحا و ارتكبت فجعا عميقا

و تماديت و اعتديت و أسرف-ت و أغويت و انبعثت فسوقا

أنت سكران ما تفيق فما تر تق فتقا و قد فتقت الفتوقا

(2) و كتب إليه عامله على خراسان: بتردى الأوضاع، و حدوث ثورات فأجابه: إنى مشغول بالعريض و معبد و ابن أبي عائشة. و هم المغنون  
الذين أحضرهم عنده (3). و اشتدت النقمة على الوليد، و ثار الناس عليه بقيادة ابن عمه يزيد بن الوليد، و قال له يزيد بن عنبسة: ما ننقم  
عليك فى أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك حرم الله، و شرب الخمر، و نكاح أمهات أولاد أبيك، و استخفافك بأمر الله (4). و قتل يوم  
الخميس لليلتين من جمادى الآخرة سنة 126 هـ- و حمل رأسه إلى يزيد بن الوليد، فأمر أن يطاف به فى البلد.

### مقتل يحيى بن زيد:

و فى أيامه قتل يحيى بن زيد بن على بن الحسين عليه السلام و ذلك أنه خرج من الكوفة بعد مقتل أبيه زيد و توجه إلى خراسان، فسار إلى  
الرى، و منها أتى سرخس، ثم خرج و نزل فى بلخ على الحرير بن عبد الرحمن الشيبانى، و لم يزل عنده حتى هلك هشام و ولى الوليد بن  
يزيد.

ص: 137

1-1 (1) البدء و التأريخ ج 3 ص 51. [1]

2-2 (2) ابن الأثير ج 5 ص 133. [2]

3-3 (3) البدء و التأريخ ج 3 ص 53. [3]

4-4 (4) تاريخ الإسلام للذهبي ج 5 ص 178. [4]

وكتب يوسف بن عمرو إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى، وأنه فى منزل الحريش، فطالبه نصر بيحيى فقال له الحريش: لا علم لى به، فأمر به فضرب ستمائة سوط. فقال الحريش: و الله لو أنه تحت قدمى ما رفعتهما عنه (1) ثم وقعت بعد ذلك حوادث يطول ذكرها، وقامت الحرب بين يحيى وبين نصر، وأرسل نصر ليحيى جيشا عدده عشرة آلاف فارس، وكان يحيى فى سبعين رجل فهزمهم يحيى وقتل قائد الجيش عمر بن زرارة. فأرسل نصر جيشا آخر فى طلب يحيى، فأدركوه بالجوزجان، و وقع القتال بينهم وبين يحيى وأصاب يحيى سهم فى جبهته فقتل وقتل أصحابه عن آخرهم، وأخذوا رأس يحيى و سلبوه قميصه. (2) كانت شهادة يحيى يوم الجمعة وقت العصر سنة 125 هـ و بعث برأسه إلى الوليد بن يزيد، فبعثه إلى المدينة؛ و جىء به إلى أمه ريطة بنت أبى هاشم بن محمد بن الحنفية فقالت: شرذتموه عنى طويلا، و أهديتموه إلى قتيلا، صلوات الله عليه، و على آبائه بكره و أصيلا (3). أما جسده الشريف فصلب بالجوزجان، و لم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى، و استولى على خراسان، فأنزله و صلى عليه و دفنه، و أمر بالنياحه عليه (4).

### يزيد الناقص:

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان و أمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد ملك الفرس. ولى الأمر بعد قتل الوليد سنة 126 هـ، و بقى إلى أن مات يوم الأحد فى ذى الحجة من السنة المذكورة، و مدة حكمه خمسة أشهر و ليلتين.

ص: 138

1-1 (1) ابن الأثير ج 5 ص 127. [1]

2-2 (2) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 127. [2]

3-3 (3) زيد الشهيد للمقرم ص 181. [3]

4-4 (4) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 127. [4]

وإنما سمي بالناقص لأنه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في أعطيات الناس وهي عشرة عشرة، ورد العطاء إلى ما كان أيام هشام. وفي أيامه اضطرب حبل الدولة أشد مما كان عليه من قبل، ووقع خلاف بين ولاية الأمصار، وثار أهل حمص، ووثب أهل فلسطين، ووقعت الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم إلى غير ذلك من الأمور، ومات يزيد ولم يعهد لأحد من بعده. وكان مولاه قطن وهو الموكل بخاتم الخلافة قد افتعل عهدا على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد، ودعا أناسا فشهدوا عليه زورا (1).

### إبراهيم بن الوليد:

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأمه أم ولد اسمها نعمة. ولى الأمر بعد أخيه يزيد بعهد منه زوره الموكل بالخاتم وهو مولاهم قطن كما تقدم. وذلك في ذي الحجة سنة 126 هـ ولم يتم له الأمر لكثرة الثورات واختلاف الكلمة، وسقوط هيبة الدولة، وكان اتباعه يسلمون عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة، وكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر، وقيل شهرين وأيام. وقد خلع نفسه وسلم الأمر لمروان الآتي ذكره، وذلك في صفر سنة 127 هـ. وقيل أن مروان قتله بعد أن ظفر به وصلبه وقتل جميع أصحابه، وقيل غرق في الزاب أو أنه قتل فيه (2).

### مروان بن محمد:

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد من الأكراد اسمها لبابة، ولى الحكم في صفر سنة 127 هـ إلى أن قتل ببوصير من أرض مصر لثلاث عشر ليلة خلت من ربيع سنة 132 هـ. وبه انتهى الحكم الأموي وانتقل الأمر إلى بني العباس. وتفرق الأمويون في البلاد، وكانوا طعنة للسيوف وزالت دولتهم بعد أن حكمت البلاد إحدى وتسعين سنة، وتسعة أشهر. وقامت على أنقاضها الدولة العباسية، بعد حروب طاحنة دامت مدة من الزمن، وكانت دعوة بني العباس إلى أهل البيت.

ص: 139

[1-1] العقد الفريد 3-194. [1]

[2-2] مروج الذهب ج 3 ص 239 و [2] جوامع السيرة ص 364 والانافة ج 1 ص 161.

و أول من ولى الحكم منهم هو: أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، بويع في ربيع الآخر سنة 132 هـ - و مات في ذى الحجة سنة 136 هـ. و قام من بعده أخوه أبو جعفر المنصور و اسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. بويع إذ مات أخوه السفاح، و بقى واليا إلى أن مات سنة 158 هـ - في ذى الحجة، و في عهده استشهد الإمام الصادق عليه السلام بالسم دسه إليه المنصور سنة 148 هـ - في الخامس والعشرين من شهر شوال و دفن بالبقيع مع أبيه و جده و الحسن السبط صلوات الله عليهم أجمعين. و قد تجرع من المنصور كئوس الأذى و المحن، و تحمل في سبيل أداء رسالته أنواع الآلام كما تقدم.

## ولاية المدينة في العهد الأموي:

### إشارة

أما ولاية المدينة المنورة فنحن نتعرض لمن و ليها في العهدين الأموي و العباسي في حياة الإمام الصادق عليه السلام بإيجاز، لتقف على بعض الحوادث التي شاهدها الإمام الصادق عليه السلام، و تجرع مرارة ذلك الظلم الذي لقيته الأمة و تحمله رجالها الأبرار. و قد تعاقب على المدينة ولاية جاروا في الحكم، و استهانوا بحرمة هذا البلد، و منهم الحجاج بن يوسف فقد ولى المدينة بعد قتل ابن الزبير سنة 74 و أقام فيها ثلاثة أشهر و تغيب عنه أهلها، و قد استهان بصحابة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و ختم أيديهم و أعناقهم بالرصاص ليدلهم، ثم عزله عبد الملك سنة 75 و ولاه العراق، و أمر على المدينة أبان بن عثمان بن عفان، ثم عزله عبد الملك سنة 82 و ولى هشام بن إسماعيل المخزومي. و نحن لا نريد أن نتعرض بالحديث عن الولاية الذي سبقوا عهد الإمام الصادق عليه السلام و أيام حياته، بل يختص بحثنا بمن ولى المدينة في أيامه عليه السلام و هم:

هشام بن إسماعيل بن الوليد المخزومي المتوفى سنة 88 هـ - وولاه عبد الملك بن مروان إمرة المدينة المنورة سنة 82 هـ، و كان ظالما في حكمه مبغضا لآل محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم وكان يؤذى على بن الحسين عليه السَّلام وأهل بيته، ويخطب على المنبر وينال من على بن أبي طالب عليه السَّلام. ولما أراد عبد الملك أن يبايع لولده الوليد ثم من بعده لسليمان بن عبد الملك امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع، فأمر به هشام فضربه ستين سوطا وألبسه ثيابا من شعر، وأركبه جملا، وطاف به في المدينة، وذلك في سنة 85. ولما بلغ عبد الملك ذلك لام هشاما وكتب له: إنا لنعلم أن سعيدا ليس عنده شقاق. وقال: ما ينبغي له إلا أن يبايع، وإن لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله (1). وكانت ولاية هشام على المدينة أربع سنوات وقد أساء فيها لأهل المدينة و جار في حكمه. وفي سنة 87 هـ - عزله الوليد بن عبد الملك وولى مكانه عمر بن عبد العزيز وأمره بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان، لأنه أساء إلى أهل المدينة مدة ولايته (2). ولما أوقفوه للناس قال: ما أخاف إلا من على بن الحسين، لأنه أساء معه أكثر من غيره، ولكن الإمام على بن الحسين عليه السَّلام أمر مواليه وخاصة بأن لا يتعرضوا له بكلمة واحدة، ولما مر به على بن الحسين عليه السَّلام ناداه هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته (3).

### عمر بن عبد العزيز:

#### إشارة

تقدمت ترجمته و طرف من سيرته و كان محبا لأهل البيت، وهو الذى رد عليهم

ص: 141

1-1 (1) تاريخ الإسلام للذهبي ج 3 ص 310 و [1] تاريخ ابن كثير ج 9 ص 60.

2-2 (2) ابن كثير ج 9 ص 71. [2]

3-3 (3) الطبرى ج 8 ص 61 و [3] تاريخ الإسلام ج 3 ص 310. [4]

فدكا و منع سب على عليه السلام بعد أن اتخذته الدولة الأموية شعارا لها وقد تقدم بيان ذلك. وكان الإمام الباقر عليه السلام يوصى عمر بن عبد العزيز بالعدل فمن وصيته له: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا، وأوسطهم أخا، وأكبرهم أبا، فارحم ولدك وصل أخاك، و بر والدك، فإذا صنعت معروفا فربه» بمعنى أدمه و لا تقطعه. وقد روى عن الإمام الصادق أنه قال: كان العبد الصالح أبو حفص يهدى إلينا الدراهم و الدنانير فى رفاق من العسل خوفا من أهل بيته. ولى إمرة المدينة فى سنة 87 هـ وبقى واليا إلى سنة 93 هـ و فيها عزله الوليد عن المدينة لأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد بعسف الحجاج و ظلمه، و استبداده و جوره فى حكمه، و اعتدائه على الناس بغير حق و لا جنائية. فبلغ الحجاج ذلك و كتب إلى الوليد: إن من قبلى من مرق العرق و أهل الشقاق لجئوا إلى المدينة و مكة و إن ذلك و هن. فاستشاره الوليد عن يوليه المدينة فأشار الحجاج عليه بعثمان بن حيان و خالد بن عبد الله القسرى، فولى خالدا مكة و عثمان المدينة، و عزل عمر بن عبد العزيز. و فى سنة 88 هـ شرع عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و توسعته بأمر الوليد.

### سبب عمارته لمسجد النبى:

و كان السبب الذى من أجله قام الوليد بعمارة المساجد، و توسعة مسجد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم هو: أنه خرج حاجا فمر بمسجد النبى صلى الله عليه و آله و سلم فدخله، فرأى بيتا طاعنا فى المسجد، شارعا بابه، فقال: ما بال هذا البيت؟ فقيل: هذا بيت على بن أبى طالب عليه السلام، أقره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و ردم سائر أبواب أصحابه. فقال الوليد: إن رجلا نلعه على منابرنا فى كل جمعة، ثم نقر بابه طاعنا فى مسجد رسول الله عليه السلام اهدم يا غلام. فقيل له: لا تفعل يا أمير المؤمنين، حتى تقدم الشام، ثم تخرج أمرك بتوسيع



مساجد الأمصار، مثل مكة والمدينة وبيت المقدس، و تبنى بدمشق مسجداً، فدخل بيت علي عليه السلام فيما يوسع من مسجد المدينة فقبل ذلك (1). ولم يهدم الوليد دار عثمان بن عفان فلما تولى بنو العباس أراد الحسن بن زيد أن يوسع المسجد ليهدم دار عثمان كما هدم الوليد دار علي عليه السلام فكتب إلى أبي جعفر المنصور: يصف له ناحية موضع الجنائز. ويقول: إن زيد في المسجد من الناحية الشرقية توسط قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد. فكتب إليه أبو جعفر: إنني قد عرفت الذي أردت، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان (2). وكان اهتمام الوليد في توسعة المسجد شديداً، وأمر عامله عمر بن عبد العزيز بشراء ما حوله من الدور، ومن أبي هدمت عليه داره (3). وشق على أهل المدينة ذلك وأرادوا ترك حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حالها لينظر إليها الحجاج والزوار، والمسافرون، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرن فيها إلا بقدر الحاجة، ويعرفون أن هذا البنيان العالى إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة من عدم الرضا بالهدم. فأرسل إليه الوليد يأمره بالخراب وبناء المسجد، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف وجوه الناس من بنى هاشم وغيرهم، وبكوا مثل يوم مات فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم (4). ويظهر أنه لم يجسر أحد من عمال المدينة على الهدم، ولذلك اضطر الوليد إلى جلب عمال من بلاد الروم، وكانوا أربعين من الروم وأربعين من القبط (5).

### عثمان بن حيان:

عثمان بن حيان المرى مولى أم الدرداء أو مولى عتبة بن أبي سفيان.

ص: 143

- 
- 1-1 (1) مختصر تاريخ البلدان [1] لأبي بكر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه ص 107.
  - 2-2 (2) الدررة الثمينة لابن النجار ص 85. [2]
  - 3-3 (3) الدررة الثمينة ص 81. [3]
  - 4-4 (4) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 74-76.
  - 5-5 (5) الدررة الثمينة ص 81 و [4] الطبرى ج 8 ص 65. [5]

كان ظالما متعسفا، وأول عمل أجراه في المدينة أنه أرسل على جماعة من العلماء كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، منهم محمد بن المنكدر أحد العلماء الثقات و من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام فضربهم، و نكل بهم لما كان من كلامهم، و أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر. كما حدث بذلك مالك بن أنس (1). و نفى العراقيين من المدينة، و حذر كل من آواهم، لأنهم كانوا يستجرون بالحرم النبوي من الحجاج و جوره، فكان يتبعهم و يرجعهم إلى الحجاج مقيدين بالحديد، و لم يترك أحدا لا تاجرا و لا غير تاجر. و خطب على المنبر فقال: أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمر المؤمنين في قديم الدهر و حديثه. ثم ذكر العراقيين و وصفهم بالشقاق و الغدر. ثم قال: و الله ما جربت عراقيا قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول و ما هم لهم بشيعة. . . و الله إنى لا أوتى بأحد آوى أحدا منهم أو أكراه منزلا، إلا هدمت منزله و أنزلت به ما هو أهله (2).

### أبو بكر بن محمد:

أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم المتوفى سنة 121 هـ- كان من العلماء و من رجال الصحاح، و تولى قضاء المدينة، ثم ولى إمرتها بعد عثمان بن حيان المري. و كان عثمان قد عزم على التنكيل بأبي بكر و أن يلحق رأسه و لحيته، و لكن عاجله أمر سليمان بتولية أبي بكر و عزله، و تقييده بالحديث و ذلك في سنة 96. أقام أبو بكر بولاية المدينة من سنة 96 هـ- إلى سنة 101 هـ- فعزله يزيد و ولى مكانه عبد الرحمن بن الضحاک الفهري، و اشتد على أبي بكر و عذبه بما يطول ذكره.

### عبد الرحمن بن الضحاک:

عبد الرحمن بن الضحاک بن قيس الفهري.

ص: 144

[1- 1] السخاوى فى التحفة ج 3 ص 381. [1]

[2- 2] الطبرى ج 8 ص 92. [2]

تولى إمرة المدينة سنة 101 هـ -ولاه يزيد بن عبد الملك بعد أبي بكر بن حزم، ثم عزله سنة 104 هـ- وولى مكانه عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضرى وأمره أن يعذب عبد الرحمن، وأن يضربه بالسياط، وأن يغرمه ألف دينار، ففعل به عبد الواحد ما أمره يزيد، وسلب ماله حتى أصبح لا يملك إلا جبة صوف، وهو يسأل الناس، لسوء حاله وشدة حاجته. وكان عبد الرحمن هذا سيئ السيرة، عامل الناس بالظلم والتعسف وعادى الأنصار، وضرب أبا بكر بن حزم ظلما وعدوانا، فكرهه الناس وهجاه الشعراء.

### **عبد الواحد النضرى:**

عبد الواحد بن عبد الله بن بسر النضرى، نسبة لجده النضر بن معاوية. ولى إمرة المدينة و مكة و الطائف فى سنة 104 هـ- من قبل يزيد بن عبد الملك إلى أن عزله هشام بن عبد الملك سنة 106 هـ- وولى مكانه إبراهيم المخزومى، وكان مرضى السيرة عند أهل المدينة، ولا يفعل أمرا إلا بعد استشارة القاسم بن محمد بن أبي بكر.

### **إبراهيم بن هشام:**

إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى هو خال هشام بن عبد الملك ولى المدينة سنة 106 هـ- وضم إليه الطائف و مكة، وبقى واليا إلى سنة 114 هـ-. و حج بالناس سنة 100 هـ- وخطب بمنى يوم النحر بعد الظهر فقال: سلونى أنا ابن الوحيد، لا تسألون أحدا أعلم منى، فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأضحىة أ واجبة هى أم لا؟ فما درى أى شىء يقول.

### **خالد بن عبد الملك:**

خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص. ولى إمرة المدينة سنة 114 هـ- بعد عزل إبراهيم بن هشام، وبقى واليا عليها إلى سنة 118 هـ- وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل أخو إبراهيم الوالى السابق. وكان خالد يحمل على على عليه السلام و يتكلم على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

بانتقاصه، فقام إليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال له: كذبت كذبت حتى خفضه الناس (1).

### محمد بن هشام:

محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن الحكم ولي سنة 118 هـ - وبقى واليا عليها إلى سنة 125 هـ - وعزله الوليد الفاسق، وولى مكانه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، وهو خال الوليد. وأضاف إليه مكة والطائف. وغضب الوليد على إبراهيم ومحمد ابني إسماعيل المخزومي، وهما من أمراء المدينة السالفين، فسجنهما ودفعهما إلى يوسف بن محمد موثقين في عباءتين فقدم بهما المدينة في شهر شعبان 125 هـ - وأقامهما للناس ثم بعث بهما إلى يوسف بن عمر عامل العراق، فعذبهما عذابا شديدا حتى ماتا تحت العذاب (2).

### يوسف الثقفي:

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ابن أخي الحجاج وخال الوليد. ولي المدينة سنة 125 هـ - ولأه ابن أخته الوليد الفاسق، وضم إليه جميع الحجاز، وأقره يزيد بن الوليد، وبقى واليا إلى سنة 126 هـ - وعزله وولى مكانه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وبقى واليا إلى سنة 129 هـ - ثم عزله مروان الحمار، وولى مكانه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهو آخر ولاية الأمويين على المدينة والحجاز. وفي عهده دخل المدينة أبو حمزة الخارجي في صفر سنة 130 هـ - بعد وقعة قديد وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير. وقامت النياحة في بيوت أهل المدينة. ودخل أبو حمزة الخارجي مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام وأقام أبو حمزة الخارجي في المدينة ثلاثة أشهر، ثم خرج لقتال مروان الحمار، فلقبهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي في جيش فأوقعوا بأصحاب أبي حمزة، وانهزم جيشه، وعادوا إلى المدينة منهزمين، فلقبهم أهل المدينة فقتلوهم

ص: 146

[1-1] ابن عساکر ج 5 ص 82. [1]

[2-2] ابن كثير ج 10 ص 4 و [2] الطبري ج 8 ص 299. [3]

و دخل المدينة عبد الملك بن محمد بن عطية منتصرا و أقام شهرا ثم مضى إلى مكة و استخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد بن عطية.

### ولاية المدينة في العهد العباسي:

أما أمراء المدينة في العهد العباسي فعند ما ولي أبو العباس السفاح عزل عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي أمير المدينة من قبل الأمويين، و ولي عمه داود بن علي بن عبد الله بن العباس، و ذلك في سنة 132 هـ - و ضم إليه مكة، و اليمن، و اليمامة. و لما دخل المدينة هدد الناس و توعدهم و قال في خطبته: أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال، هيهات منكم و كيف بكم، و السوط كفي، و السيف مشهر. حتى يبید قبيلة فقبيلة و يعرض كل مثقف بالهام

و يقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

و لكن الله لم يمهلهم و عجل عليه فلم تطل أيامه و مات في شهر ربيع الأول سنة 133 هـ - و كانت مدة ولايته أقل من ثلاثة أشهر. و لما دنت وفاته استخلف ولده موسى، و ولي السفاح مكانه زياد بن عبيد الله بن عبد المذان الحارثي، و هو خال السفاح و بقي إلى أيام المنصور و عزله في سنة 141 هـ - و غضب عليه و حمله إلى الكوفة مكبلا بالحديد. و ولي مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري ثم عزله في سنة 144 هـ. و ولي مكانه رياح بن عثمان بن حبان المري و بقي إلى سنة 145 هـ - و في عهده ثار محمد بن عبد الله بن الحسن في المدينة، و قبض على رياح و أخيه إبراهيم و أودعهما السجن، و دخل رجل من ولد مصعب بن الزبير عليهما في السجن عند ما اشتد القتال بين محمد بن عبد الله و بين جيش المنصور فذبحهما، و رجع إلى محمد و قاتل معه حتى قتل. ثم ولي إمرة المدينة - بعد قتل محمد - عبد الله بن الربيع الحارثي و ذلك في سنة 145 هـ - و بقي واليا إلى سنة 147 هـ - ثم عزله المنصور.

وولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وبقي واليا من قبل المنصور إلى سنة 149 هـ. وفي أيامه مات أبو عبد الله الصادق عليه السلام وذلك في سنة 148 هـ-مسموما. هذا موجز من البيان عن ولاية إمرة المدينة في العهد العباسي، وقد شهدت المدينة المنورة في عهد رباح بن عثمان المري-الذي ولاه المنصور إمرة المدينة- أولئك الجند القساة يهجمون على منازل آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويخرجون الرجال منها فيزج بهم في السجون، ويعذبون فيها بدون رحمة، ولا خشية من عقاب. ولعل من أعظم تلك المشاهد وقعا، وأشدها ألما، مرور موكب آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من شيوخ وشبان في شوارع المدينة، وهم مكبلون في الحديد، وقد غير ألم العذاب نضارة تلك الوجوه يحوط بهم جند المنصور وهم يسيرون إلى الكوفة حتى أودعوا في سجنه المظلم فكان به خاتمة مطافهم، وهو بيت ضيق لا يتمكن أحدهم من مقعده، يبول بعضهم على بعض ويتغوط، لا يدخل عليهم روح الهواء، ولا يخرج عنهم رائحة القذر حتى ماتوا عن آخرهم (1). وفي خضم هذه الأحداث كان الإمام الصادق يعيش معتكرا حادا تختلط فيه المشاعر بالمسؤوليات الجسام وليس أشق على نفسه الكريمة الطاهرة من ذاك المنظر وهو يرى برياطة جأش ما ذا سينجم عن هذه الجولة التي كان وقوعها أمرا مقدرا لم يدخل في دائرة الاحتمالات على المدى الذي كان يلوح في الأفق. يروى الحسين بن زيد: اني لواقف بين القبر والمنبر، إذ رأيت بنى الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر يراد بهم الربذة، فأرسل إلى جعفر بن محمد فقال: ما وراءك؟ قلت: رأيت بنى الحسن يخرج بهم في محافل، فقال: اجلس، فجلست، قال: فدعا غلاما له، ثم دعا ربه كثيرا، ثم قال لغلامه: اذهب، فإذا حملوا فأت فأخبرني. قال: فأتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه. فطلع بعبد الله بن الحسن وإبراهيم بن الحسن وجميع أهلهم، كل واحد منهم معادله مسود، فلما نظر إليهم جعفر بن محمد هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته،

ص: 148

ثم أقبل علىّ فقال: يا أبا عبد الله، والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا، والله ما وفّت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بما أعطوه من البيعة على العقبة (1). وبعد أن عرفنا أهم الحوادث التي جرت في عهد الإمام الصادق عليه السلام سواء أكانت في عهد جده زين العابدين عليه السلام أم في عهد أبيه الإمام الباقر عليه السلام أو في عهده بالذات فإنه يتضح لنا مدى تحمله للمتاعب وواجهته للآلام التي ماجت بها تلك الفترات. كما تتضح لنا الظروف التي أحاطت به والمشاكل التي كان يواجهها وقد عايش تلك الأحداث التي عمّت العالم الإسلامي وتخطى معه تلك المراحل العصيبة يوم أصبح الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه. وكانت الأهواء هي الحاكمة، والأحقاد هي المسيطرة، وقد رضخ المسلمون لحكم أناس ابتعدوا عن القرآن وتركوا العمل بسنة الرسول فأصبحت الأمة الإسلامية يتقل كاهلها أطماع أولئك الحكام ويرهقها جورهم. وفي عهد الإمام الصادق كانت البلاد الإسلامية مشحونة بالخلافات والمشاحنات وحدثت ثورات دموية وحروب طاحنة، أدت إلى استغلال الوضع من قبل أناس لا يهمهم إراقة الدماء في سبيل تحقيق مآربهم الشخصية. وقد تولى الإمام الصادق عليه السلام أعباء الإمامة ومسئولية أداء رسالة الإسلام وهداية الأمة بعد أبيه الإمام الباقر عليه السلام وقد لمعت شخصيته. وظهرت قابلياته. فتوالت عليه الطلبات لقيادة تلك الثورات التي قامت بوجه الطغيان، واتجهت إليه الأنظار للاحتجاج على ذلك الحكم الظالم، وكانت الدعوة باسم أهل البيت عليهم السلام، لأنهم زعماء هذه الأمة وأملها المنشود. وكان الإمام الصادق عليه السلام قد اختط لنفسه طريق الدعوة الصامتة والثورة الإصلاحية، بعد أن عرف بثاقب بصره وخبرته-وهو ينظر إلى تلك الحوادث-أن هذه الثورات لا تؤدي إلى الغاية التي ينشدها، ولا تحقق الهدف، بل في ذلك مزيد

ص:149

---

(1-1) مقاتل الطالبين ص 219-220. و [1] تاريخ الطبري ج 9 ص 194. [2]

من التضحيات التي لا يتورع بنو أمية في مقابلتها عن سفك الدماء، وكفى أمة محمد ما أريق من دماء، وكفى أهل البيت وشيعتهم ما أزهق من أرواح. وكان يعلم عواقب تلك الخلافات، ويتحسس حاجة المجتمع الإسلامي إلى التوجيه الصحيح، والدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام وتعاليمه، ليحقق بذلك التكافل الاجتماعي، والتأزر العام، فقد بذر الحكام بين الصفوف بذور الفرقة وجعلوا جسم المجتمع مغرساً للأهواء والأباطيل، وللسلطة مفعولها في شد النفوس إليها، وإحاطة أهل البيت بستار من الريبة والخوف ليمنعواهم من التأثير في الأمة. فقام عليه السلام بمهمة التوجيه، ليخلق الوعي بين الصفوف، وليحقق التكاتف والتآخي، وليقضى على بقايا رواسب جاهلية عملت على إحيائها طغمة حاكمة، لتحقق لنفسها مغنم تسند بها سلطانها الجائر، وحكمها الظالم، وقد شهد طغيان المؤثرات القبلية والسياسية وغيرها. إن الدعوة التي قام بها الإمام الصادق عليه السلام إنما هي ثورة إصلاحية وحملة توجيه عامة، ليوحد من تلك الجموع الشائنة أمة ذات وعي تحسب للظروف حسابها، وتنظر الوقت المناسب لقيام الثورة المتكفلة لتحقيق غايتها وتحقيق هدفها في إعادة الخلافة الإسلامية وتطبيق نظام الإسلام الذي يكفل للبشر سعادتهم. والإمام الصادق عليه السلام وسط ذلك المعترك هو الموجه القائد الذي اجتمعت في شخصيته جميع مؤهلات القيادة العامة، وقد واجه تلك الحوادث بحزم وثبات. وقد رد عليه السلام طلب من ألح عليه في تزعم الحركة الثورية التي نشبت في أيامه بين أنصار العلويين وبين الأمويين، وكانت الدعوة باسم أهل البيت عليهم السلام وهو زعيمهم وسيدهم في عصره. ولكنه كان يرى أن إصلاح الوضع بالتوجيه الصحيح وتفهم الناس ضرورة الوقوف تجاه الخصوم موقف تحسس بما تؤول إليه الحالة من التسرع في إثارة الحرب، وأن ذلك لا يجدي نفعاً لوجود ذوى الأطماع الذين لا يقل ضررهم على الأمة الإسلامية من ضرر الأمويين، وبهذا يكون حل المشكلة بمشكلة أعظم منها. واتخاذ مثل هذا الموقف الذي اتخذته الإمام لنفسه ومن ورائه ذوو البصيرة من أعيان الأمة ليدل على عمق التفكير وحصافة الرأي من ناحية عملية، ومن الناحية



العقيدية، فهو صاحب ولاية وعهد تضمنتهما الإمامة التي آلت إليه بعد وفاة أبيه الإمام الباقر عليه السلام وهي في سياق الدعوة متصلة بمصادر الرسالة متعلقة بمصير الدين. فإن الأمة شهدت على يد الملوك الذين تلّبسوا بالدين انحرافاً في مسيرة السياسة وارتداداً في الغايات والأهداف، ولا يحظى تطبيق نظام الإسلام في ظل خلافة الملوك بمعشار ما تحظى به مصالح الحكام وماربهم الشخصية وهم لا يتورعون بحال عن استشارة ما منع من الإسلام أو إحياء ما عمل على هدمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أصبح لسلطين الزمان قوة وصوله حتى انعدمت حالات التكافؤ، ومع ما هم عليه من الشوكة والنفوذ لم يتمكنوا من إخماد صوت الحق أو منع المؤمنين من العمل بالعقيدة الحقة، وقد تصدّى أهل البيت للحفاظ على روح التحدى في نفوس المؤمنين بشجاعة وبطولة إذ نذروا أنفسهم لدعوة الحق وقيادة تيار الالتزام والاتجاه الدينى. فعمل الإمام الصادق بعد وفاة أبيه على جمع شيعته ومريديه على قواعد المنهج والسلوك المعروفين منذ عهد جده الإمام زين العابدين عليه السلام. لقد وقف الإمام الصادق عليه السلام موقف المصلح الذى يحاول أن يعيد للأمة مجدها فى تعميق مبادئ الإسلام الصحيحة، ونشر الوعى الإسلامى بما يجب على كل مسلم أن يقوم به فى إصلاح الوضع، فى عصر انتشر به الفساد و منى المجتمع فيه بضروب المحن والابتلاء، وهو عليه السلام بدون شك يحمل من الأذى أضعاف ما تتحمله أفراد الأمة، لأنه المصلح الذى يريد للمجتمع السعادة المفقودة فى عهد ولاية لا تحترم حقوق الأمة المشروعة، وتتحدى نظامها المقدس، إذ استبدوا بالأمر وظلموا الأمة، واستأثروا بالمغانم، وخالفوا الكتاب والسنة فى سبيل غاياتهم، وخلقوا مشكلات الخلاف والتعصب ليفرقوا الكلمة، و يشتتوا الشمل ويشغلوا الأفكار، مما أثر على سير المسلمين وتقدمهم من الجهة الروحية التى هى قوام دينهم، وذلك خلاف ما قرره الإسلام، لأنه يدعو إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. والإمام يرى أن واجبه يحتم عليه نشر دعوة الإصلاح، وتوجيه المجتمع و بث تعاليم الدين، وأن يعلن غضبه على ذلك النظام الجائر بصفته إمام زمانه، ولكنه ما ذا يصنع وهو الرجل المغلوب على أمره، والمغصوب منه حقه، ومع ذلك فإنه لم يأل جهداً فى معارضتهم، ونهى الناس عن مخالطتهم والتولى لأعمالهم، وقد أوجب على

الأفراد عدم التعاون مع ولاية الأمر، و حرم عليهم العمل لهم، و حذر و أوعد من عاونهم بالعذاب لأنه كبيرة من الكبائر، إذ الوالى الجائر يشهد عزمه و تتسع دائرة استبداده عند ما يكثر مناصروه. كان الإمام عليه السلام يرى أن انفصال الأمة عن الظالمين و عدم الركون إليهم يضيق دائرة الاستبداد و يرغب الولاية على العدل، و يأمل من وراء ذلك لهم السعادة، و الغرض أن ولاية ذلك العصر أو خلفاء الدولة المروانية قد انهمكوا فى الدنيا و سفكوا الدماء، و انتهكوا المحرمات و تجاهروا فى عدا آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و تتبعوا من عرف بحبهم، و الميل إليهم، و تقريب من عرف ببغضهم، و هم يحاولون بذلك تحويل أنظار الأمة عن أهل البيت أهل العلم و الورع و العبادة. و الناس و إن تمكن من نفوسهم حب الدنيا و الطموح إلى المال فهم يخضعون لسيطرة العلم و الدين بدافع العقيدة، و حب الناس، لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم لا للدنيا ولكنه للدين وحده، فحبهم من الدين، لذلك كان يتقل على بنى أمية ذكر أهل البيت بخير، لأن سياستهم تركز على بغضهم و نصب العدا لهم، و إقصاء من عرف بحبهم، و قتل من اتضح منه ذلك. تارة باسم الزندقة و أخرى باسم الخروج على طاعة السلطان. و يعطينا الشاعر العبلى (1) صورة عن تلك السياسة بقوله: شردوا بى عند امتداحى عليا و رأوا ذاك فى داء دويا

فوربى ما أبرح الدهر حتى تختلى مهجتى بحبى عليا

و بنه لبحب أحمد أنى كنت أحببتهم بحبى النبيا

حب دين لا حب دنيا و شر الحب حب يكون لى دنويا

صاغنى الله فى الذوابة منهم لا ذميما و لا سنيدا دعيا

و كان هذا الشاعر فى عداد الأمويين، فهو من عبد العزى بن عبد شمس و لكن يكره ما يجرى عليه بنو أمية من ذكر على و سبه على المنابر، و يظهر الإنكار، فهو عن ذلك و نفوه من مكة إلى المدينة، و عاش مجفوا من الأمويين مع مدحه لهم و شعره فيهم.

ص: 152

1-1) هو عبد الله بن عامر بن عبد الله بن ربيعة بن عبد العزى.

ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت على أعمال الدولة الأموية، حتى قال أحد مخضرمي الدولتين: يا ليت جور بني مروان دام لنا و ليت عدل بني العباس في النار

لأنهم تتبعوا الذراري العلوية فقتلوهم تحت كل حجر و مدر، و خربوا ديارهم و هدموا آثارهم حتى قال الشعراء في عصر المتوكل: تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتته بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله ففتبعوه رميما

و كابد أهل البيت من المحن ما لا يمكن حصره، فقد امتلأت منهم السجون و اهتزت بأجسامهم المشانق، و سالت بدمائهم الأرض. و كانت السلطة الحاكمة تشجع خصومهم و تدعو الناس للابتعاد عنهم. فيصدر مرسوم من بغداد إلى مصر، بأن لا يقبل علوى ضيعة و لا يركب فرسا و لا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، و إن كانت بين علوى و بين أحد من سائر الناس خصومة فلا يقبل قول العلوى و يقبل قول خصمه بدون بينة (1) و كانوا بين آونة و أخرى، يصدر مرسوم بأن يسفروا من الأطراف إلى عاصمة الملك ليكونوا تحت الرقابة، و ينالوا العقاب هناك، و أمر الرشيد عامله على المدينة أن يضمن العلويون بعضهم بعضا و كانوا يعرضون على السلطان كل يوم فمن غاب عوقب. أما عاصمة ملكهم بغداد، أو مقر حكمهم العراق فأمر العباسيين مع العلويين أشهر من أن يذكر بإشارة، فلو نطقت أجزاء الأرض ما بين البصرة و فخر و كوفان و مقابر قریش و أفصححت عما احتوت و ما شهدت لضج ما بين المشرق و المغرب لهول المشاهد و الأحداث من أناس لو لا اسم أهل البيت لكانوا أبعد عن السلطان و الحكم، و لكنهم أخفوا نواياهم و استظلوا بمكانة أهل البيت و محبة الناس لهم و تفجعهم لما حل بهم.

ص:153

و لم يقف العلويون تجاه هذه السياسة موقف الذلة والخضوع، وأبت نفوسهم التسليم لتلك النظم و الأحكام القاسية، وقد استطاعوا الإفلات من تلك السيطرة، فثاروا في وجه الظلم لرفع راية العدل، فكانت هناك ثورات دموية كان النجاح مع أكثرهم فأسسوا دولاً و حكومات أقلقت العباسيين و دفعتهم إلى الانتقام من العلويين، و تطبيق مادة الفناء و الإبادة بحق من عرف بالميل لهم أو اتهم بذلك، فحاكوا لهم التهم، و لصقوا بهم العيوب، فلقبت شيعة أهل البيت من ذلك أشد الأذى، و لكنهم ذللو تلك المصاعب بسلاح العقيدة و الإيمان الصحيح، و وقف معسكرهم من البداية إلى النهاية مرابطاً على خط الدفاع عن حقوق آل محمد و الانتصار لهم. على أن الأكثرية الساحقة دعاهم الطمع و حب الدفاع عن النفس، - و هو من الغرائز الملازمة لطبيعة الإنسان- للتظاهر مع السلطة على هضم حقوق العترة و بث تلك الدعايات الكاذبة ضد شيعتهم لفرعهم من الأحكام القاسية التي تطبق على الشيعة، إذ شاهدوا أن أقرب الناس من ساحات الأمن و أبعدهم عن الخطر من ألف كتاباً في ذمهم أو أبدى رأياً في مؤاخذتهم أو الطعن في معتقداتهم أو قال شعراً يهجوهم به، أو عرف بالعداء لآل محمد، و هم أئمة الشيعة و لا يرون طاعة أحد غيرهم، فتجد الكتاب و العلماء و الشعراء يتقربون إلى ولاة الأمر بما يحط من كرامتهم، لينالوا شهادة الانتساب إلى مؤيدي السلطة و يتنعموا بالسحت الحرام الذي تدرّه عليهم ألسنتهم الخبيثة و أقلامهم الدنيئة. هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة و الإلحاد يقف أمام الخليفة العباسي فينشد: أتى يكون و ليس ذاك بكائن لبني البنات وراثته الأعمام

فيجيزه المهدي بسبعين ألف درهم، فما حال الرعاع و ذوى الحاجة و الضمائر الرخيصة الذين يبيعون ضمائرهم بأبخس الأثمان عند مشاهدة هذا التشجيع. و يدخل مروان بن حفص على المهدي فينشده قصيدة يتعرض بها لآل علي عليه السلام. هل تطمعون من السماء نجومها بأكفكم أو تشترون هلالها

أو تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم إبطالها

يعنى بذلك بنى على و بنى العباس (1). فترى المهدي يتزاحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع و تقديرا لموهبة هذا الشاعر. ثم قال له كم بيتا هي؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم. و ناهيك بما فى هذا العمل و التشجيع من الخليفة و أثره فى نفوس العامة، و لا- شىء أملك للنفس من عطف الأمراء و توددهم للأفراد بما تميل طباعهم إليه إلا من أحبه الله و وقاه. دخل رجل على الرشيد فقال: لقد هجوت الرافضة، قال: هات فأنشد: رغما و شمسا و زيتونا و مظلمة من أن تنالوا من الشيخين طغيانا

قال الرشيد: فسر له لى. قال: لا، و لكن أنت و جيشك أجهد من أن تدرى ما أقول. قال: و الله ما أدري ما هو. و أجازته. و يقف مروان بن أبى الجنوب فينشد المتوكل شعرا ينال فيه من آل على و يذم شيعتهم، فيأمر المتوكل بأن ينثر على رأسه ثلاثة آلاف دينار، و يأمر ولده سعد ألا يتأنى بالتقاطها له، و يعقد له على إمارة البحرين و الإمامة و يخلع عليه أربع خلع (2). هذا بعض ما أبدته السلطة فى مقاومتهم و تشجيع خصومهم، و لكنه عمل لم يثمر أى شىء. فال محمد لا تستطيع أى قوة إخفاء ذكرهم أو محو آثارهم، فهم فى كل زمن أعلام هدى، و دعاة صلاح و ذكرهم يتجدد كلما تحرر الفكر و ازدهر العلم. و المنصف إذا نظر إلى انتشار مذهب أهل البيت فى الأقطار الإسلامية، كالعراق، و الحجاز، و مصر و الشام و الأندلس و الهند و إيران، و البحرين و القطيف و غيرها، يرى أن ذلك الانتشار إنما كان بحسب ذاته و لياقته و قيمه الروحية، مع شدة مقاومة السلطات فكلها تتصف بالعداء له و وقفوا دون انتشاره مواقفهم النجاح فيها، و سيتضح كل ذلك عند دراساتنا لنشأة المذاهب الإسلامية و عوامل انتشارها، و ها نحن ننتقل بالقارئ الكريم إلى البحث عن نشأة المذاهب و الله ولى التوفيق.

ص: 155

1-1 (1) الخطيب ص 13 ص 144.

2-2 (2) ابن الأثير ص 7 ص 38. [1]



نشأتها وشهرتها وانتشارها

### تمهيد:

وقبل البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة يلزمنا ذكر أسباب نشأتها وكيف تكيف الالتزام بها دون غيرها من المذاهب، حتى أصبح الوقوف عند قول إمام معين لازم، ولا يمكن استنباط حكم شرعى لأى أحد دون أولئك القوم الذين وقفت قافلة التشريع الإسلامى عندهم، فأصبحوا المصدر للتشريع والمرجع الأعلى فى الدين، حتى ادعى استحالة الاجتهاد لمن بعدهم، فأغلق بابها فى وجوه المسلمين. وغلق باب الاجتهاد جمود للتشريع ووقف لتطور حياة الأمة، فتلك أمور يلزمنا النظر فيها ولا نستطيع فهمها إلا بعد أن ندرس الظروف التى تكونت فيها فكرة التمدد بمذهب إمام معين، ونبحث عن أسباب نشأتها وعوامل انتشارها، فهل كانت دواعى الانتشار بسبب القيم الروحية؟ أم أنها استندت إلى السلطة التنفيذية؟ وهل كانت مستقلة عن تأثير السلطة أم أنها عرضة لذلك؟ وهل أخضعتها لمتابعتها أم أنها خضعت لأغراض الولاية؟ وسيوضح لنا ذلك عند ما نبحث عن نشأة المذاهب.

### نشأة المذاهب:

على اثر النجاح الذى أحرزته الجمعيات السرية المنعقدة ضد النظام الأموى طلع نجم بنى العباس، وكان لهم نشاط سياسى فى المجتمع، فهم فى طليعة رجال حركة الانقلاب الذى أحدثته الأمة لتحويل الحكم من البيت الأموى إلى البيت العلوى، وكان العباسيون أشد الناس حماسا فى إيقاد نار الثورة انتقاما من الأمويين لأبناء على عليه السلام وكانت هتافات الثورة هى الدعوة إلى الرضا من آل محمد. وكانوا بذلك يتغلغلون فى أوساط الناس، وبواسطة هذا الشعار أوجدوا لأنفسهم مكانا فى

قيادة تيار النعمة و توجيه الثورة، و هم فى قرارات أنفسهم يستغلون شمولهم بتسمية أهل البيت و قد أخفوا نواياهم حتى حين، إذ ليس من السهل أن يكاشفوا شيعة أهل البيت أو يصرحوا بعزمهم على العمل لأنفسهم كبيت عباسى مستقل، و لو فعلوا ذلك قبل نجاح الثورة فمن المؤكد أن جماعات الثوار ستلفظهم أو تتخذ ما يناسب ذلك، لأن الأمر فى أذهان الناس لا يعدو آل محمد و لا يتجاوز البيت العلوى الذى كان قطب الرضى فى المسيرة، و أى عمل يكشف عن نوايا العباسيين المبيتة سيؤدى بهم بعيدا عن الثورة. على هذا ثارت الأمة و انتظمت صفوفها التى نالت الانتصار فى تلك الحروب الدامية، و محيت أمة من صفحة الوجود، ثم نال العباسيون ثمرة ذلك الغرس بمسيرة الركب و مجارة المشاعر، فتاقت نفوسهم إلى انتحال هذا الاسم عسى أن يوفقوا لإقناع الأمة بانطباقه عليهم فتكون لهم حكومة وراثية، و تمنحهم الأمة ثقتها التامة. و بالطبع ان هذه الفكرة لا تلاقى كثير قبول عند العرب و فى المدينة و مكة فى الخصوص، لذلك وجهوا عنايتهم إلى الموالى. فأهل المدينة أعرف بآل محمد و أدرى بنزول الآيات فيهم، و أحاديث النبى و وصاياه فى آله، و لأنهم شاهدوا تلك الأعمال التى عامل الأمويون بها آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و تألموا لها، فكان كل ينكر ذلك و يتمنى مناصرتهم فلا يمكنهم أن يجعلوا العباسيين هم آل محمد. و حذرا من إنكار العرب و انضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم توجيه العناية إلى الموالى، و هم يأملون من وراء ذلك تثبيت قواعد المملكة اليوم و النعمة من العرب يوما آخر.

### المدينة و الحركة العلمية:

كانت المدينة المنورة مصدرا للفتيا ترجع إليهم الأمة فى مهمات التشريع الإسلامى لأنها مركز العلم و فيها أصحاب الرسول و أهل بيته و التابعين لهم بإحسان، و قد لاحظت الدولة الأموية من قبل هذه المهمة التى يجب أن تلاحظها، و هى اتجاه الأنظار إلى المدينة لأنها الجامعة الإسلامية و يخشى على الدولة خطرها، فكانت تحذرهم أشد الحذر، فاستمالت أكثر الفقهاء بالعتاء و الرجوع إليهم فى المهمات، لتسد بذلك ثغرة الخطر على الدولة.



وفى العهد العباسى نشطت الحركة العلمية و كان طبيعيا أن تنتعش العلوم فى ظل سلطانهم لأنهم كانوا يجعلون حقهم فى الإمامة قائما على أنهم سلالة النبى، و كانوا يقولون إنهم سيثيرون-على اطلال الحكومة الموسومة بالزندقة عند أهل التقى- نظاما على سنة النبى و أحكام الدين الإلهى. فنهض أهل البيت و بقية العلماء لنشر العلم إذ وجد المسلمون حرية الرأى، و التفوا حول آل البيت لانتهاج العلوم من مورد هم العذب، و كان الإمام الصادق عليه السلام هو الشخصية التى يتطلع إليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية فحملوا عنه إلى سائر الأقطار، و قصده طلاب العلم من الأنحاء القاصية، و فتحت مدرسته بتلك الفترة فكان المنتمون إليها أربعة آلاف كما مر ذكره. و هذا النشاط العلمى لا يروق للدولة الفتية التى قامت على اطلال الدولة الأموية بدون حق شرعى، و إنما فى صالح العلويين و انضمام العباسيين إليهم يطلبون الانتقام من أمية التى جرعتهم كأس الغصص فهم كسائر البيوتات التى انضمت لهذه الدعوة، و لكنهم نشطوا بالحيلة، و تغلبوا باصطناع المعروف لآل البيت فكانوا فى حذر متواصل من العرب عامة و من المدينة خاصة، لأن الأمر فى المدينة غيره فى الكوفة، فأهل المدينة قد وقفوا على حقيقة البيعة و انها لآل على عليه السلام دون بنى العباس، كما أنهم كانوا فى طليعة من بايع محمد بن عبد الله بن الحسن و فى رقبة السفاح و المنصور بيعته فكيف يستقلان بالأمر و ينقضان تلك البيعة؟ و لكن السفاح استطاع بمهارته استجلاب قلوب الناس إليه و تثبيت قواعد ملكه على أيدي الفرس، لأنه لا يأمن وثبة العرب لجانب العلويين، فهم فى نظر العباسيين أنصار بنى على لا أنصار بنى العباس، كذلك كان من سياستهم فى بدء الدعوة قتل كل من يتكلم بالعربية فى بلاد فارس. و مضى السفاح و جاء المنصور للحكم و هو ذلك الرجل الحديدى الذى يقتحم مواقع الخطر، و لا يتهيب من إراقة الدماء، و لا يقف أمامه حاجز و لا يردعه وازع دينى فى سبيل تركيز دعائم ملكه، إذ كان الخطر محيطا به من كل الجهات و أمام غايته حواجز لا يتخطاها إلا بالتجرد عن العاطفة ففتك بأهل البيت و بكثير من العباسيين أنفسهم، و أبعد علماء المدينة و نصر الموالى و أوجد تلك المعركة القوية و هى معركة أهل الحديث و أهل الرأى.

فقرب فقهاء العراق القائلين بالقياس، وأحاطهم بعنايته ليحول أنظار الناس إليهم، وبذلك نقل قيمة علماء أهل المدينة الذين هم أهل الفتيا إلى حد كبير، وما زالت الأقطار الإسلامية عيالا عليهم، إذ هم حملة الحديث وأوثق الناس فيه.

## أهل الحديث وأهل الرأي:

وكان الحديث في العراق قليلا ولكن انفتح فيه باب الرأي والقياس، وقد أخذه حماد بن إبراهيم النخعي المتوفى سنة 95 هـ-713 م، وأخذ أبو حنيفة المتوفى سنة 150 هـ-عن حماد، وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يتركون الأحاديث لأقيستهم، والدين لا يقاس بالرأي، وإنما سموا أهل الرأي لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار؛ وطريقتهم أن للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت، فجعلوا هذه المصالح أصلا من أصول الأدلة إذ لم يجدوا نصا في الكتاب والسنة الصحيحة عندهم، وقد كانت قليلة العدد لبعدها عن موطن الحديث. وأما أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس والرأي في استنباط الأحكام هذا المحل، واتسعت شقة الخلاف واحتدم النزاع وافترق أهل الفتيا إلى فرقتين. وأنت ترى أن هذا النزاع بعد أن كان علميا محضاً أصبح مزيجاً بالسياسة أو التعصب، وتعددت فيه عوامل التفرقة لتستند السلطة إلى أقوى الفريقين، واتسع نطاق الخلاف فترى مالك بن أنس يحط من كرامة العراقيين ويتحامل عليهم ويعلن بقوله: أنزلوهم منزلة أهل الكتاب، لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالذي أنزل إلينا وإيكم وإلهنا وإلهكم واحد (1). ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة ثم رفع رأسه فكأنه استحيا فقال: يا أبا عبد الله أكره أن تكون غيبة كذلك أدركت أصحابنا يقولون، وكان يقرأ إذا نظر إلى العراقيين (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) (2).

ص:160

[1-1] جامع بيان العلم وفضله-2-157. [1]

[2-2] ضحى الإسلام 3-152.

وكان يسمى الكوفة دار الضرب يعنى أنها تضع الأحاديث و تضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم و الدنانير. وقال عطاء لأبي حنيفة: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا (1). و مهما يكن من الأمر فقد تعصب كل فريق إلى بلده و تنازوا، و عير أهل المدينة بسماع الغناء، و أهل مكة بالمتعة، و أهل الكوفة بالنبيذ، و اشتدت عصبية كل قوم لبلادهم، و حملتهم على وضع الأخبار فى مدح كل منهم قومه و بلده و ذم مقابله، و عظم الانشقاق بين الطائفتين، و بالطبع ان الكوفة تضعف عن مقابلة الحجاز، و لكن السياسة الزمنية اقتضت أن تكون إلى جانب أهل الراى لا حبا لهم و لكن بغضا لأهل المدينة، و أصبح لكل جانب أنصار و متعصبون فكان مالك بن أنس فى طليعة أهل الحديث و أنصاره من الحجاز سفيان الثورى و أصحابه، و زعيم أهل الراى أبو حنيفة و أصحابه و كثير من فقهاء العراق. فالشافعى أخذ عن مالك و أصحابه، و أحمد المتوفى سنة 241 هـ-820 م أخذ عن الشافعى المتوفى سنة 204 هـ-820 م و أصحابه. و إنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث و نقل الأخبار و بناء الأحكام على النصوص و لا يرجعون إلى القياس. يقول الشافعى: إذا ما وجدتم لى مذهبا و وجدتم خيرا على خلاف مذهبي فاعلموا أن مذهبي ذلك الخبر، و تبعه أصحابه، و هم: إسماعيل بن يحيى المزنى، و الربيع بن سليمان الجيزى، و حرملة بن يحيى، و أبو يعقوب البويطى، و ابن الصباح، و ابن عبد الحكم المصرى، و أبو ثور، و غيرهم. و أما أصحاب الراى، فهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت، و أصحابه: محمد بن الحسن الشيبانى، و أبو يوسف القاضى، و زفر بن الهذيل، و الحسن بن زياد اللؤلؤى، و أبو مطيع البلخى، و بشر المريسى، فهؤلاء عرفوا بأهل الراى و قالوا إن الشريعة معقولة المعنى و لها أصول يرجع إليها، و لاقتناعهم بمعقولية الشريعة و ابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب و السنة كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم كما كان يفعل الفريق الأول فإنهم يقفون و لا يتعدون حدود النص، و كانوا يحبون معرفة العلل

ص: 161

و الغايات التي من أجلها شرعت الأحكام، وربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها لأصول الشريعة، ولا سيما إذا عارضها حديث آخر. و بهذا افتقرت الأمة على فرقتين أهل حديث و أهل رأى، أو أهل المدينة و أهل الكوفة، مع العلم بأن أهل العراق لا يقاسون بأهل المدينة فى الحديث، فكان القياس عندهم أكثر و عليه يبنون غالب فتاواهم، و نشط سير الحركة العلمية فى ذلك العصر.

### نشوء المذاهب:

أصبح النشاط العلمى واسع النطاق، فكان فى كل بلد إمام له مذهب ينسب إليه، و كثر عدد المذاهب المنتمون إليها، إلا أنه لم يكتب البقاء لأكثرها و اعتراها الانقراض، و كان لمؤسسيها الذين كثر اتباعهم تأريخ مجيد و مكانة سامية، ربما فاقوا فى نظر معاصريهم و ذوى العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم، و اقتصر استنباط الأحكام عليهم، و لكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مسايرة الظروف فلم يكتب لها البقاء، و محيت من صفحة الوجود و لم يبق لأبناء السنة منها إلا- الأربعة: المالكية. و الحنفية. و الشافعية. و الحنبلية. أما المذاهب التي انقرضت فهي كثيرة و نذكر منها: 1- مذهب عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة 101 هـ-720 م. 2- مذهب الشعبي المتوفى سنة 105 هـ-723 م. 3- مذهب الحسن البصرى المتوفى سنة 110 هـ. 4- مذهب الأعمش المتوفى سنة 148 هـ-764 م. 5- مذهب الأوزاعى المتوفى سنة 157 هـ-773 م. 6- مذهب سفيان الثورى المتوفى سنة 161 هـ-777 م. 7- مذهب الليث المتوفى سنة 175 هـ. 8- مذهب سفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 هـ-814 م. 9- مذهب إسحاق المتوفى سنة 238 هـ. 10- مذهب أبى ثور المتوفى سنة 240 هـ-854 م.

11-مذهب داود الظاهري المتوفى سنة 270 هـ-833 م. 12-مذهب محمد بن جرير المتوفى سنة 310 هـ-923 م. و مذهب عبد الله بن اباض (1) وغيرها من مذاهب المسلمين التي تتفق أحيانا و تفترق أحيانا فى كثير من المسائل الشرعية، و منهم من جعل فى تعداد هذه المذاهب، مذهب عائشة، مذهب ابن عمر، مذهب ابن مسعود، مذهب إبراهيم النخعي. و لزيادة البيان نذكر طرفا من حياة بعض أولئك العلماء ورؤساء المذاهب.

### سفيان الثوري:

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي المتولد سنة 65 هـ- و توفي بالبصرة سنة 161 هـ-متواريا عن السلطان و عده ابن قتيبة فى عداد الشيعة و هو أحد الأئمة المجتهدين. و له مذهب لم يطل العمل به لقلّة أتباعه و عدم مؤازرة السلطة له، إذ كان طريدا يخشى سطوتهم و هم يطلبونه حتى مات مختفيا منهم، و هو أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام و خريج مدرسته، و كان إماما من أئمة المسلمين، قيل روى عنه عشرون ألفا، و كان والده سعيد بن مسروق من محدثي الكوفة و ثقة ابن معين و أبو حاتم و العجلي. نشأ الثوري فى مسقط رأسه الكوفة نشأة صالححة و كان بيته معروفا و له مكانة فى محيطه، فهو من فقهاء العراق الذين تشد إليهم الرحال فى طلب العلم، و أراد المنصور قتله فلم يتمكن، و دعى إلى القضاء فهرب، كان يتحرى مواقف الصدق فى مواجهة العباسيين و يعمل على الاستمساك بتعاليم الدين فلما عزم المنصور على ابن أبي ذؤيب أن يقول رأيه فيه و استعفاه ابن أبي ذؤيب و أصر المنصور، قال ابن أبي ذؤيب: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله و أشهد أن الظلم ببابك فاش. فلما انصرف لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحارث لقد سرنى ما خاطبت به هذا الجبار، و لكن ساءنى قولك له: ابنك المهدي. فقال: يغفر الله لك، يا أبا عبد الله، كلنا مهدي. كلنا كنا فى المهدي. و بقى مذهبه معمولا به إلى القرن الرابع.

ص:163

أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، مولاهم الكوفي المتوفى سنة 198 هـ- كان إماما عالما ثبتا أخذ العلم عن الصادق عليه السلام و الزهري و ابن دينار و أبي إسحاق و غيرهم، و روى عنه الشافعي و شعبة بن الحجاج و خلق كثير، قال الشافعي: ما رأيت أحدا فيه آلة الفتيا ما في سفيان، و ما رأيت أكف منه عن الفتيا، و ثقة العجلي و الشافعي و غيرهم، و قال الشافعي لولا مالك و ابن عيينة لذهب علم الحجاز، و له مذهب يعمل به و لم يطل عمره و انقرض في القرن الرابع، لقلة أتباعه و أنصاره و عدم ملاءمته لسلطان عصره، و دفن بمكة.

### الحسن البصري:

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري المتوفى سنة 110 هـ-، كان من التابعين و أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري و أمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه و آله و سلم. نشأ بوادي القرى، و كان من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما شوّه خلقته، كان مؤازرا لبني مروان يشد أزركم و له علاقة وثيقة مع الولاة و الأمراء و يلاقي منهم الإكرام، و كان لهم في ثغر البصرة بقوة الدفاع أعظم من الجيوش المدربة في ساحات الحرب، حتى قالوا: لو لا لسان الحسن و سيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية في لحدها و أخذت من وكرها، و كان مدلسا في حديثه كما نص عليه الحفاظ و لم يطل العمل بمذهبه. كان الحسن البصري يتفق مع سياسة الدولة الأموية و يروى عن علي عليه السلام فإذا حدث عنه قال: قال أبو زينب (يعنى عليا) مجارة للدولة التي اقتضت سياستها أن لا يظهر اسم علي عليه السلام و نقل عنه أنه تكلم في علي فقال له أبان بن عياش: ما هذا الذي يقال عنك أنك قلت في علي؟ فقال: يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة و لو لا ذلك لسالت بي أعشب. و لا شك أن هذا من أظهر موارد التقية و كان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظيم منزلته من الدولة، و في مجلسه نشأت فكرة الاسم و الحكم التي كانت أساسا لمذهب الاعتزال.

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشافعية المتوفى سنة 157 هـ. انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالك في الحجاز و أبو حنيفة في العراق وعمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن، وانتشر بالأندلس ثم اندرس مذهبه وحل محله مذهب الشافعي، وعند ما عين محمد بن عثمان الشافعي قاضيا على دمشق حكم بمذهب الشافعي، وهو أول من نشره هناك وبقي مذهب الأوزاعي إلى سنة 302 هـ. وكانت للأوزاعي شخصية مرموقة في عصره، ولن يعدم العناية من السلطة، فقد كان في العهد الأموي محترما مبعجا لأنه على شاكلتهم، ومن المؤيدين لدولتهم، والمناصرين لهم، واتخذته السياسة رمزا دينيا لأغراضها الخاصة، وفي العهد العباسي قربوه لمكانته عند أهل الشام، فكانوا يستميلونه ويقربون محله، وكان المنصور يعظمه ويراسله لأنه عرف عنه الانحراف عن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما يتضح لنا ذلك من تتبع آرائه وأقواله، يروي الأوزاعي قال: بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد على واستجلسني ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقْتباس منكم. وأما منزلته العلمية فلا تنكر في عصره وبعد عصره، روى ابن القطان عن مالك بن أنس أنه قال اجتمع عندي أبو حنيفة والثوري والأوزاعي فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي. ومات في خلوة في الحمام، وذلك أن زوجته أوقدت له كانون فحم وأغلقت الباب عليه فمات.

## ابن جرير الطبري:

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب الطبري، المتولد سنة 224 هـ - بآمد الطبرستان وتوفي ببغداد في 26 شوال سنة 310 هـ - هو من المجتهدين لم يقلد أحدا وله مذهب عمل به مدة، واعتنقه جماعة منهم أبو فرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طراز. قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، وقال الخطيب البغدادي. كان حافظا لكتاب الله تعالى عارفا بالقرآن بصيرا بالمعاني فقيها بأحكام

القرآن، عالما بالسنن و طرقها، صحيحها و سقيمها ناسخها و منسوخها عارفا بأقوال الصحابة و التابعين فمن بعدهم.

## داود بن علي الظاهري:

أبو سليمان داود بن علي بن خلف المعروف بالظاهري ولد بالكوفة سنة 202 هـ - و نشأ ببغداد و توفي بها سنة 270 هـ - و كان له لون خاص في التشريع لعمله في الظاهر. استمر العمل بمذهب داود إلى القرن السابع الهجري، و كان من أتباعه و أئمة: عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي المتوفى سنة 610 هـ -، و محمد بن الحسين المشهور بالميورقي المتوفى منتصف القرن السادس، و مجد الدين عمرو بن حسن بن علي بن محمد بن فرج المتوفى سنة 623 هـ - و كان من المحدثين. و من أئمة هذا المذهب محمد بن حزم (1) صاحب الفصل في الملل و النحل و صاحب المحلى على قواعد المذهب الظاهري. قطع هذا المذهب شوطا من الزمن بخطى ثقيلة، و لكننا نراه يسرع في خطاه و ينتشر بنطاق واسع عند ما تولى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن و أعلن تمسكه به، و أعرض عن مذهب مالك الذي غمر المغرب بانتشاره، فعظم المذهب الظاهري و كثر أتباعه، و انقطع علم الفروع و خاف الفقهاء سطوة السلطان عند ما فرض اعتناق هذا المذهب، و أمر بإحراق كتب مذهب مالك، كمدونة سحنون، و كتاب ابن يونس، و نوادر ابن أبي زيد و التهذيب للبردعي. قال في المعجب: و لقد شهدت منها و أنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع و تطلق النار عليها. و استمر المذهب و قد عدّه المقدسي في «أحسن التقاسيم» خامسا للمذاهب.

ص: 166

1-1) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة 381 هـ - و المتوفى سنة 456 هـ - و كان عظيم الحفظ كثير التصانيف و كان جرىء اللسان متسرع إلى النقل بمجرد ظنه كبير الوقوع بالعلماء و له كتاب الفصل يعرف به تحامله على المسلمين فإنه يطلق لسانه حتى قيل إن لسان ابن حزم و سيف الحجاج شقيقان. كان شافعي المذهب. قال ابن العربي: ثم إنه انتسب إلى داود ثم خلع الكل و استقل و زعم أنه إمام الأئمة يضع و يرفع و يحكم و يشرع و ينسب إلى دين الله ما ليس فيه. تذكرة الحفاظ ج 3 ص 324.



أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن المتولد سنة 92 هـ والمتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة 175 بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره أحد المزارات هناك و له مكانة علمية، ومذهب يعمل به، وكان يقرب بمالك بن أنس، يقول الشافعي: الليث أفتق من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، وكان ابن وهب يقرأ على الشافعي مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل: أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أفتقه من الليث. وكان أهل مصر ينتقصون عثمان فنشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا، ولم يسعده الحظ بأنصار ينشرون مذهبه فيكتب له الخلود، وقد انقرض لمدة قليلة، يقول الأستاذ أحمد أمين: «لو تعصب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه، ولكانوا أتباعه، ولكن زامر الحى لا يطرب وأزهد فى عالم أهله». وفى الواقع ان عدم اشتهاار مذهبه وانتشاره من عدم امتزاجه بسطان عصره، فقد طلبه المنصور للقضاء فأبى وقال: إنى أضعف عن ذلك، ولم يكن من أصحابه من يتولاه. فالقضاء هو عامل قوى لنمو المذاهب وبقائها كما يأتى بيانه. و مما يؤثر عنه أنه لقى الرشيد فسأله الرشيد: ما صلاح بلادكم؟ قال: يا أمير المؤمنين صلاح بلادنا إجراء النيل وصلاح أميرها، و من رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين. وقال فى النجوم الزاهرة: كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها و أمير من بها فى عصره، بحيث إن القاضى و النائب من تحت إمرته و مشورته، و كان الشافعى يتأسف على فوات لقياه؛ و قد كتب بعض من غاظه ذلك إلى المنصور: أمير المؤمنين تلاف مصر فإن أميرها ليث بن سعد

### عمر بن عبد العزيز:

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان تابعيا جليلا روى عن أنس بن مالك وغيره، و كان أعدل ملوك الأمويين، مر بيان ترجمته عند ذكرنا لملوك عصر الإمام الصادق عليه السلام و أمراء بلده، و لا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه و العاملين به

و لا نعلم مدة بقائه، وربما كانت له آراء خاصة أخذها الناس عنه فعدّ في عداد المذاهب. و لا يخفى أن لمنزلته الدينية و فقهه أثرهما في الناس بعد أن استلم الحكم، و الناس لا ترى من حكام بنى أمية إلا ثلاثة أوجه: كره العلويين و ظلم الناس و اقتراف الموبقات. و نقل عنه قول: ما يسرّنى أن أصحاب محمد (صلى الله عليه و آله) لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة.

### الأعمش:

أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش مولى بنى كاهل من ولد أسد المعروف بالأعمش الكوفى المتوفى سنة 148 هـ، كان ثقة عالما و كان أبوه من دنباوند و هى ناحية من رستاق الرى فى الجبال، و كان يقارن بالزهرى فى الحجاز، و رأى أنس بن مالك لكنه لم يسمع منه، و يروى عن أنس إرسالا أخذه عن أصحاب أنس، و روى عنه سفيان الثورى، و شعبة بن الحجاج، و كان لطيف الخلق مزاحا. دخل أبو حنيفة يوما لعيادته فطول القعود عنده فلما عزم على القيام قال أبو حنيفة: ما كأنى إلا ثقلت عليك. فقال: و الله إنك الثقيل على و أنت فى بيتك. و عاده أيضا جماعة و أطالوا الجلوس عنده فضجر منهم فأخذ و سادته و قام و قال: شفى الله مريضكم بالعافية، ولد الأعمش سنة 60 هـ و قيل إنه ولد يوم مقتل الحسين عليه السّلام و عده ابن قتيبة فى كتاب المعارف من جملة من حملت به أمه سبعة أشهر و توفى سنة 148 هـ أى فى السنة التى توفى بها الإمام الصادق عليه السّلام و لم يكن لمذهبه ظهور و انتشار فى المجتمع و انقرض بمدة قليلة.

### الشعبى:

عامر بن شراحيل الشعبى أبو عمر الكوفى المتوفى سنة 105 هـ-سمع من جماعة من الصحابة و قال: أدركت خمسمائة منهم، و كان قاضيا لعمر بن عبد العزيز، و كان محدث الكوفة يفتى على ما صح عنده من الأثر، و ينقبض عن الفتوى إن لم يجد نصا و لا يقول برأيه، و نسبة المذهب إليه لما صدر عنه من الفتوى، و إلا فلم يشتهر عنه ذلك و العمل به قليل. هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة، و هى كثيرة تزيد على الخمسين و تقصر

الخطى على هؤلاء، فالاستقصاء يقصينا عن الغاية التى نطلب من ورائها كشف الحقيقة. و ليس لنا غرض فى التعرف عليهم، ولكن الغرض أن نعرف الأسباب التى دعت إلى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود وإثبات المذاهب الأربعة، مع العلم أن رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية، ونستطيع القول بأن أكثرهم كانوا أعلم من رؤساء المذاهب الأربعة: فسفيان الثورى لقبوه بأمر المؤمنين فى الحديث وسيد الحفاظ وغير ذلك، كما قاله شعبة وأبو عاصم وابن معين وغيرهم، وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ كان سفيان أفضلهم. وقال القطان: الثورى أحب إلى من مالك؛ إلى غير ذلك من أقوال علماء الرجال مما لم نعثر على مثلها لأبى حنيفة وغيره، نعم من طرق أتباعهم تتعدى حد الحصر، واعطف عليه سفيان بن عيينة وابن جريح والليث وغيرهم فإنهم بمكانة من العلم، وقد رجح الناس إليهم فى الفتيا مدة من الزمن، واستمر العمل بمذاهبهم ثم انقرضت ولم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة الحنفى والمالكى والشافعى، والحنبلى. أما أتباع آل البيت فقد بقيت آراؤهم ومعتقداتهم فى الأصول والفروع وغيرهما أقوى من أن تلين للسياسة وتدخلات الولاة والأمراء. . . . وإذا شوهدوا فى بعض الأحيان يميلون إلى التقية وإلى تحاشي ضغائن الملوك فإن ذلك كان من عزم الأمور ودرء المهالك عن أنفسهم حين يرون أن دماءهم أحفظ للدين من إراقتها دون طائل. فالحكام فى العهدين الأموى والعباسى لا يتورعون عن سفك الدماء الطاهرة ولا يتوقفون فى ظلمهم لآل البيت عند حد، ولهذا كان الإمام الصادق يرى فى تعرض أهله من آل الحسن إلى تلك المحنة والعذاب أمرا يجزئ الظالمين أكثر على انتهاك حرمت أهل البيت ويصبح انتهاك حرمت الناس أبسط بكثير فقال عليه السلام وهو يرى موكب آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا». ولا يندرج المذهب الجعفرى فى سياق نشأة المذاهب لأمر عدة منها: 1- استقلال فقه أهل البيت عن السلطة الجائرة وتعلقه بالإمامة والسلطة الروحية. 2- فى العهد الأموى حيث لم تأخذ المذاهب صفتها الرسمية ولم ترس على

عدد معين كان الشيعة هم الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاء الأمويين في كل حين فكان الاعتقاد بمذهب الشيعة استعدادا للموت و التضحية. 3- في العهد العباسي حيث أرست الدولة عدد المذاهب لم يكن الشيعة من أجزاء السلطة بل ظلوا على العمل بقاعدة مقاطعة الظالمين فيما كان وجودهم الفقهي و العلمي يتسع و ينتشر برغم إرادة العباسيين و قد شيّدوا بناءهم الفكري بعيدا عن مؤثرات السلطة و على الضد من رغبات الحكام. و هنا يلزمنا البحث عن عوامل انتشار المذاهب الأربعة.

## المذهب الحنفي:

ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، من أهل كابل أو من أهل نسا، و كان اسمه عتيك بن زوطره، و كان أبوه عبدا مملوكا لرجل من ربيعة من بني تيم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بنى قفل، ولد سنة 80 هـ في نسا، و توفي سنة 150 هـ في بغداد. كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و أنهم سلالة البيت النبوي، فهم أحق بالأمر من أمية خصوم الإسلام و أعداء محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و بالطبع انهم يقيمون على اطلال تلك الدولة المتهمة بمخالفة الدين، دولة ذات صبغة دينية، يحاولون أن يظهرها الاتصال الوثيق بين الدين و الدولة، ليكوّنوا من أحكام الشريعة الإسلامية دستورا و نظاما تسيّر الدولة عليه سيرا صوريا، فقرّبوا العلماء، و اتصلوا بهم اتصالا وثيقا و آثروا نشر العلم، و جعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق، حتى ولى أبو يوسف القضاء، و هو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفي لمكانة أبي يوسف و سلطته التنفيذية يومذاك، فكانت للمذهب الحنفي خطوة واسعة في قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره. فأبو يوسف (1) هو تلميذ أبي حنيفة و قد تربى في نعمه،

ص: 170

1- 1) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الأنصاري المتوفى سنة 182 هـ -ببغداد و المدفون في مقابر قریش و هو أول من دعى بقاضى القضاة، تولى القضاء لثلاث من الخلفاء المهدي و ابنه الهادي و الرشيد. قال محمد بن جرير الطبري: نحا ما قوم من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأي عليه و تقريع الفروع و الأحكام مع صحبة السلطان. و قال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لو لا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة و لا محمد بن أبي ليلى و هو الذى نشر قولهما. و عن ابن المبارك أنه وهاه و عن يزيد بن هارون أنه قال لا تحل الرواية عنه كان يعطى أموال اليتامى و يجعل الربح لنفسه. و أبو يوسف هو الذى عناه الشاعر بقوله: يا قاتل المسلم بالكافر جرت و ما العادل بالجائر و ستأتى ترجمته ببيان و وضوح فى موكب القضاة.

و بتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب، وولى منصب رئاسة القضاء العامة فى عهد الرشيد سنة 170 هـ فلم يقلد ببلاد العراق و خراسان و الشام و مصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف (1)، و ذلك لمكانته فى الدولة و منزلته عند الرشيد حتى قال له الرشيد يا يعقوب لو جاز لى إدخالك فى نسبى و مشاركتك فى الخلافة المفضية إلى كنت حقيقا به، أ لست القائل لأخى وقت كذا و كذا؟ و فى وقت كذا و كذا؟ يشير بذلك إلى ما عزم عليه الهادى من خلع الرشيد و استشارة أبى يوسف فى ذلك، و جوابه له برد عزمه، فكان الرشيد يشكر لأبى يوسف هذه اليد، حتى قيل لم يتمكن أحد كتمكن أبى يوسف من الرشيد، و قال بشر المريسى ما اشتهيت من مراتب السلطان إلا مرتبة رأيت أبا يوسف بلغها عشية من العشايا. و قال أحمد بن يوسف الكاتب: و بلغ أبو يوسف مع الرشيد مبلغا لم يبلغه عالم بعلمه و لا محبوب بمرتبه (2). و قال ابن عبد البر: كان أبو يوسف قاضى القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء، ولى القضاء فى بعض أيام المهدي ثم للهادى ثم للرشيد، و كان الرشيد يكرمه و يجله، و كان عنده حظيا مكينا، لذلك كانت له اليد الطولى فى نشر ذكر أبى حنيفة و إعلاء شأنه، لما أوتى من قوة السلطان و سلطان القوة (3). و إذا نظرنا إلى مقومات المذهب فى نفسه نجد ذلك يرجع لجهود أربعة من أصحاب أبى حنيفة فإنهم ألفوا فيه و هذبوا مسائله، و ليس لأبى حنيفة إلا المشاركة فى الرأى أحيانا، و خالفوه فى أكثر المسائل، كما انهم و سعوا دائرة المذهب فى الحيل الشرعية، و أول أولئك نفر هو أبو يوسف القاضى، فقد خدم المذهب بقوة سلطانه و فى تصنيف الكتب و تبويب المسائل، و قد أدخل الحديث فى فقه أبى حنيفة، و ألف كتاب الخراج لهارون الرشيد مستنبطا من الحديث على مذهب مالك و غلبت على آرائه العناية بمصالح السلطان الزمنية.

ص: 171

- 
- 1-1 (1) خطط المقرئى ج 4 ص 144. [1]  
2-2 (2) المكافاة لابن الداية ص 62-63-64-116-173.  
3-3 (3) الانتقاء ص 6.

و الثاني محمد بن الحسن الشيباني مولا هم المتولد (1) سنة 132 هـ-و المتوفى سنة 189 هـ-نشأ بالكوفة وعاش تحت ظل الدولة العباسية، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحدثة سنة، فأتم دراسة المذهب على أبي يوسف، وكان ذا فطنة وذكاء، وأصبح المرجع لأهل الرأي في نبوغه وتقدمه، وألف في المذهب كتابا هي في الحقيقة المرجع الأول فيه، فإن الحنفية ليس بأيديهم إلا كتبه، و خرج إلى المدينة ولقى مالكا وقرأ الموطأ عليه، ثم رجع إلى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة (2) ونظم الفقه الحنفي و خالف أبا حنيفة في أكثر مسائله. و الثالث زفر بن الهذيل المتولد سنة 110 هـ-كان من أهل الرأي وكان أقيس أصحاب أبي حنيفة. و الرابع الحسن بن زياد (3) اللؤلؤي مولى الأنصار درس على أبي حنيفة ثم على أبي يوسف وعلى محمد بعده، وصنف الكتب في مذهب أبي حنيفة، ولم تكن كتبه بتلك الدرجة من الاعتبار عند الحنفية كما كانت لكتب محمد بن الحسن. فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقى المذهب وسعة دائرته، ولم ينقل لنا التاريخ عن أبي حنيفة كتابا يتضمن مسائله وفقهه، وإنما دون علم المذهب أصحابه. نعم ينسب لأبي حنيفة كتاب يسمى الفقه الأكبر هو وريقات قليلة لا يتضمن إلا شيئا من العقائد، وقد شرح وسع وأضيفت إليه آراء آخر مع أن الأكثرية يذهبون إلى نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة البخاري، وليس هو أبو حنيفة رئيس المذهب. وبهذا يصبح لا أثر له في تدوين أى شىء، كما أن أبا حنيفة لا يفارق فتوى إبراهيم

ص: 172

1-1) محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 189 هـ-قال فيه أحمد بن حنبل أنه مرجئ ورد شريك شهادته لذلك وقد وقعت بينه وبين أبي يوسف مناكرة فكان يقول محمد بن الحسن جهميا وقال محمد بن سعد الصوفى سمعت يحيى بن معين يرميه بالكذب وقال مرة إنه جهمى كذاب، وعن منصور بن خالد سمعت محمدا يقول لا ينظر فى كلامنا من يريد الله، لسان الميزان ج 5 ص 131 و الوفيات ج ص 324.

2-2) رسالة الإنصاف ص 8.

3-3) الحسن بن زياد اللؤلؤي كذبه يحيى بن معين وأبو داود و محمد بن عبد الله بن نمير، قال ابن المدينى لا يكتب حديثه، وقال أبو حاتم ليس بثقة. وقال الدارقطنى: ضعيف متروك، وقال محمد بن حميد الرازى: ما رأيت أسوأ صلاة منه، وقال الخطيب: إن الحسن ولى القضاء ولم يوفق فكان إذا جلس لا يفهم شيئا وعن إسحاق بن إسماعيل كنا عند وكيع فقلنا له: السنة مجدبة قال: وكيف لا تجذب و حسن اللؤلؤي قاض و حماد بن أبي حنيفة قاض.

وعبد الرزاق إلا في مواضع يسيرة. والغرض ان المذهب إنما انتشر وكثرت مسائله بأعمال هؤلاء الأربعة و مساعيهم. ثم جاء من بعدهم علماء نسبوا لهذا المذهب، فكانت لهم آراء مستقلة وتكونت مجموعة من الأقوال والآراء الفقهية وكلها تنسب لأبي حنيفة، وإن لم يفت بها ولم يعرفها، ولكنهم قالوا: إن أبا حنيفة أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه حتى صار ما قالوه قولاً له لا ابتناؤه على قواعده التي أسسها لهم، وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

## المذهب المالكي:

ينسب إلى الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي ولد سنة 93 بالمدينة، ويدعى أن أمه حملت به سنتين وقيل أكثر وتوفى سنة 179 و الله أعلم. وكان من نتائج النزاع الذي حدث بين أهل العراق وأهل المدينة، أو أهل الحديث وأهل الرأي، ظهور شخصية أبي حنيفة في العراق ومالك في الحجاز، وكانت السلطة تؤيد جانب أصحاب أبي حنيفة وتشد أزركم، وتقدم الموالى لتحط من قيمة العرب، لأنهم في نظر السلطة أعداء يتكتمون فلا يأمنون جانبهم من وثبة يوماً ما لميلهم للعلويين، وإنهم ليرقبونها في غالب الأحيان فهم دائماً في حذر، وكان مالك ممن انضم لجانب العلويين، وأخذ العلم عن الإمام الصادق عليه السلام، وأظهر القول بجواز الخروج مع محمد النفس الزكية، فأهين لذلك وناله الأذى وتعصب له قوم وناصروه وأصبحت له مكانة في المجتمع، ولحظت السلطة أهمية مكانته، فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنايتها لتوجد منه شخصية علمية توجه إليه المجتمع طوعاً أو كرهاً، فأصبح محترماً إلى أبعد حدود الاحترام. و يعطينا الإمام الشافعي صورة عن عظيم منزلته، عند ما دخل المدينة يحمل إلى واليها كتاباً من والي مكة توصية منه بالشافعي، و يطلب منه إيصاله إلى مالك، قال الشافعي: فأبلغت الكتاب إلى والي فلما أن قرأه قال: يا فتى إن المشى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشى إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابك، قال الشافعي: فقلت أصلح الله الأمير إن رأى يوجه إليه ليحضر، قال هيهات ليت انى إذا ركبت أنا و من معى، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا. قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لكان كما قال،

فتقدم رجل ففرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير قولى لمولاك إني بالباب قال: فدخلت فأبظأت ثم خرجت فقالت: إن مولاى يقرؤك السلام و يقول إن كانت لك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إلك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس؛ فانصرفت؛ فقال: قولى له معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة، قال: فدخلت و خرجت و فى يدها كرسى فوضعتة، ثم إذا أنا بمالك قد خرج و عليه المهابة فرفع إليه الوالى الكتاب (1). و نحن إذ نقيس منزلة مالك بين العهدين نجد الفرق بيننا فنراه فى عهد أحد الولاة مغضوبا عليه يسحب و يجرد من ثيابه و يضرب خمسين سوطا و يهان، و نراه فى العهد الثانى يتهيب الوالى أن يكلمه. فمالك فى حاله يعطينا درسا فى معرفة أغراض السياسة مع رجال الأمة، و ان لها ألوانا من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمغريات. و الغرض أن نجم مالك بزغ بذلك الأفق فأصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم و أفقه كربيعة الرأى (2) و غيره، فامتاز بتلك المنزلة و اكتست شخصيته بأبراد العظمة، و حاول العباسيون أن يجعلوا منه مرجعا عاما للأمة فى الفتوى، و لكنها محاولة لم تنجح، و قد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر، فكلمه مالك فى ذلك و امتنع فقال المنصور: ضعه فما أحد اليوم أعلم منك (3) فوضع الموطأ.

ص: 174

1-1) معجم الأدباء ج 17 ص 275. [1]

2-2) ربيعة بن أبى عبد الرحمن بن فروخ التميمى أبو عثمان المدنى الفقيه المعروف بربيعة الرأى روى عن أنس و السائب بن يزيد و ابن المسيب و عنه سليمان التميمى و يحيى بن سعيد القطان و سعيد و الليث و خلق كثير. و كان أبوه فروخ خرج فى البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية و ربيعة حمل فى بطن أمه فقدم المدينة بعد سبع و عشرين سنة و هو راكب فرسا و دفع الباب برمحه فخرج ربيعة و قال يا عدو الله أ تهجم على منزلى، فقال فروخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمى فتواثبا حتى اجتمع الجيران و كثر الضجيج فبلغ مالك بن أنس فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة فى غير هذه الدار فقال الشيخ هى دارى و أما فروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت و قالت هذا زوجى و هذا ابنى الذى خلفه و أنا حامل به فاعتنقا جميعا. قال سوار بن عبد الله: ما رأيت أحدا أعلم من ربيعة الرأى قيل و لا الرأى و كانت وفاته فى سنة 136 هـ -بالهاشمية و دفن هناك و قيل سنة 133 هـ -.

3-3) شرح الموطأ للزرقانى ج 1 ص 8.



و هذه الكلمة لها مكانتها فى نظر الاعتبار، فالمنصور حينما يعلن بأن مالكا أعلم الناس، ويلزمه بوضع كتاب تصادق عليه الدولة فيكون نظامها المتبع و تطلب الالتحاق بقافلة الدين-و ما أبعداها عن ذلك-فمن يستطيع أن يتخلف عن الاعتراف بمنزلة مالكا و أنه أعلم الأمة؟ و الرشيد يأمر عامله على المدينة بأن لا يقطع أمرا دون مالكا، و كان الرشيد يجلس على الأرض أمامه لاستماع حديثه. كيف لا يكون لمالكا ظهور و سمعة و منادى السلطان يهتف أيام الحج: أن لا يفتى إلا مالكا. فأصبحت له مكانة فى المجتمع و هيبة فى النفوس، و تقرب الناس إليه بشتى الوسائل، و التفوا حوله، و تراحموا على مجلسه الذى عين له وقتا خاصا فى يوم معين يزدحم الناس فيه لاستماع الحديث، و أخذ الفتيا، و له كاتب بين يديه يقرأ للناس و ليس لأحد أن يدنو منه و لا ينظر فى كتابه و لا يستفهمه فى شىء، و بذلك لا يستطيع أحد مناقشته، و كان على رأسه سودان يأترون بأمره. قال إسماعيل الفزارى: دخلت على مالكا و سألته أن يحدثنى فحدثنى اثنى عشر حديثا ثم أمسك، فقلت: زدنى أكرمك الله و كان له سودان قيام على رأسه فأشار إليهم فأخرجونى من داره (1). و لا ريب أن هذه المعاملة من مالكا تبعثنا على التساؤل من أسباب امتناع مالكا و بخله على الناس بما ينفعهم من أحاديث نبوية و إرشادات تربوية؟ و هذا الوضع منه لا شك أنه مستغرب لأن السنة الشريفة أمرت بنشر العلم و توعدت من يكتُمونه. و يحدثنا أبو بكر بن عبد الله الصنعانى قال: أتينا مالكا بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأى فكنا نستزيده فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة و هو نائم فى ذاك الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بك مالكا و لم تحظ أنت بنفسك؟ فقال: أ ما علمتم أن مثقالا من دولة خير من حمل علم (2). و لا بد من التنويه برضا مالكا بما أقبل عليه السلاطين و ترك أيديهم تلعب

ص: 175

1-1 (1) الانتقاء ج 2 ص 42.

2-2 (2) طبقات الفقهاء لابن إسحاق ص 43.

بأحواله الخاصة فأصابه من جبرية الحاكم شيء سنأتى على تفاصيله حسب البحث إنشاء الله. و مهما يكن من أمر فقد أسعده الحظ فكان له شأن و لمذهبه قبول و لكتابه منزلة حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك. و فى لفظ آخر ما على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك. و كان انتشار مذهبه على أيدي القضاة و الملوك، و قد انتشر بالأندلس بسبب حمل ملك الأندلس الناس عليه بالقهر، لما بلغه كلام من مالك فى مدحه عند ما سأل عن سيرة الملك فى الأندلس فذكر له عنها ما أعجبه فقال: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم. فلما بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه، و ترك مذهب الأوزاعي و هذا من أقوى عوامل الانتشار و دواعى الظهور و السمعة، و إقبال الناس عليه اتباعا للسلطان و خضوعا للسلطة بدون تمييز لما هو الأرحح و الأولى. و قد نشر مذهب مالك فى إفريقيا القاضى سحنون، و يقول المقرئى: و لما ولى المعز باديس حمل جميع أهل إفريقيا على التمسك بمذهب مالك و ترك ما عداه فرجع أهل إفريقيا و أهل الأندلس كلهم إلى مذهبه، رغبة فيما عند السلطان، و حرصا على طلب الدنيا إذ كان القضاء و الإفتاء فى جميع تلك المدن لا يكون إلا لمن تسمى بمذهب مالك، فاضطرت العامة إلى أحكامهم و فتاواهم ففشى هذا المذهب هناك و حظى بالقبول لا بحسب مؤهلاته و مقوماته الروحية، و إنما سار على حسب نظام القوة التى خضع الناس لها بدون تبصر، كما أن انتشاره بالمغرب الأقصى هو كذلك رغبة لما عند السلطان، و خضوعا لما افترضوه على الناس، و لم يكن ثبوته مستقلا بروحانيته عن تأثير السلطة التنفيذية، فإن دولة بنى تاشفين قامت فى الأندلس فى القرن الخامس، و تولى ثانيهم على بن يوسف بن تاشفين فعظم أمر الفقهاء، و لم يكن يقرب منه و يحظى عنده إلا- من علم مذهب مالك، فنفتت فى زمنه كتب المذهب، و عمل بمقتضاها و نبذ ما سواها، و كثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله و حديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، فلم يكن أحد يعتنى بهما كما يعتنى بكتب المذهب المالكي. و ما ذلك إلا من اختراع السياسة لأمر كان الأصلح للأمة أن تتخلى السياسة عن التدخل بمثلها، إذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح أمرها ما دام مفروضا عليها أمرا معينا من قبل السلطان و هى تجهل ذلك، و بهذه المؤثرات انتشر مذهب مالك

بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفي، فله أسوة به، وإذا ما قصرت خطاه في بعض الأماكن فبمجرد تولى القضاء المالكي من قبل رجال المذهب يزداد نشاطه و يشتد إقبال الناس عليه و تمسكهم به، لذلك أنه لما حمل ذكره في المدينة مدة من الزمن فبمجرد أن تولى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خموله، فيظهر لنا أن الزمن سار في انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد و الواقع بل أن في الأمة ضعفاء قلدوا الأقوياء بأهم أمر و كان الأجدد استقلالهم بمعرفته، و أخذهم له من أهله، و أنى لهم ذلك و كل سلطة تحاول أن تجعل أمورها ذات صبغة دينية، و أمر التشريع بيد قضاة صارعتهم الدنيا فصرعتهم إلا من عصم الله و قليل ما هم. قال ابن حزم: مذهبنا انتشرا في مبدأ أمرهما بالرياسة و السلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي أبو يوسف القضاء كان لا يولي قاضيا إلا من أصحابه و المنتسبين إليه و إلى مذهبه. و الثاني مذهب مالك عندنا في الأندلس فإن يحيى بن يحيى (1) كان مكينا عند السلطان مقبولا في القضاء، فكان لا يولي قاضيا في أقطار الأندلس إلا بمشورته و اختياره و لا يسبر إلا بأصحابه، و الناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم (2). و قال شاه ولي الدهلوي: و أى مذهب كان أصحابه مشهورين و أسند إليهم القضاء و الإفتاء و اشتهرت تصانيفهم في الناس، و درسوا درسا ظاهرا انتشر في أقطار الأرض، و أى مذهب كان أصحابه خاملين و لم يولوا القضاء و الإفتاء، و لم يرغب فيهم الناس اندرس مذهبهم بعد حين. و هذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرخين و العلماء حتى لقد شاع بين الناس

ص: 177

1-1) هو أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسي و يعرف بابن عيسى سمع مالك بن أنس و جمع مسائله و كتب سماع بن القاسم عن مالك ثم انصرف إلى المدينة ليسمعه من مالك فوجده عليلا فأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك و قدم إلى الأندلس و خالف مالكا في كثير من المسائل قال أحمد بن خالد لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحضوة و عظم القدر و جلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى توفي سنة 233 هـ.

2-2) ابن خلكان ج 2 ص 116. [1]

قولهم (إن الناس على دين ملوكهم) وقد مر في مطاوي هذا البحث تنويه به وإشارة إليه.

## المذهب الشافعي:

وينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وقيل إن شافعا كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل، ولد سنة 150 هـ- وتوفي سنة 198 هـ- . كان ظهوره أولا بمصر وكثر أصحابه هناك فغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان، ودخل شىء منه إلى إفريقيا والأندلس بعد سنة 300 هـ-، وقويت شوكته، وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية التي كانت تتسم بسمة شافعية، و بذلوا جهدهم في نصرته، ببناء المدارس لفقهاء الشافعية واختصاص القضاء بهم، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، وكان المذهب يدرس في الجامع الأزهر وغيره، فأبطل صلاح الدين درسه فيها وأحيا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم كثيرا من المدارس، ورغب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب. وكان انتشار مذهب الشافعي بعد صلاح الدين أكثر من غيره لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعي، وقد نجح الشافعي في بدء أمره عند ما قدم مصر وزاحم مذهب مالك، حتى تعصب عليه المالكية، لأنه كاد أن ينسى الناس مذهب مالك إلى أن آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصب كما يأتي بيانه. وكان سبب نجاحه مؤازرة بني عبد الحكم له فإن لهم مكانا رفيعا بمصر، ومنزلة سامية وجاها عظيما، وقد آزره أبو محمد عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث، وكان عالما عاقلا متحققا بمذهب مالك وإليه أفضت الرئاسة بعد أشهب، فلما نزل الشافعي عليه أكرم مثواه وبلغ الغاية في بره، ومات الشافعي في بيته فاعتنق مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه، مع أن الشافعي لن يعدم رعاية السلطان هناك، فإنه دخل مصر وهو يحمل من الرشيد كتابا لواليه على مصر يوصيه به ويلزمه بعنايته، و وقعت بينه وبين المالكية مناوشات كان النجاح له في نهاية الأمر. وكان قدوم الشافعي إلى مصر في سنة 198 هـ- ويقال إنه

جاء مع أميرها عبد الله بن العباس بن موسى العباسي، فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبنى عبد الحكم والربيع بن سليمان، وأبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، والبويطي وكتبوا عنه ونشروا مذهبه.

## المذهب الحنبلي:

ينسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان ولد سنة 164 هـ في بغداد وتوفي سنة 241 هـ فيها. ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمنيا في الحدوث، وكانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جدا ولم ينل شهرة غيره من المذاهب، وظهر في مصر في القرن السابع بين أفراد معدودين ولكن انتشر بعد فترة قصيرة عند ما تولى القضاء عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الملك الحجازي، فزاد انتشاره هناك وذلك في سنة 738 هـ. قال ابن خلدون: فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية للحديث. وعداد أحمد بن حنبل عند القدماء أنه من أهل الحديث لا الفقهاء ولذا لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان ابن جرير يقول: إنه رجل حديث لا رجل فقه، وعده المقدسي كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء، ولم يذكره ابن قتيبة في معارفه في عداد الفقهاء، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء على ذكر مالك والشافعي وأبي حنيفة. والحاصل أن المذهب الحنبلي أقل المذاهب انتشارا وقد عدّ متبعوه هذه القلة فخرا، نعم ظهرت عظمتهم ببغداد إذ كان متبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك، وقد أصبحوا في زمن ما ولهم قوة استطاعوا بها أن يقلقوا بال الحكومة، وتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت صولتهم عظيمة وأوقعوا في سائر المذاهب التي تخالفهم ما تشتهيه أنفسهم من التنكيل والأذى، وقضت الحكومة على تلك الحركات غير المنظمة، وضيقوا دائرة اتساع دعوتهم.

ولم ينل المذهب الحنبلي قوة أنصار ورجال دعوة إلا في البلاد النجدية، فقد ساعده الزمن وكتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي، وإن كان مذهب أحمد وشهرته اندكت إلى جانب شهرة الوهابي ومذهبه، ولا ينكر ما لابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية من الفضل في انتشار المذهب ونشاطه، وهما في الحقيقة أبطال دعوته وعنهم أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد، ومع ذلك فإن معتققي هذا المذهب هم اليوم أقل عددا بالنسبة إلى معتققي المذاهب الأخرى في العالم الإسلامي.

## السلطة و انتشار المذاهب:

وبهذه الأسباب وعوامل الترغيب التي اتخذها أولئك الأمراء وذوو النفوذ والسلطة أخذت هذه المذاهب بين العامة في الصيت والشهرة، ما جعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز وحرية في الرأي، وظلت حقيقتها غامضة إذ لا يمكن استكشافها. فالخضوع للسلطان أمر لا مفر منه، وكان عدم تدخل الحكومة في مثل هذه الأمور أعود على الأمة، وأصلح لدينها ودنياها فتدخلها فيه قد جر الأمة إلى منافسات وعصبية أعقبتها فتن ذهبت ضحيتها نفوس بريئة تدين لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة، وقد أدت الخلافات إلى فرقة وتباعد مما كدر صفو الأمة ورمها بالشتات بعد الألفة، وبالعداء بعد الأخوة. وعلى هذا المنوال أستطيع أن أسير في التدليل على ما في هذا الالتزام من النقص وقد سارت عليه جماهير من المسلمين بدون دليل ولا برهان، فوقوف التشريع الإسلامي وانحصاره بأقوال الأربعة إنما هو تحجير للفكر، وجمود للتشريع لأغراض تعود بالنفع على الطبقة الحاكمة، الذين يريدون أن يطبعوا أعمالهم بطابع الدين وما هم من الدين في شيء إذ لا هم لهم إلا حفظ ملكهم وقضاء مآربهم، على أن الأئمة الأربعة أنفسهم لا يعرفون هذا ويفتون بضده، فأقوالهم تدل على عدم الالتزام بقول أحد، هذا مالک بن أنس يقول: «إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فأعرضوا قولي على الكتاب والسنة» و يقول أبو حنيفة: «هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خلافه قبلناه». و يقول الشافعي: «إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط» و يقول أحمد: «من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال» وقال: «لا تقلد

دينك الرجال فإنهم لم يسلموا من أن يغلطوا» كما سنيين ذلك قريبا. وعلى أى حال فإن الاستسلام والتقليد اللذين أديا إلى التعصب والانغلاق أثر في سير الحركة الفكرية والعلمية لأن التقليد يقوم على الاتباع وبذلك ترك النظر والتعرف على الدليل. وكيف كان فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تصعد سلم الرقى وتكتسب قيمتها المعنوية، لأنها موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين بالرغم مما رافقها من خلافات ومنافرات، وإن عناية السلطة تكسب الشيء لونا من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي، فعوامل الترغيب وأداة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شيئا فشيئا، و لو لا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة غيرها. ثم كان بعد هذا ما هو أدهى وأمر فإنه في سنة 645هـ-أحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، فطلب منهم ألا يذكروا شيئا من تصانيفهم، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا كلام المشايخ السابقين تأدبا معهم، وتبركا بهم، فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة. وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحي المالكي: ليس لأصحابنا تعليقة، أما النقط من مسائل الخلاف فمما ارتبه (1). وقال شهاب الدين الزنجاني الشافعي وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغانى الحنفى: إن المشايخ كانوا رجالا. ونحن رجال. فأوصل الوزير ما أجابوا به إلى المستعصم، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فأحضرهم أمامه، و طلب منهم جميعا أن يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترم موهم، فأجابوه جميعا بالسمع والطاعة، ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بأنفسهما. وقال المقرئى: فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى ولى بمصر أربعة قضاة وهم شافعي، و مالكي، و حنفى، و حنبلى، فاستمر ذلك من سنة 665هـ-حتى لم يبق فى مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، وعملت لأهلها المدارس والنخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الإسلام، وعودى من تمذهب بغيرها، وأنكر عليه و لم يول قاض ولا قبلت

ص: 181

شهادة أحد ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها. يقول الاستاذ عبد المتعال الصعیدی أحد علماء الأزهر في كتابه «ميدان الاجتهاد»: «فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم في القهر لا تجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم. ويملكوهم بالمال من أول أمرهم، وكانت الأمة هي التي تتولى أمر التعليم بعيدا عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية في أوروبا وأمريكا، فيقوم في المساجد حرا لا يخضع لحكم ملك أو أمير، و يترى العلماء بين جدرانها أحرارا لا يراقبون إلا الله في عملهم، ولا يتأثرون بهوى حاكم، ولا تلين فئاتهم لطاغية أو ظالم، فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، ويتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، ويجعل لهم سلطانا عليهم، وأخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا في سنتهم، حتى صار التعليم خاضعا للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، وكان لهذا أثره في نفوس العلماء، فنزلوا على إرادة الملوك ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم في رأيهم، أو توجيه شيء من النصح إليهم، وكانت المدرسة البيهقية أول ما أنشئت من تلك المدارس، وهي منسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة 450 هـ- ثم أنشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور، أنشأها الأمير نصر بن سبكتكين، ثم أنشئت بعدها النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك سنة 459 هـ- وقد احتفل بافتتاحها احتفالا عظيما. . .». إلى أن يقول: «ثم جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر، فقام بإنشاء المدارس فيها للتعليم، وأنشأ المدرسة الناصرية لتعليم مذهب الشافعي سنة 566 هـ- ثم أنشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة 572 هـ- بجوار الإمام الشافعي وجعل لناظرها أربعين ديناراً في كل شهر، ورتب له في كل يوم ستين رطلا من الخبز وراويتين من ماء النيل، ثم أنشأ مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسيني، وجعل دار العباس العبيدي مدرسة للحنفيين». وكان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلها إلى إحياء مذهب أهل السنة



و القضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، و رغب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها، فرغبوا فيها و أخذوا في تقليدها و هجروا ما عداها من المذاهب. و قد جاء المستنصر العباسي (1) بعد هذا فأنشأ في بغداد المدرسة المستنصرية سنة 625 هـ، و أنفق في بنائها أموالا لا تحصى حتى تم بناؤها سنة 631 هـ، فاحتفل بافتتاحها احتفالا عظيما حضره بنفسه و حضر معه نائب الوزارة، و كذلك الولاة و الحجاب و القضاة و المدرسون و الفقهاء، و شيوخ الربط و الصوفية و الوعاظ و القراء و الشعراء، و جماعة من أعيان التجار الغرباء، و اختير لكل مذهب من المدارس و غيرها اثنان و ستون نفسا، و رتب لها مدرسين و نائبي تدريس، و كان المدرسان محيي الدين محمد بن يحيى بن فصلان الشافعي، و رشيد الدين عمر بن محمد الفرغاني الحنفي، و كان نائبا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي، و أبا الحسن عليا المغربي، و جعل لها ستة عشر معيدا، أربعة لكل مذهب، و جعل ربع القبلة الأيمن للشافعي، و جعل ربع القبلة الأيسر للحنفية، و جعل الربع الذي على يمين الداخل للحنابلة، و جعل الربع الذي على يساره للمالكية، و قد شرط المستنصر في وقفه عليها أن يكون عدد فقهاءها مائتين و ثمانية و أربعين، من كل طائفة اثنان و ستون بالمشاهرة الوافرة، و الجراية الدارة، و اللحم الراتب إلى غير هذا من وسائل الترغيب في هذه المذاهب. فأقبل الناس على دراستها و أهملوا غيرها من المذاهب التي لم يقدر لها مثل هذه الأوقاف المغربية». و هكذا أخذ الشباب و الكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة في مثل هذه المدارس، و يسمعون في خلال دراستهم طعوننا على أي مذهب آخر، فيمتثلون حقا على من لم يترك مذهبه لينتسب إلى أحد هذه المذاهب الأربعة. فكان ذلك من النتائج الأولى لتسلّم صلاح الدين دست الحكم في ظروف سياسية مرت بها دولة الفاطميين الذين تربّى صلاح الدين و ذووه في ظل عزهم، و لولا خدمتهم للفاطميين ما كانوا. و قد تحوّل صلاح الدين بشدة و مارس القسوة و هو يتربع على العرش الذي

ص: 183

---

1-1) هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ولد سنة 588 هـ - و بويع له سنة 623 هـ - و توفي سنة 640 هـ.

أؤتمن عليه، و اتجه إلى سنة السلاطين الآخرين الذين حكموا الأمة فقسم المجتمع على طريقتهم و أقام الدراسة في القاهرة المعز على الطريقة المذهبية التي اتبع إشاعتها الحكام.

### خلاصة البحث:

ظهر لنا مما سبق أن العامل الأساسي لتكوين الالتزام بمذهب معين، و عدم الترخيص في استنباط الأحكام الشرعية إنما هو السلطة، و أن بقاء هذه المذاهب إنما يكون بتلك الوسائل المشجعة، حتى كثر أنصارها. و لو قدرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقى لها جمهور يقلدها أيضا، و كانت مقبولة عند من ينكرها، و لكنها عدت رعاية السلطة فمحييت من الوجود إذ لا قابلية لها في ذاتها على البقاء بقوة بنائها أو قدرات أصحابها العلمية. و قد فاز المذهب الحنفي بتشجيع أكثر من غيره، فهو في العصر العباسي المذهب الذي ترجع الدولة إليه في مهمات التشريع، و رئاسة القضاء بيد أهل الرأي، لم يشاركهم إلا القليل من سائر المذاهب، و بعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الأتراك عند ما أرادوا انطباق اسم الخلافة الإسلامية عليهم؛ لأن من شروطها: أن يكون الخليفة قرشيا طبقا للحديث «الخلافة في قریش» و الحنفية لا يشترطون هذا الشرط، و أول من تولى الخلافة الإسلامية من غير قریش السلطان سليم الفاتح و صحح الحنفية هذه الخلافة و حججهم أن الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق: 1- حق السيف. 2- حق الانتخاب. 3- حق الوصاية. 4- حماية الحرمین. 5- الاحتفاظ بالأمانات. و هي المخلفات النبوية المحفوظة في الآستانة و هم يقولون: إن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد فحملها الخليفة العباسي إلى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم إلى القسطنطينية في صندوق من الفضة و هي البردة النبوية، و سن من

أسنان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وشعرات من شعره ونعاله، وبقية من العلم النبوي، وإناء من حديد، وجبة الإمام أبي حنيفة (1). و بهذا الشكل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنبا لجنب، إذ الرغبة فيها منوطة بالقضاة ورغبة السلطنة، حتى كثر التحول من مذهب إلى مذهب تقريبا للسلطان و طلبا لرفده، و تحول كثير من الشافعية إلى الحنفية لأجل الدنيا، و ذلك أن الأمير بلغا بن عبد الله الخاصكى الناصرى الأمير الكبير صاحب النفوذ و الصولة كان يتعصب لمذهب أبي حنيفة، و يعطى لمن تحول إليه العطاء الجزيل، و رتب الجامعات الزائدة، و حاول فى آخر عمره أن يجلس الحنفى فوق الشافعى (2). و لما انتقل أبو البركات الحنفى إلى مذهب الحنبلى فأذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعى فقال المؤيد التكريتى فى هجائه: ألا مبلغ عنى الوزير رسالة وإن كان لا تجدى إليه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل و ذلك لما أعوزتك المآكل

و ما اخترت رأى الشافعى تدينا و لكنما تهوى الذى هو حاصل

و عما قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فافهم لما أنا قائل (3)

و هذا أبو بكر البغدادى الحنبلى تحول شافعيًا لأجل الدنيا، و لى القضاء، و كان أبو المظفر يوسف بن قرغلى سبط ابن الجوزى حنبليًا نقله الملك المعظم إلى مذهب أبي حنيفة (4) و كثير غيرهم. و خلاصة القول أن تلك الوسائل المشجعة للمذاهب الأربعة دعت الناس إلى الرغبة فيها و الإعراض عما سواها، و دعت أكثر الفقهاء الذين لهم أهلية الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف و تعطيل موهبة الاجتهاد. قال الشيخ أبو زرعة: قلت مرة لشيخنا البلقينى ما يقصر بالشيخ تقى الدين بن السبكي عن رتبة الاجتهاد و قد استكمل الآلة و كيف يقلد؟ و لم أذكره هو استحياء منه و لما أريد أن أرتب على ذلك.

ص: 185

1-1 (1) التمدن الإسلامى ج 1 ص 109.

2-2 (2) شذرات الذهب ج 6 ص 213. [1]

3-3 (3) مرآة الجنان ج 4 ص 34. [2]

4-4 (4) شذرات الذهب ج 5 ص 267. [3]

فسكت عني، ثم قلت: ما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة وإن من خرج عن ذلك لم ينله شيء و حرم ولاية القضاء، و امتنع الناس من استفتائه و نسب إلى البدعة؛ فتبسم و وافقني. و من هنا قوبل مذهب أهل البيت بتلك الهجمات العنيفة و الحملات الظالمة، و أصبح الشيعة المتمسكون بمذهب أهل البيت عرضة لكل خطر، و عرضا للتهمة، و أصبح الشيعي في نظر أتباع السلطة خارجا عن الإسلام، مفارقا جماعتهم، و لكن الشيعة ثبتوا على أخذ تعاليم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في أحكام الإسلام من طريق أهل البيت، لأنهم عدل القرآن و التمسك بهم من دعائم الإسلام ففي اتباعهم الهدى و هم كسفينة نوع و باب حطة. و بذلك تحملوا ما تحملوا في سبيل المحافظة على وصاية النبي في آله و ساروا على نهجهم و بقي باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه، و مدرستهم مستقلة عن سياسة السلطة و آراء الحكام. فإذا ما عدنا إلى بدايات ضعف الحكم الأموي نرى الإمام الباقر عليه السلام يتعرض للأذى و المضايقات فيحمل إلى مقر الجائرين في الشام و كان يصحبه ولده جعفر الصادق عليه السلام، و لأن منهج الدعوة و أساليب العمل قد أخذت بالتطبيق على يد الإمام الباقر عليه السلام في ظل مقتضيات الظروف و مستجدات السياسة فإنه عليه السلام قرن بين السلوك الديني و بين الجانب الذي أراد الحكام التحكم فيه و إخضاع أهل البيت و أنصارهم و هو الذي يتعلق بالإمامة بصيغة الخلافة و مسميات السياسة فقال: من عبد الله عبادة اهتمام و لم يعتقد بإمام عادل و أنه منصوب من الله فلا يقبل الله منه سعيًا. أما الإمام الصادق عليه السلام حيث ماج عصره بالتيارات الفكرية و اشتدت فيه النزعات المختلفة فقد اتجه إلى الأفكار و مخاطبة العقول لشدها إلى أركان العلم و أصول الفقه بطريقة منهجية رائدة تتيح للعقول الإفلات من مخطط السلطة الزمنية حتى عرف عنه عليه السلام أنه كان يجيب كل من يتوجه إليه بالسؤال مراعيًا اهتمامات السائل و مقاصده ثم يقيم الإجابة على نحو من أغراض منهجه هو عليه السلام فظن من بهم جهالة أنه عليه السلام يقول بأقوال مختلفة و حاشاه عليه السلام.

يقول الدكتور محمد كامل حسين: عرف عن الصادق الاعتدال في الرأي والعقيدة بحيث يقبل آراءه كل مسلم السنن منهم و الشيعي (1). ونرى من الخير أن نتعرض لذكر الآراء حول الاجتهاد والتقليد في نقل أقوال السلف وبعض المعاصرين بإيجاز وللتفصيل محل آخر.

### آراء حول الاجتهاد والتقليد:

«إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة». مالک بن أنس «إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى الحائط». الشافعى «هذا رأبى وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأى غير هذا قبلناه. حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى». أبو حنيفة «من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال، لا تقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا، وقيل له لم لا تضع لأصحابك كتابا فى الفقه قال لأحد كلام مع كلام الله ورسوله؟». أحمد بن حنبل «لا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام و من يفعل ذلك فقد ضل ضلالا مبينا و خرج عن دين الله». محبى الدين بن العربى «لم يبلغنا أن أحدا من السلف أمر أحدا أن يقيد بمذهب معين، و لو وقع ذلك منهم لوقعوا فى الإثم، لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخذ به ذلك المجتهد الذى أمر الخلق باتباعه وحده، و الشريعة حقيقة إنما هى مجموع ما بأيدى المجتهدين كلهم لا بيد مجتهد واحد، و من أين جاء الوجوب و الأئمة كلهم قد تبرءوا من الأمر باتباعهم، وقالوا: إذا بلغكم حديث فاعملوا به و اضربوا بكلامنا الحائط». الشعرانى

ص: 187

سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب، و تبصر فيه، و اشتغل بعده بالحديث فوجد أحاديث صحيحة، لا يعلم لها ناسخا و لا- مخصصا و لا- معارضا، و ذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث، فهل له العمل بالمذهب، أو يجب عليه الرجوع إلى العمل بالحديث و مخالفة مذهبه؟ فأجاب بما هذا نصه: الحمد لله رب العالمين قد ثبت في الكتاب و السنة و الإجماع أن الله افترض على العباد طاعته و طاعة رسوله صلى الله عليه و آله و سلم، و لم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به و نهى عنه إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم، حتى كان صدّيق الأمة و أفضلها بعد نبيها عليه الصلاة و السلام، و رضى الله عنه يقول: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله عز و جل فلا طاعة لي عليكم. و اتفق كلهم على أنه ليس أحد معصوما في كل ما أمر الله به و نهى عنه إلا رسول الله، و لهذا قال غير واحد من الأئمة: كل أحد يؤخذ من كلامه و يترك إلا رسول الله عليه الصلاة و السلام. و هؤلاء الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى أجمعين قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولون، و ذلك هو الواجب، قال الإمام أبو حنيفة: هذا رأيي و هذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خير منه قبلناه، و لهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف يمام دار الهجرة مالك بن أنس و سألته عن مسألة الصاع و صدقة الخضراوات، و مسألة الاجناس؟ فأخبر مالك بما دلت عليه السنة في ذلك. فقال أبو يوسف: رجعت لقولك يا أبا عبد الله و لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. و مالك رحمه الله كان يقول: إنما أنا بشر أصيب و أخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب و السنة، أو كلام هذا معناه، و الشافعي رحمه الله كان يقول: إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط، و إذا رأيت الحجة موضوعة على طريق قولي (1). «من حصر فضل الله على بعض خلقه، و قصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره، فقد تجرأ على الله عز و جل، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده الذين تعبدتهم بالكتاب و السنة، فإذا كان التعبد بهما مختصا بأهل العصور السابقة و لم يبق لهؤلاء المتأخرين إلا التقليد لمن تقدمهم و لا يتمكنون من معرفة كتاب الله و سنة

ص: 188

رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة، و المقالة الزائفة، و هل النسخ إلا هذا؟ سبحانه اللهم هذا بهتان عظيم» (1). حسن خان «ليس على الإنسان التزام مذهب معين، و انه لا يجوز له العمل بما يخالف ما عمله على مذهبه مقلدا فيه غير إمامه مستجمعا شروطه، و يعمل بأمرين متضادين فى حادثتين لا تعلق لواحدة منهما بالأخرى و ليس له إبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر لأن إمضاء القاضى لا ينقض». ابن عابدين «اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلده فيه، و فى التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتدبر، و قبيح بمن أعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها و يمشى فى الظلمة، و اعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال، و هذا عين الضلال، لأن النظر ينبغى أن يكون إلى القول لا إلى القائل» (2). جمال الدين بن الجوزى «اعلم أنه لم يكلف الله أحدا من عباده بأن يكون حنفيا أو مالكيا أو شافعيا، أو حنبليا، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث به محمدا صلى الله عليه و آله و سلم و العمل بشريعته» (3). عبد العظيم المكي «و من العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا و هو مع ذلك مقلد فيه، و يترك من شهد الكتاب و السنة و الأقيسة الصحيحة لمذهبهم، جمودا على تقليد إمامه، بل يتحيل لظاهر الكتاب و السنة و يتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة، فضلا عن مقلده، و لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء إلى أن ظهرت هذه المذاهب و متعصبوها من المقلدين فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة، مقلدا فيما قال كأنه نبي أرسل، و هذا نأى عن

ص: 189

1-1) جلاء العينين للألوسى ص 107.

2-2) تلبس إبليس لابن الجوزى ص 81. [1]

3-3) رسالة القول السديد ص 3.

الحق، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولى الألباب» (1). عز الدين بن عبد السلام رأى بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد و تكلم في المسائل ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير، و فوّقوا إليه سهام النقد، و عدوه من الخارجين عن الجادة و المفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتبار العامي، و لقد لقي بقيّ بن مخلد حين دخل الأندلس آتيا من المشرق من هذا الصنف الأمرين حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب. إلى أن يقول: و كان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك بحيث أنكروا ما عداه، و هذا تحكيم الرجال على الرجال و الغلو في محبة المذاهب» (2). الشاطبي «ينبغي لمن اشتغل بالفقّه أن لا يقتصر على إمام، و يعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب و السنة المحكمة و ذلك سهل عليه، و ليتجنب التعصب و النظر في طرائق الخلاف، فإنها مضيعة للزمان، و لصفوه مكدره، فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده و تقليد غيره» (3). الشيخ أبو شامة «إن قفل باب الاجتهاد معناه الضربة القاضية على حرية الفكر، بل على الإسلام الذي قلنا أنه جاء للناس كافة، ليساير مختلف العصور و الشعوب و الآن بعد سير ألف سنة سار خلالها المسلمون جامدين». محمد على مؤلف كتاب الدين الإسلامي «وإني أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، و بوسائل القهر و الإغراء بالمال، و لا شك أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب

ص:190

1-1) رسالة الإنصاف ص 37.

2-2) الاعتصام ج 3 ص 259.

3-3) انظر دائرة المعارف لفريد و جدى ج 3 ص 248.



الأربعة التي نقلدها الآن لبقى لها جمهور يقلدها أيضا، ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذا في حل من التقيد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة، وفي حل من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطرق القهر، و الإسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى و الشورى بين المسلمين كما قال تعالى فى الآية 28 من سورة الشورى: وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (1). عبد المتعال الصعدي أحد علماء الأزهر «بأى نص سد باب الاجتهاد، أو أى إمام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهدوا ليتفقهوا فى الدين، أو أن يهتدى بهدى القرآن و صحيح الحديث، أو أن يجد و يجتهد بتوسيع مفهومه، و الاستنتاج على ما ينطبق على العلوم العصرية و حاجيات الزمان و أحكامه، و لا ينافى جوهر النص أن الله بعث محمدا رسولا بلسان قومه العربى ليعلمهم ما يريد إفعالهم، و ليفهموا منه ما يقوله لهم. و لا- ارتياب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة و مالك و الشافعى و أحمد و عاشوا إلى اليوم لداموا مجتهدين مجددين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن و الحديث، و كلما زاد تعمقهم زادوا فهما و تدقيقا، نعم إن أولئك الفحول من الأئمة و رجال الأمة اجتهدوا و أحصنوا فجزاهم الله خير الجزاء، و لكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن و تمكنوا من تدوينها فى كتبهم» (2). جمال الدين الأفغانى «منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمين، و هذا هو الباب المرن الذى عند ما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير و يبدل لأنه لاعتبارات سياسية منع الولاة و السلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم، و يطمئنوا إلى أنه لن يعارضهم معارض، و إذا ما عارضهم أحد-لأنه لا تخلو أمة من الأمم إلا و فيها المصلح النزىه، و الزعيم الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم-فلن يسمع قوله لأن باب الاجتهاد قد أغلق. لهذا جمد التشريع الإسلامى الآن، و ما التشريع إلا روح الجماعة و حياة الأمة، و إنى أرجح الفتنة الشعواء، التى حصلت فى

ص: 191

1-1 (1) ميدان الاجتهاد ص 14.

2-2 (2) خاطرات جمال الدين ص 177. [1]

عهد الخليفة عثمان و التي كانت سببا في وقف الفتح الإسلامى حيث تحولت في عهده الحرب الخارجية إلى حرب داخلية، أرجع ذلك إلى أن عثمان كان من المحافظين، وقد شرط ذلك على نفسه، عند ما وافق عبد الرحمن بن عوف على «لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعنى دون اجتهاد» عند انتخابه خليفة و لم يوافق الإمام على ذلك حينئذ قائلا: إن الزمن قد تغير، فكان سبب تولى عثمان الخلافة هو سبب سقوطه» (1). الدكتور عبد الدائم البقرى الأنصارى «كم بين دفتى التاريخ من أحزاب سياسة استحالت إلى مذاهب دينية، رب مغفل أرعن يحقد على أخيه لاختلاف مذهبيهما اختلافًا في الفروع منشؤه الاجتهاد، ولا يذكر أن كلمة التوحيد التي تجمعهم وأخاه على خطر عظيم، وأن حقه هذا يزيد خطرا. الاجتهاد مجلبة اليسر، واليسر من أكبر مقاصد الشارع وأبدع حكم التشريع، بالاجتهاد يتلاطم موج الرأى فينفذ جوهر الحقيقة على الساحل، الحوادث لا تتناهى والعصور محدثات، فإذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذاك القبيل؟ سد باب الاجتهاد فقل للقائل به إنك قائل غير ما تفعل» (2). العلامة العبيدى هذه بعض الشواهد على عدم شرعية غلق باب الاجتهاد الذى حدث فى ظروف خاصة و لمآرب سياسية، و لم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف بل ساروا على طريقة أهل البيت، وأخذوا أحكام الإسلام عنهم وبقى الاجتهاد مفتوحا عندهم. و لقد ألفت فى هذا الباب رسائل عدة لكبار العلماء، و كلهم ينددون بجمود التشريع على المذاهب الأربعة و يطلبون حل تلك العقدة التي عقدها ولاة أمر لا يطلبون بذلك إلا مصالح الدولة، و قد أوضح العلماء أسباب هذا الجمود كالغزالي، و العز بن عبد السلام و غيرهما من الأئمة الذين لا تأخذهم فى الحق لومة لائم، فمنها

ص:192

1-1 (1) الفلسفة السياسية للإسلام ص 21.

2-2 (2) النواة فى حقل الحياة ص 136.

بالنسبة إلى بعضهم كالمباراة والممارسة، وحب الظهور، وما يتعلق بذلك، ومنها المنافع، والمرافق في القضاء، والإفتاء، والأوقاف بالنسبة إلى آخرين. ومنها الثقة والاطمئنان بالتربية العلمية على المذهب والاعتصار عليه في التعليم والإفتاء، ومن طبع الإنسان أن ما يعتاده زمنًا طويلاً يملك عليه أمره ويؤثر في نفسه تأثيراً يصرفها عن كل ما عداها، إلا أصحاب العقول الكبيرة والنفوس العالية الذين تكون الحقيقة ضالتهم والصواب وجهتهم (1).

### كلمات حول التقليد:

أما الذين يحاولون الجمود ويلتزمون بالتقليد فإنهم عجزوا عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد واقتنعوا بعناية السلطان على ما هم فيه من النقص، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد، ونسبوا مدعيه إلى الجنون كما ذهب إليه الشيخ داود النقشبندی في كتابه «أشد الجهاد» حيث يرى أن مدعى الاجتهاد ضال مبتدع. ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم في تقسيم طبقات المجتهدين: «الطبقة الثالثة من نشأ من المسلمين من رأس المائة الرابعة ويجب على العامي تقليد المجتهد المنتسب لا غير، «أى لأحد المذاهب الأربعة» لا امتناع وجود المستقل من هذا التاريخ حتى اليوم، ثم أورد على نفسه وأجاب، وأهم شيء يعتمد عليه في أدلته، قوله: إنه اجتمعت الأمة على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة فلا بد لنا من الرجوع إليهم، ولا يرجع إلا إلى المروى عن السلف بسند صحيح مدون في الكتب المشهورة، مع بيان الأرجح من دلالتها، وتخصيص عمومها أو تقييدها والجمع بين مختلفاتها، ولا توجد هذه الخصوصيات إلا في المذاهب الأربعة، وليس مذهب بهذه الصفة إلا الإمامية، والزيدية وهم أهل البدعة (2) لا يجوز الاعتماد على أقولهم فتعين الأخذ بأحد المذاهب الأربعة». هذا أهم ما عندهم من الأدلة. وذهب بعضهم إلى القول بعصمة الأربعة مستدلاً بعصمة النبي، وهم ورثته فهم معصومون من الخطأ، وإذا كانوا كذلك فيجب الرجوع إليهم فحسب.

ص: 193

1-1) الوحدة الإسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص 112.

2-2) رسالة الإنصاف للدهلوى ص 7.

و لا حاجة بنا إلى إطالة نقل أقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الأمة بعد المذاهب الأربعة، لأنها حجج لقضية تبتنى على عدم لياقة أى أحد بعدهم لهذه الرتبة، وأن مدعيها ضال مضل بل ممن يريد فى الأرض الفساد، و يجب إقامة الحد عليه، و من ادعى من الأمة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الأحكام الشرعية شنعوا عليه، و رموه بالنكير. فهذا العلامة جلال الدين السيوطى ادعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالنكير، و وقعوا فيه، و كذلك أنكروا على كل من ادعى ذلك. و الواقع أن فى القرون المتأخرة رجالا برهنوا بمؤلفاتهم على تلك الملكة التى ادعى استحالتها عليهم، حتى فضلوا بعضهم على رؤساء المذاهب. فهذا أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايينى فضلوه على الشافعى، و كثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتصافهم بتلك الملكة. كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة 578 هـ. و الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزوينى المتوفى سنة 623 هـ، و إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى المتوفى سنة 449 هـ، و محمد بن إسحاق صدر الدين القونوى المتوفى سنة 673 هـ- و إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الاسفرايينى المتوفى سنة 418 هـ. و ناهيك ما للقفال، و إمام الحرمين الجوينى، و الصيدلانى، و السبخى و السرخسى، و الجصاص، من منزلة فى العلم و موهبة فى استنباط الأحكام، و لكنهم أجموا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة، بل يتلبس مدعيها بتهمة التشيع لأنهم يقولون بذلك (1). و كان أبو الحسن الداركى أحد المجتهدين فى عصره إذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكر، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعى و أبى حنيفة فينكرون عليه ذلك، فيقول: ويلكم روى فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كذا و كذا، فالأخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعى و مخالفتها أسهل من مخالفة الحديث.

ص:194

1-1) أشد الجهاد لمدعى الاجتهاد ص 25.

و لقد لقي بقى بن مخلد من الأذى وشدة الإنكار لدعوى الاجتهاد ما جعله مهجور الفناء، مهتضم الجانب، وكثير من أمثاله، أما ابن تيمية و ابن قيم الجوزية فإنهما بلغا فى آرائهما حدودا كان ينبغى الامتناع عن تجاوزها فمهما أحسن المرء الظن فإنها اجترأ على مقام الرسول محمد و نيل من آل بيته الأظهر رويت للفرقة و مؤداها الجمود، فما لقيه كان عملا اقتضته طريقة خوضهما فى الاجتهاد، و لو أحسنا الفهم و الاختيار لكانا فى قافلة المنافحين عن الحق و الداعين إلى حرية الرأى. و لست أدرى ما هذه الاستحالة و عدم الإمكان من حصول درجة الاجتهاد و الحكم على الرجال بالقصور و النقص و حصر الكمال فى عدد معين بدون دليل؟ و لا بد من تعريف الاجتهاد و التقليد عندهم إجمالا لنرى مدى تحجير الأفكار و وقوف العقل عن إدراك ذلك.

## الاجتهاد:

الاجتهاد لغة: هو بذل الوسع فى ما فيه كلفة، مأخوذ-كما نقل ابن أبى زرعة عن الماوردى-من جهاد النفس و كدها فى طلب المراد، و فى الاصطلاح على ما فى جمع الجوامع: استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم، و الفقيه و المجتهد لفظان مترادفان و هو البالغ العاقل، أى ذو ملكة يدرك بها العلوم و هذه الملكة العقل. كما عرّفوا الاجتهاد أيضا بأنه استنفاد الجهد بالنظر فى المآخذ الشرعية، لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعى. قال أبو إسحاق: و من كان موصوفا بالبلادة و العجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد، و فى إنكاره للقياس خلاف، و أن يكون عارفا بالدليل العقلى و هو البراءة الأصلية، و أن يكون عارفا بلغة العرب و بالعربية و علم النحو إعرابا و تصريفا، و بأصول الفقه ليقوى على معرفة الأدلة و كيفية الاستنباط و بالبلاغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة و أن يكون عارفا بالكتاب و السنة و لا يعتبر العلم بجمعيتها و لا حفظها. قال العلامة السبكي: المجتهد من هذه العلوم من له ملكة و إحاطة بمعظم قواعد الشرع، و مارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع، و يعتبر على ما قيل كونه خبيرا بمواقع الاجتماع كيلا يخرقه، و الناسخ و المنسوخ و أسباب النزول و شرط

المتواتر والآحاد، والصحيح والضعيف، وحال المرويات وسير الصحابة، ولا يشترط فيه الكلام، وتفاريع الفقه، والذكورة والحرية، وكذا العدالة على الأصح. هذه هي شروط المجتهد عندهم، وأنت لو نظرت إلى الواقع لم تجد سببا لمنعه من أجل قصور عن إدراكه لمن أراد، وكم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم وزيادة ولكن المانع شيء آخر.

### التقليد:

والتقليد: هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله، قال ابن أبي زرعة في شرح الجوامع: وقد اختلف العلماء في تقليد المفضل من المجتهدين مع التمكن من تقليد الفاضل على مذاهب، أحدها وهو المشهور: جوازه، وقد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم، والثاني: منعه، وبه قال الإمام أحمد وابن سريج، واختاره القاضي حسين وغيره، والثالث: يجوز لمن يعتقد فاضلا، أو مساويا لغيره فإن اعتقده دون غيره امتنع استفتاءؤه. وكذا اختلفوا في تجويز تقليد الميت على أقوال: أحدها: جوازه، وبه قال الجمهور، وعبر عنه الشافعي بقوله: المذاهب لا تموت بموت أربابها. والثاني: منعه، أي منع تقليد الميت مطلقا، وعزاه الإمام الغزالي لإجماع الأصوليين واختاره الإمام فخر الدين. والثالث: يجوز مع فقد حي ولا يجوز مع وجوده. انتهى ملخصا. وقال الشيخ محيي الدين بن عربي في الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية: والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حي ولا ميت، انتهى. فتدبر. وقال ابن عابدين الشامي: إنه يجوز تقليد المفضل مع وجود الأفضل وبه قالت الحنفية والمالكية والشافعية وأكثر الحنابلة، وعن أحمد وطائفة كثيرة من الفقهاء: لا يجوز.

كان النزاع بين طوائف المسلمين إنما هو نزاع علمي، و اختلاف لا يتعدى حدود القول في النقض لبعض ما ينهجه الآخر، و سارت الأمور على هذا المنوال و لكن حركة الانشقاق تتسع و روح الاختلاف تسرى في المجتمع بسرعة، لقوة الدافع السياسي الذي يحاول أن لا تتفق الأمة على رأى واحد فهو يعمل على إحياء العصبية «إذ لا حياة للنظام الملكي إلا بها» (1). و مضى عصر أئمة المذاهب و جاء دور أتباعهم فشغل كل بمذهبه الذي يرتضيه، و تأصلت روح الخصومة و انحاز كل إلى جهة بدون التفات إلى ما وراء هذا التحيز من خطر على العلم، في ضياع حقيقته، و سلب منافعه التي أراد الإسلام أن تسيّر الأمة على ضوء تعاليمه القيمة لاكتساب السعادة. و لم يصل الأمر إلى تحديد الأخذ بمذهب معين لا غير و إلزام الناس بالأخذ عن المذاهب الأربعة فحسب إلا بعد مدة من الزمن. يقول الشاه ولي الدهلوى (2) اعلم أن الناس كانوا في المائة الأولى و الثانية غير مجتمعين على التقليد في مذهب واحد بعينه، بل كان الناس على درجتين: العلماء و العامة، و كانوا في المسائل الاجتماعية التي لا خلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، و كانوا يتعلمون صفة الوضوء و الغسل و أحكام الصلاة و الزكاة و نحوه، من آبائهم أو معلمى بلادهم فيمشون على

ص: 197

1-1) فلسفة السياسة للإسلام ص 21 نقلا عن ابن خلدون.

2-2) رسالة الإنصاف ص 8.

ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أى مضت وجدوا من غير تعيين مذهب. وأما العلماء فكانوا على مرتبتين: منهم من أمعن فى تتبع الكتاب و السنة و الآثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس يجيبهم فى الوقائع غالباً بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه و يخص باسم المجتهد، و هذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد فى جميع الروايات، فإنه ورد كثير من الأحكام فى الأحاديث و كثير منها فى آثار الصحابة و التابعين. ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون، ذهبوا يمينا و شمالاً، و حدث فيهم أمور منها: الجدل و الخلاف فى علم الفقه و تفصيله، على ما ذكره الغزالي (1). و لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين أفضت الخلافة إلى قوم تولوها بغير استحقاق، و لا استقلال بعلم الفتاوى و الأحكام، فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، و إلى استصحابهم فى جميع أحوالهم، و كان بقى من العلماء من الطراز الأول، فكانوا إذا طلبوا هربوا و أعرضوا، فرأى أهل تلك الأعصار-غير العلماء-إقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم، فاشتروا طلب العلم توصلاً إلى نيل العز، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبيين، و بعد أن كانوا أعز بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا- من وفقه الله، و قد كان من قبلهم قد صنف ناس فى علم الكلام، و أكثروا القول و القيل و الإيراد و الجواب و تمهيد طرق الجدل، وقع ذلك منهم بموقع من قبل أن كان الصدور و الملوك من مالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه من مذهب الشافعى و أبى حنيفة، فترك الناس الكلام و فنون العلم، و أقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعى و أبى حنيفة على الخصوص، و تساهلوا فى الخلاف مع مالك و سفيان و أحمد بن حنبل و غيرهم و زعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع و تقرير علل المذهب، و تمهيد أصول الفتاوى، و أكثروا فيها التصانيف و هم مستمررون عليه إلى الآن. و لسنا ندرى ما الذى قدره الله تعالى فيما بعده من الأعصار؟ اه-.

ص:198

---

1-1) هو محمد بن محمد الغزالي نسبة إلى غزاة قرية من قرى طوس، الملقب حجة الإسلام صاحب كتاب إحياء العلوم الذى نال شهرة عظيمة إلا- أنه أورد فيه خمسمائة حديث مرسل ليس لها طريق و لم يروها أحد و لم يخرجها الحفاظ و له مؤلفات كثيرة و منزلته العلمية أشهر من أن تذكر ولد فى سنة 450 هـ- و توفى سنة 505 هـ- و دفن بالطابران فى طوس و كان فى عداد الشافعية إلا أنه مجتهد.



و يعطينا الخطابي (1) في كتابه معالم السنن صورة عن الخلاف الذى حصل بعد المائة الثالثة بين فقهاء المسلمين و متبعى المذاهب إذ يقول: رأيت أهل زماننا انقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث و أثر، و أهل فقه و نظر، و وجدت هاتين الفرقتين إخوانا متهاجرين. أما أهل الحديث و الأثر فإن الأكثر منهم إنما كدهم الروايات و جمع الطريق، و طلب الغريب و الشاذ من الحديث الذى أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون و لا يفهمون المعانى، و ربما عابوا الفقهاء و تناولوهم بالطعن و ادعوا عليهم مخالفة السنن. و أما الطبقة الأخرى و هم أهل الفقه و النظر، فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله، و لا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، إذا وافق مذاهبهم التى ينتحلونها و وافق آراءهم التى يعتقدونها، و قد اصطالحوا على مواضعة بينهم فى قبول الخبر الضعيف و الحديث المنقطع إذا كان قد اشتهر عندهم، و تعاورته الألسن فيما بينهم من غير تثبت فيه، أو يقين علم به، و لو حكى لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم و زعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة و استبرءوا له العدة، فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون فى مذهبه إلا على ما كان من رواية ابن القاسم و أشهب، فإذا جاءت رواية عبد الله بن الحكم و أضرابه لم يكن عندهم طائلا، و ترى أصحاب أبى حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف و محمد بن الحسن، فإن جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤى و ذوى روايته قول بخلاف لم يقبلوه و لم يعتمدوه. و كذلك تجد أصحاب الشافعى، إنما يعولون فى مذهبه على رواية المزنى و الربيع بن سليمان المرادى، فإذا جاءت رواية خزيمة و الجرمى و أمثالهما لم يلتفتوا إليها، و لم يعتدوا بها فى أقاويله. و على هذا عادة كل فرقة من العلماء فى أحكام مذاهب أئمتهم و أساتذتهم. فإذا كان هذا دأبهم و كانوا لا يقتنعون فى أمر هذه الفروع

ص: 199

---

1- 1) هو الشيخ حمد (بفتح الحاء و سكون الميم) بن محمد بن الخطاب البستى قال السمعاني: كان الخطابي حجة صدوقا رحل إلى العراق و الحجاز و جال فى خراسان و خرج إلى ما وراء النهر و قال السبكي فى طبقات الشافعية: كان إماما فى الفقه و الحديث و اللغة، و قال الذهبي: كان ثقة من أوعية العلم، و قال البهيسى: إنه من الأعلام المجتهدين فى قواعد الأحكام توفى سنة 388 هـ.

و الرواية عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة و التثبت فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا في الأمر الأهم، و الخطب الأعظم، و أن يتواكلوا الرواية و النقل عن إمام الأئمة و رسول رب العزة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ الواجب حكمه، اللازمة طاعته، الذي يجب علينا التسليم لحكمه و الانقياد لأمره، من حيث لا نجد في أنفسنا حرجا مما قضاه، و لا في صدورنا غلا من شيء أبرمه و أمضاه، و لكن أقواما عساهم استوعروا طريق الحق، و استطابوا الدعة في ذلك الخط، و أحبوا عجالة النيل، فاختصروا طريق العلم، و اقتصروا على نتف و حروف منتزعة من معاني أصول الفقه سموها عللا و جعلوهم شعارا لأنفسهم في الترسيم برسم العلم، و أخذوا جنة عند لقاء خصومهم و نصبوها ذريعة للخوض و الجدل يتناظرون بها و يتلاطمون عليها، و عند التصادر عنها قد حكم الغالب بالحذق و التبرير، فهو الفقيه المذكور في عصره و الرئيس المعظم في بلده و مصره. انتهى باختصار (1).

### التعصب بين المذاهب:

هذه بعض كلمات علماء ذلك العصر أوردناها ليتضح للقارئ سير العلم في تلك الأدوار، و الخلاف الذي أدى إلى الارتباك التي أحاطت بمفهومه و بلغ الحال إلى تطور مؤلم أدى إلى الطعن في المعتقدات، و نتج من وراء ذلك ثورات دموية ذهبت بكثير من النفوس و الأموال بشكل يبعث على الأسف الشديد لما حل من التطاحن بين المذاهب، فأصبحوا أعداء متخاصمين في المعتقدات و قد عامل بعضهم بعضا معاملة الخارجين عن الدين حتى قال محمد بن موسى الحنفي قاضي دمشق المتوفى سنة 506 هـ: «لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية» و يقول أبو حامد الطوسي المتوفى سنة 567 هـ: «لو كان لي أمر لوضعت على الحنابلة الجزية». إن أسباب تلك الفتن التي حلت بالمسلمين كلها تعود لمسايرة بعض العلماء للدولة، يشايعها و يؤيد وجهة نظرها، فأغدفت عليه العطاء و بذلك أصبح العلم مسائرا للدولة.

ص: 200

ولو استقل العلم عن مؤثرات السياسة في تلك العصور، لأرغمت الدولة على الخضوع له ولسارت في ركابه، وفي ذلك سعادة الأمة، و لكن بعض حملة العلم بمسايرتهم لولاة الأمر الذين انحرفوا عن الدين أصبحوا دعامة تستند عليها سلطتهم الجائرة في أهم الأمور، مما جعل الناس ينظرون إلى الإسلام وهو مسلوب القوة العادلة عن تنظيم شئون العالم. و الدين أجل وأسمى من أن يكون مهبا للأهواء، أو ماثرا لاختلاف الآراء أو مجالا لتحزب العلماء. وعلى أى حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداما عنيفا، و خلقت كثيرا من المشاكل التي هي في نهاية التعقيد ولا- يمكن حلها ما دام علماء الدولة هم المحور لتلك الأمور، و منهم تبعث تلك الأفكار التي تتحرك بها شعور العامة فيقع من وراء ذلك حوادث مؤلمة. وإذا نظرنا إلى الحوادث المؤلمة التي حصل فيها التشاجر و التطاحن بين معتنقى المذاهب الأربعة، فإن ذلك يبعث في نفوسنا الألم، مما وصلت إليه الحالة السيئة بين جماعات الأمة، و يدلنا ذلك بكل وضوح على إبطال من يدعى لهم الاتفاق و عدم الخلاف، و هو بذلك يستدل على أحقية مذاهبهم، و صدق معتقداتهم، كما ذهب إليه صاحب كتاب التبصير و غيره ممن يطلقون الأقوال بدون تدبر، و يحكمون بدون تثبت. ليت شعري أخفيت عليهم تلك الحوادث التي وقعت بين الحنفية و الحنابلة، و بين الحنابلة و الشافعية، يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة و الشوافع على المنابر، و الحنابلة يحرقون مسجدا للشافعية بمرور. و تقع هناك فتنة ذهب تحت هياجها خلق كثير، و يعظم الأمر و الخلاف بين الحنفية و الشافعية في نيسابور، و تقع فتنة مبعثها التعصب المذهبي، فتحرق الأسواق و المدارس، و يكثر القتل في الشافعية فينتصرون بعد ذلك على الحنفية، و يسرفون في أخذ الثأر منهم و ذلك في سنة 554 هـ و مثلها تقع بين الشافعية و الحنابلة، و تضطر السلطة إلى التدخل في حسم النزاع بالقوة، و ذلك في سنة 716 هـ- (1) و كثر القتل

ص: 201

و حرق المساكن والأسواق في أصبهان و كان منشؤه التعصب (1). و لشدة وقوع الفتن ببغداد فقد نادى منادى السلطان بمنع الفتن و عدم ذكر المذاهب و الخصومة فيها (2). و كان الحنابلة يخلون في أعمالهم بالأمن، و يرهجون بغداد، و يستظهرون بالعميان على الشافعية الذين كانوا يأوون للمساجد، فإذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه (3) و كان رئيس الحنابلة و زعيمهم الديني الشيخ البريهاري يتولى إثارة الفتنة و ذلك في سنة 323 هـ. و لما تولى القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية عظم ذلك على الحنابلة فحطوا منه، و كان ينال منهم ف وقعت بينهم فتنة ذهبت بكثير من النفوس (4) و اشتد تعصب محب الدين بن محمد الهندي الحنفي المتوفى سنة 789 هـ - على الشافعية و كان يظهر التدين و النسك، و يرى تعصبه عليهم تدينا و الدين برىء من ذلك (5) و تجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضبا على أعمال ابن تيمية و نودي في دمشق و غيرها: من كان على دين ابن تيمية حل ماله و دمه بمعنى أنهم كفرة يعاملون معاملة الكافرين، على أن الشيخ ابن حاتم الحنبلي يقول: «من لم يكن حنبليا فليس بمسلم» (6) فهو يكفر جميع المسلمين، و عكسه الشيخ أبو بكر المقرئ الواعظ في جوامع بغداد ذهب إلى تكفير الحنابلة أجمع (7). و لقد لقي الشيخ عبد الغني المقدسي المتوفى سنة 600 هـ - من التحامل عليه و التكفير له و للحنابلة بدمشق ما يطول ذكره حتى هجر دمشق. و تكفير الفرق بعضها بعضا أمر شائع يحز في صدر الحق، و يؤلم التاريخ وقعه، و يتبرأ الإسلام منه.

ص: 202

- 
- 1-1 (1) مرآة الجنان ج 3 ص 343. [1]
  - 2-2 (2) المنتظم ج 10 ص 111.
  - 3-3 (3) ابن الأثير ج 8 ص 229. [2]
  - 4-4 (4) مرآة الجنان ج 3 ص 97.
  - 5-5 (5) شذرات الذهب ج 6 ص 260.
  - 6-6 (6) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 375.
  - 7-7 (7) شذرات الذهب ج 3 ص 253. [3]

هذا أبو سهل بن زياد القطان و كان من الحفاظ و الثقات عندهم يذهب إلى تكفير المعتزلة مستدلا بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تكفروا كالألذين كفروا و قالوا لإخوانهم إذا صدربوا في الأرض [آل عمران:156] الآية. و ثارت فتن عمياء و وقعت حوادث مؤلمة مبعثها التعصب الأعمى. فهذا الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الفيروزآبادى المتوفى سنة 479 هـ- و كان شيخ الشافعية و عالمهم المبرز تعصب الحنابلة عليه فتكلموا فيه و بالغوا في الأذى بألسنتهم فثارت فتنة عظيمة أدت إلى ذهاب نفوس من الطرفين، و انتصر السلطان لأبى إسحاق فسجن شيخ الشافعية (1). و هذا الفقيه أبو منصور المتوفى سنة 567 هـ- قتله الحنابلة بالسم تعصبا عليه، قال ابن الجوزى إن الحنابلة دسوا إليه امرأة جاءت إليه بصحن حلوى و قالت: هذا يا سيدى من غزلى، فأكل هو و امرأته و ولد له صغير فأصبحوا موتى و كان من علماء الشافعية المبرزين (2)، و كذلك أبو الحسن بن فورق قتل مسموما بسبب التعصب و أبو على خادم المستنصر كان من أئمة الشافعية فى مصر، و كان يجلس فى حلقة ابن عبد الحكم و يناظرهم فسعوا به إلى السلطان و قالوا: هذا جاسوس فحبسه سبع سنين، و اجتمع مشايخ المذاهب فى هراة عند الملك الب ارسلان يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى الحنبلى بعد أن جعلوا صنما تحت سجاته و يقولون للملك إنه مجسم و إنه يترك فى محرابه صنما يزعم أن الله على صورته فتفحص الملك و وجد الأمر كذلك (3).

### التحول من مذهب إلى مذهب:

و يحدثنا ابن خلكان (4) عن الشيخ الأمدى المتوفى سنة 631 هـ- كان أول اشتغاله حنبلى المذهب و انحدر إلى بغداد و بقى مدة ثم انتقل إلى مذهب الشافعى، و عاد إلى الديار المصرية و تولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى، فحسده جماعة من فقهاء البلاد و تعصبوا عليه، و نسبوا إليه فساد العقيدة و انحلال الطوية،

ص: 203

1-1 (1) طبقات الشافعية ج 3 ص 109.

2-2 (2) طبقات الشافعية ج 4 ص 184. [1]

3-3 (3) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 358.

4-4 (4) وفيات الأعيان ج 1 ص 301. [2]

ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا محضرا يتضمن ذلك ووضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه. وفي مصر يأمر القاضي المالكي وهو الحارث بن مسكين بإخراج الحنفية والشافعية من المسجد وأمر بنزع حصرهم. وفي سنة 538 هـ قدم بغداد الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي وتحامل على الأشعري وعلى الشافعية وفيها أخرج أبو الفتوح الاسفراييني من بغداد لما حصل فيها من الفتن بين الأشعرية والشافعية (1). ولعل أعظم صورة تتجلى بها روح العصبيّة والخلاف بين الطوائف هي قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر، وذلك أنه كان حنفيا وتحول شافعيًا فأحضر علماء الفريقين وطلب من القفال المروزي أن يصلي ركعتين طبق المذهب الحنفي، فصلى القفال على مذهب الشافعي، وكان شافعي المذهب بوضوء وشرائط معتبرة، ثم صلى على مذهب أبي حنيفة وما يجوزه في الصلاة فصلى ركعتين بتلك الصورة القبيحة التي ذكروها ونحن نعرض عن ذكرها (2). وهذا الشيخ على بن الحسن الملقب بسيف الدين المتوفى سنة 631 هـ كان حنبليًا ثم صار شافعيًا وتعصب عليه فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة (3). وكثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التصعب بشهادة رجال ذلك العصر، ولا يستبعد أن ذلك كله افتراء محض، وأن أكثر هؤلاء هم بريئون مما نسب إليهم، وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور على من يخالفهم تدينا. استفتى بعضهم في شهادة على شافعي زورا فأجابه المفتي أ لست تعتقد أن دمه و ماله حلال؟ قال: نعم. قال: فما دون ذلك، فاشهد وادفع فساده عن المسلمين. وهذه الأمور التي ابتلى بها الإسلام إنما هي من جنائيات علماء السوء الذين تزلفوا للدولة، وتأثروا بسياستها لفتح باب الشحناء والنزاع والتخاصم والبغضاء بين طوائف المسلمين، فتجد الحنابلة يتعصبون على الحنفية والحنفية على الحنابلة، ولو أنعمنا

ص:204

[1-1] المنتظم ج 10 ص 106-108. [1]

[2-2] وفيات الأعيان ج 2 ص 86 و [2] الطبقات ج 4 ص 14. [3]

[3-3] مرآة الجنان ج 4 ص 24. [4]

النظر في طيات التاريخ، واستعرضنا حوادث الفتن بين المنتسبين إلى السنة بعضهم مع بعض فإننا نجد من الوقائع ما يؤلم قلب كل مسلم. يقول الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار: و من أغرب ما تجد أن العدوان بين الشافعية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين، تلك الحملة التي كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعا لم يلتئم من بعده. أدر طرفك في بلادهم اليوم وانظر حال هذه المذاهب، على ضعف الدين في نفوس الجماهير تجد بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، كما قال الله تعالى في وصف من لا إيمان لهم ولا إيمان (1).

### التعصب لأئمة المذاهب:

تعددت عوامل التفرقة، وكثرت طرق الخلاف بين الطوائف، وتعصب كل إلى جهة، فأهل الجرح والتعديل أدى بهم التعصب إلى الحط مما يخالف مذهبهم فاستهان بعضهم ببعض، واختلق بعضهم مكارم لبعض، فكم من مجروح عدلوه، وعادل جرحوه، وأعطف عليهم المؤرخون فإنهم ربما وضعوا أناسا ورفعوا أناسا، إما لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك. يقول السبكي: «و الجهل في المؤرخين أكثر منه في الجرح والتعديل وكذلك التعصب، قل أن رأيت تاريخا خاليا من ذلك، و أما تأريخ شيخنا الذهبي غفر الله له فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب، فإنه أكثر الوقعة في أهل الدين الذين هم صفوة الخلق، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية و مال فافرط و مدح فزاد في المجسمة. و يقول الحافظ صلاح الدين: إن الحافظ شمس الدين الذهبي لا شك في دينه وورعه، ولكن غلب عليه مذهب الاثبات و منافرة التأويل، و الغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافا شديدا (2). وعلى أي حال فقد مالت الأهواء وأثرت النزعات فنفروا من الحقائق ولم

ص: 205

1-1) الوحدة الإسلامية ص 2.

2-2) طبقات الشافعية ج 1 ص 190.

يتقبلوها، فكتبوا بما توحى إليهم أهواؤهم وأغراضهم، لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هي حقيقة لا تقبل الدجل والتدليس. وتأصلت روح العدا، وتحيز كل إلى مذهبه، وغلوا في أئمتهم غلوا أخرجهم عن حدود الاتزان، ووضعوا في مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد و شرط، وتوسعوا في وضع الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبشائر بأئمة المذاهب كما أورد الحنفية مرسلًا: أن آدم افتخر بى وأنا افتخر برجل من أمتى اسمه النعمان، وبصورة أخرى: الأنبياء يفتخرون بى وأنا افتخر بأبى حنيفة، من أحبه فقد أحببى ومن أبغضه فقد أبغضنى (1). وتوسعوا في الادعاءات لتصحيح مذهبه وجوب اتباعه وأن عيسى يحكم بمذهبه وأن الله غفر له ولأهل مذهبه إلى يوم القيامة (2) وأنه أعظم معجزة للنبي بعد القرآن. ومن ذلك قولهم إن الله خص أبا حنيفة بالشرعية والكرامة ومن كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفى أبو حنيفة دعا الخضر ربه فقال: يا رب إن كان لى عندك منزلة فأذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على عادته حتى أعلم الناس شرع محمد على الكمال ليحصل لى الطريق، فأجاب ربه إلى ذلك. وأتم الخضر دراسته على أبى حنيفة وهو فى قبره فى مدة خمس وعشرين سنة إلى آخر ما فى هذه الأسطورة التى تتلى فى مجالس الحنفية فى الهند ومساجدهم (3) وقد صنعت فى عصور التعصب. ولو بعث أبو حنيفة لأقام الحد على هؤلاء المتجربين بالكذب والافتراء على مقام الأنبياء، ولخر صعقا إلى الأرض وعفر خده فهو يعرف نفسه، ولكنهم أرادوا أن يحسنوا فأساءوا ويقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه وترجيحه على غيره. غدا مذهب النعمان خير المذاهب كذا القمر الوضاح خير الكواكب

مذاهب أهل الفقه عندى تقلصت وأين عن الروسى نسج العناكب

ص: 206

1-1) الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار ج 1 ص 53 و 54.

2-2) الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار ج 1 ص 52 و 54.

3-3) كتاب الياقوت فى الوعظ لأبى الفرج على بن الجوزى ص 48.



و يقول الشاعر الشافعي: مثل الشافعي في العلماء مثل البدر في نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلاً أ يقاس الضياء بالظلماء

و المالكية يدعون لإمامهم أمورا، منها أنه مكتوب على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه، وأنه يحضر الأموات من أصحابه في قبورهم و ينحى الملكين عن الميت و لا يدعمهما يحاسبانه على أعماله (1)، و منها أنه ألقى كتابه الموطأ في الماء فلم يبتل و يقول شاعرهم: إذا ذكروا كتب العلوم فحي هل بكتب الموطأ من تصانيف مالك

فشد به كف الصيانة تهتدى فمن حاد عنه هالك في الهوالك

و يقول الحنبلي: سبرت شرائع العلماء طرا فلم أر كاعتقاد الحنبلي

فكن من أهله سرا و جهرا تكن أبدا على النهج السوي

و يقول آخر: أنا حنبلي ما حييت و إن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

و الحنابلة يقولون: أحمد بن حنبل إمامنا فمن لم يرض فهو مبتدع، فما أكثر المبتدعين في نظرهم على هذه القاعدة. و تقولوا على الشافعي قوله: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، فقبل له: أتطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد عاند السنة، و من عاند السنة قصد الصحابة و من قصد الصحابة أبغض النبي صلى الله عليه و آله و سلم و من أبغض النبي صلى الله عليه و آله و سلم كفر بالله العظيم (2). و إنني أستبعد صدور هذا القول من الشافعي و هو في مكانته و لكن الغلو لا يقف عند حد و لا يتقيد بشرط، و إلا فلما ذا لا يسمى من أبغض عليا كافرا؟ مع انا نراهم

ص: 207

1-1) مشارق الأنوار للعدوى ص 288.

2-2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [1]

يعظمون المتوكل العباسى و يسمونه بناصر السنة و يحوكون له المناقب و الفضائل (1) و هو هو فى تحامله على على عليه السلام و بغضه له، و تقريبه من عرف بالنصب و العدا له: كعمر بن فروخ، و أبى السمط، و عبد الله بن محمد بن داود، و على بن الجهم و غيرهم من حزبه و أعوانه، حتى أنه كان لا- يأنس إلا بنقص على عليه السلام و الحط من كرامته، و كان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا و أهل بيته فيأخذ ماله و يهدر دمه. و لكنهم لم يلتفتوا إلى هذا الخطأ فوسموه بأنه ناصر السنة، و أنه من أهل الجنة، و من أولياء الله و مجاوريه فى حظيرة القدس، و جعلوه فى عداد أبى بكر و عمر بن عبد العزيز (2). و كذلك حزبه النواصب و سموهم بالسنة. و قال ابن الجوزى فى مناقب أحمد: و كان على بن الجهم من أهل السنة حسن الرأى فى أحمد. فعلى هذا ان كل من كان حسن الرأى فى أحمد هو من أهل السنة و إن أساء الرأى فى جميع المسلمين و نال منهم.؟! قاتل الله الغلو كيف يحيد بصاحبه عن طريق الحق. و كذلك يقولون: إنه ما قام بأمر الإسلام أحد بعد رسول الله ما قام به أحمد بن حنبل و لا أبو بكر الصديق مثله، و إن الله جل و علا كان يزور قبره إلى آخر ما هنالك من مناقب مبعثها الجهل و التعصب. و يحدثنا الشيخ عبد الله بن محمد الهروى إذ يقول: قصدت أبا حاتم بن جاموس بالرى، و كان مقدم أهل السنة، و قد أمر السلطان محمود أن على كل من دخل الرى أن يعرض اعتقاده على الشيخ أبى حاتم، قال: فلما قربت من الرى كان معى رجل فى الطريق، فسألنى عن مذهبي؟ فقلت: حنبلى، فقال: مذهب ما سمعت به، و هذه بدعة و أخذ بثوبى و قال: لا أفارقك حتى تذهب إلى الشيخ أبى حاتم، فذهب بى إلى داره فأخبره بذلك، فقال الشيخ: دعه فكل من لم يكن حنبليا فليس بمسلم (3).

ص: 208

1-1) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص 356-357.

2-2) النجوم الزاهرة 2:325. [1]

3-3) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 375.

فسائر أهل المذاهب الإسلامية أجمع في نظر هذا الشيخ كفار و ما أعظمها من قسوة في الحكم، و ما أبعد هذا الشيخ عن الانتساب لمنزلة العلم، و لكن حكم العاطفة العمياء يسلب الرجل رشده، و للعصبية وقعها و طابعها إذا ما كانت بدافع السياسة و بتأثير الحكام و هي النوع الأغلب الذي بفعله حدثت المآسى. و لو لا انجرار ضعاف النفوس و ضيقى العقول لما تحولت صفحات الإخاء الناصع إلى سطور دموية.

### حركات التعصب بين المذاهب:

و كان القضاء للحنفية لإيثار الخلفاء لهم بذلك، و لما أراد القادر بالله نقله إلى الشافعية، عين أبا العباس أحمد بن محمد البارزى الشافعى بدلا من الأكفانى الحنفى قاضى بغداد بإشارة أبى حامد الاسفرايينى، و كتب أبو حامد بذلك إلى السلطان محمود، و أهل خراسان: أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية فاشتهر ذلك و صار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتنة، فاضطر الخليفة إلى جمع الأشراف و القضاة و أخرج إليهم رسالة تتضمن أن الاسفرايينى أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح و الشفقة و الأمانة و كانت على أصول الدخل و الخيانة، فلما تبين له أمره و وضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم و العدول بأمر المؤمنين عما كان عليه أسلافه، من إيثار الحنفية و تقليدهم و استعمالهم، صرف البارزى و أعاد الأمر إلى حقه، و أجراه على قديم رسمه، و حمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية و الكرامة، و الحرمة و الإعزاز، و تقدم إليهم أن لا يلقوا أبا حامد و لا يقضوا له حقا و لا يردوا عليه سلاما، و خلع على أبى محمد الأكفانى، و انقطع أبو حامد عن دار الخلافة و ظهر التسخط عليه و الانحراف عنه (1). يظهر لنا من هذه القصة عظيم اهتمام الحنفية فى منصب القضاء. و يعود الأمر لمنزلة القضاة إذ هم همزة الوصل بين البلاط و أهل ذلك المذهب، و تكون لهم تلك الحظوة و نبيل الكرامة و العناية و الحرمة، و الإعزاز ما حمل الحنفية على إثارة تلك الفتنة عند ما أراد الشافعية سلبها منهم، و الاختصاص بهذه المنزلة دونهم، و انتهت تلك المشكلة بتنازل الخليفة عن رأيه، و عاد الأمر إلى نصابه.

ص: 209

والتزاحم بالمناكب على القضاء هو أقوى عامل لإثارة تلك الفتن و بث روح الشغب و الفرقة، و تغليب مذهب على مذهب بقوة السلطة القائمة و نشر القضاة المناصرين لمذهب على مذهب. و كان القضاة في أغلب الأوقات يثيرون الفتن و يوقدون نار الحرب بين الطوائف. فأحمد بن صاعد الحنفى رئيس نيسابور و قاضيهما و كان يلقب بشيخ الإسلام قد بالغ فى تعصبه على بقية المذاهب فأغرى بعضهم ببعض حتى لعنت الخطباء أكثر الطوائف على المنابر (1). و أراد القاضى بكار أن يعمل فى جامع بنى أمية إماما حنفيا، و كان لا يؤم فيه إلا شافعى، و لا سعد منبره غير شافعى فأراد هذا القاضى أن يشاركهم بإمام على مذهبه فثارت الشافعية و أغلقوا الجامع و عزل القاضى. (2) و لعل من أعظم تلك الفتن التى وقعت بين المذاهب هى فتنة ابن القشيري عند ما ورد بغداد سنة 469 هـ- و جلس فى النظامية و أخذ يذم الحنابلة و ينسبهم إلى التجسيم، و كتب إلى الوزير يشكو الحنابلة و يسأله المعونة، و هجم أصحاب القشيري على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى، و وقع قتال بين الطرفين و أغلق اتباع ابن القشيري و هم الشافعية أبواب سوق مدرسة النظام، و غضب أبو إسحاق الشيرازى و كاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضبا لتسلط الحنابلة، و اتسعت الفتنة و فكر الخليفة فى حل هذه المشكلة و اهتدى إلى سعيه فى الصلح، فجمع القشيري و أصحابه و أبا جعفر الشريف زعيم الحنابلة و أصحابه بمحضر الوزير، فقام القشيري رئيس الشافعية و التفت إلى الوزير عند ما طلب منه الصلح و قال: أى صلح يكون بيننا؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دينا أو تنازع فى ملك. فأما هؤلاء القوم فإنهم يزعمون أنا كفار، و نحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كان كافرا، فأى صلح يكون بيننا (3)؟ و قد واجه كثير من العلماء الأذى و تحملوا بلاء عظيما عند ما يتحولون من

ص:210

1-1 (1) شذرات الذهب ج 3 ص 261. [1]

2-2 (2) طبقات الشافعية ج 1 ص 174.

3-3 (3) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج 1 ص 22 باختصار.

مذهب إلى مذهب حتى قالوا: «إن من يصير حنفياً يخلع عليه، و من يصير شافعيًا يعزر» (1). فهذا أبو سعيد المتوفى سنة 562 هـ- كان حنفياً المذهب و تحول شافعيًا، و لقي عناء و امتحن لذلك، و هذا السمعاني لما انتقل من المذهب الحنفى إلى المذهب الشافعى لقى محنا و تعصبا و قامت الحروب على ساق، و اضطرت نيران الفتنة بين الفريقين، فكانت تملأ ما بين خراسان و العراق و اضطرب أهل مرو لذلك اضطرابا فظيعا، و فتحت باب المشاقة، و تعلق أهل الرأى بأهل الحديث و ساروا إلى باب السلطان إلى آخر ما وصفه السبكي (2) فى الطبقات. و الشيخ عبد العزيز بن الخزاعى كان من أكابر المالكية، فلما قدم الإمام الشافعى بغداد تبعه و قرأ عليه كتبه و نشر علمه، و الشيخ محمد بن عبد الله المتوفى سنة 268 هـ- كان على مذهب الإمام مالك فلما قدم الشافعى إلى مصر انتقل إلى مذهبه ثم رجع، و أبو جعفر بن نصر الترمذى سنة 295 هـ- رأس الشافعية بالعراق كان حنفيا فلما حج انتقل إلى مذهب الشافعى، و أبو جعفر الطحاوى كان شافعيًا و تفقه على خاله المزنى ثم تحول حنفيا بعد ذلك، و الخطيب البغدادي الحافظ المتوفى سنة 493 هـ- كان حنبليًا ثم صار شافعيًا، و ابن فارس صاحب كتاب المعجم فى اللغة، كان شافعيًا تبعًا لوالده ثم انتقل إلى مذهب مالك، و السيف الأمدى الأصولى المشهور المتوفى سنة 631 هـ- كان حنبليًا ثم تحول إلى مذهب الشافعى، و الشيخ محمد بن الدهان النحوى المتوفى سنة 590 هـ- كان حنبليًا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى ثم تحول حنفيا حينما طلب الخليفة نحويًا يعلم ولده النحو ثم تحول شافعيًا، و الشيخ تقى الدين محمد بن على بن دقيق العيد كان أولًا مالكيًا ثم تحول إلى مذهب الشافعى و كل هؤلاء امتحنوا و عذبوا من قبل أنصار المذهب الذى يتحولون منه و أمثالهم كثيرون. و قد طغت موجة التعصب حتى أصبح التكتم بالمذهب لازما. يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة 535 هـ- و كان حنبليًا: احفظ لسانك لا تبج بثلاثة سن و مال ما استطعت و مذهب

ص: 211

1-1) انظر الدين الخالص ج 3 ص 355.

2-2) طبقات الشافعية ج 3 ص 22. [1]

فعلى الثلاثة تبثلى بثلاثة بمكفر وبحاسد و مكذب

و يعطينا الزمخشري صورة واضحة من صور الخلاف و شدة التطاحن بين المذاهب و طعن البعض على البعض بقوله: إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به و أكتمه كتمانته لى أسلم

فإن حنفيا قلت قالوا بأننى أبيع الطلى و هو الشراب المحرم

وإن شافعيًا قلت قالوا بأننى أبيع نكاح البنت و البنت تحرم

وإن مالكيًا قلت قالوا بأننى أبيع لهم أكل الكلاب و هم هم

وإن قلت من أهل الحديث و حزه يقولون تيس ليس يدرى و يفهم

(1)

### محنة خلق القرآن:

هذا عرض موجز لحركات التعصب الطائفي الذي تسترت به السلطة الحاكمة من وراء تلك الحوادث، لتوقع الفرقة في صفوف المسلمين، فتصل إلى غاياتها، ويشق علينا ذكر أمثال هذه الحوادث المؤلمة، وقد ذكرنا بعضها استطرادا في البحث لإظهار حقيقة يلزمنا إظهارها نصرة للحق، وردا للباطل و تكديبا لما يدعيه البعض كالاسفرايينى وغيره من اتفاق المذاهب و عدم حصول أى خلاف بينهم و لم يحصل بينهم شقاق و تطاحن، و لم يكفر بعضهم بعضا، مستدلين بذلك على صحة مبادئهم و بطلان مذهب الشيعة و فساد عقائدهم بحصول الخلاف فيما بينهم، و تكفير بعضهم بعضا، و نحن لا نستغرب من الاسفرايينى هذه الدعوة الباطلة فكم له فى كتابه من غرائب و افتعالات على سائر فرق المسلمين بدون دليل، بل هو تقول بالباطل و رجم بالغيب، و إليك قوله: الفصل الثانى من هذا الباب فى طريق تحقيق النجاة لأهل السنة، و الجماعة فى العقابة. منها ان أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لا يكفر بعضهم بعضا و ليس بينهم خلاف يوجب التبرى و التكفير فهم إذا أهل الجماعة. قائمون بالحق و الله تعالى يحفظ الحق و أهله كما قال تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** [الحجر:9] قال

ص:212

المفسرون: أراد به الحفظ عن التناقض، و ما من فريق من فرق المخالفين إلا وفيما بينهم تكفر و تبرى، يكفر بعضهم بعضا. كما ذكرنا من الخوارج و الروافض و القدرية، حتى اجتمع سبعة منهم فى مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضا، و كانوا بمنزلة اليهود و النصارى حين كفر بعضهم بعضا حتى قالت اليهود: «ليست النصارى على شىء»، و قالت النصارى: «ليست اليهود على الشىء». هذا ما يقوله بل يتفوله الأسفرايينى و كم له من تقول و افتعال، و لا أدري أخفى على الأسفرايينى أمر تلك الحوادث التى مر ذكرها فيذهب إلى هذا الرأى؟ أم نسى محنة القول بخلق القرآن، و ما حدث من ورائها من تكفير البعض للبعض؟ فقد ذهب أحمد بن حنبل إلى تكفير من يقول بخلق القرآن، و يقول أبو عبد الله محمد بن يحيى الدهلى المتوفى سنة 255 هـ: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، و بانث منه امرأته، فإن تاب و إلا-ضربت عنقه، و لا يدفن فى مقابر المسلمين، و من وقف و قال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، و لا يدفن فى مقابر المسلمين، على أن أحمد بن حنبل لم يقبل توبة التائب، و كان لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن، و لم يصل على أحد منهم، و كان يرتب عليهم أحكام الكفار، و شاع التكفير حتى عند النساء، يحدثنا الخطيب: أن امرأة تقدمت إلى قاضى الشرقية عبد الله بن محمد الحنفى، فقالت: إن زوجى لا يقول بمقالة أمير المؤمنين فى القرآن، ففرق بينى و بينه (1). و اتسع الخلاف بين المسلمين، من تكفير البعض للبعض، فطائفة تقول: إن من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، و عليه ابن دؤاد و جماعته، حتى أن الواثق استنكف من الروم أربعة آلاف من الأسارى، و لكنه اشترط أن من قال القرآن مخلوق يخلى من الأسر، و يعطى دينارين (2) و من امتنع عن ذلك فيترك فى الأسر و لا يفك، بمعنى أنه رتب آثار الكفر على من لم يقل بخلق القرآن. و لما قدم أحمد بن نصر إليه قال له الواثق: ما تقول فى القرآن؟ و كان أحمد ممن يذهب إلى أن القرآن غير مخلوق فقال: كلام الله، و أصر على رأيه غير متلعثم فقال بعض الحاضرين: هو حلال الدم، و قال ابن دؤاد: هو شيخ مختل لعل به

ص:213

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 10 ص 74. [1]

2-2 (2) طبقات الشافعية ج 3 ص 22 و [2] تاريخ يعقوبى ج 3 ص 194.

عاهة أو تغيير عقله، يؤخر أمره و يستتاب، فقال الواثق ما أراه إلا داعيا للكفرة، ثم دعى بالصمصامة فقال: إذا قمت إليه فلا يقوم من أحد معي فإنني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربا لا نعرفه، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه و هو مقيد، و أمر أن يشد رأسه بحبل، و أمرهم أن يمدوه، و مشى إليه برجله و ضرب عنقه، و أمر بحمل رأسه إلى بغداد (1). هذا بعض ما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة، و حوادث الشغب بين معتنقى المذاهب الأربعة، مما يبعث على الأسف الشديد، لما حل بالأمة من التفكك و التحيز، الأمر الذي جعل المتدخلين في صفوف المسلمين ينفذون خططهم، و يحققون أهدافهم في تفريق كلمة المسلمين و صدع وحدتهم. و لم نقصد بهذا العرض إلا إعطاء صورة عن الحوادث التي لا يزال أثرها في تاريخ الأمة الإسلامية من أكبر عوامل التأخر و الانحطاط.

### بين السنة و الشيعة:

و إذا أردنا أن نولى وجوهنا شطر الحوادث التي حدثت بين المسلمين: السنة و الشيعة. فإن ذلك أدهى و أمر، و أشد وقعا، و أعظم خطرا. لقد وقعت بين السنة و الشيعة حوادث مؤلمة أدت إلى إثارة نيران الفتن، و إراقة الدماء، و حرق المساكن. و ليس بوردنا أن نذكر هنا كل ما حدث من خلاف بين هاتين الطائفتين في أمور لو طرحت على بساط البحث و المناقشة العلمية لزال كل شيء، و كان الحكم للحق وحده، و الحق أحق أن يتبع. لأن الخلاف كان لا يتعدى حدود النزاع في مسألة الإمامة و غيرها من المسائل التي حدث الخلاف بين الطائفتين فيها، ثم تطور الوضع إلى تحزب ضد الشيعة، و اتجاه معاكس، فحاكوا لهم التهم و حملوا عليهم بكل ما هو شائن من دون التفات إلى حق العلم، أو خضوع للحق. و يطول بنا الحديث حول ذلك هنا، و سنتحدث عن ذلك فيما بعد، و الشيء

ص: 214

---

1-1) شذرات الذهب ج 2 ص 67 و [1] تاريخ الخطيب ج 5 ص 177. [2]



الذى نود أن نشير إليه هو: أن الأمر بلغ أشده حتى أدى إلى ثورات دموية مؤسفة، وفتن ذهب تحت هياجها خلق كثير، ولعل من أعظم ذلك يوم كان الشيعة يقومون بإقامة شعائرهم الدينية كيوم عاشوراء، ويوم الغدير، فإن ذلك يدعو إلى الإنكار من إخوانهم السنين، بدعوى أن النياحة وإقامة الزينة يوم الغدير بدعة. وكان يصحب هذا الإنكار اعتداء أدى إلى إراقة الدماء بين الفريقين وقتل خلق كثير (1). ومع هذا فإن السنة قاموا بما قامت به الشيعة من النياحة على مصعب بن الزبير مقابلة للحسين، وأقاموا الزينة يوم الغار مقابل يوم الغدير وقد مرت الإشارة لذلك (2). كما انهم أقاموا النياحة على كثير من الناس، وقد رأوا أن ذلك من الأمور المستحسنة، حتى قال محمد بن يحيى النيسابورى- حين بلغه موت أحمد بن حنبل-: ينبغى لأهل كل دار فى بغداد أن يقيموا على أحمد بن حنبل النياحة فى دورهم (3). و أقيمت النياحة على أحمد بن حنبل وعظم الحزن عليه، ولازموا قبره مدة من الزمن، إظهارا للتفجع، وأقيمت مجالس العزاء عليه، كما أقيمت النياحة على غيره من الرجال وللرجال نذكر بعضا من ذلك: يموت أبو الفتح إسماعيل بن السلطان محمود سنة 567 هـ-فتقام عليه المآتم ويناح عليه نوح الثكلى، ويكثر البكاء فى الطريق، وتقرش بالرماد إظهارا للحزن، وتعظيما للمصاب (4). ويموت ابن تيمية سنة 728 هـ-فتحضر جنازته خمسون ألف امرأة ينحن عليه، ومائتا ألف رجل يرفعون أصواتهم بالتكبير مزيجا بالبكاء والعويل، ولما غسل جمع ماء غسله فشربوه تبركا به، واقتسم جماعة بقية الصدر الذى غسل به تبركا، ودفع بالطاقيّة التى على رأسه خمس مائة درهم، والخيط الذى فى رقبتة فيه الزنبق لدفع القمل دفع فيه مائة و خمسون دينارا، و سارت جنازته بين الضجيج والبكاء، و المنادى

ص: 215

1-1) البداية و النهاية لابن كثير 11-235. [1]

2-2) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة-انظر فصل: عناية الشيعة بيوم الغدير ص 94.

3-3) طبقات الحنابلة 2-51. [2]

4-4) شذرات الذهب ج 6 ص 112. [3]

أمامه ينادى هكذا تكون جناز أهل السنة، ولما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبلونه وينوحون عليه، ثم أذن للنساء ففعلن مثل ذلك (1) وأقيمت عليه المآتم ودامت النياحة ورثاه خلق كثير منهم شمس الدين الذهبي وغيره (2). ويموت أحمد بن السلطان ملك شاه سنة 481 هـ-فيمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام ولم يركب أحد فرسا والنساء ينحن عليه في الأسواق، وسود أهل البلاد أبو ابهم. و يموت شيخ الحرمين فتطوف تلامذته في الشوارع ينوحون عليه نوح النساء وكسروا المحابر وأقاموا النياحة عليه سنة كاملة (3). وأبو عمر الحنبلي المتوفى سنة 607 هـ-يعظم عليه البكاء والعويل ويتناوحون عليه رجالا ونساء، وغسل في المسجد، ونشف ماء غسله بخمر النساء، وعمائم الرجال-للتبرك طبعاً-ويتسابقون إلى تمزيق كفنه يتبركون به، وكادت تبدو عورته، لو لا محافظة الدولة على كرامته. فدفعت الناس عنه بالسيف. قال ابن العماد: ولو لا الدولة لما وصل من كفنه إلى قبره شيء (4). وتخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسي سنة 529 هـ-ينحن عليه ويلطمن و هن منشرات الشعور ينشذن المراثى فى الطرقات، أما الرجال فشاركوهن بالنياحة وزادوا بأن شقوا الثياب عليه (5). وغير هؤلاء ممن يطول بنا الحديث عنهم و ما حدث من مظاهر الحزن والأسى يوم وفاتهم وبعده. والعزاء أو البكاء من الحالات الإنسانية التى تظهر العطف وتبين ما فى دواخل المرء من مشاعر وهى تتناسب عكسيا مع القسوة والغلظة، وإنما تناولنا مظاهرها فى خلال الفترة التاريخية التى أصبح فيها القضاء والفتوى تبعاً لأهواء الحكام الذين يسمحون بذلك لأن المتوفين لا يمثلون فى شخصياتهم رموزاً تهدد أركان

ص: 216

1-1 (1) تاريخ ابن كثير ج 14 ص 138.

2-2 (2) العقود الدرية فى مناقب ابن تيمية ص 399.

3-3 (3) طبقات الشافعية ج 3 ص 259.

4-4 (4) شذرات الذهب ج 3 ص 30. [1]

5-5 (5) تاريخ دول الإسلام للذهبي ج 1 ص 182.

نظامهم كالإمام الحسين أو الإمام الصادق أو الإمام الكاظم الذي ترك جثمانه الطاهر على رأس الجسر و منادى السلطة ينادى بذاك النداء المعروف؟ و لا مانع أن تقابل البدع ببدع أخرى- كما يرى الحكّام- لأن أساس الاتهام واه، فلو كان قطيعا أو حتى ظنيا لكان على هؤلاء أن يتوقفوا عند المنع. و يكفي ما تضمّنه الروايات من صور لعاطفة النبي محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو يبكي عمه حمزة، منها: ما رواه الواقدي عند ما جاءته صفة فجلست عنده فجعلت إذا بكت يبكي صلّى الله عليه و آله و سلّم و فاطمة الزهراء عليهم السّلام تبكي، فلما بكت بكى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم. أو ما رواه البخاري أنه صلّى الله عليه و آله و سلّم دخل على ابنه إبراهيم و هو يوجد بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم تذرّفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف: و أنت يا رسول الله؟ فقال صلّى الله عليه و آله و سلم: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم اتبعها بأخرى فقال صلّى الله عليه و آله و سلم: إن العين تدمع و القلب يحزن و لا نقول إلا ما يرضى ربنا، و إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون. و أيضا عن أنس بن مالك قال: شهدنا بنتا لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم تدفن و رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم جالس عند القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان. و لما استشهد جعفر بن أبي طالب، أتى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم أسماء فقال: أخرجني لى ولد جعفر، فخرجوا إليه فضمهم إليه و شمهم و دمعت عيناه. و روى عن الإمام الصادق قوله: «إن زين العابدين عليه السّلام بكى على أبيه أربعين سنة، صائما نهاره، و قائما ليله فإذا حضره الإفطار جاءه غلامه بطعامه و شرابه، فيضعه بين يديه، و يقول: كل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جانعا، قتل ابن رسول الله عطشاناً، و لا يزال يكرر ذلك و يبكي، حتى يبيل طعامه من دموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز و جل». و نحن إذا نظرنا إلى أسباب تلك المؤاخذات التي تؤاخذ بها الشيعة و استوجبت حدوث تلك الحوادث، نجد الأسباب تعود إلى متابعة أغراض السلطة، حتى تحكم العداة للشيعة و أصبح الابتعاد عن تهمة التشيع، أمر لازم حتى حرّموا التشبه بهم. ذكر الزرقاني في المواهب اللدنية في صفة عمّة النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم على رواية على عليه السّلام في إسدالها على منكبها حين عممه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ثم ذكر قول الحافظ العراقي ان ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم.

فهذا الشيخ يفتى بترك التشبه بالشيعة فى اتخاذ العممة التى كان رسول الله يلبسها، وهذا شاهد من آلاف الشواهد التى عامل بها رجال أولئك العصر شيعة آل محمد. وعبروا أن من المصلحة أن يمنع المصلى عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه من أرض وغيرها، لأن ذلك الاختصاص من شعار الشيعة. ولا غرابة فإن تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة، وهل وراء ذلك إلا إزهاق الأرواح، ونهب الأموال أو السجن أو التباعد؟ لذلك التجأ الأكثر إلى التظاهر فى الوقعة بهم فأدى الأمر إلى التباعد عنهم والحذر من تهمة التشيع حتى فى الرؤيا. يحدثنا الخطيب البغدادي: أن رجلا رأى عليا عليه السلام فى المنام فلم يجسر على الدنو منه فسأله صاحبه فقال: أخشى إن قربت إليه أسأله أن أتهم بالتشيع. هكذا أرادت السلطة الجائرة، تفريق كلمة المسلمين، وإيقاد نار العداة فيما بينهم، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة، و رغبات فى نفوسهم، لا تنال مع الوحدة والاتحاد، وتبادل الثقة والاخاء. وكان فى الأمة رجال يدعون إلى الحق، وينبهونهم على هذه الأخطاء ولكن جهودهم لم تثمر كثير فائدة، لأن الفوضى تحكمت فى المجتمع، ودبت روح الاختلاف فى النفوس، وطغت موجة التعصب، حتى كانت عاقبة ذلك الجهل أن سلط عليهم أعداء لا يعرفون الرحمة، فألبسوهم الذل، وحكموا فيهم السيف، وسقوا من دمائهم الأرض، وأقاموا من رؤوسهم تلالا، فتمكن من قلوب المسلمين الرعب، وسلبت منهم تلك القوة والشجاعة، والتفانى فى سبيل نشر كلمة التوحيد، يوم ساروا تحت راية الإسلام، وهم يستهينون بالحياة، ويستقبلون الموت، ويتمنون الشهادة، حتى أخضعوا جبابرة الأرض و دانت لهم البلاد. وإذا بهم تلك العزة، يستولى عليهم الذل، ويدخل فى قلوبهم الرعب، ولا يدافعون عن أنفسهم، فكان الرجل الواحد من التتر يقتل جماعة من المسلمين الواحد بعد الآخر. ودخلت امرأة دارا وقتلت جماعة من أهلها، ولم يدفعوها عن أنفسهم، و دخل واحد منهم دريا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم، ولم تمد إليه يد بسوء.

وأخذ رجل من التتر رجلا من المسلمين ولم يجد ما يقتله فيه، فقال له: ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح، فوضع رأسه وبقى نائما حتى جاء التترى وقتله (1). وهذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات ويميت قلبه أسفا وحزنا، وها نحن اليوم أمام تيار المبادئ الفاسدة، والآراء الهدامة، والعقائد السخيفة، وإن خطرنا على المسلمين لأعظم خطر يخاف عاقبته، وتخشى مغبته إن لم ينهج المسلمون لمكافحتها منهج فهم التعاليم الإسلامية والقيام بتطبيقها عمليا، وأن يتحدوا لإبعاد المتداخلين بين صفوف المسلمين، لهدم المجتمع الإسلامي، وتشويه تعاليمه الدينية والأخلاقية، واستبدالها بتعاليم إباحية، ولا يدفع ذلك الخطر إلا باتحاد الكلمة وفهم الإسلام فهما صحيحا، وأن تستقى تعاليمه من ينبوعه الذى أراد الله أن نأخذ منه ونتبع قول الحق، وأئمة الصدق: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [التوبة:119]، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا [آل عمران:103].

### انتشار المذاهب الأربعة فى الأقطار الإسلامية:

اشتهر الأخذ بالمذاهب الأربعة وانتشر العمل بها فى الأقطار الإسلامية، فهى فى القرن الرابع الهجرى قد تغلبت على ما سواها من المذاهب المعمول بها فى القرن الثانى والثالث، ما عدا المذهب الشيعى فإنه سار بقوته الروحية رغم العقبات التى وقفت فى طريقه، و يحدثنا المقدسى عن انتشار المذاهب فى القرن الرابع بما يلى: سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وجهر وصعدة شيعة. والغالب على صنعاء أصحاب أبى حنيفة والجوامع بأيديهم، وفى نواحي نجد واليمن مذهب سفيان. وفى العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعية، وبه مالكية وأشعرية، والكوفة الشيعية إلا الكناسة فإنها سنة، وأكثر أهل البصرة قدرية و (شيعية) و ثم حنابلة، و ببغداد غالية يفرطون بحب معاوية. وهنا يحدثنا المقدسى عن دخوله جامع واسط واستماعه لقصاص يقص على الناس حديثا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله يدنى معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ثم يجلوه على الخلائق كالعروس، قال المقدسى فقلت له: بما ذا؟ بمحاربتة عليا رضى الله عنه؟ كذبت يا

ص:219

ضال، فصاح: خذوا هذا الرافضى، فاقبل الناس علىّ، فعرفنى بعض الكتبة فكركرهم عنى. إقليم اقور و هو اليوم شمال العراق-أى الموصل و نواحيها-مذهبهم سنة و جماعة، إلا عانه فإنها كثيرة المعتزلة و لا ترى فى الرأى غير مذهب أبى حنيفة و الشافعى، و فيها حنابلة و جلبة للشيعة، و إقليم الشام مذهبهم مستقيمة أهل جماعة و سنة، و أهل طبرية و نصف نابلس و أكثر عمان شيعة و لا ترى فيه مالكياء، و العمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث. إقليم مصر على مذهب أهل الشام، غير أن أكثر فقهاءهم مالكيون ألا ترى أنهم يصلون قدام الإمام و يربون الكلاب؟ و أعلى القصبة شيعة و سائر المذاهب فى الفسطاط موجودة ظاهرية. و إقليم المغرب: فالمذاهب على ثلاثة أقسام، و أما فى الأندلس فمذهب مالك، و قراءة نافع، و هم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله و موطأ مالك، فإن ظهوروا على حنفى أو شافعى نفوه، و إن عثروا على معتزلى أو شيعى و نحوهما ربما قتلوه، و سائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعى إلا مذهب أبى حنيفة و مالك، و أصحاب مالك يكرهون الشافعى، يقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه. إقليم جانب خراسان للشيعة و المعتزلة و الغلبة لأصحاب أبى حنيفة إلا- فى كورة الشاش فإنهم شوافع، و فيهم قوم على مذهب عبد الله السرخسى. و إقليم الرحاب مذهبهم مستقيمة، إلا أن أهل الحديث حنابلة، و الغالب بدييل مذهب أبى حنيفة. و إقليم الجبال اما بالرى فمذهبهم مختلفة، فالغلبة للحنفية و هم نجارية، و بالرى حنابلة كثيرة، و أهل قم شيعة، و فى الدينور جلبة لمذهب سفيان الثورى. إقليم خوزستان مذهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز و رامهرمز و الدورق حنابلة، و نصف الأهواز شيعة، و به من أصحاب أبى حنيفة كثير و لهم فقهاء و بالأهواز مالكيون. إقليم فارس، العمل فيه على أصحاب الحديث، و أصحاب أبى حنيفة، و للداودية دروس و مجالس و غلبة، و يتقلدون القضاء و الأعمال.

إقليم كerman المذاهب الغالبة للشافعي. إقليم السند: مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داوديا إماما في مذهبه. وأهل الملتان «شيعية يحيعلون في الأذان ويثنون في الإقامة» ولا تخلوا القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة وليس بهم مالكية، ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة (1)

### انتشارها في الوقت الحاضر:

أما إحصائيات المذاهب الأربعة في الوقت الحاضر، وانتشارها في البلاد الإسلامية فيحدثنا عن ذلك العلامة أحمد تيمور (2) بما يلي: المغرب الأقصى يغلب عليه الآن المذهب المالكي. وعلى الجزائر وتونس أيضا. «طرابلس» المذهب المالكي بكثرة، والحنفي بقله. وهم من بقايا الأسر التركية، وأكثرهم في تونس، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركا للقضاء المالكي، وأما سائر أعمالها: فقضاتها مالكية، وفي الحاضرة كبير المفتين الحنفي ويلقب بشيخ الإسلام وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع، والمالكي وله المقام الثاني، وقد تساهلوا الآن في تلقيبه بشيخ الإسلام أيضا. ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفي فإن من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية، والنصف الآخر مالكية. وإنما امتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة. «مصر»: الشافعي والمالكي ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان، ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة، والمتبع في الفتوى والقضاء، والحنبلي قليل بل نادر. «الشام»: الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية، والربع الآخر حنابلة.

ص: 221

1-1) أحسن التقاسيم [1] لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري طبع سنة 1909 م بمطبعة بريل.

2-2) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص 42.

«فلسطين»: يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعي، ويليه الحنبلي فالحنفي، فالمالكي. «العراق»: يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنة، ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة. «الترك»: العثمانيون والألبان وسكان بلاد البلقان المذهب الحنفي. «الأكراد»: المذهب الشافعي وهو الغالب على بلاد أرمينية لأن مسلميها من أصل تركماني أو كردى، والسنينيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية. «الأفغان»: المذهب الحنفي والشافعي، والحنبلي بقله. «تركستان الغربية»: التي منها بخارى المذهب الحنفي، وأما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعي، ثم تغلب الحنفي بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز وما والاها الحنفي و فيهم شافعية. «الهند»: الحنفي والشافعي بقله، وفيها مذاهب أخرى. «الهند الصينية»: شافعية وكذلك مسلمو استرالية، وفي البرازيل من أمريكا نحو 25 ألف مسلم حنفية. «أمريكا»: فيها من المسلمين عدد ينوف على 140 ألفا وهم مختلفو المذاهب. «الحجاز»: الشافعي والحنبلي وفيه حنفية ومالكية فى المدن وأهل عسير شافعية. «اليمن»: السنينيون فيها وفى عدن، وحضرموت شافعية، وقد يوجد بنواحي عدن حنفية والغالب على عمان الاباضية، ولكنها لا تخلو من حنابلة و شافعية. «قطر والبحرين»: المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد. «الاحساء»: الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالكي. «الكويت»: المالكي. هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة وانتشارها، ولم يتعرض لانتشار المذهب الشيعي فى الأقطار الإسلامية فى العصر الحاضر، و سنشير لانتشار المذهب الشيعي فى الأقطار الإسلامية بعد عرضنا لتاريخ المذهب ونشأته.



و لا بد من ملاحظة عامل الزمن و التغيرات السياسية. كما لا يعنى أن تقسيمات تيمور و إحصاءاته هي من الدقة بحيث لا تقبل الإضافة في الأسماء أو الزيادة في العدد، لأن تيمور لم يذكر الشيعة و نرجو أن يكون ذلك لا يخفى غرضنا ينافي العلم و يمجّه الذوق، كما أن من السهولة الانتباه إلى نقص في تسمية المذاهب الغالبة الموجودة كما هو الأمر في الجزيرة و الخليج. و كما قلنا سابقا إن هذه المذاهب قد لقيت تشجيعا من السلطة و تعددت عوامل انتشارها، و كان من أهمها إنشاء المدارس لها مما يدعو إلى الإقبال عليها و لنشر هنا إلى بعض تلك المعاهد التي أنشأت لدراسة فقه المذاهب الأربعة خاصة.

### مدارسها في الأقطار الإسلامية:

كانت بغداد في العهد العباسي ربوعا عامرة أنشئت فيها دور للعلم، و بنيت مدارس لتعلم الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة، و أجريت على طلاب العلم منهم نفقات طائلة، و قد أنفق نظام الملك عليهم في كل سنة ما يبلغ ستمائة ألف دينار، و كان أبو الحسن علي بن محمد وزير المقتدر العباسي يقوم بنفقات خمسة آلاف طالب منهم، و بذلك أصبحت بغداد دار هجرة يؤمها طلاب العلم من كل ناحية و صوب، و أهم تلك المدارس هي: 1- النظامية: التي أنشأها نظام الملك الطوسي على شاطئ دجلة سنة 457 هـ - و بنى حولها أسواقا و جعلها وقفا عليها، مع كثير من الضياع و الخانات و الحمامات. 2- التاجية: و قد بنيت سنة 482 هـ - بناها تاج الدين أبو الغنائم المتولى لتدبير دولة ملك شاه بعد نظام الملك. 3- التتوشية: التي بناها خمارتكين خادم تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق، و هي خاصة لأصحاب أبي حنيفة فقط. 4- باب الازج: بنيت لثقة الدولة أبي الحسن علي بن محمد القزويني. 5- مدرسة ابن دينار: بنيت لأبي حكيم إبراهيم بن دينار البغدادي الفقيه الشافعي. 6- مدرسة زيرك أو مدرسة سوق العميد: خاصة للحنفية.

7- المدرسة الشرايية: أنشأها شرف الدين اقبال الشرايى سنة 628 على عهد المستنصر بسوق العجم. 8- المدرسة البشيرية: أنشئت بالجانب الغربى من بغداد وقد أمرت ببنائها حظية المستعصم و جعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة. و لكن أهم تلك المدارس هى المستنصرية التى مرت الإشارة إليها فى الأبحاث السابقة وقد وصفها السيوطى (1) وابن بطوطة فى رحلته و ابن الفوطى (2) وغيرهم. و كانت تعد هذه المدرسة كالجامة لتخريج العلماء على المذاهب الأربعة فى ذلك العصر. أما فى مصر فكان مجموع المدارس التى أنشئت للمذاهب الأربعة لا يقل عددها عن تسعين مدرسة، و إليك ذكر البعض منها: 1- المدرسة الفائزة: أنشأها شرف الدين بن صاعد سنة 636 هـ و هى خاصة للشافعية. 2- المدرسة القطبية: أنشئت سنة 570 هـ- أنشأها الأمير قطب الدين خسرو و هى للشافعية. 3- المدرسة السيوفية: أنشئت سنة 572 هـ و هى للحنفية أنشأها الملك الناصر صلاح الدين أيوب و أوقف على مستحقها 32 خانوتا. 4- المدرسة الفاضلية: أنشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم سنة 580 هـ و جعلها لفقهاء الشافعية و المالكية. 5- مدرسة المحلى: أنشأها برهان الدين إبراهيم بن على المحلى. 6- المدرسة الفارقانية: أنشئت سنة 676 هـ و هى للشافعية و الحنفية. 7- المدرسة الشريفة: أنشأها أحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية سنة 612 هـ و هى للشافعية.

ص: 224

1-1) تاريخ الخلفاء ص 185 ط بولاق. [1]

2-2) الحوادث الجامعة ص 53. [2]

8-المدرسة الصالحية: أنشأها الملك نجم الدين أيوب سنة 639 هـ-للفقهاء الأربعة. 9-المدرسة الكاملية: أنشأها السلطان ناصر الدين محمد بن الملك العادل للشافعية. 10-المدرسة الظاهرية: للشافعية و الحنفية. 11-المدرسة القطبية: أنشئت فى القرن السابع بوصية من الست عصمة مونسة خاتون (1). ولا يسعنا ذكر بقية المدارس التى أنشئت فى سائر الأقطار الإسلامية للمذاهب الأربعة، و نكتفى بهذه الإشارة إلى عظيم تشجيع الدولة و الأمراء فى تلك العصور لنشر العلم طبقا للمذاهب الأربعة فقط، ليلتزم الناس التمسك بها دون غيرها. أما مذهب أهل البيت و هو المذهب الجعفرى فلم يلقى تشجيعا من دولة أو تأييدا من سلطة، بل كان عرضة لمقاومة السلطة، و هدفا لسهام الاتهام بكل ما لا يليق به، و قد صمد المذهب أمام تلك الحوادث متمسكا بمبادئ أهل البيت ممثلا وصايا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى آله حتى انتشر على وجه البسيطة بقوته الروحية و الآن نتحدث عنه باختصار.

ص:225

---

1-1) الخطة للمقرىزى ج 4 [1] من ص 191 إلى 262.



نشأته وعوامل انتشاره

### مذهب أهل البيت:

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وهو أقدم المذاهب نشأة وأقواها عاملا، يستمد تعاليمه من ينبوع الإسلامى الفياض: القرآن الكريم وسنة نبيه، وقد غرس النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذرته ووجه الناس إليه بتعاليمه وإرشاداته، و عمل به فى زمن الصحابة، وقام بنشره جماعة منهم كأبى ذر الغفارى، وسلمان والمقداد، وعمار بن ياسر وغيرهم كما يأتى بيانه. و اختصاصه بالإمام الصادق للأسباب التى مر ذكرها عند حصول تلك الفترة بين شيخوخة الدولة الأموية، و طفولة الدولة العباسية، و فيها اتسع المجال للإمام الصادق عليه السلام لنشر العلم و بث الأحكام الإلهية، و نشر التعاليم النبوية التى استقاها عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عند رفع تلك الرقابة التى جعلها الأمويون للحيلولة بين الأمة و بين أهل البيت، فاشتهر فى ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد و اتسعت أمامه حرية القول، و حرية النقض و الإبرام فى شأن الحقائق الدينية من جهة، و المشتبهات و الموضوعات على غير أساس صحيح من الأحاديث و السنة من جهة أخرى، و ازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته، و كثرت الهجرة إليها، فنسب المذهب إليه فى عهد ازدهار العلم، لأن كل ما ذهب الإمام الصادق إلى تصويبه و الوثوق بصحته من الأحكام أصبح بجملته يسمى (مذهب جعفر الصادق عليه السلام). و لم يكن المذهب الجعفرى كسائر المذاهب الإسلامية فى تطور نشأته و عوامل انتشاره، بل امتاز باستقلاله عن مقومات المادة و مؤازرة السلطة، و استطاع بمؤهلاته الذاتية إخضاع الزمن، و اجتياز العقبات التى تقف فى طريق نشره.

و لولا فيض من القدسية في مبادئه، وقوة روحية في تعاليمه، وعناية قبل كل شيء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس، لقصت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه ولكن ذهبت تلك المحاولات ضد المذهب دون جدوى، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح. و قد اتضح لنا بالبحث عن المذاهب الإسلامية ودراساتنا للظروف التي تكونت فيها، والعوامل الرئيسية لنشر البعض والآخر، إنما هو لتدخل السلطة التنفيذية، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها، ومعارضة المذهب الذي لا يروق لها نشره، وكانت الأسباب التي أدت إلى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هي عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة، كما مرت الإشارة إليه.

## العداء لأهل البيت:

أما مذهب أهل البيت فقد بذلت السلطات كل إمكانياتها لعرقلة نشره واتساع دائرة أتباعه، وكان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها في مقابلة أهل البيت، والوقوف في طريق انتشار مذهبهم في البلاد الإسلامية، أما الدولة الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمر ثلاثة: 1- العداء للبيت النبوي عداء ذاتيا متأصلا، توارثه الأبناء عن الآباء ولم يغير الإسلام من وجهة نظرهم هذه أي شيء، بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الإسلام بالصورة التي أرغمتهم على الدخول فيه استسلاما لقوته. 2- إن مذهب أهل البيت بانتشاره في عهدهم وعدم معارضتهم له، معناه الضربة القاضية على الدولة، للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت وسياسة الأمويين في إشاعة العدل والمساواة بين الطبقات، ونشر التعاليم الإسلامية. 3- إنهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الإسلامية ويعرفون الأمة واتجاه أنظارها لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا توجد أي نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت، فإذا تركوا الأمور تسير بمجرها الطبيعي يوشك أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم وإن كان في ذلك تأخر المسلمين عن التقدم السريع حيناً من الدهر.

وعلى أى حال فقد واجه محبوب على عليه السلام وأنصاره فى عهد معاوية أنواع الأذى وضروب المحن، وقد استعمل شتى الوسائل فى معاقبتهم ومنع الناس من الرواية عن على عليه السلام فكان المحدثون يكتنون عنه بأبى زينب خشية العقوبة من التصريح باسمه عليه السلام. ويصور لنا اهتمام معاوية فى محو ذكر على عليه السلام ولاية زياد على الكوفة، وتتبعه لشيعه على عليه السلام تحت كل حجر ومدى، حتى حملهم على البراءة من على عليه السلام، ولنا فى قتل حجر بن عدى وأصحابه رحمهم الله أكبر دليل على ذلك كما سنبينه قريباً. ولا نطيل الحديث حول الجهود التى بذلها معاوية فى الوصول لتلك الغاية ولكنها أتعاب لم تثمر الفائدة التى كان يسعى لتحصيلها. فقد انتشر مذهب أهل البيت فى عاصمة الأمويين على عهده وازداد انتشاره على ممر العصور، وإن أول من نشر المذهب فى الديار الشامية هو الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى، فقد قام بدوره فى نشر تعاليم الإسلام، وإظهار الإنكار على معاوية لسوء سيرته، وتصرفه بأمور الأمة بما لا يتفق ونظم الإسلام، فاستغاث معاوية بالخليفة عثمان لإخراج أبى ذر من الشام ليصفو له الجو، فكان نصيب أبى ذر التبعيد عن دار الهجرة، وموته وحيداً بالربذة. ولم يقض معاوية على تلك الحركة الإصلاحية التى قام بها أبو ذر، بل توسعت بصورة أرغمت على إثارة العصبية بين القبائل، وبث روح التفرقة بين الناس، وبذل كل ما فى وسعه فى مقابلة على وأنصاره كما تقدم. وتقف الكوفة- التى هى أهم مراكز الإسلام ويعترف الأمويون بخطورها على الدولة- موقف المعارضة والإنكار للأوضاع الشاذة التى ارتكبتها ولاية الأمر وبتراأس المعارضة الصحابى الجليل حجر بن عدى وخلصاء أصحابه، فقاموا يطالبون بالحق، وينتصرون للعدل، ويتألمون لهجر تعاليم الإسلام والخروج على نظامه المقدس، وينبهون الأمويين على تلك الأخطاء التى ارتكبوها، والمخالفة لأحكام الإسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم.

فكان موقف أمراء الأمويين في الكوفة كالمغيرة بن شعبة موقف تريث و تأنيب و استعمال طرق الإقناع لزعماء هذه الحركة عسى أن يتحولوا عن هذا الرأي، و يسالما معاوية و يكونوا في جملة المؤيدين لسياسته، و لكن الأمر يزداد شدة يوما بعد يوم، و يكثر الناقمون و بالأخص عند ما أعلن الوالي زياد بن سمية على المنبر إلزام الناس بالبراءة من علي عليه السلام و شتمه، و هم يرون أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو بطل الإسلام و ناشر دعوته، و أنه أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و أشدهم تمسكا بسيرته و إحياء سنته. و لما ولى زياد الكوفة استقر رأيه و رأى معاوية على الوقية بهم، فروروا شهودا - و ما أكثرهم في ذلك العهد - من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر (1) و أصحابه بما يستطيعون أن يردوا بعض الإنكار عنهم، فكانت خاتمة مطاف حياتهم في مرج عذراء بتلك الصورة المؤلمة. لقيت الأمة في سبيل الانتصار للحق و الانضمام لجانب أهل البيت و هم أهله، أنواع العذاب. أما أهل البيت أنفسهم فكانوا في الدور الأموي - دور الإرهاب و الظلم - يلاقون المصائب على أيدي تلك الفئة التي تضم العدا لآل محمد و تحاول القضاء عليهم بكل وسيلة. و تزلف الناس إليهم، بالعداء لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و تطوع آخرون بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة، استجابة لاقتراح معاوية، و اتباعا لأوامره التي أصدرها بلاطه الجائر، فكانت هناك مجموعة أحاديث كلفت بيت المال مئات الآلاف من الدنانير، و قليلا ما يبذلون، فإن أولئك الدجالين يبيعونهم دينهم، و إنهم يريدون أن يجعلوا من الفأرة جملا، و يحاولون إدخال الأسد في البيضة.

ص: 230

1-1) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة بن الأدر بن الأدر كان من فضلاء الصحابة و من شيعة علي (عليه السلام) و حضر معه حروبه و كان على كنده يوم صفين، و على الميسرة يوم النهروان - حمله زياد بأمر معاوية في اثني عشر رجلا موثقين في الحديد فقتل معاوية ستة منهم حجر و استحيا ستة و أوصى حجر من حضر من أهله أن لا تطلقوا عنى حديدا و لا تغسلوا عنى دما فإنى ملاق معاوية غدا على الحادة، و كان قتله في مرج عذراء سنة إحدى و خمسين للهجرة.



يريدون أن يجعلوا ممن حارب الإسلام هو وأبوه من قبل شخصية تعترف الأمة الإسلامية بأنها شخصية روحانية طاهرة مطهرة، تمنحه الأمة ثققتها، و تنقاد له بدافع العقيدة وهذا أمر لا يكون. إنهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حق وراثته النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتولى سلطانه وهو عدوه الألد، إنهم يريدون أن يجعلوا من أبي سفيان شخصية إسلامية تتفانى في نصرته الدين، وهو لا يجهل أحد حاله. ومن هذا وذاك فإن قبول مثل هذه الأمور يحتاج إلى قوة تسيطر على العقل، و تطفئ شعلته، و لا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة، فهي في الواقع أقوى من السيف، و لذلك أصبحت لتلك المفتريات أثرها، و طابعها الخاص، و إذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح، فيصبح (أمين هذه الأمة) و خصما لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى عد علي عليه السلام ذلك من أعظم مصائبه فقال: (أنزلني الدهر حتى قيل علي و معاوية)، و أصبح أبو سفيان بمقتضى تلك الأوضاع المقلوبة مسلما صحابيا له مكاتته و مناقبه. و أبو طالب مؤمن قريش و ناصر الإسلام الأول، و حامى دعوته و من بذل جهده لنصرة دعوة الحق، و تقانى بالدفاع عن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدافع العقيدة و العاطفة و موجات الحق، تردد أناشيده و ترسمها على لوحة الخلود: و لقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

و ساند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في دعوته و بذل أقصى جهده في حمايته، و أعز الله جانبه فيه، و ألجم أعداءه عن مقابلته، يسمى كافرا و لا ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله، و تذهب أتعابه سدى و تسند إليه كلمة الكفر؟! و ما ذلك إلا رغبة لنوال من لا رغبة له إلا أن ينال من علي عليه السلام، و يحاول أن يخمل ذكره، و لا ترضى نفس ابن أبي سفيان أن تكون لعلي تلك السلسلة الطاهرة التي لم تنجسها الجاهلية بأرجاسها، و هو و الرسول الأعظم ركيضا رحم و رضيعا لبن. و معاوية أعلم بنفسه من هو و ابن من، و لكنه تمكن بمكره و خداعه، و جلب ما استطاع بخيله و رجله، في تركيز هذه الفكرة. و ما ذنب أبي طالب و لم يبق في كنانته سهما إلا رماه في نصرته الدين، و لكن عليا هو سبب تلك المؤاخذات المفتعلة على أبي طالب، و ما ذنب علي عليه السلام إلا أنه

على الحق و معاوية على الباطل، فعداء معاوية لعلى (عداوة جوهرية يستحيل تحويلها. هي عداوة الشر للخير و الخبيث للطيب و الباطل للحق و الكفر للإيمان). و إلا- فأبو طالب فى الخصال و الخلق مثال للحنيفية و تجسيد لقيم إبراهيم الخليل. و أبو سفيان فى الخصال مجمع للنقائص التى جاء الإسلام ليحاربها و فى الخلق انعكاس لمجتمع الجاهلية الذى يرتكس فى الضلال و الغواية. و لذا أقام معاوية سياسته على النيل من مكانة الإمام على، و استخدم الوسائل الدينية التى يتبعها و التى ينفذ من خلالها إلى أذهان العامة فعبر عن عداء دنىء و أخذ بجعل سمة ملكه و عنوان دينه لعن الإمام العادل و قد وضع لها مكانا فى التاريخ الذى ينوى إقامته لبنى أمية فى الشام، فصرح أن ستكون هذه السياسة العدائية يشب عليها الصغير و يهرم عليها الكبير، و قد تمكن من نفوس أهل الشام خلال حكمه و حكم أخيه من قبل (و بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء، و أعاروه رءوسهم عند القتال و حملوه بها. . ثم ارتقى بهم الأمر فى طاعته إلى أن جعلوا لعن على سنة، ينشأ عليها الصغير، و يهلك عليها الكبير) (1) و كتب إلى عماله بهذه السياسة. و كان همه أن يجرى اللعن من على المنبر النبوى الشريف و كتبت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى معاوية: إنكم تلعنون الله و رسوله على منابركم، و ذلك أنكم تلعنون على بن أبى طالب و من أحبه، و أنا أشهد أن الله أحبه و رسوله (2) و يروى ابن عبد ربه أن بعض العلماء قال لولده: يا بنى إن الدنيا لم تب شيئا إلا هدمه الدين و إن الدين لم بين شيئا فهدمته الدنيا أ لا ترى أن قوما لعنوا عليا ليخفضوا منه، فكانما أخذوا بناصيته جرا إلى السماء.

### بذرة التشيع و نموها:

و مهما يكن من أمر فقد نشأ مذهب أهل البيت و تكون فى عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه و آله و سلم فهو أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الإسلام، يوم غرس دوحه شريعته الغراء جنبا إلى جنب و سواء بسواء، و لم يزل غارسها صلى الله عليه و آله و سلم يتعاهدا بالسقى و العناية حتى ثبتت و نمت فى حياته، ثم أثمرت بعد وفاته، حيث كان يتعاهدا أهل

ص:232

1-1) مروج الذهب ج 3 ص 41-42. [1]

2-2) العقد الفريد ج 3 ص 131-132. [2]

بيته وخلص أصحابه، وقد قام كل بما يجب عليه من رعايتها، وتحمل من نكبات واضطهاد في سبيل حفظها من تلك السلطات التي كانت تحاول القضاء عليها لمحو ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقد وقفوا أمام تلك التيارات وفقه إخلاص وإيمان وثبات على مبدأ الحق، ولم يأبهوا يوماً ما إلى سلطة أو سياسة، ومرت تلك الأدوار العصبية المظلمة، ولم يزل ذلك الغرس ثابت الجذور نامى الفروع يسقى من ماء غير آسن، حتى أفرغت دوحته وامتدت أغصانه وأنع ثمره بحفيد النبي الكريم ووارث علمه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. كان الإمام الصادق عليه السلام مهتماً في تلك الفترة المارة بالذكر بيث العلوم ونشر المعارف الإسلامية بين طبقات المجتمع، فأقبل الناس على مدرسته وازدحموا على أبوابها ينتهلون من علومه، ويقتبسون من أنوار معارفه، وأقبلت وفود طلاب العلم من الأقطار الإسلامية، حتى أصبح عدد تلاميذه والمنتسبون إلى مدرسته أربعة آلاف، منهم أئمة مذاهب كآبى حنيفة، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وابن عيينة، والأعمش، وغيرهم وكذلك منهم رؤساء طوائف وأعلام الحديث والفقهاء. وكثر التأليف في عصره، ودون فقه أهل البيت وحدثهم بصورة واسعة، حتى أحصى ما دونه في عصره فكان أربعمئة مؤلف لأربعمئة مؤلف ممن سمعوا الحديث منه، فدونوه وعرفت بالأصول الأربعمئة وستأتى الإشارة لذلك عند ذكر تدوين الفقه الجعفري. وبالجملة فإن مذهب أهل البيت عليه السلام هو أقدم المذاهب، وقد تخطى في العصر الأموي تلك العقبات التي حاول الأمويون بها أن يعرقلوا سيره، ويقفوا في طريق انتشاره، وسيأتي بيان مقاومة العباسيين له، ومعارضتهم لانتشاره.

### أخطاء تاريخية لابن خلدون:

وأود هنا أن أعود للإشارة عما تجناه ابن خلدون على الحقائق التاريخية إذ يصف هذا المذهب بالبدعة حيث يقول في مقدمته: وشذ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به (1).

ص: 233

وليس من الغريب صدور مثل هذا القول من رجل كان يحقد على العرب و يضمّر لهم كل سوء، وليس ببعيد تحامله على سادة أهل البيت و أئمة المسلمين فهو يتعصب عليهم، و يتجاهل مكائهم، هذا مع جهله بمذهبهم فإنه لم يقرأ كتب المذهب و إنما قرأ كتب الخصم، و لم يتصل بزعمائه، و إنما اتصل بأعدائه، فراق له ما سمع من قالة السوء، و استعذب ما قرأ في كتب المناوئين لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و شيعتهم. و لعل هالة الأكبار و التقدير لابن خلدون التي أحاطت بشخصيته من قبل بعض الكتاب أبعدهم عن الوقوف على شخصية هذا الرجل بواقعها، و التعرف على ما تضمنته من أخطاء و مخالفات للحقيقة. و لقد رأينا دوماً أن ابن خلدون موضع إجلال أكثر الباحثين و الكتاب، سيرا على طريقة السلف، و برغم ما تضمنته مقدمته من علوم في الاجتماع و العمران. إلا أن ذلك لا يبيح لنا أن نتغاضى عن مواقف وقفها تجاه العرب و حضارتهم، فيجردهم من ذلك و يسلبهم فضائلهم فيصفهم بأنهم أمة متوحشة، و هم أهل نهب و عبث، بل هم أداة خراب للأوطان التي يتغلبون عليها إلى غير ذلك مما يدلنا بكل وضوح على تعصبه أو تجاهله كما يصفه لنا الأستاذ موسى سلامة بقوله: و الخطأ البارز في ابن خلدون: هو تنقصه حضارة العرب، فإنه هنا أعمى كامل العمى، لا يرى بصيصاً من نور. . . هذا مع أنى أحتفظ له بخيانات شخصية و ثقافية، فإنه مثلاً خان معظم الأمراء و الملوك الذين خدمهم ثم إنه سرق كل ما كتبه إخوان الصفا و عزاه إلى نفسه. . . اهـ. و لا أدل على تجاهله أو تحامله من كلمته هذه في مذهب أهل البيت و وصفه لهم بالشذوذ. و لو كان له قليلاً من التأمل لما قال هذا القول الذي لم يتوصل إليه بالنتائج العلمية، و هذه الكلمة هي التي بعثتنا على خوض غمرات البحث و التعرف على المذاهب، و عوامل انتشارها، و أسرار نجاح المذاهب الأربعة و أسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين، فاتضح لنا أن ذلك مستند إلى دواعى السلطة، و إغراء المادة، التي من أجلها نسي ابن خلدون نفسه، فجرى قلمه بظلم الحق و الحقيقة. و لا يستبعد ذلك من إنسان تربع على دست قضاء دولة لا ترغب في إظهار فضل

آل محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أسوة بأخواتها اللواتي سرن على ذلك من قبل، فهو عبد لسلطانه، وأسير لشيطانة. ومهما كانت مكانته التي احتلها من علم الاجتماع المعاصر أو غيره من العلوم فإن رأى ابن خلدون هذا لا ينبعث إلا عن جهل، أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق، وأسوأ ألوان الجهل جهل مواقف آل محمد في الدفاع عن الإسلام، و تقانيهم في نشر تعاليمه و تعليم الناس أحكام الإسلام و فرائضه، و محاربة ذوى العقائد الفاسدة، و قيامهم بتعليم الأمة مستمدين من الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم بما لا مجال للشك في ذلك، و لكن ابن خلدون لتعامله نقل كثيرا من الأشياء مبتعدا عن طريق الواقع، و قد صبها في قالب رغباته، و تساهل في إبداء الحقيقة، و جعلها في طيات الخفاء و الكتمان. و ابن خلدون إذا كان أسير عقدة تتحكم فيه و تقض مضجعه ساع إلى السلطة و باحث عن المجد لا يهدأ عن سعيه في سبيل الحكم و الانضمام إلى السلاطين، فكيف له أن يحتل موقعا لدى الملوك و سلاطين الزمن إذا ترك لعقله الحرية و لنفسه الخيار في قول الحق «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي». و كيف يمكن أن يخالف مذهب الحكام و يعمل على استخلاص الحقيقة و بحث دوافع العدا لآهل البيت عليهم السلام؟ فهو في نظر علم الاجتماع نتاج بيئة و محيط فقي كما نشأ؟ و لكن العالم من ينتزع نفسه و يخلصها مما يراه قاهر التأثير و جبرى النتيجة ليستطيع أن يقدم للناس مادة علمه بتجرد و تكون نظرتة بالغة الوضوح تحمل شواهد صحتها. ذلك في مقابل النظرة العصرية لابن خلدون و مكانته في علم الاجتماع اليوم. أما النظر إلى ابن خلدون من خلال الواقع و الحكم عليه من حقائق سيرته و وقائع تاريخه فهو من رجال العصور الذين أذعنوا للحكام و شاركوهم و ساندوهم في محاربة أهل البيت أو الغض من مكانتهم و النيل منهم و لقد كان ذلك سبيل من طمع في متاع الدنيا و عطاء الحكام فحسب، فكيف و الحال مع ابن خلدون و هو يجوب الأقطار من أجل رغبته في الحكم نفسه؟!

## المذهب الجعفرى و الدولة العباسية:

### إشارة

كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجىء المفكرين إلى كبت الشعور، و تلجم الألسن عن قول الحق، و من التجأ إلى المعارضة فقد عرض نفسه إلى السخط و جعلها هدفا

للقمة، وبذلك ضاعت أكثر الحقائق، وأثرت تلك السيطرة على سير المسلمين وتقدمهم لعدم الحرية فى الرأى والعقيدة، ولولا ذلك لما حدثت تلك الحوادث التى أخرجت المسلمين. لقد كان أولئك الحكام يعمدون دائما إلى خلق مشكلات يفرقون بها كلمة الأمة، و يثيرون الشحاء و يشغلون الأفكار، لاستخدام الأكثر لمصالحهم الذاتية، وقد أجهدوا أنفسهم فى ربط العقائد فى دستورهم الذى يتمشى مع رغباتهم، وإن أهم مشكلة فى تاريخ الإسلام هى مشكلة الخلافة أو الاعتقاد بالإمامة بأنه منصب إلهى كالنبوة. فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة و يؤيده بالمعجزة التى هى كنص من الله عليه فكذلك يختار للإمامة من يشاء و يأمر نبيه بالنص عليه، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم مبلغ عن الله و الإمام مبلغ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. و الشيعة تعتقد أن تلك المنزلة لم تحصل إلا لعلى و ولده و الإمامة متسلسلة فى اثنى عشر إماما كما نص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك. و لا ترى تلك الخلافة الإلهية لغير على و بنه عليهم السلام، و لا يسعنا التعرض لبحث الإمامة و لكننا نريد الإشارة بهذه العجالة إلى الأدوار التاريخية التى سار فيها شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى المحافظة على وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التمسك بالكتاب و العترة. و قد قام أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى نشر تلك الدعوة فى الصدر الأول و تحملوا ما تحملوا فى سبيل ذلك، و مر ذكر الدور الأموى و ما لقى فيه آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم و شيعتهم من الاضطهاد و المحنة فلا نتعرض للبيان بأكثر من ذلك. و كان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة النطاق و النهضة العلمية التى ازدهرت فى عصر الإمام الصادق عليه السلام هو انتشار مذهب أهل البيت فى الأقطار الإسلامية. و كانت الدولة العباسية فى طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب من وراء الستار، إذ ليس فى إمكانها التظاهر فى المعارضة، لأنهم فى حاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت و الاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركان الدولة. و لم يكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق عليه السلام و التاريخ يدلنا بوضوح على ذلك.

أما مالك بن أنس فقد كان في حياة الإمام الصادق عليه السلام كأحد رجال المدينة، ولم ينتشر ذكره إلا بعد سنة 148 هـ- وهي سنة وفاة الإمام الصادق، وكان ضربه بالسياط وإهانته في سنة 146 هـ- أي قبل وفاة الإمام الصادق بأقل من سنتين، وبعد سنة 148 هـ- وجه المنصور نظره نحو مالك وأمره أن يضع كتابا يحمل الناس عليه ويوزع منه نسخا في الأمصار ولا يكون غيره. وكان غرض المنصور من ذلك هو معارضة انتشار مذهب أهل البيت، لأنه يثقل عليه تخليد ذكر جعفر بن محمد عليه السلام وقيام ولده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بعده والتفاف الناس حوله حتى لقبوه بالعالم وهو هو في زهده ورعه وعلمه. لم يرغب عن مالك مغزى هذا التكليف فأجابه: يا أمير المؤمنين لا- تفعل؛ أما هذا الصقع فقد كفيته، وأما الشام ففيه الرجل الذي علمته-يعني الأوزاعي، وأما أهل العراق فهم أهل العراق. فكان المنصور يشد أزر الأوزاعي ويرأسله ويلحظ مالكا ويواصله حتى ازدحم الناس على باب داره التي أصبحت كأبواب دور الملوك. وبذل جهده بالانتصار إلى أهل الرأي وهو يأمل من وراء ذلك كله تغليب مذهبه على مبادئ أهل البيت، ولما اشتد جانب الدولة وقوى ساعدها، أظهر المنصور ما كان يضمرة، فأعلن مقاومة أهل البيت ومعارضة انتشار مذهبهم، وشدد النكير على أهله.

### معارضة المنصور و الرشيد للمذهب:

و كان المنصور يأمل بالإمام أبي حنيفة عند ما رعاه بعنايته ونصره وقدمه على كثير من الفقهاء أن يوجد منه شخصية علمية تقف أمام انتشار مذهب جعفر بن محمد عليه السلام ولكنه قد خاب أمله، فهذا الإمام أبو حنيفة يصرح للملأ بأنه ما رأى أعلم من جعفر بن محمد عليه السلام وأنه أعلم الأمة (1). وسأله رجل يوما عن رجل وقف ماله للإمام فمن يكون المستحق؟ فأجاب أبو حنيفة: المستحق هو جعفر الصادق لأنه هو الإمام الحق (2).

ص: 237

1-1) جامع مسانيد ابن حنيفة ج 1 ص 222.

2-2) تاريخ العلويين محمد أمين غالب ص 140. [1]

وذهبت تلك المحاولات فاشلة، ولم يزل المذهب الجعفرى يتسع فى الأقطار وينتشر فى العواصم، وكثر أتباعه رغم تلك المحاولات و الخطط التى خطها المنصور و من بعده المهدي و الهادي و الرشيد. وقد بذل الرشيد كل ما فى وسعه لتحويل أنظار الناس عن آل محمد، و أظهر تعظيم مالك بن أنس، فكان يجلس بين يديه تأدبا يتعلم منه العلم، و يأمر أولاده و خواصه باحترامه. و كان يقرب الفقهاء و ينظر إلى الشافعى نظر عطف و حنان لأنه قرشى، و أرسله إلى مصر صحبة الوالى، و أمره باحترامه و إكرامه، و تقريب أصحابه و أعطاه سهم ذى القربى. فيما عامل أهل البيت بالشدة و القسوة، من تتبع أنصارهم، و القضاء على من اتهمه فى موالاتهم، حتى ثقل عليه أن يكون على بن أبى طالب عليه السلام رابع الخلفاء، فحاول أن ينفى ذلك و يعاقب من يثبتته. قال أبو معاوية: دخلت على هرون الرشيد فقال لى: يا أبا معاوية هممت بمن أثبت خلافة علىّ فعلت به و فعلت. قال أبو معاوية: فسكت فقال لى: تكلم. قلت: إن أذنت لى تكلمت. قال: تكلم. فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول الله. و قالت عدى: منا خليفة رسول الله. و قالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء، فأين حظكم يا بنى هاشم من الخلافة؟ و الله ما حظكم إلا ابن أبى طالب (1) و بهذا استطاع أبو معاوية أن يصرف الرشيد عن رأيه. و استعمل فى معاملة أهل البيت ما لا يستعمله أحد و فيه صباة من الرحمة، لقد سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام و هو عالم عصره، و من له السلطة الروحية و ضيق عليه حتى قتله بالسم، و بذلك أنزل بالمسلمين خسارة فادحة إذ لم يتهياً لهم الاتصال بالإمام و الأخذ من علومه و آرائه إلا فى مدة قليلة، و تتبع بقية أهل البيت و شيعتهم، و طلبهم تحت كل حجر و مدر، و كان بحكم السياسة العمياء التى لا تعرف إلا غايتها، و لا تفرق بين الحق و الباطل، و لا ترى سوى السيطرة على الناس بأى

ص:238



طريق و بأى نوع كان، فإنه قد حمل الناس على العداء لآل محمد، و حاول قلع بذرة حبههم التي غرسها الرسول، و سقاها بماء غديره العذب، تلك البذرة الطيبة التي أينعت فأثمرت و جنى ثمرها رجال العلم، و صلحاء الأمة، رغم تلك المحاولات و الجهود الجبارة التي بذلها العباسيون، و هم يطلبون من وراء ذلك استقرار ملكهم بالوراثة الشرعية، بادعائهم الخلافة دون آل علي بن أبي طالب عليه السّلام. دخل شريك القاضي علي المهدي. فقال له المهدي: ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين، قال: و لم؟ قال: لخلافك على الجماعة. و قولك بالإمامة. فقال شريك: أما قولك بخلافك على الجماعة، فعن الجماعة أخذت ديني فكيف أخالفهم و هم أصلى في ديني؟ و أما قولك بالإمامة، ما أعرف إلا كتاب الله و سنة رسوله. و أما قولك: مثلك ما يقلد في الحكم فهذا شيء أنتم فعلتموه، فإن كان خطأ فاستغفروا الله منه. و إن كان صوابا فامسكوا عليه. قال الرشيد: ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال فيه جدك العباس و عبد الله، قال: و ما قال فيه؟ قال: فأما العباس فمات و علي عنده أفضل الصحابة، و كان يرى كبراء المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، و ما احتاج هو عليه السّلام إلى أحد حتى لحق بالله. و أما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين. و كان في حروبه سيفا منيعا و قائدا مطاعا، فلو كانت إمامته على جور، كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه و فقهه في أحكام الله، فسكت المهدي و لم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلا حتى عزل شريكا (1).

### تغلب المذهب الجعفرى:

و على أى حال فقد تغلب المذهب الجعفرى على سائر الأقطار الإسلامية فكانت له في بغداد من القوة و النشاط ما استطاع أن يقاوم الدولة التي ما برحت تطارد الشيعة و تناصر خصومهم، و لكنهم ثبتوا في وجه الطغيان بكل ثبات، و أقاموا شعائرهم الدينية بدون خفاء و تكتم، و كانت الدولة تعد هذا التظاهر تهديدا و خطرا عليها. و في أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفرى في جميع الأقطار بل امتدت

ص: 239

دعوة التشيع إلى رجال الدولة أنفسهم، فكان منهم الوزراء والأمراء وقواد الجيش والكتّاب، ورؤساء الدواوين، الأمر الذي دعا المأمون إلى التظاهر بالتشيع، والميل إلى العلويين، لأنه خشى على زوال ملكه فدعا الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام إلى البيعة، والتنازل عن العرش، ولكن الإمام رد هذه الدعوة علما منه بأنها مفتعلة، ولكنه تقادى إيقاع نفسه في التهلكة بقبول ولاية العهد قبولاً شكلياً لا أكثر ولا أقل. وقبل ولاية العهد بعد أخذ ورد وأكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة في الإمامة، وقد نجح بما دبره في سياسته ودهائه، إذ استمال قلوب الشيعة وأمن ثورة العلويين المتوقعة، وفاخر علماء الأديان الأخرى بالرضا وعلوم الرضا عليه السلام. وفي أيام المعتصم التجأ الشيعة إلى التكتّم نوعاً ما، ولكننا نراهم يخرجون على الدولة بعدة كاملة، وقوة لم تستطع الدولة معارضتها، وذلك عند ما استخرجوا جنازة الإمام الجواد عليه السلام في سنة 220 هـ-عند ما حاول دفنه سرا، ولم يسمح لأحد في تشييعه، ولكن الشيعة خرجوا بذلك الموكب المهيب الذي يربو عدده على اثني عشر ألف والسيوف على عواتقهم، فشيّعوا جنازة الإمام رغم معارضة السلطة.

### قوة المعارضة أيام المتوكل:

واشتد الأمر وعظمت المحنة في أيام المتوكل العباسي، فكان بغض الإمام على عليه السلام وشييعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطب، وكان لا يذوق طعم الراحة ولعلى عليه السلام ذكر في الوجود، ولشييعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته، مستقل بمواهبه، منفصل عن الدولة. وقد تتبع العلويين وخط من كرامة أهل البيت. ولم يسمح لأى أحد أن يذكرهم بخير. ويدلنا على شدة بغضه و تحامله أن نصر بن على الجهضمي حدث بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أخذ بيد الحسن والحسين وقال: (من أحبني و أحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة)، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط إلى أن كلمه جعفر بن عبد الواحد بأن نصرا لم يكن شيعياً وإنما هو من أهل السنة، فضرب خمسمائة سوط وعفى عن الباقي (1).

ص:240

ويحدثنا المقرئ: أن يزيد بن عبد الله أمير مصر، أمر بضرب جندي تأديبا لشيء صدر منه، وعند ما أحس الجندي بألم الضرب، أقسم على الأمير بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه، فأمر الأمير بضربه ثلاثين سوطا جزاء لهذا القسم، وكتب إلى المتوكل في بغداد يخبره بخبر الجندي، فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مائة سوط و حمله إلى بغداد (1). ولعل النطع والسيف كانت خاتمة المطاف لذلك الجندي، وأمر بضرب أحمد بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ألف سوط، لاتهامه بسب الشيخين حتى مات، قال في الحضارة الإسلامية نقلا عن المنتظم: وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيا لمذهبه لم تذكر اسم علي، بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر. وما أكثر من عوقب بهذه الوسيلة. ولكن أنصار المتوكل وحزبه الذين يرون البغض لعلي وشيعته يقربهم إليه زلفا. نالوا بذلك إربهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة. وخلاصة القول أن المتوكل اشتد في العدا لأهل البيت والنيل منهم، حتى دفعه حقه إلى هدم قبر الإمام الحسين وهدم المشهد الشريف. واستقدم أبا الحسن الهادي عليه السلام من المدينة إلى سامراء في سنة 236 و عامله بالشدة والأذى، وتوصل المنحرفون عن آل علي إلى إساءة الإمام الهادي عليه السلام فسعوا به إلى المتوكل وأخبروه أن في منزله سلاحا وكتبا من شيعته، فهجموا على داره ليلا ولم يعثروا على أي شيء من ذلك، وما زال الإمام الهادي عليه السلام مقيما في سامراء إلى أن مات مسموما سنة 254 هـ، وكانت مدة إقامته فيها 18 سنة.

### الشيعنة و نصرة أهل البيت:

ومرت الأدوار، وتعاقبت الأيام، والشيعنة يلاقون الأذى ويخوضون غمار الحروب ويواجهون المصاعب، ويتجرعون من ولاة الأمر ضروب المحن، كل ذلك في سبيل نصرة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونشر مذهبهم على وجه البسيطة، وما دفعهم إلى تحمل ذلك إلا حبهم لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وامتثالهم لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المحافظة عليهم وصاياهم المتكررة باتباعهم.

ص: 241

و لقد بذل الشيعة كل ما فى وسعهم لنصرة أهل البيت الذين عنهم يأخذون تعاليم دينهم، و كانوا فى هذه الأدوار يتصلون بمدرسة أهل البيت مهما كلفهم الأمر، فلا يقعد بهم خوف ظالم، و لا تحول دونهم و دون الاتصال بهم تلك الإرهابات التى اتخذها أعداء آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم وسيلة لفصل الأمة عنهم، فهم من زمان على عليه السلام إلى زمان الإمام الحسن العسكرى يأخذون عنهم معالم الدين حتى وقعت الغيبة الصغرى. و سيأتى بيان ذلك عند ذكرنا للنهضة العلمية عند الشيعة بعد عصر الأئمة عليهم السلام. و كان الإمام العسكرى قد جلبه المتوكل مع أبيه على الهادى عليه السلام إلى سامراء، و ما زال مع أبيه إلى أن التحق أبوه بالرفيق الأعلى و بقى العسكرى مدة إمامته القصيرة فى سامراء (ست سنين) فى نكد و أذى، و انفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الإساءة و الغضب من مقامه، و التضيق عليه و السجن إلى أن اغتاله المعتمد العباسى بالسلم فى سامراء لثمان خلون من ربيع الأول سنة 260 هـ- و دفن مع أبيه فى دارهما حيث قبرهما الآن، و كان عمره الشريف ثمان و عشرين سنة. و فى ذلك العهد كان مذهب أهل البيت ينتشر فى البلاد الإسلامية، و أصبحت قم من عواصم العلم للشيعة و فيها من رواة الحديث أهل البيت عدد كثير، و من المؤلفين فى الحديث و الفقه و فنون العلم جم غفير، و كذلك الكوفة و بغداد و المدائن و سامراء و الشام عاصمة الأمويين كما سيأتى بيانه. و إن تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت، لا لتحزب أو تعصب، و لا لطعن فى مذاهب المسلمين أو حط من كرامة أحد من أئمة المذاهب، و لكن الأدلة الشرعية أخذت بأعناقهم، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت لحكم الأدلة القاطعة و تعبدًا بسنة سيد النبيين صلى الله عليه و آله و سلم. و لو وجدوا طريقًا للأخذ عن غيرهم لاتبعوه، و لم يتحملوا المحن فى سبيل اتباعهم، و لكن لا- طريق إلى ذلك بل وجدوا الحق معهم و الحق أحق أن يتبع، و لأنهم عليهم السلام كانوا يمثلون الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى خلقه و هديه و ورعه و زهده، فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمثلون أوامره و يسارعون إلى تنفيذه، و اطلعوا على أسرار أحكامه، و دقائق أطواره و القرآن قد أشاد بفضلهم كثيرًا. و لقد بذلوا جهدهم فى هداية الناس، كما بذلوا لهم النصح ليرشدوهم إلى طرق السعادة، و قد نشروا العلم و العدل، و قاوموا الجهل و الظلم، و ليس هذا مجرد فرض و إنما هو أمر واقع و حقيقة ظاهرة لا يمكن إنكارها، و وجد الناس فيهم أئمة هدى:

«لا- يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثيرة ورعاته قليل». . وهم أهل بيت النبوة و موضع الرسالة و مهبط الوحي، و لم تسمح الأدلة بمخالفتهم و الأخذ عن غيرهم. و هم عدل القرآن و سفينة نوح باتباع علم الهداية و الرشاد.

### أحاديث النبي في أهل البيت:

وقد صرح النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم بوجوب اتباعهم و التمسك بهم في مواطن عديدة، و اشتهر حديث الثقلين كالشمس في رابعة النهار و حديث: «مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجي و من تخلف عنها غرق و هوى» من الأحاديث الثابتة التي أيدها الرواة و تناقلتها كتب التاريخ. أخرج أحمد في مسنده و الطبراني في مسنده بالإسناد إلى ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «من سره أن يحيى حياتي و يموت مماتي و يسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول عليا من بعدى و ليوال وليه، و ليقتد بأهل بيتي من بعدى، فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، و رزقوا فهمي و علمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين صلتي لا أنالهم الله شفاعتي». . و أخرج ابن حجر في صواعقه قال: قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين و انتحال المبطلين. و تأويل الجاهلين، ألا و إن أئمتكم و فدكم إلى الله فانظروا من توفدون». . و أخرج جماعة من الحفاظ عن أبي ذر الغفاري قال: قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «فلا تقدموهم فتهلكوا و لا تقصروا عنهم». . و قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد و مكان العينين من الرأس و لا يهتدى الرأس إلا بالعينين». . و قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «أوصى من آمن بي و صدقتي بولاية علي بن أبي طالب فمن تولاه فقد تولاني، و من تولاني فقد تولى الله، و من أحبه فقد أحبني و من أحبني فقد أحب الله، و من أبغضه فقد أبغضني و من أبغضني فقد أبغض الله». .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «اللهم من آمن بي وصدقني فليتول علي بن أبي طالب فإن ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله». و أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: ما أنزل الله آية و فيها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا وعلَى رَأْسِهَا و أميرها. و أخرج عن حذيفة قال: قالوا: يا رسول الله أ لا تستخلف عليا؟ قال: إن تولوا عليا تجدوه هاديا مهديا يسلك بكم الطريق المستقيم (1). و أخرج بطريق آخر عنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: إن تستخلفوا عليا و ما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا يحملكم على المحجة البيضاء. و أخرج النسائي في الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قال: ما تريدون من علي؟ إن عليا مني و أنا منه و هو ولي كل مؤمن من بعدى (2). و أخرج أيضا من طريق أم سلمة قالت: سمعت رسول الله يقول: من سب عليا فقد سبني (3). و أخرج عن حبشي بن جنادة السلولي قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: علي مني و أنا منه فلا يؤدي عني إلا أنا أو علي. و أخرج الحاكم من طريق أبي ذر عن النبي أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله و من أطاع عليا فقد أطاعني و من عصى عليا فقد عصاني». و أخرج أيضا من طريق أبي ثابت مولى أبي ذر عن أم سلمة عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أنه قال: «علي مع القرآن و القرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا على الحوض» (4). و عن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن أفضى أهل المدينة على بن أبي طالب. و عن أبي هريرة قال: قال عمر بن الخطاب: لقد أعطى علي بن أبي طالب

ص: 244

1-1 (1) الحلية ج 1 ص 64. [1]

2-2 (2) الخصائص ص 32.

3-3 (3) نفس المصدر ص 24.

4-4 (4) انظر المستدرک ج 2 ص 122. [2]

ثلاث خصال لئن تكون لي خصلة منها أحب إليّ من أن أعطى حمر النعم. قيل: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: تزويجه فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وسكناه المسجد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يحل فيه ما يحل له. وأخرج الحاكم أيضا قال: كنا مع رسول الله فانتظعت نعله فتخلف على يخصفها فمشى قليلا ثم قال: إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر. قال أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا ولكن خاصف النعل. يعنى عليا فأتيناه و بشرناه فلم يرفع رأسه كأنه سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم (1). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: فأين تذهبون وأنى تؤفكون والاعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون؟ وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق، وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاشى. أيها الناس خذوها من خاتم النبيين انه يموت من مات منا و ليس بميت و يبلى من بلى منا و ليس ببلى، فلا تقولوا بما لا تعرفون فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعدروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو، أ لم أعمل فيكم بالثقل الأكبر و أترك فيكم الثقل الأصغر، وركزت فيكم راية الإيمان؟ وقال عليه السلام: انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، و اتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم فى ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، و لا تسبقوهم فتضلوا، و لا تتأخروا عنهم فتهلكوا. وأخرج الحاكم عن الكنانى قال: سمعت أبا ذر يقول و هو أخذ بباب الكعبة: من عرفنى فقد عرفنى و من أنكرنى فأنا أبو ذر. سمعت رسول الله يقول: «مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجى و من تأخر عنها غرق». و أخرج البخارى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: لقينى كعب بن عجرة فقال: أ لا أهدى لك هدية سمعتها من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقلت بلى، فأهدها، قال: سألنا

ص: 245

1-1) انظر المستدرک و لهذه الأحاديث طرق كثيرة ذكرها الحفاظ يمكن مراجعتها.

رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وعن ابن عباس -أخرجه الترمذي- قال: قال رسول الله: أحبوا الله لما يغذوكم به وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي. وعنه أيضا قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: لو أن رجلا صفَّ بين الركن والمقام، فصلَّى وصام، ثم لقي الله مبغضا لأهل بيت محمد دخل النار (1). وعن أبي سعيد الخدري قال قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: من أبغضنا أهل البيت فهو منافق. وعن أبي سعيد أيضا قال: قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله النار (2). و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن عمار بن ياسر قال: وقف على على سائل وهو راع فى تطوع فأعطاه خاتمه فنزلت إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الآية [المائدة: 55]. و أخرج السيوطى عن ابن عباس أنها نزلت فى على، و أخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله، و أخرج أيضا عن على عليه السلام، و أخرج ابن جرير مثله، و لهذا شواهد كثيرة لا يمكن إنكارها. و سيأتى مزيد بيان حول هذه الآية و غيرها فى الأجزاء الآتية. و على كل حال فالأخذ عن أهل البيت بموجب هذه النصوص و غيرها التى لا يسعنا حصرها لازم شرعا، و الرجوع لغيرهم لا- يحصل معه صحة العمل. و نحن مع احترامنا للمذاهب الأربعة، لا نستطيع أن نتخطى أوامر الرسول فى اتباع آله و وجوب الأخذ عنهم، و لنا بحديث الثقلين و حديث الغدير و آية التطهير، و آية الموالاتة كفاية لبراءة الذمة و صحة العمل بمذهبهم عليهم السلام، و لو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت، أو تهيأ لنا إيثار غيرهم عليهم أو تمكنا من تحصيل نية القرية فى مقام العمل على مذهب غيرهم لاتبعناه، على أنه لا دليل للجمهور فى

ص: 246

1- 1) انظر ذخائر العقبى لمحب الدين الطبرى.

2- 2) إحياء الميت للسيوطى.



رجحان شيء من مذاهبهم فضلا عن وجوبها، وكيف لا وأئمة المذاهب أنفسهم قد أخذوا عن أهل البيت، وجعلوا ذلك فخرا لهم وسببا لنجاحهم، فهذا الإمام أبو حنيفة كان يأخذ بأقوال علي عليه السلام حتى جعلوا ذلك من مرجحات مذهبه على غيره من المذاهب لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» (1) ذكر ذلك المقدسي في أحسن التقاسيم. وكان أبو حنيفة يفتخر بالأخذ عن الصادق عليه السلام ويقول: «لو لا الستتان لهلك النعمان». ونرى مالك بن أنس وهو أحد تلاميذ الصادق، وعنه أخذ الشافعي وأخذ أحمد بن حنبل عنه، وكان الشافعي لا يروى إلا عن علي عليه السلام ولذلك اتهموه بالتشيع فافتخر بذلك قائلا: أنا الشيعي في ديني وأصلي بمكة ثم دارى عسقلية

بأطيب مولد وأعز فخر وأحسن مذهب يسمو البرية

(2) ورماه يحيى بن معين بالرفض وقال: طالعت كتابه في السير فوجدته لم يذكر إلا علي بن أبي طالب وقد أظهر الشافعي ذلك في قوله: ياراكبا قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرائض

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

وكذلك الإمام أحمد كان يفضل عليا على الصحابة، وسئل يوما عن أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، قيل فعلى؟ قال: سألتهموني عن أصحابه وعلي نفس محمد. إلى غير ذلك مما يطول ذكره، على أنا نجد أهل المذاهب متفرقين كل يذهب إلى رجحان مذهبه وبطلان غيره، ويقدم كل فريق أدلة للغلبة والظهور على الآخر، ولسنا بصدد البحث عن ذلك، ولكن الغرض أن أخذ الشيعة عن أهل البيت إنما هو لدلالة الكتاب والسنة، ويرون ضرورة الأخذ بأصول الدين وفروعه عنهم، فهم سفن

ص: 247

1-1) لهذا الحديث طرق كثيرة يتجاوز عددها المائة.

2-2) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص 51.

النجاة و أمان الأمة، و باب حطة من دخله كان من الآمنين، و العروة الوثقى التى لا انفصام لها، و أحد الثقلين لا يضل من تمسك بهما و لا يهتدى من ضل عن أحدهما. و قد أشرنا للأسباب التى دعت لمقاومة مذهبهم من قبل ذوى النفوذ و السلطة بأوهام حاولوا تركيزها بدون إقامة دليل شرعى، و لا برهان عقلى. و قد سرت تلك الأمور المرتجلة يتلفها السذج فما عن فم، و يتوارثونها جيلا عن جيل كقضية مسلمة، و الحق أنها شبه و أوهام تناقلتها الألسن، و ساعدتها الظروف و الأحوال فصعب هجرها. و مع هذا كله فإن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح فقد انتشر المذهب بصورة واسعة النطاق متجاوزا أوامر الحكام و متخطيا حدود قوتهم إذ لم تنفع قسوتهم فى دفع الناس عن آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و لم تثمر سياساتهم الجائرة فى تحويل الأمة عن الأصول الكبرى و المنابع الأولى. و هنا أمر آخر لا بد من توضيحه: هو ان تلك المعارضات التى أجهد الساسة أنفسهم فى تركيزها، و آزرهم على ذلك مرتزقة باعوا ضمائرهم بأبخس الثمن، إنما كانت بعيدة كل البعد عن الواقع، و لا تجد من أولئك المتشدين بدم الشيعة و الحط من كرامة أهل البيت من أقام دليلا منطقيا يستطيع أن يغطى به باطله و يستر به أكاذيبه، و إنما هم يتحمسون للظلم و يهرجون لدعاته، و الحقيقة بعيدة عنهم، و الدين يتبرأ مما قالوه. و نسبوا إلى الشيعة أمورا كثيرة، لا يسعنا عرضها الآن، حتى أنهم نسبوا إليهم القول بالوهية الأئمة، و هذا نهاية الحمق و غاية الجنون، و إن الاعتدال فى القول خير من التهور، و من اعتدل فكره اعتدل قوله. من أين أخذوا ذلك عن الشيعة و بأى دليل يثبتونه؟ نعم حملهم بغض الشيعة و التحامل على أهل البيت على إضافة طوائف الغلاة إلى الشيعة المخلصين و حاولوا ربط عقائدهم بعقائد الشيعة، مع الفرق البين و عدم إمكان ذلك إلا أن يظلموا الحقيقة، بتجرئهم على أهل البيت بنسبة الغلاة إلى أتباعهم، و هنا يلزمنا التعرض لذكر موقف الأئمة من التبرؤ من هذه النسبة و معاملة الشيعة لتلك الفرق.

## موقف أهل البيت من الغلاة

إن أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم وإضافتها إليهم؛ ولقد كان الحكام وزبائنتهم وراء نشاط تلك الفرق الضالة و مؤازرتهم بالسياسة، وسهلت لهم الطرق ليصلوا إلى غايات في نفوسهم من الويعة في الشيعة، والحط من كرامة أهل البيت، إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينتقصوهم بشيء، والأمر واضح كل الوضوح؛ فإن مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتعاليمهم هي المحور الذي يدور عليها نظام الإسلام فكان دخول الغلاة في صفوف الشيعة عبارة عن حركة سياسية أوجدتها عوامل من جهة، والفتك بالإسلام من جهة أخرى، لأن دخول الغلاة في الإسلام كان انتصاراً لمبادئهم، إذ لم يجدوا طريقاً للانتقام من الإسلام إلا باختراع المغالطات في بعض العقائد الإسلامية عند ما عجزوا عن مقابله بالقوة وجهاً لوجه، وانهزموا أمام قوم وطئوا أرضهم بأقدام لا تتأخر خطوة إلى الوراء إما الموت أو الفتح، فأذلوا عزيزهم، وأسروا ذراريهم، وأخذوا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون. وقد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة، وعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء الكفرة إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، واتضح لهم غايات خصومهم الذين يريدون أن يوقعوا بهم، فكان أهل البيت عليهم السلام يعلنون للبراءة من الغلاة وجاهروا بلعنهم، وأمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم والابتعاد عنهم، وتلقى الشيعة تلك الأوامر الشريفة بالقبول والامتنان، فاعلنوا البراءة و ملأوا كتبهم من التبري منهم، وأفتوا بحرمة مخالطتهم، وأجمعوا على نجاستهم وعدم جواز غسل ودفن موتاهم وتحريم إعطائهم الزكاة، ولم يجوزوا للغالي أن يتزوج المسلمة، ولا المسلم أن يتزوج الغالية، ولم يورثوهم من المسلمين وهم لا يرثون منهم. وكان الإمام الصادق عليه السلام يلعن المغيرة بن سعيد ويصرح بكذبه وكفره، ولعن أبا الخطاب وأصحابه وجميع الدعاة إلى المبادئ الفاسدة، وكان هذا الإعلان من الإمام الصادق عليه السلام قد أوقف سريان دائها القاتل، ولم يبق من تلك الفرق إلا الاسم في التاريخ وبادت بمدة قصيرة.

وقال عليه السلام لمرازم: قل للغالية توبوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون، وقال عليه السلام له: إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيرى و قل له يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق أنا برىء منك. قال مرازم: فلما قدمت الكوفة قلت له يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا برىء منك، قال بشار: وقد ذكرنى سيدى. قلت: نعم ذكرك بهذا، قال: جزاك الله خيرا. ولما دخل بشار الشعيرى على أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال له: أخرج عنى لعنك الله، والله لا يظلمنى وإياك سقف أبدا، فلما خرج قال عليه السلام: ويله ما صغر الله أحدا تصغير هذا الفاجر، إنه شيطان ابن شيطان خرج ليغوى أصحابى وشيعتى فاحذروه، وليبلغ الشاهد الغائب أنى عبد الله وابن أمته ضمتنى الأصباب والأرحام، وإنى لميت ومبعوث ثم مسئول. وكتب الإمام الحسن العسكرى عليه السلام ابتداء منه إلى أحد مواليه: إنى أبرأ إلى الله من ابن نصير الفهرى وابن بابه القمى فأبرأ منهما، وإنى محذرك وجميع موالى، ومخبرك أنى ألعنهما عليهما لعنة الله، يزعم ابن بابا أنى بعثته نبيا وأنه باب، ويله لعنة الله سخر منه الشيطان فأغواه فلعن الله من قبل منه، يا محمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل. وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام يوما لأصحابه: لعن الله المغيرة بن سعيد لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبى، وإن قوما كذبوا على ما لهم! أذاقهم الله حر الحديد، فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا ما تقدر على ضرر ولا نفع إلا بقدرته، إن رحمتنا فبرحمته، وإن عذبتنا فبذنوبنا، ولعن الله من قال فىنا ما لا نقول فى أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذى خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبه نواصينا. وقال عليه السلام: إن أبا منصور كان رسول إبليس: لعن الله أبا منصور، قالها ثلاثا. وقال عليه السلام: إنا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد أن يسقط صدقتنا بكذبه علينا، ثم ذكر المغيرة وزيغ والسرى وأبا الخطاب، ومعمربشار الشعيرى وحمزة اليزدى وصائد النهدى، فقال: لعنهم الله أجمع وكفانا مئونة كل كذاب.

و عن حمدويه قال: كنت جالسا عند أبي عبد الله و ميسرة عنده فقال له ميسرة: جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون إلى هذا الموضوع فانقطعت أخبارهم و آثارهم و فنيت آجالهم. قال عليه السلام: و من هم؟ قلت: أبو الخطاب و أصحابه، فقال عليه السلام- و كان متكئا و رفع بنظره إلى السماء:- على أبي الخطاب لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، فأشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك، و أنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب. و ذكر عنده أصحاب أبي الخطاب و الغلاة فقال عليه السلام: لا- تقاعدوهم، و لا- تواكلوهم، و لا تشاربوهم، و لا تصافحوهم و لا توارثوهم (1). و قال عليه السلام: إن من الغلاة من يكذب حتى إن الشيطان يحتاج إلى كذبه. و قال عليه السلام: إن قوما يزعمون أنى لهم إمام، و الله ما أنا لهم بإمام ما لهم لعنهم الله! أقول كذا و يقولون كذا، إنما أنا إمام من أطاعنى، و من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله، و من شك في ذلك فعليه لعنة الله (2). هذا بعض ما ورد في الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد إلحاقهم بالشيعة لغاية الحط من كرامة المبدأ، و ليظهروهم للملأ بأبشع المظاهر و أشنعها، و يعلنوا للعالم أن الشيعة يعتقدون في الأئمة الألوهية، فلا يصلح عداهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم و تنهب أموالهم، و كم حدثنا التاريخ عن تلك الفضائح السود؛ و من أراد أن يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فليرجع إلى كتاب «روض الجنان» للشهيد الثاني المتوفى سنة 996 هـ، و «نهج المقال» للميرزا محمد الأسترآبادى المتوفى سنة 1026 هـ و «الانتصار» للسيد المرتضى المتوفى سنة 436 هـ، و «التهذيب» للشيخ الطوسى المتوفى سنة 460 هـ، و «السرائر» لابن إدريس المتوفى سنة 598 هـ و «المنتهى» و «نهاية الأحكام» و «التذكرة» و «القواعد» و «التبصرة» للعلامة الحلى المتوفى سنة 726 هـ، و «البحار» للشيخ المجلسى المتوفى سنة 1011 هـ،

ص: 251

1-1) رجال الكشى ص 190. [1]

2-2) الشيعة فى التاريخ لمحمد حسين الزين ص 178 [2] نقلا عن منهج المقال.

و «الدروس» للشهيد الأول المتوفى سنة 786 هـ، و «جامع المقاصد» للشيخ على الكركى المتوفى سنة 940 هـ و «الشرائع» و «المعتبر» و «المختصر النافع» للمحقق أبي القاسم الحلبي المتوفى سنة 676 هـ و «الجواهر» للشيخ محمد حسن المتوفى سنة 1266 هـ. و غيرها من الكتب الفقهية التي تنص بإجماع على كفر الغلاة و نجاستهم و بعدهم عن الدين و أن لا رابطة بينهم و بين الشيعة. كما أن كتب الرجال طافحة بدمهم و التبرؤ منهم و من معتقداتهم، و يلعنونهم بلغة واحدة. فأملنا بأبناء المستقبل أن لا يركنوا إلى الأوهام و الأباطيل و أن يطلبوا الحقيقة، فالعلم يطلب منهم أداء رسالته، و الحق يدعوهم إلى مؤازرته، فقد آن أن تماط عن العيون غشاوات التعصب التي منعتها من رؤية الحق و أبرزت الواقع معكوسا إذ هي كعدسة المصور فليعتدل الكتاب عن هذه السيرة الملتوية، و ليغيروا خططهم و لغتهم في ذكر الشيعة، و لا يلتفتوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التي جنت على الإسلام جنابة لا تغفر، و ملأوا القلوب بالأحقاد و الضغائن، و نسبوا مبدأ التشيع إلى عبد الله بن سبأ اليهودي، و طعنوا بذلك على أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم الذين عرفوا بتشيعهم لعلي، و يتجاوز عددهم المئات و غيرهم ممن تكتم جريا مع الظروف و متابعة الأحوال، على أن كلمات اللغويين و المفسرين قد أجمعت على أن معنى الشيعة هي الموالاتة لعلي إذ أصبح علما في ذلك.

### عبد الله بن سبأ:

أما عبد الله بن سبأ، ذلك الشخص الوهمي الذي وصفوه بصفات البطولة و الإقدام، و جعلوه صاحب السلطة المطلقة في المجتمع الإسلامي، و قالوا عنه انه استطاع أن يسيطر على أهل مصر و يقود منهم جيشا لقتل الخليفة عثمان، و ان أبا ذر تعلم منه، و عمارا أخذ بأرائه، و حرب الجمل من دسائسه، و وقعة صفين من تصلبه، و مبادئ التشيع من تفكيره. . . و قد ورد ذكره في كثير من الكتب حتى أصبحت قصته و كأنها حقيقة ملموسة و قضية واقعية و هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الإساءة المتحققة من وراء هذه الأكذوبة لا تقتصر على الشيعة و الطعن في أصولها و إنما تشمل صميم حركة الإسلام و رجالاته حيث جعلوا لهذا اليهودي قدرات سحرية تمكنه من قيادة جموع

المسلمين كيف شاء وتوجيه رجال الدين كيف أراد يتلاعب بسلوكها وأفكارها بشكل لا يليق إلا بمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا. والذى يلفت النظر هو أن بعض الشيعة ترجموا له، وذكروه للتبرؤ منه، وأخف عبارة يقولونها فى ترجمته: عبد الله بن سبأ ألعن من أن يذكر. وإذا أردنا أن نرجع لواقع هذه الشخصية، وما لها من صلة فى الواقع وذلك على ضوء البحث الدقيق، فإن النتائج العلمية تثبت لنا عدم ثبوت هذه الشخصية، وأنها أسطورة و حديثها حديث خرافة، وهى من مبتكرات التعصب الطائفى، و دسائس السياسة، للخط من قيمة مذهب أهل البيت، والوقية فى شيعتهم. ولو أن هؤلاء الذين ذكروا عبد الله بن سبأ بتلك الصورة المدهشة، لينالوا من مقام الشيعة، وقفوا قليلا أمام مصادر هذه الأسطورة، و منحوا لها بعض الوقت من التأمل، لا نكشف لهم الواقع و ظهر أن المصدر الوحيد هو الطبرى المتوفى سنة 310 هـ- ولم يسبقه أحد فى ذكرها، و الكل رواها عنه و هو يرويها عن سيف بن عمر بسلسلة مظلمة مجهولة، و سيف قد أجمع علماء الرجال على أنه كذاب، و سيأتى الحديث عن قصة ابن سبأ فى الجزء السادس من هذا الكتاب. و لنصغ الآن إلى حديث الأستاذ كرد على حول مذهب التشيع و علقه ابن سبأ به. يقول الأستاذ كرد على فى خطط الشام: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاته على فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم مثل سلمان الفارسى القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين و الائتنام لعلى بن أبى طالب و الموالاته له. و مثل أبى سعيد الخدرى الذى يقول: أمر الناس بخمس فعلوا بأربع و تركوا واحدة و لما سئل عن الأربعاء، قال: الصلاة و الزكاة و صوم شهر رمضان و الحج، قيل فما الواحدة التى تركوها؟ قال: ولاية على بن أبى طالب. قيل له: و إنها لمفروضة معهن، قال: نعم هى مفروضة معهن. و مثل أبى ذر الغفارى، و عمار بن ياسر، و حذيفة بن اليمان، و ذى الشهادتين خزيمه بن ثابت، و أبى أيوب الأنصارى، و خالد بن سعيد بن العاص، و قيس بن سعد بن عبادة.

و أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن مذهب التشيع من ابتداع عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم و قلة معرفة بحقيقة مذهبهم، و من علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة، و براءتهم منه و من أقواله و أعماله، و كلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه، علم مبلغ هذا القول من الصواب، و لا-ريب في أن أول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له. انتهى (1). و يقول الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رحمه الله حول الغلاة و نسبتهم للشيعة: أما الشيعة الإمامية فيبرءون من تلك الفرق براءة التحريم، على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى بل خلاصة مقالتهم بل ضلالتهم: أن الإمام هو الله سبحانه ظهوراً و اتحاداً أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفة الإسلام و مشاهير مشايخ الطرق، و قد ينقل عن الحلاج و الكيلاني، و الرفاعي، و البدوي و أمثالهم من الكلمات -و إن شئت فسمها كما يقولون شطحات- ما يدل بظاهره على أن لهم منزلة فوق الربوبية، و أن لهم مقاما زائدا عن الألوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) و قريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود. أما الشيعة الإمامية و أعنى به جمهرة العراق و إيران، و ملايين المسلمين في الهند و مئات الألوف في سوريا و الأفغان فإن جميع تلك الطائفة من حيث كونها شيعة يبرءون من تلك المقالات، و يعدونها من أشع الكفر و الضلالات و ليس دينهم إلا التوحيد المحض و تنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق، أو ملاسة لهم في صفة من صفات النقص و الإمكان و التغيير و الحدوث، و ما ينافي وجوب الوجود و القدم و الأزلية، إلى غير ذلك من التنزيه و التقديس المشحونة به مؤلفاتهم في الحكمة و الكلام من مختصرة أو مطولة.

ص: 254



و على أى حال فإن الشيعة براء مما نسب إليها من الغلو، و أما أهل المقالات فى الغلو كالبائية و المنصورية و غيرهم فإن نسبتهم إلى الشيعة ظلم- و ما أكثر الظلم للشيعة- و تهجم على أمة تدين لله بالوحدانية، و لمحمد بالرسالة، و لآله بالمودة. و أستطيع الجزم بأن هذه الأمور لم تخف على أولئك القوم الذين أصبحوا يتهجمون على الشيعة بالطعن فى عقائدهم، إذ نسبوا إليهم هذه المقالات الفاسدة التى يقول بها الغلاة. نعم إنهم يعرفون الأمر و لكن الحق مر لا يمكن أن تتقبله أذواقهم، و لقد أعجزهم الأمر عن مؤاخذه الشيعة و الطعن فى عقائدهم، عند ما وجدوا طرق المؤاخذات أمامهم مغلقة فلا يستطيعون منها النفوذ إلى مقاصدهم، فالتجئوا إلى هذه الخرافات و الأباطيل التى لا تثبت أمام التدقيق و التحقيق. كيف يستطيعون مؤاخذه الشيعة و منهم صحابة الرسول و التابعين لهم بإحسان: كأبى ذر الغفارى، و عمار بن ياسر، و جارية بن قدامة، و جابر بن عبد الله الأنصارى، و حذيفة بن اليمان، و سلمان الفارسى، و صعصعة بن صوحان، و المقداد الكندى و غيرهم؟! و من الغريب أن أكثر الكتاب قد نسبوا لأصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم تأثرهم بآراء ابن سبأ، و أى طعن على الإسلام و على رسوله صلى الله عليه و آله و سلم أعظم من هذا بأن يسيطر يهودى على عقول أصحاب النبى و من تأدبوا بآدابه؛ و إليك ما كتبه بعض كتاب العصر الحاضر عند ذكره لعبد الله بن سبأ و نسبة ظهور التشيع إليه، إذ يقول: إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء، و كان يبث دعوته بخبث و تدرج و دهاء، و استكثر أتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين فى الدين المتطعين فى العبادة إلى أن يقول: و عنى بالتأثير فى أبناء الزعماء من قادة القبائل و أعيان المدن الذين اشترك أبائهم فى الجهاد و الفتح، فاستجاب له من بلهاء الصالحين و أهل الغلو من المتطعين جماعات كان على رأسهم فى الفسطاط الفاقعى بن حرب العتكى، و عبد الرحمن بن عديس البلوى، و كنانة بن بشر بن عتاب، و عبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعى، و عمرو بن الحمق الخزاعى، و عروة بن النباع الليثى، و قتيير السكونى. و كان على رأس من استغواهم ابن سبأ فى الكوفة عمرو بن الأصم، و زيد بن صوحان العبدى، و الأشتر بن مالك بن الحارث النخعى، و زياد بن النصر الحارثى، و عبد الله بن الأصم.

و من البصرة حرقوص بن زهير السعدى، و حكيم بن جبلة العبدى، و ذريح بن عباد العبدى، و بشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسى، و ابن المحرش. أما المدينة فلم يندفع فى هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر. محمد بن أبى بكر، و محمد بن حذيفة، و عمار بن ياسر (1). هكذا يقول، و نبأ إلى الله مما يقول، ليت شعرى أى جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم و وصفهم بهذه الصفة بأنهم مخدوعون بدعوة ذلك الشيطان، و استجابوا لما جاء به هذا اليهودى المزعوم، و هم خريجو مدرسة محمد صلى الله عليه و آله و سلم و دعاة الحق و أتباعه، و لكن الشيطان خدع هذا الكاتب فجاء بهذا الافتراء و هو (يجادل بغير علم و يتبع كل شيطان مرید. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [الحج:4]). و نحن نأمل من كتّابنا الذين يكتبون لذات الحق و لا يميل بهم الهوى، و لا تستولى عليهم النزعات الطائفية، أن يوجهوا عنايتهم لإظهار الحقيقة عند دراستهم لقضية ابن سبأ بأن يدرسوها دراسة مؤرخ لا يتحيز و لا- يتعصب، و لا يقصد إلا خدمة العلم و إظهار الحق، و يقف موقف المدقق على مصادرهما و روايتها و الظروف التى أوجدتها، ليتضح له الأمر، و يتميز الحق من الباطل. و أعود فأقول مؤكداً: إن قضية ابن سبأ أسطورة خرافية أوجدتها عدّة عوامل للحط من تعاليم الإسلام و النيل من رجاله، بأنهم قد تأثروا بأراء رجل يهودى فأوردتهم موارد الهلكة، من دون تمييز و تفكير، إلى غير ذلك مما يؤدى إليه إيجاد هذه الخرافة من مناقضات. هذا مع أن سندها باطل، و روايتها و هو سيف بن عمرو كذاب، و سيأتى التحقيق حول ذلك فى الجزء السادس من هذا الكتاب.

ص: 256

و خلاصة القول أن المذهب الجعفري انتشر بقوته و مقوماته من دون استناد إلى سلطة أو عوامل الترغيب في اعتناقه، وأن أول ظهور الشيعة كان في بلد الحجاز، وهو أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع. وفي المدينة المنورة في القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة، وقد عظم ذلك على من يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت كابن حزم فقد وصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها (1). كما انتشر التشيع في الشام وكان أبو ذر الغفاري هو الذي نشر المذهب هناك، ولا يزال في قرية الصرفند بين صيدا و صور مقام معروف باسم أبي ذر اتخذ مسجدا معمورا. وهم اليوم عدد كثير اشتركوا في إدارة البلاد وشغلوا مناصب مهمة في حكومة سوريا، ومنهم التجار والأطباء، ولهم مركز مهم هناك، وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السلام علنا في عاصمة الأمويين، ويحضرها كثير من أهل السنة، والخطيب يفصح بمخازي معاوية و يزيد و بنى أمية مستتبعا ذلك من التاريخ الصحيح. ويقول ابن جببر في رحلته في وصف المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس: إن الشيعة أكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم. ويقول كرد علي: وفي دمشق يرجع عهدهم (أي الشيعة) إلى القرن الأول للهجرة، وفي أكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل، وفي شمال لبنان و المتن و البترون وهم مهاجرة بعلبك، ولا يقل عدد الشيعة في الشام من الإمامية عن مائتي ألف نسمة (2). أما جبل عامل وهو البلد الواقع بين صنفد جنوبا و نهر الأولى شمالا، وغور الحولة و ما والاها إلى أرض البقاع شرقا، و البحر المتوسط غربا فقد كان بدء التشيع في جبل عامل بفضل الجهود التي بذلها المجاهد في الله أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

ص: 257

1-1) النبذ في أصول الفقه الظاهري لابن حزم.

2-2) خطط الشام لكرد علي ج 6 ص 252. [1]

وانتشر بسبب دعوته، وكانت حركة العلم واسعة حتى اليوم، فالتشيع في لبنان منتشر بكثرة ويسير بكل نظام وهدوء، محفوظ الحقوق، مرعى الجانب، ولهم في جامعة النجف الأشرف جماعة، وتخرج منها عدد كثير من أبطال العلم، وحملة دعوة الإصلاح، ومنهم المجتهدون المجاهدون في نصرة الدين وجمع كلمة المسلمين. ويقول الأستاذ كرد على أيضا: إن في حمص قرى للشيعة خاصة، وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة، وفي أعمال ادلب قرى الغوغة ونبيل وغيرهما، وكلها شيعة وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب، وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم. يشير بذلك إلى الكارثة التي أصابت الشيعة عند ما أفتى الشيخ نوح الحنفى بكفر الشيعة واستباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا، فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفا من الشيعة، وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون إلى القرى. وغلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة ولهم قوة استطاعوا أن يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية وذلك في سنة 517 هـ. وسرى التشيع في إفريقيا بانتشار عظيم، إلى أن قاومته السلطة، يوم كان أمير إفريقيا المعز بن باديس، فإنه فتك بالشيعة فتكا ذريعا وذلك في عام 407 هـ فقد أوقع بهم وقية عظيمة، ونسبوا ذلك إلى سب الشيخين وهي المادة التي يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أى الفرق كان. وذلك أن المعز بن باديس مر على جماعة من الشيعة في القيروان وقد سأل عنهم، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم انصرفت العامة من فورها إلى مجتمعات الشيعة، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وتوجه العسكر للنهب، وشجعهم عامل القيروان فقتل منهم خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت دورهم، وتبعوهم في جميع إفريقيا، واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم، ولجأ منهم بالمدينة إلى الجامع فقتلوا كلهم (1). وهذه إحدى النكبات الفظيعة التي لاقاها التشيع وما أكثرها، ومع ذلك فإن

ص: 258

التشيع اليوم منتشر في إفريقيا الوسطى و الجنوبية زهاء عشرة ملايين نسمة. و في أندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة، و للعلويين هناك اليد الطولى في نشر المذهب، و كان منهم العلامة السيد محمد السيد عقيل صاحب المؤلفات القيمة «كالنصائح الكافية» و «العتب الجميل» و «تقوية الإيمان» و «القول الفصل». و كان يقيم في سنغافورة، و كانت لهم أدبية أدبية تربط أواصر بعضهم مع بعض. أما في مصر فقد انتشر التشيع عند انتشار الإسلام هناك بواسطة أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم الذين شهدوا فتح مصر، و هم المقداد بن الأسود الكندى و أبو ذر الغفارى، و أبو رافع، و أبو أيوب الأنصارى، فهؤلاء هم دعاة التشيع و أنصاره. و لما دخلها عمار بن ياسر أيام عثمان دعا إلى التشيع و نمت روجه حتى أصبحت البلاد كلها إلى جانب على و أجمعوا على مقاومة عثمان. ثم دخلها بعد ذلك قيس بن سعد واليا فركز دعائم التشيع هناك، و خفق لواؤه و كثرت جنوده، لكن بدخول عمرو بن العاص تأخر سير تلك الحركة إلى أن زال ملك الأمويين، فأظهر المصريون ما انطوت عليه قلوبهم من الولاء لعلى عليه السلام، و لا زال التشيع يظهر في مصر و يخفى حسب العوامل التي تدعو إلى خفائه و ظهوره، و هو اليوم منتشر هناك و فيه فئات كثيرة. و في الهند ظهر التشيع هناك و انتشر بسبب الروابط المتصلة بين العرب و الهنود، و قد اعتنق مذهب التشيع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعي المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة، و منهم جماعة كثيرة باقون إلى اليوم و لهم امارات في جميع الأقطار الهندية، و لا يخلو بلد منهم، و هناك بلد تختص بهم و أخرى يكونون الأكثرية بها و هى لكنهور و هى المركز الوحيد للشيعة في الهند و عاصمة مملكة اودة الفانية و منبع علمائها قديما و تعد اليوم من أكبر البلاد العلمية، و فيها مدارس عربية أهمها الجامعة السلطانية، و منها مدرسة الواعظين و هى تختص بالتبليغ، و المدرسة الناظمية و قد أسسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية، و فى لكنهور الشىء

الكثير من آثار الشيعة كالمساجد والحسينيات. و من البلدان جانبور، بتن آباد، مظفرآباد، لاهور، بنجاب (1). و بعد استقلال باكستان و انفصالها عن الهند لعب الشيعة دورا كبيرا فى بناء باكستان الحديثة و حافظوا على مواقعهم فى المجتمع الجديد و منهم العلماء و رجال الدين و كبار التجار و الأدباء و حملة الشهادات. و تنتشر فى عموم باكستان المساجد و الحسينيات و أصبح وجودهم متميزا و فى انتشار و توسع. و قد أذنت للعلامة السيد حيدر جوادى كراوى بترجمة كتابنا «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» إلى اللغة الأردية لكثرة الطلبات و إقبال الشباب على قراءته و قامت بنشرة مكتبة تعمیر أدب فى لاهور عام 1388 و أهدانا السيد أبرار حسين شيرازى نسخة عن مكتبة تعمیر أدب نحفظ بها الآن و قد بلغت أخبار تبهج النفس و تسر المؤمن لذلك الإقبال على مبادئ أهل البيت و التقيد بمنهجهم فى الحياة و الالتزام بأقوالهم و تعاليمهم و تزايد أعداد الشباب و ارتباطهم بالمجامع الشيعية و المراكز الدينية فى مختلف أنحاء باكستان. أما فى تركيا فقد انشتر المذهب بصورة محسوسة و كثر أتباعه و لكن السلطان سليم المتوفى سنة 926 هـ-قاوم الشيعة و قتل منهم مقتلة عظيمة. يقول إبراهيم الطيب الأول للجيش التركى: و كان السلطان سليم شديد التعصب على أهل الشيعة، و لا سيما أنه كان فى تلك الأيام قد انتشرت بين رعاياه تعاليم شيعية تنافى مذهب أهل السنة، و كان قد تمسك بها جماعة من الأهالى، فأمر السلطان سليم بقتل كل من يدخل فى هذه الشيعة، فقتلوا نحو أربعين ألف رجل، و أخرج فتوى شيخ الإسلام بأنه يوجر على قتل الشيعة و إشهار الحرب ضدهم (2). و مع هذا فهم اليوم فى تركيا عدد كثير منتشرون فى أطراف البلاد. و فى السعودية فالقطيف و قراها شيعة خالصة. و أما الإحساء و قاعدتها هفوف فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم، كما أن فى قطر يوجد كثير من الشيعة، و لا يزال من الإحساء و القطيف فى النجف الأشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت، و منهم

ص:260

1-1 (1) تاريخ الشيعة ص 258. [1]

2-2 (2) مصباح السارى و نزهة القارى ص 123-124.

علماء مبرزون وأدباء لهم مكانتهم الأدبية والعلمية، وفي البحرين للتشيع مكانة، ولأهله قوة، وقد برز منه علماء خدموا الأمة الإسلامية، بمؤلفاتهم القيمة وآثارهم الجليلة، التي تعد في الواقع من أعظم التراث الشيعي، ولهم في النجف الأشرف الآن بعثات تتلقى العلوم الدينية، ومنهم علماء مبرزون وأدباء مشهورون. وفي الأفغان انتشر التشيع من زمن بعيد، ويقدر عددهم اليوم بعشرة ملايين، ويوجد منهم في النجف زهاء ثلاثة آلاف نسمة منهم من يدرس الفقه الجعفري، ومنهم من يلتمس الرزق، وقد برز منهم علماء لهم مكانتهم العلمية. وهاجر كثير من الشيعة إلى أميركا من السوريين وجبل عامل للتجارة والزراعة من قبل نصف قرن، وينوف عددهم اليوم على خمسين ألفاً، وهم ذوو شأن وعزة هناك يقيمون شعائر الإسلام علناً، وقد بنوا مسجداً فخماً في الولايات المتحدة وفي أميركا من الشيعة قوم من الفرس والهنود وقليل من العراقيين. كما دخل مذهب التشيع إلى الصين منذ القرن الرابع ولهم عدد كثير هناك حتى اليوم. وفي روسيا كان للشيعة في البلاد الروسية حرية واسعة في إقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس، وكانوا قبل الحرب العالمية عام 1332 هـ-يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة، ويفدون مهاجرين لطلب العلم، وإلى اليوم منهم جماعة في النجف حالت دون وصولهم لأوطانهم ودون الصلات اتصالهم ببلادهم هذه السلطة الحاضرة. أما العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت في الصدر الأول، وقام بذلك أصحاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الكوفة، والمدائن والبصرة، وعرفت الكوفة بأنها علوية النزعة وقام رجال الدعوة في الدفاع عن أهل البيت، وتحملوا في عهد معاوية ما تحملوا كما مر بيان ذلك. وفي المدائن كان سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان قد نشرا دعوة التشيع هناك، وكذلك البصرة وغيرها من مدن العراق من الشمال إلى الجنوب، وانتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة، والعراق اليوم معروف بتشيعة لأهل البيت ولأنهم للعترة الطاهرة. والشيعة هم الأكثرية في العراق وقد قاوموا ظلم الأتراك بثورات سجلها

التاريخ بكل فخر لهم فى محاربة الاستبداد، وقاوموا الاستعمار الإنكليزى، وأعلنوا ثورة العشرين التى شيدت صرح الاستقلال الوطنى. أما فى إيران، فقد كانت بلاد فارس مسرحاً للجيش الإسلامى و كان اهتمام الحكام منصباً على استدرار الأموال و تعيين العمال الذين ينفذون سياسة النظام القائم و يلبون رغبات السلطان، و نزحت قبائل عربية كثيرة و رغم عداء الأمويين و عملهم على إبعاد العناصر المعروفة من الشيعة و إرسالهم مع الجيوش فإن الكثير من القبائل عرف بالشيعة و لم تتخل عن هويتها. و كانت قم و حدها فى القرن الأول شيعية، و كان سير الشيعة فى إيران ثقيل الخطا و هم شيعة بنى العباس، و فيهم من يذهب إلى تقديس الأمويين و مناصرتهم، كما أن فى خراسان نواصب و غلاة فى معاوية يدعون نبوته، و لكن مذهب أهل البيت انتشر فى بلاد إيران بصورة تدريجية على ممر الأديوار، حتى أصبحت إيران اليوم كلها شيعة حكومة و شعباً، و قامت بخدمة المذهب و نشر مآثر أهل البيت و عمارة مراقدهم. أما عدد الشيعة فى اليمن فكثير جدا حسبما بلغنا ممن زاروا بلادهم هناك، و قد انتشر الشيعة فى بقاع اليمن منذ صدر الإسلام. و لكن المذاهب الزيدية بمرور الزمن أخذ بعض علمائها يتأثرون بنزعات السلفية و يخشون اتهامات الابتداع التى شهت بوجه الشيعة منذ مئات السنين لتنفير الناس منهم و إبعاد المسلمين عنهم و إخراجهم بمظهر الابتعاد عن الجماعة. و شاع اتجاه الأخذ ببعض مقولات المتخلفين و السلفية من أهل التعصب و الجمود، و انتشرت بين الصفوف فى اليمن. و لكن مذهب أهل البيت له وجود فى اليمن - و كما علمت - فإن من مهمات رجال المذهب جلاء أصول الزيدية و العودة إلى جوهر تعاليم الشهيد زيد بن الإمام زين العابدين، و رفض التباعد عن الشيعة المفروض لأغراض أخرى تجهد فى رسم ملامح بعيدة عن الأصول الزيدية، فالشهرستانى يفضل تأكيد صفة الاعتزال على حقيقة الشيعة، فيدعى أنهم يعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت عليه السلام (1) مما يدحضه تراث علمائهم و مراجعهم و مصنفيهم الزاخر بعقبات الولاء لأهل البيت، و أشعارهم المشحونة بالإخلاص و صادق الحب، كنظم

ص: 262



العلامة مصنف الهداية اللؤلؤية وهو من رجالهم و مراجعهم فى القرن التاسع الهجرى: وبنى للنبي وآله و ما اشتملت منى عليه  
ضلوع

وإن أفلت منهم شمس طوالع يكون لها بعد الأقول طلوع

و منها: أبا لله لى غير التشيع مذهباً و من لا منى فيه فلست أطيع

بنى المصطفى لى أسرة و جماعة و مذهبهم لى روضة و ربيع

أصم إذا حدثت عن قول غيرهم و إن حدثونى عنهم فسميع

و بالله إنى فى التشيع واحد و إن كثرت لدى جموع

(1) أما الشوكانى الذى تعرض لعدوى السلفية و أصابته حمى التيمية، فبعد عن أصول الزيدية، و تمكن من الادعاء فراح يشمل الزيدية  
بالتهم الباطلة التى و جهت إلى الشيعة الإمامية و التى يبرأ منها كل مسلم، فيقول فى رسالته (القول المفيد فى أدلة الاجتهاد و التقليد)  
و اصفا أبناء بلده من الزيدية بالتشيع، و إن العوام (طبائعهم مجبولة على التشيع إلى حد يقصر عنه الوصف، حتى لو أن أحدهم سمع النقص  
بالجناب الإلهى و الجناب النبوى لم يغضب له عشر معشار ما يغضبه إذا سمع التنقص بالجناب العلوى بمجرد الوهم و الاتهام الذى لا  
حقيقة له) . . . اهـ. و آخر عبارته مصداق ما وقع فيه هو و ما شاب معتقده. هذه أهم الأصقاع التى تنبسط فيها منابت الشيعة و لهم فى  
جميع أصقاع العالم جاليات منتشرة. و سنتحدث عن بعض مآثر الشيعة و تراثهم القيم و خدماتهم الإسلامية، و مواقفهم فى وجوه الظلمة  
بصراحة لا أثر فيها للخداع و الغش، و لا يشوهها الحرص على الصلوات و الجوائز و طلب المناصب. كما سنتكلم عن آدابهم التى تأثرت  
بآداب الإسلام و ثقافته، و أن ذهنيتهم صقلتها التجارب، فكانت أكثر ما تعنى بالأفكار العميقة، و المعانى الدقيقة، و أنهم يمتازون  
بالعواطف الثورية الهائجة لاستنهاض الأمة من كبوتها، و إيقاضها من غفلتها.

ص: 263

1-1) انظر البدر الطالع.

و الشيء الذى يجب الالتفات إليه هو أن تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية التى ترفع الغموض الذى يكتنف مبادئهم و تطورهم، إذ المصادر التى يستمد منها المعلومات عن الشيعة مضطربة لا توضح الطريق الموصل إلى الحقيقة، لأنها مصادر لم تسلم من سيطرة التعصب الأعمى و غلبة الأهواء المردية و التحيز الممقوت. كما أن كتاب الفرق قد سلكوا طريق الافتراء و التحامل، و لم يكتبوا للعلم بل كانت كتاباتهم مجردة عن كل ما له صلة بالحقيقة، و سنوضح ذلك إن شاء الله عسى أن تكشف جانبا مهما له تمام الصلة بحياتنا الاجتماعية، لأن ليس من اللائق أن يتعاشى الشيعة مع أخيه السنى فى إطار العلاقات الاجتماعية فيجد أحدهما من الآخر ما يوثق العلاقات و يمتن المودة و إذا ما جاءت مناسبة يبدى بها الشيعة فرحة لذكرى تتعلق بآل البيت، أو يظهر فيها حزنه لحادثة الطف أو غيرها من الفواجع، و جد من أخيه امتعاضا أو اتهاما، و عند التحقق يجد الشيعة أن أخاه السنى متأثر بأقوال زرعته أقلام لا ترقب الله، أو السنة لا ترعى حرمة الدين. و لقد عشنا فى العراق مواسم لا تفرق فيها بين السنة و الشيعة، لأن الشيعة باعتبارهم الأغلبية عملوا على جعل المواسم مناسبات تلهب المشاعر الوطنية و تخدم قضايا الأمة الإسلامية فى مواجهة القوى الأجنبية المستعمرة أو الحكام الظلمة. و قد عشت أيضا تعاطف إخواننا السنة فى المواسم و المواقف، كما رأيت ما ذا صنعت السلفية فى النفوس حتى أثمرت نصبا كريها و حقدا بغیضا و أنا أقيم خارج العراق. و نسير على ما دأبنا عليه من سلوك التجرد لكشف الحقيقة و الله الموفق للسداد.

## أسباب الخلاف و عوامل التفرقة:

يطالعنا التاريخ بحوادث مؤلمة، ونزاع بين طوائف المسلمين عامة و بين الشيعة و السنة بصورة خاصة، فإذا أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى حدوث تلك المنازعات نجدها سياسية قبل أن تكون دينية، وقد اتضح لنا في الأبحاث السابقة أن تدخل أولى النفوذ و السلطة هو الذي جر الأمة إلى تلك المنازعات، و أوقعهم في ورطة الاختلاف، و نشوء تلك المعارك التي اضطرت نارها، و تنوعت أسبابها بصورة ظاهرة، و يعود ذلك إلى سبب رئيسي هو عامل السياسة. فذهبت آلاف من النفوس، و اتسعت بذلك شقة الخلاف، و فتحت باب الظنون و الاتهامات، و نحن لا يتعلق لنا غرض بذكر الخلاف بين جميع طوائف المسلمين لأننا نعلم أن هذا الخلاف قديم عميق، و من المؤسف أن كثيرا من قادة المسلمين لم يلتفتوا إلى ما وراء ذلك من خطر يهدد كيان الأمة، و يقضى على وحدتها التي هي أقوى عامل تستطيع به الانتصار على خصومهم، الذين وقفوا لهم يتحينون الفرص للوثبة عليهم و التشفى منهم، و قد مرت الإشارة إلى ذلك. و حيث كان بحثنا عن المذهب الجعفري و عوامل انتشاره، فنحن لا نتعرض إلا بالإشارة لأسباب الخلاف المتكون بين السنة و الشيعة، و قد مرت عليه قرون و قرون، و لم تسعد الأمة يوما ما برفع سوء التفاهم و إزالة تلك الحواجز التي تقف بينها و بين وحدتها التي أمر الله سبحانه و تعالى جميع المسلمين بالمحافظة عليها، و عالج الدين الإسلامي مشاكل الخلاف و بيّنها بأدق صورة. فنحن نرى أن هذا الخلاف القائم بين الطائفتين مبنى على سببين رئيسيين هما:

1-الخلاف فى الخلافة الإسلامية و من هو المتأهل أهلية صالحة للولاية العامة و الرئاسة الشاملة، و هى لا تحصل إلا لمن خصه الله بالكمال، و خلصه من شوائب النقص فى الأقوال و الأفعال، و نزهه عن الظلم للرعية، حتى يقيم الحدود و (الله أعلم حيث يجعل رسالته) و الشيعة لا يرون تحقق تلك الشروط و حصول هاتيك الصفات إلا فى من اختاره الله و أمر نبيه بالنص عليه. 2-عوامل السلطة فإن الطبقة التى سيطرت على نظام الحكم رأت من نفسها عدم انطباق تلك الشروط عليها، و الشيعة لا يرون قيمة لسلطان لا يتمسك حق التمسك بالشرع، و لا- يتنزه عن الظلم و لا يتورع عن المحارم، و ليس له قابلية تحمل أعباء الخلافة الإسلامية، و إن من هؤلاء الذين تربعوا على دست الحكم يريدون أن يكسبوا ثقة الأمة و يركزوا أنفسهم بالسلطتين الروحية و الزمنية فينالوا الثقة التامة، و يصبحوا أمراء المسلمين بحق مع عدم انطباق ما يؤهلهم لذلك، فهم إذا يرون الشيعة حزبا معارضا، و عقيدتهم لا تتمشى مع أغراضهم، فكانوا لا يعارضون العقائد، ما دامت لا تعارض سياستهم و أغراضهم الخاصة، و الناس فى أذهانهم ذلك العصر الذى كانوا يسيرون به فى حرية العقيدة، و حرية العبادة بأمن تحت ظلال السلطة و أمام القانون. أما إذا كانت العقيدة مخالفة لرأيهم أو أن لها دخلا فى سياسة الدولة، فلا يسمح القانون بإظهارها، و لا تقعد السلطة عن مقاومتها، و من الواضح أن عقائد الشيعة تخالف دستور الحكومة فى أغلب الأشياء التى تخرج عن مقاييس حرية الرأى أو سلامة النية و القصد الحكيم و العقائد الصحيحة، و من هذا التجأ القانون إلى عدم المساواة فى العقائد من جهة، و إلى مساواتها من جهة أخرى، فترى مواقف الحكومة مختلفة اختلافا كبيرا، و تقف فى أكثر حالاتها موقف الحيرة خوفا من انتشار العقائد التى لها أثرها عند المفكرين فتصبح الأقلية أكثرية، و لا يمكنها الوقوف أمام جارف الإنكار، فهى تلتجئ أبدا إلى خلق مشكلات تفرق بها كلمة الأمة لتثير الشحناء، و تشغل الأفكار، و ذلك هو قانون الظلمة و أصحاب المصالح الشاذة يهديهم إليه طبعهم و بقاء الحالة عبر العصور بين معسكرين معسكر الظلم و معسكر العدل.

### الاتهام بالتشيع:

و على هذا الأساس حاولوا إبراز الشيعة فى ذلك المجتمع بصورة تدعو إلى

مقاومتهم من كل الجهات، وفصلهم عن المجتمع الإسلامى بالطعن فى عقائدهم مرة، وبالخروج على الجماعة مرة أخرى. فوجهوا إليهم التهم، وتقولوا الأقاويل التى لا نصيب لها من الصحة، ولاحظ لها من الحقيقة، وإنما هى اتهامات كاذبة وافتراءات محضنة تمكنت من قلوب السذج فأصبحت كالأمر الواقع، لكثرة العوامل التى دعت إلى تركيز تلك المفتريات فى أذهان الناس، و تجنيد السلطة لإشاعتها أقوى الطاقات. و أنت إذا نظرت بعين البصيرة تجد تلك المؤاخذات و الاتهامات التى رميت بها الشيعة غير محدودة بحد، بل تتسع باتساع غرض السلطة الحاكمة التى لعبت دورها فى مقاومة الشيعة على ممر أدوار التاريخ، فيبرز فى فترة ضرب معين وفى أخرى بشكل مغاير. و سارت الأمور على ذلك الشكل الذى قضى على حربة التفكير فى فهم الأمور، و أن لا يكون إلا ما تراه السلطة و ما تتمسك به. يدخل الإمام مالك بن أنس على أبى جعفر المنصور، فيوجه إليه سؤالاً: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ و هنا يقف مالك موقف الحيرة عند ما يريد أن يعبر عن رأيه الصحيح، فربما يخالف رأى المنصور فيكون عرضة للنقمة، كما تقم منه من قبل لمخالفته فى فتوى طلاق المكره. و لكنه درس نفسية المنصور و عرف أغراضه المكنونة، فأجابه: أبو بكر، و عمر، فقال المنصور: أصبت و ذلك رأى أمير المؤمنين. و بالطبع ان رأيه محترم و الرعية تابعة له فلا يمكن لأحد مخالفته، و من ذهب إلى غير هذا فإنما يعرض نفسه للسخط و يصبح فى قائمة المتهمين لمعارضة الدولة، و ناهيك بما وراء ذلك من بلاء و محن، و يمكننا أن نعتبر مسألة التفضيل بين الخلفاء بدعة سياسية، و دعاية من دعايات التفرقة منذ أول نشوئها فى البيئات الأموية فى الشام، و فى غير الشام، و من المعلوم عند الراسخين فى دراسة التاريخ أن مسألة التفضيل بين الخلفاء إنما كانت بهذا الشكل الحتمى لا من حيث الواقع، و إلا لو ترك الأمر بدون تدخل السلطة فيه لما كانت المسألة من المسائل المشككة التى ابتليت بها

الأمة حتى أصبح القائل بأفضلية عليّ على الشيخين مبتدعا زائغا عن الحق سيئ المذهب، رافضيا خبيثا، زنديقا مارقا، إلى ما هنالك من التعابير التي اتخذها المتزلفون لرضا السلطة. وإذا رجعنا للواقع من حيث الواقع بدون مغالطة ولا- تعصب في ضوء التفكير الحر، و الدراسات الصحيحة الخالية من نزعة الأهواء، نجد أن ترتيب الخلفاء حسب أزمنة خلافتهم ليست حجة على فضل بعضهم على بعض و جدارتهم بالحكم، وإنما هي تقليد أعمى، و جمود على اتباع السلف، الذين عرفت نزعاتهم وأهواؤهم و ميلهم للسلطة التي أصبحت ترغم الناس على ربط العقائد بدستور الدولة، فترى المأمون يخلق مشكلة القول بخلق القرآن و يحمل الناس عليه بالقهر، و لا يجعل للتفكير في الأمر مجالا، فيقع ما يقع من قتل و تكفير إلى غير ذلك، و يأتي من بعده المتوكل فيخالف رأيه، و يقضى على ما أمر به المأمون، و يحمل الناس على القول بقدم القرآن بالقهر و القوة. و يأتي القادر العباسي سنة 422هـ- فيحمل الناس على الاعتقاد بما يراه في فضل الصحابة، و تكفير المعتزلة القائلين بخلق القرآن، و يؤلف بذلك كتابا يتلى على الناس في كل جمعة، كما أنه حملهم بالقهر على الاعتقاد بالسنة، و استتابة من خالفه من المعتزلة و الشيعة، و أخذ خطوطهم بالتوبة، و بعث إلى السلطان محمود، يأمره ببث السنة في خراسان، ففعل ذلك، و بالغ و قتل جماعة و نفى جماعة آخرين من المعتزلة و الشيعة و غيرهم، و أمر بلعنهم على المنابر، و ذلك في سنة 408هـ- (1). و في سنة 403هـ- يصدر مرسوم من البلاط العباسي يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر و أنهم ليسوا من أبناء علي (2)، و نشر هذا المرسوم و وزعت نسخه، و الزم علماء بغداد بتوقيعه، إلى غير ذلك مما يطول شرحه من الأمور التي تدخلت بها الدولة لغاياتها الخاصة، و لا يريدون بذلك إلا فتح باب المناقشات، لا بصورتها الواقعية و لكن بالصورة التي يريدون من ورائها الشغب و الاختلاف بين الأمة للنفوذ إلى مصالحهم الخاصة، و إلا فيلزمهم إعطاء الحرية الكاملة في المناقشات

ص: 268

[1-1] شذرات الذهب ج 3 ص 186. [1]

[2-2] تاريخ أبي الفداء ج 2 ص 150. [2]

العلمية التي تختلف فيها الأمة ولا يؤدي اختلافها إلى فرقة بل إلى غناء في الأفكار وتقدم في المواهب والمقدرات وهو ما يهدد ملكهم وسلطويتهم، لذلك حصروا الخلاف فيما يسيء إلى وحدة الأمة واختلقوا أسباب تفرق المجتمع الإسلامي، وتركوهم يخوضون غمرات المعارك المذهبية والعقائد الدينية، وتدخلوا بقسوة في حياة الفكر وعاملوا المفكرين الذين يابون الانصياع لمخطط الحكام بكل صنوف الأذى والكبت.

## ضحايا المبدأ:

والغرض ان نظر الدولة لموقف الشيعة إلى جنب آل محمد يعتبرونه موقفا معارضا لسياستهم، ومحاولة ظاهرة للقضاء على كيان الملك الذي تربعوا على دسسته بدون أهلية، وهو من حق آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهم يحذرونهم أشد الحذر، ويدفعون الناس إلى التبرؤ منهم بشتى الوسائل، حتى أصبحت تهمة التشيع طريقا إلى الهلاك يفرون منها ويرون أنها أعظم من تهمة الزندقة. قال الزمخشري في كيفية الصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم: وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد، فمكروه لأن ذلك صار شعارا لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم. وأمثلة هذه الفتاوى كثيرة جدا. وقد تركوا القول بأشياء رغم صحتها وثبوت تشريعها، وليس لهم في تركها إلا لأن الشيعة تقول بها، ومتابعتهم تؤدي إلى الرفض كما مر بنا شيء منه وكما سيأتى ذكره. ومن هذا نعرف عظيم حراجه الموقف، وإلى أي حد انتهى الأمر في الابتعاد عن شيعة أهل البيت، في عصر تأصلت فيه روح العداء في قلوب الناس الذين ساروا مع الدولة جنبا لجنب، وهل الرفض إلا حب أهل البيت كما يوضح لنا الشافعي بقوله: إذا في مجلس ذكروا عليا وسبطيه وفاطمة الزكية

يقال تجاوزوا يا قوم هذا فهذا من حديث الرافضية

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية

ويقول: قالوا ترفضت قلت كلا ما الرفض ديني ولا اعتقادي

لكن توليت من غير شك خير إمام و خير هادى

إن كان حب الوصى رفضا فإننى أرفض العباد

و أظرف شىء ما يحدثنا به الخطيب عن الفتح بن شخرف قال: حملتني عيني فتمت، فبينما أنا نائم إذا أنا بشخصين فقلت للذى يقرب منى: من أنت يا هذا؟ فقال: من ولد آدم، قلت: كلنا من ولد آدم، فما الذى وراك؟ قال لى: على بن أبى طالب، قلت له: أنت قريب منه و لا تسأله، قال: أخشى أن يقول الناس إنى رافضى (1). و كان الفضل بن دكين يتشيع فجاءه ولده يوما يبكى فقال له: ما لك فقال: إن الناس يقولون إنك تشيع فأنشأ يقول: و ما زال بى حبيك حتى كأنتى برجع جواب السائلى عنك أعجم

و لا سلّم من قول الوشاة و تسلمى سلمت و هل حى على الناس يسلم

(2) و إن أمرا يدعو الولد إلى هذا الحذر، و يحمله على البكاء لعظيم جدا، و لا غرابة من ذلك فإنه يخشى على أبيه القتل، و على داره الهدم، و ماله النهب، طبقا لقانون الدولة المقرر تنفيذه فى حق الشيعة، لأنهم كانوا ينفذون هذا القانون فى حق من اتهم بالميل للعلويين. كان إبراهيم بن هرثمة شاعرا مجيدا مدح آل البيت بأبيات منها: و مهما (ألام) على حبهم فإنى أحب بنى فاطمه

بنى بنت من جاء بالمحكّمات و بالدين و السنة القائمة

فلست أبالى بحبى لهم سواهم من النعم السائمه

و لما دخل على المنصور قال: لا مرحبا و لا أهلا، يا إبراهيم قد بلغنى عنك أشياء لو لا ذلك لفضلتك على نظرائك فأقر لى بذنوبك فاستعفاه فعفى عنه حفظا لدمه، و قال: لئن بلغنى عنك أمر أكرهه لأقتلنك. و لما دخل إبراهيم المدينة أتاه رجل من العلويين فسلم عليه فقال له إبراهيم تنح عنى لا تشط بدمى (3).

ص: 270

1-1 (1) الخطيب ج 12 ص 386.

2-2 (2) تاريخ بغداد ج 12 ص 351. [1]

3-3 (3) تاريخ بغداد ج 6 ص 127. [2]



و هذا منصور النميري أنشأ أبياتا منها: آل النبي و من بحبهم يتظامنون مخافة القتل

امن النصارى و اليهود و من فى أمة التوحيد فى أزل

إلا مصالت ينصرونهم بظبا الصوارم و القنا الذبل

فغضب الرشيد و أرسل إليه من يقتله فوجده ميتا فقال: لقد هممت أن أخرج لسانه من قفاه. و أراد أن ينبش عظامه فيحرقها و لكنه لم يفعل (1). و قطعوا لسان ابن قرايا لأنه كان يمدح آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و ينشد الأشعار فيهم، فثارت العامة فى بغداد، و قدم للقاضى، فحكم عليه بقطع لسانه و يده استنادا إلى مادة الحط من كرامة الصحابة، بمدحه عليا عليه السلام و تفضيله عليهم. وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد، و لكنهم تبعوه عند ما أخذ للمارستان، و رموه بالحجارة، فألقى نفسه فى دجلة فغرق و أخرجوه ميتا و أحرقوا جسده، و وقعت بذلك معركة بين السنة و الشيعة و ذلك فى سنة 574 (2). و قامت البينة على الحسن بن محمد بن أبى بكر الشيعى، بأنه سب الصحابة عند القاضى شرف الدين المالكى، فحكم عليه بضرب عنقه بسوق الخيل بدمشق فى جمادى الأولى سنة 744 هـ - (3). و أمثال هذه الفظائع كثيرة لا يسعنا عرضها، و لكننا أوردنا طرفا منها لنأخذ صورة عن أعمال الدولة و سياستها مع الشيعة، يروى ابن عبد ربه عن الرياشى: سمعت محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبى حفصة: ما أغراك ببني على؟ قال: ما أحد أحب إلى منهم، و لكنى لم أجد شيئا أنفع عند القوم منه. و هنا أمر مهم يلزمنا أن نتساءل عنه: و هو ان الإقدام على سفك دم المسلم باسم الشريعة هو جرأة عظيمة، و ان دولة تدعى السير على نظام الشرع كان يلزمها أن تتخذ طريقا للخلاص من الإنكار و المؤاخذه، كما اتخذت ذلك فى كثير من القضايا المخالفة لنظام الإسلام.

ص: 271

1-1) زهر الآداب ج 2 ص 650. [1]

2-2) شذرات الذهب ج 4 ص 246. [2]

3-3) شذرات الذهب ج 6 ص 140. [3]

إذا ما ذا اتخذوا تجاه هذه الفظائع وهذه المنكرات في معاملة الشيعة؟ أليس في الأمة علماء ينبهون الحكومة والعامّة على هذا الخطأ عند مخالفتهم نصوص الكتاب والسنة بإراقة الدماء في عمل لا يستوجب ذلك؟ وكيف سكت العلماء عن هذا الفعل الشنيع؟ ولم تقتصر سياستهم على إراقة الدماء وإنزال الأذى بالشيعة بل قاموا بحملة مضادة يسعون بها إلى مواجهة اعتقادات الشيعة. نعم انهم لم يغفلوا عن ذلك واتخذوا التدابير اللازمة في رد المنكرين بأمور منها: 1- إنهم رفعوا مقام الصحابة على الإطلاق، ومنعوا الناس عن الخوض في أحاديثهم وحوادثهم، وجعلوا لهم منزلة العصمة الادعائية، وقرنوهم بالرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم وجعلوا مؤاخذتهم بشيء إنما هو مؤاخذة للرسول صلّى الله عليه وآله وسلم. وأن الطعن في حديثهم هو طعن في حديث الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم. ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة: أن موسى لقي آدم فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة، فقال القرشي أين لقي آدم موسى، فغضب الرشيد، وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله (1). وبهذا ألجمت الأمة ليحرموها حرية التفكير، وألزموها بالنزول لإرادتهم، فمن خرج عن ذلك عد زنديقا والزنديق يقتل، وبالطبع فإن الشيعة لا تقيم لهذا الحكم وزنا فهم في نظر القانون يحل قتلهم من هذه الجهة، ومع ذلك فقد وضعت أحاديث كاذبة على صاحب الرسالة في تكريم الصحابة مطلقا، وبمقتضى ذلك لا يشملهم نظام الإسلام وأحكامه. وسيأتى بيان رأى الشيعة في الصحابة وأنه أعدل الآراء. 2- إن مبادئ الشيعة وعقائدهم مستقاة من ينبوع أهل البيت عليهم السلام، ويرونهم نصب أعينهم يقيمون الصلاة، ويحتفظون بشعائر الدين فكيف يحكم عليهم بالكفر؟ فلا بد إذا من سلوك طريق لاتهام الشيعة بما يخالف الإسلام، وبالفعل سلك خصوم الشيعة طريقا نجحوا فيه، وذلك في تركيز فكرة الغلو عند الشيعة في أذهان العامة، وأن الشيعة يدعون لآل البيت الربوبية، وقام بنشر هذه الفكرة بين العامة أولئك الدجالون الذين يفترون على الله الكذب، من قصاص ووعاظ وزهاد، يتصفون بالتدين وهم جزارون لا يتورعون عن المحارم.

ص: 272

3- إن الشيعة لما عرفوا بموالاة أهل البيت و محبتهم لهم، و أخذ الأحكام عنهم، أصبح ولاية الأمر يحذرون الإنكار عليهم من رجال الفكر الذين لا يخذعون بأقوال الدجالين من وعاظ و قصاص، لكيلا تتسع عليهم دائرة المؤاخذة، وربما يطالبون بشيء أوضح مما مر في تكفير الشيعة و الطعن في عقائدهم. و لذا لجئوا إلى الطعن في الأمور التي من شأنها أن يحكم على معتقدها بالكفر و هم يعلمون أن الشيعة قبل غيرهم يكفرون من ينحرف على هذا النحو الذي صورته أبواق الخلفاء.

### أحاديث النبي في حب علي و شيعة:

و إن هناك أحاديث صحيحة وردت في أهل البيت و شيعة لا مجال لإنكارها، إذا كيف يصنعون و ليس في إمكانهم إنكار تلك الأحاديث في مدح الشيعة و لزوم اتباع آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و قد أخذت تلك الأحاديث مكانتها في المجتمع الإسلامي؟ و لم تستطع الإرهابات محوها من الأذهان، و ليس في قدرة السلطة أن تفرض طاعتها على الشيعة قهرا. فلنر إذا كيف استطاعوا أن يفهموا الناس انحراف الشيعة عن الدين؟ مع وجود تلك الأحاديث الصحيحة. أي كفى أن يستندوا إلى المادتين الأوليتين، أم إن الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك؟ نعم الأمر أهم من أن يتهاون فيه، و يلزمهم أن يتخذوا شيئا يستطيعون فيه تغيير تلك الأحاديث، أو وضع زيادة يصلون من ورائها لغايتهم المقصودة، فكانت النتيجة أن توضع زيادة تلحق ببعض الأحاديث ليبطل الاستدلال بها، و إليك بعض الأحاديث الواردة في محبة أهل البيت. كقوله صلى الله عليه و آله و سلم: يا علي لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق (1). و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: يا علي إنك ستقدم على الله و شيعتك راضين مرضيين و يقدم عدوك غضابا مقمحين (2). و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: و قد أخذ بيد حسن و حسين فقال: من أحبني و أحب هذين و أباهما و أمهما كان معي في درجتي يوم القيامة (3).

ص: 273

1-1) صحيح مسلم ج 1، و الترمذى ج 2 ص 298، و أحمد في مسنده ج 2 ص 102 [1] ط 2.

2-2) أخرجه الطبراني في الصواعق المحرقة لابن حجر ص 93. [2]

3-3) أخرجه الحاكم ج 2 ص 149، و أحمد في مسنده ج 2 ص 25 [3] ط 2.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: حب علي براءة من النار، حب علي براءة من النفاق شيعة علي هم الفائزون (1). وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: من يريد أن يحيى حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب، فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة (2). وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة. (3) ولما نزلت قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى [الشورى:23] قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: علي وفاطمة وبناهما (4). وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا علي أنت وشيعتك في الجنة. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا أبا الحسن أنت وشيعتك في الجنة. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا علي أنت وشيعتك تردون علي الحوض رواء. ولما نزلت إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [البينة:7] قال: هو أنت يا علي هو أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين (5). هذا نزر من تلك الأحاديث الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام وإلزام الناس باتباعهم، وكثير غيرها كحديث الثقلين الذي مرت الإشارة إليه وحديث مثل أهل بيتي، وباب حطة وغيرها.

### تحريف الأحاديث:

وهنا تأتي يد الوضع فتعمل عملها بالتحريف أو بإلحاق زيادة لهذه الأحاديث، ولكنها زيادة تدل بنفسها على نفسها، وإليك أنموذجا من تلك الموضوعات على صاحب الرسالة. فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: يا علي أنت وأصحابك في الجنة، أنت وشيعتك في الجنة، فيأتي الفضل بن غانم بوضع زيادة وإلحاقها بهذا الحديث، وهي إلا إن

ص:274

1-1) أخرجه الديلمي في كنوز الحقائق.

2-2) أخرجه الحاكم في المستدرک ج 2 ص 126. [1]

3-3) كنوز الحقائق.

4-4) أخرجه الطبري في ذخائر العقبى ص 52. [2]

5-5) أخرجه الخطيب من طريق أم سلمة ج 12 ص 358.

ممن يحبك قوما يصفزون الإسلام بألسنتهم يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، لهم نبي يسمون الرافضة فإذا لقيتهم فجاهدهم فإنهم مشركون (1). ويأتى أبو يحيى الحماني بزيادة عن علي عليه السلام أنه قال: قلت: يا رسول الله ما العلامة فيهم؟ قال: يقرضونك بما ليس فيك ويطعنون على أصحابي ويشتمونهم. وبلطف آخر: يا علي ينتحلون حبك يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم وعلامتهم أنهم يسبون أبا بكر و عمر. وبصورة أخرى: و سيأتي قوم لهم نبي يقال لهم الرافضة فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون (2). ورواية أخرى: قالوا يا رسول الله، ما العلامة فيهم؟ قال: لا يشهدون جمعة ولا جماعة و يطعنون في السلف (3). وكتحريف حديث الثقلين بوضع سنتي مكان عترتي. و هكذا تجرأ أولئك المتقربون لأسيادهم بالكذب على الله ورسوله بوضع تلك الزيادة في الأحاديث الواردة عن صاحب الرسالة بمدح شيعة أهل البيت، فأصبحت تلك الأكذوبة مقررة بصورة رسمية كقانون تسيير عليه السلطة التنفيذية، و تلقاها السذج بكل قبول، و أخذت مكائدها من ذوى العقول القاصرة. لأن السلطة اشترت ذم الكذبة و من ليس له من الدين إلا اسمه وزيه فباعوا دينهم بديناهم و تجرءوا على مقام رسول الله دون وازع و هم يعلمون إنما هم بذلك يتبوءون مقعدهم من النار، و تلقوا ما أمروا به من الجائرين و أضافوه إلى الأحاديث الصحاح التي لا يشك بها لأنها تصدر عن حق و تنطق بحقيقة و تتعلق بواقع رسول الله و تتصل برسائله. و بأمر الحكام الظالمين يتحول أنصار العترة الطاهرة و شيعة ابن عم المصطفى و وصيه إلى مشركين على لسان صاحب الرسالة (صلى الله عليه وآله) لأن السلطة تسعى إلى هدم الوجود الشيعي الذي يهدد سلطانهم. و بوحى من السلطة يصبح قتل الموحدين سنة و على لسان محمد و هو الذي كان

ص: 275

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 12 ص 358. [1]

2-2 (2) الإشاعة في اشتراط الساعة ص 112.

3-3 (3) شرح الهمزية للهيتمي ص 224.

يدعو إلى عدم قتل الكفار عند ترديد الشهادة ويغنى عن بيان ذلك قصة قتل زيد لكافر ردد الشهادة. ثم يشمل الوضع الجمعة والجماعة و إنما جاءت هذه الزيادة لأن الشيعة لا يعترفون إلا بإمامة السلطان العادل فلا يجيزون الصلاة خلف أولئك المتسلطين الجائرين و جعلوا أول شروطها الخمسة وأحكامها: السلطان العادل. و أما صلاة الجماعة فهي لدى الشيعة مجال اقتداء و لا يقتدون إلا بشروط معروفة لا ينطبق أى منها على زبانية الحكام أو المتصدين للاهتمام إذا دخل وقت الصلاة و هم على سماط الشرب أو مائدة اللهوف ترى أن كل زيادة تتم استجابة لغرض و تمر على الناس بواسطة أعضاء لجان الوضع التي كثر تشكيلها و أصبحت من دعائم الحكم. أما العلماء فقابلوها بالإنكار، و قالوا بوضعها بكل صراحة، و ان روايتها كذابون. كالفضل بن غانم المروزي القاضي، الذي كان مشهورا بفساد الأخلاق و متهما في دين، و كان غير مقبول الرواية، و قد ترك الحفاظ أحاديثه و طعنوا فيه. قال الدارقطني: الفضل بن غانم ليس بالقوى، و قال يحيى بن معين: ضعيف ليس بشيء. و غير ذلك من أقوال رجال العلم، و كيف يؤتمن على حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من عرف عنه حب الغلمان و فساد الأخلاق كما جاء ذلك في ترجمته (1). و منهم سوار بن مصعب الهمداني الكوفي الأعمى، قال فيه يحيى بن معين: سوار بن مصعب ليس بشيء، و قال البخاري: منكر الحديث، و قال النسائي و غيره: متروك، و قال أبو داود: ليس بثقة، و قال أحمد و أبو حاتم: متروك الحديث، و قال النسائي: ليس بثقة، و لا يكتب حديثه، و قال الحاكم: روى عن الأعمش و ابن خالد المناكير (2). و لا نطيل الكلام بذكر الآخرين من رجال هذه الزيادة كأبي جناب الكلبي، و سويد بن سعيد، فقد نص الحفاظ على كذبهم و عدم قبول روايتهم، كما أنهم نصوا

ص: 276

---

1-1) لسان الميزان ج 4 ص 445 و تاريخ بغداد ج 12 ص 357. [1]  
2-2) لسان الميزان ج 3 ص 128.

على هذه الزيادة بالوضع، وصرح بذلك على بن محمد الشوكاني وابن حجر وابن تيمية والخطيب البغدادي والسيوطي وغيرهم. والغريب أن هذه الحقيقة يقرها الكثير من العلماء وينصون على كذب هذه الزيادة، ولكن هناك حثالة من المتعصبين الذين لا يروق لهم إلا إيقاع الفرقة بين صفوف المسلمين، جعلوا هذه الأكذوبة وسيلة للوقية بشيعة أهل البيت، وتقربوا إلى ولاية الجور بنشرها وإدخالها في قالب الاعتبار، ولكنها محاولة فاشلة «فجولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى قيام الساعة».

### أحكام جائرة:

والغرض أن ولاية الجور اتخذوا هذه الأمور كقانون يحكمون به على المعارضين لأحكامهم، فكان من الخطر البالغ أن يجهر الإنسان بأى رأى حر، أو يذهب إلى خلاف ما تراه السلطة الحاكمة، ومن سوء حظ الرجل أن يكون له خصوم يسعون به عند السلطان، فتتطبق بحقه هذه المادة فيكون نصيبه القتل أو السجن. لذلك نرى أن الكثير من غير الشيعة حكم عليهم بهذه المادة وليس لهم ذنب إلا التحرر من الجمود الفكرى، والصراحة بشيء يخالف غرض الدولة. فهذا المولى ظهير الدين الأردبيلي، حكم عليه بالإعدام واتهم بالتشيع، وذلك لأنه ذهب إلى عدم وجوب مدح الصحابة على المنبر وأنه ليس بفرض، فقبض عليه وقدم للمحاكمة وحكم عليه القاضى بالإعدام، ونفذ الحكم فى حقه فقطعوا رأسه، وعلقوه على باب زويلة بالقاهرة (1). وامتنع أحد القضاة من المبايعه للخليفة المقتدر، وقال: هو صبي لا تصح مبايعته، فحكموا عليه بالقتل وذبح أمام الملاء بدمشق. وهذا سليمان بن عبد القوى المعروف بأبى العباس الحنبلى المتولد سنة 657 هـ-و المتوفى سنة 716 هـ، كان من علماء الحنابلة، ومن المبرزين فى عصره، ودرس فى أكثر مدارس الحنابلة فى مصر، فقد نسب إلى الرفض، وقامت عليه الشهود فى ذلك حتى تعجب هو من هذه النسبة واستغربها فقال:

ص: 277

وقد عزز في القاهرة لمدحه عليا بأبيات منها: كم بين من شك في خلافته وبين من قيل إنه الله

ونسب إلى هجاء الشيخين، والحط من مقام عمر بن الخطاب لقوله في شرح الأربعين: إن أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص، وبعض الناس يزعم أن السبب في ذلك هو عمر بن الخطاب، لأن الصحابة استأذنه في تدوين السنة فمنعهم مع علمه بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اكتبوا لأبي شاه» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قيدوا العلم بالكتابة» فلو ترك الصحابة يدون كل واحد منهم ما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانضبطت السنة، فلم يبق بين آخر الأمة وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا الصحابي الذي دونت روايته، لأن تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم كما تواتر البخاري ومسلم. انتهى. وبهذه الصراحة نسب هذا الحنبلې إلى الرفض، وناله الضرب والسجن والتباعد عن وطنه، وفصل عن وظيفة التدريس (1). ومن أغرب الأشياء ما يحدثنا المقدسى عند دخوله إلى أصفهان بقوله: وفيهم بله وغلو في معاوية، ووصف لي رجل بالزهد والتعب، فقصدته وترك القافلة خلفي، فبت عنده تلك الليلة، وجعلت أسأله إلى أن قلت: ما قولك في صاحب؟ فجعل يلعنه. قلت: ولم؟ قال: إنه أتى بمذهب لا نعرفه، قلت: وما هو؟ قال: إنه يقول إن معاوية لم يكن مرسلًا. قلت: وما تقول أنت؟ قال أقول كما قال الله عز وجل: ولا تفرق بين أحد من رسله، أبو بكر كان مرسلًا، وعمر كان مرسلًا، ثم عد الأربعة ثم قال: ومعاوية كان مرسلًا. قلت لا تفعل، أما الأربعة فكانوا خلفاء، ومعاوية كان ملكًا، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الخلافة بعدى إلى ثلاثين سنة ثم تكون ملكًا» فجعل يشنع على، وأصبح يقول للناس: هذا رجل رافضى.

ص: 278



قال المقدسى: فلو لم أهرب و أدركت القافلة لبطشوا بى (1). و على هذا سار الناس على غير هدى يزدحمون فى دائرة ضيقة، و قد سلبوا حرية الرأى و حرية التفكير. فلذلك تراهم لا يعرفون معنى الطعن، و لا يهتدون لطرق المؤاخذة، و لا يتورعون فى أمر، و لا يقفون عند حد و إنما هى فوضى الاتهام و التقول، فكان كل من يورد حديثا فى فضل على عليه السلام يتهم بالتشيع أو الزندقة على حد تعبيرهم. و كذلك كل من يناقش أعمال السلف طبقا للموازين العلمية و الحوادث التاريخية يتهم بالتشيع. لذلك نراهم يحكمون على أناس بشىء و هم لا يتصفون به. فقد حكموا على الحاكم أبى عبد الله النيسابورى صاحب المستدرک بأنه شيعى، لذكره فى كتابه حديث الطائر المشوى، و حديث من كنت مولاه فعلى مولاه، و بالطبع ان ثبوت هذين الحديثين الصحيحين يخالفان سياسة الدولة، و هل يستطيع أحد أن يتفوه بشىء منها؟ و قد عقدت الألسن و كمت الأفواه، فمن يستطيع الخروج على نظام الدولة إذ لا قيمة لمعايير الحق و مقياس العقل. و من أغرب الأشياء ما ذهب إليه ابن كثير فى تاريخه ج 10 ص 21 و هو أن شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه مؤلف العقد الفريد كان من الشيعة، بل أن فيه تشيع شنيع، و ذلك لأنه روى أخبار خالد القسرى و ما هو عليه من سوء الحال. يقول ابن كثير: و قد نسب إليه (أى لخالد) أشياء لا تصح، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع و مغالاة فى أهل البيت، و ربما لا يفهم أحد كلامه ما فيه من التشيع، و قد اغتر به شيخنا الذهبى فمدحه بالحفظ و غيره، و نحن نكل أمر هذه التهمة إلى قراء العقد الفريد و ذوقهم السليم، لأن خالد بن عبد الله القسرى فى واقع الحال بعيد عن الإسلام بعد ابن عبد ربه عن الشيعة، و لكن السياسة جعلت خالدا و هو المتهم فى دينه- كما يذكر ابن خلكان- قائما فى إطفاء البدع و الضلال. و مهما يكن من أمر فالشىء المهم الذى نريد التنبيه عليه هو أن تلك الخلافات التى وقعت بين المسلمين إنما هى من الأمور التى اتخذتها السلطة لأغراضها الخاصة.

ص: 279

وإن تلك الاتهامات التي اتهم بها رجال الأمة فأريقت بها دماؤهم، إنما كان بسبب حرية الرأي وقوة التفكير المخالف للسياسة في ذلك العصر، فإنهم يريدون أن يجعلوا رجال الفكر و حملة العلم من الأمة كقطيع غنم يوجهونهم إلى أى جهة أرادوا بدون تفكير منهم أو اختيار. ولذلك فقد اجتاز المسلمون دورا عصيبا من أدوار القهر والقمع السياسيين والضغط الاجتماعى السافر. و مما تقدم نستنتج ما لتلك النظم الموضوععة من رغبة ورهبة و من التأثير العميق فى روح الجماعات، و استخدامها كل الوسائل لحملها على العداء للشيعة، فلا نستغرب إذا تعبيرهم عن التشيع بكونه بدعة كما هو فى كثير من عبارات أهل الحديث، فالبدعة هنا فى مقابلة سنة السياسة لا سنة الشريعة المقدسة. و إذا أردنا إجراء الحساب معهم عما ارتكبهوا فى حق الشيعة فلا يستطيعون الجواب بشيء، لأنهم ساروا مع التقاليد السياسية التي أجمع عليها الحكام و اتفق عليها الظلمة عبر العهود الطويلة التي ذاق فيها الشيعة الأمرين. و من الغريب بل المستهجن أن تتلقى العقول حتى اليوم ما سئة الأمويون و العباسيون و ابتدعوه من طرق مخالفة لروح الإسلام و أعمال منافيه لأحكام الشريعة، و إلا فما هى بدعة التشيع و هم مجمعون على أن الشيعة هم الذين شايعوا عليا و تابعوه، و من الغريب جدا أن تكون متابعة على و الأخذ عنه و محبة أهل بيته بدعة؟ «ما جاءنا بهذا من سلطان». أ ليس فى ذلك مخالفة صريحة لأقوال النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى على الدالة بوضوح على وجوب حبه و لزوم اتباعه، كقوله صلى الله عليه و آله و سلم: «يا على لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق». و لما سئل الإمام أحمد بن حنبل عما يروى أن عليا عليه السلام قسيم الجنة و النار فقال أحمد: و ما تنكرون من ذا؟ أ ليس قد روينا أن النبي صلى الله عليه و آله قد قال: «لا- يحبك إلا- مؤمن و لا- يبغضك إلا منافق» قالوا بلى. قال: فأين المؤمن؟ قالوا: فى الجنة. قال: فأين المنافق؟ قالوا: فى النار، قال أحمد: فعلى قسيم الجنة و النار. و على أى حال فإن خصوم الشيعة لم يظفروا يوما ما بالذى حاولوا تحقيقه من وراء اتخاذ تلك الوسائل فى مقابلة الشيعة، و قد أحاط الفشل بتلك العوامل، و لم

ينجح النجاح المأمول في عرقلة سير انتشار مذهب أهل البيت و لم تؤثر تلك الدعايات لأنها أسباب بعيدة عن الواقع، لذلك وقف تيارها و أخذ المذهب في الانتشار، فأصبح في أقطار العالم عدد من الإمامية لا يقل عن تسعين مليوناً. و بذلك يصبح لنا أن نحاسب الكتاب الذين تولعوا بدم الشيعة، و التهجم عليهم خضوعاً لمؤثرات العاطفة، و استجابة لدواعي الفرقة بين طوائف المسلمين، و لا أدري بما ذا استساغوا هذا النقد و تولعوا بالدم. و إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح، فإن الأرقام تقف عن مسيرتنا، و ربما تقصر عن الإحصاء، و لا نريد منهم إلا الاعتدال في الحكم و ترك المغالطات و التقولات، فإن ذلك نقص بمن يدعى العلم و الثقافة، فقد مرت العصور و انتهت الأوضاع التي تقتضى إثارة الفتن، و إيقاد نار البغضاء بين المسلمين، فما لهم يضربون على وتر الطائفية بين آونة و أخرى، و لحساب من يكون هذا و من هو الرابع في تلك المعركة؟ نعم إنما الريح في جانب أعداء الإسلام. إن من يفسح لفكره المجال في البحث النزيه و التحقيق العادل عما اتهم به الشيعة من أمور تخالف الإسلام فسيقف على خلاف ما قيل عنهم. فكل ما أحيط بالشيعة من أمور يتعد به عن دائرة الواقع إنما هي أمور مصطنعة لا تمت إلى الحقيقة بشيء، و لا يفوتنا أن ننبه عن أعمال الكذابين الذين اتخذتهم السياسة الجائرة لدعم كيانها. إن هؤلاء باعوا ضمائرهم، و اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق. و من المستحسن أن نشير لبعضهم و قد عبرنا عنهم بلجان الوضع كما تقدم، و هي من جملة بدع معاوية و من معالم سنته و سياسته التي تلقفها بأمانة بنو العباس. لقد سعى معاوية إلى إرساء حقه الأمامي و كرهه الجاهلي لشخصية الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام على أساس له طابع ديني و الظرف مهياً له بعد انقياد أهل الشام لإرادته فقرن سنته السيئة في لعن الإمام بحملة مسعورة لوضع الأحاديث في عثمان لمقابلة الأحاديث الصحيحة و المشهورة عن الإمام فقام ياغداق الأموال و يزيدها حسب رغبة من يرضى لنفسه بالكذب و الدنية، فتهافت كثيرون ممن لهم شأن في علم الحديث على السحت الحرام غير أبهين بلظى النار التي أوعدهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم بها.

## حركة الوضع:

اتسع نطاق الكذب على الله وعلى رسوله، و تلاطمت أمواج الافتراء و تصدر قوم لا أمانة لهم، و لا دين يردعهم، و لا عهد لم بالصدق، فحدثوا الناس بالكاذب، و نمقوا و زوروا، و وضعوا من الأحاديث كيفما شاءت رغباتهم، إرضاء لسلطان لا يعنى للصدق حرمة، و لا يرى للدين قيمة، فدرج الناس على ذلك و تلقنوا تلك الأحاديث بلا تمحيص و لا تتبع. و لا أريد أن أتعرض لعهد الصحابة و ما حدث فيه من أحاديث، فإن يد الوضعيين انتحلت سلسلة تتصل بهم في الحديث، لأن أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم أجل قدرا و أعلى منزلة من تعمد الكذب عليه، إلا من صارعته الدنيا فصرعته و باع آخرته بدنياه فكان نصيبه الخسران، و ما هو من مصداق الصحبة في شيء كسمرة بن جندب و غيره، الذي كان يساومه معاوية في وضع الأحاديث أو تحريف ما أنزل الله بمئات من الآلاف من الدنانير كما هو مشهور عنه. و لكن نريد أن نتعرض لعصر اشتداد الفوضى و الخروج على حدود الأمانة في النقل، يوم دار الزمان دورته، و دب داء الحسد و التنافس على حب الرئاسة و التقرب إلى السلطان، عند ما اشتدت حاجته إلى مرتزقة يجعلهم قنطرة إلى غايته، ليبرر مواقفه المخالفة لأحكام الدين، فكان ما كان من تشجيع للكذابين و الوضعيين، فكانت هناك سلسلة أحاديث موضوعة رغبة في نواله، و طلبا لاستصفاء وده، و قد فتحت باب التقرب إلى السلطان بمفاتيح الأكاذيب، فدخل الكثير منهم. فهذا غياث بن إبراهيم يدخل على المهدي، و كان المهدي يحب الحمام، فطلب منه المهدي أن يحدثه، فيأتي بحديث عن أبي هريرة لا سبق إلا في حافر أو نصل، و أضاف إليه أو جناح، فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم، فلما قام غياث قال المهدي: أشهد أنه قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم جناح و لكنه أراد أن يتقرب إلى (1).

ص: 282

و يدخل أبو البختری وهب بن وهب قاضی بغداد علی هرون الرشید، و هرون یطیر فی الحمام فقال هل تحفظ فی هذا شیء؟ فقال: نعم، حدثنی هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبی صلی الله علیه و آله و سلم كان یطیر الحمام، فنرى القاضی هنا سریع الارتجال بوضع الأحادیث رغبة لنوال السلطان و تحببا إليه، بدون التفات إلى مؤاخذه أو خوف من الله تعالى. و كان شاه بن بشر بن مامیان معروفا بالوضع فی الدولة العباسیة. و من أحادیثه عن جابر بن عبد الله مرفوعا: أتانی جبرئیل و علیه قباء أسود و منطقة و خنجر، فقلت ما هذا؟ فقال: یأتی زمان یكون لباسهم كهذا قلت: یا جبرئیل من یكون رئیسهم؟ قال: من ولد العباس. و استجلب الرشید إسحاق المعروف بأبی حذیفة المتوفی سنة 200 هـ، و هو معروف بالكذب و مشهور بالوضع، فأمره الرشید أن یجلس فی مسجد ابن رغبان و یحدث الناس، فأخذ إسحاق یحدث بالأكاذیب، و یروی عن خلق من الثقات أكثرهم ماتوا قبل أن یولد (1). و استقدم المهدي أبا معشر السندی، و أشخصه إلى بغداد، و قال: تكون بحضرتنا تفقه من حولنا، و كان أبو معشر ماهرا بوضع الأحادیث و القصص. قال ابن جزرة: أبو معشر أكذب من تحت السماء (2) و صنف كتاب المغازی. و روی عنه الواقدي و ابن سعد، و قد نعم فی بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسی، و قد استمد منه الطبری معلومات عن التاريخ الإنجیلی و من تاریخ النبی صلی الله علیه و آله و سلم، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاریخیة تنتهی إلى عام وفاته.

### السلطة و وضع الحدیث:

و ناهیک ما ابتدعه هؤلاء من الأحادیث حبا للدنيا بما یقر بهم عند السلطان زلفی، لمخالفتهم الشرع و خروجهم عن سلطان العقل.

ص: 283

[1-1] تاریخ بغداد ج 6 ص 346. [1]

[2-2] تاریخ بغداد ج 4 ص 431. [2]

و هناك عناصر فى الؤضع من طراز آخر؁ و هم الؤذين قاموا بنصر مبادئهم فى وؤضع الأحاءىث على لسان صاحب الرسالة بدون مبالاة. فهذا نعىم بن حماء بن معاوية المئوفى سنة 227 هـ-كان ماهرا فى وؤضع الؤءىث؁ مئجرنا على مقام صاحب الرسالة. قال الؤهبى: و كان يوضع الؤءىث فى تقوية السنة؁ و حكاءيات فى ثلب أبى حنيفة و كان صلبا فى السنة. و منهم أحماء بن عمرو بن مصعب بن بشر؁ كان من الؤضاعىن و من أهل السنة المءوءىن؁ و وؤضع بؤلك كئبا فى تقوية السنة كلها موضوعة مئشرة عند الؤراسانىن فى عصره؁ و كان معروفا فى نصرة السنة بؤضع الأحاءىث الكاءبة عن الثقات (1). و منهم على بن أحماء بن مءمء بن عمر و كان شءىء العصبىة فى السنة يوضع الأحاءىث فى نصرتها (2). و منهم أحماء بن عبء الله الأنصارى كان من الؤضاعىن لنصرة السنة؁ و هو واضع الؤءىث عن ابن عمر مرفوعا فى قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ [آل عمران:106] قال: فأما الؤذين ابىضئ وءوههم: أهل السنة و أما الؤذين اسوءئ وءوههم: أهل البءعة و ءىرهم (3) و سىأتى الؤءىث عنهم فى الأءزاء الآئىة. لقد كان ءظر أولئك الؤءالىن عظمىا ءءا؁ فإئهم تقربوا لؤلاة الأمر بؤضع الأحاءىث؁ فاتءءوا منهم أعوانا على حل مشاكلى يعءزمهم حلها بالقوة؁ و لكنهم ءعلوا ما يضعونه وسىلة لتعزىز مءكزمهم أولا؁ و مقابلة ءصومهم ئانىا؁ و إشغال الرأى العام ئالئا؁ و كان الأمر الؤى يهمهم قبل كل شىء هو أمر الشىعة الؤىن آئروا تضءىة النفس على الإءعان للءصم؁ و لم تربطهم معهم رابطة؁ و لم يعترفوا بصءة تلك الؤلاىة الؤائرة؁ فلا يصء لهم السكوء عن معارضئها و هم ءاصبون للءءلافة ظالمون لنظام الؤءم الإسلامى الؤى ءعلوا منه ملوكىة مسئبءة و مؤسسة ظالمة لا تمئ إلى قىم العءل الإسلامى إلا بالاسم؁ لؤلك سلكت السلطة طرق المءر و الؤءاع و التموىه على الناس؁ ءئى بلع بهم الأمر إلى وؤضع الأحاءىث بءروج الشىعة عن الإسلام كما مر بىانه؁ و هى ءءل بمنطوقها على ءءلىل ءمائهم و معامئتهم معاملة الكفرة؁ و هىهات أن

ص:284

1-1 (1) ءارىء بءءاء ء 5 ص 73. [1]

2-2 (2) ءارىء بءءاء ء 5 ص 73. [2]

3-3 (3) شءرات الؤهب ء 3 ص 226.

ينطبق ذلك على الواقع، ورجال الأمة لم يكونوا بتلك الدرجة من الجهل وعدم المعرفة بحيث يجهلون الشيعة و ما لهم من الأثر في المجمع الإسلامي، فقبول مثل تلك المنكرات أمر شاق يصعب تحقيقه و يبعد نجاحه، و لكن السلطة بذرت تلك البذرة في أذهان السواد جعلت تتعهدا و تحسن رعايتها بيد علماء السوء، الذين اتخذوهم أعوانا في ساعة هم أحوج إليهم فيها من السيف و الجند، فقوة فتكهم أثمرت الشحنة بين أفراد المجتمع الإسلامي، و تركوا له قرحة دامية في جسم الأمة أعجز رجال الإصلاح علاجها حتى أيامنا هذه. و قد كان أولئك الدجالون على أنواع في الوضع، و اختلاف في الغاية. فمنهم من يضع الحديث طمعا في الدنيا و تزلفا لولاة الأمر و هم الذين نعبر عنهم بلجنة الوضع، و أول من اتخذ ذلك معاوية بن أبي سفيان (1) كما تقدم معنا. و منهم من كان يتعصب لمبدئه فيضع الحديث تقوية له، و مخالفة لخصمه و يعدون ذلك تدينا، و سينالون الجزاء عليه يوم الجزاء. و منهم من يضع الحديث في نصرة مذهبه، و هؤلاء يرون الانتصار لمذهبهم انتصارا للحق و مقاومة للباطل، و زين لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة، و يخلقون الحكايات و القصص. و يطول بنا الحديث إذا أردنا التوسع في البحث عن الوضعين و الكذابين، و لعل لنا في الوقت متسعاً فنشر أسماءهم، و قد أحصى شيخنا الأميني منهم عدداً بلغ ستمائة و عشرين، و مجموع ما وضعوه من الأحاديث و ما قلبوا أسانيدهم على اختلاف الأهواء و النزعات فكان 408324 حديثاً (2). و قد أخرجنا من تلك الموضوعات ما يقارب الأربعمئة في الفضائل و المناقب و في بعضها أساطير لا-أحاديث، و حكايات يصنعها القصاصون بمهارة و يبتونها بين الناس. و من أعظم تلك الافتعالات هي أسطورة ابن سبأ التي لا زالت تحتل مكانتها فوق صفحات التاريخ و تأخذ وقتنا من كتاب عصرنا الحاضر.

ص:285

[1-1] انظر شرح النهج ج 1 ص 258. [1]

[2-2] الغدير ج 5 ص 245. [2]

ولعمري إنها محنة ولكن كيف المخرج؟ وهل يتسنى لنا تصفية الحساب لنعالج هذه المشاكل؟ كيف وقد سرى داؤها في المجتمع، و أخذها المهرجون مأخذ القبول وجعلوها بمحل الاعتبار، وراحوا يؤيدون تلك الموضوعات إذ وافقت أغراضهم، وجعلوها في منهاج الاحتجاج، ولم يتلفتوا لحالها وحال رواتها ممن أعماه التعصب، فضغت مواهب إدراكه، ولم يستطع تمييز الحق من الباطل، وقد خانه الاتزان والتعقل، فهوس و هرج وموه و افتري، و حاول إخفاء حقيقة لا يمكن إخفاءها.

### القصاصون و أثرهم في المجتمع:

و لا بد لنا من الإشارة إلى بعض أعمال القصاص و ما لهم من الأثر في توجيه الرأي العام لقبول تلك المنكرات عند العامة. فإنهم قاموا في المساجد و الجوامع و الطرقات و الأندية يبثون تلك المنكرات نصرة للسلطة، و تأييدا للمبادئ المبتدعة، و لقد اتخذت السياسة منهم سلاحا فاتكا. فكانوا ينشرون القصاصين في ساحات الحرب يشجعون الجند على التضحية حتى تطورت الحالة إلى اختراع الأحاديث و القصص لإيقاع الفتن بين طوائف المسلمين. و لقد خضعت العامة لتصديقهم و قبول مفتعلاتهم، حتى أصبح من العسير الإنكار عليهم. يحدثنا الشعبي: أنه أنكر على قاص حدث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن الله خلق صورين، له في كل صور نفختان. فقال الشعبي: اتق الله يا شيخ و لا تحدث بالخطأ إن الله لم يخلق إلا صورا واحدا. فقال القصاص: يا فاجر إنما حدثني فلان عن فلان و ترد عليّ؟ ثم رفع نعله فضربه، و تتابع القوم عليه بالضرب فما خلص نفسه حتى حلف ان الله خلق ثلاثين صورا في كل صور نفخة (1). و حدث أحدهم بحديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن من بلغ لسانه أرنبه أنه لم يدخل النار. فلم يبق أحد منهم إلا و أخرج لسانه يومئذ به إلى أرنبه أنه (2).

ص: 286

1-1) تحذير الخواص للسيوطي.

2-2) الأغاني ج 12 ص 5. [1]



وأنكر الطبري على قاص ببغداد ما يحدث به من الأكاذيب فرمى العامة باب دار الطبري بالحجارة حتى سدوه، وصعب الخروج منه. ونزل القصاص إلى غمار العامة يقصون لهم القصص الدينية، والأساطير والنوادر في المساجد والطرق، وينالون بها مالا كثيرا، وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء. قال ابن الجوزي في المنتظم: وكان القصاص في أواخر القرن الرابع أكبر مثيري الفتن بين السنة والشيعة. وعلى أي حال فلو حاولت أن أصف هنا عظيم الأثر الذي تركته تلك الأوهام والأكاذيب التي وضعها الدجالون والقصاصون الذين يلقنون العوام إياها وبالأخص بغض الشيعة وعداء أهل البيت لطال بنا الحديث، وعظمت قائمة الحساب، ولكننا نقتصر على هذا القدر ولا نلم بجميع العوامل التي دفعت الناس إلى التهجم على الشيعة، فذلك يحتاج إلى وقت طويل، وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب. ولهذا نقتصر على نتيجة واحدة في تصفية الحساب، وهي لفت نظر أبناء العصر الحاضر إلى رعاية حقوق الأمة، وأن يستعرضوا تاريخ الشيعة بدون تعصب وتحيز، وأن يلحظوا تطور المذهب الجعفري وسيره في طريق التقدم بما لديه من القوى الحيوية، والقدرة على مقاومة الطوارئ، وتخطي تلك الحواجز التي وقفت في طريقه، ما لو وقف بعضها في طريق غيره من المذاهب لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة، لأنها عوامل جبارة تجعله أقوى من كل ظرف ومعتك يختلقه الظلمة والجبارون وسيبقى على هذه القوة محتفظا بعوامل البقاء والدوام حتى تظهر دولة الحق وتقوم الساعة. على أن المذهب الجعفري ليس باستطاعة أي أحد مؤاخذته بشيء في ذاته، فهو موافق للشعور المتطور والوجدان، وكتاب الله العزيز، والسنة المستقيمة، وقد وجد العقل السليم فيه بغيته، كما أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه وقد برهن بغزارة مادته، ومرونة أحكامه، ودقة بحوثه، وسلامة قواعده، ونقاوة أصوله وفروعه على أنه أقوى مصدر للتشريع الإسلامي، و يتطور مع الزمن ومع كثرة الحوادث. ولكن المؤسف أن نرى الكثير ممن كتبوا عن التشريع الإسلامي قد اقتصروا

على ذكر المذاهب الأربعة فحسب، وإذا انجر الحديث إلى ذكر اختلاف الآراء وتعدد الأقوال في مسألة فقهية ذكروا آراء رؤساء المذاهب البائدة ولم يذكروا أقوال أهل البيت وآراءهم. عذرنا أولئك القوم الذين دونوا الفقه في العصور الغابرة لأن الخشية من ذكر مذهب أهل البيت قد أرغمتهم على الإعراض عن ذكره، فإن التعرض لذلك إنما هو تعرض للخطر، ولكننا نعجب من المتأخرين الذين ساروا تلك السيرة الملتوية، ولم يعطوا مذهب أهل البيت حقه من العناية في البحث. ولا يستبعد أن التقليد من حيث هو قد دعاهم لمخالفة الواقع، وإلا فما المانع من التعرض لذكر مذهب أهل البيت عند ما يكتبون عن التشريع الإسلامي؟ وقد انتشر في أقطار الأرض، وعبر إلى ما وراء البحار، وأصبح مؤيدوه يتجاوز عددهم التسعين مليوناً، ولكن هناك عوامل حالت بينهم وبين الاحتكاك بمذهب أهل البيت، وليس عليهم كلفة في معرفته إلا أن يقرأوا الكتب المدونة في ذلك ليقفوا على الحقيقة وعليهم أن يتقبلوا الحق وإن كان مرّاً، أو يرفضوه إن وجدوا لديهم أدلة عقلية. ولعل تلك الدعايات المارة الذكر قد خامرت الأدمغة، وتوارثتها الأجيال وهي التي أدت إلى ابتعادهم عن الحقيقة. ولذلك عجز المصلحون عن مسألة التوفيق بين المسلمين، ورفع سوء التفاهم، مع ما بذلوه من النصح وأجهدوا أنفسهم لتحقيق هذه الغاية، وهذا أمر غريب جداً فإنه لم يكن هناك شيء من الأمور المتضادة التي لا يمكن بحثها، والوقوف على حقيقتها، حتى أصبح من الصعب التوفيق بين المسلمين، ونبتذ تلك الخلافات، فالشيعة لم يكن لهم مذهب يخالف بأحكامه كتاب الله وسنة رسوله. وأرى من الخير أن أتعرض هنا لما ذكره المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» عن عدول الناس عن مذهب الشيعة-بالأخص- في أربع مسائل، ونجيب عن ذلك باختصار من القول، وموجز من البيان.

### عدول الناس عن المذاهب:

اعلم أن الناس قد عدلوا عن مذهب أبي حنيفة في أربع: صلاة العيدين إلا بزبيد، وصدقة النخيل، وتوجيه الميت عند الموت، والتزام الأضحية. وعدلوا عن مذهب مالك في أربع: الصلاة قدام الإمام إلا بالمغرب ويوم

الجمعة بمصر، وفي أكل لحوم الكلاب (1) إلا- بمدينتين بالمغرب تباع جهرا، و تطرح في عرائس مصر و يثرب سرا، وفي الخروج من الصلاة بتسليمة واحدة. و عدلوا عن مذهب الشافعي في أربع: الجهر بالبسملة إلا بالمشرق في مساجد أصحابه، و كذلك القنوت بالفجر، و في اختصار النية في تكبيرة الافتتاح، و في ترك القنوت في الوتر. و عدلوا عن مذهب داود في أربع: تزويج ما فوق الأربع، و إعطاء الاثني عشر النصف، و لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، و في مسألة العول. و عدلوا عن أصحاب الحديث في أربع: المتعة في الحج، و المسح على العمامة، و ترك التيمم في الرمل، و انتفاء الوضوء في القهقهة. و عدلوا عن مذهب الشيعة في أربع: المتعة، و وقوع طلاق الثلاث واحدة، و المسح على الرجلين، و الحيلة في الأذان. و تلك المسائل التي عدلوا فيها عن المذاهب موجودة في كتب الفقه، و لا حاجة بنا إلى التعرض لذكرها لأننا قد أفردنا بحثا خاصا بالفقه و سيأتي، نعم الشيء المهم هو النظر في هذه المسائل التي يقول فيها المقدسي بعدول الناس عنها في المذهب الجعفري، فهل هي بدعة فتركها الناس أم انها من المسائل المقررة في الشريعة الإسلامية؟ فلا بد لنا من البحث- بإيجاز- عن هذه المسائل لنرى ما هو الحق:

### المتعة و تشريعها:

أما عدولهم عن متعة النساء فإنما هو عدول عما شرعه الله و رسوله للمسلمين و قد عمل به أصحابه من بعده مدة خلافة أبي بكر، و شطرا من خلافة عمر، و استمروا على العمل بها حتى نهى عنها عمر بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أنا أنهى عنهما و أعاقب عليهما: متعة الحج و متعة النساء» فإباحة المتعة مقطوع به على عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ادعاء النسخ لذلك الحكم لا يثبت. و كان ابن عباس حبر الأمة يأمر الناس بالمتعة، و كان ابن الزبير ينهى عنها فذكر ذلك لجابر فقال: على يدى دار الحديث تمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلما قام عمر

ص: 289

(1-1) سيأتي الكلام في الجزء الثانى حول جواز أكل الكلاب في مذهب مالك.

قال: إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء، فأتوا الحج والعمرة وأبقوا نكاح هذه النساء، فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة. وأخرج مسلم في باب نكاح المتعة من صحيحه عن أبي نضرة قال: كنت عند جابر بن عبد الله فأتاه آت فقال: إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين فقال جابر: فعلناهما مع رسول الله، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما. وقد ذهب إلى القول بها جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأبي المؤمنين علي عليه السلام كما روى عنه أنه قال: لو لا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقى. ومنهم عبد الله بن عباس وكان يقول: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لو لا نهيه (يعنى عمر) عنها ما احتاج إلى الزنا إلا شقى. ومنهم عبد الله بن عمر، أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمر قال: سألت رجل ابن عمر عن متعة النساء فقال: والله ما كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زانين ولا مسافحين. ومنهم عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لنا شيء، فقلنا ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل. ثم قرأ عبد الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (1)[المائدة:78]. وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع أنه قال: كنا في جيش فأتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنه قد أذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا (2). وأخرج مسلم عن عمران بن الحصين أنه قال: تمتعنا مع رسول الله ولم ينزل فيه القرآن، قال رجل برأيه ما شاء (3). وعلى أي حال فإن تشريع زواج المتعة في الإسلام بشروطه المعتمدة فيه قد اتفق عليه السنة والشيعة، و دل عليه القرآن الكريم كقوله تعالى: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً [النساء:24].

ص:290

1-1 (1) صحيح مسلم ج 4 ص 129.

2-2 (2) نيل الأوطار للشوكاني ج 6 ص 124.

3-3 (3) صحيح مسلم ج 2 ص 48.

وعلى هذا الاتفاق ساروا على القول بها في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ وَشَطْرًا مِنْ عَهْدِ عُمَرَ إِلَى أَنْ نَهَى عَنْهَا كَمَا مَرَّ، فَافْتَرَقُوا عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، فَالشَّيْعَةُ أَخَذُوا بِحَلِّيَّتِهَا وَلَمْ يَتْرَكُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ لِقَوْلِ عُمَرَ. وَلَمْ يَحِلَّ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَقُولَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَمَعَاوِيَةُ، وَعُمَرُ بْنُ حَرِيثٍ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ وَسَلْمَةُ ابْنَةُ أُمِّهِ بْنِ خَلْفٍ وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ بِهَا جَمَاعَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ مِنْهُمْ طَاوُسٌ، وَعَطَاءٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَسَائِرُ فَهَاءِ مَكَّةَ (1). وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ الْبَحْثِ فِي الْأَجْزَاءِ الْقَادِمَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

### الطلاق الثلاث واحدة:

اتفقت الإمامية على أن طلاق الثلاث واحدة، فلو طلقها ثلاثا بدون مراجعة لم تحرم عليه، ويجوز له مراجعتها ولا تحتاج إلى محلل. نعم الطلاق المحرم الذي لا تحل المطلقة بعده لمطلقها إلا بالمحلل الشرعي، إنما هو لو طلقها ثم راجعها وهكذا ثلاثا حرمت عليه في الطلاق الثالث، وهو المسبوق برجعتين مسبوقتين بطلاقين، وحينئذ لا تحل المطلقة بعد لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره، وبه جاء التنزيل *الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ [البقرة: 229]* إلى قوله عز وجل: *فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ [البقرة: 230]*. وقد خالف الأكثر من علماء السنة، فجعلوا قول الزوج لزوجته: أنت طالق ثلاثا يوجب تحريمها ولا تحل إلا بالمحلل، وقد كان على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعد طلاق الثلاث واحدة، كذلك في أيام أبي بكر وشطرا من عهد عمر بن الخطاب. أخرج مسلم في صحيحه بسند عن ابن عباس أنه كان الطلاق على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأبي بكر وسنتين من عهد عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن

ص: 291

الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة: فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه (1) وجعل البتة واحدة (2). وأخرج عن أبي الصهباء أنه قال لابن عباس: أتعلم أنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر و ثلاث من إمارة عمر فقال ابن عباس: نعم (3). وأخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غضبان ثم قال: أيلعب في كتاب الله وأنا بين أظهركم (4). وعن ابن عباس أن ركانة طلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: كيف طلقته؟ قال: ثلاثاً. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: في مجلس واحد؟ قال: نعم. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إنما تلك واحدة فارجعها إن شئت (5). وأخرج الترمذي بلفظه عن عبد الله بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده قال: أتيت النبي (صلى الله عليه وآله) فقلت: يا رسول الله إني طلق امرأتى البتة؟ فقال: ما أردت بها؟ قلت: واحدة. قال: والله، قلت: والله. قال: فهو ما أردت (6). قال الألويسي في تفسيره: وفي وقوع الثلاث بلفظ واحد وكذا في وقوع الطلاق مطلقاً في الحيض خلاف، فعند الإمامية لا يقع الطلاق بلفظ الثلاث ولا في حالة الحيض، لأنه بدعة محرمة وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ونقله غير واحد عن ابن المسيب وجماعة من التابعين. قال الشوكاني: وقع الخلاف في الثلاث إذا وقعت في وقت واحد، هل يقع جميعها ويتبع الطلاق أم لا؟ ثم ذكر القائلين بالوقوع: وهم أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم ثم قال: وذهب بعض من أهل العلم: لا يتبع بل يقع واحدة فقط، وحكى ذلك عن أبي موسى، ورواية عن علي عليه السلام، وابن عباس، وطاوس، وعطاء، ورجاء، والهادي والقاسم، والباقر، إلى آخره.

ص: 292

- 
- 1-1 (1) صحيح مسلم ج 4 ص 183.  
2-2 (2) صحيح الترمذي ج 5 ص 133. [1]  
3-3 (3) صحيح مسلم ج 4 ص 183.  
4-4 (4) نيل الأوطار للشوكاني ج 4 ص 226.  
5-5 (5) نيل الأوطار للشوكاني ج 4 ص 226.  
6-6 (6) صحيح الترمذي ج 5 ص 131. [2]

و الحاصل أنه لا خلاف عند المسلمين بوقوع الطلاق الثلاث واحدة، في عهد النبي و أبي بكر و شطرا من إمارة عمر، و بعد ذلك ألزم عمر الناس بوقوع مثل هذا الطلاق اجتهادا منه، و عند هذه النقطة تفترق الشيعة عن السنة، فالشيعة يأخذون بقول النبي و يتبعون ما شرعه و لا يلتزمون بتنفيذ اجتهاد عمر و ترك تلك النصوص الدينية المقدسة من الكتاب و السنة، فقد دعته مصلحة رآها و لكن المصلحة عندنا هي اتباع الرسول امثالاً- لقوله تعالى: **وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا** [الحشر:7]. يقول الأستاذ الغزالي: و جمهور الفقهاء الأقدمين جعلوه بدعيا و يقع الطلاق به و هم في هذا يتبعون اجتهاد عمر رضى الله عنه إلى أن يقول: و بدلا من أن يلتزموا منهج السنة آثروا البدعة المحرمة، و نطقوا بالطلاق الثلاث دفعة واحدة، و كان ذلك إذا حدث في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ غضب منه أشد الغضب و لم يجعله إلا واحدة (1).

### المسح على الرجلين:

المسح على الرجلين مشروع على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كما رواه الجمهور عن معلى بن عطاء عن أبيه عن إدريس بن أبي أويس الثقفي: أنه رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ توضأ و مسح على قدميه. و أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر أنه قال: تخلف عنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فأدركنا و قد حضرت الصلاة، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنأدى: «ويل للأعقاب من النار». قال القرطبي: و هذا الأثر و إن كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به في منع المسح فهو أدل على جوازه منه في منعه، لأن الوعيد إنما تعلق فيه بترك التعميم لا بنوع الطهارة بل سكت عن نوعها، و ذلك دليل على جوازه و وجوب المسح هو أيضا مروى عن بعض الصحابة و التابعين. و الغرض أن أهل السنة اختلفوا في فرض الرجلين، فقال قوم: فرضهما المسح. و قال آخرون: فرضهما الغسل و ذهب بعضهم إلى التخيير بين المسح و الغسل، كما هو مذهب ابن جرير و داود الظاهري و غيرهما.

ص: 293

أما الشيعة فاتفقوا على وجوب المسح لدلالة الآية الكريمة و هو قوله تعالى: **وَإِمْسَ حُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ** [المائدة:6] بالنصب عطفًا على موضع برءوسكم كما هو المعروف باللغة العربية و هو كالعطف على المحل، وقرأ غيرهم بالخفض على المجاورة، و هو شاذ في اللغة ورد في مواضع لا يلحق بها غيرها و لا يقاس عليها سواها، و لا يجوز حمل كتاب الله على الشذوذ الذي ليس بمعهود و لا مألوف، و الإعراب بالمجاورة إنما يكون عند من أجازها، عند فقدان حرف العطف. و قد صح في صفة وضوء النبي صلى الله عليه و آله و سلم من طريق أهل البيت أنه غسل وجهه و ذراعيه ثم مسح رأسه و قدميه، و صح عن ابن عباس أنه قال: ما أجد في كتاب الله إلا غسلتين و مسحتين. و سنقف على بيان ذلك في الجزء الخامس من هذا الكتاب إن شاء الله.

## الأذان و حى على خير العمل

إن كلمة «حى على خير العمل» كانت على عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلم جزءًا من الأذان و من الإقامة، و لكنهم ادعوا نسخها بعد ذلك، و الصحيح أنها كانت على عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أبى بكر و شطرا من عهد عمر، و لكنه نهى عنها كما نهى عن متعة النساء (1) و لقد أبدلوا مكانها كلمة الصلاة خير من النوم، كما يروى مالك بن أنس فى موطأه: أن المؤذن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح فوجده نائمًا فقال: الصلاة خير من النوم، فأمره عمر أن يجعلها فى نداء الصبح، قال الزرقانى فى شرح الموطأ: هذا البلاغ أخرجہ الدارقطنى فى السنن من طريق وكيع فى مصنفه عن العمرى عن نافع عن ابن عمر عن عمر أنه قال لمؤذنه: إذا بلغت حى على الفلاح فى الفجر فقل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم. و لا وزن لما جاء عن محمد بن خالد بن عبد الله الواسطى أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم استشار الناس لما ينبههم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى، فأرى النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد و عمر بن الخطاب فطرق الأنصارى رسول الله ليلاً، فأمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بلالا فأذن به. أما رجل هذه الرواية و هو محمد بن خالد بن عبد الله الواسطى كذاب لا يصح

ص:294



أخذ الأحاديث عنه، وقد نص على ذلك يحيى بن معين، وضعفه أبو زرعة، وأنكر عليه ابن عدى أحاديثه، وقال يحيى: هو رجل سوء فلا يلتفت إلى ما يرويه في تشريع الأذان على الرؤيا، وقد ذكر الناس رؤيا عبد الله بن زيد في تشريع الأذان فلما سمع الحسين بن علي عليه السلام غضب وقال: الوحي ينزل على الرسول ويزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد الله بن زيد والأذان وجه دينكم، ولقد سمعت أبي علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: أهبط الله ملكا عرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء إلى أن قال: وبعث الله ملكا لم ير في السماء قبل ذلك الوقت فأذن وأقام وذكر كيفية الأذان، ثم قال جبرئيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد هكذا أذن للصلاة. وقد أجمعت الإمامية على كون الأذان من الأحكام التي نزل بها الوحي من الله لا يرجع ذلك إلى رؤيا كما يقولون، وكلمة «حي على خير العمل» جزء من الأذان، وقول: «الصلاة خير من النوم»، إنما هو من اجتهادات الخليفة عمر، وقد صح عن ابنه عبد الله أنه كان يقول في أذانه: «حي على خير العمل» وكذلك امامة بن سهل بن حنيف كما ذكره ابن حزم في المحلى وكان أهل البيت يأتون بها لثبوتها وعدم دليل على نسخها، وأذن بها الحسين بن علي صاحب فخ (1) وعلى ذلك استمرت الشيعة في اتباع أهل البيت عليهم السلام وعدم الرجوع لغيرهم وكان ذلك شعارهم في جميع الأدوار. والغرض أن هذه الأمور التي يقول عنها المقدسي بعدول الناس فيها عن مذهب أهل البيت لم تكن من الأمور المبتدعة بل هي مقررة في الإسلام. وسيأتي في مباحث الفقه مزيد بيان حول هذه المسائل وغيرها. أما المسائل التي عدل عنها الناس - كما يقول المقدسي - عن المذاهب الأخرى فلا يسع المجال للبحث عنها هنا.

ص: 295

1-1) ظهر الحسين بن علي بن الحسن السبط بالمدينة المنورة، وكان معه جماعة من الطالبين و حاربه عامل العباسيين فهزمه الحسين و بايعه الناس على كتاب الله و سنة رسوله للمرتضى من آل محمد (صلى الله عليه وآله) و أرسل له العباسيون جيشا فقتل يوم التروية بفخ و مما هو جدير بالذكر أن موسى بن عيسى العباسي أرسل رجلا إلى عسكر الحسين حتى يراه و يخبره عنه، فمضى الرجل و رجع و قال له: ما أظن القوم إلا منصورون فقال: و كيف ذاك يا ابن الفاعلة؟ قال الرجل لأنى ما رأيت فيهم إلا مصليا أو مبتهلا أو ناظرا فى مصحف أو معدا للسلح، فضرب موسى يدا على يد و بكى ثم قال: هم و الله أكرم خلق الله، و أحق بما فى أيدينا منا، و لكن الملك عقيم لو أن صاحب هذا القبر يعنى النبي (صلى الله عليه وآله) نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف.

و كيف كان فإن مذهب أهل البيت يرتبط بكتاب الله و سنة رسوله ارتباطا وثيقا و لا دخل فيه للرأى و لا للقياس، كما أنه بعيد كل البعد عما أحيط به من تهم رماه بها خصومه كما أوضحنا ذلك فى الأبحاث السابقة. و هنا نقف عن مواصلة البحث عما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة من جراء الخلافات التى أوهنت الكثير من روابطهم و كدرت صفو مودتهم. و كان التعصب هو العامل القوى فى قطع تلك الروابط و المعول الهدام لصرح الأخوة الإسلامية. و الآن نتحول للبحث عن حياة أئمة المذاهب بعد أن تعرضنا لبيان نشأة المذاهب و عوامل انتشارها. و فى هذا الجزء سنعرض لحياة الإمام أبى حنيفة من حيث نشأته و مقومات شخصيته، و فى الجزء الثانى لحياة الإمام مالك بن أنس، و فى الجزء الثالث لحياة الإمام الشافعى، و فى الجزء الرابع لحياة الإمام أحمد بن حنبل. أما البحث عن الإمام الصادق فلم تقتصر عليه فى جزء واحد، بل التزمنا أن نذكر طرفا من أخباره فى كل جزء ابتداء من الجزء الأول. و لا أقول بأنى قد استوفيت البحث فى هذه الموسوعة عن حياة الإمام الصادق و ما له من آثار و مآثر، و مناقب و مفاخر فدراسة حياته لا تستوفى بسهولة، و إن ذلك أمر يشق على الباحث مهما أنفق من جهد فى هذا السبيل و فى أى ناحية يسلك فى دراسة حياته عليه السلام ليفرغ منها فراغا تاما و يحيط بها إحاطة تامة فإنه يجد نفسه فى البداية لا فى النهاية. و ليس ذلك لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد فى دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته و علو مقامه، فهو أرفع من ذلك. و إنما اتساع دائرة معارفه، و تعدد نواحي شخصيته، و عظيم أثره فى بعث الفكر الإسلامى، و جهاده المتواصل فى سبيل إسعاد الأمة، و رفع مستوى المجتمع الإسلامى، هو سبب فى قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة فى الدراسة عن شخصيته عليه السلام و النفوذ إلى معرفة كنهها. و إن العلم و الحق لكفيلان بإظهار مآثر الإمام، و للعلم حكمه، و للحق اتباعه، و نسأل الله التسديد و هو ولى التوفيق.

ذكرنا في الأبحاث السابقة أسباب نشأة المذاهب الإسلامية و انتشارها بكثرة، و تعرضنا لذكر المذاهب التي أصابها الخمول و التأخر فكان نصيبها الفناء و الإبادة بعد مدة، و لم يبق منها لإخواننا أبناء السنة إلا المذاهب الأربعة: الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي. و قد سارت هذه المذاهب في طريق الانتشار و الشهرة، و لم يعرض لها أي عارض، و لم يواجهها أي خطر يعرقل حركة السير، فكتب لها الخلود و أصبح المعول عليها اليوم. و الآن و قد انتهى بنا السير في البحث عن أئمة المذاهب الأربعة لناخذ صورة عن كل واحد منهم بدون تعصب لهم أو عليهم، فإن الباحث إذا أطل من زاوية التعصب الضيقة لا يهتدى إلى الواقع و لا يعرف الأشياء بحقيقتها، و ليكن ابتداء التعرف على الإمام أبي حنيفة أولاً و ذلك من حيث الرتبة الزمنية لا رتبة الأفضلية و الأولوية فذاك أمر يعود لغيرنا. و إن ما اتصل بنا من أخبار أبي حنيفة من طريق المغالين فيه أو المتحاملين عليه لا يوضح لنا نهج الوصول إلى الغاية. فإذا أردنا أن نتعرف على شخصية أبي حنيفة لنعرف مكانته في ذلك العصر و أهميته في مجتمعه، يلزمنا مناقشة الرجال الذين عاصروه، و لا ننظر إليه من زاويتي الغلو أو التعصب، لأننا نطلب الحقيقة و نتبع الحق بلا تعصب له و عليه، فإن رجلاً قد أصبح مرجعاً للفتيا لكثير من المسلمين يقتدون بأقواله، و يتمذهبون بمذهبه، فهو من الأهمية بمكان فلنبحث عن شخصيته لناخذ عنها صورة عن طريق البحث المتجرد عن التحيز و التعصب.

<الإمام أبو حنيفة: > هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ولد سنة 80 هـ- وتوفى ببغداد سنة 150 هـ-767 م. وكان جده زوطى (بضم الزاء و سكون الواو و فتح الطاء) من أهل كابل و قيل من مدينة نسا، أو من أهل بابل، و قد أسر عند فتح العرب لتلك البلاد و استرق لبعض بنى تيم بن ثعلبة، ثم أعتق، فكان و لاؤه لهذه القبيلة. و قد وقع الاختلاف فى نسب أبى حنيفة، فالمتعصبون له ينفون عنه الرق، و يدعون له نسبا عربيا مرة و فارسيا لم يقع عليه الرق أخرى، و الصحيح أن أبا حنيفة فارسى النسب، تيمى الولاء، كوفى النشأة. و كذلك وقع الخلاف فى محل ولادته، من جهة مقام أبيه فقيل: ترمذ. و قيل نسا. و قيل الأنبار أو الكوفة، كما أننا لم نقف على تاريخ حياة أبيه ثابت، و سنة وفاته و مدة معاشرته أبى حنيفة له. نعم يروى عن أبى حنيفة أنه قال: حججت سنة 96 هـ-، أو 99 هـ- مع والدى و أنا ابن تسع عشرة سنة، فلما دخلت المسجد الحرام رأيت حلقة فقلت لأبى: حلقة من هذه؟ فقال: حلقة عبد الله بن الحارث الخ. و هذا شىء بعيد عن الصحة: لأن وفاة عبد الله بن الحارث كانت فى سنة 85 هـ- بمصر كما سنوضح ذلك فى بحثنا حول سماع أبى حنيفة من الصحابة. و مهما يكن من أمر فإننا لم نقف على أخبار والده، و تاريخ حياته، و هل ولد على الإسلام، أم أنه أسلم بعد فتح العرب لبلاده، و استرقاق أبيه؟ و يقولون إن زوطى جده أهدى للإمام على عليه السلام فالوذجا يوم النوروز، و كان ثابت صغيرا فدعى له الإمام على عليه السلام بالبركة. أما أمه فلم يتعرض التاريخ لذكرها بالتفصيل، و قد ذكر لها أخبارا معه من حيث طاعته و معاشرته لها.

### مع الأستاذ عفيفى فى روايته:

وقد وافانا الأستاذ السيد عفيفى المحامى الشرعى بمصر، و محرر مجلة المحاماة الشرعية، بقصة من دون سند و هى تتكفل تعيين أم الإمام و شخصيتها و إليك نصها:

يقول الأستاذ السيد عفيفى عند ذكره لوالد أبي حنيفة: هو ثابت بن النعمان بن المرزبان، وكان ثابت هذا يرجع إلى دين وعقل و مروءة، تصدر عن جد، فقد روى أنه كان فى شبابه ورعا زاهدا، وكان يوما يتوضأ من جدول فجاءت تفاحة فى الماء فأمسكها وأكلها بعد الفراغ من الوضوء، ثم بصق فرأى بصاقه دما فقال فى نفسه: لعل ما أكلته حرام، وإلا لما تغير بصاقي فتبع رأس الجدول، فوجد شجرة تفاحها مثل ما أكل، فطلب صاحبها وقص عليه القصة وأعطاه درهما وقال: اجعلها فى حل، فلما رأى صاحب التفاحة ورعه وصلابته فى دينه أحبه، و قال لا أرضى بدرهم ولا بألف درهم ولا بأكثر. فقال ثابت: فبم ترضى؟ قال إن لى ابنة لا ترى ولا تنطق، ولا تسمع ولا تمشى، فإن تزوجتها أجعلها فى حل، وإلا أخاصمك يوم السؤال والحساب. فلبث ثابت فى التفكير ساعة، ثم قال فى نفسه: عذاب الدنيا أسهل و ينقضى، وعذاب الآخرة أشد وأبقى، وتزوج بها فلما دخل عليها تقبلته بقبول حسن، فاشتبه على ثابت الأمر، لأنه وجدها حسناء سمیعة بصيرة ناطقة، فقالت له: أنا زوجتك بنت فلان. قال: وجدتك على خلاف ما وصفك أبوك، قالت: نعم فإنى كنت من سنين لم أطأ خارج البيت، ولم أنظر الأجانب ولم أسمع كلامهم ولم يسمعوا كلامى، فعرف ثابت الحال وقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر:34]. يقص علينا الأستاذ المحامى هذه القصة غير ملتفت إلى المؤاخذات التى يؤاخذ بها بصفته مثقفا من أبناء القرن العشرين و يتولى مهنة المحاماة الشرعية. فيعلق عليها بقوله: هيهات لا يأتى الزمان بمثل ثابت، ولا بمثل صاحبتة فلا عجب أن يتولد منهما ولد فى صورة الإنسان وسيرة الملك، ويحيى الله به دينه القويم، ويشيع مذهبه فى الأقطار، وعلمه فى الأمصار ويقول: من هذا الوالد الورع الزاهد، وهذه الأم الطاهرة، ولد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان فى مدينة الكوفة فى سنة 80 من الهجرة النبوية فى عصر الدولة الأموية فى خلافة عبد الملك بن مروان. ويقول بعد ذلك إن اسمه النعمان وهو منقول من اسم جنس وقيل إنه الدم وقيل إنه الروح، فيكون اتفاقا حسنا لأن أبا حنيفة روح الفقه وقوامه ومنه منشأه ونظامه.

ونحن نسائل الأستاذ المحامي عن الأسباب التي دعت له لتقل هذه الأسطورة في مقدمة كتابه «حياة الإمام أبي حنيفة» أكان انتصارا للإمام ليعلم بفضل وفضل أبيه وأمه؟ وهل ضاقت عليه المسالك في مناقب أبي حنيفة فالتجأ إلى أساطير العجائز في ليالي الشتاء؟ وليته ترك هذه الأسطورة، وهو المثقف الذي يحمل شهادة المحاماة، والمفروض بالمحامي أن يحمل عقلية قوية وفكرا واسعا يستطيع به أن يتوغل إلى أعماق معقولات القوانين. ونسائله أيضا لو قدر للشيخ عفيفي حضور تشاجر الفلاح مع ثابت وطلب كل منهما حكمه في الأمر، أكان يحكم على ثابت بأنه مذنب ويلزمه بإرضاء الفلاح بكل صورة؟ وهل في وسع الشيخ أن يحكم بصحة ما ذهب إليه ثابت من أن التفاحة كانت حراما لذلك تحولت إلى دم؟ وكيف يكون ذلك من الوجهة الطبية والبيولوجية. أنا لا أدري ولعل الأستاذ محب الدين الخطيب يدري، لأنه قدم الكتاب وعرفه للقراء.

## المناقب:

لعل من أهم المشاكل التي تقف أمامنا ونحن في طريق البحث عن حياة أبي حنيفة هي مشكلة المناقب، فإنها متضخمة إلى أبعد حد، ولا نستطيع أن ندرس حياة أبي حنيفة دراسة صحيحة إلا بعد الفراغ من مشكلة المناقب لأنها أهم شيء في الباب. وإن كتب المناقب تعرقل سير الباحث بينه وبين الوصول إلى الهدف لأن فيها الإغراق في المدح، والمبالغة في الوصف، ونقل أخبار وحكايات بعيدة عن مقاييس الصحة، ولا نريد التعرض لكل ما قيل بل نقتصر على مناقشة ما يدعى وروده على سبيل البشارة وطريقة التعيين لأهلية الاتباع. وكيف كان فقد قال أصحاب المناقب ينبغي لكل مقلد إمام أن يعرف حال إمامه الذي قلده، ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة مناقبه وشمائله وفضائله، وسيرته في أحواله وصحة أقواله، ثم لا بد من معرفة اسمه وكنيته ونسبه وعصره وبلده، ثم معرفة أصحابه وتلامذته. وقد ألف كل من علماء المذاهب كتباً في مناقب إمامهم فألف الحنفية كتباً في

مناقب أبي حنيفة. منها «عقود المرجان في مناقب أبي حنيفة النعمان»، و مختصره «قلائد عقود الدرر والعقيان» لأبي جعفر الطحاوى و «مناقب أبي حنيفة» لموفق الدين بن أحمد المكي الخوارزمي المتوفى سنة 567 هـ -رتبه على أربعين بابا، و «الباستان في مناقب النعمان» للشيخ محيي الدين عبد القادر بن أبي الوفاء، و «شقائق النعمان في مناقب النعمان» للزمخشري المتوفى سنة 538 هـ -و «مناقب أبي حنيفة» لمحمد بن الكردي المعروف بالبزاز المتوفى سنة 782 هـ -وقد ترجم إلى اللغة التركية وغيرها. و توجد مناقب كثيرة في بطون الكتب على اختلاف نزعات المؤلفين و أهوائهم. يقول الدكتور أحمد أمين: كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الأتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لإعلاء شأن إمامهم، و من هذا الباب ما رووا من الأحاديث بتبشير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لكل إمام من مثل ما روى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال في أهل العراق: «إن الله وضع خزائن علمه فيهم» و مثل: «يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت، و يكنى بأبي حنيفة يحيى الله على يديه سنتي في الإسلام» الخ؛ حتى لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراة. و كذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي، و المالكية في مالك، و ما كان أغناهم عن ذلك. و من أجل ذلك صعب على الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل إمام، فكلما أتى جيل زاد في فضائل إمامه. و قد وضع أحمد بن الصلب بن المفلس أخبارا في مناقب أبي حنيفة و كان يحكى ذلك عن بشر بن الحارث و يحيى بن معين و ابن المدينى (1). لذلك نرى من اللازم البحث عن بعض المناقب التي أصبح التسليم بصحتها أمرا مفروغا منه عند بعضهم، و ترسل في معرض المدح و الثناء إرسال المسلمات. و ها نحن نضع بين يدي القراء أهم المناقب في أبي حنيفة و نعطيه عنها صورة صادقة من حيث الصحة و البطلان، فالعلم هو الكاشف لذلك، و التحقيق في البحث يحل تلك المشاكل، و لا غرض لنا بهذا إلا تجريد شخصية أبي حنيفة من أبراد الغلو فتتعرف على واقع أمره و نخلص إلى سيرة و ترجمة حقيقيتين.

ص: 301

أورد الحنيفة في كتبهم أحاديث عن صاحب الرسالة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تنص على البشارة بأبي حنيفة و تصرح باسمه، وكنيته، منها: 1- يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي. 2- يكون في أمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة. 3- يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت يكنى بأبي حنيفة يحيى الله به سنتي. بهذا اللسان و التعبير أوردوا هذه الأحاديث عن صاحب الرسالة و نحن نقف هنا موقف الحيرة. أنترك هذه الأحاديث بدون فحص و نسدل عليها ستار الإعراض، فالعقل السليم أجل من أن يحتاج إلى إيضاح مثل هذه الأمور التي تدل بنفسها على بعدها عن الواقع، أن نبحت عنها فنصرف زمنا في البحث لطلب الحقيقة فقط؟ نعم، البحث عنها أولى، لأننا وجدناها في كتب الحنفية المعتبرة عندهم، و يستدل بها أكثر علمائهم في صحة اتباع مذهب أبي حنيفة دون غيره، على أن المبرزين منهم يكذبون ذلك و ينصون على كذبها كما سيأتي بيانه، إذا لا بد لنا من البحث بإيجاز عن مصدر هذه الأحاديث و النظر في سلسلة الرواة.

### حديث السراج و إحياء الدين:

و هذا الحديث استشهد به كثير من الحنفية في تفضيل أبي حنيفة على غيره ذاهبين إلى صحته، فلننظر إلى سلسلة الحديث، و نكتفي ببعض منها و لا نتبع حلقاتها جمعاء فسلسلة الحديث تبتدئ من محمد بن سعيد البورقي، و تنتهي إلى أبي هريرة، أما محمد بن سعيد فأليك حاله و منزلته في الرواية لتعرف أهليته لحمل الحديث. قال ابن حجر: محمد بن سعيد البورقي أحد الوضاعين قد وضع المناكير على الثقات، و أوحشها روايته عن بعض مشايخه عن الفضل بن موسى عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا: يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي، و زاد رواية أخرى، و سيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس (يعنى



الشافعي) فتنته على أمتي أضمر من فتنة إبليس (1). وقال حمزة السهمي: محمد بن سعيد كذاب حدث ببلاد خراسان (سيكون في أمتي رجل يقال له النعمان هو سراج أمتي) ثم حدث في العراق بإسناده وزاد (سيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس فتنته على أمتي أضمر من فتنة إبليس) وقال الحاكم: (محمد بن سعيد حديثه ليس بشيء). ويقول ملا علي القاري وهو أكبر علماء الحنفية وله كتاب في مناقب أبي حنيفة: وقد أورد بعضهم في مدح أبي حنيفة وذكر حديث السراج وهو حديث موضوع. هذا وحديث محيي الدين بهذا اللفظ أوردوه مرفوعا (سيكون رجل يقال له النعمان بن ثابت ويكنى بأبي حنيفة يحيى دين الله وسنتي). وقد أجهد الموفق المكي نفسه في تصحيح هذا الحديث ولم يوفق، وراوى هذا الحديث يحيى بن سليمان عن إبراهيم بن أحمد الخزاعي عن أبي هذبة إبراهيم بن هذبة عن أنس بن مالك مرفوعا، ولا حاجة بالتعرض لرجالها أجمع ونكتفى بذكر من رواها عن أنس وهو إبراهيم بن هذبة. قال الخطيب في تاريخه: إبراهيم بن هذبة حدث عن أنس بالأباطيل. وقال أبو حاتم وغيره: إنه كذاب خبيث وقال ابن حبان إنه من الدجاجلة كان لا يعرف بالحديث (2). وقال بشر بن عمر كان في جوارنا عرس، فدعى له أبو هذبة فأكل وشرب، وسكر فجعل يغنى: أخذ القمل ثيابي فرقصت لهته

وقال علي بن ثابت: أبو هذبة أكذب من حماري، إلى آخر الأقوال فيه وفي فسقه، وانه كان يسأل الناس في الأسواق مع العلم أنه كان من أهل القرن الثالث، فكيف سمع من أنس؟ فلا شك في كذبه، إذا فالحديث موضوع على صاحب الرسالة وقد اختلفت ألفاظ هذه الموضوعات لاختلاف الغرض في وضعها، وذلك أنها إشارة

ص:303

1-1) لسان الميزان ج 5 ص 179.

2-2) لسان الميزان ج 1 ص 120.

فى أول الأمر إلى الكنية فقط، وبهذا وقعوا فى حذر عظيم، لأن الذى يكنى بأبى حنيفة من العلماء كثير، فذهبوا إلى الصراحة بالاسم، فقالوا: اسمه النعمان بن ثابت و يكنى بأبى حنيفة، ليخرجوا بذلك جملة من العلماء الذين اشتهروا بهذه الكنية فى عصره و بعد عصره. قال السيوطى عند ذكر هذه الأحاديث: إن الذى وضع حديث (أبو حنيفة سراج أمتى) هو مأمون بن أحمد السلمى، و أحمد بن محمد الجويبارى و كلاهما من الوضاعين (1). و أنهم أوردوا هذه الأحاديث من طرق متعددة، و لكن المحور الذى تدور عليه، هو سعيد البورقى، و مأمون بن أحمد الهروى، و أحمد بن محمد الجويبارى، و محمد بن يزيد الطرسوسى، و أبان بن عياش، و هو الراوى عن أنس، و إبراهيم بن هدبة راوى حديث محبى السنة و كل هؤلاء عرفوا بالكذب و الوضع. أما مأمون بن أحمد السلمى الهروى، و هو راوى حديث يكون فى أمتى رجل يقال له النعمان إلى آخره. قال أبو نعيم فى مقدمة المستخرج على صحيح مسلم: مأمون السلمى من أهل هراة خبيث و ضاع يأتى عن الثقات، مثل هشام بن عمار، و دحيم بالموضوعات، و فيما حدث عن أحمد الجويبارى الكذاب عن عبد الله بن معدان الأنزدى عن أنس مرفوعا: سيكون فى أمتى رجل يقال له النعمان. الحديث قال أبو نعيم: مثله يستحق من الله تعالى و من الرسول و من المسلمين اللعنة. و قال الحاكم بعد ذكر الحديث من طريق مأمون: و مثل هذه الأحاديث يشهد من رزقه الله أدنى معرفة بأنها موضوعة على رسول الله صلى الله عليه و آله. و أما محمد بن يزيد فقد كان من الوضاعين، و قد روى هذا الحديث عن سليمان بن قيس عن أبى المعلى بن مهاجر عن أبان عن أنس قال ابن حجر: و سليمان بن قيس و المعلى مجهولان لا يعرفان (2). و أما أبان بن أبى عياش البصرى مولى عبد القيس و هو الراوى عن أنس فقد كان يحبى بن معين، و عبد الرحمن بن المهدي لا يحدثان عنه. و قال الفلاس: هو متروك

ص:304

- 
- 1-1) اللالكئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج 1 ص 237.  
2-2) لسان الميزان ج 5 ص 7.

الحديث، وقال أحمد بن حنبل: لا يكتب عنه ترك الناس حديثه. وقال أبو عوانة: لا أستحل أن أروى عنه شيئاً، إلى آخر ما هنالك من الأقوال في ذمه، وقد نص بعضهم على كذبه، قال ابن حبان: إن أبان سمع من أنس أحاديث و جالس الحسن فكان يسمع من كلامه: فإذا حدث جعل كلام الحسن البصرى عن أنس أحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لعله حدث عن أنس بأكثر من 1500 حديث. قال الجوزجاني: أبان ساقط، وقال شعبة: لئن أشرب من بول حماري أحب إليّ من أن أقول: حدثني أبان وقال مرة: لئن يزني الزاني خير من أن يروى عن أبان. وقال أيضا لا يحل الكف عن أبان إنه يكذب على رسول الله (1) وقد مر ذكر إبراهيم و البورقي. و أما الجويباري فقد نص على كذبه الذهبي في الميزان، و ابن حجر في لسانه و السيوطي و الخطيب البغدادي و غيرهم. و نحن لا نتعرض لجميع هذه الأقوال الادعائية في البشائر النبوية التي التجأ إليها المعجبون بأبي حنيفة، و المغالون بشخصيته، و نكتفى بهذا القدر من التوهين لها، و لم يكن من قصدنا بالبحث عن هذه الأمور إلا إظهار الحقيقة و خدمة العلم، لأن أغلب من كتب عن أبي حنيفة جعلها من أقوى مؤيدات اتباعه و لزوم الأخذ عنه دون غيره، و إن أكثر من كتب من المتعدلين في مناقب أبي حنيفة لم يذكروا هذه الأحاديث لعدم الاعتماد عليها كالسيوطي في تبييض الصحيفة، و ابن حجر في الخيرات الحسان (2) و ملا علي القاري، و الذهبي في مناقب أبي حنيفة. و قد سلك السيوطي طريقا آخر لإثبات تبشير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأبي حنيفة. قال: و قد بشر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأبي حنيفة في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبي هريرة: لو كان العلم بالثريا لتناولته رجال من أبناء فارس. و هذا لا يمكن و في أبناء فارس من حملة العلم من الصدر الأول إلى اليوم من العلماء ما ينطبق هذا العموم عليهم فكيف يخصص بأبي حنيفة وحده! هذا من التخمين و الظنون و هو من باب أريه السهي و يريني القمر.

ص: 305

1-1) تهذيب التهذيب ج 1 ص 98. [1]

2-2) قال ابن حجر في الخيرات الحسان ص 5 عند ذكر الحديث: قد أطبق المحدثون على وضعه.

و على أى حال فإن هذه الموضوعات كانت من نتائج عصور التعصب و عهود التطاحن بين المذاهب.

### حديث غياث لكل مهموم:

روى الموفق بسنده عن محمد الحارثي بإسناده إلى أبي البختری قال: دخل أبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلما نظر إليه قال: كأني أنظر إليك و أنت تحيي سنة جدى بعد ما اندرست، و تكون مفزعا لكل ملهوف، و غياثا لكل مهموم. هكذا نقل الموفق بهذا السند يوصله إلى أبي البختری، و نحن فى سعة عن مناقشة رجال السند أجمع، بل يلزمنا أن نتعرف على شخصية أبي البختری الذى يدعى سماع هذه الكلمات من الإمام الصادق عليه السلام فإذا كان محله الصدق و الثقة فنحن نأخذ هذه الرواية بعين الاعتبار، إذ ليس لنا عداء مع الحق.

### أبو البختری:

#### إشارة

هو وهب بن وهب بن وهب القرشى أبو البختری قاضى بغداد، الذى يقول فيه المعافى: ويل و عول لأبى البختری إذا ثوى للناس فى المحشر من قوله الزور و إعلانه بالكذب فى الناس على جعفر

و قال ابن العماد الحنبلى فى الشذرات فى حوادث 200 هـ: و فيها مات وهب بن وهب أبو البختری. . . إلى أن قال: روى عن هشام بن عروة و طائفة و اتهم بالكذب. و قال ابن قتيبة فى المعارف: كان ضعيفا فى الحديث كذبه فى المغنى، و قال يحيى بن معين: أبو البختری كان يأخذ فلسا فيذكر عامة ليله يضع الحديث و قال أيضا: أبو البختری القاضى كان يكذب على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قال أيضا: أبو البختری كذاب عدو الله خبيث. و قال عثمان بن أبى شيبة: وهب بن وهب ذاك دجال أرى أنه يبعث يوم القيامة دجالا، و لما بلغ عبد الرحمن بن مهدي موته قال: الحمد لله الذى أراح المسلمين

منه، وقال ابن خلكان: أبو البختری كان متروك الحديث، مشهوراً بوضعه، ونص أحمد على كذبه. وروى الخطيب أن أبا البختری دخل على الرشيد وهو قاض يوم ذاك وهرّون يطير الحمام فقال: هل تحفظ في هذا شيئاً؟ فقال: حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي كان يطير الحمام (1). وساق ابن عدی لأبي البختری أحاديث موضوعة قال: وأبو البختری من الكذابين الوضاعين، وكان يجمع في كل حديث يرويّه بأسانيد من جسارته على الكذب ووضعه على الثقات (2). هذا هو أبو البختری راوی هذه المنقبة التي ذكرها الخوارزمي في مناقب أبي حنيفة.

### فتوى أبي البختری:

ونسوق إليك قضية من قضايا قاضي القضاة أبي البختری لتعرف أهليته لهذه المنزلة: كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كتاب الأمان، ثم أراد إبطاله فسأل محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة. . . فقال: هذا أمان صحيح ودمه حرام، فدفع الكتاب إلى الحسن بن زياد فقال بصوت ضعيف: أمان، فدخل أبو البختری وهب بن وهب القاضي، وأخرج من خفه سكيناً فقطع الكتاب من غير أن يسأل عنه، وقال: هذا أمان مفسوخ، وكتاب فاسد ودمه في عنقي (3). وبارتكابه لهذه الجريمة وإراقته دماً طاهراً لحفيد من أحفاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نال درجة الرقي في مناصب الدولة، وخطا خطوات واسعة إذ قال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا: أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك. وأجازه الرشيد بألف وستمائة ألف درهم، فها هو قد أصبح بعد أن كان واحداً من القضاة رئيسهم الأول، و مرجعهم

ص: 307

1-1) تاريخ بغداد ج 13 ص 453 و [1]وفيات الأعيان ج 2 ص 182 و 181.

2-2) لسان الميزان ج 6 ص 231.

3-3) مفتاح السعادة [2] لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج 2 ص 110 و لسان الميزان ج 2 ص 234.

الأعلى تناط به أمورهم، و من سوء حظ الأمة أن تكون سلطتها القضائية بيد قضاة لا يخافون الله و لا يرجون معادا، هذا هو أبو البختری و هذه حاله فكيف يوثق بنقله و يعتمد على قوله. يقول سويد بن عمرو بن الزبير في أبيات له: إنا وجدنا ابن وهب حين حدثنا عن النبي أضاع الدين و الورعا

يروى أحاديث من إفك مجمعة أف لوهب و ما يروى و ما جمعا

(1)

## بين المد و الجزر:

لقد غالى بعض كتّاب المناقب غلوا أخرجهم من الاعتدال في القول و التثبت في النقل، فتقولوا و افتعلوا، و ذهبوا إلى أبعد حد من المدح و الثناء، و جاءوا بأمر متنوعة في مناقبه و فضائله حتى وضع بعضهم كتابا موضوعا في مناقبه. و للبيان نعطي صورة مختصرة عن تلك الادعاءات الكاذبة و للتفصيل محل آخر. فمن أظرف ما ينقل من كرامات أبي حنيفة قضية الدهرى الذى ورد بغداد ليناظر علماء الإسلام أيام الدولة العباسية، و أنهم عجزوا عن جوابه و لم يبق إلا حماد بن أبي سليمان، و معه تلميذه أبو حنيفة، و لهذه الأسطورة صور في النقل: منها: أن دهريا من الروم ناظر علماء الإسلام فأفحمهم إلا حمادا. و لم يأت أحد بما فيه مقنع، و الإمام إذ ذاك كان صبيا فخاف حماد لأنه لو ألزمه يهون أمر الإسلام. فرأى رؤيا لا حاجة لنا بنقلها (2). فذهب أبو حنيفة مع أستاذه إلى الجامع. و صعد الدهرى المنبر. و طلب الخصم، فحضر أبو حنيفة و هو صبي، فاستحقره، فقال أبو حنيفة: دع هذا و هات كلامك، فتعجب الدهرى من جرأته فسأله الدهرى بأسئلة فأجاب عنها فقال أبو حنيفة: هذه الأسئلة و أنت على المنبر و أنا أجبت عنها و الآن انزل إلى الأرض و أنا أصعد المنبر، فنزل و صعد أبو حنيفة و قال: إذا كان على المنبر مشبه مثلك أنزله، و إذا كان على الأرض موحد مثلى رفعه، «كل يوم هو فى شأن» فبهت الدهرى و قتلوه.

ص: 308

1-1) ترجمة قاضى القضاة أبو البختری فى لسان الميزان ج 6 ص 332، و ميزان الاعتدال ج 3 ص 278 و تاريخ بغداد ج 13 ص 454 و غيرها.

2-2) مفتاح السعادة ج 2 ص 201. [1]

هكذا دون بعض أصحاب المناقب هذه الأسطورة و لم يلتفتوا إلى المؤاخذات فإنهم ذكروا أن هذه القصة قد وقعت في بغداد، ولا يتأتى ذلك، فإن بغداد مصرت في زمن المنصور سنة 145 هـ-فيكون عمر أبي حنيفة في هذه القصة 65 سنة فكيف كان عمره سبع سنين؟ وإن وفاة أستاذه حماد بن أبي سليمان سنة 120 هـ-بالاتفاق، أى قبل تمصير بغداد بخمس وعشرين سنة. مع أن أبا حنيفة تتلمذ على يد حماد، بعد أن قضى شطرا من عمره في بيع الخبز، و اشتغل مدة بعلم الكلام، و بعد ذلك التحق بحلقة حماد. و قد ذكرت هذه الأسطورة في عدة كتب و علق بعضهم عليها بقوله: هذا حال الإمام في صغره فكيف في كبره (1). أما الصورة التي ينقلها الخوارزمي فهي: إن ملك الروم بعث مالا عظيما بيد أمين إلى بغداد، و قال: سلهم عن ثلاث مسائل، فإن هم أجابوا فادفع إليهم المال، و إلا فارجع به، فلما قدم بغداد جمع العلماء و سعد الرومي المنبر و قال: إن أحبتم عن أسئلتى أعطيتكم المال، و إلا رجعت به، فسألهم و سكت القوم و فيهم أبو حنيفة، و هو يومئذ صبي، فقال لأبيه: يا أبتا أنا أجييه، فأسكته أبوه، و قام أبو حنيفة و استأذن الخليفة في الجواب و سعد أبو حنيفة المنبر. الخ. هكذا أوردوا هذه الأسطورة و اختلفوا بطرق نقلها. و من أظرف ما نقلوه ما يرويه صاحب مفتاح السعادة أن ثابتا توفي و تزوج الإمام الصادق عليه السلام أم الإمام أبي حنيفة، و كان أبو حنيفة رحمه الله صغيرا و تربى في حجر الإمام جعفر الصادق و أخذ علومه منه. قال مؤلفه: و هذه إن ثبتت فهي منقبة لأبي حنيفة، و قد أيد ذلك قاضى زاده شريف مخدوم فقال: و بعد وفاة الثابت، أى والد أبي حنيفة، تزوج أم الإمام رحمه الله الإمام جعفر الصادق و ربي أبو حنيفة في حجره (2). و كيف يتأتى ذلك و يستقيم و إن أبا حنيفة كان صغيرا و تربى في حجر الإمام الصادق و قد كانت ولادة أبي حنيفة سنة 80 هـ-و ولادة الصادق سنة 83 هـ-؟ فلا يصح

ص:309

- 
- 1-1) مفتاح السعادة ج 2 ص 201، و [1] شرح وصية أبي حنيفة المخطوط بمكتبة الإمام كاشف الغطاء.  
2-2) جامع الرموز ج 1 ص 2.

هذا وإن أبوا إلا- تصحيح هذه المناقب فالله قادر على كل شيء، ولا يستبعد أن يكون المد والجزر في الأعمار كما هو في البحار. و لنكتف بما ذكرناه، ولا نتعرض لتلك الادعاءات الكاذبة فقد ادعوا أن التوراة بشرت به، وأن صفته مكتوبة فيها، وأن الله ناداه: يا أبا حنيفة إني قد غفرت لك ولمن هو على مذهبك إلى يوم القيامة، وأن النبي غبط داود لأن في أمته لقمان فبشره جبرائيل بأبي حنيفة، وأن حكمته أعظم من حكمة لقمان، وأن الخضر درس عليه خمس سنين في حياته وأكمل دراسته عليه وهو في قبره، إلى كثير من تلك السفساف و هي من الأمور التي لا تحتاج إلى مناقشة، وإنما هي وليدة عصر احتدام التعصب للمذاهب، فذهب كل إلى تكوين شخصية إمامه طبقا لأهدافه، وقد ألفوا كتباً طافحة بالثناء الأجوف والمدح الكاذب. وقد كان جماعة يضعون الأحاديث والمناقب لنصرة مذهب أبي حنيفة أمثال أحمد الحماني المتوفى سنة 302هـ- وأسد بن عمر البجلي القاضى المتوفى سنة 190هـ-، و إباء بن جعفر الكذاب المعروف، وقد حرفه بعضهم عند نقله عنه بابان ليخفى حاله، وقد خرجوا في أبي حنيفة أحاديث لا أصل لها (1) وقد وضع آباء عليه أكثر من ثلاثمائة حديث، وذكر أكثرها الحارثي في مسند أبي حنيفة؛ وغير هؤلاء كثير لا يسع الوقت لذكرهم ممن دعتهم عصبيتهم إلى تكوين شخصية أبي حنيفة طبقاً لرغباتهم، و معاكسة للوجدان و مخالفة للحق، و بذلك صعب الوصول إلى معرفة شخصية أبي حنيفة. فلنترك مناقشة تلك المناقب فإننا لا نتعرض إلا لما له أهمية في الموضوع. فمن ذلك قولهم: إن أبا حنيفة سمع جماعة من الصحابة و دونوا له أحاديث ذكرت في مسانيدهم فلننظر لصحة هذه الدعوى.

### سماعه من الصحابة:

حاول البعض أن يجعل أبا حنيفة من التابعين بل قال بعضهم إنه سيدهم، و التابعى هو الذى عاصر الصحابة و سمع منهم، و قالوا: إن أبا حنيفة عاصر جماعة من الصحابة و روى عنهم و مجموع ما رواه خمسون حديثاً.

ص: 310



و هذه الدعوى يختص بها الحنفية، وقد نفاها علماء الحديث و التاريخ، كما أن أصحابه الذين دونوا مذهبه لم يثبتوا ذلك، ولم يعرفوا من روايته عن الصحابة معرفة قطيعة لا تقبل الشك. وإنما هو من إحياءات العصبية و نزعة الغلو، و للبيان نذكر أولئك الصحابة رضی اللہ عنہم و تاريخ وفاتهم، فيتضح بطلان هذه الدعوى، و إليك البيان: 1- عبد اللہ بن أنیس أبو يحيى الجهنى حليف الأنصار، شهد العقبة الثانية و أحد، و رحل إلى مصر و توفي في الشام سنة 80 هـ- أى سنة ولادة أبى حنيفة، و قال بعضهم: توفي في خلافة معاوية سنة 54 هـ- فما يروى عن أبى حنيفة أنه قال: ولدت سنة ثمانين، و قدم عبد اللہ بن أنيس الجهنى صاحب رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ و سلم سنة 94 هـ- و رأيتہ و سمعت منه عن رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ و سلم «حبك الشيء يعمى و يصم» لا أصل له. و يقول ملا على القارى- بعد ذكره لهذا الحديث-: في ملاقة عبد اللہ بن أنيس به (أبى حنيفة) إشكال لأن أهل السير و التواريخ مجمعون على أنه مات بالمدينة سنة 54 هـ- (1). 2- عبد اللہ بن الحرث بن جزء الزبيدي أبو الحرث شهد فتح مصر و اختط بها دارا و مات سنة 86 هـ- و هو آخر من مات بها من الصحابة، فما روى عن أبى حنيفة أنه قال: حججت مع أبى سنة 96 هـ-، و رأيت عبد اللہ بن الحرث يدرس في المسجد الحرام، و سمعت منه أنه يقول سمعت رسول اللہ صلی اللہ علیہ و آلہ و سلم يقول: من تفقه في دين اللہ كفاه اللہ ما أهمه، و رزقه من حيث لا يحتسب؛ فهذا لا يصح، لأن وفاة هذا الصحابي كانت في سنة 86 هـ- و ولادة أبى حنيفة في سنة 80 هـ- و أول حج حجه أبو حنيفة سنة 96 هجرية فكيف يصح ملاقاته و سماعه منه؟ . قال الشيخ قاسم الحنفى و هو من مشايخ الحنفية: إن سند ذلك الحديث فيه قلب و تحريف، و فيه كذاب اتفاقا، و بأن عبد اللہ مات بمصر و لأبى حنيفة ست سنين و عبد اللہ لم يدخل الكوفة في تلك المدة. 3- جابر بن عبد اللہ الأنصارى صحابي جليل شهد العقبة، و غزا تسع عشرة

ص: 311

1-1 شرح مسند أبى حنيفة 286.

غزوة مات بالمدينة 78 هـ-أى قبل ولادة أبى حنيفة بسنتين، فما يروى عن أبى حنيفة عن جابر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه أمر من لم يرزق ولدا بكثرة الاستغفار والصدقة، فولد لجابر تسعة ذكور، فهذا حديث موضوع لا أصل له (1). 4-عبد الله بن أبى أوفى الأسلمى، صحابى ابن صحابى شهد بيعة الرضوان، مات سنة 85 هـ-و سماع أبى حنيفة منه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من بنى لله مسجدا كمفحص قطة بنى الله له بيتا فى الجنة» فسماعه غير صحيح لأنه طفل صغير ليس له أهلية السماع، مع أن أبى حنيفة لم يشتغل بطلب العلم إلا بعد مدة من الزمن. 5-معقل بن يسار المزنى بايع بيعة الشجرة، وتوفى فى خلافة معاوية سنة 60 هـ-فرواية أبى حنيفة عنه حيث يقول: سمعت معقلا يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «علامات المنافق ثلاث إذا قال كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتتمن خان»، غير صحيح لتقدم وفاة معقل على ولادة أبى حنيفة بعشرين سنة. 6-واثلة بن الأسقف بن كعب بن عامر من بنى ليث بن عبد مناف، ويكنى أبى الأسقع أسلم قبل تبوك، وشهداها مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم نزل الشام ومات فى خلافة عبد الملك سنة 83 هـ-و كان آخر من مات بدمشق من الصحابة، روى عنه أبو حنيفة حديثين: (الأول): «لا تظهر الشمامة بأخيك فيعافيه الله و يتليق». (والثانى): «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». والحديثان رواهما الترمذى من وجه آخر عن جمع من الصحابة، ورواية أبى حنيفة لهما عن واثلة لا تصح لأنه مات بالشام وعمر أبى حنيفة ثلاث سنين. 7-عائشة بنت عجرد مجهولة لا تكاد تعرف، قال الذهبي وابن حجر: إن عائشة لا صحبة لها وأنها لا تكاد تعرف، وبذلك رد ما روى أن أبى حنيفة روى هذا الحديث الصحيح «أكثر جند الله الجراد لا آكله ولا أحرمه». 8-سهل بن سعد الساعدي كان اسمه حزن فسماه رسول الله سهلا توفى سنة 88 هـ-وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة ولم يخرج منها إلى الكوفة فلا يصح سماع أبى حنيفة منه وروايته عنه لأن أبى حنيفة لم يحج إلا فى سنة 96 هـ-أى بعد وفاة سهل بثمان سنوات. ذكر ذلك البزاز فى مناقب أبى حنيفة.

ص:312

9- أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري شهد بدرا مات سنة 90 هـ- وقد جاوز المائة و هو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (1). و على كل حال فإن رواية أبي حنيفة عن الصحابة قد نفاها جماعة من المحدثين و علماء الرجال: كالولي العراقي، و ابن حجر، و السخاوي و غيرهم (2). قال محمد بن شهاب البزاز: إن جماعة من المحدثين أنكروا ملاقة أبي حنيفة للصحابة، و أصحابه أثبتوها. و قبل أن نتحول عن موضوع المناقب نحب أن نشير إلى منزلة أبي حنيفة في الحديث، و هل خرج له أصحاب الصحاح أم لا؟ و لا نحب أن نطيل الحديث و نكتفي ببعض الموضوع، لنأخذ صورة عن ذلك في مجال المقارنة و الموازنة فيما بعد.

### حديثه و عنايته بالرواية:

قالوا: إن أبا حنيفة لم يكن صاحب حديث و لكن كان قياسا سلك في القياس مسلكا استوجب شدة الإنكار عليه و على أصحابه. قال مالك بن مغول: قال لي الشعبي- و نظر إلى أصحاب الرأي:- ما حدثك هؤلاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم فاقبله، و ما خبروك به عن رأيهم فارم به في الحش. و قال: إياكم و القياس فإنكم إن أخذتم به حرمتم الحلال و أحللتهم الحرام (3). يقول ابن خلدون: بلغت رواية أبي حنيفة إلى سبعة عشر حديثا. و يعلل ذلك بقوله: إنما قلت رواية أبي حنيفة لما شدد في شروط الرواية و التحمل، و ضعف رواية الحديث اليقين إذا عارضها الفعل النفسى (4). قال الدكتور أحمد أمين- بعد نقل هذه العبارة:- و هي وإن كانت موجزة،

ص: 313

1-1 الخيرات الحسان و خلاصة تهذيب الكمال.

2-2 شرح مسند أبي حنيفة للقارى 284.

3-3 تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 70.

4-4 المقدمة ص 372.

و غامضة بعض الغموض إلا أنها تدلنا على هذا الاتجاه، و هو عدم الاكتفاء بالرواية، بل عرضها على الطباع النفسية و البيئة الاجتماعية (1). و نحن نستبعد صحة هذا القول و إن أبا حنيفة لم يرو إلا سبعة عشر حديثاً أو لم يصح عنده إلا ذلك العدد. فإن الرجل حضر عند علماء الأمة، و سمع من الثقات و سافر إلى مكة و المدينة، و سمع من أئمة أهل البيت عليهم السلام الإمام الباقر عليه السلام، و ولده الإمام الصادق عليه السلام، و زيد بن علي عليه السلام، و عبد الله بن الحسن. و نحن لا ننكر أنه كان قياساً و كان يتشدد في الرواية، و لا يقبل الخبر إلا إذا رواه جماعة عن جماعة أو كما يقول أصحابه: إذا كان خبر عام عن عامة، أو اتفق علماء الأمصار على العمل به، و مهما كان تشدده و اشتراطه فلا يصح أن يقال إنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. أما أصحابه فلم يتشددوا في قبول الرواية، فقد أدخل أبو يوسف في فقه أبي حنيفة أحاديث كثيرة، و من بعده محمد بن الحسن الشيباني، فإنه لقي مالكا، و قرأ الموطأ عليه، ثم رجع إلى بلده، و طبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة (2). و كيف كان فقد اختلف المحدثون في قبول رواية أبي حنيفة فمنهم من قبله، و منهم من لينه لكثرة غلطه في الحديث ليس إلا، قال علي بن المديني ليحيى بن سعيد: كيف كان حديث أبي حنيفة؟ قال: لم يكن صاحب حديث (3). و قال ابن عدى في ترجمة إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: ثلاثهم ضعفاء. و قد عدّه البخارى من الضعفاء و المتروكين. أما أصحاب الصحاح فلم يخرجوا له حديثاً، نعم في رواية أبي علي الأسيوطي و المغاربة عن النسائي قال: حدثنا علي بن حجر، حدثنا عيسى هو ابن يونس، عن النعمان عن عاصم عن ابن عباس: من أتى بهيمة لا حد عليه. و هو لم ينسب النعمان فهل هو أبو حنيفة أم غيره.

ص: 314

1-1 (1) ضحى الإسلام ج 2 ص 131.

2-2 (2) رسالة الإنصاف ص 8.

3-3 (3) الذهبى فى مناقب أبى حنيفة ص 28.

و خرج له الترمذى من رواية عبد الحميد الحماني أنه قال: ما رأيت أكذب من جابر الجعفي، ولا أفضل من عطاء. وهذا ليس بحديث و إنما هو قول لأبي حنيفة وإذا رجعنا إلى الواقع ففي إمكاننا تكذيب هذا القول ولا يصح نسبته لأبي حنيفة لأن جابر من كبار التابعين وثقه سفيان الثوري، وزهير، وشعبة، وكيع وغيرهم. جاء في جامع أسانيد أبي حنيفة عن زهير أنه قال: إذا قال جابر بن يزيد: حدثني أو سمعت فهو من أصدق الناس (1). وروى عن جابر كبار العلماء وأعيان الأمة وهو من شيوخ أبي حنيفة، وقد روى عنه عدة أحاديث أوردها أصحابه في كتبهم، وهي منتشرة في أسانيد أبي حنيفة. وكان أبو حنيفة يمدح جابر بالحفظ ويقول: ما سألت جابر الجعفي عن مسألة قط إلا أورد فيها حديثاً، ولقد سألته عن ورد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال حدثني نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجعل وتره آخر صلواته (2). ولا يستبعد أن هذا القول وضع أيام نشاط الخلافات وتحامل الموالى على العرب، فإن جابر عربي وعطاء من الموالى. وستأتي ترجمة جابر في الأجزاء القادمة إن شاء الله.

### أبو حنيفة بين أنصاره وخصومه.

ليس للباحث عن حياة أبي حنيفة بد من الوقوف على أخباره العامة، وأن يستعرض الأقوال فيه وآراء الناس حوله، وبهذا لا يجد سهولة في الوصول إلى الغاية، إذ الطريق غير معبد لوجود ركام من الأخبار المختلفة، والآراء المتناقضة، والأقوال التي لا يمكن تصديقها. فهناك تعصب وغلوف في شخصيته، وإعجاب مفرط في مواهبه، وهناك نقد مر لأعماله، وتحامل شديد عليه، ووصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب وإمام طائفة.

ص: 315

1-1) جامع أسانيد أبي حنيفة ج 1 ص 305.

2-2) جامع أسانيد أبي حنيفة ج 1 ص 305.

و الكاتب هنا يقف بين طائفتين: متعصبون له و مغالون فيه و هم أنصاره، و ناقدون له و متحاملون عليه و هم خصومه. أما الطائفة الأولى فقد رفعوه إلى منازل النبیین، و زعموا أن التوراة بشرت باسمه، و أن النبی أخبر به قبل ولادته، و أنه سراج الأمة و محیی السنة، و أنه معجزة النبی بعد القرآن، و لولاه لما اهتدى الناس. و الشیء الغریب أنهم رفعوه فوق منزلة الأنبیاء، لأن عیسی إذا رجع یقلده و یحکم بمذهبه، و أن الخضر تعلم أحكام الشریعة منه. یقول قاضی زادة: اعلم أن المذهب لا یقلده من الصحابة و التابعین إلا أبو حنیفة فإن عیسی لما یزل یحکم بمذهبه (1)!! و قالوا: إن الله خص أبا حنیفة بالشریعة و الكرامة. و من کراماته: أن الخضر علیه السلام كان یجىء إليه كل یوم وقت الصبح، و یتعلم منه أحكام الشریعة إلى خمس سنین. فلما مات أبو حنیفة ناجی الخضر ربه و قال: إلهی إن كان لی عندك منزلة فائذن لأبى حنیفة حتى یعلمنى من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد صلی الله علیه و آله و سلم على الكمال، فأحیاه الله و تعلم منه العلم إلى خمس و عشرين سنة. و بعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن یذهب إلى القشیری، و یعلمه ما تعلم من أبى حنیفة، و صنف القشیری ألف کتاب، و هى لا تزال و دیعة فى نهر جیحون، إلى رجوع المسیح، فیحکم بتلك الكتب، لأنه یأتى فى زمان لیس فیہ من كتب شرع محمد صلی الله علیه و آله و سلم فیتسلم المسیح أمانة نهر جیحون. و هى كتب القشیری (2). هذا ما قالوه حول انتساب المسیح لمذهب أبى حنیفة و لعمری إنهم أساءوا لإمامهم بهذه السفاسف و خرجوا عن حدود التبجیل و الإکرام له. كما وصفوه بصفات فوق الطبیعة البشریة، كقراءة القرآن سبعین ألف مرة، فى محل واحد، و صلاته فى كل لیلة ركعتین یختم القرآن فى كل ركعة، و صلاته الفجر

ص: 316

1-1) جامع الرموز ج 1 ص 2.

2-2) الإشاعة فى أشراط الساعة ص 120 و الباقوتة لابن الجوزى ص 45.

بوضوء العشاء أربعين سنة، و امتناعه من أكل اللحم عشر سنين لأن شاة ضاعت فسأل كم تعيش فقيل عشر سنين، إلى غير ذلك من الأمور التي أساء المغالون لأبي حنيفة فيها. هذا هو أبو حنيفة في نظر المعجبين به و أنصاره المغالين في تكوين شخصيته. أما الطرف الآخر من معاصريه و غيرهم، فقد رموه بالزندقة، و الخروج عن الجادة، و وصفوه بفساد العقيدة، و الخروج على نظام الدين، و مخالفة الكتاب و السنة، و طعنوا في دينه و جردوه من الإيمان (1). و قالوا اجتمع سفيان الثوري و شريك و حسن بن صالح و ابن أبي ليلى، فبعثوا إلى أبي حنيفة، فقالوا: ما تقول في رجل قتل أباه و نكح أمه و شرب الخمر في رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال ابن أبي ليلى: لأقبلت لك شهادة أبدا. و قال له سفيان الثوري: لا كلمتك أبدا (2). و حكى عن أبي يوسف قيل له: أكان أبو حنيفة مرجئا؟ قال: نعم. قيل: كان جهميا؟ قال: نعم (3) قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرسا، فما كان من قوله حسنا قبلناه، و ما كان قبيحا تركناه عليه (4). و حدث إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما رأيت أحدا أجرا على الله من أبي حنيفة، و عنه أيضا: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه (5). و عن الوليد بن مسلم قال: قال لى مالك بن أنس: أذكر أبو حنيفة في بلادكم؟ قلت: نعم قال: لا ينبغي لبلادكم أن تسكن (6). و عن الأوزاعي يقول: إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، و لكننا

ص: 317

1-1) انظر أبو حنيفة محمد أبو زهرة ص 5.

2-2) الخطيب ج 13 ص 374.

3-3) نفس الصدر.

4-4) الخطيب ج 3 ص 374.

5-5) الانتقاء ص 148.

6-6) ميزان الشعراني ج 1 ص 59.

ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيخالفه إلى غيره (1). قال ابن عبد البر: و ممن طعن عليه و جرحه محمد بن إسماعيل البخارى، فقال فى كتابه «الضعفاء و المتروكين»: أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد و معاذ بن معاذ سمعنا سفيان الثورى يقول: استتيب أبو حنيفة، من الكفر مرتين. و قال نعيم الفزارى: كنت عند سفيان بن عيينة، فجاء نعى أبى حنيفة، فقال: . . . كان يهدم الإسلام عروة عروة، و ما ولد فى الإسلام مولود أشرف منه. هذا ما ذكره البخارى (2). و قال ابن الجارود فى كتابه «الضعفاء و المتروكين»: النعمان بن ثابت جل حديثه و هم. و قد روى عن مالك رحمه الله أنه قال فى أبى حنيفة نحو ما ذكره سفيان: أنه شر مولود ولد فى الإسلام، و أنه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون. و روى عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب: بالعراق الداء العضال فقال مالك: أبو حنيفة، و روى ذلك كله أهل الحديث. و عن وكيع بن الجراح أنه قال: وجدت أبا حنيفة خالف مائتى حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. و قيل لابن المبارك: كان الناس يقولون إنك تذهب إلى قول أبى حنيفة، قال: ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه، كنا نأتيه زمانا، و نحن لا نعرفه، فلما عرفناه تركناه (3). و أورد ابن عبد البر فى الانتقاء بعضا من أقوال المادحين له و الطاعنين عليه (4). يقول الدكتور على حسن عبد القادر: و يدعى خصوم أبى حنيفة أنه لم يكن يعطى للحديث أهمية كبيرة، و أنه يجعل للرأى الطليق مكانه الأول بالنسبة للاستنتاج الفقهى، و أنه رد كثيرا من الأحاديث فى سبيل الرأى.

ص: 318

1-1) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 63.

2-2) الانتقاء لابن عبد البر ص 150.

3-3) الانتقاء لابن عبد البر ص 150-151. و الخيرات الحسان ص 76.

4-4) الانتقاء ص 124-152.



حدث أبو صالح الفراء قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول: رد أبو حنيفة على رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أربعمائة حديث أو أكثر. قلت له: يا أبا محمد تعرفها؟ قال: نعم. قلت: أخبرني بشيء منها قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: (للفرس سهمان و للرجل سهم) قال أبو حنيفة: أنا لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن. و أشعر رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وأصحابه البدن. وقال أبو حنيفة: الاشعار مثله. وقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا». وقال أبو حنيفة: إذا وجب البيع فلا خيار. وكان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم يقرع بين نسائه إذا أراد أن يخرج في سفر، وأقرع أصحابه. قال أبو حنيفة: القرعة قمار. وقالوا: إنه كان في عصره أربعة من الصحابة، و لكن لم يهتم للقائهم. وقد ذكر ابن أبي شيبة في مصنفه في باب خاص الأحاديث التي خالفها أبو حنيفة و أبلغها 150 حديثا. . الخ (1). وقد استعرض الخطيب البغدادي أخبار أبي حنيفة، و ذكر أقوالا عن الفريقين من معدلين و مضعفين، و مادحين و طاعنين و نسب لأبي حنيفة أشياء لا نحب التعرض لها (2). و قد طعن علماء الحنفية في الخطيب و نسبوه إلى التصعب الأعمى، و أجابوا عن الطعون التي أوردها الخطيب على أبي حنيفة. و صفوة القول أن دراسة حياة أئمة المذاهب تلفت نظر الكاتب إلى دقة البحث و صعوبته، لوجود الأقوال المختلفة التي تدل على اندفاع الأتباع لإعلاء تلك الشخصيات فوق منزلتهم الواقعية، و سنوضح ذلك فيما بعد. و ان دراسة حياة أبي حنيفة تتصف-بصورة خاصة-بصعوبة تقف أمام الباحث. يقول الأستاذ أبو زهرة: لقد تعصب له (أبي حنيفة) ناس حتى قاربوا به منازل النبيين المرسلين، فزعموا أن التوراة بشرت به، و أن محمدا صَلَّى الله عليه وآله وسلم ذكره باسمه، و بين أنه سراج أمته، و نحلوه من الصفات و المناقب ما عدوا به رتبته، و تجاوزوا معه درجته، و تعصب ناس عليه فرموه بالزندقة، و الخروج عن الجادة و إفساد الدين، و هجر السنة، بل مناقضتها ثم الفتوى في الدين بغير حجة و لا سلطان مبين.

ص: 319

1-1) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر ص 225.

2-2) تاريخ بغداد ج 13 ص 133-423.

و يقول: إن كتب المناقب كثيرة و كثرتها لا تهدى السبيل، و لا تنير الطريق إذ أنها طوائف من الأخبار يسودها المبالغة، و لا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتميز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة، فأخبارها لا ترفض جملة و لا تؤخذ جملة، إذ هي بلا شك فيها الحق و الباطل و أخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص (1). و نحن هنا لا يمكن أخذ صورة واقعية عن شخصية أبي حنيفة، فإن هذه الأقوال المتركمة أمامنا لا نستطيع أن نتميز بواسطتها تلك الشخصية و لا نبدي رأينا فى الموضوع إلا بعد أن نطل من زاوية التاريخ.

## نشأته و نبوغه:

ولد أبو حنيفة سنة 80 هـ فى خلافة عبد الملك بن مروان الأموى، و عاش إلى سنة 150 هـ و قيل سنة 151 هـ و قيل سنة 153 هـ فقد أدرك من العصر الأموى اثنتين و خمسين سنة، و من العصر العباسى ثمانى عشرة سنة. و قد نشأ فى الكوفة فى عهد الحجاج بن يوسف، فرأى قسوة الحجاج و استبداده و سيرته السيئة، و حكمه القاسى، و معاملته للناس بما لا يمكن تحمله، و مات الحجاج و عمره خمسة عشر عاما، و شاهد ولاية الأمويين يسيرون بالأمه، و قد جاروا فى الحكم، و خالفوا نظم الإسلام، اتباعا لملوكهم، و طبقا لرغباتهم، من غير رادع من دين، و لا مراعاة لحرمة، و لم تمنعهم حواجز عن إيقاع الأذى برجال المسلمين و أعيانهم، و مع هذا يرى العصبية العنصرية فيهم تتجلى بدون خفاء و تكتم، و من المعلوم أن ذلك يثير فى نفسه نزع البغض و الكراهة لتلك السلطة، فلا غرابة حين نراه يساهم فى حركة الانقلاب، و ينضم لجانب العباسيين فى دعوتهم، و يناصر أهل البيت عليهم السلام. و كان أبو حنيفة منصرفا للعمل فهو يتعاطى بيع الخبز، و له محل لصنعه و صناع تحت يده، و بهذا كان يعيش برفاهية، و يصل إخوانه و أصحابه، و لا نعرف بالضبط مدة بقائه تحت رعاية أبيه فالتاريخ لم يتعرض لذلك.

ص: 320

و لقد كان عصر أبي حنيفة الذى أظله، و البيئة الفكرية التى عاش فيها، و ترعرعت مواهبه تحت سلطانتها أكبر عامل على نبوغه و توجيهه، إذا كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة التى نشأت بها حلقات العلم، و كانت الأهواء المتضادة و الآراء المتضاربة فى السياسة و العلم و أصول العقائد تدعو يومئذ إلى الدهشة و الإمعان. فقد صارت الكوفة ملتقى الأفكار و صعيدا لتلاقحها فكان مستوى ثقافات الشعوب التى أظلمها الإسلام يؤثر فى مناهج العلم و طرق الثقافة، و يقبل رجال الإسلام على تلك المناهج و الطرق للتعرف على قواعدها و خصائصها لتكون وعاء للفكر الإسلامى ليعاد تغذية المسلمين و إنشاء أبنائهم بعقيدة الإسلام و أحكامه، و لعمق العقيدة تتجرد الأوعية التى قصد أن يكون لونها كذلك مجردا عن كل لون آخر، و يصبح ما فى الوعاء من فكر إسلامى عنوانا متميزا مستقلا لا يدانيه و لا يشابهه ما سبق. و يقال إنه نبغ فى علم الكلام و الجدل و ناظر فيه، و اتسعت دائرة تفكيره. و إذا رجعنا إلى حديثه عن ذلك فتكون ملازمته لحلقة المتكلمين أكثر من حلقة الفقه التى انتقل إليها بعد هجر علم الكلام، فاختص بالفقه وحده، فإن ذهابه للبصرة، و مناظرته الفرق هناك أكثر من عشرين مرة- كما يقولون- و فى كل مرة يمكث سنة أو أكثر أو أقل، يدل على أنه قضى الشطر الأكبر من عمره (1) فى ذلك، و إن كانت تلك الرواية لا تخلو من مبالغة و لم تسلم من الخدشة فى السند، فإنها من وضع يد الغلو و وحى العاطفة. و مهما يكن فإنه نشأ فى أول أمره رجلا يتعاطى التجارة و صنعة الخز و يبيعه فى الأسواق، و قضى شطرا من حياته فى ذلك حتى أرشده الشعبى لطلب العلم فاتجه للكلام ثم اتصل بحلقة حماد بن أبى سليمان المتوفى سنة 120 هـ- و كان هو المبرز من بعده، و قد ساعدته الظروف على هدم الحواجز التى تقف أمامه، كما أن العصر الذى هو فيه هيا له أسباب الرقى، و مهد له طرق التقدم، فقد حدثت تطورات و سنحت فرص استغلها أبو حنيفة، لما كان يتصف به من ذكاء و فطنة و طموح فى نفسه.

ص: 321

و من حسن طالعه أن يقع فى عصره الخلاف بين أهل الحديث و أهل الرأى، أو بين العرب و الموالى و تشتد الخصومة، و يكتر بينهم التهاجى، و هو يترأس حلقة أستاذة حماد و هى إحدى حلقات العلم بالكوفة، و بالطبع ان الملتفين حوله و المجتمعين إليه أكثرهم من الموالى و أكثرهم يحقد على العرب الذين نظروا إليهم نظر السيد إلى المسود و الشريف إلى الوضيع، حتى بعثوا فيهم روح النعرة و تلك نزعة غذاها بنو أمية فعاملوا الموالى معاملة سيئة، و لم يعدلوا معهم فى الحكم، و كانت تبعث فى نفوس المفكرين من الموالى كرها لما آلت إليه أحوالهم، و ينعكس حقا فى نفوس الأغلبية ممن اعتنقوا الإسلام لسبب أو لآخر فذاقوا المهانة. و واقع حضارتهم و أمجاد دولهم ما زالت ماثلة لم يمر عليها دهر لتمحى أو تزول من الأذهان. و لقد أوجد الأمويون سياسة التعصب واحدة من آفات سياستهم التى أودت بدولتهم و أقدموا على مخالفة مبادئ المساواة و العدل فى الإسلام. و تطورت الحركة الفكرية و اتجه الناس فى آخر الدولة الأموية إلى أمور لم يكن فى وسعهم الاتجاه إليها فى إبان عظمة الدولة و كانت فى الكوفة حلقات العلم يجلس طلابه إلى شيوخ عرفوا بذلك، فكانت حلقات للمتكلمين بجانب حلقات الفقه و حلقات الشعر و الأدب يتكلمون فيها بالقضاء و القدر، و الكفر و الإيمان، و يستعرضون أعمال الصحابة فى الحرب و غيرها، و قد اختار أبو حنيفة حلقة المتكلمين (1). كما زخرت الكوفة برجال العلم، و اتسع نطاق الحركة الفكرية و اتجه الناس للبحث و وقع الخلاف بين أهل الرأى و أهل الحديث، و أخذت السلطة فى تشجيع أهل الرأى و اندفع الموالى (2) إلى التزاحم على طلب الشهرة و النبوغ فى المجتمع، عند ما أصبحوا و لهم قوة على إيجاد كتلة متماسكة الأجزاء، فكثرت عددهم فى الكوفة و قوى جمعهم، و أصبح منهم رجال تبوءوا مناصب الدولة، فمنهم قواد جيش و أمراء بلدان، و علماء يشار إليهم بالأصابع، و منهم الأدباء و رواة حديث، و قد اجتازوا مراحل العنف و الشدة، و انتقلوا من عهد الاستبداد و القسوة و عدم المساواة فى الحكم بينهم و بين

ص:322

1-1) ضحى الإسلام ج 2 ص 178.

2-2) شرح النهج.

العرب، وقد كان الأمويون يتعصبون لأنصارهم وعشيرتهم ويحتقرون الموالى مهما كانت ميقاتهم وكفاءتهم، وتابعهم بعض المتعصبين من العرب ونهجوا هذا المنهج، خلافا لما شرعه الله و سار عليه الرسول الأعظم فكانوا يضعون من قيمة الموالى ويحتقرونهم. يقول الأصفهاني: كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية، إذا أقبل العربي من السوق ومع شىء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع. وتزوج رجل من الموالى بنتا من أعراب بنى سليم، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة، واليه يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه فأرسل الوالى إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته، وضربه مائتى سوط، وحلق رأسه، وحاجبه ولحيته، فقال محمد بن بشير: قضيت بسنة و حكمت عدلا و لم ترث الحكومة من بعيد

وقد نفذ الأمويون هذه السياسة بشدة، وغدوا هذه النزعة بأعمالهم التى عاملوا بها الموالى، وقد شرعها لهم معاوية بن أبى سفيان، لأنه عرف عدل الإمام على بن أبى طالب و مساواته فى الرعية، الأمر الذى أدى إلى تقاعد من تحكمت به هذه النزعة الشريرة عن نصرته، فأراد معاوية استمالتهم و تحويلهم إليه. روى المدائنى أن طائفة من أصحاب على عليه السلام مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب و قريش على الموالى و العجم، و استملى من تخاف خلافة من الناس- وإنما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع فى المال- فقال لهم: أ تأمروننى أن أطلب النصر بالجور؟! (1). و حوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك من الأمور التى بعثت المفكرين من الموالى إلى الحق على العرب.

### اتجاهه العلمى:

وبين هذه الأمور و فى ذلك العصر كانت نشأة أبى حنيفة، و هو من أولئك القوم الذين نالهم الأذى فى تلك المدة، و كان يشعر بما يشعر به أبناء جنسه، و يعظم عليه

ص:323

إهانتهم وتعذيبهم، وقد شاهد في الكوفة وغيرها تلك الأوضاع الشاذة، و السيرة المخالفة للإسلام، وبالطبع ان نفسه كانت تتأثر. وبعد أن تحول الحكم من الأمويين إلى العباسيين، والموالى هم الذين شاطروا فى هذا الانقلاب، بل كان العباسيون يعدونهم من خلص أنصارهم، ورجال دعوتهم فاتجهوا إليهم ونصروهم، فكان النشاط الذى أحرزه الموالى يسترعى الأنظار، ويبعث على العجب، خصوصا حينما نراهم يلتفون حول الإمام أبى حنيفة ويعتزون بشخصيته بعد ما أصبح يترأس حلقة علمية خلفها له أستاذه حماد، وهو من الموالى. و أبو حنيفة هو ذلك الرجل الذى عرف بقوة النفس، وعلو الهمة و كان ذا فطنة ولباقة، و له سيرة خاصة فى معالجة مشاكل الحياة، فتراه يقتحم مواقع الخطر و يزوج نفسه فيها، فتحدث الناس عنه و اشتهر اسمه و كان مع ذلك على جانب عظيم من المداراة لخصومه، فقد كانوا يسمعون السب و يقرعون سمعه بالنقد المر، و كان حسن المعاشرة لأصحابه يصلهم برفده، و يساعدهم بمعرفه، و له ثروة تساعده على ذلك و تمهد له الطريق. و لما هجاه مساور بقوله: كنا من الدين قبل اليوم فى سعة حتى بلينا بأصحاب المقاييس

قاموا من السوق إذا قامت مكاسبهم فاستعملوا الرأى بعد الجهد و البؤس

فلقبه أبو حنيفة فقال: هجوتنا يا مساور، نحن نرضيك فوصله بدرهم فقال مساور: إذا ما الناس يوما قايسونا بآبدة من الفتيا طريفه

أتيناهم بمقياس صحيح تلاد من طراز أبى حنيفة

إذا سمع الفقيه بها و عاها و أثبتها بحبر من صحيفه

فأجابه أصحاب الحديث: إذا ذو الرأى خاصم عن قياس و جاء ببدعة هنة سخيغه

أتيناهم بقول الله فيها و آثار مبرزة شريفه

إلى آخر الأبيات التى ذكرها ابن قتيبة (1) و ابن عبد ربه (2) و لا يسع المجال لذكر

ص: 324

[1-1] المعارف ص 216. [1]

[2-2] العقد الفريد ج 3 ص 408.

ما نتج من وراء ذلك الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي من هجاء و مناوشات، وكانت السلطة تشجع تلك الحركة، و تضاعف أسباب الخلاف من وراء الستار لغاية فى نفوس أصحابها. و على أى حال فقد اتجه أبو حنيفة إلى الفقه بعد أن قضى مدة من حياته فى التجارة ثم قرأ الكلام، و درس على مشايخ عصره، و حضر على عطاء بن أبى رباح فى مكة و هو من الموالى، و على نافع مولى ابن عمر فى المدينة، و أخذ عن عاصم بن أبى النجود و عطية العوفى، و عبد الرحمن بن هرمز مولى ربيعة بن الحارث، و زياد بن علاقة، و هشام بن عروة و آخرين، و لكنه لزم واحدا منهم ملازمة تامة و تخرج عليه و هو حماد بن أبى سليمان الأشعرى، و هو الذى اختص به أبو حنيفة و حضر درسه و تخرج عليه إلى أن مات سنة 120 هـ - و عمر أبى حنيفة أربعون سنة و قد أكثر أبو حنيفة الرواية عنه. و يحدث أبو حنيفة عن صلته بشيخه حماد بقوله: قدمت البصرة فظننت أنى لا أسأل عن شىء إلا أجبت عنه فسألونى عن أشياء لم يكن عندى فيها جواب، فجعلت على نفسى أن لا أفارق حمادا حتى يموت، فصحبته ثمانى عشرة سنة. و لم تكن ملازمته لحماد بحيث لم ينقطع عنه و لم يأخذ عن غيره لأنه كان كثير الرحلة إلى بيت الله الحرام حاجا، و التقى هناك بكثير من التابعين و سمع منهم و اجتمع بأئمة أهل البيت، و روى عنهم كزيد بن على و الإمام محمد الباقر و ابنه الإمام الصادق و عبد الله بن حسن بن حسن.

### فقهه و تلامذته:

#### إشارة

لم يعرف فقه أبى حنيفة إلا من طريق أصحابه الذين اختصوا به، فهو لم يكتب فقهه بنفسه و لم يدون شيئا من آرائه، و لكن التدوين إنما أخذ من قبل أصحابه؛ و كان لأبى حنيفة تلاميذ، منهم من كان يرحل إليه و يستمع منه، و منهم من لازمه ملازمة تامة، و فيهم يقول: هؤلاء ستة و ثلاثون رجلا منهم ثمانية و عشرون يصلحون للقضاء، و ستة يصلحون للفتوى، و اثنان أبو يوسف و زفر يصلحون لتأديب القضاة و أرباب الفتوى! و لكن الذين خدموا مذهب أبى حنيفة و نشره هم أبو يوسف، و زفر، و محمد بن الحسن الشيبانى، و الحسن بن زياد اللؤلؤى.

1- أما أبو يوسف وهو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري نسبا والكوفي منشأ، فهو عربي وليس من الموالي ولد سنة 113 هـ- وقد نشأ فقيرا و اتصل بأبي حنيفة بعد أن جلس إلى ابن أبي ليلى، ثم انقطع لأبي حنيفة واتصل به، وقد قام أبو حنيفة بنفقته ونفقة عياله عشر سنين، وبعد وفاة أبي حنيفة وزفر بن الهذيل استقل أبو يوسف برئاسة أصحاب أبي حنيفة، وساعدته الظروف السياسية، وأقبلت الدنيا عليه، ووقع موقع القبول عند خلفاء بني العباس، وولى القضاء لثلاثة منهم للمهدى والهادى والرشيد، وقد نال عند الرشيد حظا مكيئا وقربه، وهو الذى نشر مذهب أبي حنيفة فى الأقطار على أيدي القضاة الذين كان يعينهم أبو يوسف من أصحابه، فكان نفوذ المذهب يستمد من نفوذ سلطته، ولأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه، ذكرها ابن النديم منها: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالك، وغيرها؛ وله إملاء رواه بشر بن الوليد القاضى يحتوى على ستة وثلاثين كتابا، وأبو يوسف هو أول فقهاء أهل الرأى الذى دعموا آراءهم بالحديث، وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأى وأهل الحديث.

### **محمد بن الحسن الشيبانى:**

2- محمد بن الحسن، مولى بنى شيبان، ولد سنة 132 هـ- وتوفى سنة 189 هـ-، حضر على أبي حنيفة، ولم يتم دراسته عليه، لأن أبا حنيفة مات وعمر محمد نحو الثامنة عشرة، ولكنه أتم دراسته على أبي يوسف، وأخذ عن الثورى والأوزاعى ورحل إلى مالك، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية، ومكث عنده ثلاث سنين، وهو الذى أدخل الحديث فى فقه أهل الرأى، وألف كتابا فى ذلك أصبحت هى المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، وكان يخالفه فى أكثر مسائله.

### **الحسن بن زياد:**

3- الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى المتوفى سنة 204 هـ-، وهو من فقهاء المذهب ورواة آراء أبي حنيفة، وقد طعن المحدثون عليه، ورفضوا روايته، قال ابن



معين: إنه كذاب غير ثقة، وقال النضر بن شميل لرجل كتب كتب الحسن بن زياد: لقد جلبت إلى بلدك شرا. وقال أبو ثور: ما رأيت أكذب من اللؤلؤى، وكان ابن أبي شيبة يقول: كان أسامة يسميه الخبيث ووثقه ابن قاسم (1) وأخرج له أبو عوانة فى مستخرجه و الحاكم فى مستدركه.

## زفر بن الهذيل:

4- زفر بن الهذيل، وهو أقدم صحبة لأبى حنيفة من أبى يوسف و محمد توفى سنة 158 هـ، وكان أبوه عربيا و أمه فارسية، أخذ عن أبى حنيفة فقه الرأى، حتى غلب عليه على ما سواه، و كان أشد أصحاب أبى حنيفة قياسا، و هو الذى خلف أبأ حنيفة فى حلقتة، ثم من بعده أبو يوسف، و لم تعرف له رواية لشيوخه و يعود ذلك إلى قصر حياته من بعده، إذ لم يتسع الزمن للتدوين و لكن نشره لمذهب أبى حنيفة كان بلسانه و تولى القضاء فى زمن أبى حنيفة فى البصرة و هجاه أحمد بن المعدل المالكي بقوله: (إن كنت كاذبة بما حدثنى) فعليك إثم أبى حنيفة أو زفر

المائلين إلى القياس تعمدا و الراغبين عن التمسك بالخبر

(2) و قد ترك المحدثون الرواية عنه قال أبو موسى محمد بن المثنى: ما سمعت عبد الرحمن بن مهدي يحدث عن زفر شيئا. و عن معاذ بن معاذ قال: كنت عند سوار القاضى فجاء الغلام فقال زفر بالباب فقال سوار: زفر الرأى لا تأذن له فإنه مبتدع، و عدّه العقيلي فى الضعفاء، و عن بشر بن السرى قال: ترحمت يوما على زفر و أنا مع سفیان الثورى فأعرض بوجهه عنى. و قال الأزدى: زفر غير مرضى المذهب و الرأى، و قال أحمد بن أبى العوام قاضى مصر فى مناقب أبى حنيفة: قال لى أبو جعفر الطحاوى: سمعت أبأ حازم سمعت الضبى يقول: قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان يأتى حلقة عثمان البتى فيناظرهم و يتبع أصولهم، فإذا رأى شيئا خرجوا فيه عن الأصل تكلم فيه مع عثمان حتى يتبين له خروجه عن الأصل، ثم يقول فى هذا جواب أحسن من هذا فإذا استحسنوه قال: هذا قول أبى حنيفة، فلم يلبث أن تحولت الحلقة إليه و بقى عثمان البتى وحده.

ص: 327

1-1) لسان الميزان ج 2 ص 208.

2-2) تأنيب الخطيب للكوثرى ص 95.

هؤلاء تلامذة أبي حنيفة الذين نشروا فقهه و نقلوا آراءه، و أول من دون منهم، هو القاضي أبو يوسف، و من بعده محمد بن الحسن مولى بنى شيبان، و كتبه تعد المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، و قد أخذه عن أبي يوسف، لأنه أدرك أبا حنيفة و عمره لم يسمح له بنقل فقهه، و لكنه روى ذلك عن أبي يوسف، فتراه يذكر فى كتابه «الجامع الصغير» فى أول كل فصل روايته عنه، و لم يذكره فى «الجامع الكبير»، و قد ذكر ابن نجيم فى البحر فى باب التشهد أن كل تأليف لمحمد بن الحسن موصوف بالصغير فهو باتفاق الشيخين أبى يوسف و محمد، بخلاف الكبير فإنه لم يعرض على أبى يوسف. و لقد كان أبو يوسف و محمد و غيرهم من تلامذة أبى حنيفة مستقلين فى تفكيرهم كل الاستقلال، غير مقلدين لشيخهم، بأى نواحى من نواحى التفكير، و كونهم درسوا آراءه أو تلقوه عليه و تتقفوا فى أول دراستهم عليه لا- يمنع استقلال تفكيرهم، و حرية اجتهادهم، و إلا كان كل من يتلقن على شخص لا بد أن يكون مقلدا له، و تنتهى القضية لا محالة إلى أن تنزل درجة أبى حنيفة عن الاجتهاد، و يكون مقلدا لشيخه حماد بن أبى سليمان لأنه درس عنده، و كان كثير التخريج عليه، و خالفه أحيانا و وافقه أحيانا. و كذلك كان أصحاب أبى حنيفة. فقد درسوا فقهه. و تلقوا عليه فوافقوه فى بعضها و خالفوه فى كثير من الآراء و الأقوال، و ما كانت الموافقة عن تقليد بل عن اقتناع و استدلال و تصديق للدليل. و ليس ذلك من شأن المقلد فإن لهم آراؤهم الخاصة و لكنهم الطريق إلى نقل أقوال أبى حنيفة. و تجد كتب الحنيفة تورد أقوال الأربعة، و ربما يكون لمسألة واحدة أربعة أقوال لأبى حنيفة قول، و لأبى يوسف قول، و لمحمد قول، و لزرير قول، حسب ما يظهر لهم من الآثار و المعانى (1). يقول العلامة الخضرى: و قد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالا للإمام رجع عنها، و لكن هذه غفلة شديدة عن تاريخ هؤلاء الأئمة، بل عما ذكر فى كتبهم، فإن أبا يوسف يحكى فى «كتاب الخراج» رأى أبى حنيفة، ثم يذكر رأيه

ص: 328

مصرحا بأنه يخالفه، و يبين سبب الخلاف و كذلك يفعل في كتاب أبي حنيفة، و ابن أبي ليلى، فإنه أحيانا يقول برأى ابن أبي ليلى بعد ذكر الرأيين، و محمد رحمه الله يحكى في كتبه أقوال الإمام، و أقوال أبي يوسف و أقواله مصرحا بالخلاف على أنه لو كان كما قالوا لم يكن ما رجع عنه من الآراء مذهبا. و من الثابت أن أبا يوسف و محمد رجعا عن آراء رآها الإمام لما اطلعا على ما عند أهل الحجاز من الحديث، فالمحقق تاريخيا أن أئمة الحنفية الذين ذكرناهم بعد أبي حنيفة رحمه الله ليسوا مقلدين له، لأن التقليد لم يكن نشأ في المسلمين في ذلك التاريخ، بل كان المفتون مستقلين في الفتوى، بناء على ما يظهر من الأدلة، سواء أ خالفوا معلمهم أم وافقوهم، و لم تكن نسبة أبي يوسف و محمد إلى أبي حنيفة إلا كنسبة الشافعي إلى مالك (1). و سيأتي إنشاء الله في مباحث الفقه ذكر أقوالهم التي خالفوا بها أبا حنيفة و آرائهم التي انفردوا بها.

### علماء الحنفية و نشر المذهب:

و قد نقل كتبهم تلاميذهم المبرزون، منهم: 1- إبراهيم بن رستم المروزي المتوفى سنة 211 هـ، تفقه على محمد بن الحسن و سمع مالك بن أنس، و قدم بغداد، له كتاب النوادر عن محمد أستاذه، و هو ينسب إلى مرو بفتح الميم و سكن الرء المهملة في آخرها واو، بلدة يقال لها مرو، و إلحاق الزاء المعجمة بعد الواو في النسبة، للفرق بينه و بين المروى، و هى ثياب مشهورة بالعراق منسوبة إلى قرية بالكوفة (2). 2- أحمد بن حفص الكبير البخارى، أخذ الفقه عن محمد بن الحسن، و روى عنه كتبه، و كتب المبسوط بيده، و له اختيارات يخالف بها جمهور أصحابه (3). 3- بشر بن غياث المويسى المتوفى سنة 218 هـ- ابن أبي كريمة مولى زيد بن الخطاب أدرك مجلس أبي حنيفة و أخذ نبذا منه، ثم لازم أبا يوسف، و أخذ الفقه عنه

ص: 329

1-1 الخضرى تاريخ التشريع الإسلامى ص 225.

2-2 الفوائد البهية ص 9.

3-3 نفس المصدر ص 18.

حتى صار من أخص أصحابه، وله تصانيف وروايات كثيرة عن أبي يوسف، وله في المذهب أقوال غريبة، وكان أبو يوسف يذمه ويعرض عنه، وكان غير مرض عند أهل الحديث قال الذهبي: بشر بن غياث لا ينبغي أن يروى عنه (1). 4- بشر بن الوليد بن خالد الكندي القاضى المتوفى سنة 238 هـ-أحد أصحاب أبي يوسف، روى عنه كتبه وأماله، ولى قضاء بغداد فى زمان المعتصم، وكان متحاملا على محمد بن الحسن الشيبانى، وكان الحسن بن مالك ينهاه، وثقه الدارقطنى، وقال صالح بن محمد هو صدوق ولكنه لا يعقل. 5-محمد بن شجاع الثلجى المتوفى سنة 267 هـ-، تفقه على الحسن بن زياد والحسن بن أبى مالك، له كتاب تصحيح الآثار، وكتاب النوادر، وكتاب المضاربة، وكتاب الرد على المشبهة. وهو ضعيف الرواية عند أهل الحديث (2). 6-أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني المتوفى بعد المائتين، أخذ العلم عن محمد وكتب مسائل الأصول والأمالى، عرض عليه المأمون القضاء فلم يقبل، وله كتاب السير الصغير، والنوادر، وغير ذلك. 7-محمد بن سماعة التميمى، حدث عن الليث، وأبى يوسف، ومحمد، وأخذ الفقه عنهما، وعن الحسن بن زياد، وكتب النوادر عن أبى يوسف، ومحمد ولد سنة 130 هـ- ومات سنة 233 هـ-، ولى القضاء بعد موت يوسف ابن الإمام أبى يوسف سنة 192 هـ، له كتاب أدب القاضى، وكتاب المحاضرات، والسجلات، والنوادر. 8-هلال بن يحيى بن مسلم، تفقه على أبى يوسف وزفر، وله مصنف فى الشروط وأحكام الوقف، توفى سنة 245 هـ-. 9-أحمد بن عمر بن مهير الخصاف المتوفى سنة 261 هـ-أخذ عن أبيه عن الحسن بن زياد عن أبى حنيفة، كان عارفا بالمذهب، صنف للمهتدى كتاب الخراج، وله كتاب الوصايا، وكتاب الشروط الكبير والصغير، وكتاب الرضاع، وكتاب أدب القاضى، وكتاب الحيل الشرعية (3).

ص:330

- 
- 1-1) لسان الميزان ج 2 ص 29.
  - 2-2) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص 171.
  - 3-3) للحنفية كتابان فى استعمال الحيل الشرعية، أحدهما لمحمد بن الحسن الشيبانى، والثانى للخصاف، ويقال إن لأبى حنيفة كتابا فى الحيل، وكان يفتى به الناس للتحلل من الأحكام الشرعية والقيود الفقهية، روى أن عبد الله بن المبارك قال: من كان عنده كتاب الحيل لأبى حنيفة يستعمله أو يفتى به، فقد بطل حجه، وبانت منه امرأته. انظر كتاب أبو حنيفة، محمد أبو زهرة ص 417 وكتاب تاريخ التشريع الإسلامى ص 280 وسيأتى ذكر ذلك وتحقيقه.

10- أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي المتوفى سنة 321 هـ. قال المولى عبد العزيز الدهلوي: إنه كان مجتهدا ولم يكن مقلدا للمذهب تقليدا محضاً، فإنه اختار فيه أشياء تخالف مذهب أبي حنيفة. لما لاح له من الأدلة القوية، وقال محمد بن عبد الحى: هو فى طبقة أبى يوسف و محمد، لا ينحط عن درجتهم، وإن له درجة عالية ورتبة شامخة قد خالف بها صاحب المذهب كثيراً. وإنه من المجتهدين المنتسبين إلى إمام معين من المجتهدين، لكن لا يقلدونه لا فى الفروع و لا فى الأصول، لكونهم متصفين بالاجتهاد وإنما انتسبوا إليه لسلوكهم طريقه فى الاجتهاد (1). وبهذه الصورة انتشر مذهب أبى حنيفة. فهو فى عصره لم يدون آراءه و أقواله و إنما دونه أصحابه، و لم يكتفوا بأخذهم عنه، فأبو يوسف لزم أهل الحديث و أخذ عنهم أحاديث كثيرة لعل أباً حنيفة لم يطلع على كثير منها. و محمد لم يلازم أباً حنيفة إلا مدة قليلة فى صدر حياته، ثم اتصل بمالك و روى عنه و روايته له تعد من أصح الروايات إسناداً. إذا فعدهم من المجتهدين فى المذهب كما ذهب إليه ابن عابدين خطأ بين، يقول ابن عابدين: إن الإمام لما أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه صار ما قالوه قولاً له، لا بتناؤه على قواعده التى أسسها لهم؛ و نظير هذا ما نقله العلامة البيهقي فى أول شرحه على الاشباه على شرح الهداية لابن الشحنة الكبير و هذا نصه: «إذا صح الحديث و كان على خلاف المذهب عمل بالحديث و يكون ذلك مذهبه- أى مذهب أبى حنيفة- فقد صح عن أبى حنيفة أنه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي. . . فإذا نظر أهل المذهب فى الدليل و عملوا به صحت نسبته إلى المذهب لكونه صادراً

ص: 331

يأذن صاحب المذهب. إذ لا شك أنه لو علم بضعف دليله لرجع عنه و اتبع الدليل الأقوى» (1). وهذا قول لا- محل له، فلو كان الأمر كذلك فإن كل فتوى تصدر عن صحة الحديث من أى عالم كان و من أى مذهب هو. يلزم نسبتها إلى مذهب أبى حنيفة. و لعلمهم يرون ذلك فجعلوه أعلم الأمة على الإطلاق، بل أفضل التابعين و أعلمهم من هذا الباب، و الغرض أن الوصول إلى معرفة قول أبى حنيفة و مذهبه الخاص متعسر جدا. و الذى بين أيدينا إنما هو مجموع الأقوال منه و من أصحابه و تلامذتهم الذين أخذوا عنهم، فلا يمكن استخلاص أقواله منفردة لتكون منها وحدة فكرية خالصة له من كل الوجوه من غير اقتران أقوال أصحابه بأقواله؛ فإن محمد بن الحسن جمع أقوال فقهاء العراق و لم يجمع أقوال أبى حنيفة وحده، و لم يفصل آراءه عن آراء غيره من أصحابه و معاصريه، بل ألقى بالفروع و الحلول ما بين متفق عليه و مختلف فيه، فجاءت الأجيال و توارثت تلك المجموعة الفقهية التى تجمع أقوال فقهاء العراق فى الجملة، و أقوال أبى حنيفة و أصحابه و تلاميذه خاصة. و قد نهج منها ذلك المنهج غير محمد ممن روى فقه أبى حنيفة و هكذا نجد الرواية لآراء أبى حنيفة تذكر مخلوطة بالرواية عن غيره و ممزوجة بها. و على ذلك النهج تدارس من العلماء تلك الآراء و سموها المذهب الحنفى، و اختاروا للنسبة اسم كبير أولئك الأئمة و شيخهم- و هو أبو حنيفة- و من التهجيم على الحقائق سلبهم شخصيتهم لتفننى فى شخصية الإمام (2). و الخلاصة أن المذهب الحنفى اتسع بجهود أصحابه و نشرهم له إذ وسعوا دائرته بالبحث و التأليف، و أن علم أبى حنيفة لا يكاد يعرف لعدم انفراده عن أصحابه، فالموازنة بينه و بين غيره لا تحصل إلا إذا اتجهنا إلى الموازنة بين علماء المذاهب و بين مجموع مؤسسى المذهب الحنفى، الذين كونوا مجموعة فقهية مزيجة بأقوال فقهاء العراق و أقوالهم، و هذا أمر لا يمكن، و محاولة الحنفية بإرجاع الجميع إليه أمر غير وجيه، و سيتضح الأمر عند البحث عن آراء أبى حنيفة و أقواله، و ما ذهب إليه أصحابه فى خلافه.

ص: 332

1-1) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص 441-451.

2-2) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص 435.

إن عصر أبي حنيفة كان عصر مناظرات و جدل إلى أقصى حد، فمناظرات بين أهل الأهواء وبين الفرق المختلفة، وبين الفقهاء بعضهم بعضاً. وكان أبو حنيفة قوى المناظرة شديد الجدل، يتسلح بكل الوسائل التي تعينه على الوصول إلى الفوز بالنتيجة في غالب الأحيان، كما وصفه الإمام مالك بقوله: رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لتمام بحجته. وفي رواية أنه قال: تالله لو قال: إن هذه الأسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسى على صحة قوله، وبالطبع ان مثله ينال في تلك المعارك نصيبه من الشهرة، على أن المنصور نظر إليه بعين التقدير والعناية تكريماً له ولأبناء قومه الذين طلع نجمهم في ذلك العصر. ومما يدلنا على قوة مناظرته أن المنصور انتدبه إلى مهمة عجزت قوته عن دفعها، وخائته حيلته في التخلص منها، وهي مسألة انتشار ذكر جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ومن الصعب على المنصور أن تصبح في الكوفة ومكة والمدينة وقم حلقات علمية هي أشبه شىء بفروع لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق، وكانت تفرح سماعه أصوات شيوخ الكوفة، بكلمة يضطرب لها لبه، ويفقد عندها اتزانها، وهي قولهم في مناظرتهم: حدثني جعفر بن محمد الصادق، لذلك اضطر إلى جلب الإمام من المدينة إلى الكوفة ليفتك به، وأراد من أبي حنيفة الذي عرف بقوة المناظرة وسرعة الجواب أن يهين من مهمات المسائل، فيسأل الإمام بها في مجلس عام، عساه أن يظفر بشىء ينال به غرض الحط من كرامة الإمام الصادق، ولم يغب عن المنصور ما للإمام الصادق من المكانة العلمية. قال الحسن بن زياد اللؤلؤى سمعت أبا حنيفة -وقد سئل من أفقه من رأيت-؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهينى له من المسائل الشداد فهيات له أربعين مسألة. ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه، و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم

يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت عليه. وأوماً إليّ فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، فقال: نعم. ثم أتبعها قد أتانا كأنه كره ما يقول فيه قوم: إذا رأى الرجل عرفه. قال: ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله مسانلك، فجعلت ألقى فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا. فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة رحمه الله: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (1).

### مناظرته في القياس:

وكان عليه السلام ينهى أبا حنيفة عن القياس ويشدد الإنكار عليه ويقول: بلغني إنك تقيس الدين برأيك، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس (2). ويحدثنا أبو نعيم: أن أبا حنيفة وعبد الله بن أبي شبرمة وابن أبي ليلى دخلوا على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقال لابن أبي ليلى: من هذا الذي معك؟ قال: هذا رجل له بصر و نفاذ في الدين. قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه؟ قال: نعم! فقال جعفر لأبي حنيفة: ما اسمك؟ قال نعمان قال: ما أراك تحسن شيئاً، ثم جعل يوجه إليه أسئلة فكان جواب أبي حنيفة عدم الجواب عنها فأجابه الإمام عنها. ثم قال: يا نعمان حدثني أبي عن جدي، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس» قال الله تعالى له: اسجد لآدم فقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس.

ص: 334

1-1 (1) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج 1 ص 56. [1]

2-2 (2) الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 28، والحلية ج 3 ص 193.



قال ابن شبرمة: ثم قال جعفر أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا؟ قال أبو حنيفة: قتل النفس. قال الصادق: فإن الله عزّ وجلّ قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة. ثم قال: أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟ قال أبو حنيفة: الصلاة، قال الصادق: فما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة. فكيف ويحك يقوم لك قياسك! اتق الله ولا تقس الدين برأيك (1). وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تلك المواقف، التي كان فيها لأبي حنيفة موقف تسليم، لأنه أمام أمر واقع لا مجال فيه للجدل والمناقشة، وهو يعرف الإمام الصادق وخطته في مناظراته التي لا يريد بها إلا توجيه المسلمين توجيهها صحيحا، وكان بيته يختلط فيه أشتات الناس على اختلاف آرائهم ومبادئهم ونحلهم، وكان ميدان المعترك الفكري واسعاً في جميع الأنحاء، فكان عليه السلام في ذلك العصر مرجعاً لكل مشكلة ومهمة، يقصده طلاب الحقيقة من الأنحاء القاصية ويختلف إليه أهل الجدل والنظر فيكون جوابه هو القول الفصل والحكم العدل. وكان عليه السلام إذا ورد الكوفة اختلف إليه علماءها وأحاط به فقهاؤها يسألون عما يهمهم ويستقون من فيض علمه، كما كان من خطته عليه السلام أن يسأل بقصد التوجيه وسبرغور من يتحرى المناظرة ويتطرق إلى مذاهب الكلام ومناهى القياس، فتراه عليه السلام يسأل أبا حنيفة: ما على محرم كسر رباعية ظبي؟ قال أبو حنيفة: ما أعلم فيه. فقال عليه السلام: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني أبداً (2).

### رواياته عن الإمام الصادق وميله لأهل البيت

وكان أبو حنيفة ممن يختلف إلى الإمام الصادق عليه السلام ويسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام ولا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداك يا ابن رسول الله. وقد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق عليه السلام وحدث عنه واتصل به في

ص: 335

- 
- 1-1) حلية الأولياء ج 3 ص 197.  
2-2) المصايد والمطارد لكشاجم ص 202-203. وفيات الأعيان ج 1 ص 212 [1] امرأة الجنان ج 1 ص 305 و [2] شذرات الذهب ج 1 ص 220. [3]

المدينة مدة من الزمن، ورواياته عنه أثبتتها رواية مسانيدته وورد منها في كتاب الآثار لأبي يوسف. وعلى أي حال فإن لأبي حنيفة صلة مع أهل البيت عليهم السلام وكان ينتصر لهم ويؤازرهم في جميع مواقفهم. لقد ناصر زيد بن علي وسأهم في الدعوة إلى الخروج معه وكان يقول: ضاهى خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر. فقليل له: لم تخلفت عنه؟ قال: حسنى عنه ودائع الناس عرضتها على ابن أبي ليلى فلم يقبل (1). كما أنه أزر محمد بن عبد الله بن الحسن وأخاه إبراهيم، وكان يحث الناس ويأمرهم باتباعه، وجاءت إليه امرأة أيام إبراهيم فقالت: إن ابني يريد هذا الرجل وأنا أمنعه، فقال: لا تمنعيه (2). وقال أبو إسحاق الفزاري: جئت إلى أبي حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله أفيتت أخى بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله لو قتل يوم بدر وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة (3) فكان إسحاق يبغض أبا حنيفة بعد ذلك. ووجه أبو حنيفة إلى إبراهيم كتابا يشير عليه أن يقصد الكوفة سرا ليعينه الزيدية وقال: إن فيها من شيعتكم بيتون أبا جعفر فيقتلونهم أو يأخذون برقبته فيأتونك به، وكانت المرجئة تنكر ذلك على أبي حنيفة وتعيبه به (4). وكان أبو حنيفة عند ما يذكر محمد بن عبد الله بن الحسن بعد قتله تذرّف عيناه بالدموع (5). وفي الجملة أن ميل أبي حنيفة لأهل البيت لا خفاء عليه حتى عد من الشيعة الزيدية.

ص: 336

1-1) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص 71 نقلا عن مناقب أبي حنيفة للبرزقي ج 1 ص 55.

2-2) مناقب أبي حنيفة للمكي ج 2 ص 84.

3-3) مقاتل الطالبين ص 364. [1]

4-4) مقاتل الطالبين ص 366. [2]

5-5) المناقب للكردي ج 2 ص 72.

و يقول أبو زهرة-بعد البحث عن ميله و تشيعه-: و ننتهى من الكلام السابق أن أبا حنيفة شيعى فى ميوله و آرائه فى حكام عصره، أى أنه يرى الخلافة فى أولاد على من فاطمة، و أن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم، و كانوا لهم ظالمين (1). و كان أبو حنيفة يرى أن على بن أبى طالب على الحق فى قتاله لأهل الجمل و غيرهم و يتضح ذلك من أقواله فى عدة مواطن منها: انه سئل عن يوم الجمل؟ فقال: سار على فيه بالعدل و هو أعلم المسلمين فى قتال أهل البغى. و قوله: ما قاتل أحد عليا إلا و على أولى بالحق منه. . . الخ. و قوله: إن أمير المؤمنين عليا إنما قاتل طلحة و الزبير بعد أن باعاه و خالفا (2). و قال يوما لأصحابه: أ تدررون لم يبغضنا أهل الشام؟ قالوا: لا. قال: لأننا لو شهدنا عسكر على بن أبى طالب و معاوية لكننا مع على رضى الله عنه. أ تدررون لم يبغضنا أهل الحديث؟ قالوا: لا. قال: لأننا نحب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و نقر بفضائلهم. و فى رواية أنه قال: أ تدررون لم يبغضنا أصحاب الحديث؟ قالوا: لا. قال: لأننا تثبت خلافة على رضى الله عنه و هم لا يثبتونها. و لا نريد هنا أن نستقصى أخبار أبى حنيفة الدالة على صلته بأهل البيت عليهم السلام، كما لا نريد أن نقيم الأدلة على ميوله الشيعية أو نفيها فإن ذلك لا يعنينا فى البحث.

ص: 337

1-1) أبو حنيفة ص 165.

2-2) مناقب المكي ج 2 ص 24.

وبقى شىء يجب الالتفات إليه وهو قتل المنصور لأبي حنيفة بالسم. فهل كان ذلك لمناصرتة لأهل البيت عليهم السلام؟ أو كان لعدم قبوله القضاء فحسب؟ اختلفت أقوال المؤرخين فى ذلك، فمنهم من أرجع الأسباب إلى عدم قبوله القضاء فقط، عند ما أشخصه المنصور من الكوفة إلى بغداد وعرض عليه القضاء، ولكنه أبى فحبسه و مات فى الحبس، و الروايات فى هذه الحادثة مختلفة، فبعضهم يرويها على هذا الوجه، و آخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب، فقبل القضاء على كره (1) ثم مات بعد أيام، و آخرون يروون أن المنصور إنما استقدمه من الكوفة لأنه اتهم بالتشيع لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، فإنه أعلن الانضمام لجانب دعوة محمد وإبراهيم، وأفتى بوجوب الخروج مع إبراهيم. يحدثنا أبو الفرج الأصفهاني عن عبد الله بن إدريس قال: سمعت أبا حنيفة وهو قائم على درجته، ورجلان يستفتيانه فى الخروج مع إبراهيم، وهو يقول: اخرجوا. وانه كتب إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة ويدخلها سرا، فإن من هاهنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه، أو يأخذون بربقته، فيأتونك به، وكتب له كتابا آخر فظفر أبو جعفر بكتابه، فسيره وبعث إليه، فأشخصه و سقاه شربة فمات منها (2). و التسليم لهذه الرواية غير ممكن لأن قتل إبراهيم كان فى سنة 145 هـ و وفاة أبى حنيفة فى سنة 150 هـ و ليس فى إمكان المنصور التريث فى أمر أبى حنيفة مدة خمس سنوات عند ما تحقق منه ذلك؛ و كان لا يقف فى ظلمه عند حد لتركيز دعائم ملكه، و لا يتورع فى سفك الدماء، و إن له من القوة ما يخول له قتل أبى حنيفة بسرعة، فإن بقاءه خطر على الدولة و لا يمكن للمنصور أن يغض عن ذلك، و قد فتك بأبى مسلم مع قوته و كثرة جنده، و فتك بزعماء أهل البيت، مع علمه بحراجة الموقف، كما فتك بكثير من الزعماء و ذوى الوجاهة، و النفوذ. اللهم إلا أن يكون عثور المنصور على رسالة أبى حنيفة لإبراهيم بعد مدة من قتله.

ص: 338

1-1) مناقب المكي ج 2 ص 27.

2-2) مقاتل الطالبين ص 366. [1]

وكان أبو حنيفة من جملة الفقهاء المنتصرين لمحمد وإبراهيم كمالك بن أنس والأعمش ومسعر بن كدام وعبادة بن العوام وعمران بن داود القطان وشعبة بن الحجاج وغيرهم، وكان بعضهم حضر حربه (1) وكانوا يعدون شهداء وقعته كشهداء بدر ويسمونها بدر الصغرى، وقد رأينا المنصور يغض عن مؤاخذه أولئك الفقهاء لأنه بحاجة ماسة لبقائهم والمعاونة معهم، وبذلك يقصد إيجاد مجموعة منهم لتخفيف خطر انتشار ذكر جعفر بن محمد في الأقطار فقد كان هو الشجى المعترض في حلقه. ومن الحق والإنصاف أن نقول: إن موقف أبي حنيفة ليس كموقف مالك بن أنس، فإن مالكا لما عوقب لأجل فتواه بالخروج مع محمد أخلص بعد ذلك للمنصور، وتغير موقفه حتى كان يظهر أن لا فضل لعلى عليه السلام على غيره من الصحابة، بل هو كسائر الناس أما أبو حنيفة فلم يتغير موقفه، وكان يفضل عليا عليه السلام إما على عثمان فقط أو على جميع الصحابة، كما لم تتغير وجهة نظره في الدولة وإنها ظالمة لا تصح مؤازرتها. والحاصل أن غضب المنصور على أبي حنيفة قد اختلفت الأقوال فيه، ومهما تعددت الأسباب فيه فالمرجع كله يعود إلى مخالفة أبي حنيفة لرأى السلطة التي تريد تجريد العلماء من مواهب الإدراك والتفكير، ومنعهم من حرية الرأي والصراحة بالحق، وعلى كل فقد مضى أبو حنيفة ضحية فتك المنصور وسطوته. ولا بد لنا قبل نهاية البحث أن نشير إلى اتصال أبي حنيفة برجال مدرسة الشيعة وروايته عنهم وسماعه منهم. ربما يظن أن أبا حنيفة لم يرو عن رجال الشيعة، ولم يكونوا من شيوخه، وذلك

ص: 339

---

1-1) كان خروج محمد بن عبد الله النفس الزكية في المدينة سنة 144 هـ - وبايعه أهل الحجاز، قال ابن العماد: وأحبه الناس حبا عظيما لما كان فيه من الكمال وخصال الفضل، ويشبه النبي في الخلق والخلق، واسمه واسم أبيه. وبايعه المنصور والسفاح، وكان من دعائه أيام بنى أمية، وقتل في المدينة قتله المنصور الدوانيقي، وخرج أخوه إبراهيم في العراق بعد قتله، وكاد أن يظفر بالمنصور لكثرة جيشه ومحبة الناس له وتأييد الفقهاء لهضته، ودعوه لدخول الكوفة ليلا فقال أخاف أن يستباح الصغير والكبير. وإن حادثة إبراهيم ومحمد لمن أهم الحوادث التاريخية ولم تنل نصيبها من التحقيق والبحث.

لأنهم نقلوا عنه أن أبا عصمة حدث عن أبي حنيفة عند ما سأله ممن تأمرني أن أسمع الآثار؟ فقال أبو حنيفة: من كل عدل في هواه إلا الشيعة فإن أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والصحيح أن هذا القول لم يصح عن أبي حنيفة. أولاً أنه انفرد به أبو عصمة وهو نوح بن مريم المروزي المتوفى سنة 173 هـ- وهذا الرجل مشهور بوضع الحديث حسبة. قال الحافظ زين الدين العراقي في مبحث الوضاعين: ومثال من كان يضع الحديث حسبة ما روينا عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي، قاضى مرو، فيما رواه الحاكم بسنده إلى أبي عمار المروزي، أنه قيل لأبي عصمة: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة، ومغازى محمد بن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة. وكان يقال لأبي عصمة هذا: نوح الجامع فقال ابن حبان: جمع كل شيء إلا الصدق. وقال البخارى: قال ابن المبارك لو كيع: عندنا شيخ يقال له أبو عصمة كان يضع كما يضع المعلى بن هلال (1). وقال ابن حجر في ترجمته: قد أجمعوا على تكذيبه (2) وقال العباس بن مصعب: كان نوح بن أبي مريم أبوه مجوسياً اسمه «مابنه» استقضى نوح على مرو وأبو حنيفة حتى، فكتب إليه أبو حنيفة يعظه (3).

ص: 340

---

1-1) شرح ألفية العراقي ج 1 ص 168 و الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص 221.

2-2) لسان الميزان ج 6 ص 168.

3-3) ميزان الاعتدال ج 3 ص 245.

ولا حاجة بنا إلى مزيد من البيان عن أبي عصمة وشهرته بالوضع، وهو بهذه الكلمة أراد أن يضلّل الناس في عقيدة الشيعة بالصحابة رضوان الله عليهم. ومن المؤسف أن هذه الكلمة الموضوعية قد أخذت مكانتها من أدمغة كثيرين من كتّاب الأصول والحديث في السابق والحاضر، وبنوا عليها تأييد ما يدعى على الشيعة من الطعن على جميع الصحابة. وإن أبي أولئك إلا أن يصححوا ما أورده أبو عصمة، وأن هذه الكلمة صادرة عن أبي حنيفة وأنها شهادة منه على الشيعة، فنحن نسألهم كيف يصح لأبي حنيفة أن ينهى عن شيء وهو يفعله؟. لأننا نرى بالوجدان أن أبا حنيفة قد حضر عند علماء الشيعة، وسمع منهم، وروى عنهم، وهذه مسانيدهم وكتب أصحابه مليئة بتلك الروايات أمثال كتاب الآثار، وكتاب الخرائج وكتاب الرد على الأوزاعي وغيرها. ولا يعنى ذلك أن أبا حنيفة قد تخلص من مؤثرات ذلك العصر وقلد الشيعة واتبعهم فهو في الفقه-كما رأينا-، وهو في اتصاله بالحكام لا يتجاوز الحد الذي يغضب الخليفة رغم أنه من ركائز ثورة الإمام زيد، ومع ذلك امتدت إليه يد المنصور فأذاقته المنية. وكان يخشى أن يتهم بالرفض أو الاعتزال فيحذر في أقواله ويتحرز في إجابته (1) ومع كل هذا اتهم في إيمانه واعتقاده. ولمزيد من الإيضاح نذكر-بإيجاز-أسماء بعض شيوخ أبي حنيفة من الشيعة وقد وردت رواياته عنهم في جامع مسانيدهم وكتب أصحابه.

### شيوخ أبي حنيفة من الشيعة:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي المتوفى سنة 128 هـ. حبيب بن أبي ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفي المتوفى سنة 119 هـ. مخول بن راشد أبو راشد النهدي المتوفى سنة 141 هـ.

ص: 341

1-1) انظر المناقب للموفق ج 1 ص 171 و الكردري ج 1 ص 173.

عطية بن سعد العوفى المتوفى سنة 111 هـ- سلمة بن كهيل الحضرمى المتوفى سنة 113 هـ- أجليح الكندى وقيل اسمه يحيى بن عبد الله و لقبه الأجليح المتوفى سنة 145 هـ- إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة الكوفى المتوفى سنة 127 هـ- المنهال بن عمر الكوفى التابعى. عدى بن ثابت الأنصارى الكوفى المتوفى سنة 116 هـ- زبيد بن الحارث الياىمى، ويقال الأياىمى الكوفى المتوفى سنة 122 هـ- وغير هؤلاء من شيوخ أبى حنيفة الذين عرفوا بتشيعهم لأهل البيت ولا يسعنا ذكر الباقين منهم بهذه العجالة. و سيأتى فى الجزء السادس من هذا الكتاب تراجم هؤلاء العلماء الذين تحامل رجال الجرح و التعديل عليهم لتشيعهم فحسب مع أن رجال الصحاح خرجوا أحاديثهم فى صحاحهم. و على أى حال فإن أبى حنيفة أخذ عن رجال الشيعة كما أخذ عن أئمتهم عليهم السلام و نفى ذلك تكذبه أحداث حياة أبى حنيفة و أفكاره. إلى هنا ينتهى البحث عن حياة أبى حنيفة من الوجهة التاريخية و قد اختصرت البحث عنه و آثرنا المهم من سيرته و مراحل حياته لإعطاء صورة عن اختلاف الناس فيه، من قادح و مادح، و مغال و متعصب، و ذكرنا طرفا من أقوال خصومه بدون تعرض لإثباتها أو نفيها، و بقيت أقوال المعتدلين فيه ضاق المجال عن ذكرها و التعليق عليها، و سنعطى رأينا فيه و بيان منزلته العلمية و من الله التسديد.



1- إظهار الحقيقة من حيث هو أمر يشق على بعض النفوس التي خضعت لسلطان الهوى وفهمت الأشياء من طريق التقليد، لا من طريق الثبوت والواقع، إنما يلائم أمزجة نقية وطباعا متنورة. وإن البحث عن المذاهب هو من أهم الأبحاث التي توقع الكاتب في حيرة وارتباك، لأن مسالك الوصول إلى الحقيقة ملتوية، والحواجز متكاثرة، كما أنى لا أجهل أهمية الموضوع وخطره، فهو من أهم أسباب العداء والبغضاء بين طوائف المسلمين، وهو منبع التباعد والتضارب، مما أدى بالمسلمين إلى الانحطاط، واتساع نفوذ أعداء الدين الإسلامي، في بث روح الفرقة وإيقاد نار الخصومة بينهم، لانصراف المسلمين بكل قوتهم إلى الوقعة بعضهم ببعض لتأييد كل مذهبه الذي يرتضيه، فنشأ من وراء ذلك فتن ونزاع وتخاصم واتهام بالسوء، وفرقة وتباعد، وتركوا ورائهم الأخذ بما أمرهم الله من الاعتصام بحبل الله وأن لا يفرقوا فتذهب ريحهم، ويتسلط عليهم عدوهم. ولم يسعد المسلمون بالتفاهم حول أسباب النزاع، وعوامل التفرقة ومعالجة مشكلة العصبية، لأن الخلاف أصبح في الجملة طبيعة ارتكازية، وقد عد إزالته من المستحيل، وليس كذلك إن تركز البحث على ضوء الأدلة العقلية، والتجرد عن الهوس والعصبية، وترك المغالطات واتحاد الهدف، وهو إظهار الحقيقة وتقبل الحق وإن كان مرا. وقد مضى زمن رجال وسعوا دائرة الخلاف ليتسع نفوذهم، ويتم لهم ما أرادوا في تفريق كلمة المسلمين، لتركيز دعائم الملك، وامتداد سلطان الاستبداد إذ اتحاد كلمة الأمة يضيق عليهم الدائرة، ويرغمهم على إعطاء المجتمع حرية التفكير، وبذلك تعتدل طرق سيرتهم ويقل ضرر استبدادهم. وهذا الخلاف خلاف غرض أئمة المذاهب، كيف وقد أصبح اتباعهم في أخذ الأحكام سببا لانفجار براكين الحقد والكراهية، واتساع شقة الخلاف، وتكفير البعض للبعض كما مر بيانه، فحدث من ذلك فساد عظيم وخلقت مشاكل. 2- اتضح لنا من سير الحوادث اهتمام ولاية الأمر في تلك العصور بتحويل

أنظار الناس عن اتباع أهل البيت، والأخذ من تعاليمهم، ووجهوا الناس بكل حول وقوة لمعاداة من اتبعهم فى الأحكام الشرعية. ولما كانت الشيعة متظافرة على الدعوة لآل محمد، وتقديم مذهبهم على جميع المذاهب فالشيعة يرون أحقية أهل البيت بالأمر، وأنهم حملة رسالة الإسلام، ودعاة نشره، وأولياء أمر الأمة، يقودونهم إلى السعادة، وينفذون أحكام الله، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، وهم المثل الأعلى فى طهارة النفس، وهم ينبوع فياض تتدفق منه أنواع المثل والقيم التى تغذى العقول وتبنى السلوك وتضمن توجيه الحياة الإنسانية، فاتباعهم لازم بدليل العقل والشرع. ولن تتخل الشيعة أبداً عن الاعتصام بآل محمد، والتمسك بهم مهما كلفهم الأمر، ومهما اتخذ أعداؤهم من أساليب ووجهوا إليهم من تهمة. لذلك نظرت إليهم السلطة نظر خصم لا- تلين قناته، ولا تعمل الإرهابات عملها المطلوب، وقد عجزوا عن تحويل عقيدتهم الراسخة رسوخ الطود، فراحوا يلصقون بهم التهمة ويقولون عليهم، وهم يعلمون عن الشيعة خلاف ذلك، ولكنهم عرفوا أن تقويم ملكهم وبقاء عزهم لا يتم إلا بالجم الألسن وكم الأفواه عن المؤاخذات التى توجه إليهم بصفاتهم ساسة الأمة وحكام الإسلام، وقد حاولوا إفهام الناس أنهم على الحق وخصومهم على الباطل، فطبعوا فى القلوب بغض المعارضين لهم، حتى أخرجوهم عن الإسلام ادعاء، ووجهوا إليهم كل مكروه، واتبعوهم بالأذى، وعاملوهم بالقسوة والشدة حتى توصلوا إلى مخالفة الأحكام، وهجر السنن الصحيحة عن صاحب الرسالة، لأن الشيعة قاموا بالعمل بها، ولنضع صوراً بين يدي القارئ من تلك المخالفات: يقول ابن تيمية (1) فى منهاجه عند بيان التشبه بالشيعة: ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات، إذ صارت شعاراً لهم، فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك لكن فى إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السنن من الرفض، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة ذلك المستحب.

ص:344

---

1-1) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المتولد سنة 661 هـ- والمتوفى سنة 728 هـ.-

وقال مصنف الهداية من الحنفية: إن المشروع التختم باليمين، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه في اليسار. وقال الغزالي: إن تسطیح القبور هو المشروع، ولكن لما جعلته الرافضة شعارا لها، عدلنا عنه إلى التسنيم (1). وقال الشيخ محمد بن عبد الرحمن في كتاب «رحمة الأمة في اختلاف الأئمة» المطبوع في هامش ميزان الشعراني ج 1 ص 88: السنة في القبر التسطیح وهو أولى على الراجح، من مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة وأحمد: التسنيم أولى، لأن التسطیح صار شعارا للشيعة. 3- ومهما يكن من أمر فإن امتحانات الشيعة وما نالهم من الأذى، إنما هو في سبيل الانتصار لآل محمد صلّى الله عليه وآله وسلم والانضمام إلى جانبهم ونشر مبدئهم، ولو أنهم استجابوا لداعي السلطة، ورغبوا في لذة الحياة، فليس بينهم وبينها إلا النزول على رغبات أولئك القوم الذين لا يرغبون إلا في القضاء على مبادئ آل محمد صلّى الله عليه وآله وسلم، ومحو ذكرهم فيجبوا أنفسهم الوليات وتصبح حصتهم من الدولة المراكز والمنافع ويعدوا أهلهم وذويهم عن مستقبل يفتح على السجون وقطع الرقاب. ويبدو أن إلحاق الأذى بالشيعة صار قانون الملوك الطغاة والأمراء الذين استولوا على مقاليد الأمور فلو تجاوزنا بني أمية وبني العباس فإننا نرى ملوك بني أيوب في مصر الذين كالموا لهم كل مدح وأطروهم بثناء جميل. اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم ويتسطنون في المطاعم ويصنعون الحلوات، ويتخذون الأواني الجديدة، ويكتحلون ويدخلون الحمام، جريا على عادة أهل الشام، التي سنّها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ليزعجوا شيعة علي بن أبي طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي عليه السلام لأنه قتل فيه. يقول: المقرئى وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور. ويكفى خصوم الشيعة أنهم يسيرون على ما سنّه الحجاج من ذلك الفعل القبيح، فهل يا ترى أنهم ذهلوا عن قبح هذا العمل؟ أم ترى أنهم لا يعلمون أن هذا الفعل يسىء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم؟ كيف وهم يظهرون الفرح في يوم بكى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم له قبل

ص: 345

وقوعه، و كان يتألم منه، و هل جهلوا منزلة الحسين عليه السلام؟ فعمدوا إلى هذا الفعل المنكر؟! (1). 4- اندفع ولاة الجور للدفاع عن مراكزهم، و المحافظة عن كيان ملكهم، ببث روح الفرقة بين أفراد الأمة، لاستحصال غاياتهم التي رأوا استحالة حصولها مع اتفاق المسلمين و صفاء ودهم و صبغوا تلك الأعمال التي حاولوا بها تمزيق وحدة الصف صبغة دينية، و لكنها فى الواقع بعيدة كل البعد عن روح الدين. و قد أفصح لنا التاريخ عن نياتهم السيئة و ما يقصدون من وراء ذلك، و قد آزرهم رجال ابتعدوا عن الحق، و تهاجموا على أصول المحاسنة و المداراة الاجتماعية، و دعاهم جشعهم إلى الابتعاد عن حدود الإنسانية، و خلعوا ابراد الحشمة، و أطفأت الأطماع شعلة عقولهم «فهم فى غيهم يعمهون». و على أى حال فقد تفرقت الأمة كما شاءت السياسة، أو كما شاء ولاة الجور، بمقتضى العوامل التي وجهوها لهدم كيان المجتمع الإسلامى، فاتسع الخلاف و عظم الارتباك، و وقعت الخصومة، و بين هذا و ذاك رفع الاستبداد رأسه و افترس كل ما وجده صالحا للأمة. و أصبحت المسألة سيئة الوضع نشأ من جرائمها عداء متأصل، توارثته الأجيال حتى عجز المصلحون عن معالجة مشاكل الأمة، و قد اتخذها المستبدون أسهل وسيلة لتفريق المجتمع الإسلامى، تقوية لسلطانهم، و قوة لنفوذهم على ممر العصور، و هم يتظاهرون بمحاربة هذه النعرة، و لكنهم يبذلون جهودهم فى نصرتها من وراء الستار، باستخدامهم مرتزقة سلبوا مواهب الإدراك، و فقدوا شعورهم عند حصول تلك الأجرة الزهيدة، و اشترى الضلالة بالهدى، يكتبون بأقلامهم المسمومة، ما يثير الضغائن و الأحقاد، فكانت لهجتهم جائرة، يختلقون و يفتعلون بدون قيد و شرط تقربا لأسيادهم. بين يدي عشرات من تلكم الكتب التي حررتها تلك الأقلام المأجورة، ألفها مهرجون لا يعرفون من الحق موضع أقدامهم، يكيلون الدم لأمة عرفوا بإخلاصهم و ولائهم لأهل البيت، و اعتناق مذهبهم الذي تركت دعائمه على تعاليم صاحب

ص: 346

1- 1) انظر كتابنا: مع الحسين فى نهضته.

الرسالة، وانتشر بجهود أصحابه، وقد رأت السلطة مخالفة ذلك لمصالحهم فجعلوا اتباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَخَذَ تَعَالِيمَهُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ بَدْعَةً نَظَرًا لِعَدَمِ تَشْرِيعِ السِّيَاسَةِ لِذَلِكَ. وَ لَمْ يَجِدُوا طَرِيقًا لِمُؤَاخَذَةِ الشَّيْعَةِ بِحِكْمَةٍ وَنِزَاهَةٍ، وَ لَكِنْهُمْ حَاكُوا لَهُمُ التَّهْمَ، تَقُولُوا بِالْبَاطِلِ وَابْتِعَادًا عَنِ الْحَقِّ، بَلْ هُوَ تَهْرِيجٌ وَهُوسٌ، وَ تَعَابِيرٌ لَا شَعُورِيَّةَ، وَ مِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ التَّهْمِ التِّي أَلْصَقُوهَا بِالشَّيْعَةِ هُوَ قَوْلُهُمْ بِتَكْفِيرِ الشَّيْعَةِ لِلصَّحَابَةِ، وَ حَكَمُوا عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ بِالْخُرُوجِ عَنِ الدِّينِ! مَا أَقْسَى هَذَا الْحَكْمَ، وَ مَا أَعْظَمَ هَذِهِ التَّهْمَةَ «عَفُوكَ اللَّهُمَّ عَفُوكَ». اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا يَقُولُهُ الْحَاقِدُونَ وَ نُوَالِي أَصْحَابَ رَسُولِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ رَضِيَتْ عَنْهُمْ وَ أَخْلَصُوا فِي الدَّعْوَةِ وَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ. 5- لَقَدْ أَخَذَتْ هَذِهِ التَّهْمَةُ نَصِيْبَهَا مِنَ التَّهْوِيلِ، وَ حَظَّهَا مِنَ الشُّيُوعِ، فِي عَصْرِ اتَّخَذَ خُصُومُ الشَّيْعَةِ مِنْ سُلْطَانِهِ قُوَّةَ الْإِنْتِصَارِ، وَ إِزْدَادِ نَشَاطِهِمْ بِتِلْكَ الْمَفْتَرِيَّاتِ، وَ الْإِتِهَامَاتِ التِّي سَلَكُوا بِهَا طَرُقَ الْخُدَاعِ وَ التَّمْوِيهِ عَلَى السَّدْجِ وَ عَوَامِ الْأُمَّةِ، فَتَرَكَزَتْ فِي أَدْمَعْتِهِمْ تِلْكَ الْفِكْرَةَ السَّيِّئَةَ، وَ بِحَكْمِ مَوْثِرَاتِ الدَّعَايَةِ التِّي بَثَّتْهَا الطَّبَقَةُ الْحَاكِمَةُ ضِدَّ الشَّيْعَةِ، لِثِيْرُوا الْبَغْضَاءَ، وَ يَبْذُرُوا الْحَقْدَ، وَ يَبْرِزُوا لِلشَّيْعَةِ صُورَةَ تَشْمِئْزُ مِنْهَا النُّفُوسُ، فَكَانَتْ دِمَاؤُهُمْ مَهْدُورَةً وَ أَمْوَالُهُمْ مَبَاحَةً. وَ لَمْ تَقْفِ الشَّيْعَةُ تَجَاهَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ مَكْتُوفَةً الْيَدِ، بَلْ دَافَعَتْ عَنْ مَبْدِئِهَا وَ عَقِيدَتِهَا بِسَاطِعِ الْبِرْهَانِ وَ قُوَّةِ الْمُنْطِقِ وَ حِدِّ السَّيْفِ، فَكَانَتْ هُنَاكَ ثَوْرَاتٌ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَ حُرُوبٌ طَاحَنَةٌ دَفَاعًا عَنِ الْمَبْدَأِ وَ حِفْظًا لِكِرَامَةِ الدِّينِ. مَا أَقْسَى هَذَا الْحَكْمَ وَ مَا أَعْظَمَ هَذِهِ التَّهْمَ، وَ لَا تَسْتَطِيعُ الشَّيْعَةُ السَّكُوتَ عَلَيْهِ، وَ لَكِنْ مَا ذَا تَصْنَعُ وَ زَاوِيَةَ التَّعَصُّبِ مَفْتُوحَةً يَطَّلُ مِنْهَا أَوْلَادُكَ الْحَوْلِ الْقَلْبِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ الْكُذْبَ. رَبَّنَا احْكَمْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، رَبَّنَا لَا تَرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا بِكَ وَ اتَّبَعْنَا نَبِيَّكَ، وَ وَالَيْنَا أَصْحَابَهُ الَّذِينَ نَهَجُوا نَهْجَهُ، وَ اهْتَدَوْا بِهَدْيِهِ وَ سَمِعُوا دَعْوَةَ الْحَقِّ فَلَاقَتْهَا نَفُوسُهُمْ بِكُلِّ قَبُولٍ وَ صَدَقَ، وَ إِخْلَاصٍ بِالْقَوْلِ وَ الْعَمَلِ، وَ نَظَرُوا لِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ مَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ أَوْلَادُكَ هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا» سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا

بأموالهم وأنفسهم، ونشروا الدين وأظهروا شعائر الإسلام، وأقاموا الفرائض، وأحيوا السنن، آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم و نصروه، و اتبعوا النور الذى أنزل معه فأيدت نبيك فيهم، و ألفت بين قلوبهم فاتحدوا و آزرُوا و نصرُوا و صدقُوا ما عاهدوا عليه الله؛ ربنا إنا آمننا بنبيك، و تبرأنا من المنافقين الذين مردوا على النفاق، و نصبوا لنبيك الغوائل، و لم يؤمنوا بإيمان القلب و الجنان، بل إيمان الشفة و اللسان فأخبرت نبيك عنهم إذا جاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَدُكَ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [المنافقون: 1 و 2]. الذين يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَ لَا يَدُّكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [النساء: 142 و 143]. و تبرأ من الذين شاقوا رسولك وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 115]. حقا إنها مؤاخذه عظيمة، لو كان لها من الصحة نصيب، و لكنها فرية و بهتان، بعثتها الأغراض، و أوحتها الأوهام و الخيالات، فتوارثتها الأجيال و لو تناولتها أقلام غير مأجورة لقبرتها فى مقرها الأخير. أ تكون الشيعة بميلها عن معاوية و حزبه، و مناقشتهم نقاشا علميا يتركز على حرية الرأى مجرمة فى نظر العدالة، و يحكم عليهم بعدم الاستقامة فتطرح رواياتهم؟ نصفا يا حكام الجرح و التعديل، فهل ألقىت أقوال من تجرأ على سب على و بغضه و الحط من كرامته؟ لا لا إنه مقبول ثقة فى الرواية، و يقال إنه حسن الاعتقاد، ناصر للسنة. و لا يسعنا التوسع أكثر بالبحث فى هذا الموضوع فهو واسع، لا يحاط به و لو صنفت مجلدات و سيايتك مزيد بيان أسباب توجيه تلك التهمة إلى الشيعة، و نوقفك على الافتراء فيها فى الأجزاء الآتية إن شاء الله. و كنا نظن أن تلك المفتريات ذهبت مع تلك العصور التى اقتضت اختراعها و افتعالها لتفريق صفوف الأمة، و كنا نتخيل أنها قبرت مع أصحابها و مرت عليها

عجلة

الزمن، فابتعدنا عنها ونحن بعصر انطلاق حرية العقل، ورفع حواجز السلطة وإزالة ستار التمويه، وبمزيد الأسف إنا نجد من يريد أحياء تلك النعرات ويعيد تلك العصور الغابرة ويضرب على وتر العصبية. وليس من أصل موضوعي التعرض لأقوال المهرجين فإن سلة المهملات لا تضيق عنهم. و سنشير لبعض الأقوال التي أطلقها أصحابها- من كتاب و مؤرخين- حول الشيعة و الصحابة من دون قيد و شرط، و بدون معرفة لعقيدة الشيعة في الصحابة رضوان الله عليهم. و لو أن أولئك الكتاب ساروا بأبحاثهم حول هذا الموضوع بدقة و تمحيص، و نزاهة، و تجرد عن العاطفة، خدمة للحق من حيث هو لحكموا على أنفسهم بالخطأ فيما يذهبون إليه من القول بأن الشيعة يكفرون جميع أصحاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم و العياذ بالله. و هذا الموضوع من أهم ما يجب أن نتكلم به، و أن نلم بجميع أطرافه، و حيث لم يتسع له هذا الجزء و قد ضاق نطاقه عن ذلك، فقد أرجأنا الحديث عنه إلى الجزء الثاني إن شاء الله فإلى اللقاء هناك. و من الله نستمد العون و نسأله التسديد و الإخلاص في العمل، و هو ولى التوفيق. ختام الجزء الأول من هذا الكتاب، و الحمد لله رب العالمين، و الصلاة على رسوله الذى أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون [التوبة:33] و على آله الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَإِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصَدَّ بِحُكْمِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلِتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 102-105].



بسم الله الرحمن الرحيم

#### تمهيد:

كنا نتحدث عن نشأة المذاهب الإسلامية وعوامل انتشارها وما يتعلق بذلك من تطورات وأحداث. كما تحدثنا عن بعض ما يتعلق بحياة الإمام الصادق عليه السلام ومشاكل عصره، والإشارة إلى مدرسته، وذكر عدد قليل من تلامذته ورواة حديثه. وفي هذه الجزء نعود- بعون الله- للبحث عن حياة الإمام الصادق ومدرسته، وبعض رواة حديثه، بعد أن نشير لحوادث عصره، يوم ساد الاضطراب والقلق جميع البلاد الإسلامية، وعم الخوف جميع الأرجاء فلم يأمنه الطفل الراقد في مهده، ولا الشيخ القابع في داره عند ما اتسعت دائرة المؤاخذات على ولاية الأمر، وسوء تصرف العمال وجورهم على الرعية، بشكل لا مجال معه إلا إلى انفجار ثورة دموية، وانقلاب يؤدي إلى انهيار الدولة. وكان أهم عوامل الثورة على الأمويين هو الانتصار لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والطلب بثأرهم، لأن الأمويين أراقوا دماءهم من غير أن تراعى حرمة لرسول الله فيهم، فكانت هتافات الثوار إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وكان الإمام الصادق عليه السلام هو سيد أهل البيت وزعيم الهاشميين في عصره، وهو محط آمال الأمة ومعقد أمانيتها، وهو الشخصية التي بلغت بمواهبها وسمو معناها إلى أرفع درجة من الكمال، وأعلى ذروة من الفضل، ولم تكن منزلته في المجتمع يعلوها الخفاء أو يحوطها شيء من الغموض.

وهنا لا بد لنا أن نتساءل: هل ان الإمام الصادق عليه السلام كان بمعزل عن ذلك المعترك السياسي؟ وانه لم يشارك في ذلك النشاط الذى كانت دعامته هو الدعوة لآل محمد؟ وأنه دعى عبد الله بن الحسن ليمد يده فيبايعه لأنه أكبر سنا من ولده محمد ذى النفس الزكية يوم اجتمع الهاشميون فى الأبواء للمداولة فى الأمر، و مبايعة رجل من آل البيت تناط به مسئولية الدعوة كما ذكره ذلك بعض الكتاب بدون سند. و الإجابة على هذه الأسئلة تحصل عند ما ندرس عوامل الثورة، و نعرف نفسيات الثوار و نزعاتهم، و اختلاف مشاربهم و آرائهم. و يتضح لنا ذلك عند ما نقف على الخطة التى اختطها الإمام لنفسه فى ذلك الجو الهائج بالفتن، و المائج بالأهواء، إذ لم يستجب لدعوة زعماء الثورة لبيعتة، لأنه لا يعدهم من رجاله و لا الزمان زمانه، و لم يغامر فى نفسه و أهل بيته مغامرة عقيمة الإنتاج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة، و على أهل بيته بسوء العاقبة، لأنه يعلم النتائج و ما يؤول إليه الأمر و ينظر إلى الحوادث عن كتب، نظر الحكيم البصير، و السياسى الخبير بعواقب الأمور، و كثيرا ما أعلن حقائق تلك الأوضاع و كشف نوايا أولئك القادة و ما يهدفون إليه من وراء الدعوة لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم. كما أنه نهى أبناء عمه عن التسرع فى الأمر و عدم القيام بأى نشاط ثورى إلى أن يأتى الوقت المناسب لأن القيام بشىء قبل أن يستحكم و يستكمل أمره مفسدة له. و سنتحدث فى هذا الجزء و غيره-إن شاء الله-عن خطته الحكيمة و أساليب دعوته القوية، و منهجه السياسى الرصين بصفته إمام عصره و زعيم أهل بيته، بعد أن نستعرض بعضا من مشاكل عصره و أسباب قيام الثورة التى أطاحت بالحكم الأموى.

### عصره و مشاكله:

### إشارة

يمتد عصر الإمام الصادق من آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقى، أى من سنة 83 هـ إلى سنة 148 هـ- فقد أدرك طرفا كبيرا من العصر الأموى، و عاصر كثيرا من ملوكهم، و شاهد من حكمهم أعنف أشكاله، و قضى حياته الأولى حتى الحادية عشرة من عمره مع جده زين العابدين، و حتى الثانية و الثلاثين مع أبيه الباقر، و نشأ فى ظلهم يتغذى تعاليمه، و تنمو مواهبه، و تربي تربيته الدينية، و تخرّج من تلك المدرسة الجامعة، فاختص بعد وفاة أبيه بالزعامة سنة 114 هـ-

و اتسعت مدرسته بنشاط الحركة العلمية فى المدينة و مكة و الكوفة، و غيرها من الأقطار الإسلامية، و هذا هو الدور الخاص الذى يهمنى العرض له و تلزمنى دراسته. كان العصر الذى اختص به الإمام الصادق عليه السلام عصر فتن و اضطراب فى جميع البلاد الإسلامية، و حروب طاحنة و نزاع بين رجال الدولة، و قد اصطدمت بتحركات تهدد كيانها، و تجاوزت البلاد بلغة الإنكار على الأمويين، و المؤامرات السرية قد قاربت النجاح فى تدبيرها الخفى، و هم فى غفلة من معالجة تلك المشاكل التى حلت بالامة، و لم ينظروا إلى المصالح التى تحتاجها سلامة البلاد كاهتمامهم بمصالح أنفسهم. و قد عم الاستياء جميع الطبقات لسوء المعاملة الاقتصادية و السياسية، و كان وضع الدولة يستوجب العمل على إيجاد طرق لحل تلك المشاكل التى فتحت عليهم باب المؤاخذات من جميع الطبقات فقد كانت سيرة الحكام تخالف نظم الإسلام بصورة لا مجال إلى السكوت عنها. و تتابعت الحوادث و اشدت الأمور، و كلما ولى الحكم واحد منهم تزداد قائمة المؤاخذات، و تظهر فى عهده أمور تبعث فى النفوس الكراهة لعهدهم و الاستياء منهم. و كان الوضع الاقتصادى عاملاً مهماً فى بث النقمة و مضاعفة المقاومة لذلك الحكم، فقد عملوا على زيادة الخراج و اتباع الطرق السيئة فى الجباية، و أجحفوا فى تقديره كما فعلوا فى فارس. إذ كان عمال بنى أمية يحرصون الثمار على أهلها، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يتبايعون فيه، فياخذونها على قيمتهم التى قدورها (1) و أخذوا الجزية ممن لم تجب عليهم كما فعلوا بمصر، فإن عبد العزيز بن مروان أمر بإحصاء الرهبان فأحصوا، و أخذت منهم الجزية، و هى أول جزية أخذت من الرهبان. و فرض الأمويون ضرائب إضافية، كالرسوم على الصناعات و الحرف و على من يتزوج أو يكتب عرضاً.

ص:355

وأرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى هدايا النوروز، وأول من طالب بها معاوية، وأمر أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان، ففعلوا ذلك، وبلغ ثلاثة عشر ألف ألف درهم (1). وقدم دهقان هرات و اسمه خراسان، إلى أسد بن عبد الله القسري عامل هشام سنة 119 هـ-بهدايا المهرجان بما قيمته ألف ألف (2). ويقول الطبري: قدم والي هرات، و معه دهقان سنة 120 هـ-بهدايا كان بها قصران: قصر من فضة وقصر من ذهب، وأباريق من ذهب وأباريق من فضة، وصحاف من ذهب وصحاف من فضة، والديباج الهروي والقوهي و المروي (3) وبعث عبد الملك بن مروان إلى عامله في الجزيرة يأمره أن يحصى الجماعم و يعتبر الناس كلهم عمالا بأيديهم، و يحسب ما يكسبه العامل سنته كلها، ثم يطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته، و طرح أيام الأعياد كلها، ففعل العامل، و وجد الذي يحصل من ذلك في السنة لكل فرد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعا (4). و كان عامل اليمن: محمد بن يوسف أخو الحجاج قد ارتكب أنواع العسف و الجور، فكان يصادر أملاك الأهالي و أموالهم، و ضرب عليهم ضريبة معينة عدا الخراج الذي ضربه الإسلام (5). و قدم أسامة بن زيد على سليمان بن عبد الملك بما اجتمع عنده من الخراج- و كان واليا عليه في مصر- و قال له: يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية و جهدت، فإن رأيت أن ترفق بها و ترفه عليها، و تخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها و صلاح معاشها، فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل. فقال له سليمان: هبلك أمك، احلب الدر، فإذا انقطع فاحلب الدم، فالنجا (6).

ص: 356

1-1 (1) الجهشيارى ص 15. [1]

2-2 (2) الكامل ج ص 101.

3-3 (3) الطبري ج 5 ص 465 سنة 120 هـ. [2]

4-4 (4) الخراج ص 27. [3]

5-5 (5) السيادة العربية ص 28.

6-6 (6) الجهشيارى ص 32. [4]

وبهذا جهدت الرعية، وفقدت الرفاهة، فكان الكل متأثرا من تأدية تلك الضرائب الثقيلة التي تتمتع بها أقلية مستهتره، ولا يهم ولاة الأمر بما ينجم من وراء ذلك من خراب البلاد، واغتنم العمال رغبة ولاة الأمر في تحصيل المال وجبايته، فكانوا يعبثون في جبايتها للحصول على الثروة من وراء ذلك. وربما كان الخلفاء من الأمويين يخولون عمالهم ما يحصل تحت أيديهم من جباية الضرائب. فقد خول والي خراسان ما حصل له، وهو عشرون ألف درهم من تلك الضرائب. وسوخ يزيد بن معاوية لعبد الرحمن بن زياد والي خراسان بما اعترف له من المال، وهو عشرون ألف درهم، وكان عنده من العروض أكثر منها، فقال عبد الرحمن يوما لكاتبه: إنى لأعجب كيف يحيئني النوم وهذا المال عندي! فقال له: وكم مبلغه! قال: إنى قدرت ما عندي لمائة سنة، في كل يوم ألف درهم لا أحتاج منه إلى شراء رقيق ولا كراع ولا عرض من العروض، فقال له كاتبه: أنام الله عينك أيها الأمير، لا تعجب من نومك وهذا المال عندك، ولكن اعجب من نومك إذا ذهب ثم نمت! فذهب ذلك المال كله، أودع بعضه فذهب، ووجد بعضه، وسرق بعضه. فآل أمره إلى أن باع فضة مصحفه، وكان يركب حمارا صغيرا تنال رجله الأرض، فلقيه مالك بن دينار، فقال له: ما فعل المال الذي قلت فيه ما قلت؟ قال: كل شيء هالك إلا وجهه! (1).

### مشكلة الخراج:

ولما ولي عمر بن عبد العزيز، عالج مشكلة الخراج والجزية والضرائب الإضافية التي هي أعظم من الخراج، إذا لم تكن محدودة أو مقررة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم. فكتب إلى عامل الكوفة: أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة في أحكام الله، وسنة خبيثة سنها

ص: 357

عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان، فلا يكن شىء أهم إليك من نفسك، فلا تحملها قليلا من الإثم، ولا تحمل خرابا على عامر، وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر. ولا يؤخذن من الغامر إلا وظيفة الخراج فى رفق و تسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن أجور الضرابين، ولا هدية النوروز والمهرجان، ولا ثمن المصحف، ولا أجور الفتوح، ولا أجور البيوت، ولا درهم النكاح. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع فى ذلك أمرى، فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله. ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه، وانظر من أراد من الذرية أن يحج، فعجل له مائة ليحج بها والسلام (1). وانتهى ذلك الإصلاح الذى سار فيه عمر بوفاته، لأن يزيد بن عبد الملك- عند ما ولى الخلافة- أمر بإعادة تلك الضرائب التى أمر عمر بإبطالها، فكتب إلى عماله: أما بعد فإن عمر كان مغرورا، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده. وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا (2). فزاد الضغط وعظمت المحنة، وأصبحت هذه الضرائب عبئا ثقيلا على كاهل الأمة، وبالأخص البلاد المغلوبة التى وقعت تحت «إسراف العمال فى تحصيل الأموال و جبايتها، و عبثهم بما تحت أيديهم منها، و إنفاقها فى مصالحهم الشخصية، و قد كانت تتخذ أمرة إحدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة و جمع المال» (3) و مما يدلنا على عظيم الاهتمام بتحصيل الولاية للحصول على الثروة؛ قضية بلال بن أبى بردة عند ما وفد على عمر بن عبد العزيز فلزم المسجد يصلى و يديم الصلاة، فأعجب به عمر. فقال عمر لعلاء بن أبى بندار: إن يكن سر هذا كعلائته، فهو رجل العراق غير مدافع. فقال العلماء: أنا آتيك بخبره، فجاء إليه و هو فى المسجد و قال له: قد عرفت حالى من أمير المؤمنين، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لى؟ قال: لك عمالتى سنة، و هى عشرين ألف ألف، قال: فاكتب بذلك،

ص: 358

1-1) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 29 و [1] الطبرى ج 8 ص 139. [2]

2-2) الطبرى و الكامل لابن الأثير.

3-3) السيادة العربية ص 30.



فكتب له ورجع العلاء إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى عامله بالكوفة: إن بلالا غرنا بالله، فسبكناه فوجدناه خبثا كله و السلام (1). فنرى بلالا يبذل عشرين ألف للحصول على إمرة العراق، فلا بد أن يتعوض بأضعافها في أقل من سنة، كما تقتضيه سيرة الولاة و جشع الجباة في ذلك الدور.

### سيرة الجباة:

و كانت جباية العراق قد أسندت إلى الدهاقين-رؤساء القبائل-فساروا فيهم سيرة غير مرضية. و في خراسان كانت الضرائب توزع على رعوس الأهلين لا على مساحة الأرض، إذ لو فرض على مساحة الأرض، لوقع أكثره على الدهاقين. و قد فرض الأمويون الضريبة على من أسلم، و كان ذلك سببا في تأخر خطى انتشار الإسلام، لأن الضريبة تؤخذ من غير المسلم، و هي الجزية و الخراج، و عند إسلام الذمي يعفى من الاثنين. فلما دخل كثير من الذميين في الإسلام عن عقيدة، أو عن رغبة في الخلاص من الضرائب، عرف النقص في ميزانية الدولة، ففرض الأمويون الجزية و الخراج على من أسلم، فوقف انتشار الإسلام، لمعارضته لمصالح الدولة المادية و قد لمس أهل الكتاب و الملل و الديانات روح التسامح فمن تحركت في نفسه دوافع الإيمان الحق وجد في الأحكام الإسلامية روحا جديدة و في الشريعة المحمدية توحيدا حقا، و من راح يتقى دفع الحق المالى الذى ترتب على الفتح الإسلامى فصار إلى طريقة إشهار الإسلام و لكنه بمرور الوقت يجد أن ما اتخذه ستارا ينفذ إلى الأعماق بنوره و يرى في سلوك المخلصين و أفعال جنود الدعوة حوافز على الإيمان الحق. ثم انقلب المسئولون في الحكم إلى جباة و كاد سلوك الدعاة الأول ينحصر في مجالات ضيقة لأن الملوك أقبلوا على الدنيا بكل وجوها و لم يكن لهم من الإسلام إلا الاسم. و من الدواهي أن يتابعهم على ذلك الذين اتخذوا الدين زيا و بنيت مكانتهم في المجتمع على أساس صلتهم بالدين و تفرغهم لأموال الشريعة. و لم يكن إسقاط

ص: 359

تلك الضرائب فى الواقع مضرا فى مصلحتها أو مخلا فى ميزانيتها، بل كان معارضا لجشع الولاة، وطمع الجباة و مصلحة الدهاقين، فكانت تلك الأعمال القاسية التى سار عليها العمال تقسح للناقمين مجالا واسعا، و تملأ القلوب على الأمويين غيظا، لأن سيرة العمال مستمدة من سلطان لا يهملهم تدمير الرعية، و لا يصغى لشكاية مظلوم، و يعظم على المسلمين أن تسودهم أمة تتجاهر بالظلم و تخالف الأحكام. و قد هجرت السنن و نبذت تعاليم الكتاب وراء الظهر، حتى أصبح ذلك من شعار الدولة، فكان رجال الأمة يتألمون من تلك الأوضاع السيئة، و ما حل بالأمة الإسلامية من الجور و العنف بالحكم، و إراقة الدماء و غصب الأموال و هتك الحرمات، فقام دعاة الإصلاح و صلحاء الصحابة بالمعارضة منذ عهد الدولة الأولى، و أنكر المسلمون أشد الإنكار معاملة الأمويين الجائرة. و كلما امتد عمر الدولة ازداد السخط و عظم الإنكار من جميع الطبقات و لهذا رافقت الثورات حكم الأمويين منذ البداية. و كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام هى بداية الانطلاق لنشر الوعى الإسلامى ضد الأمويين، و صرخة مدوية هزت عروش الظالمين، و أول طلائع تلك الثورات الإسلامية هى ثورة المدينة المنورة فى واقعة الحرة سنة 63هـ-استنكارا لأعمال يزيد و إجرامه. فكانت ثورة دموية انتهت بالغلبة للجيش الأموى، و أقدم جيش يزيد الذى أعدّه لهذا الغرض على ارتكاب فظائع و مذابح و جرائم أجمع المؤرخون على استنكارها، فقد أباح مسلم المدينة ثلاثا لجنده يقتلون أهلها، و يسلبونهم أموالهم، و قتل ثمانون من أصحاب الرسول و الباكون منهم أخذت عليهم البيعة ليزيد، بيعة عبودية و استرقاق. كما قتل سبعمائة رجل من حملة القرآن، و ألف و سبعمائة من بقايا المهاجرين و الأنصار، و عشرة آلاف من أوساط الناس سوى النساء و الصبيان (1)، و افتض الأمويون ألف عذراء (2). إضافة إلى أعمال النهب و السبى، و كان الرجل من أهل

ص:360

1-1) انظر البداية و النهاية ج 10 ص 22 و [1]الدولة الإسلامية للخربوطلى ص 205.

2-2) النجوم الزاهرة ج 1 ص 161. [2]

المدينة بعد ذلك إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها و يقول لعلها قد افتضت في وقعة الحرة (1). ثم تتابعت الثورات في البلاد العربية، و تفاقمت حركة الإنكار على سوء السيرة، و الظلم للرعية و الاستهانة بمقدرات الأمة فكانت ثورات في العراق و في الحجاز و في الأردن و مصر و غيرها.

## الموالى و الثورة:

و بعد هذا العرض يمكننا تنفيذ مزاعم القائلين: بأن الموالى هم العامل الوحيد لانتهيار الدولة الأموية لأسباب ذكروا منها: ان الدولة الأموية عربية بحتة و ليس في مناصب الدولة للموالى نصيب. و ان الموالى كانوا يحقدون بذلك على المجتمع العربى الممثل فى الدولة الأموية. و ان الموالى قد حاولوا إعادة المجد الساسانى، و ان الصراع بين الكتلتين إنما هو صراع عنصرى بحث، و كانت مؤازرتهم للدعوة الهاشمية إنما هو طمع فى استرداد المجد القديم. إلى غير ذلك مما ذكره كثير من الكتاب من مستشرقين و غيرهم. و نحن لا ننكر أثر الموالى فى الثورة على الدولة الأموية، كيف و قد تكاملت القوى فى خراسان، و ظهرت الدعوة و عظم أمر أبى مسلم الخراسانى. و لكننا لا نذهب إلى ما ذهبوا إليه من إسناد العوامل إلى الموالى فحسب، و معنى هذا سلب الأمة الإسلامية من كل و عى و شعور بما لمسوه من أمور كان اللازم إنكارها، و عدم الخضوع لها و قد أشرنا لبعض الحوادث من قبل. هذا من جهة و من جهة أخرى أن الثورة فى بلاد فارس كان أكثر زعمائها من رؤساء العرب كسليمان بن كثير الخزاعى، و قحطبة بن شبيب الطائى و أبو داود الشيبانى و غيرهم من رؤساء قبائل العرب فى خراسان و هم من المقاتلة أيام الفتوح الأولى من النزارية و اليمانية.

ص: 361

وكان رجال الدعوة من العرب لا من الفرس كنصر بن صبيح التميمي وعبد الرحمن بن سلم والجهم بن عطية وغيرهم. وكان النقباء جلهم من العرب والمنتسبين إلى أشهر القبائل: فمنهم خمسة من خزاعة، وثلاثة من تميم وبعضهم من ربيعة وغيرها من القبائل العربية.

### الموالي ووظائف الدولة:

وأما القول بأن الأمويين قد أبعدهوا الموالي عن وظائف الدولة مما بعث الحقد في قلوبهم والكيد للأمويين فهو غير صحيح؛ لأننا نرى أن الموالي قد استغلوا أهم وظائف الدولة في العصر الأموي كرئاسة الديوان وجباية الخراج وأمانة السر، وقيادة الجيوش وإمارة بعض البلدان، وإليك أنموذجا من ذلك: سرجون بن منصور مولى معاوية كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل والخراج لمعاوية وابنه يزيد وللمعاوية بن يزيد وللمروان بن الحكم. عبد الرحمن بن دراج تولى الرسائل لمعاوية، وكان أخوه على خراج العراق في أيامه. مرداس مولى زياد بن أبيه كان على رئاسة ديوان الرسائل لزيد، وكان على الخراج في العراق مولاه زاذانفروخ. أبو الزعيرة مولى عبد الملك كان يتولى ديوان الرسائل في عهده وكان أمين سره عمر بن الحارث مولى بني عامر. جناح مولى عبد الملك: يترأس ديوان الخاتم. أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم مولى ثقيف: يتقلد للحجاج رسائله ويقتل الناس بأمره، وولى خراج العراق بعد موت الحجاج. سعيد الصابي: على ديوان الخاتم للوليد بن عبد الملك، و كاتبه شعيب العماني مولاه. الليث بن أبي فروة: مولى أم الحكم كان يكتب لعمر بن عبد العزيز، وجعل خراج العراق بيد عبد الله بن ذكوان مولى رملة بنت شيبه. محمد بن يزيد مولى الأنصاري: كان واليا على مصر من قبل عمر بن عبد

العزیز، و بعد وفاة عمر عزله یزید بن عبد الملك و ولی مكانه یزید بن مسلم مولى ثقیف. سالم مولى سعید بن عبد الملك كان على دیوان الرسائل للولید بن یزید. عبد الحمید بن یحیی مولى العلاء: كان يتولى رئاسة دیوان الرسائل لمروان الحمار و كذلك عثمان بن قیس مولى خالد القسرى. طارق بن زیاد مولى موسى بن نصیر: كان من القواد العسکریین. نيزک بن صالح مولى عمر بن عبد العزیز: كان على إمارة الشاش. أسامة مولى معاوية على إمارة مصر. طارق بن عمر مولى عثمان بن عفان ولی المدينة و كان من ولاة الجور. و كان الكثير منهم يتولى السلطة التشريعية كعطاء بن یسار مولى ميمونة أم المؤمنین المتوفى سنة 102 هـ. و على قضاء مصر سمعان مولى عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة 127 هـ. و كان مفتی مصر و شيخها أبو رجاء بن حبيب المتوفى سنة 128 هـ و غیر هؤلاء. و كان الأمويون یكرمون علماء الموالی و یشيدون بذكرهم. فقد نادى منادى الدولة أن لا یفتى إلا عطاء بن أبى رباح، و أرسلوا نافع الديلمی مولى ابن عمر المتوفى سنة 117 هـ إلى مصر یعلم الناس السنن. و كانت الفتيا بدمشق لسليمان بن أبى موسى المتوفى سنة 117 هـ مولى الأمويین. و لزيد بن أسلم العدوى المتوفى سنة 136 هـ حلقة فى المسجد النبوى. و يطول بنا الحديث و يتسع البحث إن أردنا استقصاء ذكر من أشغل وظائف الدولة الهامة من الموالی، من ولاة و قواد و قضاة و أمناء سر و أمراء خراج و جباة أموال.

و مهما تكن محاولة جعل انهيار الدولة لحقد الموالي فحسب، فهو أمر بعيد كل البعد عن الصحة و ان الباعث له تبرئة الأمويين من كل ما ارتكبه، و ان المسلمين قد أقرّوا ذلك الحكم و لم يعارضوا، و ان انهيار الدولة كان لأسباب عنصرية. و ليس ببعيد أن تكون هذه المحاولة من أناس حملهم حب الأمويين عليها كما حمل غيرهم على وضع الأحاديث التي يستطيعون بواسطتها التمويه على السذج من الناس في تبرير تلك الأعمال المنكرة منها. يحدثنا ابن الأثير أن معاوية بن أبي سفيان قال لولده يزيد: اطلب مني فلست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه، فقال: حاجتي أن تعتقني من النار لأن من ولي أمر أمة محمد ثلاثة أيام أعتقه الله من النار، فتعقد لي البيعة بعدك (1). و ساروا على هذا يفهمون الناس و يركزون عقيدة ولايتهم أمر الأمة و الدين و يتحلون بالقداسة مع عظيم تلك المنكرات حتى سرت هذه الفكرة إلى عمالهم و قواد الجيوش. هذا مسلم بن عقبة لما فعل بالمدينة ما فعل و انصرف ثم نزل به الموت في الطريق فقال: إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده و رسوله أحب إليّ من قتل أهل المدينة، و لا أرجى عندي منه في الآخرة (2). و أشهد عند الوليد أربعون شيخاً منهم أن الخليفة لا يعاقب، و أن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعتق من النار. و هم يحاولون بذلك رد تلك الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم في التشديد على الولاية، و إلزامهم بالعدل و هم لا يستطيعون ذلك و يخشون الإنكار. فقد صح عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنه قال لجابر بن عبد الله: أعاذك الله من إماراة السفهاء، قال: و ما إماراة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدى لا يقتدون بهديي، و لا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم و أعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني و لست منهم، و لا يردوا حوضي، و من لم يصدقهم بكذبهم و لم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني و أنا منهم، و سيردوا عليّ حوضي (3).

ص: 364

1- (1) الكامل ج 4 ص 62. [1]

2- (2) الكامل ج 4 ص 61. [2]

3- (3) مسند أحمد ج 3 ص 321. [3]

وقال صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: إن هلاك أمتي أو فساد أمتي رءوس أمراء أغيلمة سفهاء من قريش (1). وعن كعب بن عجرة مرفوعاً: سيكون أمراء يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومن أعانهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه، ولا يرد عليّ الحوض يوم القيامة، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ويرد عليّ الحوض يوم القيامة (2): وقال صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة حتى يؤخروها فصلوها لوقتها» (3). وعن عوف بن مالك عنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أنه قال: إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي: أولها ملامة وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل وكيف يعدل مع قريبه (4). وعن بشر بن عاصم عنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «من ولي شيئاً من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسناً نجاً، وإن كان مسيئاً انخرق به الجسر فهوى به سبعين خريفاً»، رواه الطبراني. وعن أبي ذر مثله، وعن عمر بن الخطاب عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أنه قال: أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق (5). أخرجه الترمذي والطبراني في الأوسط. وعن أنس عنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحوا عليه فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم»، رواه البزار. وعن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل». رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح، ومثله عن سعد بن عباد. وعن أبي هريرة بزيادة (وإن كان مسيئاً زيد غلاً إلى غلّه) رواه البزار والطبراني.

ص: 365

- 
- 1-1 (1) مسند أحمد ج 2 ص 255. [1]  
2-2 (2) تاريخ الخطيب ص 362 و [2] جامع بيان العلم، وتيسير الوصول.  
3-3 (3) مسند أحمد ج 5 ص 315. [3]  
4-4 (4) الترغيب والترهيب ج 3 ص 132.  
5-5 (5) الخرق بالضم: الجهل والحمق، ومنه الحديث: الرفق يمن والخرق شؤم.

و عن عمر بن الخطاب أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: «ألا أخبركم بخيار أمرائكم و شرارهم، خيارهم الذين تحبونهم و يحبونكم و تدعون لهم و يدعون لكم و شرار أمرائكم الذين تبغضونهم و يبغضونكم و تلعنونهم و يلعنونكم» أخرجه الترمذى. و عن أنس بن مالك: قال رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم: من ولى من أمور المسلمين شيئا فغشهم فهو فى النار. و قد وضعوا الكثير فى فضائل معاوية من الأحاديث المكذوبة و الأقوال الشاذة التى يتبرأ منها الإسلام فأنكر المسلمون ذلك، و لكن أتى يجدى الإنكار فى وقت ألجمت فيه الأفواه، و كتبت المشاعر، و حكم على أهل الصدق منهم بالتنكيل الشديد، و الطرد و التباعد، و قد حقق الحفاظ تلك الأكاذيب و أظهروا حقائقها، و نصوا على وضعها، و إليك بعضا منها: أخرج أبو نعيم فى الحلية بسند عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة؛ فطلع معاوية، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية (1). و عن هشام بن عروة عن عائشة فى حديث طويل فيه أن النبي دعا لمعاوية فقال: اللهم اهده بالهدى و جنبه الردى، و اغفر له فى الآخرة و الأولى. إلى غير ذلك من الأكاذيب و الموضوعات التى يتحرج القلم عن ذكرها، و قد وضع جزءا من تلك الأكاذيب فى فضل معاوية بعض المشهورين بالكذب، و هو محمد بن عبد الواحد و أمره مشهور فى ذلك (2). و ألف الهيثمى كتابا فى فضل معاوية و ما أبعدته عن الفضائل، و لا يسع الوقت لمناقشته (3) بعد أن كفانا ذلك حفاظ الحديث و رجال العلم (4). و لم يكتفوا بالأكاذيب على رسول الله بوضع الأحاديث حتى جرتهم أطماعهم و ساقتهم جرأتهم على الله

ص: 366

1-1 (1) الحلية ج 10 ص 293.

2-2 (2) انظر الخطيب ج 2 ص 357. [1]

3-3 (3) انظر الغدير ج 10 و 11 فهناك تعرف معاوية، فقد أبرز صورته البحاثة الأمينى فى اطار الواقع، و هنا تعرف تلك الأحاديث و قيمتها، فقد ناقشها من الطرق العلمية بما لا مجال إلى إنكاره.  
4-4 (4) فى كتاب لسان الميزان، و الفوائد المجموعة.



و على رسوله بوضع الأحاديث في مدح عاصمة ملكهم ومقر دولتهم. ولا نود إطالة الحديث في المحاولات الفاشلة في تبرير أعمال الأمويين وإسناد الثورة عليهم لا من جهة حكمهم بل من جهة العنصرية فحسب.

## عظات و عبر:

و على أى حال فقد بيّنا أن الثورة بصورتها العامة إنما هي ضد الحكم الأموى، وقد كانت هذه الثورات عنيفة، تعبر بعمق وأصالة عن استنكار المسلمين تلك المعاملة القاسية التي عاملوا بها الأمة، واتخاذهم تلك الإجراءات ضد أهل البيت وهم يحسبون أنهم يحسنون لأنفسهم صنعا، ويأملون من ورائها تخليد سلطانهم مع الزمن، ولم يلتفتوا إلى حراجه الموقف وسوء العاقبة حيث إن الخلافة الإسلامية تدور عليها سعادة الأمة وقوة الإسلام، وقد عظم على المسلمين أن تتحول من أوج العظمة إلى حضيض الاستهتار، وأصبحت الأوضاع مقلوبة فوليتها بعد الخلافة الراشدة من لا عهد له بالدين، ولا معرفة له بالهدى، وهم أولى غلظة لا ينفذ إلى قلوبهم شعاع الرحمة، فلا يسمعون لمتظلم شكوى، ولا يدفعون عن الأمة ما يسوؤها من تلك المعاملات القاسية. فكانت عاقبة أمرهم أن مزقوا كل ممزق، و خرج بقية السلف منهم من رجال ونساء هائمين على وجوههم خوفا على أنفسهم و طلبا للنجاة، و لجنوا لبلاد النبوة، فأخرجهم عظيمها، فكانوا عرضة للخطر، حتى صاروا إلى بجاوة فقاتلهم عظيمها، وانصرفوا يريدون اليمن، و مروا في البلاد هائمين. و كان عبيد الله و عبد الله ولدا مروان الحمار آخر ملوك الأمويين هما قادة تلك الفرقة الهائمة، فعرض لهما طريقان بينهما جبل، فأخذ كل واحد منهما في طريق، و هما يريان أنهما يلتقيان بعد ساعة، فسارا يومهما ذلك، ثم راما الرجوع فلم يقدرآ و سارا أياما، ثم لقي عبد الله منسرا من مناسر الحبشة فقاتلهم فزرقه رجل منهم بمزراق فقتل عبد الله و استأسر أصحابه، فأخذت الحبشة كل ما معهم و تركوهم، فمروا في البرارى عراة حفاة حتى أهلكهم العطش، فكان الرجل يبول في يده و يشربه حتى لحقوا عبيد الله بن مروان و قد ناله من العرى و الشدة أكثر مما نالهم، و معه عدة من حرمة عراة حفاة، قد تقطعت أقدامهم من المشى، و شربوا البول حتى تقطعت

شفاهم، ووافوا المندب فأقاموا بها شهرا، و جمع الناس لهم شيئا ثم خرجوا يريدون مكة في زى الحمالين (1). ولما سيبت نساء مروان و مررن على منازلهن رفعن أصواتهن بالبكاء. وهذا من أعظم العظمت والعبر. و يروى أن عامر بن صالح الخراساني صاحب مقدمة صالح بن علي عم السفاح لما قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية دخل دار مروان و جلس على سريرته و دعا بعشائه، و جعل رأس مروان في حجر ابنته، و أقبل يوبخها فقالت له: يا عامر إن دهرا أنزل مروان و أقعدك على سريرته حتى تعشيت عشاءه، لقد أبلغ في موعظتك، و عمل في إيقاظك و تنبيهك. إن عقلت و فكرت، ثم قالت: يا أبتاه و يا أمير المؤمنيناه، فأخذ عامر الرعب، و لما بلغ السفاح ذلك كتب إليه يوبخه (2). و كان عبيد الله بن مروان ولي العهد قد ظفر به المنصور و أودع في السجن، و أخرجه المنصور يوما من سجنه و كان مقيدا بقيد ثقيل، فقال له المنصور: بلغني أن لك قصة عجيبة مع ملك النوبة فما هي؟ فقال: يا أمير المؤمنين و الذي أكرمك بالخلافة ما أقدر على النفس من ثقل الحديد، و لقد صعدا قيدي من رشاش البول، و أصب عليه الماء في أوقات الصلاة، ثم قص عليه القصة و أعاده إلى السجن، و أودع فيه إلى أيام الرشيد فهلك (3). و لما دخل عبد الله بن علي دمشق أمر بنيش قبور بني أمية، فنش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الرماد، و نش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، و نش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد، و أخرج جسد هشام بن عبد الملك فضربه بالسياط و صلبه و حرقه و ذراه في الهواء (4). و قتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية و أمر بهم فجروا بأرجلهم و ألقوا في الطريق فأكلتهم الكلاب، و اختفى كثير منهم كعمر بن معاوية بن عمر بن سفيان بن عتبة فضاقت عليه الأرض، و التجأ إلى سليمان بن علي متخفيا، و وقف

ص: 368

- 
- 1-1 (1) اليعقوبي ج 3 ص 84-85 و [1] ابن عبد ربه ج 3 ص 198-199. [2]  
2-2 (2) الشذرات ج 1 ص 184. [3]  
3-3 (3) الشذرات ج 1 ص 186. [4]  
4-4 (4) الكامل ج 5 ص 205. [5]

على رأسه، فقال: لفظتني البلاد إليك، و دلني فضلك عليك. فإما قتلتني فاسترحت، وإما رددتني سالما فأمنت. فقال: و من أنت؟ فعرفه نفسه. فقال: مرحبا بك ما حاجتك؟ فقال: إن الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهن وأقربهم إليهن قد خفن لخوفنا، و من أخاف خيف عليه، فقال: حقن الله دمك و وفر مالك، و كتب بذلك إلى السفاح فأمنه (1).

### قيام الدولة العباسية:

و طويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان الجعدي (2)، و هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ببيع له بالخلافة سنة 126 هـ- و قتل يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة 132 هـ. و في هذه السنة قامت الدولة العباسية. و توقع الناس في العهد الجديد عهدا سعيدا و انتقالا مباركا، و نتيجة صالحه بعد خوض غمرات الحروب، و مشاهدة المحن و التضحية في سبيل تحقيق تلك الأمنية، و هي إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله و سنة نبيه، التي لم يظفر بها المسلمون في العهد الأموي إلا ببعضها في أيام عمر بن عبد العزيز. فتطلعوا فجز ذلك العهد الميمون، و شخصوا بأبصارهم إلى معرفة المتربع على دست الحكم، و هو (الرضا من آل محمد) و أصبح المجتمع يزخر بآمال عظيمة، لأنهم أعدل الناس في الحكم، و أعلمهم بالدين، فأنكشف الأمر بظهور بني العباس و اختصاصهم بمنصب الخلافة، بعد أن خابت آمال بعض زعماء الثورة و قواد الجيش بإسناد الحكم لآل علي، و في طليعتهم جعفر بن محمد و قد رفض ذلك الطلب كما سيأتي بيانه. و لم يكن العباسيون ليتجرءوا على الإفصاح عن نواياهم و أغراضهم و هم ينضمون إلى جموع الناقلين و مسيرة الثورة و أبقوا على ما في نفوسهم و هم يتمسكون في السر بشمول شعار (الرضا من آل محمد) لعائلتهم، و لم يخطر ذلك ببال الثوار و ظل العباسيون يضمرون نواياهم.

ص: 369

[1-1] الكامل ج 5 ص 206. [1]

[2-2] نسبة إلى الجعد بن درهم و كان مؤدبه و هو من زنادقة أهل الشام.

و الدعوة لم تكن للعباسيين، و لم تكن دولتهم هي المتوقعة، بل هي إلى الرضا من آل محمد فحسب، و هم دعاة هذه النهضة انتصارا للعلويين و طلبا بدمائهم الزكية، و بذلك استطاعوا أن ينظموا حزبهم و يجمعوا أنصارهم، و هم ينضمون إلى جانب العلويين في جميع الدور الأموى، و يخفون ما أبدته الأيام و أظهره الزمن عند ما حان الوقت لاقتطاف ثمار تلك الأتعاب، إذا لا بد أن يستنكر الناس هذا الأمر، و يؤاخذونهم بهذا الاختصاص. و شعر العباسيون بتحسس الناس، كما شعروا بعدم ثقة أكثر العرب بدولتهم فلا يستطيعون أن يشيدوا كيان دولتهم على أكتافهم، فأروا من الضرورة تقوية الجيش و الاعتماد على القوة بالأكثرية الساحقة، فاختصوا بالخراسانيين من بين عناصر الدولة، و أطلقوا عليهم اسم الشيعة و الأنصار، لأنهم عرفوا نفسياتهم من قبل، فجعلوا بلادهم مهذا للدعوة، و محلا لبذر تلك الفكرة كما جاء في وصية إبراهيم الإمام، فأظهروا العطف على أبناء عمهم في دورهم الجديد و اهتمامهم بتتبع قتلة الحسين، إظهارا لنصرة آل محمد و إقناعا للرأى العام. و لما دخلت نساء مروان الحمار على صالح بن على تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت: يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب، نحن بناتك و بنات أخيك و ابن عمك، فليسعنا من عفوك ما وسعك من جورنا، قال: و الله لا أستبقى منكن أحدا. . . إلى أن قال لها: ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين و أهل بيته؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله سبايا فأوقفهن موقف السبي؟ ألم يحمل رأس الحسين و قد قرع دماغه؟ فما الذى يحملنى على الاستبقاء عليك؟ قالت: فليسعنا عفوك (1). و لما قتل مروان و جىء برأسه إلى السفاح، فلما رآه سجد و رفع رأسه فقال: الحمد لله الذى أظهرنى عليك و أظفرنى بك، و لم يبق ثأرى قبلك و قبل رهطك أعداء الدين، و تمثل بقول الشاعر: لو يشربون دمي لم يرو شاربهم و لا دماؤهم للغيب تروينى

(2) حتى عرف الناس منهم ذلك، و أنشد الشعراء فى تلك الغاية التى كانت تقوم بها

ص:370

1-1 (1) الكامل ج 5 ص 204. [1]

2-2 (2) الكامل ج 5 ص 203. [2]

الدولة فى دورها الجديد عند ما قتل السفاح بقية الأمويين، ثم أمر بإلقائهم فى الصحراء فى الأنبار فجرؤا بأرجلهم، وعلهم سراويلات الوشى فوقف عليهم سديف و أنشد: طمعت أمية أن سيرضى هاشم عنها و يذهب زيدها و حسينها

كلا و رب محمد و إلهه حتى يبىد كفورها و خئونها

(1) إلى غير ذلك من الأمور التى اتخذوها فى تهدئة الرأى العام، و قام السفاح بالأمر و أظهر فى خطبته الافتتاحية ما تميل إليه النفوس من المواعيد من إعادة العدل و المساواة و العمل بكتاب الله و سنة نبيه، بقوله: أيها الناس لكم ذمة الله تبارك و تعالى و ذمة رسوله و ذمة العباس علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله و نعمل فيكم بكتاب الله، و نسير فى العامة و الخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (2) ثم ذكر أعمال بنى أمية و ما ارتكبه فى الأمة. فأخذ الناس بنود هذه الخطبة بعين الاعتبار، و توقعوا تحقيق تلك الوعود، و لكنها كانت و هما من الأوهام و أقوال حملتها الريح. افتتحت صحيفة الدولة العباسية مصبوعة بالدم القانى، و ورثوا سلطان الأمويين بعد ذلك الانقلاب، و كانت الأسباب التى أدت إلى فوزهم بالخلافة بعضها أمور غير متوقعة، و بعضها ساعدهم الحظ فيها، فكان نصيبهم النجاح. و أهم تلك الأسباب التى اعتمدوا عليها هى الانتصار لآل محمد من بنى أمية، لأنهم اضطهدوا آل رسول الله فكانت هذه المشكلة من أعظم المشاكل التى تقف أمامهم فى سبيل توطيد ملكهم و امتداد سلطنتهم، لأنهم يعرفون العلويين و نفسياتهم و منزلتهم فى المجتمع الإسلامى، لذلك كان أهم شىء عندهم هو أمر العلويين، و الوقوف أمام نفوذهم، فاتخذوا تلك الطرق فى إقناع الناس و أظهروا لهم الحب المصطنع و العطف الذى ينطوى من ورائه غيض يحرق القلوب، فكانت أيام السفاح و شطرا من خلافة المنصور على تلك السياسة الهادئة ريشما يتم لهم النفوذ و تحكم أسس الدولة. و لما آن وقت إظهار ما كانوا يكتمونونه، نفذوا تلك الخطط الانتقامية من آل

ص: 371

1-1 (1) العقد الفريد ج 3 ص 207. [1]

2-2 (2) الكامل ج 5 ص 197. [2]

على، فلم يدخر المنصور-بعد أن عظمت شوكته و امتد سلطانه-وسعا لسحق العلويين و حزبهم، لأنه يرى أن في بقائهم تحطيم نفوذه و تمزيق ملكه الذى ناله باسمهم بعد املاق و بؤس و اضطهاد و عذاب، فهو يتوقع فى كل آونة قيام ثورة دموية يترأسها علوى يحوط به عدد كثير من الأمة، فتوجه بكل ما فى وسعه من جد و حزم، و أنالهم شر أنواع العذاب، و صب عليهم كئوس غضبه و عاملهم بقسوة و شدة، حتى قال أحد مخضرمى الدولتين شعرا: يا ليت جور بنى مروان دام لنا و ليت عدل بنى العباس فى النار

ص:372

مواقف الإمام فى الحكم الأموى:

قضى الإمام الصادق عليه السلام خمسين عاما من عمره فى العهد الأموى، أى من سنة 83 هـ إلى سنة 133 هـ وهى السنة التى زال فيها سلطان الأمويين وقام على أنقاضه سلطان بنى العباس. ولقد شاهد الأمويين فى أيام عظمة سلطانهم، وقوة نفوذهم، ورأى تلك المعاملة القاسية التى عومل بها رجال الأمة، وعايش تلك الفجائع التى حلت بالمسلمين، من جراء التحكم والاستبداد من دون وازع دينى أو خوف عقاب أخروى. فكان يطرق سمعه بين آونة وأخرى قتل جماعة ممن عرفوا بالولاء لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومطاردة آخرين، وتهبط عليه أنباء الفجيعة بزعماء أهل بيته، الذين أراق الأمويون دماءهم من غير أن تراعى فيهم حرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد قتل زيد بن على بالكوفة سنة 122 هـ و صلب جسده عاريا منكوسا وأجساد خواصه معه خمس سنوات، ثم أحرق ونسف فى أليم. ثم أرفوه بولده يحيى بن زيد، كما شاهد نصب عينيه ما كابده جده الإمام زين العابدين من جور الأمويين حتى قضى بالسم على أيديهم، وكذلك أبوه الإمام الباقر. وشاهد ولاية المدينة يجمعون العلويين قريبا من المنبر ليسمعوهم شتم على و تنقيصه. وكانت تؤلمه أنباء جور الولاية وعسفهم بالحكم، وما يوقعونه فى الأمة الإسلامية. وإذا رجع إلى ذلك الماضى المحزن وما يبلغه من حديث تلك الحوادث المؤلمة كواقعة الطف التى هى نصب عينيه كأنه قد شاهدها، وكان يعقد المجالس

فينشده الشعراء رثاء جده الحسين فيها فيبكي، فهي تمثل له في كل آونة. فيتوجع لها قلبه، ولكنه يركن إلى الصبر. وكذلك حديث يوم الحرة و حديثها شجون، فلا تزال آثار تلك الفاجعة باقية وإن طال العهد، وشاهد أولئك الحكام الذين يحكمون باسم الخلافة الإسلامية و ما هم منها بشيء، فلا عدل في حكم، و لا مساواة في حق، و لا نظام يضم للناس حرياتهم، و الأمور إلى الفوضى أقرب منها إلى النظام. عاش الإمام عليه السلام وسط ذلك الجو المضطرب بالفوضى و العبث و الفساد و التلاعب بمقدرات الأمة، و هو عليه السلام يحس بالآلام الناس أكثر من غيره، فما ذا يصنع و قد طوقه الأمويون برقابة شديدة، و ضربوا حوله دائرة ضيقة ليحصروا نفوذه فيها. و رغم ذلك كله راح عليه السلام يؤدي رسالته ليعالج إصلاح الوضع من طريق الهداية و الإرشاد و نشر تعاليم الإسلام، و إفهام الناس تلك النظم التي أهملها حكام عصره و جعلوها وراء ظهورهم، و حكموا بلغة السيف و ساسوا الأمة بالإرهاب و القسوة. و لم يستجب عليه السلام للدعوات التي تتوالى عليه-عند ما أعلنت الثورة على الأمويين-ليقود الثورة و يتقدم الركب، لأنه على علم من نتائج تلك الحركات و هو أعرف بنفسيات زعماء الثورة و قادة الجيوش، و هم إن ادعوا الولاء لآل محمد و الانتصار لهم، و طلب البيعة إلى الرضا منهم، و لكن هناك غايات في نفوس القوم لا تتحقق إلا بهذه الادعاءات، فرفض عليه السلام تلك الطلبات الموجهة إليه لعلمه بما وراء الأكمة من الخطر. و لقد ابتعد عليه السلام عن ذلك المعترك و بذل لأبناء عمه النصح بأن لا يزوجوا أنفسهم في ذلك الصراع، و حذرهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلا بالخيبة و لا يتحقق لهم هدف ما دام الوقت لم يأت، و الدخول في أمر قبل أن يستحكم مفسدة له، و إن إعلان الثورة في ذلك الوقت لا يجدي نفعاً بل يؤدي إلى مزيد من التضحيات و اتساع شقة الخلاف و الفرقة، و هو يعرف نوايا العباسيين و ما يطلبونه من وراء انضمامهم إلى جانب العلويين.



ولما سبر أبو سلمة الخلال أحوال بني العباس وعرف نواياهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، وعبد الله المحض، وعمرو الأشرف، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو، وإن لم يجب فالتق عمرو. فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال عليه السلام: ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري، فقال له الرسول: اقرأ الكتاب فقال الصادق لخدمته: أدن السراج، فأدناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب. ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض، ودفع إليه الكتاب، فقرأه وقبلة وركب في الحال إلى الصادق عليه السلام وقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة، قد وصل إلي على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان. فقال الصادق: ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أنت وجهت إليه أبا مسلم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟! فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء. فقال الصادق: قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أذخره عنك! فلا تمنّ نفسك، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء (1) - يعني بني العباس. و دخل عليه سدير الصيرفي فقال: يا أبا عبد الله ما يسعك القعود. فقال: ولم يا سدير؟ قال: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك. فقال: يا سدير وكم عسى أن يكونوا؟ قال: مائة ألف. قال: مائة ألف؟ قال:

ص: 375

نعم، و مائتي ألف. فكان الجواب من الإمام بما حاصله عدم الركون لهذه الكثرة لقلّة المخلصين منهم و علمه بالعواقب (1).

### إخباره بصيرورة الأمر لبني العباس:

ولما بايع الهاشميون محمد بن عبد الله بن الحسن قال لهم الإمام الصادق: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، و ضرب بيده على ظهر أبي العباس السفاح، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن و قال: و الله إنها ما هي إليك-أي الخلافة-و لا إلى ابنيك، و لكنها لهم-أي لبني العباس-و إن ولديك لمقتولان. ثم نهض و توكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال: أ رأيت صاحب الرداء الأصفر؟ -يعني المنصور-قال: نعم. قال: فإنا و الله نجده يقتله. فقال عبد العزيز: أ يقتل محمدا؟ . قال: نعم، قال: فقلت في نفسي حسده و رب الكعبة. قال عبد العزيز: فو الله ما خرجت من الدنيا حتى رأيت المنصور قتلها (2). و لا زال الإمام الصادق يخبر بصيرورة الأمر لغير آل محمد، و لا زال يقول: إنه صائر لبني العباس. روى على بن عمرو عن ابن داحة أن جعفر بن محمد قال لعبد الله بن الحسن -و كان السفاح و المنصور معهما-: إن هذا الأمر و الله ليس إليك و لا إلى ابنيك و إنما هو لهذا-يعني السفاح-ثم لهذا-يعني المنصور-ثم لولده من بعده لا يزال فيهم حتى يؤمروا الصبيان و يشاوروا النساء، و إن هذا-يعني المنصور-يقتله على أحجار الزيت (3) ثم يقتل أخاه بعده، ثم قام مغضبا يجر رداءه فتبعه المنصور. فقال: أتدرى ما قلت يا أبا عبد الله؟ قال: أي و الله أدريه و إنه لكائن. و على أي حال فإن الإمام الصادق عليه السلام قد مرت عليه أخطار هائلة و فجائع مؤلمة و قد تلقاها بقلب مؤمن بالله ملتجئا إليه سبحانه و تعالى في جميع أموره مخلصا

ص:376

1-1 (1) أصول الكافي ج 2 ص 243. [1]

2-2 (2) انظر مقاتل الطالبين ص 117، و [2] الطبري ج 9 ص 233 [3] ط 1.

3-3 (3) أحجار الزيت موضع بالمدينة المشرفة و هو خارجها، استشهد به محمد بن عبد الله بن الحسن سنة 145 هـ و قتل أخوه إبراهيم بالعراق لخمس ليال بقين من ذى القعدة منها و كان عمره 48 سنة.

له في دعوته لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يقعد به عن أداء رسالته خوف ظالم، وقد خاض غمار تلك الأخطار بثبات قلب ورأى سديد وحكمة بالغة. وقد اختط لنفسه طريقاً سار فيه إلى الدعوة وتأييد الرسالة، وأمر أصحابه بالثبات والعمل بما يدعون إليه من تطبيق نظام الإسلام، وأمرهم بالدعوة الصامتة وقد عرف حاجة المجتمع إلى الألفة، وإزالة رواسب الخلافات وحمل الناس على تطبيق مبادئ الإسلام ليوجد من المجمع الإسلامي قوة متكاتفة تصرخ في وجوه الظلمة، وتحملهم على الاعتدال في السيرة والعدل في الحكم، والمساواة في الرعاية، وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع كما تقدمت الإشارة إليه في الجزء الأول.

## موقفه من الحركات الفكرية:

### إشارة

هذا من ناحية الموقف السياسي. أما ما يتصل بالحياة الاجتماعية والعقائد الدينية فكان الأمر أدهى وأمر، فقد صحبت تلك العاصفة السياسية تيارات فكرية جارفة، وهزات إلهادية قوية، وتطور غريب في النزعات والاتجاهات أقلق بال حماية الشريعة والذائدين عن حوضها، وحدثت عصبيات جاهلية ذميمة، وقد نهض الإمام الصادق لمقارعة أهل الباطل، وباحث الفلاسفة والدهريين، وأهل الكلام الجدليين، الذين تصدوا لإفساد معتقدات الناس فأبطل بنور حكمته مقالاتهم الفاسدة وسفستهم الفارغة (1)، فنبههم عن غفلتهم وأيقظهم من رقدتهم، وأوضح لهم اعوجاج مذاهبهم والتواء سبلهم، ودعاهم إلى كلمة الحق، وجادلهم بالتي هي أحسن، وناقشهم بالبرهان الساطع وقد احتفظ التاريخ بكثير من تلك المناظرات، كما نظرت في التوحيد مع الزنديق الذي قدم من مصر، واسمه عبد الملك ليناظر الإمام فناظره حتى آمن قلبه، واطمأنت نفسه بعد الزيغ والارتباب، وطلب من الإمام تعليمه وإرشاده وقال: اجعلني من تلاميذك، فقال الصادق لهشام: خذني إليك فعلمه (2). وجاء إليه زنديق آخر وسأله عن أشياء منها أنه قال له: كيف يعبد الله ولم ير؟ فقال أبو عبد الله: رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان،

ص: 377

1-1) الرسالة الأولى في الإمام الصادق للأستاذ توفيق الفكيكي المحامي.

2-2) الصادق للمظفر ج 1 ص 212.

و أبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف من عظمتته دون رؤيته. إلى آخر المناظرة (1). و كان الجعد بن درهم من الزنادقة يضل الناس و يغويهم و قد جعل في قارورة ترابا و ماء فاستحال دودا و هو ما فقال: أنا خلقت هذا، لأنى كنت سبب كونه. فبلغ ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال: ليقل كم هو- و كم الذكر و الاناث إن كان خلقه و ليأمر الذى يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره. قال ابن حجر: فبلغه ذلك فرجع. (2) و له مناظرات مع عبد الكريم بن أبى العوجاء (3) و أصحابه و غيرهم من الزنادقة، فكان جوابه الفصل و الحكم العدل، و ستأتى الإشارة إلى تلك المناظرات فى باب احتجاجاته.

### موقفه من حركة الغلاة:

و إن من أعظم المشاكل على الإمام الصادق و أهمها عنده هى حركة الغلاة الهدامة الذين تطلعت رءوسهم فى تلك العاصفة الهوجاء إلى بث روح التفرقة بين المسلمين، و ترعرعت بنات أفكارهم فى ذلك العصر ليقوموا بمهمة الانتصار لمبادئهم و أديانهم التى قضى عليها الإسلام، فقد اغتتموا الفرصة فى بث تلك الآراء الفاسدة فى المجتمع الإسلامى، فكانوا يبثون الأحاديث الكاذبة و يسندونها إلى حملة العلم من آل محمد ليلبسوا مبادئهم الصحيح ثوبا لا يلىق به، و يسندوا إليه ما ليس منه، فكان المغيرة بن سعيد (4) يدعى الاتصال بأبى جعفر الباقر و يروى عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق كذبه و البراءة منه، و أعطى لأصحابه قاعدة فى الأحاديث التى تروى عنه فقال: لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن و السنة، أو تجدون معه

ص: 378

1-1) انظر احتجاج الطبرسى و البحار ج 4 و [1] الكافى فى احتجاجات الصادق.

2-2) لسان الميزان ج 2 ص 105.

3-3) عبد الكريم بن أبى العوجاء هو خال معن بن زائدة قتل على الزندقة سنة 161 هـ. و لما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال و أحلل الحرام.

4-4) المغيرة بن سعيد مولى بجيلة كذاب قال ابن عدى: لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد كان يكذب على أهل البيت. قتله خالد القسرى سنة 119 هـ- مع عدد من أصحابه.

شاهدا من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنة الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وآله. وقال عليه السلام: «لعن الله المغيرة بن سعيد و لعن يهودية كان يختلف إليها. . الخ». فكان عليه السلام يهتم أشد الاهتمام بأمر الغلاة، لأن بعضهم ادعى أن جعفر بن محمد إله-تعالى الله عن قوله-فعظم ذلك على الإمام جعفر بن محمد و حاول أن يقدر عليه فلم يقدر، فأعلن لعنه والبراءة منه، و جمع أصحابه و أعلمهم بذلك و كتب إلى جميع البلدان بكفره و لعنه و البراءة منه (1). وقد أعلن عليه السلام براءته من الغلاة و يقول لأصحابه: لا- تقاعدوهم و لا- تواكلوهم، و لا تشاربوهم، و لا تصافحوهم، و لا تورثوهم. و لما قتلوا بالكوفة قال عليه السلام: لعن الله أبا الخطاب و لعن الله من قتل معه و لعن الله من دخل قلبه رحمة لهم، و كان يقول: على أبي الخطاب لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين. و قال لأبي بصير: يا أبا محمد ابرأ ممن يرى أننا أرباب. فقال أبو بصير: أنا برىء إلى الله منه، قال: ابرأ ممن يزعم أننا أنبياء. فقال: أنا برىء منه إلى الله. و قال عليه السلام: من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله، و من شك في ذلك فعليه لعنة الله. و له كثير من هذه الأقوال التي أظهرها للملا في محاربة تلك الفئة الزائغة و حث الناس على مقاومتهم، و كان يقول: ليس لهؤلاء شىء خير من القتل. و لم يكذب يعلن عليه السلام على الملا براءته حتى أحدث ذلك صدعا في صفوفهم و فرق كلمتهم، و عرف الناس نواياهم و ما يقصدون في إظهار تلك العقائد الفاسدة، فمزق الله شملهم و أباد جمعهم، و لم يبق لهم أثر في الوجود. و على أى حال فإن عصر الإمام من أهم العصور ففيه من المشاكل ما لم تكن في غيره، و لا يسعنا التفصيل لجميع تلك المشاكل و سيأتي مزيد بيان لتلك الأوضاع

ص:379

كما سنتعرض إلى بعض مناظراته مع أهل الفرق وجميع أهل الأهواء والآراء الفاسدة، وهو يدعوهم بدعوة الحق لاتباعه فكان لكلامه أثر في تفيد آرائهم وإبطال أقوالهم. و مهما يكن من أمر فإن مشكلة الغلاة في عصر الإمام الصادق عليه السلام كانت من أهم المشاكل الدينية التي نجمت عنها آثار اجتماعية أصابت تماسك المجتمع و صفاء عقيدته بالاضطراب. وقد واجهها عليه السلام ونبه المسلمين على نوايا أولئك الأفراد الذين قاموا بنشاط معاد للإسلام في تلك الحركات الفكرية في عصر ازدهار العلم و انطلاق الفكر. وقد أعلن- كما تقدم و سيأتي فيما بعد- الحرب عليهم و أمر أتباعه بمقاطعتهم و التبري منهم، مما أدى إلى كشف الستار عن نواياهم السيئة، وإظهار مقاصدهم الخبيثة إلى الرأي العام، فوئدت حركاتهم في مهدها، و لم يبق إلا نقل أقوالهم في بطون الكتب. و سنرى في الأبحاث القادمة كيف ارتكب بعض الكتّاب جناية العمد لهضم الحقيقة، في الابتعاد عن نزاهة البحث بتعصبهم الأعمى عند ما راحوا يربطون بين الحاضر و الماضي، و يقيمون هياكل و همية، و يتدعون أسماء فرق بلا مسميات و ينسبونها إلى الشيعة بما لا يتلاءم و واقع الحقيقة و العقل. و ليس من شك بأن تلك التهجمات إنما كانت لأغراض سياسية بحتة و ليس للعلم فيها دخل، و هي من وحي التعصب و نسج الخيال، كما أشرنا إليه سابقا و نتعرض له فيما بعد.

تلامذته ورواة حديثه

### توجيه الأمة إلى الشعور بالمسؤولية:

كانت المدينة المنورة مأهولة بالصحابة والتابعين، زاخرة برجال الأمة، تنتظم فيها حلقات الفقه، وتكثر عليها الوفود من أطراف البلاد و مختلف الأقطار، ويتخرج منها حفاظ الحديث والفقهاء، لأنها دار هجرة الرسول وموطن الشرع ومبعث النور، وعاصمة الحكم الإسلامي الأول، وهي مهد السنن والمرجع للأمة ومعدن العلم والفقه، ولها المكانة السامية، وفيها أهل بيت النبي وعترته «الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» فهم حملة العلم «وأعلام الأنام وحكام الإسلام»<sup>(1)</sup> «قوم بنور الخلافة يشرقون ولسان النبوة ينطقون»<sup>(2)</sup>. وفي هذا البلد الطيب والبيت الطاهر ولد أبو عبد الله الصادق عليه السلام ونشأ في بيت النبوة، ودرج في ربوع الإيمان، ونهض عليه السلام لأداء رسالته في نشر تعاليم الإسلام من دار الهجرة ومهبط الوحي ومعدن الرسالة. وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ثابتة المبدأ متصلة الكفاح، وجد الناس فيها ثروة علمية، وكانوا يحيون فيها حياة فكرية تهذب النفوس وتسمو بالعقول، وترتقى بهم إلى أوج المعرفة والكمال. وكان غرضه المباشر هو توجيه الناس إلى أسمى درجة من التفكير، وإفهام الأمة نظم الإسلام على الوجه الصحيح، وتطبيقه بين أفراد الأمة من طريق العلم وحرية

ص: 381

1-1) الكلمة لسعيد بن المسيب وهو أحد التابعين.

2-2) القول لمسلم بن هلال العبدى.

التفكير، ليعالج مشاكل ذلك المجتمع بالحكمة و الموعظة الحسنة، ويدعو الناس من طريق الهداية و الإرشاد إلى التمسك بتعاليم الدين، و تطبيق تلك النظم التي أهملها الحكام و جعلوها وراء ظهورهم. و ازدهرت المدينة المنورة في عصر الإمام الصادق، و زخرت بطلاب العلم و وفود الأقطار الإسلامية، و انتظمت فيها حلقات الدرس، و كان بيته كجامعة إسلامية يزدهم فيه رجال العلم و حملة الحديث من مختلف الطبقات، ينتهلون موارد علمه و يقتبسون من ضياء معرفته، و قد اغتنموا تلك الفرصة فزدهم عليه يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم «فحمل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان و انتشر ذكره في جميع البلدان» (1). و ازدحم على بابه العلماء و اقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، و كان متجها إلى العمل بما يرضى الله لا يفتر عن ذكره و لا يفك عن طاعته. يحدثنا مالك بن أنس، و هو تلميذ الإمام تردد عليه زمانا طويلا قبل أن تفصل بينهما عوامل الدولة، و تحول وجهة نظر مالك عن الإمام عند ما رفعت من مقامه، و أعلت من شأنه، و وجهت الأنظار إليه طوعا أو كرها رهبة أو رغبة يقول: و لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه و آله و سلم اصفر لونه، و ما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلا على طهارة. و لقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليا، و إما صامتا، و إما يقرأ القرآن، و لا يتكلم بما لا يعنيه، و كان من العلماء و العباد الذين يخشون الله (2). و في رواية الحافظ النيسابوري: و كان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله اخضر مرة و اصفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. و لقد حججت معه فلما استوت به راحلته عند الإحرام انقطع الصوت في حلقه و كاد يخز من راحلته. و لو اطلعنا على أخبار الإمام الصادق و مناظراته لعلمنا حقيقة و واقع ذلك العصر في جانبه الديني و حياته الفكرية فهو عصر شهد تلاقح الأفكار و التقاء الآراء في اطار

ص:382

1-1 (1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 120. [1]

2-2 (2) التوسل و الوسيلة لابن تيمية ص 52.



المجتمع الإسلامي الواسع الذى انضم إليه طوائف من أديان سابقة وشعوب من حضارات أخرى وقد استهوت مناهج هؤلاء وطرقهم عقول بعض المسلمين فتوغلوا فى تقليدها وتوسعوا فى مجاراتها فكان أن اختل ثبات الرأى وضوابطه المعروفة، وأفحموا أنفسهم فى مغاليق ومبهمات عمد الإسلام إلى إيضاحها وبيانها فى مسائل التوحيد والإيمان وعموم الأحكام غير أنهم مالوا إلى بهرج اللفظ والصيغة وظنوا أن تغيير وسائل القول وألوان الكلام سيكتب لهم المنزلة السامية والمكانة العليا فكيف وقد تعمدوا ما لا يؤمن بنتيجته؟ واتخذوا من المناهج ما يقتضى تكلفا يبعد عن وضوح المعهود وجلائه. وهنا برز الإمام الصادق فى خصم معترك فكرى ودينى ولولا خصائص الإمامة ونور النبوة الذى يفيض من منطقه لما تمكن بشر من القيام بتلك المهمات والمسئوليات الجسام فكان عليه السلام يتصدى الأفكار التى تمس العقيدة وتؤثر فى الدين، وكان يتحرى أقوال الآخرين ويناظر أصحاب الدعوات والآراء والكل يلجأ إليه لما اشتهر به من علم، وقد كان عليه السلام فى موجات هذا الخصم لا ينسى كيف يصون نفسه من الحكام ويجنب شيعته الأذى وهو يعدّهم إعدادا متميزا ويوجههم توجيهها هادفا. وقد كان منهم نخبة يلازمونه ويختصون به وقد وكل إليهم الإمام الصادق كثيرا من المهام الاجتماعية وعهد إليهم بأدوار دينية ودفع بهم إلى واقع الأمة وكل منهم لديه ذخيرة من التعاليم والآداب الدينية. وفى تلك الفترة كانت مدرسته عليه السلام تقوم على قاعدة علمية كبرى تنفرع منها بقية العلوم التى يتلقاها الطلاب، فربط عليه السلام ضروب النشاط العلمى فى مجمع مدرسته ومنتداها بالتوحيد والإيمان، وجعل من وجوب المعرفة بالله أصلا لذلك فكان يملئ على أصحابه وطلابه قانالا: وجدت علم الناس كلهم فى أربع. أولها أن تعرف ربك والثانى أن تعرف ما صنع بك والثالث أن تعرف ما أراد منك والرابع أن تعرف ما يخرجك عن دينك. ولا نريد أن نشير إلى أغلب جوانب الحركة الفكرية فى مدرسة الإمام الصادق لأن ذلك سيتوزع على أجزاء الكتاب فنعاود ذكرها وبحثها لكننا نؤكد على بنائها والاهتمام العالى فى منهجها وإشراف الإمام الصادق على نشاطها ومباشرة مهماتها

بنفسه وقد أصبح لمنهجها ورجالها شهرة في أرجاء العالم الإسلامي و اختلف إليها طلاب العلم على تباين مقاصدهم و كان الإمام يجيب كل من يسأله مراعيًا اهتمامات السائل و مقاصده. عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام و فقه و فرائض و قد جئت لمناظرة أصحابك. فقال له أبو عبد الله كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه و آله أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و من عندي بعضه، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: فأنت إذن شريك رسول الله (صلى الله عليه و آله)؟ قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله؟ قال لا، قال الصادق عليه السلام: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؟ قال: لا، فالتفت أبو عبد الله إلى فقال: يا يونس بن يعقوب، هذا قد خصم نفسه. ثم أمر عليه السلام بعضًا من أصحابه و رجال مدرسته بأن يكلموا الرجل (1) فانعقدت مناظرة ستأتي تفاصيلها حسب البحث إن شاء الله.

### حثه على التجارة و طلب الرزق:

كان الحلقات التي تعقد في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام هي الصعيد الذي تنطلق عليه تعاليم الإمام و إرشاداته، فكان يزرع الفضيلة في النفوس و يغرس الخير فيها. و كان حديثه عليه السلام يشمل كل أمور الحياة و جوانبها، فهو يهدف إلى تصفية الغرائز و يرسم طريق الصلاح و الهداية و يوضح للناس سبل الخير. و جعل هدفه الأسمى في توجيه الناس إلى الورع عن محارم الله و الخوف منه، و الامتثال لأوامره، و الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى و جعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم، للمحافظة على القيم الروحية، و ليرفع من مستوى أخلاقهم. و كان عليه السلام يرمي إلى تشجيع روح العمل و القيام بواجبات المعاش لتكون شخصية المسلم تجمع بين زاد المعاد بالإيمان الخالص و زاد المعاش بالكسب الحلال. و كان يسمى التجارة

ص: 384

و دخول السوق بالعز، كما يحدثنا المعلى بن خنيس قال: رأني أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق فقال لي: اغد إلى عرك. وقال لآخر وقد ترك غدوه إلى السوق: ما لي أراك تركت غدوك إلى عرك؟ قال: جنازة أردت أحضرها. قال: فلا تدع الرواح إلى عرك. وقال لمعاذ يباع الأكسية عند ما ترك التجارة: لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل، اسع على عيالك وإياك أن يكونوا هم الساعة عليك. وسأل عن رجل من أصحابه فقال: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: ترك التجارة وقلّ شيء، فاستوى الإمام جالسا و كان متكئا ثم قال: لا تدعوا التجارة فتهونوا؛ اتجروا بارك الله لكم. وقال معاذ: قلت لأبي عبد الله: إني هممت أن أدع السوق، فقال: إذا يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء. فهو بهذه التعاليم القيمة يبعث في نفوس أصحابه إلى طلب المعاش ليوجد منهم ذوى نفوس لا تخضع لذى ثروة، و يصونوا كرامتهم عن الخضوع له و الاستغناء عنه، و ليكونوا ذوى قدرة على الإنفاق عن سعة لمساعدة ذوى العسرة و أهل الضنك من المؤمنين. و لما كان حب المال يؤدي إلى الانصراف عن قيم الحياة الرفيعة، و يدعو صاحبه إلى العناء و الاستغراق في جمعه و الانشغال به، نبه على ذلك بقوله: ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع و دون طلب الحريص الراضى بدنياه المطمئن إليها، انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، و ترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف، و تكسب ما لا بد منه للمؤمن. ثم يحدثهم عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بما يرويه عن آبائه في الإجمال بالطلب و عدم الاستغراق في حب المال. و لما كان الاقتصاد في المعيشة أقوى عامل للتوفير و زيادة الثروة، فلم يهمل هذه الناحية بل نبه عليها بقوله: «إن السرف يورث الفقر، و إن القصد يورث الغنى» .

### دعوته إلى العمل:

و كان يحث على العمل و يعمل بنفسه و لا يحتقر ذلك، لأن كرامة الإنسان في عمله، فهو عليه السلام قد حث على العمل قولاً و فعلاً. و قد تصافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده و يتجر بماله. يحدثنا أبو عمر الشيباني، قال: رأيت أبا عبد الله الصادق و بيده مسحاة يعمل

في حائط له و العراق يتصعب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك، فقال لي: إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة. و يقول إسماعيل بن جابر: أتيت أبا عبد الله و إذا هو في حائط له، و بيده مسحاة و هو يفتح بها الماء. . . و عن الفضل بن أبي قره قال: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له، و بيده مسحاة يفتح بها الماء و عليه قميص. . . و كان يقول إني لأعمل في بعض ضياعي، و إن لي من يكفي ليعلم الله عز و جل أني أطلب الرزق الحلال. و كان عليه السلام يشجع على العمل و يحث عليه، لأنه يرى أن الكسالة تؤدي إلى الخط من كرامة المرء، و تقذف به في حضيض الهوان. فإن الإسلام يرشد بتعاليمه إلى الجد و طلب المعيشة في الدنيا، كما أرشد إلى العمل و طلب الجزاء في الآخرة. و لقد وهب الله للإنسان في عقله و جسمه قدرة يطرق بها أبواب الخير في رزقه، فلا يصح له أن يذر أعمال تلك القوة و يسأل الرزق بلسان العاجز الكسلان: و قد ورد في الحديث: «اعمل لديناك كأنك تعيش أبدا، و اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». فالعمل في الإسلام ضمن قواعده المهمة، و لم يرض للمسلم البطالة و الكسل، حتى ورد في الحديث «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس، ملعون ملعون من ترك من يعول به». و قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما غدوة أحدكم للجهاد في سبيل الله بأعظم من غدوة من يطلب لولده و عياله ما يصلحهم. و قال عليه السلام: «الشاخص في طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله» إلى غير ذلك من أقوال تبين شدة الاهتمام بطلب الحلال. فكان الإمام الصادق كثيرا ما يلقي على تلامذته تلك الدروس القيمة و يحثهم على العمل و الجد، و ينهاهم عن البطالة التي تخمد جذوة الفكر، و تعود الجسم على العجز، و تميل به عن الاعتدال، و تسقطه في المجتمع من عين الاعتبار. و لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عيني» .

ولذلك قال الإمام الصادق لمعاذ عند ما أراد ترك العمل والتجارة: إذا يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء. وبعد أن دعاهم عليه السلام إلى العمل قولاً- وفعلاً- بين لهم قواعد مشروعة لما يصح الاكتساب به وما لا يصح، وفصل لهم أهم ما يتعلق بنظام الحياة الاجتماعية من حيث الكسب للمال، وكيفية تملكه وإنفاقه، لأن المال وسيلة فعالة في حياة الإنسان، فلا بد من نظام يكفل بيان ذلك، وناقض على بعض ما رواه الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول: أن سائلاً سأل الإمام عليه السلام كم جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات؟ فقال عليه السلام: جميع المعاش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات ويكون منها حلال من جهة وحرام من جهة. فأول هذه الجهات الأربعة: الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات، ثم الإجارة. والفرص من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال، والعمل بذلك الحلال منها، واجتناب جهات الحرام. فأحدى الجهتين من الولاية ولاية العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس. والجهة الأخرى ولاية ولاية الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالي العادل: ولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان، فالولاية له والعمل معه، ومعاونته وتقويته حلال محلل. وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر. وولاية ولاته فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير، لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، وذلك أن في ولاية الوالي الجائر دروس الحق كله، فلذلك حرم العمل معهم ومعاونتهم والكسب معهم إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة. . . ثم بين عليه السلام بقية المعاملات والمكاسب بما لا يتسع المجال لذكره هنا. وقول الإمام الصادق من أعظم الأدلة على منهج أهل البيت في اعتزال الجائرين وحث الأمة على الابتعاد عنهم حتى أن المكانة التي يحتلها العمل في حياة المرء وما قام به الإمام عليه السلام من دعوة إلى العمل قيّد حلّها وبين جهة الحرام منها إذا كانت مع

الاعتراف بولايتهم و الإقرار بشرعيتهم فالعمل على مثل هذه الحال حرام و الكسب فى ظل الولاية لهم حرام فانظر إلى مثل هذا التوجيه الذى يرمى إلى الحفاظ على روح الشريعة فى صورة المجتمع و هيكله و يجعل الجور طارئا و الظلم قصيرا لأن الأمور لا بد أن تعود إلى وضعها. و كذلك فإن الإمام عليه السلام يعرض الحالات الاجتماعية التى تكثر صورها و يصور حكم الدين فيها لكى يزيح عن الناس غشاوة الجهل و يدفعهم إلى حال من التبصر و المعرفة فهو يقول للوليد بن صبيح عن الثلاثة الذين يردّ دعاؤهم قال: أحدهم له مال فأنفقه فى وجهه فيقول يا رب ارزقنى فيقول الله عز و جل ألم أرزقك، و رجل يجلس فى بيته و يسعى فى طلب الرزق و يقول رب ارزقنى فيقول الله عز و جل ألم أجعل لك سبيلا إلى الرزق، و رجل له امرأة تؤذيه فيقول يا رب خلصنى منها فيقول الله عز و جل ألم أجعل أمرها بيدك. و لأصحاب النظريات الحديثة و المدافعين عن الطبقات الكادحة تقول: إن الإمام الصادق كان يصنف أبواب المعاملات بعرض المسائل و أحكامها على تلامذته فعن هشام بن الحكم فى الحمال و الأجير أن الإمام الصادق قال لا يجف عرقه حتى تعطيه أجرته. و عن شعيب قال: تكارينا للإمام الصادق عليه السلام قوما يعملون له فى بستان له و كان أجلهم إلى العصر فلما فرغوا قال عليه السلام يا شعيب اعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم.

### دعوته للألفة و الأخوة الإسلامية:

و كان يدعو إلى الاحتفاظ بالأخوة الإسلامية، و يدعو إلى الألفة و التقارب، و ينهى عن التباغض و التباعد، و يحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق، لأن الحب أقوى عامل لسعادة بنى الإنسان، و بالحب ينتظم العالم، و هو القانون الطبيعى لكيان الحياة، و لذلك نجد روح الإسلام مفعمة بالمودة و الإخاء و الإخلاص و النصيحة. فكتاب الله و سنة رسوله الكريم دعوة خالصة و نداء دائم للأخوة و جمع الكلمة و نبذ الفرقة و الاعتصام بالدين. أما الكراهية فإنها تبعث الشقاء و تثير الشحناء، لأن عين الكراهة لا تبصر المحاسن بل تتطلع إلى العيوب، و إن لم تجد فتقلب الحسن قبيحا،

فلذلك نهى الشارع المقدس عن الأمور التي تثير العداة بين المسلمين، و تخل بتماسكهم و تخلخل أوضاعهم و تخلق الاضطراب و النفرة، و تذهب إلى أبعد حدود القلق، فكان من أسس نظام الدين الإسلامي هي الأخوة، فلذا آخى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بين أصحابه، و أمر المسلمين بالمؤاخاة. و قال تعالى: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات: 10]** و جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عنوان الأخوة: أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، فإذا كنت تحب لأخيك الخير أحبه لك، فكانت راحة نفسك من عاملين قويين. و هكذا إذا كثرت الأسباب و الدواعي، و اتسع ميدان الإخاء، فإذا كان المسلم يحب نفع أخيه كما يحبه لنفسه، فبالطبع إنه لا يأتي منه ضرر، فإذا أمن الإنسان ضرر أبناء جنسه، فتلك هي السعادة، و هل ترى مظهرا للمدنية الصحيحة أجلى من هذا المظهر، فالله سبحانه و تعالى رحمة بعباده جعل الأخوة الإسلامية لئتم لهم نظام الحياة، و يتعاونوا على البر و التقوى، و لا يتعاونوا على الإثم و العدوان. لذلك كان الإمام الصادق يدعو بتعاليمه إلى الأخوة الإسلامية. و يحث على مساعدة الإخوان و قضاء حوائجهم. قال صفوان الجمال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أهل مكة يقال له ميمون فشكى إليه تعذر الكراء عليه، فقال لى عليه السلام: قم فأعن أخاك، فقامت معه فيسر الله كراه، فرجعت إلى مجلسى، فقال أبو عبد الله: ما صنعت فى حاجة أخيك؟ فقلت: قضاها الله بأبى أنت و أمى، فقال: أما إنك إن تعن أخاك المسلم أحب إليّ من طواف أسبوع فى البيت. و ذلك لأن مساعدة الإخوان توجب المحبة و الألفة، و بهما تحصل المنافع العامة. و قد عالج الإسلام مشكلة الحب و الكراهة، و هما من أعظم المشاكل الاجتماعية، فإن الحب إذا حصل فى المجتمع فلا تجد هناك مشكلة من مشاكل الحياة الاجتماعية. و المحبة تخمد جذوة الرذائل، و معنى هذا أن رذائل الشخص فلما تصيب من أحبه، و من ثم قيل: «العدالة خليفة المحبة». قال سقراطيس: لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة، و إن مالت إليه الدنيا، فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير، فالصغير من ظن ذلك.

ولنا في تعاليم الإمام الصادق و حكمياته-التي كان يلقيها على تلك المجموعة الوافرة من الناس في مدرسته-كفاية على إيضاح فوائد الحب في الله و مضار الكراهة، فكان ينصح المسلمين و يحذرهم عاقبة التباعد و البغضاء، و لم يقتصر على القول في هدم عوامل الفرقة، بل كان يسعى لذلك من طرق مختلفة، حتى أنه أقام بعض أصحابه و أمرهم أن يصلحوا المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا من ماله الخاص. يحدثنا أبو حنيفة سابق الحاج-و اسمه سعيد بن بيان-قال: مر بنا المفضل بن عمر و أنا و ختن لى تتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه، فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها ليست من مالي، و لكن أبا عبد الله الصادق أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما و افتديهما من ماله، فهذا مال أبي عبد الله (1).

### سياسته تجاه الظلم و الظالمين:

لقد تسالمت العقول و اتفقت آراء العقلاء على قبح الظلم، فهو من أعظم الرذائل، كما أنهم لم يجمعوا على تقدير فضيلة كإجماعهم على تقدير فضيلة العدل الذي هو أصل كل خير، و القلب النابض لجميع الفضائل، و لا يخرج شيء من الفضائل عنه. فهو أسمى هدف يسعى الإسلام لتحقيقه، و يأبى أن تهدمه رذيلة حب السلطة و التغلب. و كان الإمام الصادق عليه السلام ينهى عن الظلم و يحارب الظالمين، و يأمر بالابتعاد عنهم و عدم التعاون معهم، و أقواله في ذلك كثيرة، فأصبحت نورا تهتدى به النفوس، و يتردد ذكرها على ألسنة العلماء من أقدم العصور، و جاء ذكرها في أمهات الكتب، فهي نور ساطع في أفق العقلية البشرية، و قد سن قواعد مشروعة لمقاومة الظالمين، و هي خير وسيلة لتقويض كيان الظلم و محو دعائمه. و كان أهل البيت يعظمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير و الظلم للناس، فقد جاء عن إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السلام: «و الله لئن أبيت على

ص:390



حسك السعدان مسهدا أو أجر في الأغلال مصفدا أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله ظالما لبعض عباده، و غاصبا لشيء من الحطام». و يقول: «و الله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نملة أسلبها جلب شعيرة، ما فعلت» إلى غير ذلك من تعاليمه وأحكامه. و قد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه في نصره العدل و محاربة الظلم، و قد بذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة، لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين؛ لأنهم كانوا حربا على الظلم، و ساروا في سياسة سلبية ازاء الحكام الظالمين، فلم يركنوا إليهم، و لم يتعاونوا معهم امتثالا- لأ-مر الله تعالى: وَ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ [هود:113]؛ و بهذا تحفظ الأمة كرامتها، و تكسب قوة و رفعة، بينما تضع الحكام الظالمين في مأزق يجعلهم في معزل عن الناس و ابتعاد عن الرعية، و بذلك تكون الأمة قادرة على إرغام الحكام الظالمين على الاعتدال في السيرة و الحكم في العدل. يحدثنا صفوان الجمال قال: دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل، خلا شيئا واحدا. قلت: جعلت فداك أي شيء؟ قال: كراك جمالك من هذا الرجل-يعنى هرون-. قلت: و الله ما أكريته أشرا و لا بطرا، و لا للصيد، و لا للهو، و لكن أكريته لهذا الطريق-يعنى طريق مكة-، و لا أتولاه بنفسى، و لكن أبعث معه غلمانى. قال: يا صفوان أيقع كراك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك. قال: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت: نعم. قال: فمن أحب بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم فهو كمن و رد النار. قال صفوان: فذهبت و بعث جمالى عن آخرها.

وقد قام الإمام الصادق بدوره في عصره فأعلن للملأ أضرار الظلم، لأن كل فساد في الأرض و شق لعصى الطاعة، واضطراب في نظام العمران إنما يعود إلى الجور بين الناس، بل إن كل قحط و جذب و ضيق و ضنك، و جوع و خوف و بلاء و انتقام إنما هو من ظلم العباد بعضهم بعضاً، لذلك أمر الإمام الصادق بالابتعاد عنهم، كما أبعد عنه المتقرب إليه منهم و حرم الولاية لهم، لأنه يرى: «أن في ولاية الجائر دروس الحق كله، و إحياء الباطل كله، و إظهار الظلم و الجور»، كما ورد عنه ذلك، و كان يقول: العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء. و دخل عليه عذافر فقال عليه السلام: بلغنى أنك تعامل أبا أيوب و الربيع، فما حالك إذا نودى بك في أعوان الظلمة؟ و نهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم حتى على بناء المساجد. و سأله رجل من أصحابه عن البناء لهم و كراية النهر، فأجابه عليه السلام: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة أو وكيت لهم وكاء و لا مدة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد». و جاءه مولى من موالى على بن الحسين عليه السلام فقال له جعلت فداك لو كلمت داود بن على أو بعض هؤلاء فأدخل في بعض هذه الولايات. فقال له عليه السلام ما كنت لأفعل. فانصرف إلى منزله متفكراً، و قال ما أحسبه منعى إلا مخافة أن أظلم أو أجور، و الله لآتينه و لأعطينه الطلاق و العتاق و الايمان المغلظة أن لا أظلم أحداً و لأعدلن. قال فأتيته فقلت: جعلت فداك إني فكرت في إبانك على، فظننت أنك إنما كرهت ذلك أن أجور أو أظلم، و إن كل امرأة لى طالق و كل مملوك لى حر و على و على. . . إن ظلمت أحداً أو جرت عليه و لم أعدل. فقال عليه السلام: كيف قلت؟ فأعدت عليه الايمان، فرفع رأسه إلى السماء فقال: تناول السماء أيسر عليك من ذلك (1). و قد وردت عن أهل البيت أحاديث بجواز الولاية إذا كان فيها صيانة العدل و إقامة حدود الله، و الإحسان إلى المؤمنين، و السعى في الإصلاح، و مناصرة

ص:392

المظلومين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فهناك أحاديث عن الأئمة عليهم السلام توضح النهج الذي ينبغي أن يجرى عليه الولاية والموظفون، كما ورد في رسالة الإمام الصادق إلى النجاشي أمير الأهواز (1). وقوله عليه السلام: «إن لله في أبواب الظلمة من نور الله به البرهان، وممكن له في البلاد، فيدفع به عن أوليائه، ويصلح به أمور المسلمين». وقد أشرنا لنهجه الذي وضعه في سياسته التي سار عليها مدة حياته، وهي السياسة السلبية التي أرادها للأمة، وقد مر تقسيمه للولاية: ولاية عدل، وولاية جور، وسن تلك القاعدة المشروعة في معاملة ولاية الجور في عصره. يقول أحد رجال القانون (2) في بيان تلك القاعدة عند تعرضه لرأي الإمام السياسي في عدم المعاونة مع أمراء عصره: إن الإمام عليه السلام قد سنّ قاعدة مشروعة للسياسة السلبية، وهي ما يسمونها اليوم باللغة السياسية (بالعصيان المدني) أو سياسة عدم التعاون مع حكومة أو دولة لا تحترم الحقوق، أو تسيء التصرف، فتعبت بحرمة قانونية المعاهدات والمواثيق، أو تتحدى قدسية الدساتير، و حقوق الأمة المشروعة، إلى غير ذلك من وسائل الظلم، وذرائع الباطل التي تتوسل بها الحكومات الغاشمة والدول القوية المستعمرة، وحكام الاستبداد والفساد في سبيل الغايات الخبيثة الدنيئة. فالإمام الصادق عليه السلام قد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولائهم الجائرين على اختلاف درجاتهم ومناصبهم من أعلاهم إلى أدناهم، و حرم عليهم العمل لهم و الكسب معهم، و حذر و أوعدهم باللعنات لذلك بالعذاب لارتكابه معصية كبيرة من الكبائر، لأن في بذل المعونة للوالي الجائر إماتة الحق كله وإحياء الباطل كله، وفي تقويته إظهار الظلم والجور والفساد وسحق السنن وطمس الشرائع-والعياذ بالله- ولا نريد أن نكثر القول في شرف هذه القاعدة للسياسة السلبية وفي فوائد حكمتها، وهذه القاعدة الوحيدة الناجعة لعلل السياسة الفاسدة وأبائها المهلكة. وليس للأحرار

ص:393

1-1) الوسائل في كتاب التجارة و سننشرها في قسم الوصايا.

2-2) هو المحامي الشهير توفيق الفكيكي في الرسالة الأولى في حياة الصادق ص 27.

المصلحين فى كل أمة قاعدة أخرى يلجئون إليها فى إكراه المستبدين و المستعبدين و المستهترين بحقوق الأمة للخضوع إلى إجابة رغبات الشعب و تحقيقها و تطبيق القوانين و خدمة العدل و احترام الحق، إلا اتباع هذه القاعدة المثالية فى السياسة السلبية. و لا يقوى على انتهاج هذه الخطة القويمة إلا أصحاب القلوب العامرة بقوة الإيمان، و أرباب النفوس الملتهبة بحرارة العقيدة الصحيحة الصلبة، و أهل الصبر على تقديم القرابين الغالية من أرواحهم الطاهرة فى سبيل حريات الرعية و صيانة حقوقهم من جور الجائرين و اعتسافهم. فهل بعد هذا العلاج الشافى من علاج يستعمله الإمام الصادق عليه السلام لمداواة السياسة الأموية و العباسية المريضة فى روحها و دماغها؟ - اللهم لا-حتى إذا وجد المعين و النصير، فكيف إذا لم يكن هذا و ذاك! و الظلم فى جميع أنواعه قبيح عقلا و شرعا، و لم ينحصر الظلم فى الولاية بل هو عام لجميع أنواع المعاملات التى تقع خلاف الحق، و فى ذلك أحاديث كثيرة. روى عن أبى حمزة عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال: «أما إنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم، أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم» ثم قال: «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به». و قال: «من أكل من مال أخيه ظلما و لم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة». و كان يوصى أصحابه بقوله: إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة و ليعن بعضكم بعضا، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول: معونة المسلم خير و أعظم أجرا من صيام شهر، و اعتكافه فى المسجد الحرام، و قال: من أعان ظالما على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطا حتى ينزع عن معونته. . إلى غير ذلك من تعاليمه و إرشاداته.

### عزة النفس:

هى إكرام المرء نفسه و وضعها فى مرتبتها، و رفعة المنزلة من السعادة التى

يجدها الشخص في هذا العالم، و سبب رفعة المنزلة إنما هي الأعمال المختلفة التي يقوم بها المرء تبعاً لما توحى إليه نفس عزيزة تنزع إلى الرفعة والسمو، فيضع نفسه في موضعها، و يباشر ما يليق بشأنه؛ و التعدى عن ذلك إذلال للنفس، و تعريض بكرامتها. و في ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قيل و كيف يذل نفسه؟ قال: يدخل في شيء يعتذر منه. و قد تقدم حثه لطلب المعاش خوفاً من ذلة النفس و استهانتها، و كان في كثير من تعاليمه التي ينهى بها عن ارتكاب الأمور الحقيرة التي تجعل الإنسان لا يشعر من نفسه بالفضيلة، فالرذائل كلها تذهب بعزة النفس، و الفضائل هي الأساس المبتنى لعزة النفس. فالكذب و الخيانة و الرياء و الغش و الطمع و الميل مع الهوى أمور تذهب بعزة النفس، و تبعد السعادة و تجلب الشقاء، كما أن العفة و القناعة و الأمانة و الصبر و الصدق و الوفاء تبعث في النفس عزة و سمواً، و قد أمر الله و رسوله بذلك. و لسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على مضار الجرائم، و أنها تجعل الإنسان ذليلاً، و تهوى به إلى حضيض الهوان، كما أن الفضائل ترفع من قدره و يشعر بعزة نفسه، و قد جاء في نظام الإسلام بيان الأمور التي توجب ذلك، فالسعادة كل السعادة في الامتثال. فالله سبحانه و تعالى أراد لعباده العزة في جميع تلك الأوامر، و التعاليم الأخلاقية، لذلك كان خلفاء النبي و حملة علمه هم مثال الإنسانية الكاملة، و قد نشروا تلك التعاليم القيمة التي يجب أن يتصف بها المؤمن. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من برىء من الشر نال العز». و يقول: «المؤمن له قوة في دين، و حزم في لين، و إيمان في يقين، و حرص في فقه، و نشاط في هدى، و بر في استقامة، و علم في حلم، و كيس في رفق، و سخاء في حق، و قصد في غنى، و تجمل في فاقة، و عفو في مقدرة، و طاعة في نصيحة، و انتهاء في شهوة، و ورع في رغبة، و حرص في جهاد، و صلاة في شغل، و صبر في شدة، في الهزاهز و قور، و في الرخاء شكور، لا يغتاب و لا يتكبر، و لا يقطع الرحم، و ليس

بواهن، ولا فظ ولا غليظ، ولا يسبقه بصره، ولا يفضحه بطنه، ولا يغلبه فرجه، ولا يحسد الناس، ولا يسرق، ولا يظلم». ويقول عليه السلام: «إنَّ الله فوض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع الله تعالى يقول: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ [المنافقين:8] فالمؤمن يكون عزيزاً ولا- يكون ذليلاً، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه (1) بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء». وكثير من الأخبار والأحاديث الواردة في براءة المؤمن عن ذلة النفس التي هي من نتائج الجبن وخبائث الصفات، وتلزمه المهانة وعدم الاقتحام في معالي الأمور، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والمخاوف، وأن يتصف بقوة الإرادة في السيطرة على نزعاته وميوله.

## قوة الإرادة:

5- إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل، وبقوة هذه الإرادة تكافح هذه الغرائز الشاذة، وتصادم الميول المتطرفة، وبقوة الإرادة تبتدئ الفضيلة ويتم التوازن، وقوى الإرادة هو الإنسان العظيم الذي يأتي بالعجائب إذا أحسن توجيه إرادته إلى أعمال الخير ومحاسن الصفات، أما إذا توجه بها إلى أعمال الشر، فإنه يجر على نفسه نقصاً آخر لا يقل خطراً عن ضعف الإرادة، وقد جمع الإمام الصادق قوة الإرادة في كلمته البليغة وهي قوله: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية» وقوة الإرادة عنصر سام يقوم عليه كيان الشخص، بل هي نتاج شخصية منظمة أحسن التنظيم، فالرجل ذو الإرادة القوية هو الذي يعرف طرق تحقيق ما يطلبه من الخير له ولأبناء جنسه، محكما عقله موجها قوته بكل إقدام وثبات، وان له مثلاً أعلى ينظم طاقاته. وقد ورد في تعاليم أهل البيت عليهم السلام ما يدل على مزيد من الاهتمام في تكوين هذه الشخصية القوية الإرادة، وإن كلمة الإمام الصادق عليه السلام على قصرها فهي جامعة وافية لبيان قوة الإرادة.

ص:396

وبهذا العرض الموجز نكتفى عن البحث هنا فى بقية المواضيع الهامة التى كان الإمام الصادق عليه السّلام يهتم بها ويبينها للمجتمع، فقد كان عليه السّلام يجهد فى توجيه الناس نحو الخير والسعادة واتباع الحق ليخلق مجتمعا تتمثل فيه تعاليم الإسلام، وتتجسد فى سلوك أفراد تلك الآداب والنظم القيمة، وسيأتى فيما بعد بعض جوامع الكلم من أقواله الحكيمية التى كان يلقيها فى مجالس وعظه وإرشاده وصاياه لأصحابه. وليس من الممكن استقصاء كل ما صدر عنه من حكم، وتلقى الناس عنه من مواعظ فإن له من التراث الفكرى ما يملأ عدة مجلدات. ومن المؤسف له أن تلك التعاليم القيمة متفرقة فى بطون الكتب، ولو جمعت لكنت أكبر ثروة علمية للمسلمين، لأنه عليه السّلام قضى حياته فى نشر العلم، وبذل جهده فى إرشاد الناس والنصح لجميع أفراد الأمة. فتعاليمه هى القوانين الأخلاقية الصالحة لكل العصور والجماعات، والكفيلة لرقى الفرد والأسرة، على نحو يرضاه العقل ويطمئن إليه الوجدان لأنها مستقاة من ينبوع الوحي، ومستمدة من التعاليم النبوية. وعلى أى حال فقد كان الإمام الصادق عليه السّلام حريصا على توجيه الأمة، يحاول تطهير النفوس من الرذيلة و تقويمها من اعوجاج الميول فى الغرائز، ليتعاونوا ويصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين متراحمين، لينالوا بذلك السعادة كما قرأنا من تعاليمه وما نقرؤه بعد، فقد كان يؤدب أصحابه بآداب الإسلام، ويحرص على استقامتهم.

### مراسلاته:

### إشارة

كانت للإمام الصادق عليه السّلام مراسلات إلى مختلف الأقطار تتضمن نصائح الثمينة يدعوهم إلى سبيل ربه، وكانت تهبط عليه أسئلة من البلدان النائية يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم، ونرى من الخير التعرض لبعضها وإثبات البعض منها بقدر ما يسهل المجال ليقف القارئ على صور مختلفة تمثل نواحي العظمة وعظيم حبه للخير.

قال عبد الله بن سليمان النوفلي (1): كنت عند جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فإذا بمولى لعبد الله النجاشي (2) ورد عليه، فسلم و أوصل إليه كتابا ففضه و قرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: أطال الله بقاء سيدي و جعلني من كل سوء فداه، إني بليت بولاية الأهواز، فأرى سيدي أن يحد لي حدا أو يمثل لي مثلا لأستدل على ما يقربني إلى الله عز و جل و إلى رسوله، إلى أن قال: فعسى أن يخلصني الله بهدايتك و دلالتك، فإنك حجة الله على خلقه، و أمينه في بلاده، و لا زالت نعمته عليك». فأجابه أبو عبد الله عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم: حاطك الله بصنعه، و لطف بك بمنه، و كلاك برعايته فإنه وليّ ذلك، إلى أن يقول: فإني ملخص لك جميع ما سألت عنه إن أنت عملت به و لم تجاوزه، رجوت أن تسلم إن شاء الله. أخبرني أبي عن أبائه عن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبه. و اعلم أني سأشير عليك برأى إن أنت عملت به تخلصت مما أنت متخوفه، و اعلم أن خلاصك و نجاتك من حقن الدم و كف الأذى من أولياء الله، و الرفق بالرعية، و التأنى و حسن المعاشرة، مع لين في غير ضعف و شدة في غير عنف. و مداراة صاحبك و من يرد عليك من رسله، و ارتق فتق رعيته بأن توافقهم على ما وافق الحق و العدل إن شاء الله. إياك و السعاة و أهل النمائم فلا يلتزقن منهم بك أحد، و لا يراك الله يوما و ليلة و أنت تقبل منهم صرفا و لا عدلا فيسخط الله عليك، و يهتك سترك.

ص: 398

- 
- 1-1) عبد الله بن سليمان النوفلي: روى عنه هشام بن يوسف و غيره و خرج له الترمذى فى صحيحه.
- 2-2) عبد الله النجاشي أو ابن النجاشي هو أبو بجير عبد الله بن غنيم الأسدى ولى الأهواز من قبل المنصور و قد اتصل بالإمام الصادق و سأله عن كثير من المسائل و كان الإمام عليه السلام يجيبه، قال النجاشي: إن هذا-يعنى الإمام الصادق-عالم آل محمد، و إن الذى كنت عليه باطل و إن هذا صاحب الأمر.



فأما من تأنس به و تستريح إليه و تلج أمورك إليه، فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لك على دينك. و إياك أن تعطى درهما أو تخلع ثوبا أو تحمل على دابة في غير ذات الله لشاعر أو ممزح إلا أعطيت مثله في ذات الله. و لتكن جوائزك و عطاياك و خلعتك للقواد و الرسل، و الأحفاد و أصحاب الرسائل، و أصحاب الشرط و الأحماس، و ما أردت أن تصرفه في وجوه البر و النجاح و الفتوة و الصدقة و الحج و المشرب و الكسوة التي تصلى بها و تصل بها، و الهدية التي تهديها إلى الله عز و جل و إلى رسوله صلى الله عليه و آله و سلم من أطيب كسبك. يا عبد الله أجهد أن لا تكنز ذهبا و لا فضة، فتكون من أهل هذه الآية التي قال الله عز و جل: **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [التوبة:34]**. و لا تستصغر من حلوى و فضل طعام تصرفه في بطون خالية ليسكن بها غضب الله تعالى، و اعلم أنى سمعت من أبى يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام أنه سمع النبي صلى الله عليه و آله و سلم يقول يوما: ما آمن بالله و اليوم الآخر من بات شبعا و جاره جائع، فقلنا: هل كنا يا رسول الله، فقال: من فضل طعامكم و من فضل تمركم و رزقكم، و خلقكم و خرقكم تطفئون بها غضب الرب. فخرج أمير المؤمنين عليه السلام من الدنيا و ليس في عنقه تبعة لأحد حتى لقي الله محمودا غير ملوم و لا مذموم، ثم اقتدت به الأئمة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطحوا بشيء من بوائقها. . . يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمنا فإن أبى محمدا حدثني عن أبيه عن جده على بن أبى طالب عليهم السلام أنه كان يقول: «من نظر إلى مؤمن ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله، و حشره في صورة الذر لحمه و جسده و جميع أعضائه حتى يورد مورده». ثم ذكر له عليه السلام الأحاديث المتضمنة لمكارم الأخلاق و طيب الصفات التي يجب أن يسير عليها الوالى، و التي تضمن له النجاة إن عمل بها و سار على الجادة (1).

ص:399

و جاء إليه رجل من الأهواز فقال: يا أبا عبد الله إن في ديوان النجاشي على خراجا فإن رأيت أن تكتب له كتابا، فكتب إليه هذه الكلمة الموجزة: بسم الله الرحمن الرحيم: سرّ أخاك يسرك الله. فلما ورد الكتاب على النجاشي امتثل ذلك وأجاز الرجل وأكرمه وأسقط الخراج وقال له: هل سررتك؟ قال: نعم.

### رسالته في الصفات:

و كتب إليه عبد الملك بن أعين من العراق يخبره: أن قوما بالعراق يصفون الله بالصورة وبالتخطيط، فإن رأيت جعلني الله فداك أن تكتب إليّ بالمذهب الصحيح من التوحيد. فكتب إليه: سألت رحمك الله عن التوحيد و ما ذهب إليه من قبلك فتعالى الله الذي ليس كمثلته شيء و هو السميع البصير، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون الله بخلقه المفترون على الله، فاعلم رحمك الله: أن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله جل وعز، فانف عن الله تعالى البطلان و التشبيه، فلا نفى و لا تشبيه، هو الله الثابت الموجود، تعالى الله عما يصفه الواصفون، و لا تعدوا القرآن فتضلوا بعد التبيان (1).

### رسالته إلى جماعة من أصحابه:

و كتب إلى جماعة من أصحابه: اتقوا الله و كفوا ألسنتكم إلا من خير، إلى أن قال: و عليكم بالصمت إلا ما ينفعكم الله به في آخرتكم و يأجركم عليه، و أكثروا من التهليل و التقديس، و التسبيح و الثناء على الله، و التصرع إليه و الرغبة فيما عنده من الخير، الذي لا يقدر قدره و لا يبلغ كنهه أحد، فاشغلوا ألسنتكم بذلك عما نهى الله عنه من أقاويل الباطل التي تعقب أهلها خلودا في النار من مات عليها و لم يتب إلى الله و لم ينزع عنها. و كتب إلى جماعة منهم أيضا نقتطف منها: أما بعد فسلوا ربكم العافية، و عليكم بالدعة، و الوقار و السكينة و التنزه كما تنزه

ص: 400

الصالحون منكم، إلى أن قال: وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم و تكبر عليهم فقد زل عن دين الله، و اعلموا أن من حقر أحدا من المسلمين ألقى الله عليه المقت، فاتقوا الله في إخوانكم فإن لهم عليكم حقا أن تحبهم فإن الله أمر نبيه بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله، و من عصى الله ورسوله و مات على ذلك مات من الغاوين. إياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه، و صارت نصرة الله لمن بغى عليه، و من نصره الله غلب و أصاب الظفر من الله. إياكم أن يحسد بعضكم بعضا فإن الكفر أصله الحسد. إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو الله عليكم و يستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: إن دعوة المظلوم مستجابة. إياكم أن تشره نفوسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم، فإن من انتهك ما حرم الله عليه حال الله بينه و بين الجنة.

## وصاياہ:

## اشارہ

ليس من الغريب أن نرى كثيرا من علماء الأمة يفتنون فرصة الاتصال بالإمام الصادق و يطلبون منه أن يزودهم بوصاياه التي هي أثمن شيء عندهم، لأنهم يجدون فيها إكمال نقص، و توجيهها للخير و السعادة، و قد وجدوا فيه شخصية إسلامية قد طبعت على الخير و البر، فهو يتوخى لهم السعادة و يقيم لهم الحجج الواضحة و البراهين اللائحة، فهو من أهل بيت لا تجهل منزلتهم، و لا تنكر مكائدهم، و هم أولى بتبليغ الأحكام و هداية الأنام، مهما كثرت عوامل المعارضة و وقفت الصعوبات في طريق الوصول إلى الغاية. و الإمام الصادق فريد عصره و وحيد زمانه لا يلحق أثره و لا يبلغ شأوه، فلذلك نرى التفاف الأمة حوله و انتهالهم من تعاليمه، و حرصهم على حصول تلك الوصايا الثمينة و التعاليم القيمة. هذا سفيان الثوري و هو من علماء الأمة يتردد على الإمام و يطلب منه أن يوصيه بما ينفعه، ثم يستزيده مرة بعد أخرى.

و هذا أبو حنيفة يغتنم الحضور عنده و يصغى لوصاياه عند ما قدم إلى المدينة، و كذلك في الكوفة يوم دخلها الإمام الصادق، كما تحدث بذلك كتب مناقب أبي حنيفة و غيرها. و هذا الإمام مالك يلازم صحبته و يرافقه و يتزود منه و كثير من علماء الأمة كانوا يغتنمون فرصة الحضور عنده ليسمعوا منه و ينتفعوا بوصاياه، لأنهم يطلبون الخير لأنفسهم و للأمة. و قد أكثر سفيان الثوري لذكر تلك الوصايا و نشرها للملا و لا يستبعد أن يكون ذلك هو السبب في مطاردته من قبل السلطان، بعد أن فشلت في محاولتها لاستمالاته حتى مات مغضوبا عليه من قبل ولاة الجور. و كان حفص بن غياث و هو أحد الأعلام يطلب من الإمام أن يوجهه و يزوده بوصاياه، و قد احتفظ التاريخ بكثير من ذلك. و على كل حال فإن وصايا الإمام الصادق كثيرة و تقتصر على القليل منها.

### وصيته لحفص بن غياث:

و قد جاء في وصيته لحفص بن غياث (1) قوله: «إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا، و ما عليك إن لم يشن الناس عليك، و ما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت عند الله محمودا» إلى أن قال: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب و لا تكذب و لا تحسد، و لا ترائى و لا تتصنع، و لا تداهن. . .» (2).

### وصيته لسفيان الثوري:

الوقوف عند كل شبهة خير من الاقتحام في الهلكة، و ترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثا لم تحصه، إن على كل حق حقيقة، و على كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه، و ما خالفه فدعوه (3).

ص: 402

---

1 - 1) حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي المتوفى سنة 194 هـ - أحد الأعلام [1] روى عن الإمام الصادق [2] - خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

2 - 2) الوسائل ج 2 باب الجهاد. [3]

3 - 3) تاريخ يعقوبى ج 3 ص 115. [4]

وقال نصر بن كثير (1): دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: إنى أريد البيت فعلمنى شيئاً أدعوه به، فقال: إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت يا سامع الصوت يا كاسى العظام لحما بعد الموت ثم ادع بما شئت. فقال له سفيان شيئاً لم أفهمه. فقال: يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار. و لقيه مرة فقال: يا ابن رسول الله أوصنى. قال: يا سفيان لا مروءة لكذوب، ولا أخ لملول، ولا -راحة لحسود، ولا سؤدد لسيئ الخلق. فقال: يا ابن رسول الله زدنى، قال: يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، ولا تصحب الفاجر يعلمك من فجوره، وشاور فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل. فقال: يا ابن رسول الله زدنى، فقال: يا سفيان من أراد عزا بلا عشيرة و غنى بلا مال و هيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته. وقال سفيان للصادق مرة: لا أقوم حتى تحدثنى. قال له: أنا أحدثك و ما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان، إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحبت بقاءها و دوامها، فأكثر من الحمد و الشكر عليها فإن الله عز وجل قال: لئن شئنا لآزیدنکم [إبراهيم: 7] و إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال فى كتابه: إسنَّ تَغْفِرُوا رَبُّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيَمْ دِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً [نوح: 10-12] يا سفيان إذا أحزنتك أمر من سلطان أو غيره، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج و كنز من كنوز الجنة. فعقد سفيان بيده و قال: ثلاث و أى ثلاث (2).

### وصيته لعبد الله بن جندب:

يا ابن جندب إنما المؤمنون الذين يخافون الله، و يشفقون أن يسلبوا ما أعطوا من الهدى، فإذا ذكروا الله و نعماءه و جلوا و أشفقوا، و إذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيماناً

ص: 403

1-1) سيأتى ذكره فى رواة حديث الصادق.

2-2) حلية الأولياء ج 3 ص 193.

الهدى، فإذا ذكروا الله ونعماءه و جلاوا و أشفقوا، و إذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيماناً مما أظهره من نفاذ قدرته، و على ربهم يتوكلون. يا ابن جندب يهلك المتكلم على عمله، و لا ينجو المجترئ على الذنوب الواثق برحمة الله-قال عبد الله بن جندب: فمن ينجو؟ قال: الذين هم بين الخوف و الرجاء كأن قلوبهم فى مقلب طائر شوقاً إلى الثواب و خوفاً من العقاب. و ييل للساهين عن الصلاة، النائمين فى الخلوات، المستهزئين بالله فى الفترات، أولئك الذين لا خلاق لهم فى الآخرة، و لا يكلمهم الله يوم القيامة و لهم عذاب أليم. يا ابن جندب أحب فى الله، و أبغض فى الله، و استمسك بالعروة الوثقى، و اعتصم بالهدى يقبل عملك. . و خذ حظك من آخرتك، و لا تكن بطراً فى الغنى، و لا جزعاً فى الفقر، و لا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قريبك، و لا تكن واهياً يحقرك من عرفك، و لا تشار (1) من فوقك، و لا تسخر بمن هو دونك، و لا تنازع الأمر أهله، و لا تطع السفهاء. يا ابن جندب صل من قطعك، و أعط من حرمك، و أحسن إلى من أساء إليك، و سلم على من سبك، و أنصف من خاصمك، و اعف عن ظلمك كما أنك تحب أن يعفى عنك. يا ابن جندب لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، و لكن إذا أعطيت يمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإن الذى تتصدق له سرا يجزيك علانية قد علم ما تريد (2). و قال عليه السلام لأصحابه: لا يتكلم أحدكم بما لا يعنيه، و ليدع كثيراً فيما يعنيه حتى يجد له موضعاً، فرب متكلم فى غير موضعه جنى على نفسه بكلامه و لا يمارين أحدكم سفيهاً و لا حليماً، فإنه من ماري حليماً أقصاه، و من ماري سفيهاً أرداه، و اذكروا أخاكم إذا غاب عنكم بأحسن ما تحبون أن تذكروا به إذا غبتم عنه، و اعملوا عمل من يعلم أنه مجازى بالإحسان مؤاخذاً بالإجرام.

ص: 404

1-1) يقال شاره عابه و ازدرى به.

2-2) تحف العقول ص 73-75. [1]

إلى غير ذلك من وصاياه الجليلة لخواصه وأصحابه وأهل بيته وغيرهم (1). مما هو جدير بأن يجعل دستوراً لنظام الحياة، فقد كان يبذل جهده لتطهير النفوس من الأرجاس الطبيعية البشرية، ومكافحة الشهوات البهيمية، واتخاذ أنجع الوسائل لتحقيق غرضه السامى، فكان كلامه يسيل على سامعيه رقة و عذوبة تحكم على مستمعه الاستزادة لما يبدو من خلاله صورة من التعاليم الإسلامية الحقة، يلقيها مخلص قد توخى الخير للمتعلم، وإبداء النصيحة الخالصة التي لا تشوبها شائبة، فهو ينقشها على صفحات قلوب الخالص منهم، فلا تمنحى وإن كثرت عوامل المحو. وها نحن ذا نقدم من نصائحه نبذا قصيرة هي جوامع الكلم وآيات بينات فى الأدب والبلاغة وفرقان حكيم جاء بالفلسفة الخلقية.

### جوامع الكلم:

\* اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين فى الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا و تلاقوا. \* اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء. \* من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، و من سمع رجلا ينادى يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم. \* صدقة يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تقاسدوا، و تقارب بينهم إذا تباعدوا. \* المؤمن من طاب مكسبه، و حسنت خليقته، و صحت سريره، و أنفق الفضل من ماله، و أمسك الفضل من كلامه، و كفى الناس شره، و أنصف الناس من نفسه. \* المؤمن حسن المعونة. خفيف المئونة، جيد التدبير لمعاشه، و لا يلسع من جحر مرتين. \* اجعلوا أمركم هذا لله، و لا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله، و ما كان للناس فلا يصعد إلى الله.

ص: 405

---

1-1) تجد الكثير منها فى الوسائل و الكافى و حلية الأولياء و تحف العقول وغيرها.

\*إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون فإنه ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك. \*لا تمارين حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقلبك، والسفيه يؤذيك. \*إياكم والخصومة، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق، ومن زرع العداوة حصد ما بذر، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله. \*كان أبي يقول: أى شىء أشد من الغضب؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التى حرم الله، ويقذف المحصنة. \*من كافأ السفيه بالسفه فقد رضى بما أوتى إليه حيث احتذى مثاله. \*من عذر ظالماً بظلمه، سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، ولم يؤجره الله على ظلامته. \*احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شىء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم، وحصائد ألسنتهم. \*من ساء خلقه عذب نفسه. \*العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بعداً. \*من أكرمك فأكرمه، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه. \*إياكم والمزاح فإنه يذهب بماء الوجه. \*لا شىء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولا داء أدوى من الكذب. \*المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. \*العدل أحلى من الماء يصيبه الظمان. \*ما أوسع العدل وإن قل. \*من كف يده عن الناس، وإنما يكف يداً واحدة ويكفون عنه أيد كثيرة. \*من كان له عقل كان له دين و من كان له دين دخل الجنة. \*الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم.



\*إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك فلا تغتم، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.  
\*لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره. \*بنى الإنسان على خصال، فمما بنى عليه أنه لم يبن على الخيانة والكذب. \*ثلاثة تورث المحبة: الدين، والتواضع، والبذل. \*من برىء من ثلاث نال ثلاثة: من برىء من الشر نال العز، ومن برىء من الكبر نال الكرامة، ومن برىء من البخل نال الشرف. \*ثلاثة مكسبة للبغضاء: النفاق، والعجب، والظلم. \*آفة الدين الحسد، والعجب، والفخر. \*إن المؤمن يغط ولا يحسد. \*اتقوا الله واعدلوا فإنكم تعيرون على قوم لا يعدلون. \*ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قواها بحقه. \*ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. \*ثلاثة يحجزن عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الحياء، وضعف الرأي. \*ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها: مقارنة الأشرار، ومحادثة النساء، ومجالسة أهل البدع. \*ثلاثة أشياء يحتاج إليها الناس طراً: الأمن، والعدل، والخصب. \*ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، والجار السوء، والمرأة البذية. \*الصلة وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار. \*ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره. \*من رزق ثلاثاً نال الغنى الأكبر: القناعة بما أعطى، واليأس مما في أيدي الناس، وترك الفضول. \*ليس بحازم من لا ينظر في العواقب، والنظر في العواقب تلقح القلوب. \*إذا رأيت العبد متفقداً لذنوب الناس ناسياً لذنوبه، فاعلموا أنه قد مكر به.

\*أقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك، واسع في فكائها كما تسعى في طلب معيشتك، فإن نفسك رهينة بعملك. \*تعوذوا بالله من سطوات الليل والنهار، قيل: وما هي؟ قال الأخذ على المعاصي. \*لا تشاور أحمقا، ولا تستعن بكذاب، ولا تثق بمودة الملوك: فإن الكذاب يقرب لك البعيد، ويبعد لك القريب، والأحمق يجهد لك نفسه، ولا يبلغ ما تريد، والملوك أوثق ما كنت به خذلك، وأوصل ما كنت له قطعك. \*بطانة السلطان ثلاث طبقات: طبقة موافقة للخير، وهي بركة على السلطان، وطبقة غايتها المحاماة على ما في أيديها، فتلك لا محمودة ولا مذمومة، بل هي إلى الذم أقرب، وطبقة موافقة للشر وهي مشومة مذمومة عليها وعلى السلطان. \*لا يستغنى أهل كل بلد عن ثلاث، فإن عدموا ذلك كانوا همجا: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة. \*الاخوان ثلاثة: مواس بنفسه، وآخر مواس بماله، وهما الصادقان في الاخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة، فلا تعده من أهل الثقة. \*كفى بالحلم ناصرا. \*ما من عبد كظم غيظا إلا زاده الله عزاء في الدنيا والآخرة. \*ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع بخلقه. \*صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة. \*من زرع العداوة حصد ما بذر. \*من دخله العجب هلك. \*العجب كل العجب ممن يعجب بعمله، ولا يدري بما يختم له. \*ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه. \*إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر، فالطمأنينة إلى كل أحد عجز.

\*إذا أردت أن تعلم صحة ما عند أخيك، فأغضبه فإن ثبت لك على المودة فهو أخوك وإلا فلا. \*لا تتقن بأخيك كل الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تقال. \*المؤمن حسن المعونة خفيف المئونة جميل التدبير لمعيشته، ولا يلسع من جحر مرتين. \*من صحة يقين المسلم أن لا يرضى الناس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره. \*خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك. \*أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق لا يعجز عنه شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء. \*اطلبوا العلم و تزينوا معه بالحلم والوقار، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم. \*إنما المؤمن إذا غضب لم يخرج غضبه من حق، وإذا رضى لم يدخله رضاه في باطل. \*اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضا. \*ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاتها بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم. \*ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله يوم القيامة: رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه، أن يحيف على من تحت يديه. ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر، ورجل قال الحق فيما له وعليه. \*للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويقول ما لم يعلم، ويتعاطى ما لا ينال. \*اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم، والنساء.

\* وقال للمفضل بن زيد: أنهاك عن خصلتين فيهما هلك الرجال: أن تدين الله بالباطل، و تفتى الناس بما لا تعلم. \* لا يطمعن ذو الكبر في الثناء الحسن، و لا الخب في كثرة الصديق، و لا السيئ الأدب في الشرف، و لا البخيل في صلة الرحم، و لا المستهزئ في صدق المودة، و لا القليل الفقه في القضاء، و لا المغتاب في السلامة، و لا الحسود في راحة القلب، و لا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد، و لا القليل التجربة المعجب برأيه في رئاسة. \* إن السفه خلق لئيم يستطيل على من دونه و يخضع لمن فوقه، و إياك و ما تعتذر منه. \* طبعت القلوب على حب من أحسن إليها و بغض من أساء إليها. \* من غضب عليك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءا اتخذه خلا، و من أراد أن تصفو له مودة أخيه فلا يمارينه و لا يمازحنه و لا يعده ميعادا فيخلفه. \* لا تخالطن من الناس خمسة: الأحمق، فإنه يريد أن ينفحك فيضرك، و الكذاب فإن كلامه كالسراب يقرب منك البعيد و يباعد منك القريب، و الفاسق فإنه يبيعك بأكلة، و البخيل فإنه يخذلك في وقت أحوج ما تكون إليه، و الجبان فإنه يسلمك. \* ثلاثة تجب لهم الرحمة: غنى افتقر، و عزيز قوم ذل، و عالم تلاعب به الجهال. \* إذا أراد الله برعية خيرا، جعل لهم سلطانا رحيمًا و وزيرًا عادلاً. \* إنما المؤمنون إخوة بنو أب و أم، و إذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخر. \* قال حفص بن أبي البختري: كنت عند أبي عبد الله الصادق و دخل عليه رجل، فقال لي: أ تحبه؟ قلت: نعم، قال: و لم لا تحبه؟ و هو أخوك و شريكك في دينك، و عونك على عدوك، و رزقه على غيرك. \* الانتقاد عداوة، و قلة الصبر فضيحة و إفشاء السر سقوط.

\*إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة. طوبى لمن جعل بصره في قلبه ولم يجعل بصره في عينه. هذا قليل من كثير في هذا الباب فإن تراثه الفكرى و تعاليمه القيمة لا يمكننا الإحاطة بها الآن. و من الخير للعلم و الإنسانية أن يضاعف العاملون منا جهودهم لجمع المتفرق من ذلك التراث الثقافى الفكرى من مظانه، و هو كثير حافل. و لنا فى تعاليمه كفاية على إيضاح ما كان يبذله من النصح لأفراد الأمة، و يجهد نفسه فى معالجة النفوس من أمراض فواتن الدنيا، و غريزة الطمع التى تحول خير المجتمع إلى شر يسلب راحة الضمير، و يودع فيه القلق و النكد، و يفتح باب الظلم و التباغض. هذا من الناحية الأخلاقية و التعاليم الإسلامية. أما ما يتصل بناحية العلوم من تفسير و فقه و حديث و حكمة و كلام و غيرها، فليس هذا محل التعرض لذلك، و ستقف على البعض منه فى مطاوى البحث، عند التعرض لآرائه و فقهه فى الأجزاء القادمة إن شاء الله. و سيأتى- إن شاء الله- بيان لبعض حكمه و مواعظه التى كان يلقيها على مسامع طلاب العلم، و وفود الأقطار الإسلامية. فإنه عليه السلام لم يدخر نصحا، و لم يأل جهدا فى توجيه النصح لكل أحد، فتجد له فى كل مناسبة قولاً و فى كل مجال حكمة، و لكل مشكلة حلا. و قد تضمنت كتب الأخلاق، و الحديث، و الأدب الشئ الكثير من تلك النصائح و الحكم و المواعظ التى كان يتلقاها منه كبار علماء عصره الذين قصدوه على اختلاف مراتبهم، فانتهلوا من معارفه، و كان ذلك فخرا و اعتزازا لهم.



تلامذته ورواة حديثه

### الأمويون و حديث أهل البيت:

لا بد لنا ونحن في معرض الحديث عن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام من أن نتعرف على بعض المنتمين إليها والمتخرجين منها، وهم من حملة العلم ورجال الفكر الذين تركوا للأجيال أهم ما يخلفه العقل الإنساني من إنتاج وإبداع. وليس من شك في أن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت تمتاز بطابع الانفصال عن الدولة، في عدم الخضوع لتوجيهات الحكام، والسير في ركابهم، فلم تتعاون معهم، ولم تساند سلطاتهم، لأنها وجدتهم بعيدين كل البعد عن واقع الحكم الإسلامي، الذي يضمن تقدم الأمة في جميع مجالات الحياة، ويتكفل سعادة المجتمع في جميع الظروف. وبهذا فقد قاومت السلطة انتشار ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنعت الناس عن الاتصال بهم والرواية عنهم. ورغم ذلك كله فقد استطاعت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام أن تجتاز تلك العقبات، فكان لها السبق في نشر العلم، والفضل في تحرير الفكر الإسلامي. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى الفرق بين تدخل الدولة الأموية في معارضتها لانتشار ذكر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين تدخل الدولة العباسية في ذلك. فلم يكن الأمويون يتخذون الأعياب سياستهم من وراء الستر ويعارضون أهل البيت من طريق الخفاء والتكتم كما فعلته الدولة العباسية في أول عهدها، بل كان أمرهم ظاهرا لا خفاء عليه، وكان أبرز شيء عندهم هو العدا لأهل البيت وعقاب أنصارهم، فقد كانوا يصبون جام غضبهم على من يروى عن أهل البيت أو ينقل عنهم

فتوى، لأن ذلك يمس شؤون الدولة، فأبعدوا الفقهاء الذين يقفون لجانب الحق، ولا يراعون جانب أغراض الدولة و مصالحها الخاصة، و قربوا إليهم من جعلوه قنطرة للوصول إلى تلك الأغراض، كما أنهم اتخذوا مواليتهم للفتيا و رفعوا من شأنهم: كسليمان بن موسى الأشدق مولاهم الأموى المتوفى سنة 119 هـ- كان مفتى دمشق و عالمها. و عبد الله بن ذكوان المتوفى سنة 130 هـ- مولاهم الأموى أحد الرواة عن أبى هريرة. قال الليث: رأيت أبا الزناد و خلفه ثلاثمائة طالب، و قال الذهبي: ولى بعض أمور بنى أمية. و غيرهم من الموالى الذين شجعهم الأمويون، و جعلوا لهم منزلة فى المجتمع و يدا فى التشريع الإسلامى. منهم: نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة 117 هـ. و كان ابن عمر يقول له: اتق الله و يحك يا نافع و لا تكذب علىّ كما كذب عكرمة على ابن عباس (1). و سليمان بن يسار أخو عطاء المتوفى سنة 107 هـ- جعلوه للفتيا فى المدينة. و مكحول مولى بنى هذيل المتوفى سنة 113 هـ- كان عالم دمشق و مرجع الفتيا. و أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج مولى بنى مخزوم المتوفى سنة 140 هـ، كان عالم المدينة و مفتيها. و سليمان بن طرخان المتوفى سنة 143 هـ. و إسماعيل بن خالد البجلي مولاهم المتوفى سنة 145 هـ. و عكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة 105 هـ. و ناهيك ما لعكرمة من منزلة لأحاديثه و أفاعيله، و غيرهم مما يطول ذكرهم. و على كل حال فقد كان الأمويون يقربون من يرون فيه أهلية لتنفيذ أغراضهم، و لذلك غضبوا على سعيد بن المسيب المتوفى سنة 93 هـ- و ضربوه و شهروه فى المدينة، لأنه خالف غرض الدولة، و لقي غيره من العلماء تنكيلا فى سبيل ذلك. و خلاصة القول أن الأمويين كان اتجاههم للسياسة و قد ابتعدوا عن شؤون

ص: 414



الدين، فكان من سياستهم أن يقبلوا قول كل أحد ولا يسمعون لأهل البيت قولاً، ويعاقبون من يذکرهم في ذلك. كما يحدثنا الإمام أبو حنيفة عند ما دعى لیسأل عن مسألة فقهية من قبل أحد الأمويين. قال أبو حنيفة: فاسترجعت في نفسي لأنني أقول فيها بقول علي رضي الله عنه وأدين الله به، فكيف أصنع؟ قال ثم عزمت أن أصدقه وأفتيه بالدين الذي أدين الله به، وذلك أن بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي، ولا يأخذون به، إلى أن يقول: وكان علي لا يذكر في ذلك العصر باسمه، وكانت العلامة بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ. وكان الحسن البصري يقول فيه: أخبرنا أبو زينب (1). ويعطينا الحسن البصري (2) صورة جلية عن ذلك الاهتمام والجهد الذي بذله الأمويون في معارضة حديث أهل البيت، فقد كان الحسن مع قربه من الدولة وعظيم منزلته في المجتمع إذا أراد أن يحدث عن علي عليه السلام يقول: قال أبو زينب، ويظهر الابتعاد عن علي عليه السلام حتى ظهر منه ما يوجب الإنكار عليه فقال له أبان بن عياش: ما هذا الذي يقال عنك أنك قتلته في علي عليه السلام؟! فقال: يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة-يعني بني أمية-لولا ذلك لسال بي أعشب (3). ولنا بحاجة إلى إقامة الدليل على عظيم اهتمام الأمويين في معارضة حديث أهل البيت وخصومتهم لهم ومعاقبة من يتقرب إليهم. يقول الشعبي: ما ذا لقينا من آل أبي طالب؟ إن أحببناهم قتلنا، وإن أبغضناهم دخلنا النار (4). وقد برهن الأمويون على ذلك بما احتفظ التاريخ بكثير منه. وعلى أي حال فقد اشتدت المحنة على المسلمين، وأصبح الأكثر يجازف

ص: 415

1-1) مناقب أبي حنيفة للمكي ج 1 ص 171.

2-2) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري مولى أم سلمة المتوفى سنة 110 هـ-كان مناصراً لبني مروان، ودولتهم مدينة له بقوة دفاعه كما هي مدينة للحجاج بقوة بطشه حتى قيل: (لولا لسان الحسن البصري وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية في مهدها وأخذت من وكرها).

3-3) الحسن البصري لأبي الفرج بن الجوزي ص 7. وابن أبي الحديد ج 1 ص 396. [1]

4-4) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 112. [2]

بحياته لاختراق تلك الخطوط، واجتياز تلك الحدود، مما أوجب سحق الدولة عليهم. ولما فسح المجال بضعف الدولة الأموية ووجد المسلمون بعض الحرية، ازدحموا على أبواب بيت النبوة لأخذ التعاليم ورواية الحديث، فكانت للإمام الباقر عليه السلام حلقة في المدينة لا تعقد أى حلقة علمية إلا بعد انتهائه من الحديث وكذا في مكة. وقد احتفظ الحجاز بولائه لأهل البيت والمدينة بصورة خاصة، وكان الناس بأشد ما يكونوا من الحاجة إلى الأخذ من أهل المدينة، لقرب عهدهم من الرسول وفيها علماء الصحابة، وهم أقوى الناس في الحديث، حتى أن أكثر الصحابة الذين كانوا في سائر الأقطار يشدون الرحال إلى المدينة ليتأكدوا من صحة ما يسمعون من الحديث. وكثرت الهجرة إلى دار الهجرة، وتابعت الوفود من أطراف البلاد ونشطت الحركة العلمية في عصر الإمام الصادق عليه السلام ورفعت الموانع، فكان بيته جامعة إسلامية يؤمها طلاب العلم ورواد الحقيقة، فكان عدد المنتمين لمدرسته أربعة آلاف رجل. وقد أفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن عقدة المتوفى سنة 230 هـ، فيهم كتابا ذكر فيه أربعة آلاف رجل ممن روى الحديث عن الصادق وذكر منهم الشيخ الطوسي المتوفى سنة 460 هـ يزيده على ثلاثة آلاف. وقال الشيخ نجم الدين في المعبر: «روى عن الصادق أربعة آلاف رجل وبرز بتعليمه من الفقهاء الأفاضل جم غفير إلى أن يقول: حتى كتبت من أجوبة مسائله أربعمئة مصنف لأربعمئة مصنف، سموها بالأصول» (1). وليس من الغريب أن يتأسس الإمام الصادق تلك الحركة العلمية فهو من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان يتصف بصفات الكمال التي بعثت الإعجاب في نفوس الأمة على

ص:416

---

1-1) انظر «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» الجزء الأول. [1]

اختلافهم في الآراء والمعتقدات. وله القدم الراسخ والباع الطويل في كل علم، والنظر الثاقب في جميع العلوم، فاشتهر ذكره في الحديث وسائر العلوم والفنون، حتى وجد في الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد.

### بعض المؤلفين من تلامذته:

وقد ألف تلامذته المختصون به كتباً في سائر العلوم والفنون. منهم: 1- أبان بن تغلب الربيعي أبو سعيد الكوفي المتوفى سنة 141 هـ. له كتاب (معاني القرآن) كتاب (القراءات) كتاب من الأصول على مذهب الشيعة (1). 2- علي بن يقطين المتوفى سنة 184 هـ. له كتاب ما سئل عنه الإمام الصادق من أمور الملاحم (2). 3- أبو حمزة ثابت بن أبي صفية الشمالي المتوفى سنة 150 هـ. له كتاب في التفسير، و كان من تلامذة الباقر والصادق. (3) 4- أبو بصير يحيى بن القاسم المتوفى سنة 150 هـ هو من تلامذة الباقر والصادق عليه السلام له تفسير القرآن، ذكره ابن النديم. 5- علي بن حمزة: أبي الحسن الكوفي البطائني من تلامذة الإمام الصادق. له كتاب جامع أبواب الفقه، ذكره النجاشي. 6- إسماعيل بن أبي خالد محمد بن مهاجر له كتاب محبوب في القضاء، ذكره الشيخ الطوسي. 7- المفضل بن عمر الكوفي، له كتاب التوحيد الذي أملاه عليه الإمام الصادق عند ما التقى المفضل بأحد الزنادقة وناظرة، وطلب من الإمام أن يملئ عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأملئ عليه الإمام الصادق تلك الدروس القيمة التي تحتوى على دلائل التوحيد، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم، وتأليف أجزائه، وكيف خلق الإنسان وتكوينه، وكيفية ولادته وتغذيته، وغرائزه وطبائعه، وبيان الدماغ وعظمته، وما فيه وفي سائر الأعضاء من عجيب

ص: 417

1-1) فهرست ابن النديم ص 308. [1]

2-2) فهرست ابن النديم ص 308. [2]

3-3) كشف الظنون ج 2 ص 444 و [3] فهرست ابن النديم ص 50. [4]

الصنع، وعظيم القدرة، وذكر الفؤاد والنخاع، والدم والأوردة والشرايين، وبيان قوى البدن من جاذبة و ماسكة و هاضمة و دافعة، و بيان تركيب بدنه و تنسيق أعضائه و انتصاب القامة و اعتدالها، و بيان الحواس و أعمالها و أسرارها و الوسائط التي بينها من ضياء و هواء، و ماهية الصوت و حقيقة الكلام، و المنطق و الكتابة و ما أعطى الإنسان من علم، و الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان، و ما يتوقف عليه نظام حياته، إلى غير ذلك. و قد شرحه الأستاذ الطيب الماهر محمد الخليلي شرحا وافيا بالعرض، و طبقه على العلوم الحديثة في مجلدين، و لا يزال مخطوطا نتمنى له الظهور لعالم النشر. 8- هشام بن الحكم المتوفى سنة 185 هـ. أبو محمد الشيباني الكوفي من تلامذة الإمام الصادق و ابنه موسى الكاظم عليه السلام، له من الكتب: كتاب (الإمام) كتاب (حدوث الأشياء). كتاب (الرد على الزنادقة)، كتاب (الأكف)، و غيرها. و قد ذكر له ابن النديم خمسة و عشرين كتابا (1). 9- محمد بن علي بن النعمان. أبو جعفر الأحول المعروف ب- (مؤمن الطاق) و تسميه خصومه (شيطان الطاق) من أصحاب أبي عبد الله الصادق، كان متكلمًا حاذقًا، له من الكتب: كتاب (الإمامة)، كتاب (المعرفة)، كتاب (الرد على المعتزلة)، كتاب في أمر طلحة و الزبير (2). و غير هؤلاء من تلامذة الإمام الصادق الذين ألفوا في عصره سائر العلوم و الفنون، كما ستقف عليه في بحث تدوين الفقه و الحديث و في أبواب أخرى من الكتاب. و نعود إلى الحديث عن بعض رواة حديث الإمام الصادق عليه السلام من كبار العلماء و حملة الحديث من رؤساء طوائف و أئمة مذاهب و غيرهم، مقتصرين على ذوى الشهرة منهم و من خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، و قد سلكنا طريق الاختصار لضيق المجال.

ص: 418

[1- 1] الفهرست لابن النديم ص 250. [1]

[2- 2] الفهرست. [2]

## تلامذته و رواة حديثه:

### 1- إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة 183 هـ. أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، روى عنه يزيد بن هرون وأحمد بن حنبل و خلق كثير، وثقه ابن معين، وأبو حاتم، والعجلي، وأحمد بن حنبل، وروايته عن الصادق في التهذيب و الكافي يرويهما عنه ابنه يعقوب.

### 2- إبراهيم بن زياد:

إبراهيم بن زياد البغدادي المتوفى سنة 228 هـ. روى له مسلم و أبو داود و النسائي.

### 3- إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة 191 هـ.

### 4- إبراهيم بن طهمان:

إبراهيم بن طهمان بن شعيب الهروي المتوفى سنة 168 هـ. كان أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، قال أبو نعيم: حدث عن جعفر بن محمد الصادق: وثقه أحمد، و أبو داود، و أبو حاتم.

### 5- إبراهيم بن علي:

إبراهيم بن علي بن الحسن بن رافع المدني. روى عنه أحمد بن محمد، و إبراهيم بن المنذر، و يعقوب بن حميد. خرج حديثه ابن ماجه.

### 6- إبراهيم بن مهاجر الأزدي:

روى عن حفص بن راشد و غيره، و ذكره الخطيب في المتفق.

### 7- إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى المتوفى سنة 184 هـ. أحد الأعلام روى عنه الشافعي و وثقه، و الثوري، و يحيى بن آدم. قال أحمد بن حنبل:

«كان قدريا معتزليا جهميا كل بلاء فيه» . وقال ابن عقدة: «ليس بمنكر الحديث» وقال ابن عدى: «هو كما قال ابن عقدة» . ذكره الشيخ الطوسي في رجال الصادق، وأن له كتابا مبوبا في

ص:419

الحلال و الحرام يرويه عن جعفر بن محمد. وقال بعض ثقات العامة: إن كتب الواقدي سائرهما إنما هي منه.

### 8- بسام بن عبد الله:

بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي، وثقه أحمد و يحيى بن معين. خرج له النسائي في صحيحه. قال ابن حجر: «صدوق من الخامسة» .

### 9- بشار بن قيراط:

بشار بن قيراط النيسابوري أبو نعيم، روى عنه عبد الله بن الوليد بن مهران و عمر بن رافع و نوح بن أنس، قال ابن عدى كان ينتحل الرأي، و روى عنه عمار بن الحسن.

### 10- بشار بن ميمون:

بشار بن ميمون الخراساني المتوفى سنة 180 هـ. سكن مكة، و قدم بغداد و حدث بها عن جعفر بن محمد، فترك الناس حديثه، نظرا لظروف سياسة الدولة التي تريد أن تطيع الناس بطابعها الخاص.

### 11- تليد بن سليمان:

تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي الأعرج المتوفى سنة 190 هـ، روى عنه أحمد بن حنبل و إسحاق بن موسى، خرّج حديثه الترمذى. قال ابن عقدة: إن له كتابا عن الصادق يرويه عنه جماعة.

### 12- الجراح بن مليح:

الجراح بن مليح الرواسي الكوفي المتوفى سنة 175 هـ. روى عنه ابنه و أبو قتيبة، و سفيان بن عتبة، و ابن مهدي. قال ابن سعد: ولى بيت المال ببغداد فى خلافة هرون، و كان ضعيفا فى الحديث. روى له البخارى فى الأدب المفرد، و مسلم فى صحيحه، و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة. قال أبو أحمد بن عدى: له أحاديث صالحة و روايات مستقيمة. و حديثه لا بأس به، و هو صدوق.

### 13- جرير بن عبد الحميد:

جرير بن عبد الحميد بن قرط أبو عبد الله الرازى القاضى المتوفى سنة





188 هـ. روى عنه ابن راهويه، و ابنأبى شيبه، و يحيى بن معين، و موسى القطان، و محمد بن قدامة و غيرهم. قال العجلي: كوفى ثقة نزل الرى. و قال النسائى: ثقة. و قال أبو قاسم: مجمع على ثقته، و هو من رجال الصحاح الستة. عدّه الشيخ فى رجاله من أصحاب الصادق. و قال ابن حجر فى التّريب: ثقة صحيح.

#### **14- حبيب بن النعمان:**

حبيب بن النعمان الأسدى أحد بنى عمر بن أسد. قال النجاشى: حبيب بن النعمان النجاشى رجل من بنى أسد من أهل البادية، له كتاب يرويه عن الصادق عليه السّلام. و قال ابن حجر: حبيب بن النعمان مقبول من السادسة. و ذكره ابن حبان فى الثقات. روى له أبو داود و ابن ماجه.

#### **15- حبيب بن يسار:**

حبيب بن يسار الكندى الكوفى. روى عنه زكريا بن يحيى الحميرى، و أبو الجارود، و يوسف بن صهيب و غيرهم. و ثقة ابن معين، و أبو زرعة، و أبو داود. و ذكره ابن حبان فى الثقات. قال ابن حجر: ثقة من الثالثة. ذكره الشيخ فى رجال الصادق و أخرج حديثه الترمذى و أبو داود.

#### **16- الحسن بن عياش:**

الحسن بن عياش بن سالم الأسدى أبو محمد الكوفى المتوفى سنة 172 هـ. روى عنه ابن مهدي و أحمد بن يونس. و ثقّه ابن معين و النسائى و ابن حبان. خرج له مسلم و الترمذى و النسائى.

#### **17- الحكم بن عتبة:**

الحكم بن عتبة أبو محمد الكندى مولا هم المتوفى سنة 113-114 هـ. روى عنه الأعمش، و منصور، و أبو إسحاق السبيعى، و الشيبانى و غيرهم و هو من رجال الصحاح الستة. ذكره النجاشى فى رواة الصادق، روى له فى الكافى و التهذيب و النهاية. قال ابن حجر: ثقة ثبت فقيه. و قال ابن عيينة: ما كان بالكوفة بعد إبراهيم و الشعبى مثل

الحكم. وثقه أبو حاتم وابن معين. وقال العجلي: كان صاحب سنة واتباع، وكان فيه تشيع إلا أن ذلك لم يظهر منه. وقد نص على تشييعه شعبة بن الحجاج وابن قتيبة.

### 18-الحارث:

ابن عمران الجعفرى المدنى خرج حديثه ابن ماجه، وروى عنه عبد الله بن عمر بن محمد المعروف بمشكدانه، و على بن محمد الموصلى، و محمود بن غيلان.

### 19-الحارث:

ابن عمير البصرى نزيل مكة، روى عنه ابنه حمزة، و عبد الرحمن بن مهدي و جماعة، و كان حماد بن زيد يقدمه و يثنى عليه و ثقه ابن معين و خرج حديثه الأربعة.

### 20-حميد بن قيس:

حميد بن قيس الأعرج المتوفى سنة 130 هـ. من رجال الصحاح الستة. روى عنه معمر و السفينان و مالك بن أنس و غيرهم.

### 21-حماد بن عيسى:

حماد بن عيسى الجهنى المدنى نزيل البصرة المتوفى سنة 208 هـ. خرج حديثه الترمذى و ابن ماجه. و روى عنه إسحاق الجوزجاني و محمد بن بكار البصرى و محمد بن المثنى و غيرهم.

### 22-الحارث بن عمران الأسدى:

الحارث بن عمران الأسدى. روى عنه أبو سعيد الأشج، و خرج حديثه ابن ماجه.

### 23-حاتم بن إسماعيل:

حاتم بن إسماعيل المدنى أبو إسماعيل الحارث مولى بنى عبد الدار المتوفى سنة 186-187 هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح و روى عنه يحيى بن سعيد القطان، و إبراهيم بن حمزة، و هرون بن معروف، و عثمان بن أبى شيبه و محمد بن مهران و غيرهم.

## 24- داود بن الزبرقان:

داود بن الزبرقان الرقاشى أبو عمر البصرى ثم البغدادي المتوفى سنة 186 هـ. روى عنه سعيد بن عروة، وبقية وعلی بن حجر وشعبة بن الحجاج وهو من شيوخه وأبو صالح المصرى والحسن بن عرفة وغيرهم، ذكره فى جامع الرواة وعده ابن حجر من الطبقة الثامنة. خرج حديثه الترمذى وابن ماجه.

## 25- الربيع بن حبيب:

الربيع بن حبيب العبسى مولا هم الكوفى، روى عنه وكيع وغيره. وثقه ابن معين. وقال البخارى: منكر الحديث، خرج حديثه ابن ماجه.

## 26- رحيل:

رحيل-بالمهملة مصغر-ابن معاوية بن حديج الجعفى، روى عنه أخوه زهير، وشجاع بن الوليد. وثقه ابن حبان. وخرج حديثه أبو داود و الترمذى. قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

## 27- رقبة:

رقبة بن مصقلة العبدى الكوفى أبو عبد الله المتوفى سنة 129 هـ. روى عنه سليمان التميمى، وأبو عوانة، وابن فضل. قال أحمد: ثقة مأمون وعده ابن حجر من السادسة. خرج حديثه البخارى ومسلم و الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه فى التفسير.

## 28- الركين بن الربيع:

الركين بن الربيع بن عميلة أبو الربيع الكوفى المتوفى سنة 131 هـ. روى عنه شعبة، والثورى ومعتز بن سليمان. وثقه النسائى، وخرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد، ومسلم فى صحيحه والأربعة. قال ابن حجر: ثقة من الرابعة.

## 29- زكريا بن إسحاق:

زكريا بن إسحاق المكى المتوفى سنة 148 هـ. وثقه البخارى وأبو داود وابن معين. وهو من رجال الصحاح الستة. وكان يرمى بالقدر. و وثقه ابن معين وابن حجر.

### 30- زياد بن سعد:

زياد بن سعد الخراساني أبو عبد الرحمن المكي نزيل اليمن. روى عنه ابن جريح، و همام و مالك بن أنس، و هو من رجال الصحاح الستة. قال النسائي: ثقة ثبت. ذكره ابن حجر في الطبقة السادسة.

### 31- زيد بن عطاء:

زيد بن عطاء بن السائب الكوفي الثقفى. روى له الترمذى و أبو داود.

### 32- زهير بن محمد التميمي:

زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة 162 هـ. تقدم فى الجزء الأول.

### 33- زيد بن الحسن:

زيد بن الحسن القرشى الأنماطى. روى عنه إسحاق و ابن المدينى. و خرج حديثه الترمذى فى صحيحه.

### 34- سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح أبو عثمان الكوفى. روى عنه الشافعى و يحيى بن آدم. قال أبو داود: صدوق يذهب إلى الأرجاء. و قال ابن حجر: صدوق يتهم، رمى بالأرجاء و كان فقيها من كبار التاسعة. خرج حديثه أبو داود و النسائى.

### 35- سعيد بن عبد الجبار:

سعيد بن عبد الجبار الزبيدى أبو عثمان (أو عثيم) الحمصى، خرج له ابن ماجه، روى عنه محمد المقدمى، و هشام بن عبيد الله، و يحيى بن المغيرة الرازى و غيرهم.

### 36- سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحى أبو عبد الله المدنى المتوفى سنة 176 هـ. وثقه ابن معين، و روى عنه ابن وهب، و محمد بن سليمان، و على بن حجر. روى له مسلم و أبو داود و النسائى و الترمذى و ابن ماجه.



### 37- سلمة بن كهيل:

سلمة بن كهيل الحضرمي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة 121 هـ. روى عنه ابنه يحيى وشعبة وحماد بن سلمة وغيرهم، وهو من رجال الصحاح الستة. قال ابن المدينة: له نحو مائتين وخمسين حديثا. وثقه أحمد. وقال ابن حجر: ثقة في الرابعة. كان من البترية. وكان من تلامذة الباقر والصادق، وقد ذمه الإمام الباقر مع جماعة بقوله: إنهم أضلوا كثيرا ممن ضل من هؤلاء، وإنهم ممن قال الله عز وجل: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ [البقرة:8].

### 38- سليمان بن مهران الأعمش:

سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي (1) أبو محمد الكوفي الأعمش المتوفى سنة 147-148 هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، وروى عنه المذاهب البائدة. روايته عن الصادق في كتاب من لا يحضره الفقيه في نكت الحج.

### 39- سليمان:

سليمان بن بلال التيمي القرشي مولاهم أبو محمد المتوفى سنة 172 هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. وروى عنه أبو عامر العقدي، وابن المبارك، ومعلی بن منصور، وعبد بن وهب وغيرهم. وثقه ابن سعد، وابن عدي، وأحمد بن حنبل، ونص ابن داود على توثيقه وذكره في أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا، وأكثر علماء الرجال يعدونه من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام (2) وقد أدرك عصر الإمام الرضا عليه السلام.

### 40- سفيان الثوري:

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (3) أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة 161 هـ. أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، وروى عنه المذاهب البائدة. كان كثير التردد على الإمام الصادق، وله أخبار كثيرة يرويها عنه ابن داود، والحلي والكشي.

ص: 425

1-1) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج 1. [1]

2-2) تهذيب التهذيب 4-175 و [2] تاريخ الإسلام للذهبي 6-45.

3-3) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج 1. [3]

#### 41-سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة 198 هـ. وهو أحد رؤساء المذاهب البائدة.

#### 42-سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي المتوفى سنة 176 هـ. أحد الأعلام. روى له أصحاب الصحاح ما عدا البخارى، وثقه أحمد وغيره. وذكره الشيخ الطوسى.

#### 43-سنان بن هرون:

سنان بن هرون البرجمى أبو بسر الكوفى، روى عنه وكيع و محمد بن سليمان. خرج له الترمذى فى صحيحه.

#### 44-سعيد بن طريف:

سعيد بن طريف الحنظلى الإسكافى الكوفى. روى عنه إسرائيل و ابن عليه. خرج حديثه الترمذى و ابن ماجة. قال ابن حجر: كان رافضيا من السادسة. عدّه الشيخ من أصحاب الصادق و رواياته مطروحة و غير مستقيم.

#### 45-سعيد بن أبي خثيم:

سعيد بن أبي خثيم بن رشد الهلالى أبو معمر الكوفى المتوفى سنة 180 هـ روى عنه أحمد بن حنبل و عبد الله بن أبي شيبة. وثقه ابن معين و غيره قال فى التقريب: أبو معمر الكوفى صدوق روى بالتشيع، خرج له الترمذى و النسائى.

#### 46-سعيد بن حسان:

سعيد بن حسان المخزومى المكى القاضى. روى عنه السفينان، و أبو أحمد الزبيرى، و وكيع، و أبو نعيم وغيرهم. وثقه ابن معين. و عدّه الشيخ من أصحاب الصادق. و قال ابن حجر صدوق له أوهام من السادسة. خرج حديثه مسلم و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة.

#### 47-سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح بن عثمان المكى، أصله من خراسان أو الكوفة و قال ابن حجر: صدوق يرمى بالارجاء، و كان فقيها من كبار التاسعة.





روى عنه الشافعى ويحيى بن آدم، وأسد بن موسى، وأحمد بن يونس وغيرهم، قال ابن معين: ليس به بأس. وقال أبو داود وابن عدى: صدوق يذهب إلى الأرجاء. خرج له أبو داود والنسائى.

#### 48- سعيد بن مسلمة:

ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى ويقال مسلمة بن أمية بن هشام كان ينزل الجزيرة. خرج حديثه الترمذى وابن ماجه وروى عنه محمد بن إدريس الشافعى، وعمر بن إسماعيل بن مجالد، وعلى بن ميمون العطار. وغيرهم. ذكره الذهبى من رواة حديث الإمام الصادق عليه السلام وقال ابن داود: له كتاب وهو من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام.

#### 49- سالم بن عبد الواحد:

سالم بن عبد الواحد المرادى أبو العلاء الكوفى. روى عنه الصباح بن محارب وكيع. خرج له الترمذى. قال ابن حجر: مقبول. وقال الخزرجى: ضعفه ابن معين، وثقه ابن حبان.

#### 50- شعبة بن الحجاج:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى (1)، مولاهم أبو بسطام المتوفى سنة 160 هـ. الحافظ أحد الأئمة الأعلام. قال ابن المدينى: له نحو ألفى حديث. وقال أحمد: شعبة أمة وحده وهو من رجال الصحاح الستة. روى عن الإمام الصادق وحضر عنده. وروايته عنه فى التهذيب. يروى عنه يحيى بن أبى بكر وخلق كثير.

#### 51- شعيب بن خالد:

شعيب بن خالد البجلي. عده ابن حجر فى التقريب من الطبقة السابعة: قال النسائى: ليس به بأس. خرج حديثه أبو داود. وروى عنه يحيى بن العلاء الرازى، وعمر بن قيس، وحجاج بن دينار، وزهير بن معاوية وغيرهم.

ص: 427

## 52- الضحاك بن مخلد:

الضحاك بن مخلد الشيباني (1) أبو عاصم النبيل المتوفى سنة 212 هـ. و المتولد سنة 122 هـ. البصرى الحافظ أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة. من شيوخ البخارى و أحمد و ابن المدينى و غيرهم. قال النجاشى: روى عن جعفر بن محمد كتابا، يرويه عنه هرون بن مسلم و عباس بن محمد بن حاتم. و ذكر ذلك فى الخلاصة أيضا. و كان آخر تلامذة الإمام الصادق وفاة.

## 53- طلحة بن زيد:

طلحة بن زيد القرشى أبو مسكين الرقى، روى عنه شيبان بن فروخ، رماه أحمد و ابن معين بالوضع، روى له ابن ماجه.

## 54- عاصم بن عمر:

عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. وثقه ابن حبان، و ضعفه أحمد. روى عنه أبو داود الطيالسى، و إسماعيل بن أبى أويس، و محمد بن فليح، و عبد الله بن نافع، و ابن وهب و غيرهم. خرج حديثه الترمذى و ابن ماجه.

## 55- عاصم بن حميد:

عاصم بن حميد الحنات الكوفى، وثقه أبو زرعة. و قال ابن حجر: صدوق من السابعة، و روى عنه محمد بن عبد الله بن نمير، و يحيى الحماني، و إسماعيل بن موسى الفزارى، و أبو نعيم الطحان.

## 56- عاصم بن سليمان:

عاصم بن سليمان البصرى أبو عبد الرحمن المعروف بالكوزى المتوفى سنة 141 هـ. أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة. و روى عنه قتادة، و سليمان التيمى، و معمر بن راشد، و حماد بن زيد، و شعبة، و إسماعيل بن زكريا و غيرهم.

## 57- عامر بن السمط:

عامر بن السمط التميمى الكوفى أبو كنانة. وثقه ابن حجر و ابن القطان، و خرج له النسائى فى مسند عليّ.

ص: 428

## 58-عتبة بن عبد الله:

عتبة بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود أبو العميس الهذلي. روى عنه شعبة، وأبو معاوية، وأبو أسامة، وثقه أحمد وابن معين. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، له نحو أربعين حديثاً.

## 59-عثمان بن فرقد:

عثمان بن فرقد العطار البصرى (1). روى له البخارى و الترمذى.

## 60-عثمان بن عبد الرحمن:

عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهرى أبو عمر المدنى الوقاص، ويقال له المالكى نسبة إلى جده الأعلى أبى وقاص مالك المتوفى فى خلافة الرشيد. كذبه ابن معين، قال ابن حجر متروك.

## 61-عثمان بن مطر:

عثمان بن مطر البصرى الشيبانى. روى عنه مسلم بن إبراهيم. و خرج حديثه ابن ماجة.

## 62-عطاء بن مسلم:

عطاء بن مسلم الخفاف الحلبى أبو مخلد المتوفى سنة 190 هـ. روى عنه ابن المبارك، وأبو توبة، وعبد الرحمن بن يزيد، وهشام بن عمار. وثقه ابن معين، و خرج حديثه الترمذى فى الشمائل، والنسائى فى السنن.

## 63-على بن حمزة:

على بن حمزة أبو الحسن الأسدى المتوفى سنة 180-182 هـ. المعروف بالكسائى العالم النحوى أحد الأئمة القراء من أهل الكوفة استوطن بغداد و كان قد تعلم النحو على كبر سنه، وقد روى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام و جماعة من أعلام الحديث ذكره الذهبى.

ص: 429

#### 64-علي بن صالح:

علي بن صالح أبو الحسن الهمداني الكوفي المتوفى سنة 151 هـ. خرج له مسلم والأربعة، وروى عنه ابن نمير ووكيع وأبو نعيم. وثقه أحمد، وابن معين. قال ابن المديني: له نحو ثمانين حديثاً، وقال ابن حجر: ثقة عابد من الطبقة التاسعة.

#### 65-العوام بن حوشب:

العوام بن حوشب الشيباني الربيعي أبو الحرث الواسطي المتوفى سنة 148 هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. قال العجلي ثقة روى عنه نحو مائتي حديث.

#### 66-عيسى بن عمر:

عيسى بن عمر الأسدي الكوفي المتوفى سنة 156 هـ. المعروف بالهمداني. روى عنه ابن المبارك ووكيع. وثقه ابن معين والنسائي. خرج له الترمذي والنسائي.

#### 67-عبد الجبار:

عبد الجبار بن العباس الهمداني الشامي. روى عنه مسلم بن قتيبة، وابن المبارك. قال أبو حاتم، وابن حجر: صدوق روى له البخاري في الأدب المفرد، و الترمذي في صحيحه.

#### 68-عبد العزيز:

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون التميمي مولا هم المدني المتوفى سنة 166 هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. روى عنه الليث وابن مهدي، وخلق كثير. وثقه ابن سعد، وابن حبان. وقال ابن معين: ثقة كان يرى القدر، ثم رجع. ذكره الشيخ والأردبيلي والأسترآبادي في رواة حديث الصادق عليه السلام.

#### 69-عبد العزيز:

عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي أبو محمد الجهني مولا هم المدني

المتوفى سنة 187 هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح و روى عنه إسحاق بن راهويه، و يعقوب الدورقي. و خلق كثير، وثقه ابن المديني و غيره.

#### **70-عبد العزيز:**

عبد العزيز بن عمران بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني المتوفى سنة 197 هـ. خرج حديثه الترمذي، و روى عنه ابنه سليمان، و يعقوب بن محمد الزهري، و علي بن محمد المدائني، و محمد بن عيسى الطباع، و أبو غسان الكناني، و إبراهيم بن المنذر و غيرهم.

#### **71-عبد العزيز:**

عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي المدني المتوفى في خلافة المنصور، روى له البخاري في الأدب المفرد، و مسلم و الترمذي في الصحيح و ابن ماجة في السنن.

#### **72-عبد الوهاب:**

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى سنة 194 هـ. من شيوخ الشافعي، و أحمد بن حنبل، و يحيى بن معين، و ابن المديني و غيرهم.

#### **73-عبد الملك بن جريح:**

عبد الملك بن جريح (1) أحد الأعلام، و من رجال الصحاح توفي سنة 149 هـ.

#### **74-عبد الله بن رجاء:**

عبد الله بن رجاء المكي أبو عمران المكي المتوفى سنة 180 هـ. روى عنه أحمد بن حنبل، و يحيى بن معين و إسحاق و خلق كثير. خرج حديثه مسلم و أبو داود و النسائي و ابن ماجة و البخاري في جزء القراءة، وثقه ابن معين، و أبو حاتم، و ابن سعد.

ص:431

---

[1-1] الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [1]

## 75- عبد الله بن جعفر:

عبد الله بن جعفر بن نجیح السعدی مولاہم المدنی المتوفى سنة 178 هـ. روى عنه قتيبة وعلی بن حجر. خرج حديثه الترمذی و ابن ماجة.

## 76- عبد الله بن جعفر:

عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة أبو محمد المدنی المتوفى سنة 170 هـ. وثقه العجلی. وقال ابن معین: صدوق. خرج حديثه مسلم والأربعة.

## 77- عبد الله بن الزبير:

عبد الله بن الزبير بن عيسى الأسدی المکی المتوفى سنة 219 هـ. من شیوخ البخاری. خرج له فی صحیحہ، و روى له أبو داود الترمذی، و ابن ماجة فی التفسیر، له كتاب عن الصادق يرويه عنه يعقوب الأسدی.

## 78- عبد الله بن دكين:

عبد الله بن دكين أبو عمر الكوفی نزيل بغداد. خرج حديثه البخاری فی الأدب المفرد، روى عنه يزيد بن هرون، و أبو نعيم، و موسى بن إسماعيل، و محمد بن بكار الريان وغيرهم، وثقه أحمد.

## 79- عبد الله بن ميمون:

عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي مولاہم المکی، روى عنه أبو الخطاب زياد بن يحيى، و مؤمل بن أهاب، و يعقوب بن حميد، و أبو الأزهر وغيرهم. خرج حديثه الترمذی، ضعفه النسائي، وقال أبو حاتم: منكر الحديث. و وثقه ابن داود الحلبي.

## 80- عبيد الله بن عمر:

عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عثمان المدنی المتوفى سنة 147 هـ. أحد الفقهاء السبعة والعلماء الاثبات. و من رجال الصحاح

السةة. روى عنه شعبة و السففانان و اللفث و معمر و خلق كالف. و ذكر حءفئه عن الصاءق أبو نعفم فى الءلفة. و عءه الشفخ و رفره من رءاله.

#### **81-علف بن هاشم:**

علف بن هاشم بن البرفء العابءى أبو الحسن الكوفى المءوفى سنة 180 هـ. أءء الأعلام و من شفوخ أءمء بن ءنبل. و أءمء و ابن معفن، و ابن منفع، و رفرههم. ءرف حءفئه البءارى فى الأءب المفرفء، و مسلم فى صءفءه و الأربعة.

#### **82-علف بن عبء الأعلى:**

أبو الحسن الكوفى الأءول ءرف حءفئه أبو ءاوء، و النسائى و الترمذى، و ابن مافة، و روى عنه إبراهم بن طهمان، و هفثم، و زهفر بن معاوفة و رفرههم. و ثقه الترمذى، و قال أءمء و النسائى لفس به بأس، و ذكره ابن ءبان فى الثقاء.

#### **83-عمرو بن ءالء:**

عمرو بن ءالء القرشى. مولى بنى هاشم. روى عنه إسماعل بن فونس، و عباء بن كالف البصرى، و ءعفر بن زفاء، و رفرههم. ءرف حءفئه ابن مافة.

#### **84-عمرو بن هرون:**

عمرو بن هرون البلءى المءوفى سنة 194 هـ. كان كالف الءءفء، بصفر بالقراءاء. و كان من كبار الطبقة الرابعة. و ءرف حءفئه الترمذى و ابن مافة. و روى عنه الرازفون، و هشام بن عبفء الله و ابن ءمفء و كان عنءه من الصاءق عفله السلام سءون حءفءا. و كءب عنه أءمء بن ءنبل.

#### **85-عمر بن قفس:**

عمر بن قفس الملاءى الكوفى المءوفى سنة 146 هـ. روى عنه إسماعل بن أبى ءالء و الثورى و إسماعل بن زكرفا، و مصعب بن سلام و رفرههم، و ثقه أبو ءاءم، و أءمء و النسائى، و روى له البءارى فى الأءب المفرفء، و مسلم فى صءفءه و الأربعة.

#### **86-عمر بن ءفنار:**

عمر بن ءفنار المكى أبو مءمء الأءرم الءمءى مولا هم المءوفى سنة 126 هـ.





روى عنه جماعة كمالك و شعبة و داود. أخذ عن الباقر و الصادق عليه السّلام و حديثه فى الصحاح الستة.

### 87- فضيل بن عياض:

فضيل بن عياض بن السعد بن بسر التميمى (1) المتوفى سنة 187 هـ.

### 88- فضيل بن مرزوق الكوفى:

فضيل بن مرزوق الكوفى، روى عنه يحيى بن آدم وغيره، وثقه السفينان و قال ابن معين: شديد التشيع. خرج حديثه مسلم و الأربعة.

### 89- فليح بن سليمان:

فليح بن سليمان بن أبى المغيرة الخزاعى أبو يحيى الكوفى المتوفى سنة 168 هـ. أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، روى عنه ابن وهب و أبو عامر و خلق كثير، ضعفه النسائى، و قال ابن حجر: صدوق كثير الخطأ.

### 90- القاسم بن معن:

القاسم بن معن-بفتح الميم و سكون العين-ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلى المتوفى سنة 175 هـ. أبو عبد الله الكوفى روى عنه ابن مهدى و أبو نعيم وغيره، وثقه أبو حاتم. خرج له أبو داود و النسائى.

### 91- القاسم بن عبد الله:

القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب العمري العدوى المتوفى سنة 150 هـ. روى عنه محمد بن الحسن بن زبالة المدنى و عبد الله بن وهيب و آخرون، رماه أحمد بن حنبل بالكذب. خرج له ابن ماجه.

### 92- محمد بن إسماعيل:

محمد بن إسماعيل بن جابر بن ربيعة أبو عبد الله الكوفى المتوفى سنة 167 هـ. قال ابن حجر: صدوق يتشيع، خرج حديثه النسائى فى الخصائص، و روى



عنه يحيى بن آدم، وأبو نعيم، ويحيى الحماني، ومحمد بن الحسن بن المختار، ذكره ابن أبي حاتم من رواة حديث الصادق عليه السلام.

### 93-محمد بن إسحاق:

محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة 151 هـ. روى عنه يحيى الأنصاري وشعبة وحمادان وخلق كثير، خرج حديثه مسلم والأربعة.

### 94-محمد بن فليح:

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة 197 هـ. خرج له البخاري والنسائي وابن ماجه، روى عنه إبراهيم بن المنذر بن أبي علقمة الغروي، ومحمد بن يعقوب الزبيري، وأبو سعيد الأشج.

### 95-محمد بن الحسن:

محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني أبو الحسن الكوفي نزيل واسط. خرج حديثه الترمذي، وروى عنه إسماعيل بن إبراهيم الترمذاني، والحسن بن حماد الحضرمي، وأحمد بن منيع وغيرهم.

### 96-محمد بن راشد:

أبو عبد الله محمد بن راشد المكحولى الدمشقى الخزاعى نزيل البصرة المتوفى سنة 171 هـ. خرج حديثه أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجه، و روى عنه الثورى و شعبة- و هما من أقرانه- و ابن المبارك و ابن مهدي، و زيد بن أبى الزرقاء و الوليد بن مسلم، و يزيد بن هرون وغيرهم. وثقه ابن معين، وقال عبد الرزاق ما رأيت رجلا أروع منه فى الحديث وقال أحمد بن حنبل: إنه ثقة ثقة. و سئل عنه أبو حاتم فقال: إنه كان رافضيا. وقال أبو زرعة: لم يكتب عنه أبو مسهر لأنه كان يرى الخروج على الأئمة (أى على حكام عصره). قال الذهبى بعد نقله لقول أبى حاتم و نسبة ابن راشد للرفض: و فيه نظر فكيف يكون دمشقى نزيل البصرة رافضيا؟! و الله أعلم. و بعد قليل من مرافقة الذهبى فى إشكاله و تأمله و تعجبه من رجل شامى ينسب

إلى الرفض وهى نسبة تحط بمقام الشخص، و تستوجب ترك حديثه و تعرضه لكل نقص و تهجم. نعم بعد قليل يرتفع إشكال الذهبى و يتضح له الأمر فيقول: ثم تأملت فوجدته (أى محمد بن راشد الرافضى) خزاعيا و خزاعة يوالون أهل البيت (1). و نحن هنا لا نود أن نخرج عن الموضوع فنعلق على هذا الكلام و لا- نقول أكثر من قولنا: بأن موالاتة أهل البيت و حبهم هو علامة الرفض عندهم و الرفض كما أوضحته عبارات كثير من المحدثين موجب للرمى بالزندقة و الخروج عن الإسلام، و موجب لترك الرواية، و هذه من جنائيات سوء الفهم، و التحدى لنواميس الإسلام، و الرد لوصايا النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأله، و لزوم حبهم، و وجوب موالاتهم.

#### 97-محمد بن مجيب:

محمد بن مجيب الثقفى الكوفى سكن بغداد و كان كثير الرواية عن جعفر بن محمد، و روى عنه عبد الرحمن بن عفان، و عبد الرحمن بن نافع، و عيسى بن محمد بن مسلم و الفيض بن وثيق.

#### 98-محمد بن ثابت:

محمد بن ثابت بن أسلم البنانى البصرى. روى عنه عبد الصمد بن عبد الوارث، و جعفر بن سليمان، و أبو داود الطيالسى، و أبو عبيدة و خلق كثير خرج حديثه الترمذى.

#### 99-محمد بن جعفر:

محمد بن جعفر بن أبى كثير المدنى، روى عنه خالد بن مخلد و سعيد بن أبى مريم و ثقه ابن معين و قال ابن حجر فى التقريب: ثقة من الطبقة السابعة خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

#### 100-معلى بن هلال:

معلى بن هلال الحضرمى أبو عبد الله الكوفى. روى عنه قتيبة كذبه أحمد و غيره، و خرج له ابن ماجه.

ص:436

### 101-معمر بن راشد:

معمر بن راشد الصنعاني أبو عروة البصري المتوفى سنة 153 هـ. قال ابن حجر: ثقة ثبت فاضل. روى عنه أيوب و الثوري و خلق كثير، خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

### 102-معمر بن يحيى:

معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي، وثقه أبو زرعة، و خرج حديثه البخارى فى صحيحه.

### 103-منصور بن المعتمر:

منصور بن المعتمر السلمى أبو عتاب الكوفى المتوفى سنة 132 هـ. روى عنه خلق كثير، و هو أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، و روى عن الباقر و الصادق عليه السلام، قال العجلي: ثقة ثبت له ألفى حديث.

### 104-المنهال بن عمر:

المنهال بن عمر الأسدى مولا هم الكوفى، وثقه ابن معين و النسائى، و خرج له الحسين و الباقر و الصادق عليه السلام.

### 105-ميسرة بن حبيب:

ميسرة بن حبيب النهدي أبو حازم الكوفى، روى عنه شعبة و إسرائيل و وثقه ابن معين و العجلي و النسائى. خرج له البخارى فى الأدب المفرد و أبو داود و الترمذى و النسائى، قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

### 106-مالك بن أنس:

مالك بن أنس الأصبحى (1) المتوفى سنة 179 هـ. أحد أئمة المذاهب الأربعة.

### 107-مكى بن إبراهيم:

مكى بن إبراهيم الحنظلى أبو السكن البلخى المتوفى سنة 215 هـ. أحد الحفاظ و من شيوخ البخارى روايته فى الصحاح الستة.



### 108-مسعود بن سعد:

مسعود بن سعد الكوفي أبو سعد الجعفي، روى عنه أبو خالد الأحمر و أبو غسان النهدي. قال ابن معين: ثقة من خيار عباد الله، وقال ابن حبان يكتب حديثه. خرج له مسلم و النسائي.

### 109-مسلم بن خالد:

مسلم بن خالد المخزومي مولاهم أبو خالد المكي المعروف بالزنجي المتوفى سنة 189 هـ. روى عنه الشافعي و ابن وهب و غيره وثقه ابن معين، خرج له أبو داود و ابن ماجه.

### 110-مصعب بن سلام:

مصعب بن سلام التميمي الكوفي نزيل بغداد، روى عنه أحمد بن حنبل و أبو الأشج. قال ابن معين: ليس به بأس. وقال العجلي: ثقة. خرج له الترمذي في صحيحه.

### 111-معاوية بن صالح:

معاوية بن صالح الحضرمي أبو عبد الرحمن الحمصي المتوفى سنة 158 هـ. عالم الأندلس و قاضيتها، روى عنه الثوري و الليث و ابن وهب، وثقه أحمد، و ابن معين. روى له مسلم و الأربعة.

### 112-معاوية بن عمار:

معاوية بن عمار البجلي الدهني المتوفى سنة 175 هـ. روى عنه يحيى بن سعيد، و معاذ بن معاذ و خلق كثير، وثقه ابن معين، و ابن داود. روى له مسلم و الترمذي و النسائي. قال في نهج المقال: له كتب يرويها عنه أصحابنا: كتاب الصلاة، كتاب يوم و ليلة، كتاب الطلاق، كتاب الدعاء.

### 113-معروف بن خربوذ:

معروف بن خربوذ-بفتح الخاء و الراء-مولى عثمان بن عفان المكي، روى عنه وكيع و غيره، خرج له البخاري و مسلم و أبو داود و ابن ماجه و هو من تلامذة الباقر و الصادق عليه السلام. و هو غير معروف الكرخي المتوفى سنة 200 هـ المدفون ببغداد و هو من علماء الشيعة و أصحاب الإمام الرضا عليه السلام و قبره ظاهر يزار.

#### 114-مفضل:

أبو جميلة مفضل بن صالح الأسدي الكوفي النخاس. خرج حديثه الترمذى، وروى عنه محمد بن عبيد المحاربي، وأحمد بن بديل الياقوت، و محمد بن إسماعيل الأحمسي وغيرهم.

#### 115-النعمان بن ثابت:

النعمان بن ثابت أبو حنيفة التيمي (1) مولا هم الكوفي المتوفى سنة 150 هـ رئيس المذهب الحنفي.

#### 116-نوح بن دراج:

نوح بن دراج النخعي مولا هم الكوفي القاضي المتوفى سنة 182 هـ، روى عنه سعيد بن منصور، وخرج له ابن ماجة في التفسير.

#### 117-هرون بن سعد العجلي:

هرون بن سعد العجلي، قال ابن معين: ليس به بأس. خرج له مسلم في صحيحه، وقال الكشي: هو زيدي. وقال ابن حجر: رمى بالرفض. و يقال رجع عنه.

#### 118-هرون بن موسى:

هرون بن موسى الأزدي مولا هم أبو عبد الله القارئ. روى عنه بهز بن أسد، و مسلم بن إبراهيم، وخلق كثير، خرج له البخاري و مسلم و الترمذى و النسائي و أبو داود، وثقه ابن معين. قال ابن حجر: ثقة مقرر إلا أنه رمى بالقدر من السابعة.

#### 119-هلال بن أبي حميد:

هلال بن أبي حميد أو ابن مقلص أبو أيوب الصيرفي الكوفي. روى عنه مسعر و شعبة و خرج له البخاري و أبو داود، و مسلم و الترمذى و النسائي.

#### 120-وهيب بن خالد:

وهيب بن خالد الباهلي البصري المتوفى سنة 165 هـ. أحد الحفاظ الأعلام



---

1-1) تقدمت ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

و من رجال الصحاح الستة. قال ابن سعد: حجة كثير الحديث. وقال في منهج المقال. وهيب بن خالد البصرى ثقة، وقال النجاشى: إن له كتابا يرويه عنه إسماعيل.

#### 121- يحيى بن سعيد:

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان (1) المتوفى سنة 198 هـ. أحد الأعلام و من الحفاظ المشهورين. روى عنه أصحاب الصحاح الستة، و هو من شيوخ أحمد و ابن معين.

#### 122- يحيى بن قيس:

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصارى المدنى أبو سعيد المدنى القاضى المتوفى سنة 144 هـ. روى عنه الأوزاعى و السفينان و خلق كثير، قال ابن المدينى: له ثلاثمائة حديث خرج له البخارى فى الأدب المفرد. قال ابن سعد: ثقة حجة.

#### 123- يحيى بن سليم:

يحيى بن سليم الطائفى أبو محمد القرشى نزيل مكة المتوفى سنة 193 هـ. روى عنه أحمد و إسحاق و قتيبة. احتج به البخارى و الجماعة. وثقه ابن معين و النسائى و ابن سعد.

#### 124- يعلى بن الحرث:

يعلى بن الحرث المحاربى الكوفى المتوفى سنة 168 هـ. روى عنه وكيع و ابن مهدى و جماعة، وثقه ابن معين، و خرج له البخارى، و مسلم و النسائى و الترمذى و ابن ماجه. و بهذه العجالة نكتفى عن التوسع فى ذكر الرواة إذ لا يسع المجال هنا لأكثر من هؤلاء و قد ذكرنا عددا وافرا منهم فى كتابنا عن حياة الإمام الصادق، كما أننا سنتعرض لذكر حملة فقهه من الشيعة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب. و سيأتى ذكر آخرين منهم فى بحثنا عن رجال الحديث من الشيعة فى الجزء

ص:440

---

[1-1] الإمام الصادق و المذاهب الأربعة-الجزء الأول. [1]

السادس من الذين خرّج حديثهم أصحاب الصحاح الستة ويتجاوز عددهم ثلاثمائة رجل.

## الرواية:

## إشارة

نظرا لاشتهار مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، إذ أصبحت جامعة إسلامية كبرى، تقصدها وفود الأمصار، فقد كثر المنتمون إليها من جميع الأطراف على اختلافهم في الآراء والمعتقدات، والميول والنزعات، ولهذا فلم يكونوا سواء في حسن الاستماع، وقوة الحفظ، وصدق اللهجة، وإخلاص النية. وربما كان فيهم من ذوى الأغراض السيئة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، لغاية في نفوسهم، فتعمدوا الكذب، ونسبوا إليه عليه السلام ما لم يصدر عنه أمثال: وهب بن وهب القاضى المعروف بأبى البخترى، فقد اشتهر هذا الرجل فى الكذب ذكره، وعرف أمره (1). وسالم بن أبى حفصة العجلى (2) والمغيرة بن سعيد، وصائد النهدي ومحمد بن مقلاص. وحيث كان لوضاع الأحاديث أخطر آفة على العلم، وأعظم خطر على الدين، فقد أعلن الإمام عليه السلام للملا وجوب الحذر، ولزوم التحفظ من هؤلاء الذين انحرفوا عن طريق الاستقامة والصواب، فكان يقول: والله ما الناصب لنا حربا بأشد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره. ويقول: إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا، وإنى أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندى حتى يتأوله على غير تأويله، وذلك انهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله وإنما يطلبون الدنيا، وكل يحب أن يدعى رأسا. وقد كان بعضهم يغير ما ينقله عنه بزيادة أو نقيصة. قال له رجل من أصحابه: يا ابن رسول الله قد بلغنا عنك أنك قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم. فقال أبو عبد الله إنى قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم. فإنه يقبل منكم. وكان يقول: إنا أهل البيت لا

ص: 441

1-1) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة-ج 1. [1]

2-2) هو أبو يونس سالم بن أبى حفصة المتوفى سنة 140 هـ خرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد و الترمذى فى صحيحه، قال ابن داود: كان يكذب على أبى جعفر وقد لعنه الإمام الصادق عليه السلام.

يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا، ولا أهل ديننا، فإذا رفعه ونظر الناس إليه، أمره الشيطان فيكذب علينا. إلى غير ذلك من أقواله في تحذير الأمة من قبول ما ينقل عنه بواسطة أولئك الدجالين كأبي البختری وأضرابه من الكذابين، وأبي الخطاب وأمثاله من الغلاة الذين اندسوا في صفوف المسلمين ليفرقوا الكلمة ويغيروا القلوب، وقد قضى الإمام الصادق عليه السلام على حركاتهم، وفرق شملهم، ولم يبق لهم ذكر إلا في بطون الكتب وعلى السنة دعاة الفرقة الذين تجندوا لخدمة خصوم الإسلام وهم كما يقول القائل: إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقد اهتم علماء الحديث من الشيعة وبذلوا جهدهم في عناية تامة بالبحث والتحقيق عن معرفة الحديث و ترتيب طبقات رجاله و التثبت في أحوالهم و بيان عدالتهم فألفوا كتباً تكشف النقاب عن أحوال الرجال منها: كتاب الرجال لشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة 460 هـ. و كتاب الشيخ أحمد بن علي بن أحمد النجاشي المتوفى سنة 450 هـ. و كتاب الضعفاء المنسوب للشيخ أحمد بن عبيد الله الغضائري و كان معاصراً للشيخ الطوسي. و كتاب تقي الدين الحسن بن علي بن داود و هو من تلامذة جمال الدين بن طاوس و المحقق الحلبي. و كتاب الخلاصة لأبي منصور جمال الدين العلامة الحلبي المتوفى سنة 726 هـ. و غيرها من كتب الرجال، و قد تشدد الشيعة في قبول الرواية أكثر من غيرهم، و لهم شروط خاصة، و المسلمون بصورة عامة يشترطون شروطاً في الراوي حذراً من الكذابين الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» و لهذا كان الصحابة لا يأخذون بالرواية إلا ممن يصح الأخذ عنهم و يتأكدون في ذلك مع قرب عهدهم من النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

## إشارة

كان من المناسب ذكر مشاهير الثقات من أصحاب الإمام الصادق والمؤلفين منهم وبيان أحوالهم بترجمة وافية، ولكن نطاق هذا الجزء لا يتسع لذكرهم وسيأتي ذلك في الجزء الثالث إن شاء الله، ونرى هنا أن نشير إلى بعض المؤلفين من الرواة لحديثه عليه السلام و نترك ذكر الآخرين لمحل آخر، و نقتصر على ذكر أسمائهم حذرا من الإطالة. إبراهيم بن خالد العطار العبدى، وإبراهيم بن نعيم العبدى المعروف بأبى الصباح، وإسحاق بن بشر الكاهلى، وإسحاق بن جندب، وأنس بن عياض الليثى المدنى، وبرد الاسكاف الأزدي من تلامذة الباقر و الصادق عليه السلام، وأيوب بن عطية الحذاء، و ثابت بن جرير، و ثابت الضرير، و ثعلبة بن ميمون القارئ الفقيه، و جحدر بن المغيرة الطائى الكوفى، و جفير بن الحكم أبى المنذر العبدى، و جميل بن دراج، و حارث بن المغيرة النضرى، و حبيب بن النعمان الأعرابى الأسدى، و حذيفة بن زائدة الأسدى، و حرز بن عبد الله الأزدي السجستاني، و حسان بن مهران الكوفى، و الحسن بن الحسين بن الحسن الجحدرى الكندى، و خطاب بن مسلم الكوفى، و خلاد السندى البزاز الكوفى، و داود بن الحسن الأسدى الكوفى، و داود بن سرحان العطار الكوفى، و رافع بن سلمة بن زياد بن أبى الجعد الأشجعى، و زريق بن الزبير الخلقانى، و زكريا بن يحيى الواسطى، و زيد بن يونس أو ابن موسى أبى أسامة الشحام الكوفى، و سالم الحناط أبى الفضل الكوفى، و سالم بن مكرم بن عبد الله من أصحاب الصادق و الكاظم عليه السلام، و السرى بن عبد الله بن يعقوب السلمى الكوفى، و سعيد بن عبد الرحمن و عبد الله الأعرج السمان التميمى الكوفى، و سعيد بن غزوان الأسدى، و كتاب سلام بن أبى عمرة الخراسانى و هو من الكتب الموجودة الباقية (1)، و سليم الفراء الكوفى، و سليمان بن داود المنقرى أبو أيوب الشاذكونى، و سماعة بن مهران الحضرمى، و سويد بن مسلم، و سيف بن سليمان التمار الكوفى، و شعيب العقرقوفى، و شهاب بن عبد ربه بن أبى ميمون من أصحاب الصادق و الكاظم عليه السلام و الصباح الحذاء بن صبيح

ص: 443

إمام مسجد دار اللؤلؤ بالكوفة، و صباح بن يحيى المزنى الكوفى من تلامذة الباقر و الصادق عليه السّلام، و صفوان بن مهران الكوفى، و طلاب بن حوشب الشيبانى الكوفى، و عاصم بن سليمان البصرى، و عامر بن جداعة الأزدي، و عبيد بن زرارة بن أعين الشيبانى، و عبيد الله بن الوليد الرصافى يروى عن الباقر و الصادق عليه السّلام، و عقبه بن خالد الأسدى الكوفى، و على بن عقبه بن خالد الأسدى الكوفى، و عمار بن مروان البيكرى، و عمار بن موسى الساباطى، و عمرو بن إبراهيم الأزدي، و عمرو بن الياس بن عمرو بن الياس البجلي، و عمرو بن حرب الصيرفى الأسدى الكوفى، و عمرو بن خالد الأفرق الخياط، و عمرو بن منهال بن مقلاص الصيرفى، و أبى محمد بن قتيبة بن محمد الأعشى المؤدب المغربى، و كعيب بن عبد الله مولى بنى طرفة الكوفى، و مالك بن عطية الأحمسى الكوفى البجلي، و محمد بن حمران النهدي، و محمد بن عذافر بن عيسى الصيرفى المدينى من أصحاب الصادق و الكاظم عليه السّلام، و عباد بن صهيب أبو بكر البصرى، و عباس بن الوليد بن صبيح الكوفى، و عبد الحميد بن أبى العلاء بن عبد الملك الأزدي، و عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزارى، و عبد الغفار بن حبيب الطائى، و عبد الغفار بن قيس بن فهد الأنصارى من تلامذة الباقر و الصادق عليه السّلام، و عبد الكريم بن هلال الجعفى الكوفى يقال له الخلقانى، و عبد الله بن أبى يعفور و عبد الله بن بكير بن أعين الشيبانى، و عبد الله بن زرارة بن أعين الشيبانى، و عبد الله بن سعيد بن شبلى، و عبد الله بن غالب الأسدى الشاعر الفقيه، و عبد الله بن الفضل بن عبد الله الهاشمى النوفلى، و عبد الملك بن حكيم الخثعمى الكوفى، و عبد الملك بن عتبة النخعى الصيرفى الكوفى. إلى آخر ما هو مذكور فى كتاب الفهرست للشيخ الطوسى، و كتاب النجاشى، و جامع الرواة. وقد ذكر شيخنا البحاثه حجة الإسلام الشيخ محمد المحسن الطهرانى فى كتابه الذريعة الجزء السادس عددا وافرا منها فى حرف الحاء، و ذكر طرق الرواية لها، كما أنه ذكر فى الجزء الأول فى حرف الهمزة فى باب الأصول عددا كثيرا من رجال الأصول الذين دونوا أحاديثهم عن الإمام الصادق عليه السّلام. وقد ذكرنا بعض من لهم كتب عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تلك المجموعة المتقدمة و لم نعد ذكرهم كما أنا لم نذكر من هؤلاء هناك.

اشتهر جابر بن حيان بعلم الكيمياء، وهو أول من عرف به، ونسب أخذه وتعلمه لذلك عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد اختلفت الآراء في ذلك، وها نحن ذا نذكره استطرادا في البحث، فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي ويقال الحراني الصوفي، فهو أول من اشتهر في علم الكيمياء وتلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو أول من تكلم في علم الكيمياء، ووضع فيها الكتب وبين صنعة الأكسير والميزان، ونظر في كتب الفلاسفة في الإسلام، واكتشف جابر في امتحاناته أمورا كثيرة في علم الكيمياء، وترجمت بعض مصنفاته إلى جميع اللغات، وطبعت واشتغل بها الناس فانتفعوا بها، ونسب إليه قوم اختراع الجبر، وألف خمسمائة رسالة في الكيمياء في ألف ورقة، وهي تتضمن رسائل جعفر الصادق عليه السلام واختلف الناس في أمر جابر اختلافا كثيرا. فيذهب البعض إلى أنه شخصية موهومة، وأنه اسم موضوع. وضعه المصنفون في هذا الفن. ويؤيدون هذا الرأي بأن شخصية جابر تلك الشخصية العظيمة لم يكن لها ذكر في تاريخ العرب. وأجاب ابن النديم عن هذا الإيراد بقوله: «إن رجلا فاضلا يجلس ويتعب فيصنف كتابا يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ويتعب يده وجسمه بنسجه ثم ينحله لغيره، إما موجودا أو معدوما ضرب من الجهل وأن ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم، وأي فائدة في هذا وأي عائدة، والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أوردتها في مواضعها، وكتب في معان شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب. وقد قيل إن أصله من خراسان، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان». ثم ذكر ابن النديم مؤلفاته (1). وللقدماء والمتأخرين ومن المستشرقين كلام كثير في شأن جابر، وقد نشر رسائله المستشرق كراوس، وفيها دلالة على تشييعه وأخذه عن الإمام الصادق عليه السلام

ص: 445

كإمام مفترض الطاعة متبع الرأي. وقد كبر على المستشرقين أن يكون رجل عربي مسلم و من أهل القرن الثاني للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة، و تكون نظرياته الأسس العامة التي قام عليها علم الكيمياء القديمة و حديثة، فصاروا يخطون في تعرضهم لكتبه كحاطب ليل، فمرة يشكون في وجوده و تارة في زمانه، و أخرى فيما نسب إليه من تلك الكتب، و رابعة في نسبة ما يرويه البعض عن أستاذه الصادق عليه السلام، و خامسا في التبويب و الوضع و الأسلوب لأنه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر إلى غير ذلك. و قد فند تلك الشكوك و المزاعم الكاتب إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور فيما نشره في المقتطف (625، 617، 551، 544، 68) و جلى في هذه الحلبة الأستاذ أحمد زكى صالح فيما كتبه في مجلة الرسالة المصرية السنة الثامنة ص 1204 و 1206. و لقد فند تلك الأوهام و المزاعم تنفيدا حكيما علميا و صرح مرارا بتشيعه و قال في مناقشة رأى الأستاذ كراوس: و من الجلى الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة، و كانت أول من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلى بن أبى طالب عليه السلام. (1) و منهم من يقول إنه تلميذ خالد بن يزيد، و استدل ملا كتاب جلى على ذلك بالبيتين المشهورين من قول بعض الشعراء: حكمة أورثناها جابر عن إمام صادق القول و فى

لوصى طاب فى تربته فهو كالمسك تراب النجف

و ذلك لأن خالد بن يزيد و فى لعلى و اعترف له بالخلافة، و ترك الإمارة (2) و هذا الاستدلال بعيد عن إثبات الدعوى من كل وجه بما لا حاجة إلى إيضاحه، و عبارات جابر بن حيان فى رسائله تؤيد ما يقوله الأكثر بأنه أخذ ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام فقد كرر فى عباراته ما يشعر بذلك، و يعبر عنه بقوله: حدثنى سيدى

ص: 446

1-1) حياة الإمام الصادق للمظفر ص 202.

2-2) كشف الظنون ج 2 ص 198. [1]



عن آبائه واحدا بعد واحد وقال لى . . . (1). ويقول: وكنت يوما قاصدا دار سيدى جعفر «صلوات الله عليه»، ويكثر من قوله: وحق الله وحق سيدى صلوات الله عليه. . . (2). وفى ص 316 فى المقالة 24: رضى الله عن سيدى فإنه كان إذا مر به مثل هذه الخواص شىء قال: يا جابر هذه حياة القلوب وما ينبغى إذا نظرت فى كتبنا هذه إلا أن تجمعها وما يضاف إليها من فنونها والسلام. وقد نص أكثر المؤرخين والكتّاب على ذلك كابن خلكان فى وفيات الأعيان، واليافعى فى مرآة الجنان، وابن الوردى فى تاريخه، والحاج خليفة فى كشف الظنون، وبطرس البستاني فى دائرة المعارف، و(ش) سامى فى قاموس الاعلام باللغة التركية. ويقول الأستاذ الدكتور محمد يحيى فى كتابه الإمام الصادق ملهم الكيمياء: من الأمور التى تلفت النظر فى تاريخ العلوم مشكلة الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان، أبو الكيمياء فى العصور الوسطى، ولقد تصدى إلى هذا الموضوع عدد من المستشرقين، والكيميائين، فلم يوفوه حقه، لأنهم عالجوا المشكلة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى رسائل جابر نفسها، مما لها علاقة مع الإمام الصادق مبرزين ميزاتهما، وإمكانية صدورهما عن الإمام، وإنما فى هذه الدراسة المقتضية سوف نحاول أن نقوم فى عمل هذا الاستقراء. مستعينين بما وصل إلى أيدينا من المصادر التى نعتزف بأنها قليلة، ومن الضرورى عمل دراسة عملية عن الإمام جعفر الصادق، ومكانته الأدبية، ودوره فى التاريخ الفكرى الإسلامى لتظهر لنا كثيرا من النقط الغامضة على ضوء النهار. إلى أن يقول فى ص 39: لدى مطالعتنا للتراث الضخم الذى خلفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافا صريحا بأن المعلم لهذه الصنعة هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقد اطلع على هذه الحقيقة كثير من المستشرقين الغربيين فاعتقدوا فى ذلك مبالغة عظيمة، وفى النقد الذى وجهوه ضد هذه المشكلة قالوا: إنه لمن

ص: 447

- 
- 1-1) رسائل جابر بن حيان التى نشرها المستشرق كراوس ص 335 فى كتاب السر المكنون.  
2-2) كتاب الخواص الكبير ص 205.

المستحيل على جعفر أن يلمّ هذا الإمام العظيم بالعلوم و الفنون التي ذكرها جابر في المخطوطات التي وصلت إلينا، و التي يوجد منها عدد كبير في القاهرة، و التي لم تدرس الدراسة الكافية بعد، و يعتقد (دروسكا) انه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظرياً أو عملياً و هو في المدينة، و لقد أعجب كل من (برتلو الافرنسى) و (هولميارد الإنكليزي) بالمعلومات التي تسند إلى جابر. إلى آخر ما ذكره في تصحيح نسبة اتصال جابر بالإمام جعفر عليه السلام و لا نتعرض لأكثر من هذا فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به جابر بن حيان، و إنما تعرضنا له على سبيل الإشارة و الاستطراد. و إذا تأملنا أغراض المستشرقين فلا نستغرب منهم هذه المحاولات للتشكيك و هي لا تنال من الحقيقة و إن من أول الشخصيات التي اشتغلت بالكيمياء في الإسلام هو جابر و قد أثر في الكيمياء الأوروبية و كان انتسابه إلى جامعة الإمام الصادق هو الأساس في هذه المكانة.

### الفرق:

لما كانت مدرسة الإمام جامعة للعلوم، و لم يكن هناك منهج خاص للمسائل التي يسأل فيها، بل كان تارة يسأل عن مختلف العلوم و المسائل المشككة فيحلها، و يتدئ تارة فيهدى قلوباً متنبكة عن جدد الطريق، و تارة يجتمعون حوالياً فيحدثهم عن آباءه عن جده فيما يصلح لمعادهم و معاشهم و ربما يملى و يكتب الكتاب في أهم مسائل علم الكلام و الحديث، لذلك كانت مدرسته موضع عناية المفكرين يقصدها زعماء الفرق، فكان الإمام يناظرهم، و قد اجتمع بكثير منهم في العراق و مكة، فكانوا يخضعون لعذوبة منطقته، و حسن بيانه و قوة حجته، و قدرته الفائقة في التوجيه، لاتساع علمه، و ساطع برهانه. و قد حضر عنده كثير من أهل الآراء و المعتقدات المنحرفة، فهدى الله به بعضاً منهم و تعنت آخرون. و سنشير إلى ذكر الفرق في عصره و مناظراته معهم و اهتمامه العظيم في اعتدال اعوجاج طرقهم، و إن كان ذكرهم هنا أجدر، و لكن ضيق المجال أرغمنا على تأخيرها، لذلك أشرنا إليه. بقيت أمور كثيرة تتعلق بمدرسة الإمام الصادق عليه السلام، و تعاليمه و حديثه و تلامذته، و العلوم التي كان يتلقاها الناس عنه. و قد التزمنا في جميع الأجزاء أن يكون

بحثنا عن الإمام الصادق عليه السلام بدءاً وختاماً وإلى اللقاء في الأجزاء القادمة و من الله التوفيق. كما أننا لم نتعرض في بحثنا عن حياة الإمام الصادق عليه السلام، لسلسلة الآباء والأمهات، لأننا في غنى عن ذلك فنسبه أجلى من الشمس، والتعرض له يستدعي الخروج عن الموضوع، لما يتعلق بحياة آبائه الطاهرين، وبيان مآثرهم، ولم يكن هناك شيء من الغموض والخفاء، لنحاول إيضاحه وبيانه. على أن بقية من التزمنا بالبحث عنهم في هذا الكتاب من رؤساء المذاهب قد كثر الاختلاف في آبائهم وولادتهم بالزمان والمكان، والتاريخ لم يحتفظ لآبائهم إلا بالاسم فقط، وقد مرت الإشارة إلى الاختلاف في نسب أبي حنيفة، وسيأتي البيان عند ذكر الباقيين. وعلى أي حال فإننا لا نتعرض لذكر نسب الإمام الصادق عليه السلام هنا، ونعترف بالعجز عن إعطاء البحث عنهم حقه، لانتساع دائرته وأنه يستدعي الإطالة في هذا الكتاب (1) ولهذا فقد اقتصرنا على الإشارة والبيان الموجز عن حياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام إذ البحث عن حياته من صميم الموضوع. لأنه قد تربي في ظله، وغذاه بعلومه، واختص بتربيته وتعليمه، فلننتقل إلى البحث عن حياة الإمام الباقر عليه السلام موجزين في القول مهما ساعدنا الإيجاز ورافقنا الاختصار.

ص: 449

---

(1-1) أفردنا ترجمة الإمام الصادق عليه السلام مع ذكر سلسلة الآباء والأبناء في كتاب منفرد يختص بحياته وهو مخطوط.



### إشارة

فى ظل أبيه الباقر

### تمهيد:

ذكرنا فيما مضى أن الإمام الصادق قد تلقى علومه عن جده زين العابدين وأبيه الباقر عليه السلام وقضى شطرا من حياته فى ظلهمما و تحت عنايتهمما وهو وصى أبيه والقائم بأعباء الإمامة من بعده. ولا نستطيع هنا أن نعطى موضوع البحث عن حياة الإمام الباقر عليه السلام حقه، بل نقتصر على الإشارة فيما يتعلق بمكانته، وقيامه بالإصلاح وتوجيه الأمة، وذكر بعض تلامذته ورواة حديثه من كبار التابعين وغيرهم. فإن حياته حافلة بأعمال جليلة ومآثر عظيمة، فقد فتحت فى عصره معاهد العلم، وعقدت فيه مجالس البحث عن العرفان والأدب وسائر العلوم، وكانت حلقة درسه فى المدينة تضم كبار التابعين وأعيان الفقهاء، ولا تعقد أى حلقة هناك إلا بعد انتهاء حلقة درسه، وأقبلت الوفود تحج إلى مغناه وتهتدى بهديه، يستبقون إلى انتهاال تعاليم جده، فهو ينطق بلسانه ويحكم بشريعته وينزه الدين الإسلامى عن فتاوى علماء السوء المتزلفين للسلطة، الناعمين بخيراتها والنافخين ببوقها. وقد أوجد فى عصره حركة ونشاطا للعلم، ومركزا للحياة الفكرية والاجتماعية، والتفتّ حوله طلاب العلم ورواد الحقيقة، رغم تلك العقبات التى يواجهها المتصل بأهل البيت، وقد اجتازوا مراحل الخطر بقوة الإيمان ورسوخ العقيدة.

### الإمام الباقر:

### إشارة

أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام. ولد فى

المدينة سنة 57 هـ و توفي سنة 114 هـ فيكون عمره 57 سنة على رواية الشيخ المفيد في الإرشاد (1) و وافقه ابن كثير في النهاية و ابن الأثير في تاريخه، وقال المسعودي: إنه توفي في أيام الوليد. وعلى أى حال فإن الإمام الباقر عليه السلام أدرك جده الحسين و شاهد وقعة الطف المحزنة، و أقام معه ثلاث سنين أو أربع سنين، و مع أبيه زين العابدين أربعاً و ثلاثين سنة، و بعد أبيه تسع عشرة سنة و قيل ثمانى عشرة سنة، و عاش من ملوك عصره معاوية بن أبى سفيان المتوفى سنة 60 هـ، و يزيد بن معاوية، و معاوية بن يزيد، و مروان بن الحكم، و عبد الملك بن مروان، و الوليد بن عبد الملك، و سليمان بن عبد الملك، و عمر بن عبد العزيز، و يزيد بن عبد الملك. و توفي سنة 114 هـ كما عليه الأكثر في خلافة هشام بن عبد الملك مسموماً.

### كنيته و لقبه:

يكنى بأبى جعفر الأول، و يلقب بالباقر لأنه تبهر في العلم و أخرج غوامضه. قال صاحب القاموس: و الباقر محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم لتبحره في العلم (2). و قال محمد بن المكرم: التبهر التوسع في العلم و المال، و كان يقال لمحمد بن على بن الحسين بن على: الباقر رضوان الله عليهم، لأنه بقر العلم و عرف أصله و استنبط فرعه (3). و قال الدميرى: بقر مأخوذ من الشق، و منه قيل لمحمد بن على: الباقر لأنه بقر العلم أى شقه و دخل فيه مدخلا عظيماً (4). و قال أبو الفداء: و قيل له الباقر لتبحره في العلم أى توسعه فيه و ولد الباقر سنة 57 هـ (5).

ص: 452

- 
- 1- (1) الإرشاد ص 241 و [1] تاريخ ابن كثير ج 9 ص 84 و ابن الأثير ج 5 ص 84. [2]
  - 2- (2) القاموس المحيط ج 1 ص 376. [3]
  - 3- (3) لسان العرب ج 5 ص 140 [4] ط 1.
  - 4- (4) حياة الحيوان ج 1 ص 147. [5]
  - 5- (5) تاريخ أبو الفداء ج 1 ص 215. [6]

وقال الذهبي في ترجمة الإمام الباقر: كان سيد بني هاشم، في زمانه، اشتهر بالباقر من قولهم بقر العلم يعني شقه فعلم أصله و خفيه (1) و ان أول من لقبه بذلك هو جده رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم. كما ورد عن جابر بن عبد الله الأنصاري المتوفى سنة 78 هـ: أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال له: يوشك أن تبقى حتى تلقى ولدا لي من الحسين يقال له محمد يقر العلم بقرا فإذا لقيته فاقرأه مني السلام (2). وفي رواية اليعقوبي قال جابر بن عبد الله الأنصاري: قال لي رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «إنك ستبقى حتى ترى رجلا من ولدي أشبه الناس بي اسمه اسمي إذا رأيته فاقرأه مني السلام». فلما كبر سن جابر وخاف الموت فجعل يقول يا باقر يا باقر! . . . (3). وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: ذكر المدائني عن جابر بن عبد الله أنه قال: كنت جالسا عند رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم والحسين في حجره وهو يداعبه فقال يا جابر: يولد مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده ثم يولد له ولد اسمه محمد فإن أدركته فاقرأه مني السلام (4). وبهذا رواه الشبلنجي عن الزبير بن محمد بن مسلم (5). وفي عيون الأخبار لابن قتيبة: أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال له: يا جابر إنك مستعمر بعدى حتى يولد مولود اسمه كاسمي يقر العلم بقرا فإذا لقيته فاقرأه عنى السلام (6). وعلى كل حال فقد كان هو المتفرد في علوم الإسلام في عصره، كما اتضح ذلك من سيرته عند دراسة حياته، فإن له الأثر العظيم في توجيه الفكر رغم ما هنالك من عوارض و موانع تقف أمام أداء رسالته. وقد نكتم التاريخ عن إظهار أكثر الحقائق التي كان الأجدر إظهارها و حفظها للأجيال.

ص: 453

- 
- 1-1 (1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 117.
  - 2-2 (2) القاموس المحيط في هامش 376 ج 1، و الفصول المهمة لابن الصباغ ص 193. [1]
  - 3-3 (3) تاريخ اليعقوبي ج 3 ص 61. [2]
  - 4-4 (4) تذكرة الخواص ص 347 و [3] أحسن القصص للسيد علي فكري ج 4 ص 380.
  - 5-5 (5) نور الأبصار ص 143. [4]
  - 6-6 (6) عيون الأخبار ج 1 ص 212. [5]

و استمرت سياسة التضيق على فكر أئمة أهل البيت عليهم السلام يتبعها الحكام الظلمة و يسرون عليها، فإن بنى أمية الذين ذاق الإمام الباقر عليه السلام على أيديهم المرارة و حاول ملوكهم الأشرار الذين عاصروه الإساءة إليه و تطويق دائرة تأثيره لم ينته نهجهم بانتهاج حكمهم و سقوط عرشهم بل استأنف من جاء بعدهم ذات السياسة لأن أئمة آل البيت أصحاب رسالة ما وهنوا في أدائها و لا استكانوا أمام ضغوط أصحاب السلطان الزمني الذين رأوا أيضا في مواقف أهل البيت تهديدا لجورهم و خطرا عليهم.

## أقوال العلماء فيه:

«ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفا يقارنه في الفضل حتى رأيت ابنه محمد الباقر». محمد بن المنكدر «ما رأيت العلماء عند أحد من العلماء أصغر علما منهم عند محمد بن علي الباقر» (1). عبد الله بن عطاء «محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه القرشي الهاشمي المدني أبو جعفر المعروف بالباقر، سمي بذلك لأنه بقر العلم أي شقه فعرف أصله و عرف خفيه. و أمه أم عبد الله بنت حسن بن علي بن أبي طالب و هو تابعي جليل، إمام بارع مجمع على جلالته، معدود في فقهاء المدينة و أئمتهم، سمع جابرا و أنسا و سمع جماعات من كبار التابعين كأبي المسيب و ابن الحنفية و غيرهما، روى عنه أبو إسحاق السبيعي و عطاء بن رباح و عمر بن دينار الأعرج و هو أسنّ منه و الزهري و ربيعة و خلائق آخرون من التابعين و كبار الأئمة، و روى له البخاري و مسلم» (2). محيي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة 676 هـ «أبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم، أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإمامية و هو والد جعفر

ص:454

1-1 حلية الأولياء.

2-2 تهذيب الأسماء و اللغات [1] لشرف الدين النووي.



الصادق، لقب بالباقر لأنه بقر العلم أى شقه و توسع فيه و يقول الشاعر: يا باقر العلم لأهل التقى و خير من حج على الأجل

و قال عبد الله بن عطاء ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علما منهم عند محمد بن على . عاش رضى الله عنه ستا و خمسين سنة، و دفن فى البقيع مع أبيه» (1). عفيف الدين الياضى المتوفى سنة 768 هـ «أبو جعفر محمد الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ولد سنة 56 هـ كان من فقهاء أهل المدينة، و قيل له الباقر، لأنه بقر العلم أى شقه و عرف أصله و توسع فيه، و هو أحد الأئمة الاثنى عشر على اعتقاد الإمامية. قال عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء أصغر علما عنده، و له كلام نافع فى الحكم و المواعظ. مات رضى الله عنه سنة 114 هـ و دفن بالبقيع (2). أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة 1089 هـ «محمد بن على الباقر عليه السلام، هو باقر العلم و جامع و شاهر علمه و رافعه و متفوق دره و راضعه و منمق درره و راصعه، صفا قلبه و زكا عمله و طهرت نفسه و شرفت أخلاقه، و عمرت بطاعة الله أوقاته، و رسخت فى مقام التقوى قدمه، و ظهرت عليه سمات الازدلاف و طهارة الاجتباء، فالمناقب تسبق إليه، و الصفات تشرف به، فأما ولادته فبالمدينة فى ثالث صفر من سنة سبع و خمسين للهجرة، قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين، و له ألقاب ثلاث: باقر العلم و الشاكر، و الهادى، و أشهرها الباقر و سمي بذلك لتبقره فى العلم و هو توسعه فيه» (3). محمد بن طلحة القرشى العدوى الشافعى «أبو جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين الإمام الثبت الهاشمى العلوى روى عن أبيه و جابر بن عبد الله و أبى سعيد و ابن عمر و عبد الله بن جعفر و عدة، و أرسل عن عائشة و أم سلمة و ابن عباس. حدث عنه ابنه جعفر بن محمد و عمر بن دينار و الأعمش و الأوزاعى و ابن جريح و قره بن خالد و خلق، و كان سيد بنى هاشم فى

ص:455

1-1 (1) مرآة الجنان ج 1 ص 248. [1]

2-2 (2) الشذرات. [2]

3-3 (3) مطالب السنول ج 2 ص 50.

زمانه اشتهر في زمانه بالباقر من قولهم بقر العلم شقه فعلم أصله و خفيه، و عدّه النسائي و غيره في فقهاء المدينة، مات سنة 114 هـ هو قيل 117 هـ (1). شمس الدين الذهبي المتوفى سنة 748 هـ «أبو جعفر الباقر هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر، و أمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي، و هو تابعي جليل، كبير القدر، أحد أعلام هذه الأمة علما و عملا و سيادة و شرفا. . . و سمي الباقر لبقرة العلوم و استنباطه الحكم، كان ذا كرا خاشعا صابرا و كان من سلالة النبوة، رفيع النسب عالي الحساب، و كان عارفا بالخطرات، و كثير البكاء و العبرات، معرضا عن الجدال و الخصومات» (2). عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير «محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو جعفر الباقر أمه بنت الحسن بن علي بن أبي طالب، روى عن أبيه و جديه الحسن و الحسين و جد أبيه علي بن أبي طالب مرسلًا. . . روى عنه ابنه جعفر و إسحاق السبيعي و الأعرج و الزهري و عمر بن دينار، و أبو جهضم موسى بن سالم، و القاسم بن الفضل و الأوزاعي، و ابن جريح، و شيبه بن نصاح، و عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم، و عبد الله بن عطاء، و بسام الصيرفي، و حرب بن سريح، و حجاج بن أرطاة، و محمد بن سوقة و مكحول بن راشد، و معمر بن يحيى بن بسام و آخرون» (3). شهاب الدين بن حجر «محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب و هو والد جعفر الصادق و يقال له الباقر، سمي باقرا لتبحره في العلم و هو الشق و التوسعة، تابعي عدل ثقة، و إمام مشهور، توفي سنة 114 هـ علي الأصح و دفن مع أبيه في البقيع» (4). التلمساني «محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان

ص: 456

1-1 (1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 117.

2-2 (2) البداية و النهاية ج 9 ص 309. [1]

3-3 (3) تهذيب التهذيب ج 9 ص 210. [2]

4-4 (4) شرح الشفاء للخفاجي ج 1 ص 392. [3]

اللّه عنهم، ولد بالمدينة المنورة ثالث صفر سنة سبع و خمسين من الهجرة النبوية قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين، و كنى أبو جعفر و لقب بالباقر لبقره العلم، يقال بقر الشىء فجره، سارت بذكر علومه الأخبار و أشد فى مدائحه الأشعار، فمن ذلك قول مالك الجهني: إذا طلب الناس علم القرآن كانت قریش عليه عيالا

و إن فاه فيه ابن بنت النبي تلقت يداه فروعا طوالا

نجوم تهلل للمدلجين فتهدى بأنوائهن الرجالا

و توفي الباقر فى المدينة المنورة سنة 117 هـ و له من العمر ثمانية و خمسون سنة و قيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، و مع أبيه زين العابدين 33 سنة و بقى بعد موت أبيه 19 سنة» (1). عبد الله بن محمد بن عامر «محمد بن على عليه السلام: هو الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، سمي بالباقر من بقر الأرض أى شقها و أثار مخبأتها و مكامنها، فكذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف و حقائق الأحكام و الحكمة و اللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة، و من ثم قيل هو باقر العلم و جامعة و رافعه، صفا قلبه و زكا علمه و عمله و طهرت نفسه و شرف خلقه، و عمرت أوقاته بطاعة مولاه، و كنيته أبو جعفر لا غير، و ألقابه ثلاثة: الباقر، و الشاكر، و الهادى، و أشهرها الأول، و يكفيه ما رواه ابن المدينى عن جابر رضى الله عنه أنه قال له- و هو صغير-رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: يسلم عليك، فقيل له و كيف ذلك؟ قال: كنت جالسا عنده و الحسين عليه السلام فى حجره يداعبه فقال: يا جابر يولد له مولود اسمه على، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد فإن أدركته فاقراه منى السلام» (2). محمد بن عبد الفتاح الحنفى «الباقر محمد بن على زين العابدين ابن الحسين الطالبى الهاشمى القرشى أبو

ص:457

1-1 (1) الاتحاف ص 52. [1]

2-2 (2) جوهرة الكلام ص 132-135.

جعفر الباقر خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية: كان ناسكا عابدا، له في العلم و التفسير آراء و أقوال، ولد في المدينة و توفي بالحميمة» (1). الزركلي «محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين عليه السلام، سمي به لأنه بقر العلم أى شقه فعرف أصله و خفيه، و له من الرسوخ في مقام العارفين ما تكل عنه ألسن الواصفين، و له كلمات كثيرة في السلوك و المعارف يعجز عن حكايتها الواصف. فمن كلامه: الصواعق تصيب المؤمن و غيره و لا تصيب ذاكر الله عزّ و جلّ. و قال: ما دخل قلب امرئ شىء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله منه أو أكثر. و قال: ما من عبادة أفضل من عفة بطن و فرج، و قال: ليس في الدنيا شىء أعون من الإحسان للاخوان، و قال: بئس الأخ يرداك غنيا و يقطعك فقيرا، و قال: اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك. و كلامه من هذا المهيع كثير» (2). المناوى «أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، و أمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب، فولد أبو جعفر: جعفر بن محمد و عبد الله بن محمد، و أمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، و إبراهيم بن محمد، و أمه أم حكم بنت أسيد بن المغيرة بن الأخنس الثقفي، و علي بن محمد و زينب بنت محمد، و أمهما أم ولد، و أم سلمة بنت محمد، و أمها أم ولد. . مات سنة 117 هـ و هو ابن ثلاث و سبعين سنة. و قيل توفي سنة 118 هـ، و قال أبو نعيم الفضل بن دكين: توفي بالمدينة سنة 114 هـ، و كان ثقة كثير العلم و الحديث و ليس يروى عنه من يحتج به» (3). ابن سعد و حيث أخذنا على أنفسنا الإيجاز في البيان، فلنترك بقية الأقوال و نكتفي بما ذكرنا لناخذ صورة من صور حياته، و لسنا من المغالين إن قلنا إنه فريد عصره، و لا

ص:458

1-1 (1) الاعلام ج 3 ص 932. [1]

2-2 (2) الكواكب الدرية ج 1 ص 164. [2]

3-3 (3) الطبقات الكبرى ج 5 ص 138. [3]

يدانيه أحد فيما اختص به من مميزات تؤهله لأن يكون هو المرجع الوحيد. وباستطاعتنا أن نضع بين يدي القارئ أدلة كافية على ذلك. و لعل بهذه الإشارة ما يكفينا عن التوسع في الموضوع. و الشيء الذي يلفت النظر هو قول ابن سعد في آخر كلمته عن الإمام الباقر: و ليس يروى عنه من يحتج به. و هنا يجب أن نحاسب ابن سعد و نسائله عن هذا القول، فهو أمر يبعث على الاستغراب، و بعيد كل البعد عن الواقع، و تهجم على الحقيقة. فهل كان يقصد ابن سعد أن جميع من روى عن الإمام الباقر لا يحتج به؟ كيف و قد روى عنه ثقات التابعين و علماء المسلمين، و قد احتج أصحاب الصحاح بتلك الروايات، و لم يتوقف أحد عن قولها. و ليس من البعيد أن ابن سعد يقصد بكلمته هذه رواته من الشيعة، فهم في نظره غير ثقات، نظرا لنفسيته و تصوراته الذهنية التي علقت به من إيحاء الأوهام، و عوامل السياسة، و تدبير السلطة ضد شيعة أهل البيت، أو مجارة للظرف الذي نشأ فيه. و إذا أردنا أن ندرس نفسية ابن سعد و جدنا انطباعات الانحراف جلية لا مجال للتشكيك فيها، و لا حاجة إلى إجراء الحساب مع ابن سعد بأكثر من هذا، و لكننا نضع بين يدي القارئ بعضا من رواة حديث الإمام الباقر عليه السلام- من التابعين و غيرهم- ممن يعترف ابن سعد بأنهم ثقات، كما ينص هو على أكثرهم في طبقاته، و خرج حديثهم أصحاب الصحاح لتظهر الحقيقة، فنعرف مقدار انحراف ابن سعد عن الحق و ابتعاده عن الواقع.

### من تلامذته و رواة حديثه:

#### عمر بن دينار

عمر بن دينار الجمحي مولاهم أبو محمد الكوفي الأثرم المتوفى سنة 115 هـ أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة، روى عنه قتادة و شعبة و السفينان و الحمادان و خلق. . . قال ابن معين: له خمسمائة حديث. قال مسعر: ثقة ثقة ثقة. و قال ابن أبي نجیح: ما كان عندنا أحد أفقه، و لا أعلم من عمر بن دينار. و زاد غيره و لا عطاء و لا طاوس. . .

## عبد الرحمن:

عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي المتوفى سنة 157 هـ، أحد رؤساء المذاهب البائدة و من رجال الصحاح الستة (1).

## عبد الملك:

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح الأموي، مولاهم أبو الوليد المكي المتوفى سنة 150 هـ. روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري و السفينان. و هو أحد الأعلام و احتج بحديثه أصحاب الستة. قال أحمد: كان من أوعية العلم (2).

## قرة بن خالد:

قرة بن خالد السدوسي أبو خالد البصري المتوفى سنة 154 هـ. له نحو مائة حديث. و احتج به أصحاب الستة.

## محمد بن المنكدر:

محمد بن المنكدر بن عبد الله القرشي التيمي أبو عبد الله المدني المتوفى سنة 133 هـ من أعلام التابعين. و احتج به أصحاب الصحاح الستة. قال ابن عيينة: كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون. و قال الذهبي: مجمع على تقدمه و ثقته.

## يحيى بن كثير:

يحيى بن كثير أبو نصر الطائي مولاهم اليمامي المتوفى سنة 129 هـ. قال شعبة: هو أحسن من الزهري. و قال أبو حاتم: ثقة لا يروى إلا عن ثقة (3). و هو من رجال الصحاح الستة و من الأعلام المشهورين.

## الزهري:

أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب الزهري المدني المتوفى سنة 124 هـ، روى عنه مالك بن أنس، و ابن أبي ذئب، و سفيان بن عيينة، و الليث بن سعد، و الأوزاعي و غيرهم.

ص: 460

[1-1] الإمام الصادق و المذاهب الأربعة الجزء الأول. [1]

[2-2] طبقات الحفاظ ج 1 ص 160.

[3-3] طبقات الحفاظ ج 1 ص 131.

و هو من تلامذة الإمام زين العابدين وولده الإمام الباقر عليه السلام (1). و الزهري من كبار العلماء و ممن احتج به أصحاب الصحاح، و ستأتي ترجمته في هذا الكتاب عند ترجمة أساتذة مالك.

### ربيعة الرأي:

أبو عثمان ربيعة بن عبد الرحمن فروخ التيمي المتوفى سنة 136 هـ، احتج به أصحاب الصحاح و هو من كبار شيوخ مالك بن أنس و من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام (2) و روى عنه الأوزاعي، و الثوري، و سليمان بن بلال و غيرهم.

### الأعمش:

أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي مولا هم الكوفي المتوفى سنة 148 هـ أحد الأئمة الأعلام و رؤساء المذاهب البائدة و من رجال الصحاح الستة، و هو من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام (3).

### عبد الله بن أبي بكر:

أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم الأنصاري المدني المتوفى سنة 135 هـ من رجال الصحاح الستة و من شيوخ مالك، و هشام بن عروة و السفينان و غيرهم قال النسائي ثقة ثبت و قال مالك بن أنس: إنه رجل صدق كثير الحديث و قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث (4).

### زيد بن علي:

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسين المدني المتوفى سنة 122 هـ. روى عن أبيه و أخيه محمد الباقر. و عنه الزهري و الأعمش و شعبة و سعيد بن خيثم و إسماعيل السدي و زكريا بن أبي زائدة و عبد الرحمن بن الحارث بن عياش و غيرهم، قتل سنة 122 هـ، و قال ابن خليفة سنة 121 هـ، و قال مصعب الزبيري: قتل و هو ابن 42 سنة و بقي مصلوبا إلى

ص: 461

1-1 (1) تهذيب الأسماء و اللغات للنووي ج 1 ص 87.

2-2 (2) انظر تاريخ الإسلام للذهبي 4-299. [1]

3-3 (3) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [2]

4-4 (4) انظر تهذيب التهذيب 5-164 و [3] تاريخ الإسلام 5-364. [4]

سنة 126 هـ. قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس حدثنا العتكي عن جرير بن حازم أنه رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ متساندا إلى جذع زيد بن علي وزيد مصلوب، وهو يقول للناس: هكذا تفعلون بولدي (1). ولزيد بن علي منزلة عند الأئمة عليهم السلام وقد أخذ العلم عن أبيه زين العابدين وأخيه الباقر، وله كتاب في الفقه «وقد اكتشف «جرفيني» بين المخطوطات القيمة في المكتبة الامبروزية بميلانو-الخاصة ببلاد العرب الجنوبية-مختصرا في الفقه اسمه (مجموعة زيد) المتوفى سنة 122 هـ (740) م وهو منسوب إلى مؤسس فرقة الزيدية من الشيعة» (2).

### موسى بن سالم:

موسى بن سالم أبو جهضم مولى آل العباس. روى عنه عطاء بن السائب وهو من أقرانه، وليث بن أبي سليم، والثوري، والحمادان وغيرهم، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة، وأبو حاتم، وقال ابن عبد البر: لم يختلفوا في أنه ثقة (3).

### موسى الحنات:

موسى بن أبي عيسى الحنات أبو هرون المدني، روى عنه الليث بن سعد وابن عيينة، ويحيى القطان وغيرهم، وثقه النسائي وابن حبان، وروى له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

### القاسم بن الفضل:

أبو المغيرة القاسم بن الفضل بن معدان الحداني المتوفى سنة 167 هـ خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة، وثقه القطان وأحمد وروى عنه ابن مهدي، وكيع وآخرون (4).

### القاسم بن محمد:

القاسم بن محمد بن أبي بكر التيمي أبو محمد المدني المتوفى سنة 106 هـ

ص: 462

1-1) تهذيب التهذيب ج 3 ص 420. [1]

2-2) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص 200.

3-3) تهذيب التهذيب ج 10 ص 344. [2]

4-4) تاريخ الإسلام للذهبي ج 4 ص 299. [3]



أحد الفقهاء السبعة وأحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة، قال ابن سعد: كان ثقة عالما فقيها إماما كثير الحديث.

### محمد بن سوقة:

محمد بن سوقة روى عنه مالك بن مغول، والثوري وابن المبارك وأبو معاوية وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، وإسماعيل بن زكريا، و مروان بن معاوية وأبو المغيرة النضر بن إسماعيل، وعطاء بن مسلم الخفاف وابن عيينة وعلي بن عاصم الواسطي وغيره. قال محمد بن عبيد: سمعت الثوري يقول: حدثني الرضا محمد بن سوقة وقال الحسين بن حفص: قال الثوري: أخرج إليكم كتاب خير رجل بالكوفة، فأخرج كتاب محمد بن سوقة، وقال العجلي: كوفي ثقة. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال النسائي: ثقة مرضي، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان من أهل العبادة والفضل والدين، وقال الدارقطني: كوفي فاضل ثقة (1). خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. قال ابن المديني له ثلاثون حديثا. وقال ابن عيينة: كان لا يحسن أن يعصى الله تعالى.

### حجاج:

حجاج بن أرطاة بن ثور بن شراجيل النخعي الكوفي القاضي المتوفى سنة 145 هـ. روى عنه شعبة، وهشيم و ابن نمير، والحمادان والثوري و حفص بن غياث، وغندر، وأبو معاوية، ويزيد بن هرون وخلق كثير. وأخرج له مسلم في صحيحه، والبخاري في الأدب المفرد و الأربعة. قال ابن عيينة: سمعت ابن أبي نجيح يقول: ما جاءنا منكم مثله يعنى الحجاج. وقال الثوري: عليكم به فإنه ما بقي أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه. وقال العجلي: كان فقيها، وكان أحد مفتي الكوفة (2).

ص: 463

1-1) تهذيب التهذيب ج 9 ص 210. [1]

2-2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 196. [2]

معروف بن خربوذ الكوفي مولى عثمان روى عن الباقر وهو من خواصه: وعنه وكيع، وأبو داود الطيالسى وأبو بكر بن عياش وعبد الله بن داود وأبو عاصم وغيرهم، وخرج له البخارى، ومسلم، وأبو داود، وعده ابن حاتم فى الثقات، وقال الساجى: صدوق (1). وهو غير معروف بن خربوذ المعروف بالكرخى فإنه كان من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام وتوفى سنة 200 هـ. وغير هؤلاء من علماء الأمة الذين حضروا عند الإمام الباقر عليه السلام ورووا عنه ممن لا يمكننا بسط القول فى تراجمهم أمثال: أبو حنيفة النعمان ثابت الكوفى المتوفى سنة 150 هـ وقد جاءت رواياته عن الإمام الباقر عليه السلام ولده الإمام الصادق فى كتب مناقبه وجامع مسانيد وغيرها. ومنهم شيبه بن نصاح القارئ المدنى القاضى المتوفى سنة 130 هـ (2). وأسلم المنقرى أبو سعيد الكوفى المتوفى سنة 142 هـ. ومحمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المطلبى مولاهم المدنى المتوفى سنة 151 هـ وصاحب المغازى (3). وعبد الله بن عطاء المدنى الطائفى من رجال الصحاح ومن شيوخ إسحاق، وشعبة، والثورى وغيرهم. وعروة بن عبد الله بن قشير أبو مهمل الجعفى، روى عنه الثورى، وزهير بن معاوية وغيرهما، وخرج حديثه أبو داود، وابن ماجه، والترمذى فى الشمائل (4). وعبد الله بن حبيب بن أبى ثابت قيس بن دينار الأسدى مولاهم الكوفى خرج حديثه مسلم والنسائى فى الخصائص، وروى عنه الثورى، وكيع، وابن المبارك وغيرهم (5).

ص: 464

1-1 (1) الخلاصة ص 327.

2-2 (2) التقريب لابن حجر ج 1 ص 257. [1]

3-3 (3) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 163.

4-4 (4) الجرح والتعديل ج 3 ص 197.

5-5 (5) الجرح والتعديل ج 2 قسم 2.

وقد ذكر ابن أبي حاتم الرازي في كتابه الجرح والتعديل وابن حجر في التهذيب، والخزرجي في خلاصة تذهيب الكمال وغيرهم عددا وافرا من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام تركنا ذكرهم لضيق المجال.

## أصحاب الإمام الباقر ورواة حديثه من الشيعة

### إشارة

أما أصحابه ورواة حديثه من الشيعة فكثيرون منهم:

### أبان بن تغلب:

أبان بن تغلب الربعي أبو سعد الكوفي المتوفى سنة 141 هـ كان من تلامذة السجاد والباقر والصادق، وأمره أبو جعفر الباقر أن يجلس في مسجد المدينة ويفتي الناس، وقال له: فإني أحب أن أرى في شيعتي مثلك. وقد خرج حديثه مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه، وثقه أحمد وابن معين والنسائي وأبو حاتم، وقال ابن عدى: له نسخ عامتها مستقيمة إذا روى عنه ثقة وهو من أهل الصدق وفي الرواية صالح لا بأس به، وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وقال ابن سعد: كان ثقة. وقال الذهبي ثقة ثقة. . . إلى آخر ما هو موجود في مدحه والثناء عليه (1) وله كتب في التفسير وعلم القراءة والفرائض، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن الصادق فقط.

### بريد العجلي:

بريد بن معاوية أبو القاسم العجلي المتوفى سنة 148 هـ، كان من حوارى الإمام الباقر والصادق عليه السلام وروى عنهما. قال الكشي: هو ممن اتفقت العصابة على تصديقه، وقال العلامة الحلي: هو وجه من أصحابنا ثقة فقيه ممن اتفقوا على تصديقه وانقادوا له بالفقه. وقد ورد مدحه عن الأئمة عليهم السلام، وقد بلغ عندهم حداً فوق الوثاقة، لجلالة قدره وعظيم شأنه. روى داود بن سرحان قال سمعت الصادق عليه السلام يقول: إن أصحاب أبي كانوا زينا أحياء وأمواتا، أعنى: زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، ومنهم ليث المرادي،

ص: 465

---

1 - 1) تهذيب التهذيب، و [1] لسان الميزان، و ميزان الاعتدال، و الخلاصة و الفهرست ص 308 و [2] الإمام الصادق و المذاهب الأربعة-الجزء الأول. [3]

و يريد العجلى . . . إلى غير ذلك من أقواله فى خواص أصحابه و أصحاب أبيه.

### بكير بن أعين:

بكير بن أعين الشيبانى، أخو زرارة بن أعين، من أصحاب الباقر و الصادق، و مات فى حياة الصادق عليه السلام، و لما بلغه خبر موته قال: أما و الله لقد أنزله الله بين رسوله و أمير المؤمنين، و ذكره يوماً فقال: رحم الله بكيرا، و هو من ثقات أولاد أعين و صلحائهم.

### أبو حمزة الثمالى:

أبو حمزة الثمالى ثابت بن دينار، روى عن على بن الحسين و الباقر و الصادق عليهم السلام و بقى إلى أيام الكاظم عليه السلام و كان عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عنه سفيان الثورى، و شريك، و حفص بن غياث، و أبو أسامة. و عبد الملك بن أبى سليمان، و أبو نعيم، و وكيع، و عبيد الله بن موسى. و خرج حديثه الترمذى، و ابن ماجه، و النسائى فى خصائص على. و قد ورد مدحه عن الأئمة، و هو راوى دعاء على بن الحسين الذى يقرأ سحر شهر رمضان المعروف بدعاء أبى حمزة الثمالى.

### جابر الجعفى:

جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفى، أبو يزيد الكوفى المتوفى سنة 128 هـ، روى عنه شعبة، و الثورى، و إسرائيل، و الحسن بن حى، و شريك، و مسعر، و معمر، و أبو عوانة، و خرج حديثه أبو داود، و الترمذى، و ابن ماجه. قال ابن مهدى: ما رأيت فى الحديث أروع منه. و قال ابن عليه: جابر صدوق فى الحديث. و قال يحيى بن أبى بكير عن شعبة: كان جابر إذا قال حدثنا و سمعت، فهو من أوثق الناس. و قال وكيع: مهما شككتم فى شىء فلا تشكوا فى أن جابراً ثقة، و قال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعى يقول: قال سفيان الثورى لشعبة: لئن تكلمت فى جابر الجعفى، لأتكلمن فىك. و كان جابر يحفظ مائة ألف حديث (1).

ص: 466

هكذا وصفه معاصروه، وهكذا نقلوا عنه. وقد كانت له منزلة في الكوفة، وانتشر حديثه، وأخذ عنه العلماء. وبعد أن تطور الزمن وظهرت الآراء، وهبت زوبعة الخلاف، واشتد النزاع بين العرب والموالي، أو بين أهل الحديث وأهل الرأي، وبدا في أفق السياسة عامل التفرقة، أصبح جابر لا يؤخذ بقوله، ورماه غير واحد بالكذب وكانت كلماتهم مشوشة، وأدلتهم على تكذيبه واهية ولم يدعموها بحجة، ولقد ظهر من أبي حنيفة القول بتكذيب جابر، لأن جابرا عارض أهل الرأي. وانتصر لأهل الحديث، وبالطبع أن ذلك يصعب عليهم. يقول أبو يحيى الحماني: قال أبو حنيفة: «ما لقيت في من لقيت أكذب من جابر ما أتيت به بشيء من رأيي إلا جاءني فيه بأثر». هذا هو استدلال أبي حنيفة على تكذيب جابر، وهو كما ترى، لأن أبا حنيفة قليل الحديث، ولم يكن من أهله حتى قيل: إنه لم يحفظ أكثر من سبعة أحاديث. وبالطبع إنه يستغرب كثرة أحاديث جابر، لأنه يحفظ مائة ألف حديث، على أن ذلك العصر قد تطلعت به رءوس الموالى، وبدأت عوامل الفرقة وأنصار أبي حنيفة يأخذون قوله بعين الاعتبار، فوسعوا تلك الدائرة، فكثرت كلمات الذم له جريا مع الظروف وخصوعا لعوامل الخلاف. وروى أن بعضهم رأى أحمد بن حنبل معه كتاب (زهير عن جابر) وهو يكتبه فقال: يا أبا عبد الله: تنهوننا عن حديث جابر (الجعفي) وتكتبونه؟! فقال الإمام أحمد: نعرفه (1) وأدنى ما يفهم من كلمة أحمد أن يطلع على ما لدى جابر لشهرته. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في مدحه: رحم الله جابرا كان يصدق علينا، ولعن الله المغيرة، كان يكذب علينا. وروى الكشي في رجاله روايات كثيرة دالة على مدحه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن ابن أبي جيد عن ابن الوليد، كما انه يذكر له كتابا في التفسير (2). وعلى أي حال فإن الأمر لا يحتاج إلى مزيد بيان، لتلك العوامل التي أدت إلى تكذيبه من قبل بعض رجال عصره وبعد عصره. وقد كان يكثر روايته عن أهل البيت، ويقول عند ما يحدث عن الإمام الباقر: حدثني وصي الأوصياء. وهو أمر يعظم تحمله في عصر تقرب الناس لولاتهم بالابتعاد عن أهل البيت، لذلك رأينا كثيرا من رجال

ص: 467

1-1) المجروحين لابن حبان ج 1 ص 203.

2-2) الفهرست للشيخ الطوسي ص 45.

الحديث تركوا الرواية عنهم: إما خوفا على أنفسهم، أو تقربا لسلطانهم.

### محمد بن مسلم:

محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الكوفي الثقفي، مولا هم المتوفى سنة 150 هـ عن سبعين سنة. روى عن الإمام الباقر و ابنه الصادق، وقد أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنه. وكان المثل الأعلى في الصلاح والطاعة والعلم، وقد حفظ عن الإمام الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الإمام الصادق ستة عشر ألف حديث. وله كتاب يسمى الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. قال عبد الله بن أبي يعفور: قلت لأبي عبد الله: إنه ليس كل ساعة أفاك، ولا يمكن القدوم إليك، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني، وليس عندي كل ما يسألني عنه. قال فما يمنعك عن محمد بن مسلم الثقفي؟ فإنه قد سمع من أبي، وكان عنده وجيها. ودعى لأداء شهادة عند شريك القاضي هو وأبو كريمة الأزدي، فقال ابن أبي ليلى: جعفران فاطميان. ورد شهادتهما، فقال محمد بن مسلم لشريك: نسبتنا لأقوام لا يرضون بأمثالنا، ولرجل لا يرضى بأمثالنا أن نكون من شيعته، فإن تفضل وقبلنا فله المن علينا والفضل. فتبسم شريك ثم قال: إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم. وسئل أبو حنيفة صاحب الرأي عن مسألة الحامل التي تموت والولد يتحرك في بطنها، ويذهب ويجيء، فقال للسائل: عليك بمحمد بن مسلم الثقفي، فإنه يخبرك فيها. ودخل عليه شريك القاضي وعنده امرأة تسأله عن امرأة ضربها الطلق، فما زالت تطلق حتى ماتت، والولد يتحرك في بطنها ويذهب ويجيء فما أصنع؟ فقال محمد بن مسلم: يا أمة الله سئل محمد بن علي بن الحسين الباقر عن مثل ذلك، فقال: يشق بطن الميت، ويستخرج الولد. فقالت: رحمك الله جئت إلى أبي حنيفة صاحب الرأي أسأله، فقال: اتى محمد بن مسلم. . . ولما ردّ ابن أبي ليلى شهادة محمد بن مسلم، أرسل الإمام الصادق من يسأل ابن أبي ليلى عن مسائل يعجز عن حلها، وقال قل له، إذا عجز عن ذلك، يقول لك جعفر بن محمد: ما حملك على أن رددت شهادة رجل أعرف منك بأحكام الله وسنة

رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ فلما صار الرجل إليه وسأله فلم يجب وبلغه قول الإمام الصادق، قال ابن أبي ليلى: من هو؟ قال هو محمد بن مسلم الثقفي. فلم يرد شهادته بعدها. وكان محمد بن مسلم رجلا موسرا جليلا في قومه، وله منزلة عظيمة. وأقام بالمدينة أربع سنين يتعلم العلم من الإمام الباقر.

### حمران بن أعين:

حمران بن أعين الشيباني مولاهم الكوفي، روى عن الباقر والصادق عليه السلام وكان الإمام الباقر يقول فيه: حمران من المؤمنين حقا لا يرجع أبدا. وكانت له منزلة عندهم، وكان فقيها عالما بعلوم القرآن واللغة والنحو وعلم الكلام.

### زرارة:

زرارة بن أعين الشيباني أبو الحسن المتوفى سنة 150 هـ من مشاهير رجال الشيعة، فقيها وحديثا ومعرفة بالكلام، اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، وهو من أصحاب الباقر والصادق عليهم السلام، قال النجاشي: شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم وكان قارئا فقيها متكلم شاعرا أدبيا، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، وقال أبو غالب كما حكى عنه: إن زرارة كان وسيما جسيما أبيض، فكان يخرج إلى الجمعة وعلى رأسه برنس أسود وبين عينيه سجادة، وفي يده عصى فيقوم الناس سماطين ينظرون إليه لحسن هيئته فربما يرجع من طريقه، وكان خصما جدلا لا يقوم بحجته، صاحب إلزام وحجة قاطعة إلا أن العبادة أشغلته عن الكلام، والمتكلمون من الشيعة تلاميذه. وقيل لجميل بن دراج: ما أحسن محضرك وأزين مجلسك! فقال: أي والله ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان حول المعلم. ودخل الفيض بن المختار على الإمام الصادق عليه السلام فسأله عن الاختلاف في الحديث فأجابه الإمام بعد كلام طويل: إذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس وأشار إلى زرارة بن أعين. وقال سليمان بن خالد الأقطع: سمعت أبا عبد الله يقول: ما أجد أحدا أحيا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبا بصير المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي. وفي الفصول المهمة للحر العاملي بإسناده، إن الإمام الصادق قال: بشر

المخبتين بالجنة بريد بن معاوية العجلي و أبو بصير ليث بن البختری المرادی و محمد بن مسلم و زرارة أربعة نجباء أمناء الله على حلاله و حرامه لو لا- هؤلاء انقطعت آثار النبوة و اندرست. و قوله عليه السلام: رحم الله زرارة لو لا زرارة و نظراؤه لاندرست أحاديث أبي عليه السلام. و قد تحمل زرارة في سبيل دفاعه عن أهل البيت و نشر أحاديثهم ما يتحمله أمثاله من حملة العلم و المخلصين في الدعوة إلى آل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و قد تقوّل عليه خصومه أقوالا و انتحلوا له آراء حتى بلغ ذلك الإمام جعفر بن محمد عليه السلام فقال: أنا أبرأ ممن يقول ذلك، فأظهر خصومه تلك المقالة و أشاعوها عليه ليحطوا من مقامه، فالتجأ آل زرارة إلى كشف الحال من الإمام الصادق. دخل حمزة بن حرمان على الإمام الصادق عليه السلام فقال: يا أبا عبد الله بلغني أنك برئت من عمي «يعني زرارة» فقال عليه السلام: أنا لم أبرأ من زرارة و لكنهم بجيؤون و يذكرون و يروون عنه فلو سكت الزموني فأقول: من قال هذا أنا بريء منه. و قال الحسين بن زرارة: يا أبا عبد الله إن أبي يقرأ عليك السلام و يقول لك: جعلت فداك لا يزال الرجل و الرجلان يقدمان فيذكران أنك قلت فيّ. فقال أبو عبد الله: اقرأ أباك السلام و قل له: أنا و الله أحب لك الخير في الدنيا و أحب لك الخير في الآخرة، و أنا و الله عنك راض. إلى كثير من الأقوال في مدحه الدالة على جلاله قدره و عظيم منزلته. قال الشيخ الطوسي: و لزرارة مصنفات منها كتاب الاستطاعة و الجبر. و قال ابن النديم: و زرارة من أكبر رجالات الشيعة فقها و حديثا و معرفة بالكلام و التشيع، و من ولده الحسين بن زرارة و الحسن بن زرارة من أصحاب جعفر بن محمد. و من تتبع كتب الحديث يقف على حقيقة أمره و علو منزلته في العلم و حرصه الشديد على أخذ الأحكام من أهل بيت الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

### عبد الملك بن أعين:

عبد الملك بن أعين الشيباني مولا هم الكوفي، روى عنه السفينان و غيرهما و خرج حديثه البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و النسائي، روى عن



الإمام الباقر والصادق، وكان له عند الإمام الصادق درجة، ولما بلغه خبر وفاته ترحم عليه ودعا له، وكان من التابعين وحفاظ الحديث. قال أبو حاتم محله الصدق ومن عتق الشيعة يكتب حديثه. وقال ابن حجر (1): عبد الملك بن أعين مولى بنى شيبان صدوق شيعي. وحيث قد أخذنا على أنفسنا الاختصار فلا يمكننا أن نتوسع بأكثر مما ذكر من رواة حديثه عليه السلام وقد جمعنا منهم أكثر من ثلاثمائة رجل. وعسانا نوفق لإبراز كتاب خاص في حياة الإمام الباقر فنذكرهم هناك، كما وانا لم نتعرض لذكر المؤلفين من أصحابه وعددهم ينوف على المائة. أما التفسير المنسوب إلى الإمام الباقر عليه السلام والذي يرويه عنه زياد بن المنذر أبو الجارود فقد ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست ورواه عنه بطريقتين، كما ذكره صاحب الذريعة وابن النديم في الفهرست وغيرهم (2).

## مدرسة الإمام الباقر:

### إشارة

رأينا كيف انهال رجال العلم من التابعين وغيرهم على مدرسة الإمام الباقر عليه السلام مع وجود تلك الخطط التي ضربها الأمويون ليصرفوا الناس عن أهل البيت، وتقدموا بالتهديد والتوعيد وحذروا من خالف ذلك، وأظهروا كوامن الحقد وقديم الخصومة ولا يروق لهم أن يذكرهم أحد بخير، وقاموا إلى جانب ذلك بالمغريات الخداعة من بذل المال وإسناد الوظائف لمن عرفوا منه الانحراف عن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن تلك الخطط التي ساروا عليها لم تنجح النجاح المطلوب فاجتاز أكثر المسلمين تلك العقبات، وحفظوا لأهل البيت منزلتهم وعرفوا مقامهم وما وهبهم الله من علوم هم أحوج ما يكونوا إليها، فتحملوا في سبيل أخذ العلم ونشر الأحكام في جميع الأقطار-مصعب واجهوا محنا ولكنها تهون عليهم في سبيل نصره الحق وإظهار الحقيقة.

ص:471

1-1) التقريب لابن حجر ص 249. [1]

2-2) وقد حققه الأستاذ المحامي شاعر الغرباوي في كتابه حياة الباقر الجاهز للطبع وأثبت ذلك من عدة طرق كما أنه وقف على معلومات كافية حول التفسير واستحصل جملا منه.

وقد نشأ الإمام الباقر في عصر قوة الدولة وامتداد سلطانها و شدة نفوذها، و مع ذلك فقد قام بما يجب عليه من الدعوة لله و نشر تعاليم الإسلام و إلقاء دروس الأخلاق و العلوم الدينية، و الحث على التمسك بالدين و الابتعاد عن الظلمة الذين اتخذوا مال الله دولا، فازدحم العلماء على أبواب مدرسته و انتشروا في أقطار المملكة الإسلامية يحملون للناس أصدق الحديث، و أظهروا الحقائق التي حاول الأمويون إخفاءها بأبراد التمويه و الخداع. و قد كان يؤلمهم موقف الإمام الباقر، و تقض مضاجعهم شهرته في الآفاق و لكن ما ذا يصنعون و الحجاز يخلص له بالولاء، و المدينة المنورة ترعى جانبه و تقدر منزلته. و لا يستطيعون أن يحركوا جانب المدينة مرة أخرى و هي المركز الإسلامي، و إليها تقصد وفودهم في أخذ الأحكام. فكان هو و حيد عصره في إرشاد الناس و تحذيرهم من الزيغ و الضلال، و إليه يرجعون في معضلات المسائل، فيحل لهم عقالها و يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه من أحكام الدين، فكان قوله الفصل و حكمه العدل. روى مكحول بن إبراهيم عن قيس بن الربيع قال: سألت أبا إسحاق عن المسح على الخفين فقال: أدركت الناس يمسخون حتى لقيت رجلا من بني هاشم لم أر مثله قط و هو محمد بن علي بن الحسين فسألته عن المسح على الخفين. فنهاني عنه، و قال: لم يكن أمير المؤمنين يمسخ عليهما و كان يقول: سبق الكتاب المسح على الخفين. قال أبو إسحاق: فما مسحت مذنهاني عنه، و قال قيس بن الربيع: و ما مسحت أنا مذ سمعت أبا إسحاق. و قال زرارة: كنت جالسا إلى جنب أبي جعفر عليه السلام و هو مستقبل القبلة فقال: أما إن النظر إليها عبادة، فجاءه رجل من بجيلة فقال لأبي جعفر: إن كعب الأخبار (1)

ص: 472

1-1) هو كعب بن مانع الحميري أبو إسحاق المعروف بكعب الأخبار المتوفى سنة 134 هـ -بحمص و كان يهوديا أسلم في أيام أبي بكر و قيل في أيام عمر، و كان عنده تنبؤات عن طريق جمع الأحاديث التي وضعها اليهود أو المسيحيون و اشتهر كعب بذلك و مثله وهب بن منبه و تميم الداري و كان لهذه الأحاديث أثر في المجتمع إذ أدخلوا أشياء من التكهن بوقوع الحوادث أو مصير العالم و قد استمد منهم معاوية أشياء يستعين بها على تقوية مركزه لذلك نوه باسم كعب: انه كان من أصدق هؤلاء المحدثين. ألا ان كعبا أحد العلماء، و قد روى عنه أبو هريرة و معاوية. و أنكر المسلمون على كعب و أصحابه و كذبوهم لرجمهم بالغيب.

كان يقول: إن الكعبة تسجد لبیت المقدس فى كل غداة، فقال أبو جعفر: فما تقول فيما قال كعب؟ فقال الرجل: صدق كعب، فقال له أبو جعفر: كذبت و كذب كعب الأخبار معك، و غضب. قال زرارة: ما رأيتك استقبل أحدا بقوله كذبت غيره. و كان عليه السلام إذا دخل مكة انثال عليه الناس يستفتون عن أهم مسائل الحلال و الحرام، و يستفتون أبواب مشاكل العلوم و يغتتمون فرصة الاجتماع به ليزودهم بتعاليمه، و إذا أقام بمكة عقدت له حلقة ينضم فيها طلاب العلم بل علماء الأمة، و حج هشام بن عبد الملك فنظر إلى اجتماع الناس حوله و حضور العلماء عنده فثقل عليه ذلك، فأرسل رجلا من أصحابه و قال له: قل له يقول لك أمير المؤمنين ما الذى يأكله الناس و يشربونه فى المحشر إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فلما سأله الرجل قال له الإمام الباقر: يحشر الناس مثل قرص النقى (1) فيها أشجار و أنهار يأكلون و يشربون منها حتى يفرغوا من الحساب. فقال هشام للرسول: اذهب إليه فقل له يقول: ما أشغلهم عن الأكل و الشرب يومئذ؟ فقال أبو جعفر: هم فى النار أشغل و لم يشتغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فسكت هشام و لم يظفر بما أراد من سؤاله للإمام فإنه سؤال امتحان لا استفادة. و دخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر أى شىء تعبد؟ فقال عليه السلام: الله. قال الرجل: رأيتك؟ قال: بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، و لا يدرك بالحواس، و لا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، لا يجوز فى حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو. فخرج الرجل و هو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته. و دخل عليه عثمان الأعمى من أهل البصرة و قال له: يا ابن رسول الله إن الحسن البصرى زعم أن الذين يكتمون العلم يؤذى ربح بطونهم النار، فقال أبو جعفر: إذا هلك مؤمن آل فرعون و الله مدحه بذلك.

ص:473

---

1-1) النقى كغنى. قال فى النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقى يعنى الخبز الحوارى.

وقصده العلماء للسؤال وكشف الحقائق كعمرو بن عبيد، و طاوس اليماني، و الحسن البصري، و نافع مولى ابن عمر، و غيرهم ممن يطول ذكرهم (1). وقد ناظر أهل الفرق و خاصمهم و بين لهم فساد آرائهم و سوء معتقداتهم إلى كثير مما هو مذكور فى محله. و كان عليه السلام يزود الوافدين بتعاليم قيمة، و يدعو إلى الله بالحكمة و الموعدة الحسنة. و نرى من الأجدد أن نذكر بعضا من كلماته و مختارات من مواعظه.

### حكمه:

\*كفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه. \*أشد الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال، و إنصافك من نفسك، و مواسة الأخ فى المال. \*إذا رأيتم القارئ يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا، و إذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص. \*ما شيب شىء بشىء أحسن من علم بحلم. \*إن استطعت أن لا- تعامل أحدا إلا- و لك الفضل عليه فافعل. \*من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه. \*إياك و الكسل و الضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإن من كسل لم يؤد حقا، و من ضجر لم يصبر على حق. \*التواضع: الرضا بالمجلس دون شرفه، و أن تسلم على من لقيت، و أن تترك المرء و إن كنت محقا. \*إن لله عقوبات فى القلوب و الأبدان: ضنك فى المعيشة، و وهن فى العبادة، و ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب. \*الحياء و الإيمان مقرونان، فإذا ذهب أحدهما ذهب صاحبه. \*إن هذا اللسان مفتاح كل خير و شر، فينبغى للمؤمن أن يختم على لسانه كما

ص:474

يختم على ذهبه وفضته، فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: رحم الله مؤمنا أمسك لسانه من كل شر، فإن ذلك صدقة منه على نفسه. \*عليكم بالورع والاجتهاد وصدق الحديث و أداء الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برا كان أو فاجرا، فلو أن قاتل علي بن أبي طالب ائتمنى على أمانة لأديتها إليه. \*اعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فأكرم وجهك عن رده. \*الكسل يضر بالدين والدنيا. \*لا- يقبل عمل إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف دلتته معرفته على العمل، ومن لم يعرف فلا عمل له. \*من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره في أهله زيد في عمره. \*ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عمن ظلمك، و تصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك. \*سلاح اللئام قبيح الكلام. وقد نظمه بعضهم: لقد صدق الباقر المرتضى سليل الإمام عليه السلام

بما قال في بعض ألفاظه سلاح اللئام قبيح الكلام (1)

\*قم بالحق واعتزل ما لا يعينك، وتجنب عدوك، واحذر صديقك ولا تصحب الفاجر ولا تطلعه على سر. واستشر في أمرك الذين يخشون الله. \*إنما مثل الحاجة إلى من أصابه ماله حديثا كمثله الدرهم في فم الأفعى أنت إليه محتاج وأنت منها على خطر. \*قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين، ويحب الحيى الحليم العفيف المتعفف. \*إن المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ولا يحزنه ولا يسىء به الظن.

ص:475

## وصيته لعمر بن عبد العزيز:

لما ولي عمر بن عبد العزيز طلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه في آخرته و دنياه فقال عليه السلام: أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا، وأوسطهم أخا، وأكبرهم أبا، فارحم ولدك وصل أخاك وبر والدك، وإذا صنعت معروفا فربه (أى أدمه). ودخل عمر بن عبد العزيز المدينة واجتمع بالإمام الباقر عليه السلام فأوصاه الإمام بقوله: إنما الدنيا سوق من الأسواق يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرهم، وكم قوم ابتاعوا ما ضرهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين، لما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة، فقسم ما جمعوا لمن لم يحمدهم وصاروا إلى من لم يعذرهم، فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، فكف عنها واتق في نفسك اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدمه بين يديك. وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذا قدمت على ربك فارمه وراءك ولا ترغب في سلعة بارت على من كان قبلك فترجو أن يجوز عنك. وافتح الأبواب وسهل الحجاب وانصف المظلوم ورد المظالم. ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله: من إذا رضى لم يدخله رضاه في باطل، و من إذا غضب لم يخرج غضبه من الحق و من إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

## وصيته لجابر الجعفي:

من وصيته لجابر بن يزيد الجعفي. فكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك، فسقوطك من عين الله جل وعز عند غضبك من الحق، أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك. واعلم أنك لا تكون لنا وليا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن

اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكا سبيله زاهدا في تزهيده راغبا في ترغيبه، خائفا من تخويفه، فائت و ابشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك. و إن كنت مباينا للقرآن فما ذا الذى يغرك من نفسك، إن المؤمن معنى بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها و يخالف هواها فى محبة الله. إلى أن يقول: و توق مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند الهوى باسترشاد العلم، و استبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، و اقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، و سد سبيل العجب بمعرفة النفس، و تحرز من إبليس بالخوف الصادق، و إياك و الرجاء الكاذب، فإنه يوقعك فى الخوف الصادق. . . و اطلب بقاء العز بإماتة الطمع، و ادفع ذل الطمع بعز اليأس، و استجلب عز اليأس ببعد الهمة، و تزود من الدنيا بقصر الأمل، و بادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة. و اعلم أنه لا علم كطلب السلامة، و لا سلامة كسلامة القلب، و لا عقل كمخالفة الهوى، و لا -خوف كخوف حاجز. و لا -رجاء كرجاء معين، و لا فقر كفقر القلب، و لا غنى كغنى النفس، و لا قوة كغلبة الهوى، و لا معرفة كمعرفتك بنفسك، و لا نعمة كالعافية، و لا عافية كمساعدة التوفيق، و لا شرف كبعد الهمة. . . إلى آخر وصيته و هى طويلة أخذنا منها اليسير (1).

### من تعاليمه:

إلى كثير من وصاياه و تعاليمه (2). و قد احتفظ التاريخ بكثير من تراثه الفكرى بما فيه الكفاية للعقل اليقظان و البصيرة الواعية، فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر و الحكم، متوجها إلى النصح و الإرشاد، منقطعا لتوجيه المجتمع، فكان يغتنم فرصة استعداد سامعيه لتلقى ما يدلى به من النصائح التى تصل لقلب السامع، فلا يسعه إلا التسليم.

ص: 477

1-1) تحف العقول 69. [1]

2-2) المذكورة فى تاريخ ابن كثير و اليعقوبى، و الصواعق لابن حجر، و كشف الغمة للإربلى و الفصول المهمة لابن الصباغ، و تحف العقول، و [2] مطالب السؤل، و تذكرة الخواص و غيرها.

وقد كان يؤدب أصحابه بآداب الإسلام، ويحثهم على الطاعة و مكارم الأخلاق، ويدعوهم إلى العمل في إصلاح معاشهم بما يصلح به حالهم، فكان يقول: من طلب الدنيا استعفافا عن الناس وسعيا على أهله وتعطفًا على جاره، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر. وكان يقول: نعم العون الدنيا على الآخرة، وكان عليه السلام يحثهم على حسن العشرة و ملازمة الآداب لئلا يتكدر صفو المودة و تفسد الأخوة. و ليس وراء ذلك إلا العناء. فتراه عليه السلام يكثر من قوله: عظموا أصحابكم و قروهم، و لا يتهجم بعضكم على بعض، و لا تضاروا و لا تحاسدوا، و إياكم و البخل، كونوا عباد الله المخلصين. و كان ينهى عن كثرة المزاح بقوله: كثرة المزاح تذهب بماء الوجه، و كثرة الضحك تمج الإيمان مجا. و كان يوصيهم بحسن الجوار و تحمل الأذى من الجار، و يقول: قرأت في كتاب على عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كتب بين المهاجرين و الأنصار و من لحق بهم من يثرب: إن الجار كالنفس غير مضار و لا آثم، و حرمة الجار على الجار كحرمة أمه. . . الحديث. ليس حسن الجوار كف الأذى و إنما حسن الجوار صبرك على الأذى. و قال عليه السلام: من القواصم التي تقصم الظهر، جار السوء إن رأى حسنة أخفاها و إن رأى سيئة أفشاها. إلى غير ذلك مما لا يمكننا عرضه و لا نستطيع إحصاء تعاليمه القيمة و حثه على محاسن الأخلاق و حسن الآداب، فقد كان يحب الخير و يدعو إليه و هو في عصره المثل الأعلى في مكارم الأخلاق و جميل الصفات. و هكذا قضى حياته متوجها لله باذلا نصحه للأمة متحملا من ولاة عصره ضروب الأذى و التصنيق و الأهوال عليه السلام و لكنه ثبت أمام تيار ظلمهم غير حافل بما يوجهونه إليه، مستعينا بالله متوكلا عليه، فاحتمل تلك الملمات في سبيل نصرة الحق و إحراز النصر، و تم له أعظم النجاح على خصومه الذين وجهوا إليه كل أذى،



و حاولوا صرف الناس عنه بكل وسيلة، و لقد جلبه هشام إلى الشام مرتين يحاول الفتك به، و لكن الله برعايته رد عنه كيده و صرف عنه أذاه.

### الإمام الباقر و عبد الملك:

كان عبد الملك بن مروان يتعد عن التعرض للإمام الباقر عليه السلام و أهل بيته و كتب إلى عامله في الحجاز: جنبني دماء آل أبي طالب فإنني رأيت آل حرب لما تهاجموا بها لم ينصروا (1). فهو لا- يجهل منزلتهم و يعرف مكائنتهم، و لكن حرصه على ملكه و طمعه في دنياه يدعو إلى نصب العداء لهم؟ لأنهم أوقع منه في نفوس الأمة و إليهم تهوى أفئدة المسلمين. و كان يلجأ إليهم في أكثر الأمور التي تهمه، و لا يجد المخرج منها إلا بهم لعلمه بمكائنتهم مع تكتمه و عدم إظهار ذلك (2). و لما كتب إليه ملك الروم يتوعده فضاق عليه الجواب، فكتب إلى الحجاج و هو إذ ذاك على الحجاز: أن ابعث إلى علي بن الحسين زين العابدين فتوعده و تهدده و أغلظ له، ثم انظر ما ذا يجيبك؟ فاكتب به إليّ. ففعل الحجاج ذلك. فقال له علي بن الحسين عليه السلام: إن لله في كل يوم ثلاثمائة و ستين لحظة، و أرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته. فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك. و لما كتب ملك الروم لعبد الملك بن مروان يتهدده أن يذكر النبي صلى الله عليه و آله و سلم في الدنانير بما يكرهون، فعظم ذلك على عبد الملك و استشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأياً (3). فقال له روح بن زبياع: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر، و لكنك تتعمد تركه، فقال ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: صدقت و لكنه ارتج الرأي فيه.

ص: 479

1-1 (1) اليعقوبي ج 3 ص 47. [1]

2-2 (2) سنذكر ذلك في الجزء الثامن من الكتاب إنشاء الله.

3-3 (3) شذور العقود للمقریزی ص 7.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إليّ محمد بن علي بن الحسين مكرماً، و متعه بمائة ألف درهم لجهازه و بثلاثمائة ألف لنفقته، و أرح عليه في جهازه و جهاز من يخرج معه من أصحابه، و حبس عبد الملك رسول ملك الروم إلى موافاة محمد بن علي الباقر، فلما وافاه أخبره الخبر، فقال له محمد الباقر: لا يعظم عليك فإنه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أن الله عز و جل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم، و الثاني وجود الحيلة فيه قال: و ما هي؟ قال: تدعو بصاغة فيضربون بين يديك سككا للدرهم و الدنانير و تجعل النقش عليها سورة التوحيد إلى آخر القصة (1). و على أي حال فالإمام أبو جعفر الباقر أعلم أهل زمانه و سيد الهاشميين و أفضلهم في عصره، و لم يكن ليحيا حياة العزلة أو ينضم في زاوية الخمول، بل كانت له شهرة، و لمدرسته أثر في توجيه الفكر. تخرج منها علماء الأمة الذين هم مفخرة الزمن. و قد نظر إليه رجال السلطة نظر تهيب و تحفظ، و وقفوا أمام نشر تعاليمه و انتشار ذكره موقف المعارضة، لأن ذلك يهدد مناصبهم التي أحاطت بها هالة من الجهل، و التف حولها أعداء الفضيلة و خصوم الحق، و قد تحمل صلوات الله عليه ضروب الأذى، و ثبت أمام تلك المصاعب مجاهداً لإحياء الدين و تأييد الشريعة و خدمة الإنسانية، و دعا المسلمين لما فيه صلاح دينهم و دنياهم ليصبحوا أمة أبراراً، يتعاونون على البر و التقوى و العدل و الإحسان، حتى قضى صابراً محتسباً، سنة 114 هـ - مسموماً و دفن بالقيع مع أبيه زين العابدين عليه السلام و الحسن السبط عليه السلام. فسلام عليه يوم ولد و يوم مات و يوم بيعت حيا. و قد أوصى لولده الإمام جعفر بن محمد الصادق بما أوصاه به أبوه زين العابدين عند ما حضرته الوفاة بقوله: يا بني إن العقل راند الروح، و العلم راند العقل، و العقل ترجمان العلم، و اعلم أن العلم أبقى و اللسان أكثر هدراً، إلى أن قال له: إن الساعات تذهب عمرك و إنك لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، فإياك و الأمل الطويل فكم من مؤمل أملا لا يبلغه، و جامع

ص: 480

---

1-1) الدميري ج 2 ص 55، و [1] المحاسن و المساوى للبيهقي، و [2] العقد المنير ص 18 و هامش شذور العقود ص 7 و قد نسب ابن الأثير هذه الفكرة لخالد بن يزيد و هي خطأ.

ما لا يأكله، و مانع ما سوف يتركه. إلى آخر وصيته ثم قال: أوصيك بما أوصاني به أبى حين حضرته الوفاة: إياك و ظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله. و كان له من الأولاد خمسة من الذكور: الإمام جعفر الصادق عليه السلام و كان يكنى به، و عبد الله الأفطح و أمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر، و عبيد الله و إبراهيم أمهما أم حكيم بنت أسد الثقفية، و علىّ و أمه أم ولد. و على كل حال فالإمام أبو عبد الله جعفر الصادق وارث أبيه و خليفته من بعده، و قد نشأ فى ظله و تغذى من علومه و استمد مواهبه منه، و قد دب و درج فى حجور طابت و بيوت طهرت و نشأ فى ربوع الوحي و ترعرع فى مهد الرسالة، و هو من أهل بيت النبوة و معدن العلم و مهبط الوحي، و هم كما يقول القائل: إذا ولد المولود منهم تهللت له الأرض و اهتزت إليه المنابر

فهو حكام الإسلام و أعلام الأنام: لو كان يوجد عرف مجد قبلهم لوجدته منهم على أميال

إن جنتهم أبصرت بين بيوتهم كرما يقيك مواقف التسأل

نور النبوة و المكارم فيهم متوقد فى الشيب و الأطفال

(1) و لهم فى كتاب الله غنى عن مدح المادحين و وصف الواصفين: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [الأحزاب:33]. و قد ختم الإمام الباقر عليه السلام حياته بالإيضاء بأصحابه و رعايتهم لأنه يعلم ما سيواجهون من مصاعب و ويلات فقال للقائم بالأمر من بعده، و وصيّه جعفر الصادق لَمَّا حضرته الوفاة: يا جعفر، أوصيك بأصحابي خيراً.

ص:481



## إشارة

في عهد المنصور

## تمهيد:

انتقل الأمر بعد السفاح إلى أخيه أبي جعفر المنصور سنة 136 هـ- وكان السفاح لين الجانب مع أبناء عمه، يصلهم و يتظاهر بالعطف عليهم، و يتحمس لما نالهم من الأذى و ما حل بهم من نكبات في العهد الأموي، و يعلن بأخذ ثأرهم و الانتقام من عدوهم. و كان العلويون و العباسيون على وئام لم تنقطع بينهم الصلات، و لم يحدث بينهم ما يثير الأحقاد و يفرق الكلمة، و إن كان العباسيون قد استأثروا بالأمر و نقضوا بيعتهم التي عقدها بالأبواء لآل علي عليهم السلام. و لكن المنصور الدوانيقي عند ما ولي الحكم و مهد له الأمر غدر بأبناء علي عليه السلام و تعرضوا في عهده لخطر شديد، و نالهم من الأذى ما لم يكن بالحسبان. يقول السيوطي (1): و المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين و العلويين، و كانوا شيئاً واحداً. و إن سيرة حياته مليئة بتلك الحوادث المحزنة التي لقيها آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم في عهده من قتل و سجن و تشريد كما أشرنا له من قبل. لقد كان المنصور قوى النزعة إلى انتهاز الفرصة للإيقاع بمن يظن به نشاطاً سياسياً أو علمياً، فهو يتوصل بكل وسيلة إلى نيل مقصده و لا يتوقف بأن يسىء إلى من أحسنوا إليه، و يتنكر لمن قدموا له المعروف و غمروه بفضلهم.

ص: 483

يقول المقدسى (1): كان رجلا أسمر نحيفا طويل القامة قبيح الوجه دميم الصورة ذميم الخلق، أشح خلق الله وأشد حبا للدينار والدرهم سفاكا للدماء ختارا بالعهود غدارا بالمواثيق كفورا بالنعم قليل الرحمة و كان جال في الأرض و تعرض للناس و كتب الحديث و حدث في المساجد و تصرف في الأعمال الدنية و الحرف الشائنة و قاد القود لأهلها و ضربه سليمان بن حبيب بالسياط في الجملة و التفصيل، كان رجلا- دنيا خسيسا كريها شريرا فلما أفضى الأمر إليه أمر بتغيير الزى و تطويل القلانس فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل، فقال أبو دلامة في هجوه: و كنا نرجى من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى بالقلانس

تراها على هام الرجال كأنها ديار يهود جللت بالبرانس

و على أى حال فقد تقدم فى الأبحاث السابقة من الجزء الأول بعض أخباره مع الإمام الصادق عليه السلام و محاولته الفتك به مرارا و لكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شىء قدرا. فقد عصمه الله منه و دفع شره عنه.

### محاولة المنصور قتل الإمام:

و هنا نعود لذكر بعض ما لقيه الإمام الصادق عليه السلام فى عهد المنصور لناخذ صورة عن الحياة التى كان يحيها الإمام عليه السلام فى عهده. و ما من شك أن المنصور قد حاول عدة مرات أن يفتك بالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام و أرسل إليه من يحضره عنده عدة مرات. و قد عزم على الحج فى سنة 147 هـ- لأجل القبض على الإمام الصادق عليه السلام فلم يتم له ذلك (2). و لكن هل أن المنصور سجن الإمام الصادق عليه السلام ثم أطلقه أم أنه كان يعزم على ذلك و يحضره أمامه و يترك عما عزم عليه؟ و إن بعض المؤرخين قد ذكر أن المنصور قد حبس الإمام الصادق عليه السلام (3) و بعضهم لم يتعرض لذلك كما أن أكثرهم قد أهمل كثيرا من الحوادث التى جرت فى

ص: 484

1-1 (1) البدء و التاريخ ج 6 ص 90-91. [1]

2-2 (2) النجوم الزاهرة لجمال الدين الاتابكى ج 2 ص 6. [2]

3-3 (3) طمط النجوم الغوالى للعصامى المكى ج 3 ص 239.

عهد المنصور على أهل البيت عليهم السلام وبالأخص أخبار الإمام الصادق عليه السلام. ونحن بعد ذكرنا لبعض أخبار الإمام عليه السلام مع المنصور نستطيع أن نقف على كثير من الحقائق: حدث الربيع حاجب المنصور قال: لما استقرت الخلافة لأبي جعفر المنصور قال لي: يا ربيع ابعث إلي جعفر بن محمد. قال الربيع: فذهبت إليه وقلت: يا أبا عبد الله أحب أمير المؤمنين فقام معي، فلما دنونا من الباب قال الإمام الصادق فحرك شفتيه ثم دخل فسلم فلم يرد المنصور السلام، ثم رفع رأسه إليه فقال: يا جعفر أنت الذي ألّبت عليّ؟ فاعتذر إليه الإمام حتى سكن غضبه، فقال: اجلس أبا عبد الله، ثم دعا بمدن غالية، فجعل يطيبه بيده والغالية تقطر من بين أنامل المنصور، ثم قال: انصرف أبا عبد الله، وقال: يا ربيع اتبع أبا عبد الله جائزته وضاعفها. قال الربيع: فخرجت فقلت: يا أبا عبد الله شهدت ما لم تشهد وسمعت ما لم تسمع، وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك إليه، أشيء تؤثره عن آبائك الصالحين؟ فقال الصادق: حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان إذا حزنه أمر دعا بهذا الدعاء، وكان يقول: هو دعاء الفرج: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بركنك الذي لا يرام، واحفظني بعزك الذي لا يضام، واكلائني في الليل والنهار، وارحمني بقدرتك عليّ، أنت ثقتي ورجائي، فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قل لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل بها لك صبري، وكم خطيئة ركبته فلم تقضحني، فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلّ عند بلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يعاقبني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضى أبداً، ويا ذا الأيادي التي لا تحصى عدداً، ويا ذا الوجه الذي لا يبلى أبداً، ويا ذا النور الذي لا يطفأ سرمداً! أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم، وأن تكفيني شر كل ذي شر، بك أدرا في نحره وأعوذ بك من شره، وأستعينك عليه. اللهم أعني على

دينى بدنياى، و على آخرتى بالتقوى، و احفظنى فيما غبت عنه، و لا تكلنى إلى نفسى فيما حضرته. يا من لا تضره الذنوب و لا تنقصه المغفرة اغفر لى ما لا- يضرک، و هب لى ما لا ينقصک. يا إلهى أسألك فرجا قريبا و أسألك العافية من كل بلية، و أسألك الشکر على العافية، و أسألك دوام العافية. و أسألك الغنى عن الناس، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم. اللهم بک أستدفع مکروه ما أنا فيه، و أعوذ بک من شرّه يا أرحم الراحمين (1). و بهذا فقد رد الله کيد المنصور و دفع عن الإمام شره لأنه عليه السلام عليه من الله جنة واقية. كما حدث الربيع مرة أخرى بأن المنصور أرسله لاستقدام جعفر الصادق عليه السلام لشيء بلغه عنه فلما وافى قال الحاجب: أعيدک بالله من سطوة هذا الجبار فإنى رأيت ضرره عليك شديدا. فقال الإمام الصادق عليه السلام: على من الله جنة واقية تعيننى إن شاء الله. استأذن لى عليه فلما دخل الإمام عليه السلام دار بينهما حديث طويل و كان الإمام يجيب عما يوجه إليه المنصور من تهم حتى هدأ غيظه و تصاغر أمام قوة الإيمان و سلطان الحق، و قال المنصور: صفحت عنک لعذرک و تجاوزت عنک لصدقک فحدثنى بحديث أنتفع به و يكون لى زاجرا عن الموبقات. فقال الصادق عليه السلام: عليك بالحلم فإنه ركن العلم، و املك نفسك عند أسباب القدرة فإنک إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفى غيظا و تداوى حقا، و يحب أن يذكر بالصولة، و اعلم بأنک إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل، و الحال التى توجب الشکر أفضل من الحال التى توجب الصبر، فقال المنصور: وعظت فأحسننت و قلت فأوجزت. و كان المنصور كلما دخل المدينة فلا يهمله أمر إلا الوقية بأبى عبد الله و يسلك إلى ذلك مختلف الطرق و شتى الوسائل، و لكن الإمام عليه السلام كان بقوة إيمانه و التجائه إلى ما وعد الله المؤمنين من الدفاع عنهم، فهو لا يهتم و لا يخشى بطشه.

ص:486



و أرسل إليه مرة أخرى و هو بالمدينة-كما حدث الربيع-، وقال: انطلق في وقتك هذا على أخفض جناح و ألين مسير فإن استطعت أن تكون وحدك فافعل، حتى تأتي أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام و قل له: هذا ابن عمك يقرئك السلام و يسألك المصير إليه في وقتك هذا، فإن سمح بالمسير معك، و إن امتنع بعذر أو غيره فاردد الأمر إليه في ذلك. قال الربيع: فصرت إلى بابه فوجدته في دار خلوته معفرا خديه، مبتهلا بظهر يديه، قد أثر التراب في وجهه و خديه، فأكبرت أن أقول له شيئا حتى فرغ من صلاته و دعائه، ثم انصرف بوجهه. فقلت: السلام عليك يا أبا عبد الله فقال: و عليك السلام ما جاء بك؟ فأخبرته الخبر. فقال: يا ربيع ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق و لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم. . . [الحديد:16]. و يحك يا ربيع أ فأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا و هم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى و هم يلعبون. فأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون [الأعراف:97-99] ثم قال: و عليه السلام، ثم أقبل على صلاته، ثم صرف إلى وجهه فقلت هل بعد السلام شيء؟ فقال: قل له: أفرايت الذي تولى. و أعطى قليلا و أكدى. أعنده علم الغيب فهو يرى [النجم:33-35]. ثم قال له: بلغه إنا قد خفناك و خافت لخوفنا النسوة، فإن كفت و إلا أجرينا اسمك في كل يوم خمس مرات، إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: أربع دعوات لا يحجب عن الله: دعاء الوالد لولده، و الأخ بظهر الغيب لأخيه، و المظلوم، و المخلص. و أرسل إليه محمد بن الربيع، و أمره أن يأتيه به على الحالة التي هو عليها و قال: امض إلى جعفر بن محمد فتسلق على حائطه و لا تفتح عليه بابا فيغير بعض ما هو عليه، و لكن انزل عليه نزولا فامثل ما أمره. قال محمد بن الربيع: فوجدته قائما يصلى، فلما سلم من صلاته، قلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: دعنى ألبس ثيابى. فقلت: ليس إلى تركك من سبيل، إلى أن جاء به على حالته وأدخل على المنصور، فلما نظر إليه قال: يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك على أهل هذا البيت من بنى العباس، وما يزيدك ذلك إلا شدة الحسد وما تبلغ به ما تقدره. فقال عليه السلام: والله ما فعلت شيئا من هذا، ولقد كنت فى ولاية بنى أمية وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنهم لا حق لهم فى هذا الأمر، فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى سوء مع جفاهم الذى كان بى، وكيف أصنع هذا؟ وأنت ابن عمى وأمس الخلق بى رحما. فأطرق المنصور ساعة ثم رفع وسادة إلى جنبه، فأخرج إضبارة كتب فرمى بها إليه وقال: هذه كتبك إلى خراسان تدعوهم إلى نقض بيعتى وأن يباعدوك دونى. فقال عليه السلام: والله ما فعلت وقد بلغت من السن ما قد أضعفنى عن ذلك لو أردته، فصيرنى إلى بعض حبوسك حتى يأتينى الموت فهو منى قريب. فقال: لا ولا كرامة، ثم أطرق وضرب يده إلى السيف فسل منه مقدار شبر ثم رد السيف وقال: يا جعفر أ ما تستحى مع هذه الشبية ومع هذا السن أن تنطق بالباطل، وتشق عصا المسلمين؟ تريد أن تريق الدماء وتطرح الفتنة بين الرعية والأولياء؟ فقال عليه السلام: لا والله ما فعلت ولا هذه كتبى ولا خطى ولا خاتمى، ثم أقبل على جعفر يعاتبه وجعفر يعتذر إليه، ثم رفع رأسه وقال: أظنك صادقا (1). وعن عبد الله بن أبى ليلى قال: كنت بالربذة مع المنصور وكان قد وجه إلى أبى عبد الله، فأتى به فلما جرى به صاح المنصور: عجلوا به قتلنى الله إن لم أقتله. فأدخل عليه مع عدة جلاوزة فلما انتهى إلى الباب، رأيته قد تحركت شفتاه ودخل فلما نظر إليه المنصور، قال: مرحبا يا ابن عم مرحبا يا ابن رسول الله فما زال يرفعه حتى أجلسه على وسادته. ثم خرج فسأله ابن أبى ليلى عما قاله عند دخوله على المنصور، فأجابه الإمام: نعم إنى قلت: ما شاء الله ما شاء الله لا يأتى بالخير إلا الله، لا يصرف السوء إلا الله ما شاء الله ما شاء الله كل نعمة فمن الله، ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ص: 488

و عن صفوان بن مهران الجمال قال: رفع رجل من قریش المدينة من بنى مخزوم إلى أبى جعفر المنصور أن جعفر بن محمد بعث مولاہ المعلى بن خنيس بجباية الأموال من شيعته، و أنه كان يمد بها محمد بن عبد الله، فكاد المنصور أن يأكل كفه على جعفر غيظا و كتب إلى أمير المدينة أن يسير إليه جعفر بن محمد، و لا يرخص له فى التلوم و المقام. فلما بلغه قال لى: تعهد راحلتنا فإننا غادون فى غد إن شاء الله إلى العراق، فلما أصبح أبو عبد الله رحلت له الناقة، و سار متوجها إلى العراق حتى قدم مدينة أبى جعفر، فاستأذن و أذن له، فلما رآه قربه و أدناه، ثم أسند قصة الرفع على أبى عبد الله فقال الصادق عليه السلام: معاذ الله، قال المنصور: تحلف على براءتك، إلى أن قال المنصور: إنى أجمع الساعة بينك و بين الرجل الذى رفع عنك حتى يواجهك، فجىء به و اعترف أمام جعفر بصحة ما رفعه عنه. فقال أبو عبد الله: تحلف أيها الرجل؟ قال: نعم ثم ابتداء الرجل باليمين، فقال الصادق: لا تعجل فى يمينك. ثم حلفه بما أراد و انتقم الله من الساعى عاجلا. و عن محمد بن عبد الله الاسكندرى قال: كنت من ندماء المنصور و خاصته فدخلت عليه فوجدته مغتما، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال لى: يا محمد لقد قتلت من أولاد فاطمة مقدار مائة و بقى سيدهم و إمامهم، فقلت له من؟ قال: جعفر الصادق، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه رجل أنحلته العبادة و اشتغل بالله عن طلب الملك و الخلافة، فقال: يا محمد و قد علمت أنك تقول به و يامامته، و لكن الملك عقيم، و قد آليت على نفسى أن لا أمسى عشيتى هذه أو أفرغ منه. قال محمد: ثم دعا سيافا و قال له: إذا أنا أحضرت أبا عبد الله و شغلته بالحديث و وضعت قلنسوتى من رأسى، فهى العلامة بينى و بينك فاضرب عنقه، ثم أحضر أبا عبد الله فرأيت المنصور يمشى بين يديه و استقبله و أجلسه على سريره. ثم قال: سل حاجتك يا ابن رسول الله، قال: أسألك أن لا تدعونى. . . (1). و نحن نستظهر من هذه الحوادث عدة أمور: 1- إن حنق المنصور على الإمام و محاولته الفتك به لم يكن لباعث عدا

ص: 489

متأصل فهو قد اتصل به أيام المحنة وسمع الحديث و كان من المؤازرين له إذ المنصور كان من أكبر الدعاة للعلويين، وقد بايع محمد ذى النفس الزكية و كان يدعو الناس للثورة على الأمويين باسم العلويين. و لكن المنصور عند ما ولى الحكم و تحول إليه الأمر تنكر لأبناء عمه فكان حرصه على ملكه يدعو له لأن يقضى على أعظم شخصية منهم تتجه إليها أنظار العالم الإسلامى، فقد كان موقف الإمام فى عصر انتشار العلم و شهرته التى ملأت الآفاق تقضى مضجع المنصور و تنكد عليه عيشه، فوجود الإمام الصادق كان من أخطر المشاكل التى تواجهها دولة العباسيين، لأنهم جلبوا قلوب الناس بالغضب على أمية، لسوء السيرة التى ارتكبوها مع أبناء عليّ، فنالوا بذلك السلطان الذى ساعدهم الحظ على الحصول عليه، فتظاهروا بالدين مع أن أعمالهم لا يمكن التوفيق بينها و بين نظم الإسلام الواقعية. و الإمام الصادق عليه السلام لعظيم منزلته كانت تتجه إليه الأنظار، فبمجرد إنكاره على الدولة يشتد جانب المنكرين من العلويين و غيرهم، فيتسع ميدان المؤاخذات. و الدولة فى دورها الجديد لا يمكنها أن تقف تجاه حزب العلويين و غيرهم، لذلك نرى المنصور وقف بين السلب و الإيجاب فى قضية الإمام الصادق، فهو يعزم على قتله مجازفا فى ذلك و لكن دهاءه فى قضية الإمام الصادق، فهو يعزم على قتله مجازفا فى ذلك و لكن دهاءه و حذره من سوء العاقبة يدعو إلى التريث، فكان يتظاهر بالعطف، حتى حان الزمن و حصلت الفرصة. 2- اتضح لها من حديث إضبارة الكتب المزورة أن ذلك العمل يدل على وجود قوة متكاتفة من الدخلاء فى الإسلام على السعى بكل جهد لتفريق الأمة، و إيقاد نار الفتنة بتزوير الكتب على الإمام الصادق و انتحال الأقوال التى يسلب لبّ المنصور سماعها، و يخرج عن حدود اتزانه فيخاطب الإمام بتلك اللهجة القاسية التى لا تصدر إلا عن جاهل لا يعرف ما يقول. و إن كنت لا أستبعد التزوير من المنصور نفسه، أو من رجال بلاطه و على أى حال، فإن الدخلاء فى صفوف المسلمين يجهدون فى إيقاد نار الفتنة لحصول ثورة دموية، فيقفون موقف المتفرج و أينما أصابت فتح، فإنهم يأملون بقتل الإمام الصادق حصول اضطراب و حوادث تؤدى إلى ضعف الدولة الفتية و انحلالها، لأنهم يعلمون ما

لأهل البيت في قلوب المسلمين من الولاء، وأن الإمام الصادق هو الذي تجب طاعته، و تحرم مخالفته، وهم الذين يسميهم المنصور بالأوغاد. وفي الحقيقة هم علماء دار الهجرة، وفيهم خيرة الشباب النابه، وكذلك في سائر الأمصار. والمحصل إن مسألة تزوير الكتب لا تخلو من اثنين: إما هؤلاء القوم الذين يريدون ضعف الأمة الإسلامية، وإما المنصور ورجالاته أرادوا أن يكون لهم طريقا لقتل الإمام و عذرا به يعتذرون للمنكرين عليهم، ولكن الله رد مكر الجميع، و خيب سعيهم، و كان عليه من الله جنة واقية. 3- يظهر من رواية صفوان الجمال المتقدمة أن الإمام الصادق دخل بغداد، و أفاد الناس بها من علمه «وإن بالجانب الغربي من بغداد على ضفة الفرات شمال جسره الغربي اليوم المعروف بالجسر القديم مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق، و لس فيه اليوم أثر بيّن، و لعله أفاد الناس فيه عند مجيئه إلى بغداد على عهد المنصور» (1). و الغريب أن الخطيب البغدادي (2) لم يذكره، و لكن لا يستغرب ذلك ممن نشأ في عصر احتدام التعصب الطائفي، و لا تجهل نفسية الخطيب. 4- إن المنصور مهما بلغت به الحالة من الشذوذ و الانحراف عن الإمام الصادق، و مهما بلغ من عدائه و بغضه لا يجهل منزلة الإمام، و يعرف له قدره. و لقد حاول أن يستميله و يجلب وده، و لكن الإمام ابتعد عنه، و أعلن سخطه عليه و على ولايته، كما اتضح من سيرته، فكان اهتمام المنصور بأمره أعظم من كل أحد، لأن الملك عقيم، و لا يقف أمام تركيز دعائمه شيء، فقد أسرف المنصور في سفك الدماء في سبيل ذلك، حتى قتل أقرب الناس إليه و أمسهم رحما به، لقد قتل عمه عبد الله بن عليّ.

ص: 491

- 
- 1- 1) حياة الإمام الصادق لشيخنا المظفر ج 1 ص 146. [1]
- 2- 2) هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، أبو بكر الخطيب المتوفى سنة 463 هـ- تفقه على مذهب الشافعي، و رحل إلى نيسابور في سنة 415 هـ-، لاضطراب الأحوال ببغداد، و حدوث التعصب بين المذاهب، و قد آذاه الحنابلة و استتر في فتنة البساسيري و خرج إلى الشام، لأنه كان على مذهب أحمد بن حنبل، قال ابن الجوزي: فمال عنه أصحابنا لما رأوا من ميله إلى المبتدعة و آذوه، فانتقل إلى مذهب الشافعي و تعصب في تصانيفه. كما أن الحنفية حملوا عليه و فسقوه.

يحدثنا المسعودي: أن المنصور سلّم عبد الله بن علي إلى أبي الأزهر المهلب ابن أبي عيسى، فلم يزل عنده محبوساً، ثم أمره بقتله، فدخل عليه و معه جارية له، فبدأ بعبد الله، فخنقه حتى مات، ثم مده على الفراش، ثم أخذ الجارية ليخنقها، فقالت: يا عبد الله قتلة غير هذه، فكان أبو الأزهر يقول: ما رحمت أحداً قتلته غيرها، فصرفت وجهي عنها، وأمرت بها فخنقت، و وضعتها معه على الفراش (1). كما يتضح لنا أن المنصور كان يخشى دعوة الإمام الصادق، و كان يتهيبه في نفسه، فهو يشعر بالتصاغر أمام هيبة الإمام، مهما بلغت هيبة المنصور المصطنعة، و مهما كنت عظمتة في ملكه. و قد كان الإمام الصادق مجاب الدعوة عرف الناس عنه ذلك، فهو يلجأ إلى الله تعالى في كل ما يهمه، و يفزع إليه في شدائده، إذ الدعاء سلاح المؤمن و مخ العبادة. و قد شاهد المنصور كثيراً من ذلك، كدعاء الإمام الصادق على حكيم بن عياش الكلبي شاعر الأمويين مفتخراً بقتل زيد بن علي بقوله: صلبننا لكم زيدا على جذع نخلة و لم نر مهدياً على الجذع يصلب

و قستم بعثمان علياً سفاهة و عثمان أركى من علي و أطيّب

قال ابن حجر: فجاء رجل إلى جعفر الصادق فقال: هذا ابن عياش ينشد للناس هجاءكم بالكوفة. فقال: هل علقت بشيء منه؟ قال: نعم، فأنشده الأبيات، فرفع جعفر يديه، فقال: اللهم إن كان كاذباً، فسلط عليه كلبك، فخرج حكيم، فافترسه الأسد (2). و قصة رجل السوء الذي سعى بالإمام عند المنصور، فلما حج المنصور أحضر الساعي و أحضر الإمام و قال للساعي: أ تحلف؟ قال: نعم. فحلف. فقال الإمام الصادق للمنصور: حلفه بما أراه، فقال: حلفه، فقال الإمام قل: برئت من حول الله و قوته و التجأت إلى حولى و قوتى لقد فعل جعفر كذا و كذا. فامتنع الرجل ثم حلف فما تم حتى مات (3).

ص: 492

1-1 (1) مروج الذهب ج 3 ص 230. [1]

2-2 (2) الإصابة ج 1 ص 395 و [2] تاريخ ابن عساكر.

3-3 (3) الكواكب الدرية ج 1 ص 94. [3]

و كانت له مواقف مع ولاية المنصور الذين كانوا يتحدثون مقامه، ويحاولون إيقاع الأذى تبعا لرئيسهم، و امتثالا لأمره، منها: - أن أحد ولاة المدينة خطب يوم الجمعة، و كان الإمام حاضرا، فحمد الله، ثم ذكر عليا و تعرض له، فقام أبو عبد الله الصادق بذاك الحفل و قال له: و نحن نحمد الله و نصلى على محمد خاتم النبيين و سيد المرسلين. أما ما قلت من خير، فنحن أهله، و ما قلت من سوء، فأنت و صاحبك به أولى، فاختر يا من ركب غير راحلته، و أكل غير زاده! ارجع مأزورا. ثم أقبل على الناس، فقال: ألا أنبئكم بأخلى الناس ميزانا يوم القيامة و أيينهم خسرانا، من باع آخرته بدنيا غيره، و هو هذا الفاسق. فسكت الوالى، و لم ينطق بحرف، و خرج من المسجد. و مثل هذا لا يتحملة المنصور، لأنه لا يخفى عليه، فإن الرصد و العيون يوصلون إليه كل ما يصدر من الإمام الصادق، فهو يتقد بنار غيظه، و يتحين الفرص لإطفائها عند ما يظفر به. و لما كان داود بن علي واليا على المدينة، بالغ فى إيذاء العلويين، و تتبع أنصارهم. و فى أيامه قتل المعلى بن خنيس، قتله السيرافى صاحب شرطة داود. و كان المعلى رحمه الله من موالى جعفر بن محمد و أتباعه، و صودرت أمواله، و تحمل ما تحمل فى سبيل نصرة أهل البيت. و قد ذكروا فى سبب قتله أقوالا: منها: - أن المعلى طلب منه داود أن يدلّه على المخلصين من شيعة أهل البيت، فامتنع، و هده بالقتل، و أصر على امتناعه و تقاينه و إخلاصه لأهل البيت، فأمر داود بقتله. و منهم من يرى أن قتله كان بسبب القيام بالدعوة لمحمد بن عبد الله ذى النفس الزكية، و كان لهذا الحادث الأثر العظيم فى نفس الإمام الصادق «و قد رأى فى هذا الاعتداء اعتداء على حقه، و حربا معلنة عليه، يدل على ذلك عنف الاحتجاج الذى احتج به على الأمير، و التهديد الذى هده به، فقد أجمعت روايات الباحثين فى سيرته على أنه مشى إلى ديوان الأمير، و هو محقق على خلاف عادته، و ألقى خطابا موجزا قال فيه:

«قتلت مولاي، وأخذت مالي، أما علمت أن الرجل ينام على الشكل ولا ينام على الحرب؟ وقد جرى إثر الخطاب أخذ ورد بين الإمام و الأمير لا يخلوان من العنف، ولكن الأمير حاول التنصل وإحالة التقصير على صاحب شرطته. فكانت الحجة واهية. ولم يكن للأمير مهرب من القود، فأمر بقتل السيرافي، ولما أخذ ليقتل، صرح القاتل قائلاً: يأمروني بقتل الناس فأقتلهم لهم. فيأمرون بقتلي. وهي كلمة تدل على أن القاتل كان مأموراً بإزهاق روح المعلى بن خنيس وأنه امتثل أمر الأمير داود بذلك» (1). وكما قلنا: إن الإمام الصادق كان يلجأ إلى الله في مهماته، فقد أهمله قتل المعلى ودعا على داود حتى سمعوه يقول: الساعة الساعة، فما استتم دعاءه حتى سمعت الصيحة في دار داود. وانه قال في دعائه: اللهم إني أسألك بنورك الذي لا يطفى، وبعزائمك التي لا تخفى، وبعزك الذي لا ينقضى، وبنعمتك التي لا تحصى، وبسلطانك الذي كفت به فرعون عن موسى (2). وهكذا بقي أبو عبد الله يتحمل ضروب الأذى وأنواع المحن وكان الخطر محدقاً به، ويدل على ذلك حديثه المشهور وكلمته الخالدة: «عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها». وكان سفيان الثوري يكثر الدخول عليه قبل أن يشتد الأمر على الإمام، ولما دخل عليه في تلك الأيام يطلب منه أن يحدثه قال: يا سفيان أنت رجل يطلبك السلطان وأنا رجل أتقى السلطان قم فاخرج غير مطرود. وخلاصة القول أن الإمام الصادق عليه السلام لقي في أيام المنصور محناً وواجه صعوبات لم يلق بعضها منها في العهد الأموي. كما أن المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه أن يقضى على الإمام الصادق، واتخذ شتى الوسائل في ذلك. فمرة يحضره للفتك به كما تقدم وكانت سلامته في تلك المواقف أعجوبة، لأن المنصور لا

ص: 494

1-1 (1) مؤرخ العراق لابن الفوطى.

2-2 (2) الكافي ج 2 ص 557 [1] ط 2.



يتوقف عن إراقة الدماء، وليس له وازع يحجزه عن ارتكاب المحارم، ولكن عناية الله وعينه التي كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيدته. يحدثنا علي بن ميسرة، قال: لما قدم أبو عبد الله على أبي جعفر أقام أبو جعفر مولى له على رأسه، وقال له: إذا دخل جعفر بن محمد فاضرب عنقه، فلما دخل أبو عبد الله نظر إلى أبي جعفر وأسر شيئاً في نفسه ثم أظهره: «يا من يكفى خلقه كلهم ولا يكفيه أحد، اكفى شر عبد الله بن علي...» فسلمه الله من شره واستجاب دعاءه (1). وكان يعرف كيد المنصور ووسائله التي اتخذها ضده، فمرة يرسل أموالاً إلى العلويين على يد رجال من أعوانه يتظاهرون بأنهم غرباء من أهل خراسان فإذا دفعوا المال إلى أحد من العلويين يأخذون منه كتاباً بوصول المال. وجاء أحد هؤلاء الرجال إلى الإمام الصادق، وقد أرسل معه المنصور مالا جزيلاً ليدفعه إليه وإلى عبد الله بن الحسن، فجاء الرجل إلى المسجد وكان الصادق يصلى فيه فجلس خلفه ينتظره، فالتفت الإمام إليه وقال: يا هذا اتق الله، وقل لصاحبك-يعني المنصور- اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان، وكلهم محتاج... (2). وكذلك كان المنصور يكتب رسائل مزورة على لسان بعض شيعة أهل البيت ويرسلها بيد أعوانه، ويحاول أن ينال غرضه عند ما يحصل على جواب من الإمام لتلك الكتب والرسائل، ولكنه لم يظفر بشيء من ذلك للخطة التي اتخذها الإمام، ولنظره الصائب ورأيه السديد. وكثرت السعيات به إلى المنصور، واجتهد الوشاة بكل حيلة أن ينالوا قصدهم وغرضهم بذلك التقرب إلى المنصور بما يرفعونه إليه من أخبار الإمام التي تدور حول اتصاله بأنصاره وأوليائه في الحجاز والعراق وخراسان، وأنهم كانوا يحملون زكاة أموالهم إليه، وقد زوروا على لسانه كتباً إلى هؤلاء الأنصار يدعوهم فيها إلى خلع بني العباس.

ص: 495

1-1 (1) الكافي ج 2 ص 561. [1]

2-2 (2) ابن شهر آشوب ج 2 ص 302. [2]

و على أى حال فإن المنصور كان يهتم بأمر العلويين عامة، و بجعفر بن محمد خاصة، لأن شبح الثورة يلوح على الدوام فى مخيلته، فهو يقض و لا يقر له حال، و يبذل كل ما فى وسعه لتحصيل غايته.

## سياسة المنصور تجاه العلويين:

### إشارة

اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين معاملة قاسية، لم يشهد التاريخ مثلها، لأنه يعلم و يعلم كل أحد أن الأمة ترى أهلية أهل البيت للخلافة، و هم أولى بالأمر من غيرهم، لقربهم من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم نسبا، و لما اتصفوا به من المؤهلات لذلك من وفور العلم و التمسك بالدين، و قد برهنوا على عدلهم فى الحكم. و قد كان العباسيون و العلويون من قبل يجمعهم السخط على أعمال الأمويين كما ملأ سمع الدنيا انتصار العباسيين لأبناء عمهم، فقد أظهروا للناس التودد لأهل البيت، و كانوا يتفجعون لما نالهم من الأمويين، و يمسحون دموعهم المصطنعة بتلك الأيدي التى خضبوها من دمائهم فيما بعد، و كانوا يظهرون للناس إنكارهم الشديد على الأمويين لأعمالهم السيئة، و ما قابلوا به أهل البيت بقلوب لا عهد لها بالرحمة، كما أوضحوا ذلك فى كثير من مواقفهم و أقوالهم، و قد قطعوا على أنفسهم عهدا فى نصره آل محمد. و لما تم الأمر و نالوا غايتهم و نجحت خططهم التى دبروها فى استغلال تلك الفرصة، و تم لهم ما أرادوا نراهم يذيقون العلويين أنواع الأذى و ضروب المحن، و عاملوهم أعظم مما كان الأمويون يعاملونهم به. فقد كان المنصور يطارد العلويين و يضيق عليهم الدنيا، و يذيقهم أنواع العذاب، و لنا بما فعله مع أسرائهم منهم كفاية على عظيم ما كان يتحمله من الغيظ و الحقد. فقد جمع منهم جماعة فى الربذة و أثقلهم بالحديد، و ضربهم بالسياط، حتى اختلطت بدمائهم و لحومهم، ثم حملهم إلى العراق على أحشن مركب و توجه بهم إلى الكوفة، فكانت خاتمة مطافهم ذلك السجن الضيق الذى لا يعرفون فيه الليل من النهار، و سلب عليهم شرطة ابتعدوا عن الرقة كابتعاده عن الإنسانية فقد عذبوهم بأمره. كما أنه أمر أن تترك أجساد الموتى منهم فى السجن. فاشتدت رائحة الجثث على الأحياء، فكان الواحد منهم يخر ميتا إلى جنب أخيه. و لما قتل إبراهيم بن عبد الله أرسل برأسه إلى أبيه مع الربيع و هو فى السجن،

و كان أبوه عبد الله يصلى فقال له أخوه إدريس، أسرع فى صلاتك يا أبا محمد فالتفت إليه و أخذ رأس ولده، وقال: أهلا و سهلا يا أبا القاسم، و الله لقد كنت من الذين قال الله عز و جل فيه: الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَ لَا يُتَّقُونَ الْمُتَّقِينَ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ. . . [الرعد:20-21]. فقال له الربيع: كيف أبو القاسم فى نفسه؟ قال: كما قال الشاعر: فتى كان يحميه من الذل سيفه و يكفيه أن يأتى الذنوب اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع فقال: قل لصاحبك قد مضى من يومنا أيام و الملتقى القيامة. فمكثوا فى ذلك السجن، لا يعرفون أوقات صلاتهم إلا بأجزاء من القرآن، حتى كانت نهاية أمرهم أن أمر المنصور بهدم السجن على الأحياء منهم (1) ليذوقوا الموت من بين ألم القيود و ثقل السقوف و الجدران، و كان منهم من سمر يديه فى الحائط. و هكذا اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين بهذه المعاملة القاسية، و قد أمر ببعضهم فوضع بالبناء حيا. و لما خشى المنصور عاقبة فعله مع أبناء الحسن خشى الإنكار عليه، فقام خطيبا بالهاشمية فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: يا أهل خراسان أتم شيعتنا و أنصارنا، و لو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا، و إن ولد ابن أبى طالب تركناهم و الذى لا إله إلا هو فلم نعرض لهم لا بقليل و لا بكثير إلى أن يقول: ثم وثب بنو أمية علينا فأماتوا شرفنا و أذهبوا عزنا، و الله ما كانوا لهم عندنا ترة يطلبونها، و ما كان ذلك كله إلا بسبيهم و خروجهم -يعنى العلويين- فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف و مرة بالشام و مرة بالسراة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعه و أنصارا، فأحيا الله شرفنا و عزنا بكم و أظهر حقنا، و أصرار إلينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه و آله و سلم، فقر الحق فى قراره، و أظهر الله مناره و أعز أنصاره، و قطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله و حكمه العدل، و ثبوا علينا حسدا منهم، و بغيا لهم بما فضلنا الله به عليهم و أكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه. . إلى آخر خطبته (2).

ص:497

1-1 (1) مروج الذهب ج 3 ص 299، [1] ابن الأثير ج 4 ص 371.

2-2 (2) المسعودى ج 3 ص 312. [2]

و لا يخفى ما فى هذه الخطبة من الأمور المخالفة للواقع، وإنما استعمل هذه اللهجة وسيلة لإرضاء أنصاره، و خشية من إنكارهم عليه، فهو يحاول أن يحل تلك المشكلة بهذه اللهجة الباردة، و الواقع أن العلويين لم ينهضوا حبا للملك و طمعا فى السيادة، وإنما كانت مواقفهم مشرفة يدعوهم للنهوض إياؤهم للضيم و رعايتهم لمصلحة الأمة و هو ما يفرقهم عن غيرهم، و قد أقر المنصور فى هذه الخطبة بأن ما لحقهم من بنى أمية كان بسبب مواقف العلويين. و يعلل ابن الساعى نهضة العلويين بقوله: إن من يمعن النظر كل الإمعان بتاريخ الإسلام يعلم علما يقينا أن كل من خرج من أهل البيت ما كان ذلك إلا عن مصيبة نابتة، و ذل إهانة، فإن الأمويين كانوا يمنون على الموالى و صعاليك العرب بمئات الألوف من الدنانير، و يعطونهم الاقطاع و الضيعات، و يستعملونهم على الممالك، و يستوزرونهم، و يقترون على الفاطميين حتى يصير الفاطمى فى ضيق و محنة شديدة، و يرى الذين يفرطون لبنى أمية و يتمسخرون لهم فى مجالسهم و يشاركونهم فى شرايبهم و فسقهم و فجورهم، يتقلبون بأنواع الرفاهة، فهناك يهز الجماعة الفاطمية شرفهم و نخوتهم، فيخرجون لا خروجا عن الطاعة و لا نقضا لبيعة (1). و لكن يقولون أرض الله واسعة، فيها جر أحدهم إلى ناحية من الأرض فيها قوم من أمة جده، فإذا وصلهم حركتهم نخوة الدين فاحترموه و أكرموا و ألفتهم قلوبهم و اجتمعوا عليه، فمتى بلغ خبره الأمويين قالوا خرج و رب الكعبة، و ساقوا عليه القواد و الجنود و لا يزالون حتى يتركوه شهيدا. و كذلك بنو العباس... (2). و يجب هنا أن نلاحظ الفرق بين خطة الأمويين فى معاملة أهل البيت و بين خطة العباسيين فإنهم يختلفون عن الأمويين. فأولئك قد جاهروا بالعداء لأهل البيت بكل ما للجهر بالعداء من طرق. و لم يتكتموا فى شىء من سياستهم و هل بعد قتل الحسين عليه السلام و سبى نسائه و إعلان سب أمير المؤمنين و جعل ذلك سنة متبعة من شىء يدعو إلى التكتم؟ و لكن العباسيين لم يسلكوا ذلك الطريق بل تظاهروا بالولاء لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم، طمعا فى السيطرة، و حبا للإمرة.

ص: 498

- 
- 1-1) لم تكن للعباسيين بيعة فى رقاب العلويين فإنهم لم يعترفوا بولايتهم و لم يلزموا بالبيعة لهم و على هذا ساروا و تبعهم أنصارهم.  
2-2) تاريخ ابن الساعى ص 36.

وقد تحقق ذلك عند ما ولى المنصور، و تثبتت دعائم الدولة فأوقع بالعلويين، فكانوا أول الضحايا، وفي مقدمة القوافل التي تساق للسجون وساحات الإعدام. وقد تحدثنا عن بعض أعمال المنصور مع العلويين و تشريدهم وإراقة دمائهم. ولعل أفجع حادث و أشجى حديث هو حديث الخزانة و إليك بيان ذلك:

### حديث الخزانة:

و حديثها شجون، فقد احتفظ المنصور بخزانة ادخرها (ليوم لا ينفع فيه مال و لا بنون) ادخرها (ليوم الفصل) ، (يوم يعرض الظالم على يديه) أجل ما هذه الخزانة التي احتفظ بها في حياته، و أوصى بها المهدي بعد وفاته و دفع مفتاحها إلى ريطة زوجة المهدي، و أوصاها أن لا تدفعها إلا بيده عند ما يصح لها موت المنصور؟ و لما مات المنصور و آن لريطة أن تنفذ وصيته بفتح تلك الخزانة، و لعلها كانت تأمل أنها تحتوى على نفائس من الجوهر تحلى بها جيدها، فوق ما وهبتها الكف الظالمة، كما حظت ببيغيتها من الخزائن الأخرى. فجاءت مع المهدي و لا ثالث معهما إلا عين الله الذي لا تخفى عليه خافية فى الأرض و لا فى السماء. فاستبقا بكل بهجة و سرور لفتح تلك الخزانة العظيمة فوجدوا هناك أشلاء مطرحة، و جثثا هامدة، و إليك حديثها: حدث الطبرى فى تاريخه قال: لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبى العباس امرأة المهدي. و كان المهدي بالرى قبل شخوص أبى جعفر. فأوصاها بما أراد و عهد إليها و دفع إليها مفاتيح الخزائن، و تقدم إليها و أحلفها و وكد الإيمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن و لا تطلع عليها أحدا إلا المهدي. و لا هى إلا أن يصح عندها موته، فإذا صح ذلك اجتمعت هى و المهدي و ليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة. فلما قدم المهدي من الرى إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح، و أخبرته عن المنصور أنه تقدم إليها فيه ألا يفتحه و لا يطلع عليه أحدا حتى يصح عندها موته، فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور و ولى الخلافة فتح الباب و معه ريطة، فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين، و فى آذانهم رقاع فيها أنسابهم، و إذا فيهم أطفال و رجال، شباب و مشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى، و أمر

فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها، وعمل عليها دكانا (1). ولا حاجة بنا إلى بيان أكثر من هذا مما استعمله المنصور مع أهل البيت، وكفى بذلك شاهدا على نوع السياسة الجديدة وسير حكم النظام الجديد.

### تظاهر المنصور بالعدل:

والذى يلفت النظر: هو محاولة المنصور تغطية أعماله بأقوال فارغة، وادعاء كاذب وتظاهر بالزهد. قيل لجعفر بن محمد عليه السلام: إن أبا جعفر يعرف بلباس جبة هروية مرقوعة وإنه يرقع قميصه. فقال جعفر عليه السلام: الحمد لله الذى ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه (2). و ضرب كاتبه محمد بن جميل خمس عشرة درة لأنه لبس سراويل كتان وقال له: إن هذا من السرف، وهو يحاول بذلك أن يفهم الناس بأنه أمين على أموال الأمة، ودينه يمنعه بأن يرى كاتبه يسرف فى لباسه. وخطب فى يوم عرفة فقال: أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه و تسديده، وأنا خازنه على فيته أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، فقد جعلنى الله عليه فقلا إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم وقسم فينكم فتحنى، وإذا شاء أن يقفلنى أقفلنى، فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه-فى هذا اليوم الشريف (3)-أن يوفقنى للصواب ويسدنى للرشاد، ويلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحنى لأعطياتكم!. فهو يحاول أن يتبرأ من عهدته بخله ويدعى طهارة ثوبه مما علق به من الدماء، وأنه أمر يعود إلى الله وبأمره، إذ هو سلطانه فيتبع الحق ويخالف الباطل، ولكن الواقع غير ما يقول. ثم نراه يصل إلى درجة أخرى من التظاهر بالقداسة بموافقة أعماله لما يرضى الله

ص:500

1-1 (1) تاريخ الطبرى ج 6 ص 344. [1]

2-2 (2) الكامل لابن الأثير ج 6 ص 13. [2]

3-3 (3) الطبرى ج 6 ص 330. [3]

ولكنها أمور ادعائية لا صلة لها بالواقع. فهو يقول في خطبة أخرى: الحمد لله أحمدته وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فاعترضه معترض عن يمينه- وهو أبو الجوزاء- فقال: أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به؟ . فقطع الخطبة، ثم قال: سمعا سمعا لمن حفظ عن الله و ذكر به، و أعوذ بالله أن أكون جبارا عنيدا. ثم التفت إليه قائلا له: وإياك وإياكم معشر الناس أختها، فإن الحكمة علينا نزلت، و من عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله تورده موارد، و تصدروه مصادره، و عاد إلى خطبته. فهو بهذا الرد يخيف الناس و يهدد من يرد عليه أو ينقد عمله، لأنه يظهر نفسه بالمحافظة على الدين، و أنه يحكم بأمر الله، و لا يتبع الهوى، و أنه رجل عدل، و مثال تقوى، إذ هو سلطان الله، يعمل بمشيئته و لا يخالف حكمه، و كان يتقد سياسة الأميين و أعمالهم مع أن عهده كان امتدادا للحكم الأموي و زيادة. قال المنصور يوما لعبد الرحمن الأفريقي: كيف سلطاني من سلطان بني أمية؟ . فقال عبد الرحمن: ما رأيت في سلطانهم شيئا من الجور إلا- رأيت في سلطانك (1). و كان عبد الرحمن هذا من أهل إفريقية يطلب العلم مع المنصور قبل الخلافة، فلما ولي المنصور و ظهر الجور في عهده قدم عبد الرحمن على المنصور فأقام بيابه شهرا لا- يمكنه الدخول عليه. فلما أذن له بالدخول قال له المنصور: ما أقدمك؟ قال: ظهر الجور ببلادنا فجئت لأعلمك، فإذا الجور يخرج من دارك. و رأيت أعمالا سيئة، و ظلما فاشيا، ظننت لبعث البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان الأمر أعظم. فغضب المنصور، و أمر بإخراجه (2).

ص: 501

1-1) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 105. [1]

2-2) تاريخ بغداد ج 10 ص 215. [2]

ولما حج المنصور في السنة التي مات فيها فبينما هو يطوف بالبیت إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي و الفساد في الأرض و ما يحول بين الحق و أهله من الطمع. فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد و دعا بالقائل فسأله عن قوله؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن أمتني أنبأتك بالأمر على جليتها، فقال: أنت آمن على نفسك و مالك. فقال: إن الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق و أهله هو أنت. فقال: ويحك فكيف يدخلني الطمع و الصفراء و البيضاء عندي؟! فقال: يا أمير المؤمنين لأن الله استرعاك للمسلمين و أموالهم، فجعلت بينك و بينهم حجاباً من الجص و الآجر، و أبواباً من الحديد، و حجاباً معهم من الأسلحة، و أمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان و فلان، و لم تأمر بإيصال المظلوم، و لا الملهوف، و لا الضعيف، و لا الفقير، و لا الجائع، و لا العارى، و ما منهم إلا و له في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك و آثرتهم على رعيتك تجبى الأموال فلا تعطيتها، و تجمعها فلا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونه و قد سخر لنا نفسه، فاتفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا، و لا يخرج لك عامل إلا أقصوه و نفوه، حتى تسقط منزلته، فلما اشتهر هذا عنك و عنهم عظمهم الناس و هابوهم، فكان أول من صانعهم عمالك في الهدايا، ليقوا بهم على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة و الثروة، لينالوا بهم ظلم من دونهم، فامتألت بلاد الله بالطمع ظلماً و فساداً، و صار هؤلاء شركاؤك في سلطانك و أنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه و بين الدخول عليك، فإن أراد رفع قصته إليك و جدك قد منعت من ذلك و جعلت رجلاً للمظالم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه و هو يدافعه خوفاً من بطانتك، و إذا صرخ بين يديك ضرب ليكون نكالا لغيره، و أنت تنظر و لا تفكر فما بقاء الإسلام على هذا (1). و قال له عمه عبد الصمد بن علي: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو؟! فقال: لأن بنى مروان لم تبل رممهم و آل أبي طالب لم تغمد سيوفهم،

ص: 502



و نحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، و اليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو و استعمال العقوبة (1). و وقتت فى طريقه- يوم دخل المدينة- ابنة صغيرة لعبد الله بن الحسن و هى تستعطفه و تطلب منه الرحمة و الإشفاق، عند ما يقع نظره عليها و هى بتلك الحالة و تخاطبه برقة و استعطاف: ارحم كبيراً سنه متهدم فى السجن بين سلاسل و قيود

إن جدت بالرحم القريبة بيننا ما جدكم من جدنا ببعيد

و كانت تأمل إطلاق أسيرها رحمة بحالها، و لكن المنصور عند ما سمع صوتها قال: أذكرتني ثم أمر به فأحدر بالمطبق و ضيق عليه سجنه و كان السجن خاتمة مطاف ذلك الأسير و نهاية حياته. و رغم هذه الأعمال و ما اتضح للناس من سوء السيرة و الإجحاف بحقوق الرعية، فقد كان يحاول أن يصبغ الدولة بصبغة دينية، و أنه الوارث الشرعى لهذا الحق، و هو القائم بالعدل. كان المنصور يطارد العلماء الذين يأمرونه بالمعروف و ينكرون أعماله، و يقرب آخرين ممن خضع لغير الحق. و كان يريق دماء أبناء رسول الله و يملأ السجنون منهم، بينما نراه يحتفظ بحصيرة بالية قد مرت عليها السنون، يدعى بأنها كانت لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فيتبرك بها أمام الناس، و جعل لها موضعا خاصا، و خادما يحتفظ بها يحملها أوقات الصلاة أمام الناس ليظهر لهم أنه محافظ على آثار النبي صلى الله عليه و آله و سلم تمويها و خداعا. و كان يطلب من الزهاد و الوعاظ أن يعظوه بمجلسه، فيرق عند سماع الوعظ و يبكى، و لكنه بدون اتعاض، و تجرى دموعه و لكن بدون خشوع و إنما هو من باب: كف تذبج و أخرى تسبح، إلى غير ذلك من الأمور التى كان يفعلها إغراء للناس ليغضى أعماله التى ارتكبها. و سار على ذلك أحفاده و وضعت فى دولتهم بشائر عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليكون لهم فى

ص: 503

قلوب الناس اعتقاد راسخ و سلطة دينية، فمن الأحاديث التي وضعت لإعلاء شأنهم (اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمن أحبهم) (1). وبصورة أخرى: «اللهم اغفر للعباس وولد العباس ولمن أحبهم، اللهم اغفر للعباس ما أسر و ما أعلن و ما أبدى و ما أخفى، و ما كان و ما يكون منه و من ذريته إلى يوم القيامة» (2). و هذه أحاديث مكذوبة كما حققها الحفاظ من علماء الحديث. و بهذا يريدون أن يكونوا في سلامة من المؤاخذه و عليهم حصانة من العقاب، كما حاولوا أن تكون دولتهم هي الدولة الصالحة التي يبشر بها النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فرووا عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن و ظهور من الفتن يسمى السفاح (3) و بلفظ آخر عن المهدي بن المنصور عن آبائه مرفوعاً: ليكون منا السفاح و المنصور و المهدي (4). يقول الدكتور أحمد أمين: فوضعت الأساطير حول العباس، و عبد الله بن العباس، و غيرهما من آل العباس، من مثل ما يروى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به، و أخصبت الأرض، فقال عمر: هذا و الله الوسيلة إلى الله و المكان منه، و لما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس و يقولون له: ساقى الحرمين (5). و تصوير بعض المؤرخين بأنه-أي عبد الله بن العباس-سياسي محنك قدير، كان يرسم الخطط لعلى بن أبي طالب، مع أن أكبر مزية له في الواقع هي سعة علمه إلى غير ذلك (6). و قد حقق الحفاظ هذه الأحاديث و غيرها الواردة في حق بني العباس و قد نصوا على أنها موضوعة من قبل أناس تقربوا إليهم بالكذب على النبي صلى الله عليه و آله و سلم عند ما لمسوا

ص:504

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 10 ص 39. [1]

2-2 (2) انظر شرح الهمزية لابن حجر ص 318.

3-3 (3) تاريخ بغداد ج 1 ص 48. [2]

4-4 (4) نفس المصدر. [3]

5-5 (5) أسد الغابة ج 3 ص 111. [4]

6-6 (6) ضحى الإسلام.

رغبتهم فى تأييد سلطانهم، و أنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أولياء الأمر. و إن ارتكبوا الجرائم و خالفوا الإسلام. و على أى حال فإن المنصور الدوانيقى كان سبب السيرة مع أبناء على عليه السلام و قد قابل الإمام الصادق عليه السلام بكل جفاء و غلظة، و تشدد فى أمره و حاول الفتك به مرارا حتى حان الوقت، و حل الأجل ففسد إليه السم، و قضى عليه فى سنة 148 هـ. و قد تحمل الإمام الصادق عليه السلام من طاغية زمانه أكثر مما تحمله من خصومه الأمويين، و لكنه عليه السلام لم تهن عزيمة، و سار فى نهجه الذى نهجه لنفسه، من الدعوة إلى الله، و مناصرة المظلومين، و إعلان الغضب على المنصور و وجوب مقاطعته، و عدم المؤازرة له و المعاونة معه، لأن حكومته غير شرعية فهو ظالم غاشم و حاكم مستبد. و لم تلن قناته يوما ما، أو يخدع بحيل المنصور فيتحول عن رأيه، أو يتنازل عن أحقيته للإمرة دونه و لكن الوقت لم يأت، و الزمان ليس بزمانه و لا يريد أن يزج الأمة فى حرب طاحنة، تكون نتائجها غير مرضية. فسلك عليه السلام طريق التريث و النظر إلى العواقب و نهض إلى إصلاح المجتمع ليصلح وضع الدولة و حاول تطهير القلوب من رواسب الخلافات التى خلفها العهد الأموى، و وسع دائرتها العهد العباسى.

### الشيعه و أهل البيت:

و من حقنا هنا أن نشير إلى عظيم المحنة و الخطر الجسيم الذى حل بأتباعه عليه السلام من بعده، و ما اتخذته السلطات الغاشمة فى إنزال العقوبة بهم. لقد ارتبط اسم الشيعة باسم أهل البيت فهم أنصارهم من عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ عرف المحب لعلى بأنه شيعى له، ثم شمل المناصر له و هكذا أهل بيته فإن أنصارهم و أتباعهم شيعة لهم. و بطبيعة الحال أن ينالهم من الأذى ما لم ينل غيرهم لأن أهل البيت عليهم السلام فى جميع الأدوار هم المعارضون لتيار الظلم، و هم دعاة الحق و العدل، فأريقتم دماؤهم، و نالهم من طغاة زمانهم ما يقف القلم عند بيان بعض تلك المآسى، فكيف الإحاطة بها و سردها جميعا. و إذا كان أهل البيت أنفسهم لم يسلموا من نقمة الظالمين و سخط الجبارين فالشيعة أولى بأن تشتد عليهم المحن، و تتوجه إليهم سهام الانتقام.

وقد خاض الشيعة عدة معارك و بذلوا أنفسهم فى سبيل مناصرة دعاة الحق والعدل ولم يثنهم الخوف، أو تحولهم الأطماع عن منهجهم الذى ساروا عليه، فكانوا فى معارضتهم يتقلون كاهل الدولة واسم التشيع يدخل الرعب فى قلوب الحكام، ولهذا فقد سلكوا فى معارضة الشيعة كل الطرق. وقد أدخل أولئك الحكام-بمعاونة علماء السوء- فى روع أتباعهم أن الشيعة إنما يناصرون آل محمد لا رعاية لحق النبى صلى الله عليه وآله وسلم وصاياه فيهم وأنهم عدل القرآن، بل انهم اعتقدوا أنهم آلهة وهم بهذا يحاولون تكفير الشيعة. كما أنهم حرموهم من كل ما يتمتع به غيرهم من سعة العيش و حرية الفكر وإظهار العقائد وإقامة الشعائر الدينية. فكان الزنديق يعيش فى سعة من العيش، وإن أنكر الخالق، وألحد فى عقيدته فلا يؤاخذ بشيء ما دام مسالماً للدولة. و الشيعة مضايق من كل جهاته، ويرمى بسوء العقيدة، مع إقراره لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، ولا يسلم من الطعن لأنه معارض للسلطة. فمنعوهم من الحديث و من يأخذ الحديث عنهم يناله سوء الاتهام ووسموهم بالخروج عن الدين و اتهموهم بالزندقة والإلحاد ليتوصلوا إلى حلية دمائهم ورد رواياتهم. هذا إجمال سنفضله فيما بعد وقد أشرنا لبعضه من قبل و ذكرنا ما بذل الولاة فى محاربة الشيعة و دعايتهم ضد أهل البيت و أتباعهم، ما خرجوا عن الواقع المحسوس، و استعملوا الخرافات و الأباطيل ليضلوا الناس عن طريق الحق و نهج الرشاد. و نحن نأمل كما يأمل كثير من الناس أن تهزم خرافات الأجيال الماضية بقوة العلم، و تخضع تلك الأشباح الهائلة على التقهقر، فقد وقفت فى طريق وحدة المسلمين و اتقاقهم لتعود لواقعها من حيث هى، و تكشف الحقائق و يظهر لجيلنا المثقف خطأ الوضع، فإنه لا يكاد يخضع لتلك الخرافات التى هيمنت على عقول الأجيال زماً طويلاً. و لننتقل الآن إلى البحث عن حياة الإمام مالك بن أنس الأصبحى الإمام الثانى من الأئمة الأربعة، و نتعرف عليه ملتزمين بالبحث التاريخى بدون تعصب له أو عليه.

## تمهيد:

تقدمت الإشارة في الجزء الأول لمعركة أهل الحديث وأهل الرأي وما أحدثه ذلك النزاع في صفوف الأمة من تصدع و خلافات أدت إلى الهجاء والقول بما لا تحمد عقباه، وكان من نتائجه أن تظهر شخصية مالك في الحجاز وشخصية أبي حنيفة في العراق، كما أنه لم تخف أغراض السياسة من وراء انتصارها لأهل الرأي وسخطها على أهل الحديث. وقد افترق المسلمون إلى فرقتين: أهل الحديث وأهل الرأي، وزعيم الفرقة الأولى مالك، والثاني أبو حنيفة، واتسع بينهما الخلاف حتى أدى إلى الخروج عن حدود العلم، وتجاوزها إلى الهجاء والقذف والسباب، ولكن تلك المعركة لم تطل أيامها، فقد رأينا بعد قليل التقاء أطراف ذلك الافتراق، واجتماع أهل الحديث وأهل الرأي، وكان القضية كانت لتحقيق أمر وقد حصل ذلك. وكان مالك بن أنس عرضة لسخط الدولة، حتى منعه من الحديث، وضربوه بالسياط لأجل فتوى أفتاها لم توافق غرض الدولة، ولكنه بعد قليل من الزمن أصبح مقبدا في الدولة ملحوظا بالعناية، محفوا بالكرامة، وكانت بابه تزدهم عليها الناس كأنها باب الأمير، بل كان الأمراء يتهيبون شخصه، وتقصر خطاهم عن الوصول إليه فشملت مظاهرهم. وهذا التحول الغريب يحملنا على التساؤل: هل أن الدولة كانت تبغضه لشيء فتركه تقية أو تبدل رأيه عن ذلك؟ أم أنه ثبت على ما يراه وتحملت الدولة له ذلك، ووجدت نفسها مضطرة إلى مجاراته؟ أم أن هناك شيء آخر؟

و يمكننا أن نستحصل الإجابة عن هذه الأسئلة عند دراستنا لحياته و وقوفنا على عوامل شخصيته و بواعث انتشار ذكره، إذا لتتعرف على الإمام مالك و ندرس شخصيته دراسة تاريخية، و نستعرض حوادث عصره و سياسته لنكون على بينة من الأمر و معرفة من الواقع.

**من هو الإمام مالك:**

**إشارة**

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمر بن الحارث، و هو ذو أصبح من حمير بن سبأ، و هي قبيلة يمينية، و أمه أزدية و هي العالية بنت شريك الأزدية. فعلى هذا فإن أمه و أباه عربيان. و هنا تقف أمامنا مشكلتان لا يمكن أن نتخطاهما بدون إشارة لهما، ليتجلى لنا الأمر و يتضح القول الصحيح. الأولى: إن البعض من كتاب السير ذهبوا إلى عدم صحة هذا النسب، و إن مالكا لم يكن عربيا و إنما هو من موالى بنى تيم، فهو على هذا من موالى قريش و ليس بعربي، و قد روى عن ابن شهاب أنه قال: حدثني نافع بن مالك - و هو عم مالك بن أنس - مولى التميميين (1) أن أباه حدثه عن أبي هريرة. . . و ابن شهاب الزهري هو أستاذ مالك و أعرف بحاله، فهو يعتبر مالكا من الموالى لأنه اعتبر عمه نافعا كذلك. و قال ابن عبد البر: إن محمد بن إسحاق الواقدي زعم أن مالكا و أباه و جده و أعمامه موالى لبنى تيم بن مرة، و هذا هو السبب فى تكذيب مالك لمحمد بن إسحاق و طعنه عليه. فبهذا يصبح مالك هو من الموالى لا من العرب، و قد كان شائعا فى عصر مالك، لذلك وقف تجاه هذه الدعوى مكذبا لها و أنكرها أشد الإنكار، و كذب من يدعيها عليه، و كذلك أبو سهيل عم مالك قام فى إنكارها و قال: نحن قوم من ذى أصبح، قدم جدنا المدينة فتزوج فى التميميين، فكان معهم و نسبنا إليهم. و هذا يدل على خمول ذكرهم و عدم اشتهاار عشيرتهم، و قد أصر ابن إسحاق

ص: 508

(1-1) الانتقاء ص 11.

على عدم صحة هذه الدعوى و تكذيب انتسابهم إلى العرب. وقد ادعى أن حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربياً: أن مالك بن أبي عامر قدم المدينة متظلماً من بعض ولاية اليمن، فمال إلى بعض بنى تيم بن مرة فعاقده، و صار معهم. وهذا يختلف مع ما يقوله نافع بن مالك فإنه يدعى أن الحلف كان مع أبي عامر جدهم لا مع ابنه مالك جد مالك بن أنس. و يروى ابن عبد البر عن البخارى بسند عن نافع بن مالك بن أبي عامر قال: قال لى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي و هو ابن أخي طلحة: هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك، فأبينا عليه أن يكون هدمنا هدمك و دمننا دمك و ترثنا و نرثك (1)؟ و ينسب هذا إلى الربيع بن مالك أيضا (2). و مهما يكن فإن نسب مالك للعرب لم يخل من طاعن فيه، و أنه من الموالى فهو بين مثبت و ناف. و كما طعن فى أب مالك و عدم صحة عرويته، فكذلك الحال فى أمه العالية فقيل: إنها أزدية يمنية و هى بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية، و قيل: إنها طليحة مولاة عبيد الله بن معمر حكاة القاضى عياض (3) و على هذا يكون نسب مالك من الطرفين إلى الموالى. و لا علة له بالعرب. الثانية: قضية بقائه فى بطن أمه. قيل: سنتين و قيل: ثلاث سنين و قيل: أربع سنين، و قال ابن سعد فى الطبقة السادسة من تابعى أهل المدينة: أخبرنا الواقدي قال: سمعت مالك بن أنس يقول قد يكون الحمل ثلاث سنين و قد حمل ببعض الناس ثلاث سنين يعنى نفسه. و قال ابن عبد البر: و قد ذكر غير الواقدي أن أم مالك حملت به ثلاث سنين (4). و هذا بعيد كل البعد عن الصحة، لأن الطب يقرر أن الحمل لا يمكن أن يمكث

ص: 509

1-1 (1) الانتقاء ص 11.

2-2 (2) تزيين الممالك للسيوطى ص 3.

3-3 (3) مناقب مالك للسيوطى ص 5.

4-4 (4) الانتقاء ص 12 و مناقب مالك للسيوطى ص 6.

فى بطن أمه أكثر من سنة، على أن الاستقراء مع المراقبة الدقيقة يجعلنا نؤمن بأن الحمل لا يمكن أن يمكث فى بطن أمه أكثر من تسعة أشهر، مع أنا لم نقف على تاريخ وفاة أبيه، فنقارن النسبة بين الولادة و الوفاة، وهذه الدعوى من شذوذ الطبيعة و لا نتعرض إلى إقامة البرهان على عدم بقاء الطفل فى بطن أمه أكثر مما هو المتعارف. و يذهب بعضهم إلى أن هذه الرواية: وضعها المعجبون بمالك، لأنهم يريدون أن يقرنوا حياته بالعجائب و الغرائب، لبيان أنه صنف من الناس ممتاز اقترنت مميزاته بمولده، إذ أنه حمل به ثلاث سنين على حين يحمل بكل مولود تسعة أشهر، فكانت هذه منقبة اقترنت بميلاده، كما كانت حياته كلها مناقب، كما سيأتى بعضها. و ليس من البعيد أن يتقبل المعجب بشىء كل ما له علاقة فيه و إن خالف الحق و لم يؤيده العلم و شذ عن العقل و مجرى العادة، على أن مثل هذا لا يرتفع به مقام مالك و كان الأجدر رفضها دون قبولها.

## ولادته:

اختلفت الروايات فى سنة ولادة مالك كالاختلاف فى مدة حملها، فقيل: إنه ولد سنة 90هـ- و قيل: سنة 93هـ- و قيل: سنة 94هـ- و قيل: سنة 95هـ- و قيل: سنة 96هـ- فى المدينة المنورة، و تختلف الروايات فى أول من نزل المدينة من أسرة مالك، فقيل: إن أول من نزل هو أبو عامر و أنه صحابى و شهد المغازى مع النبى صلّى الله عليه و آله و سلم ما عدا بدر و لم يذكره أحد فى عداد الصحابة. قال الذهبى فى التجريد: لم أر من ذكره فى الصحابة. و الصحيح أن أول من انتقل إلى المدينة هو مالك بن أبى عامر جد مالك بن أنس، و هو من التابعين كما رواه ابن عبد البر، و تدل عليه رواية أبى سهيل عم مالك المتقدمة فى بيان نسبهم، و لكن المالكية ذهبوا إلى إثبات الصحبة لأبى عامر و ليس لهم على ذلك دليل، لذلك لم يقبله المحققون و لم يثبتوا له صحبة. فابن حجر فى الإصابة لم ينقل عنه شيئاً إلا أنه نقل عبارة الذهبى، و ابن عبد البر فى الاستيعاب لم يتعرض لذكره. و هذه الدعوى وليدة ظروف متأخرة أثبتتها كتب مناقب مالك، كما أن أنس بن مالك والد مالك-صاحب المذهب-لم يكن له ذكر فى كتب الرجال و لم



يعرف عنه أنه اشتغل بالعلم، و ليست له معرفة فيه، و لو كان يؤثر عنه شيء لكان مالك أولى بروايته. نعم ورد في بعض الكتب رواية مالك عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ثلاث يفرع لهن الجسد فيروبو عليهن: الطيب، والثوب اللين، و شرب العسل، و لكن المحققين من علماء الحديث قالوا: إن هذا الخبر لا يصح عن مالك (1). و بهذا لم يكن لأنس رواية في الحديث و لا رواية واحدة. قال الخطيب في المتفق بعد ذكر الحديث المتقدم: لا أعلم. روى عن مالك من هذا الوجه و فيه نظر، فهو يطعن بصحته، و قال أيضا: لم يروه عن مالك غير يوسف بن هرون تفرد به القشيري، و أخرجه ابن حبان في الضعفاء، و قال: هذا لم يأت به عن مالك غير يونس- و هو أحد رواة الحديث المتقدم- و قد روى عجائب لا تحل الرواية عنه. و أخرجه الدارقطني في غرائب مالك و قال: هذا لا يصح عن مالك، و يونس ضعيف. و ربما يتوهم أن والد مالك بن أنس هو أنس بن مالك الصحابي الشهير، لأن المتسمين بأنس بن مالك هم خمسة: 1- أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري أبو حمزة المدني المتوفى سنة 93 هـ- و هو خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. 2- أنس بن مالك الكعبي القشيري أبو أمية، نزل البصرة، و روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديثا واحدا. 3- أنس بن مالك شيخ حمصي، ذكره أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادي في تاريخ الحمصيين، و ليس له من الحديث شيء. 4- أنس بن مالك أبو القاسم الكوفي حدث عن عبد الرحمن بن الأسود و حماد بن أبي سليمان و غيره، و أحاديثه قليلة. 5- أنس بن مالك والد الإمام مالك هذا، و لم يكن له ذكر في كتب الحديث، و لم يفصح التاريخ عن شيء من حياته و لا تاريخ وفاته، بل هو مجهول كما إننا لم نقف على شيء من حياته لتتحقق نشأة مالك تحت رعايته و تربيته، و لعله مات قبل أن

ص: 511

1-1) تزيين الممالك ص 5.

يولد مالك بمدة، ويقال: إن مالك نشأ تحت رعاية غيره من أسرته، ويدعى أنها مشهورة بالعلم، ولا نعرف منهم إلا نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل المتوفى في سنة 34 هـ-35. روى عن ابن عمر وأنس، وعنه ابن أخيه مالك بن أنس والزهرى، ولم يكن له كثير حديث. وأما أخوه النضر بن أنس أخو مالك، فقد روى عن أبيه وابن عباس وعنه بكر المزني، ويقال: إن مالكا كان ملازما له، ولا يعرف إلا بأخيه، فيقال عند تعريفه: أخو النضر لشهرة أخيه دونه، ولم يكن غير هؤلاء في أسرة مالك من عرف عنه الحديث، ولا يصح أن توصف هذه الأسرة من الأسر العلمية في المدينة، فيكون لها الأثر في توجيه مالك إلى طلب الحديث والفتيا، لأن الناشئ تغذى مواهبه ومنازعه من منزعه بيته وما يتجه إليه، فتزعم تحت ظلها المواهب وتتجه المنازع، على أنهما لم يكونا بتلك المنزلة من الشهرة العلمية، ولم تكن لهما كثير رواية.

## المناقب:

من الأمور التي تستدعى النظر والاهتمام هو الغلو في المناقب، وذلك لقوة نزعة التعصب، وبالأخص عند احتدام النزاع والتخاصم بين الفرق، فكل يحاول تأييد مذهبه وتعزيز رأيه، ويتخذ شتى الوسائل لتكون له الغلبة على غيره، حتى كان الحق في جانب والمغالون في جانب آخر مما أدى إلى حصول عقبات دون الباحث الذي يريد أن يتعرف على شخصية من شخصيات التاريخ. وقد تقدم بعض تلك المناقب التي انتحلوها لأبي حنيفة تعزيزا لمركزه وتقويما لشخصيته حتى ذهبوا إلى أبعد حد من ثبوت العبقرية الادعائية من وفور علمه، وعلو منزلته، وشرف بيته حتى قالوا: إن أهل الكوفة كلهم موالى لأبي حنيفة-أى عبید فأعتقهم (1)-. وهل ينكر أحد أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة، ولهم ولاؤه؟ ولكن المغالطات والادعاءات الفارغة لا حد لها ولا نهاية، فهي واسعة بمقدار اتساع الغرض، و تسير طيعة للهوى والنزعة التي تقتضيها، ويعود ذلك إلى المعركة الجدلية التي جرت في القرن الرابع وبالأخص بين الحنفية والشافعية، فملأت كتب المناقب

ص:512

بالإغراق والمبالغة، حتى بلغت مغالاة أمة من الحنفية أن إمامهم أعلم من رسول الله وحدث علي بن جرير: أن رجلين تماريا في مسألة فقال أحدهما: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الآخر كان أبو حنيفة أعلم بالقضاء (1) وهذا منتهى الإغراق في الغلو وقد مرّ قسم من ذلك في الجزء الأول. أما المالكية فإنهم أهون في تقحم الخطر على مركب الغلو من الحنفية في وضع المناقب، وقد خلت كتبهم من التحامل والطعن على غيرهم، على أنهم لم يخلوا من شائبة الغلو والمدح والإطراء المؤدى إلى الاضطراب، كما أنهم أكثروا من الأطياف والرؤيا بما يعود لمالك وعلو منزلته ويحصل فيه لشخصيته امتياز عن غيره، و تلك مبالغات مصدرها الغلو وحب الغلبة والشهرة. وإليك بعضا من مناقبه:

### عالم المدينة:

لما كانت المدينة المنورة مهذا للعلم ومصدرا للتشريع، فلا بد أن يكون لعلمائها منزلة دون غيرهم من علماء الأقطار، وقد ورد حديث عالم المدينة فجعلوه ينطبق على مالك وحده، وكان المدينة لم ينبغ بها عالم حتى يكون مصداقا للحديث غير مالك بن أنس. فلا بد لنا أن نتكلم عن صحة الحديث وانطباقه على مالك دون غيره. أخرج الترمذى بطريق عن أبي هريرة مرفوعا: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة». و جعلوا المراد به مالك بن أنس دون غيره. قال ابن أبي الحوت في أسنى المطالب: خبر (أبي حنيفة سراج أمتي) موضوع باطل، ولم يرد في أحد من الأئمة نص لا صحيح ولا ضعيف كخبر: عالم قریش يملأ طباق الأرض علما، و حمل على الشافعي، وكذا خبر: يكاد يضرب الناس أكباد الإبل. الحديث. سمعته من المالكية ولم أراه، و حمل على مالك و يظهر عليه التكلف. و لا- حاجة بنا إلى نقل الأقوال في تفنيده، و مع التسليم لصحة الحديث فمن البعيد حملة على مالك بن أنس. قال الخطيب البغدادي عند ذكر هذا الحديث: قال

ص: 513

أبو موسى الأنصاري: قلت لسفيان: إن ابن جريح يقول: نرى أنه مالك، فقال سفيان: إنما العالم من يخشى الله. وقد نقل عن ابن عيينة: أن المراد به عبد العزيز العمري. ومع هذا فإن الحديث لا يخلو من خدشة في السند إن لم نقل في الوسطة الأولى، فإن أبا الزبير وهو أحد رواة هذا الحديث، قد تكلموا فيه و طعنوا عليه. وإذا أردنا أن نسلم لصحة هذا الحديث فإن انطباقه على مالك بعيد جدا و دونه خرط القتاد، فالمدينة المنورة قد ضمت علماء الإسلام الذين كانوا أعلى درجة من مالك و أرفع منزلة منه، و لوراق للسلطة غير مالك لحملوه عليه و لكنهم أرادوا ذلك، و الناس تبعوا لما أرادوا. و إن في المدينة من العلماء في ذلك العهد قوم هم شيوخ مالك، و هم أعلم منه، منهم: عبد العزيز العمري. و زيد بن أسلم المتوفى سنة 136 هـ و عنه أخذ مالك. و أبو حازم سلمة بن دينار المتوفى سنة 140 هـ و هو من شيوخ مالك. و صفوان بن سليم المتوفى سنة 132 هـ و هو من شيوخ مالك. و عبد الرحمن بن أبي الزناد المتوفى سنة 174 هـ و هو من شيوخ مالك. و عبد الله بن ذكران المتوفى سنة 131 هـ و هو من شيوخ مالك. و ربيعة الرأي المتوفى سنة 136 هـ و هو من شيوخ مالك. و يحيى بن سعيد بن قيس المتوفى سنة 143 هـ و هو من شيوخ مالك. و أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 160 هـ، كان أفضل من مالك و كان يشبه سعيد بن المسيب. و محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة 124 هـ، و هو من شيوخ مالك. و غيرهم من علماء المدينة ممن لم يتعلق غرض السلطة في معارضتهم، و لم تقف أمامهم على رهوة العدا و الخصومة، على أن المسألة لم تكن مسألة علم و عدمه، بل حظوظ و دعاية كما يقول ربيعة الرأي و هو أستاذ مالك و معلمه. قال أبو بكر عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأي فكنا نستزيده،

فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بريعة و هو نائم في ذاك الطاق؟ فأتينا بريعة فقلنا: كيف يحظى بك مالك و لم تحظ أنت بنفسك؟ فقال: أ ما علمتم أن مثقالا من دولة خير من حملى علم (1) و ذلك أن الدولة رفعتة بعد غضبها عليه، و لذلك نرى مبادلة العواطف بين المنصور و مالك بن أنس. فكان المنصور يقول لمالك: أنت و الله أعقل الناس و أعلم لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف و لأبعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه. و هذا غاية في التعظيم و الإجلال و أقوى عامل لرفع مالك و علو منزلته، و كان مالك يقول: وجدت المنصور أعلم بكتاب الله و سنة رسوله و آثار من مضى. و بالجملة فإن هذا الحديث لا ينطبق على مالك و لم يعتن به أكثر من كتب عن مالك، و لكن المالكية جعلوه دليلا لهم على لزوم الأخذ عن مالك و هو كما ترى يبنى على الظنون و التكهن، و هذا لا يجدى، و لأن صح الحديث فلا مصداق له سوى حملة العلم و أعلام الأمة و ورثة الرسول الأعظم، فهم أئمة الهدى، و إن لهم فى صحيح الآثار و أصدق الأخبار عن الصادق الأمين كفاية عن التمثل و التكلف بأمثال هذا و نحوه.

### أمين زمانه:

ليس من الغريب أن تصل يد الوضع و الانتحال إلى ارتكاب ما لا يقبله العقل و لا يقره الوجدان و التتبع، و لا يتسق مع الواقع، و قد ورد ذلك فى منقبة لمالك، هى بعيدة كل البعد عن الصحة، و لا يمكن قبولها بالمرّة. و ذلك أنهم ادعوا أن الإمام الصادق عليه السلام أوصى إلى مالك عند وفاته و إليك نص هذا الافتعال: روى الشيخ عيسى بن مسعود الزواوى فى كتاب مناقب مالك و يعزیه إلى كتاب أبى نعيم.

ص: 515

دخل على الإمام الصادق قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه فسألوه أن ينصب لهم رجلا يرجعون إليه في أمر دينهم فقال: عليكم بقول أهل المدينة فإنها تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد، عليكم بآثار من مضى، فإنى أعلمكم أنى متبع غير مبتدع، عليكم بفقهاء أهل الحجاز عليكم بالميمون المبارك فى الإسلام المتبع آثار رسول الله، فقد امتحنته فوجدته فقيها فاضلا، متبعا مريدا لا يميل به الهوى، ولا تزدرية الحاجة، ولا يروى إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، وإن خالفتموه ضللتهم وهلكتم، فإنه قد أخذ عنى كل ما يحتاج إليه فلا يميل بكم الهوى فهلكوا، أى أهدركم عذاب الله يوم القيامة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون. إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء: 88 و 89]، أهدركم فقد أرشدتكم إلى رجل نصبته لكم فإنه أمين مولود فى زمانه. قالوا: من هو بينه لنا؟ قال: (ذلك مالك بن أنس) عليكم بقول مالك (1). هكذا قال الزواوى، وهكذا نقل. ولا أقول إنه هو الذى وضعها أو افتعلها ولكنه ناقل عن غيره، ونحن لا ننكر أثر الخلافات التى حصلت بين الطوائف، ووجود قوة عاملة على إيجاد الخلاف وإيقاد نار الفرقة، فأصبح كل يذهب لتأييد مذهبه بشتى الوسائل والاجتهاد فى تحصيل ما ينال به الظفر على خصمه، وأى ظفر أعظم من الحصول على شهادة أعظم شخصية علمية كان مالك يسارع لاستماع حديثه ويغتنم فرصة الحضور عنده، ويتلقى تعاليمه فى مدرسته كما مر بيانه. تلك هى شخصية الإمام الصادق الذى ترأس أعظم مدرسة إسلامية شهدها التشريع الإسلامى، وبقية آثاره مفخرة الدهر وحديث الأجيال، فكانت أقواله تؤخذ بالقبول والاعتبار، فقولته مسموح وحكمه نافذ. لذلك نرى كثيرا من الأقوال تنسب إليه طلبا لتأييد رأى أو ثبوت حكم، وقد حققها المنقبون من متبعي آثاره والذين يرجعون إليه فى أخذ الأحكام الشرعية. ومن هذا القبيل تلك الافتعالات التى انتحلها أصحاب المذاهب، وقد سبق للحنفية مثل ذلك فى مدح أبى حنيفة كما مر بيانه فى رواية أبى البخترى وهذه المنقبة

ص: 516

التي ذكرها الزواوي من ذلك النمط. ويمكنك أن تقف على سيرة الإمام مالك لتعرف ابتعاده عن الصادق في آخر عهده لانحياز له بجانب السلطة، مما لا يتفق مع آراء الإمام الصادق وسيرته التي سار عليها مدة حياته. من مجانبته الحكام والابتعاد عنهم. كما انه هجر كل من اتصل بالسلطة، ومنهم مالك بن أنس فإنه كان عند وفاة الإمام الصادق عليه السلام في أول مرحلة من التقرب للسلطان. وأظهر مالك حرصه على الاتصال بالحكام مؤذنا بتغييره. ولا حاجة لنا في إطالة الوقوف عند مناقب مالك، وإعطائها مزيداً من البحث كقولهم مكتوب على فخذ مالك بقلم القدرة: مالك حجة الله في أرضه. وقولهم في ورعه: إنه لا يدخل الخلاء إلا في كل ثلاثة أيام مرة، بينما يقول هو عن نفسه: استحييت من كثرة دخولي للخلاء. وهذا أمر لا دخل لقدرة الإنسان وسلطته فيه، إذ هو من الأمور القهرية على البشر، وقد أرادوا أن يسوّوه بالملائكة أو من شرفهم الله لحكمة فجعلهم يأكلون الطعام ولا يغوطون. ولو تأتي ذلك لكل أحد لفعل، ولكن شذوذ الآراء يثبت شذوذ الطبيعة، كما ادعوا أنه ألقى كتابه الموطأ في الماء عند ما اتهم نفسه فيه فألقاه في الماء وقال: إن ابتل فلا حاجة لي به فلم يبتل منه شيء، إلى غير ذلك من الخرافات والأقوال الفارغة التي تدل بنفسها على نفسها بالكذب.

### أطراف حول مالك:

ما أكثر وضع المنامات لتأييد رأي، أو رفعة شخص، أو حط كرامة من آخر، إنها دعايات كما قلنا وافتراءات كما ذكرنا، اتخذها القصاصون ليسيظروا على عقول السذج من الناس، واستعملها كثير ممن كتب في أكثر الشخصيات، حتى اتخذوا تلك الخرافات-وهي أكثر من أن تحصى-دليلاً لتأييد المذهب. وقد وضع المالكية منامات في تأييد مذهب مالك: وعلو شأنه نذكر البعض منها: قال العدوي: لما مات شيخنا شيخ الإسلام اللقاني رآه بعض الصالحين في المنام فقال: ما صنع الله بك؟ فقال: لما أجلسني الملك في القبر يسألاني أتاني

الإمام مالك فقال: مثل هذا يحتاج إلى سؤال في إيمانه؟ تنحيا عنه، فتنحيا عنى (1). ومنها: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذى سمي كتاب مالك بالموطأ وانه سئل صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام: ان مالك والليث يختلفان فى المسألة فأيهما أعلم؟ فقال: مالك وارث جدى يعنى إبراهيم عليه السلام (2). وانه سئل صلى الله عليه وآله وسلم مرة أخرى فى المنام: من نسال بعدك يا رسول الله؟ فقال: مالك بن أنس. كما وضع أهل الأندلس فى تأييد مذهبه وتشجيع عالمهم سحنون و هو ناشر مذهب مالك فى الأندلس: أن القيسى رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمشى فى طريق وأبو بكر خلفه، وعمر خلف أبى بكر، و مالك بن أنس خلف عمر، وسحنون خلف مالك. وفى هذا إشارة للاتباع والافتداء (3). وكثير من هذا النمط. ولا حاجة إلى ذكره، ولا اعتبار بإثباته أو نفيه. وإنما المعترف معرفة شخصيته من قبل معاصريه، ومن هم أدري الناس به، فإن لأقوالهم تمام الأثر فى التعرف عليه، فلننظر الواقع فى مرآة الماضى، لأن هذه الأمور المستحدثة إنما هى وليدة عصور متأخرة لا نستطيع منها استخلاص صورة متناسقة، لأنها نتيجة جدل و خصام وإثارة فتن و تطاحن بين المذاهب. قال أبو عمر: قد ألف الناس فى فضائل مالك وأكثروا، وأتوا بما لا فضيلة فى بعضه حشوا بها كتبهم.

### مالك وأقوال العلماء:

وهنا نقف بين طائفتين من الأقوال المأثورة عن علماء عصر مالك، فبعضها من نسق ما ذكرناه، وهى كثيرة مثبتة، والبعض الآخر لم يكن بدرجة من الحط بكرامته وانتقاصه، وإنما هى مؤاخذات علمية وأقوال صريحة. وآراء حرة. وإليك منها: قال الشافعى: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وقال سعد بن أيوب: لو أن الليث و مالكا اجتمعا، لكان مالك عند الليث

ص: 518

1-1) مشارق الأنوار للعدوى ص 288.

2-2) مناقب مالك للزاوى ص 18.

3-3) مناقب مالك للزاوى ص 17-18.



أبكم، ولباع الليث مالكا فيمن يريد (1). وسأل علي بن المديني يحيى بن سعيد: أيهما أحب إليك رأى مالك أو رأى سفيان؟ قال: رأى سفيان لا يشك في هذا. وقال: سفيان فوق مالك في كل شيء. وقال يحيى بن معين: سفيان أحب إليّ من مالك في كل شيء (2). وقال سفيان الثوري: ليس له حفظ. يعنى مالكا. وقال ابن عبد البر: تكلم ابن ذويب في مالك بن أنس بكلام فيه جفاء و خشونة كرهت ذكرها (3). و تكلم في مالك إبراهيم بن سعد وكان يدعوه عليه، وكذلك تكلم فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن أبي يحيى، و محمد بن إسحاق الواقدي، و ابن أبي الزناد، و عابوا أشياء من مذهبه. وقال سلمة بن سليمان لابن المبارك: وضعت شيئا في رأى أبي حنيفة و لم تضع في رأى مالك؟ قال: لم أره علما (4). وقال ابن عبد البر في مالك: إنهم عابوا أشياء من مذهبه. و عن عبد الله بن إدريس قال: قدم علينا محمد بن إسحاق، فذكرنا له شيئا عن مالك. فقال: هاتوا علمه، فإننا بيطاره. و عابه قوم في إنكاره المسح على الخفين في الحضر و السفر، و في كلامه في علي و عثمان. و قال يحيى بن صالح: قال لي ابن أكرم: قد رأيت مالكا و سمعت منه و رافقت محمد بن الحسن، فأيهما كان أفه؟ فقلت: محمد بن الحسن فيما يأخذه لنفسه أفه من مالك (5).

ص: 519

- 
- 1-1) الرحمة الغيثية لابن حجر ص 6.
  - 2-2) تاريخ بغداد ج 10 ص 164. [1]
  - 3-3) جامع بيان العلم وفضله ج 2 ص 160. [2]
  - 4-4) ن. م. ص 157.
  - 5-5) الخطيب ج 2 ص 175.

وكان أبو محمد بن أبي حاتم يقول: عن أبي زرعة عن يحيى بن بكير أنه قال: الليث أفقه من مالك، إلا أنه كانت الحظوة لمالك. وفي رسالة الليث بن سعد التي بعث بها إلى مالك يناقشه فيها في بعض آرائه مناقشة قوية، ويرد عليه، فيقول في بعضها: ومن ذلك إنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين، ومنعه الفرس الثالث. والأمة كلهم على هذا الحديث: أهل الشام، وأهل مصر، وأهل العراق، وأهل إفريقية لا يختلف فيه اثنان، فلم يكن ينبغي لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالف الأمة أجمعين. وقال أحمد بن حنبل: كان ابن أبي ذويب يشبه سعيد بن المسيب، وكان أفضل من مالك، إلا أن مالكا أشد تنقية للرجال منه (1). وقال أيضا: هو أروع وأقوم بالحق -يعنى ابن أبي ذويب- من مالك، دخل على المنصور فلم يهبه إن قال له الحق: وقال الظلم بابك فاش، وأبو جعفر أبو جعفر (2) يعنى فى قوته و جبروته و اشتداد سلطانه و عظمته و بطشه. و تقف عند هذا الحد من استعراض آراء العلماء وأقوالهم فى مالك، مما تدل على عدم امتيازه بموهبة يصبح بها أهلا للمرجعية دون غيره. و لا حاجة بنا إلى غريبة الأقوال الأخر و مناقشتها. و إنما ذكرنا هذا كأمودج و مقدمة لما نريد أن نذكره فى الموازنة فيما بعد عند انتهائنا من التعرف على شخصيات أئمة المذاهب.

## مع الخلفاء و الولاة:

### إشارة

أدرك مالك بن أنس من العهد الأموى أربعين سنة، و من العهد العباسى ستا و أربعين سنة، لأن ولادته سنة 93 هـ و وفاته سنة 179 هـ -على اختلاف الأقوال فى ذلك، و بهذا فقد أدرك الدولتين الأموية و العباسية، و قد كانت ولادة مالك فى عهد الوليد بن عبد الملك.

ص: 520

1-1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 176.

2-2) تاريخ بغداد ج 2 ص 302. [1]

ولم نعرف عن نشأته الأولى شيئاً، حتى نتكلم عن حياته في العهد الأموي، لأن مالكا لم يكن من المبرزين في ذلك العصر، فيسجل التاريخ قضاياها في العهد الأموي، ولم يكن لبيته نشاط سياسي ولا علمي حتى يكون معرضاً لأخطار الدولة، وإنما يأتي الحديث عنه في العهد العباسي الذي ابتدئ من سنة 133 هـ، وهو تاريخ سقوط الدولة الأموية وانهارها، كما أن عهد أبي العباس السفاح خال عن ذكره، وإنما يبتدئ حديثه من آخر خلافة المنصور. ولم يكن لمالك بن أنس شهرة إلا بعد اشتداد الخلاف بين أهل الرأي، وأهل الحديث، وبعد وقوعه في المحنة. والشيء المهم الذي يجب أن يلحظ هو تطور حياة مالك وانتقاله من دور الغضب عليه-من قبل الدولة-إلى دور الرضا عنه، ومن عهد المحنة والشدة إلى عهد التبجيل والرفاهة. وقد اختلفت الأقوال في سبب محنته وضربه بالسياط. فمن قائل: إن مالكا كان يجاهر بمخالفة ابن عباس في جواز نكاح المتعة، ويقول: إنه حرام. ويروون أنه حمل إلى بغداد وسئل عن نكاح المتعة، فقال: هو حرام، ف قيل له في قول ابن عباس فيها، فقال: كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله، وأصر على القول بتحريمها، فطيف به على ثور مشوها، فكان يرفع القدر عن وجهه، ويقول: يا أهل بغداد! أنا مالك بن أنس فعل بي ما ترون لأقول بجواز المتعة (1). وهذا بعيد عن الواقع، لأن ضرب مالك بالسياط أو محنته-كما يقولون-كانت في المدينة لا في بغداد، ولئن كان سبب محنته قوله بجواز المتعة الأمر الذي أوجب الغضب عليه من الدولة، فهل أصر مالك على رأيه فيما بعد؟ ووافقت الدولة، وعرفت خطأها، فقربتته؟ أم أنه وافق رأيتها وتنازل عن إصراره وترك ما وافق كتاب الله لما وافق آراءهم؟ فهذا أمر يبعث على الاستغراب ولعلهم أرادوا اتساع دائرة ذكره بتعدد صورها. ومنها-ما يذكره بعضهم: أن السبب هو عدم رضا بعض الطالبين عنه، لتفضيله عثمان على علي عليه السلام. وهذا بعيد كأول وإن كان يذهب مالك لذلك.

ص: 521

و الصحيح فى ذلك و إن اختلفت الأقوال فىه أن سبب ضربه بالسياط هو فتواه بما لا يوافق غرض السلطة بأى صورة كان و بأى سبب حصل، و ذلك فى زمن ولاية جعفر بن سليمان سنة 146 هـ، فإنه جرد مالكا و مده و ضربه بالسياط حتى انخلعت كتفاه، و قيل: إن المنصور قد نهى مالكا عن الحديث (ليس على مستكره طلاق) ثم دس إليه من يسأله عنه، فحدث به مالكا، فضربه بالسياط (1) حتى انخلع كتفه. قال إبراهيم بن حماد: كنت أنظر إلى مالكا إذ أقيم من مجلسه حمل يده اليمنى أو يده اليسرى بالأخرى. كما أن مالكا قد تظاهر بالدعوى لمحمد بن عبد الله ذى النفس الزكية. و بالجملة فإنه إلى حدود سنة 146 هـ هو فى دوره الأول، ثم انتقل بعد ذلك إلى دور الحفاوة و التجلة.

### مع المنصور:

لمالك مع المنصور أخبار كثيرة، منها قبل اتصاله الوثيق به. و منها بعد ذلك. و نأتى بالبعض من الطرفين فى ذلك: دخل عبد الله بن طاوس اليمانى (2) على المنصور، و معه مالكا بن أنس، فقال المنصور: حدثنى عن أبىك. قال حدثنى أبى: أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى سلطانه، فأدخل عليه الجور فى حكمه. فأمسك المنصور. قال مالكا: فضممت ثيابى خوفا من أن يصيبنى دمه. ثم قال المنصور ناولنى الدواة. فلم يفعل، فقال: لم لا تناولنى الدواة؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية. قال المنصور: قوما عنى. قال عبد الله: ذلك ما كنا نبعيه. قال: مالكا فما زلت أعرف فضله (3).

ص: 522

1-1) الانتفاء لابن عبد البر ص 43-44.

2-2) عبد الله بن طاوس اليمانى أبو محمد اليمانى روى عن أبيه و عكرمة بن خالد، و روى عنه خلق كثير، و هو من رجال الصحاح. و قد أخطئوا فى تعيين سنة وفاته فى سنة 133 هـ و بهذا لا تصح هذه الحكاية. و الصحيح أنه متأخر عن هذا الوقت.

3-3) الشذرات ج 2 ص 188. [1]

ودخل مالك هو و ابن أبي ذؤيب و ابن سمعان على المنصور عند ما ولى الخلافة، و كان منظر المجلس يملأ القلب رعباً، كما يحدث مالك و يصف ما دخله من الخوف عند ما نظر إلى الجلاوزة يحملون السلاح. فألقى المنصور سؤالاً مشتركاً، فقال بعد كلام طويل: أى الرجال أنا عندكم؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور؟ قال مالك بن أنس: فقلت: يا أمير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى و أتشفع إليك بمحمد صلى الله عليه و سلم و بقرابتك منه إلا ما أعفيتني من الكلام فى هذا. قال: قد أعفاك أمير المؤمنين من هذا، ثم التفت إلى ابن سمعان، فقال له أيها القاضى: ناشدتك الله تعالى أى الرجال أنا عندك؟ فقال ابن سمعان: أنت و الله خير الرجال، و الله يا أمير المؤمنين تحج بيت الله الحرام و تجاهد العدو، و تؤمن السبل و يأمن الضعيف بك أن يأكله القوى، و بك قوام الدين، فأنت خير الرجال، و أعدل الأمة. ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب (1) فقال له: ناشدتك الله أى الرجال أنا عندك؟ قال: أنت و الله عندى شر الرجال، استأثرت بمال الله و رسوله، و سهم ذى القربى، و اليتامى، و المساكين، و أهلك الضعيف و أتعبت القوى، و أمسكت أموالهم، فما حجتك غدا بين يدي الله؟ فقال أبو جعفر و يحك ما تقول انظر ما أمامك!! قال: نعم رأيت أسيافاً و إنما هو الموت، و لا بد منه عاجله خير من آجله (2) و خرج آمن لم ينله شيء. أما مالك فبقى عند المنصور. و يا ليت مالكا أجاب المنصور بجواب وسط، لا كابن سمعان الذى خالف الحق و لا يستبعد منه، فهو يعيش على بساط الدولة و يشغل وظيفة القضاء، و يتمنى بقاء المنصور.

ص: 523

---

1-1) هو أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أبى ذئب أو ذؤيب العامرى المدنى المتوفى سنة 159 هـ. قال الواقدى ولد سنة 80 هـ، و كان من أروع الناس و أفضلهم، و قيل: إن المهدي حج فدخل مسجد النبى فقام الناس إلا ابن أبى ذئب، فقيل له: قم فهذا أمير المؤمنين، فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين، فقال المهدي: دعوه فقد قامت كل شعرة على بدنى.

2-2) الإمامة و السياسة ج 2 ص 153. [1]

و لا كجواب ابن أبي ذؤيب الذى هو بكامل الصراحة و الجرأة الأدبية التى فقدتها مالک. و لم يحدثنا التاريخ بموقف مشهود له تتجلى به شجاعته و اقدمه، كغيره من العلماء الذين واجهوا المنصور فى أخرج المواقف، كعبد الله بن مرزوق عند ما التقى بأبي جعفر فى الطواف، و قد تنحى الناس عنه. فقال له عبد الله: من جعلك أحق بهذا البيت من الناس تحول بينه و بينهم و تنحيهم منه؟ فنظر أبو جعفر فى وجهه فعرفه. فقال: يا عبد الله بن مرزوق!؟ من جرأك على هذا، و من أقدمك عليه؟ فقال عبد الله: و ما تصنع بي؟ أيديك ضرر أو نفع؟ و الله ما أخاف ضررك و لا- أرجو نفعك، حتى يكون الله عزّ و جلّ يأذن لك فيه. فقال المنصور: إنك أحللت بنفسك، و أهلكتها. فقال عبد الله: اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضرر، فلا تدع من الضر شيئاً إلا أنزلته علىّ، و إن كان بيده منفعتي، فاقطع عنى كل منفعة منه، أنت يا رب بيدك كل شىء، و أنت ملىك كل شىء. فأمر به أبو جعفر فحمله إلى بغداد، فسجنه بها ثم أطلقه (1). هكذا كان موقف ذوى الصراحة و الجرأة الأدبية. أما مالک فلم يحدثنا التاريخ أنه أقدم على شىء من ذلك مع المنصور و غيره لكن يقال عنه: بأنه كان يدخل على الأمراء و الخلفاء و يعظهم و يرشدهم و يدعوهم إلى الخير، و أنه كان يحث العلماء على إرشاد الخلفاء و الأمراء، و قول الحق لهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. نعم يمكن أن ذلك كان يصدر منه مع أمراء المدينة بعد ما حظى بإقبال المنصور عليه و قربه منه، فقد نقل أنه كان يطلب من مالک أن يبدي رأيه فى ولاته على الحجاز، و قال له فى ذلك: إن رابك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك أو سوء أو شر فى الرعية، فاكتب إلىّ بذلك أنزل بهم ما يستحقون.

ولذلك نرى أن الولاة كانوا يحترمونه غاية الاحترام، و يخشونه كخشيتهم من المنصور، فعظمت بذلك منزلة مالك، و تقرب الناس إليه، و ازدحموا على بابه كازدحامهم على أبواب الأمراء. و هذا هو السبب فى هيبة مالك فى النفوس، لأن الحكام كانوا يهابونه حتى أنهم يحسون بالصغر فى حضرته، كما حدث الشافعى عند ما قدم المدينة يحمل كتابا لواليتها من والى مكة، و يطلب منه أن يوصله إلى مالك، فقال الوالى: يا فتى إن مشى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون على من المشى إلى باب مالك، فلست أرى الذلة حتى أقف على باب داره (1) فإذا كان الولاة هذه حالتهم معه، فالناس أولى بذلك. و كيف لا يهابه الولاة و بيده أمرهم من عزل و تعيين؟ هذا هو سر هيبة مالك مرجعها لقوة المنصور التنفيذية.

### اتصاله بالمنصور:

و الذى يظهر أن اتصال مالك بالمنصور و تقريبه إياه كان فى السنة التى حج فيها المنصور على ما يرويه ابن قتيبة: أن المنصور كتب إلى مالك: أن واف الموسم فى العام القابل إن شاء الله، فإنى خارج إلى الموسم. فلما حج المنصور 153 هـ و دخل عليه مالك، فاعتذر المنصور إليه مما ناله من الضرب و الإهانة و قال له-بعد كلام طويل-: و لقد أمرت أن يؤتى بعدو الله من المدينة على قتب-يعنى جعفر بن سليمان الذى ضرب مالك-و أمرت بضيق مجلسه، و المبالغة فى امتهانه، و لا بد أن أنزل فيه من العقوبة أضعاف ما نالك منه. فقال مالك: عافى الله أمير المؤمنين، و أكرم مثواه، قد عفوت عنه لقربته من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم منك. و بهذا يتضح أن هذا الاجتماع هو أول اجتماع بعد ضرب مالك و إهنته ثم أمره أن يضع كتابا يحمل الناس عليه، و يبثه فى الأمصار و يأمر الناس بالعمل به، و أن لا يقضى بسواه. فقال مالك: إن أهل العراق لا يرضون علمنا، و لا يرون فى علمهم رأينا.

ص: 525

فقال أبو جعفر: يحملون عليه و نضرب عليه هاماتهم بالسيف و تقطع طى ظهورهم بالسياط، فعجل بذلك و سيأتى المهدي فى العام المقبل. و قد فرغت من ذلك. ثم أمر له بألف دينار عينا ذهباً و كسوة عظيمة، ثم أمر لابنه بألف دينار (1). و طلب المنصور من مالك أن يذهب معه إلى مدينة السلام، و قال له: اذهب معى فلا أقدم عليك أحداً، فقال مالك: إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين -يعنى شيئاً واجباً- فلا- سبيل إلى مخالفته، و إن تكن غير ذلك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، فقال له المنصور: فلا أحمل عليك شيئاً تكرهه، ثم أجازه بثلاث صرر: كل صرة ألف دينار، فلما خرج مالك، قال ولد المنصور لأبيه: أأتدنى رجلاً من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس؟! فقال له المنصور: ما على وجه الأرض اليوم رجل يستحى منه إلا مالك و سفيان الثورى (2). و قال المنصور لمالك: يا أبا عبد الله! ذهب الناس و لم يبق غيرى و غيرك. و دخل مالك بن أنس على المنصور فقال: يا مالك مالى أراك تعتمد على قول ابن عمر دون أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؟ فقال مالك: يا أمير المؤمنين إنه آخر من بقى عندنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فاحتاج الناس إليه، فسألوه و تمسكوا بقوله. فقال: يا مالك عليك بما تعرف إنه الحق عندك، و لا تقلدن علياً و ابن عباس. و يمكن أن تكون كلمة ابن عباس من الزوائد التى ألحقت بالعبارة لتبرير موقف المنصور عن النهى عن تقليد عليّ فى الأحكام الشرعية، لأنه بعد أن كان علم عليّ مفخرة لبنى العباس، و يجاهرون بفضله و بعلمه، أصبح عند اشتداد ملكهم و قوة سلطانهم لا يروقه أن يروى أحد عن عليّ و أهل بيته، و قد شاركوا الأميين فى هذه النزعة، بل بصورة أشد و أعظم فى المؤاخذة. و ما من شك فى أن المنصور اتجه لمالك بتمام العناية، و اشتدت بينهم الروابط و الصلات، تلك الروابط التى أوجدت فى مالك شخصية له حق رعاية حكام الحجاز و ولايته مما جعلهم يخشون مخالفته، و يتهيئون مقامه، و بذلك اتجهت الأنظار إليه

ص: 526

1-1 (الإمامة و السياسة ج 2 ص 195. [1])

2-2 (مناقب مالك للزاوى ص 25.



و تكونت شخصيته، و علت منزلته دون غيره من علماء دار الهجرة، و غيرهم من علماء المسلمين. و نحن لا نريد أن نظلم مالكا إن قلنا: إن من الظلم تقديمه على علماء المدينة، و جعل الفتوى منوطة به دون غيره، فما هي المؤهلات التي جعلته يكون كذلك؟ فقد كان مالك لا يعرف عن نفسه ما يقول المنصور بأنه أعلم أهل الأرض. حدث مالك قال: قال لى أبو جعفر يوما: أعلى ظهرها أحد أعلم منك؟ قلت: بلى. قال: فسمهم لى. قلت: لا أحفظ أسماءهم، قال أبو جعفر: قد طلبت هذا الشأن-أى العلم-فى زمن بنى أمية و قد عرفته. و بهذا رأينا مالكا يعترف بوجود من هو أعلم منه، و لكن لا يصرح باسمه، لعلمه بما وراء ذلك. و قد كان مالك يسأل عن كثير من المسائل الشرعية. فكان أكثر جوابه بلا أدرى. و قد قصده رجل من العراق بأربعين مسألة، فأجاب عن خمس و ثلاثين بلا أدرى. و قد أنكر مالك على أهل مصر بأنهم عرفوا البيوع و هو لا يعرفها، إذ كانوا يرجعون إليه، على أننا نجد فى علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدرى. فهذا محمد بن عبد الحكم المتوفى سنة 268 هـ-كان يقول: أتعجب ممن يقول: لا أدرى، و له كتاب فى الرد على الشافعى فيما خالف الكتاب و السنة. و قال عبد الرحمن بن المهدي: كنا عند مالك فجاءه رجل فسأله فقال: لا أحسن، فقال الرجل: و أى شىء أقول إذا رجعت إلى بلادى؟ قال تقول لهم: قال مالك بن أنس: لا أحسن. و الغرض أن مالكا نال حظا وافرا فى آخر دولة المنصور مما جعله يحاول أن يجمع الناس على علمه، و من يخالف تضرب عنقه. و جاء من بعده المهدي، فكانت منزلة مالك فى دولته عظيمة. و قد أمره بأن يضع للناس كتبا يحملهم عليها. و كان يحترمه و يجله و يوصله بهدايا جزيلة و عطاء وافر، و يقرب مجلسه، و يظهر للناس شأنه و علو منزلته. و كان المهدي يطلب من مالك أن يزوده بوصايا لينتفع بها.

فقال له مالك: أوصيك بتقوى الله وحده، و العطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و جيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المدينة مهجري، و بها قبرى، و بها مبعثى، و أهلها جيرانى، و حقيق على أمتى حفظى فى جيرانى، فمن حفظهم كنت له شهيدا و شفيعا يوم القيامة». و على أثر هذه الوصية أخرج المهدي عطاء كثيرا، و طاف بنفسه على دور المدينة، و لما أراد الخروج، دخل عليه مالك فقال له: إني محتفظ بوصيتك التى حدثتنى بها. و لما جاء دور الرشيد، سار على تلك الخطة التى سار عليها أبأوه، فاحتفظ بمكانة مالك، و عظمه غاية التعظيم، و لما قدم المدينة جاء الرشيد إلى منزل مالك بنفسه، فأجلسه مالك على منصبه التى كان يجلس عليها للحديث، ثم أراد مالك أن يظهر من الرشيد فيه للملا أعظم من ذلك، فقال له: يا أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا إلا و هم يحبون أن يتواضعوا لله. فنزل الرشيد عن المنصة و جلس بين يدي مالك، تواضعا لعلمه و انقيادا لقوله. و يطول بنا الحديث إذا حاولنا أن نشبع الموضوع فى علاقة مالك بالخلفاء و الولاة، و أردنا أن نقيس حياته الأولى التى قضاها فى خمول، لبعده عن سلطان عصره، مع حياته الثانية التى خطى بها إلى ميدان الشهرة و التفوق على غيره، حتى أصبح موضع عناية الدولة، و كان المنصور يطلب منه مزاملته للحج، و يسميه بركن الإسلام، و ينوط أمر ولاته به، و الرشيد يأمر عامله بأن لا يقطع أمرا دون مالك، فوقعت هيئته فى النفوس، و هابته تلامذته، حتى انه ليدخل عليه الرجل إلى مجلسه فيلقى السلام عليه، فلا يرد عليه أحد إلا همهمة و إشارة، و يشيرون إليه ألا يتكلم مهابة و إجلالا، و لا يستطيع أحد أن يستفهمه أو يدنو منه، و كان على رأسه سودان يأترون بأمره، فإذا أشار إليهم بإخراج أحد أخرجه (1). و كان على بابه حجاب يمنعون الناس من الدخول عليه فإذا أذن لهم ازدحموا على الباب. قال أبو مصيب: كانوا يزدحمون على باب مالك بن أنس فيقتتلون على الباب

ص: 528

من الزحام، وكنا عند مالك فلا يكلم هذا هذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا والناس قائلون برءوسهم هكذا (مبالغة في الانصات)، وكان السلاطين تهابه، وهم قائلون ومستمعون، وكان يقول في المسألة لا أو نعم فلا يقال له من أين لك هذا. وكانت لمالك بن أنس سلطة تنفيذية فهو يضرب ويسجن وقد ذكرت كتب مناقب مالك كثيرا من ذلك فمنها: ان رجلا كان عند مالك فقال: أليس قد أمر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم بدفن الشعر و الاظفار فغضب مالك وأمر بضربه وسجنه. فقيل له: إنه جاهل. فقال: يقول قال النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم وقد قال النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. وقد أعلن مالك غضبه عن يروي عن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم فيضربه أو يحبسه حتى يصح عنده ذلك فيطلقه فما كان يتهيا لأهل المدينة أن يقولوا قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم. و كان المشايخ الذين سمعوا الحديث مع مالك قد تركوا الحديث هيبة لمالك أو خشية منه إلى أن مات حدثوا بما عندهم. وسأله هشام بن القارى عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطا ثم أشفق عليه فحدثه. ودخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق اقتلوه. فقال الرجل: يا أبا عبد الله إنما أحكى كلاما سمعته. قال مالك: لم أسمع من أحد إنما سمعته منك. إلى غير ذلك مما حدثنا به كتب مناقبه (1) ويجب ألا يغيب من بالنا مقاصد الدولة من وراء هذا الاتجاه. إذا فليس من الغريب أن تتسع أقوال المدح فيه، وأن يتقرب الناس إليه برؤيا النبي فهذا يأتي إليه ويقول له: كنت راقدا في الروضة فرأيت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم متوكنا على أبي بكر وعمر فقلت: يا رسول الله من أين أقبلت؟ فقال مضيت إلى مالك فأقمت له الصراط المستقيم (2).

ص: 529

1-1 مناقب مالك للزاوى 30 و تزين المسالك للسيوطى 14.

2-2 تزين الممالك للسيوطى ص 44.

و يقدم عليه آخر و هو جالس في المسجد. فيقول: أيكم مالك بن أنس؟ فقالوا: هذا. فسلم عليه. فاعتنقه و قبله بين عينيه و ضمه إلى صدره و قال: رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في هذا الموضوع فقال: هاتوا مالكا فأتى بك ترعد فرائصك فقال: ليس بك بأس أبا عبد الله و كناك. و قال: اجلس. و قال: افتح حجرك فمأله مسكا منثورا. و قال: بثه في أمتي. فبكى مالك طويلا و قال: الرؤيا تسر و لا تضر إن صدقت رؤياك، فهو هذا العلم الذي أودعني الله (1). و من هذا و نحوه مما يتقرب به المتقربون، أو يفتعله المغالون فيه و يجعلونه من دواعي أهليته، بل مؤهلاته. و لو أردنا استقصاء ما أحيطت به شخصية مالك من الزوائد و المبالغات فإننا نخرج عن خطة الاختصار.

## شيوخ مالك:

### إشارة

ازدهر عصر مالك برجال العلم و لمعت فيه أسماء رجال تحدث الناس عنهم لشهرتهم العلمية، و مكانتهم في المجتمع الإسلامي، و أصبحت المدينة يؤمها طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، و امتازت بالتمسك بالحديث و محاربة الرأي و القياس، كما كانت صبغة الكوفة هي الميل إلى الرأي و القياس و عظم بين البلدين انشقاق أدى إلى خصومة و عدا، خرج عن نطاق البحث العلمي إذ تعصب كل لبلده. و كانت المدينة تزدهر بمدرسة الإمام الصادق، و قد تهافتت الوفود إليها عند ما وجد الناس فرصة الاتصال بأهل البيت، و رفع عراقيل المؤاخذه على ذلك، و كانت مدرسة الإمام الصادق متمسكة بالحديث، لا تجعل للرأي و القياس دخل في الأحكام الشرعية كما مر بيان ذلك. و كان مالك بن أنس هو أحد المنتمين لمدرسة الإمام الصادق مدة من الزمن و عنه أخذ الحديث، فالإمام الصادق هو من أكبر شيوخ مالك بن أنس كما مر بيانه. و قد أخذ مالك أيضا عن عدة شيوخ من علماء المدينة و غيرهم: منهم عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام، و زيد بن أسلم، و سعيد المقبري، و أبي حازم،

ص:530

وصفوان بن سليم، و صالح بن كيسان، وإسماعيل بن أبي حكيم و حميد بن قيس المكي. و اختص مالك بالأخذ عن جماعة منهم، و لازمهم ملازمة تامة: و هم ابن هرمز، و نافع مولى ابن عمر، و ابن شهاب الزهري، و ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بريعة الرأي، و أبو الزناد. فهؤلاء أخص مشايخ مالك و لا بد من الإشارة إلى كل واحد من هؤلاء:

### ابن هرمز:

و تطلق هذه الكنية (ابن هرمز) على رجلين، أحدهما عبد الرحمن بن هرمز، و لقبه الأعرج و كنيته أبو داود، و كان قارئاً محدثاً توفي سنة 117 هـ. و ثانيهما عبد الله بن يزيد بن هرمز و كنيته أبو بكر توفي سنة 148 هـ. أما الأول: فهو عبد الرحمن بن هرمز مولى بنى هاشم أبو داود توفي سنة 117 هـ-بالإسكندرية، روى عن أبي هريرة و معاوية و أبي سعيد، و عنه الزهري، و أبو الزبير، و أبو الزناد، و روى له أصحاب الصحاح الستة. و قد اختلف فيمن اختص مالك من هذين، هل هو ابن هرمز المتقدم أم هذا؟ و قد حقق ذلك بعض الباحثين و انتهى إلى أنه الأول، و لم يكن هو هذا، و يمكن أن يكون هو الصحيح لأن ولادة مالك سنة 98 هـ-على الاختلاف، فيكون عمره عند وفاة أستاذه 19 سنة، و في هذا الدور لم يتجه مالك لطلب علم الحديث فلا يمكن أن يوصف بالملازمة له و كسب المواهب التامة منه على أنه يمكن أن يخرج ابن هرمز للإسكندرية متقدماً، فيكون عمر مالك أقل.

### نافع:

نافع العدوي مولى عبد الله بن عمر المتوفى سنة 117-120 هـ. روى عن مولاه عبد الله بن عمر، و أبي لبابة و أبي هريرة و عائشة، و عنه ابنه، و ابن جريح و مالك. و هو أحد حلقات السلسلة (الذهبية) كما يقولون إن أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، فهو شيخ مالك، و عنه أخذ قضايا ابن عمر و فقهه، و نافع من رجال الصحاح الستة.

ابن شهاب الزهرى هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب المتوفى سنة 124 هـ. وكانت له منزلة عند خلفاء بنى أمية، وولاه يزيد بن عبد الملك القضاء وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: عليكم بآبن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه، وقد روى مالك أنه أول من دون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من عمر بن عبد العزيز. وهو أحد تلامذة الإمام زين العابدين والإمام الباقر عليه السلام، ولكنه على انحراف لعلته بنى أمية. وقد كتب إليه الإمام زين العابدين عليه السلام رسالة يعظه بها ويحذره أولئك الحكام الذين استمالوه وقربوه لأغراضهم، ونرى من المهم ذكر بعض تلك الرسالة الحكمية الخالدة:

### رسالة الإمام زين العابدين للزهرى:

«كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يرحمك. فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك، وأطال من عمرك. وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه. وفقهك فيه من دينه وعرفك فيه من سنة نبيه. فانظر أى رجل تكون غدا إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعتها. . . ولا تحسبن الله قابلا منك بالتعذير، ولا راضيا منك بالتقصير، هيهات هيهات ليس كذلك، أخذ على العلماء فى كتابه إذ قال: «لتبيننه للناس ولا تكتمونه». . واعلم أن أدنى ما كتمت وأخف ما احتملت أن أنست وحشة الظالم. وسهلت له طريق الغى بدنوك منه حين دنوت. وإجابتك له حين دعيت. فما أخوفنى يا ثمك غدا مع الخونة. وأن تسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة. إنك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك. ودنوت ممن لم يرد على أحد حقا ولم ترد باطلا. حين أدناك، وأحببت من حاد الله. أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطبا أداروا بك رحى مظالمهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلما إلى ضلالهم، داعيا إلى غيهم، سالكا سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك فى قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك فكيف ما خربوا

عليك، فانظر لنفسك فإنه لا ينظر إليها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسئول، وانظر كيف شكرك لمن غذاك في نعمه صغيرا أو كبيرا، فما أخوفنى عليك أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . . . الآية إلى آخر الرسالة الخالدة (1). و الرسالة تعبر عن اتجاه الإمام زين العابدين إلى إبعاد رجال الدين وأصحاب المنزلة الدينية عن دوائر الحكام ورجال الجور والباطل، فإنما احتل العلماء هذه المنزلة في نفوس الناس لمكان العقيدة في النفوس وتمجيد كل ما يمت إلى الدين بصلة، خاصة حملة العلم وأصحاب الفقه الذين يجب أن يكونوا دعائم للحق لا دعائم للباطل والجور. وقد لمست الأمة بعد الحكام عن العقيدة وإن لم تكن مبادئ الإسلام هي التي قررت مضمون العدالة والمساواة، فإن نوايس الحياة تؤكد تأثير المجتمع بالعلماء والأمرء فإذا صلحا صلح المجتمع، فكيف إذا كان الزهري في غمار الملوك الطغاة البغاة، و صفة الزهري الدينية ومنزلته العلمية يفترض أن تحمله إلى شاطئ الإمامة لا إلى خصم السلطان فاختر الإمام زين العابدين عليه السلام أن يتجه بالخطاب إلى الزهري في فترة اختط فيها الإمام نهج الدعوة الدينية لبناء النفوس وتنزيه الدين من الالتقاء مع الجائرين وتأكيد سياسة عدم التعاون مع الظلمة التي سار عليها أهل البيت وحرصوا على إلزام الأمة مقاطعة الظالمين وهجرهم. وإن من أشد معوقات ذلك أن يكون من يفترض فيهم الصلاح جسرا للبلاء وسلما للضلال. والجدير بالذكر أن الإمام زين العابدين وجه عنايته إلى الزهري كواحد من تلاميذه لما كان الزهري يغشى مجلسه فيقوم الإمام زين العابدين بإسداء النصح والإرشاد. دخل الزهري على الإمام زين العابدين وهو كئيب حزين، فقال له زين العابدين عليه السلام: ما بالك مغموما؟ قال يا ابن رسول الله، غموم وهموم تتوالى عليّ لما امتنحت به من جهة حساد نعمى والطامعين فيّ، و ممن أرجو، و ممن أحسنت إليه فيخلف ظني. فقال له الإمام: اضغط عليك لسانك تملك به اخوانك، قال الزهري: يا ابن رسول الله، إنى أحسن إليهم بما يبدر من كلامي. قال الإمام زين العابدين: هيهات هيهات، إياك أن تعجب من نفسك بذلك، وإياك أن تتكلم بما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن عندك اعتذاره، فليس كل من تسمعه شرا يمكنك أن توسعه عذرا.

ص: 533

ثم قال: يا زهري، من لم يكن عقله من أكمل ما فيه كان هلاكه من أيسر ما فيه. ثم قال: يا زهري، أما عليك أن تجعل المسلمين بمنزلة أهل بيتك فتجعل كبيرهم بمنزلة والدك، وتجعل صغيرهم بمنزلة ولدك، وتجعل تربك منهم بمنزلة أخيك، فأى هؤلاء تحب أن تظلم، وأى هؤلاء تحب أن تدعو عليه، وأى هؤلاء تحب أن تهتك ستره، وإن عرض لك إبليس لعنه الله بأن لك فضلا على أحد من أهل القبلة فانظر إن كان أكبر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعلم الصالح فهو خير مني. وإن كان أصغر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني. وإن كان تربك فقل: أنا على يقين من ذنبي في شك من أمره فما لي أدع يقيني لشكى. وإن رأيت المسلمين يعظموك ويوقروك ويجلونك فقل: هذا فضل أخذوا به. وإن رأيت منهم جفاء وانقباضا فقل: هذا الذنب أحدثته، فإنك إذا فعلت ذلك سهّل الله عليك عيشك وكثر أصدقاؤك وفرحت بما يكون من برّهم ولم تأسف على ما يكون من جفائهم (1).

### أبو الزناد:

عبد الله بن ذكوان مولى بنى أمية أبو الزناد المدنى المتوفى سنة 120 هـ، روى عن ابن عمر مرسلا، وعن الأعرج فأكثر، قال الليث: رأيت أبا الزناد و خلفه ثلاثمائة طالب، وقد ولى بعض أمور بنى أمية، وكان من الموالى الذين رفعت الدولة الأموية شأنهم، وقد متهم على غيرهم و قد أخذ عنه مالك قليلا و كان أكثر اتصاله و أخذه عن ابن هرمز و الزهري.

### ربيعة الراى:

ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ، و يكنى أبا عثمان و هو من موالى آل المنكدر توفى بالأنبار سنة 136 هـ فى مدينة الهاشمية، تقدمت ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب. و قد أخذ مالك عن ربيعة و حضر عنده و هو صغير السن، عند ما وجهته أمه لطلب العلم، كما أن آراء ربيعة واضحة فى فقه مالك.

ص: 534



## إشارة

لقد بالغ كتّاب المناقب بالكثرة لتلامذة مالك، وأضافوا إليهم من ليسوا منهم، وأخذوا يعدون من هم أكبر منه سناً و من تقدم بهم الزمن عليه، و يعدون أحيانا أخرى من رواته شيوخه الذين تلقى عليهم و روى عنهم. و لا غرابة أن يروى الشيخ عن تلميذه، و لكن إذا كان لذلك حقيقة واقعة فلا غضاضة في قبولها، و إن كان لمجرد المبالغة في التقدير و التوثيق فليس من العلم قبوله، بل يجب رده (1). و لقد ادعوا أن الزهري قد روى عنه، فيذكر القاضى عياض: أن من التابعين الذين رووا عنه محمد بن مسلم الزهري، و قد نفى ذلك ابن عبد البر. و لعل الذى أوقعهم في هذا الخطأ: هو الاشتباه بين اسم الزهري هذا و بين الزهري أحمد بن أبي بكر قاضى المدينة فإنه من رواة الموطأ و تفقه بأصحاب مالك و توفي سنة 242 هـ، كما قالوا إن أبا حنيفة من تلامذته لرواية أشهب أنه قال: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه. و استدلوا بما أخرجه ابن شاهين و الدارقطنى في غرائب مالك بسند عن حماد بن أبي حنيفة عن أبي حنيفة عن مالك في حديث (الايام أحق بنفسها). و أخرج الخطيب البغدادي بسند عن أبي حنيفة عن مالك في حديث راعية الغنم. و قد أجيب عن ذلك بأن الرواية الأولى هي عن حماد بن أبي حنيفة دون ذكر أبيه. و أن الرواية الثانية هي عن أبي حنيفة عن عبد الملك هو ابن عمير فصحفه بمالك. و قال ابن حجر لم تثبت رواية أبي حنيفة عن مالك. و هو الصحيح لأن أبا حنيفة أكبر من مالك بخمس عشرة سنة و مات قبله بأكثر من ثلاثين و لم تكن لمالك شهرة آنذاك.

ص: 535

و على أى حال فإنهم ذكروا رواية عن مالك تجاوز عددهم الألف وأكثرهم لم يدرك مالكا وبعضهم لم يدركه مالك. ولم يصح ذلك و نحن هنا نذكر بعض تلامذته و الرواة عنه. و على أى حال فنحن نذكر كبار تلامذته و ناشرى علمه و فقهه.

### ابن وهب:

عبد الله بن وهب بن مسلم البربرى نسبة القرشى ولاء أبو محمد المصرى المتوفى سنة 199 هـ. روى عن يونس بن يزيد، و أسامة الليثى، و مالك، و الثورى، رحل إلى مالك سنة 148 هـ، و لم يزل فى صحبته إلى أن توفى مالك، و كان أعلم أصحاب مالك، إلا أنه يروى عن الضعفاء، و كان مالك يكرمه و يجله. و ما أحد من تلامذة مالك إلا و زجره مالك، إلا ابن وهب، و قد رحل لمصر و نشر مذهب مالك هناك، و فى المغرب أيضا.

### ابن القاسم:

عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد الله العتكى مولا هم المتوفى سنة 191 هـ روى عن مالك، و الليث و ابن الماجشون، و مسلم بن خالد، و غيرهم. رحل إلى مالك بعد ابن وهب، بوضع عشرة سنة و طالت صحبته له، و اخص بعلم مالك دون غيره، حتى كان أثبت أصحابه به، و كانت له آراء يخالف بها شيخه مالك. قال ابن عبد البر: كان فقيها قد غلب عليه الرأى، كما أنه خالف مالكا فى ابتعاده عن السلطان و عدم قبول جوائزهم، و كان يقول: ليس فى قرب الولاة و لافى الدنو منهم خير.

### أشهب:

أشهب بن عبد العزيز القيسى أبو عمرو العامرى المتوفى سنة 204 هـ انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم، صحب مالكا و لازمه و تفقه عليه، و له مدونة تسمى مدونة أشهب أو كتب أشهب، و كان يدعو على الشافعى و يتمنى موته، و توفى بعد الشافعى بأيام.

## عبد الله بن الحكم:

عبد الله بن الحكم بن الليث مولى عثمان بن عفان المتوفى سنة 210 هـ- وإليه أفضت الرئاسة بعد أشهب.

## ابن الفرات:

أسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة 213 هـ-. أصله من خراسان، وولد بحرّان من ديار بكر، ورحل لمالك وسمع موطأه، ثم رحل إلى العراق فلقى أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، وأسّد بن عمرو، وأصحاب أبي حنيفة، فتفقه بهم، وسمع أبو يوسف منه موطأ مالك، وتولى قضاء القيروان واقتصر في العمل على مذهب أبي حنيفة، فانتشر بسببه مذهب أبي حنيفة هناك، وله مدونة على مذهب مالك.

## الليثي:

يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المتوفى سنة 224 هـ-، كان أصله من البربر وأسلم جدهم (وسلاس) على يد يزيد بن عامر الليثي، فهو من موالى الليثيين وسمع يحيى بن مالك بن أنس وهو أحد رواة الموطأ، وسمع من الليث بن سعد وغيره، وتفقه بأصحاب مالك كابن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم العتكي، وانتهت إليه الرئاسة في الأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك، لمكانته من السلطان. قال ابن حزم: مذهبنا انتشر في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولى إلا أصحابه، والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان، مقبول القول في القضاة، وكان لا يولى قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه- والناس سراع إلى الدنيا- فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به (1). حتى قيل: إنه لم يعط أحد من أهل الأندلس- منذ دخلها الإسلام- ما أعطى

ص: 537

يحيى من الحظوة و عظيم القدر و جلاله الذكر. و قالوا: إنه كان مجاب الدعوة و قبره يستسقى به بقرطبة (1)

### ابن الماجشون:

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون مولى بنى تيم المتوفى سنة 212 هـ، كان أبوه قرينا لمالك، و هو الذى قيل إنه كتب موطأ قبل مالك، و دارت الفتوى على عبد الملك فى زمانه، تفقه بأبيه و بمالك، قال يحيى بن أكثم: عبد الملك بحر لا تكدره الدلاء! و أثنى عليه ابن حبيب كثيرا، و هو من أهل مذهبه، و تفقه به خلق كثير: كأحمد بن المعدل و ابن حبيب و سحنون، و كان مولعا بسماع الغناء. هؤلاء هم عظماء أصحاب مالك و ناشرو مذهبه. و نسبتهم إليه نسبة المعلم من المتعلم. و له تلامذة آخرون ليس لهم مزيد أثر فى نشر مذهبه. و قد ذكر السيوطى عنهم عددا كثيرا نسبتهم إليه بالأخذ و الرواية فقط.

### كتب المذهب المالكى:

#### إشارة

للفقه المالكى طريقان: أحدهما- كتابه الموطأ الذى رواه عنه الكثيرون ممن تلقوا عنه إلا أن فى رواياتهم اختلافا من زيادة و نقص، و أشهر رواة الموطأ يحيى بن يحيى الليثى، و هى المطبوعة بمصر، و هناك موطأ يرويه محمد بن الحسن، و هو مطبوع ببلاد الهند (2) و قد روى الموطأ بروايات مختلفة عددا بعضها ثلاثين (3). و ثانيهما- تلاميذه، فقد كانوا هم المصدر الثانى لفقهاء، و كانوا يدونون ما يفتى به فى المسائل. قال القاضى عياض فى المدارك: كان مالك إذا تكلم بمسألة كتبها أصحابه. و أشهر كتب المذهب أربعة: المدونة، و الواضحة، و العتيبية، و الموازية.

#### المدونة:

فالمدونة: هى أصح الكتب المعتمدة فى المذهب، و أصل هذه المدونة هى الأسدية التى دونها أسد بن الفرات بالتلقى عن ابن القاسم، و ذلك أن ابن الفرات

ص: 538

1-1 (1) نفع الطيب ج 6 ص 23. [1]

2-2 (2) تاريخ التشريع الإسلامى ص 305.

3-3 (3) الزرقانى ج 1 ص 7.

رحل إلى مالك و تلقى عليه، ثم رحل إلى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، و أخذ عنه كتبه و تعلم فقه العراقيين و لما عاد إلى مصر، كان مالك قد مات، فأراد أن يجمع بين الفقه المالكي و الفقه الحنفي، فأتى بالمسائل إلى أصحاب مالك الذين لازموه، فالتجأ أولاً إلى ابن وهب و قال له: هذه كتب أبي حنيفة، و سأله أن يجيب فيها على مذهب مالك، فتورع ابن وهب و أبي، فالتجأ إلى ابن القاسم، فأجابه إلى ما طلب، فأجابه فيما حفظ عن مالك بقول مالك، و فيما شك من حفظه قال: أخال، و أحسب، و أظن. و منها ما كان يقول فيه بالقياس على رأى له في مثله، فكان يقول: سمعته يقول في مسألة كذا كذا، و مسألتك مثله، و منه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك. و جمع تلك الأجوبة و سماها الأسدية. و الأسدية هذه هي الأصل لمدونة سحنون، لأنه تلقاها عن أسد بن الفرات. و قد تكلم بعض الناس فيها، لاشتغالها على إخال، و أظن، و أحسب. و قالوا له: جئتنا بإخال و أظن و أحسب، و تركت الآثار و ما عليه السلف. و لما تلقى سحنون الأسدية، ارتحل على ابن القاسم و عرضها عليه. و أسقط ما كان ظنياً، فأقبل الناس على كتب سحنون، و هجروا كتب أسد بن الفرات، و نظر سحنون بعد ذلك في كتبه بعد أن استوثق برواية ما هو رواية منها، و ما هو رأى مخرج على أصل مالك، و رتبها و زاد عليها خلاف كبار أصحاب مالك له، و ذيل أبوابها بالحديث و الآثار، فأصبحت المدونة هي الأصل الثاني للفقه المالكي (1). و أنت ترى أن الفقه المالكي تأثر بالفقه الحنفي، و دخله الرأى من أصحاب أبي حنيفة، كما أن مالك نفسه كان يلجأ إلى الرأى، و يعمل بالقياس، كما يأتى بيانه. ثم جاء علماء المالكية، فشرحوا المدونة و وسعوها بما علقوا عليها. فالمدونة هي مجموعة لمسائل عن مالك، و اجتهاد من تلاميذه و تلاميذ تلاميذه في وضع أحكام المسائل على قواعد مالك و مبادئه، و قد احتج سحنون لبعض مسائلها بالآثار، من روايته من موطأ ابن وهب و غيره، و بقيت منها بقية لم يتم سحنون فيها هذا العمل (2) و اتبع الناس مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت

ص: 539

1-1) مالك لمحمد أبو زهرة.

2-2) التشريع الإسلامى ص 306.

تسمى المدونة والمختلطة، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة، وأهل الأندلس على الواضحة والعتيية، وكذلك اعتمد أهل الأندلس على العتيية، وهجروا الواضحة وما سواها (1). والواضحة: ألفها عبد الملك بن حبيب (2) وقد أخذ عن ابن القاسم وطبقته، و بث مذهب مالك في الأندلس. والعتيية: ألفها محمد بن أحمد العتي القرطبي المتوفى سنة 255 هـ، وقد أكثر فيها من الروايات المطروحة، والمسائل الشاذة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة، فإذا أعجبه قال: أدخلوها في المستخرجة. قال ابن وضاح: في المستخرجة خطأ كثير. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت جلها كذبا ومسائل لا أصل لها. ولكنها مع هذا الطعن وما فيها من الكذب والخطأ، فإن لها عند أهل العلم بافريقية القدر العالى والطيران الحثيث، قاله ابن حزم. والموازية: هي لمحمد بن إبراهيم بن زياد الاسكندري المعروف بالمواز المتوفى سنة 269 هـ. قال القاضي عياض عن كتاب الموازية: هو أجل كتاب ألفه المالكيون، وأصحها مسائل، وأسطه كلاما، وأوعبه، وذكره أبو الحسن القابسي، ورجحه على سائر الأمهات. هذه هي أمهات كتب المذهب المالكي، والمعول عليها في العمل. وقد خالف أصحاب مالك في أكثر المسائل ما ذهب إليه مالك، كما خالف أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني أبا حنيفة، وكما خالف المزني والبويطي الشافعي. فأنت ترى أن مجموع ما عليه العمل في المذهب لم يكن من قول صاحب المذهب وحده، وإنما هو مجموع آراء. وقد كانوا مستقلين في تفكيرهم ويوضح لنا ابن خلدون حالة هذه الكتب واستعمالها بقوله:

ص:540

1-1) ابن خلدون ص 245. [1]

2-2) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمى أبو مروان المتوفى سنة 239 هـ- له تأليف كثيرة غير الواضحة: منها غريب الحديث، وتفسير الموطأ، وطبقات الفقهاء، وغيرها. قال ابن لبابة: لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من سقيم، ويفرق مستقيميه من مختلفه، وكان غرضه الإجازة. وكان يعرف بعالم الأندلس. ترجمته في نفح الطيب ج 6 ص 15 و [2]الديباج المذهب ص 154.

رحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، و بث مذهب مالك في الأندلس، و دون فيه كتاب الواضحة، ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتيبية. و رحل من افريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولا، ثم انتقل إلى مذهب مالك، و كتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه، و جاء إلى القيروان بكتابه و سماه الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأها سحنون على أسد، ثم ارتحل إلى المشرق، و لقي ابن القاسم و أخذ عنه، و عارضه بمسائل الأسدية، فرجع عن كثير منها، و كتب سحنون مسائلها. و دونها و أثبت ما رجع عنه، و كتب لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه و اتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تسمى المدونة و المختلطة و عكف أهل القيروان على هذه المدونة، و أهل الأندلس على الواضحة و العتيبية، ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة و المختلفة في كتابه المسمى بالمختصر و لخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب، و اعتمده المشيخة من أهل افريقية، و أخذوا به و تركوا ما سواه. و كذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتيبية، و هجروا الواضحة و ما سواها. و لم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح، و الإيضاح و الجمع، فكتب أهل افريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس، و اللخمي، و ابن محرز التونسي و ابن بشير و أمثالهم. و كتب أهل الأندلس على العتيبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد و أمثاله. و جمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل و الخلاف و الأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب و فروع الأمهات كلها في هذا الكتاب، و نقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة، و زخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة و القيروان، ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب، و تعديد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب (1).

ص: 541

ولقد كان أهل الأندلس يغالون في مالک و فقهه: قال البيهقي: إن الشافعي إنما وضع الكتب على مالک: أنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالک يستسقى بها، و كان يقال لهم: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولون: قال مالک، فقال الشافعي: إن مالكا بشر يخطئ، فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه (1). و على الجملة فإن انتشار مذهب مالک في الأندلس يعود أمره إلى قوة السلطان، فإنه قد حمل أهل مملكته عليه (2) وقد كانوا يعملون بمذهب الأوزاعي. و كان يحيى بن يحيى الليثي مقدا ما مكينا عند السلطان فنشر المذهب هناك، إذ جعل إليه تعيين القضاة، فلم يول إلا من كان على مذهبه، حتى اضطر القضاة الذين كانوا على غير مذهب مالک أن يلتزموا الفتوى به، نظرا لإلزام السلطة. فهذا القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى سنة 355 هـ- كان يتفقه بمذهب الظاهري، و يقضى بمذهب مالک و أصحابه، لأنه ألزم بالعمل به من قبل السلطان (3). و يعود ذلك إلى ثناء مالک على ملك الأندلس عند ما سئل عن سيرة الملك، فذكر له عنها ما أعجبه، فقال مالک: نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم، فلما بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه بالقهر (4). و يقول المقرئ: لما ولى المعز باديس حمل جميع أهل افريقيا و أهل الأندلس على التمسك بمذهب مالک و ترك ما عداه، فرجع أهل افريقيا و أهل الأندلس كلهم إلى مذهبه رغبة فيما عند السلطان و حرصا على طلب الدنيا، إذ كان القضاء و الإفتاء في جميع تلك المدن لمن سمي بمذهب مالک، فاضطرت العامة إلى أحكامهم و فتاواهم ففشى هذا المذهب هناك (5).

ص: 542

1-1 (1) توالى التأسيس للحافظ ابن حجر ص 76.

2-2 (2) نفح الطيب ج 6 ص 45. [1]

3-3 (3) نفح الطيب ج 6 ص 45. [2]

4-4 (4) ميدان الاجتهاد.

5-5 (5) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [3]



فالمذهب المالكي محفوف بعناية السلطة وعوامل السياسة من جميع جوانبه. وقد قام القضاة بنشره و لما حمل ذكر مذهب مالك في المدينة المنورة وعين إبراهيم بن علي اليعمرى قاضيا على المدينة قام بنشر مذهب مالك بقوة سلطانه و سطوته و ذلك في القرن السابع. و لا بد أن نلاحظ الشبه بين المذهب المالكي و المذهب الحنفي. 1- إن كلا منهما انتشر بالقوة و القهر من قبل السلطان على أيدي القضاة. 2- و إن كلا من رئيسي المذهب قد أسعده الحظ بالقبول عند سلطان عصره، فكانت له المنزلة الرفيعة و الدرجة العظيمة. فأبو حنيفة انتصر المنصور له و قربه و أدناه لغاية في نفسه، ولكنه فشل في محاولته فأل أمره إلى أن يغضب عليه و يقتله لمؤثرات في نفس أبي حنيفة و أسباب منعته من الاستجابة تماما للسلطان، و بعد، اندفع أصحابه كما يشاؤون. و مالك قد حظى برضا المنصور و المهدي و الهادي و الرشيد، و رفعوا من شأنه في حياته كما مر بيانه. 3- إن كل واحد منهما تأثر بالآخر، فالمذهب الحنفي دخلت فيه آراء مالك و رواياته أدخلها أبو يوسف و محمد بن الحسن و طبقوا آراءهم على الموطأ و استخرجوا لها شواهد من الآثار. و كذلك المذهب المالكي تأثر بالرأي الحنفي، أدخله عليه أسد بن الفرات كما مر ذكرناه. 4- إن أصول المذهبين و مسائلهما هما مجموعة آراء علماء كل من المذهبين التي قام عليها تخريج المسائل، و ينسب ذلك إلى رئيس المذهب، فأصبحت تلك المسائل هي الأسس التي يقوم بها و إن كان فيها خلاف لمن نسب المذهب إليه. فإن لتلاميذ مالك آراء بجوار آرائه و منزلتهم منه كمنزلة المزني من الشافعي و كمنزلة محمد و أبي يوسف من أبي حنيفة. و هنا لا بد لنا من الإشارة إلى بعض أصول فقه المذهب المالكي.

يختلف المذهب المالكي عن بقية المذاهب بكثرة أصول الفقه، فإن الأصول عند الحنفية الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والعرف. والأصول عند الشافعية: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. أما الأصول عند المالكية فأقل عدد أحصوه له تسعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعرف، وإجماع أهل المدينة، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، وقيل أكثر من ذلك. ولقد ذكر القاضي عياض في المدارك الأصول العامة للفقه الإسلامي: وهي القرآن الكريم نصوصه وظواهره ومفهوماته، والسنة متواترها ومشهورها وآحادها، ويؤخذ أيضا بنصوصها ثم ظواهرها ثم مفهوماتها ثم الإجماع ثم القياس. وبعد ذلك ذكر أصول مالك ومقامها من تلك الأصول العامة فقال: وأنت إذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأمة وما أخذهم في الفقه واجتهادهم في الشرع وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه الأصول منهاجها مرتبا لها مراتبها ومدارجها، مقدما كتاب الله على الآثار، ثم مقدا لها على القياس والاعتبار، تاركا منها ما لم يتحملة الثقات العارفون لما تحملوه، أو ما يجهلونه، أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ولا يلتفت إلى من تأول عليه بظنه في هذا الوجه سوء التأويل وقوله ما لا يقوله بل صرح بأنه من الأباطيل. هذا ما ذكره القاضي عياض في أصول مذهب مالك، ذكر الكتاب والسنة، وعمل أهل المدينة والقياس ولم يذكر غيرها، فلم يذكر الإجماع، ولم يذكر القواعد التي امتاز بها مذهب مالك، وهي المصالح المرسلة وسد الذرائع، والعرف، والعادات، وغيرها وأحصيت إلى ستة عشر أصلا. ومهما يكن من شيء فإن مالكا لم يدون أصوله التي بنى عليها مذهبه في منحاه الاجتهاد الذي استخرج فروع مذهبه منها، فهو كأبي حنيفة في ذلك. (و لقد صنع فقهاء المذهب المالكي في فقه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفي، فجاؤوا إلى الفروع وتبعوها واستخرجوا منها ما يصح أن يكون أصولا. قام عليها الاستنباط في ذلك المذهب العظيم، ودونوا تلك الأصول التي استنبطوها على أنها أصول مالك، فيقولون مثلا: مالك يأخذ بمفهوم المخالفة

و بفحوى الخطاب و بظاهر القرآن، و يقول فى العموم كذا، و الحقيقة أن هذه ليست أقوالاً - له مأثورة قد ذكرها و رويت عنه، بل هى مستخرجة من الفروع التى أثرت عنه و أدلتها التفصيلية التى ذكرت بجوارها أو ذكرها الفقهاء من بعده لها و لا يمكن الاستدلال بسواها» (1). فأصبح ذلك المجهود الذى بذله علماء المالكية هو مجموع أصول المذهب المالكي، و فى أكثرها مخالفة لرأى مالك، أو تفردهم بما لم يرد من مالك أثر فيه، فقد ظهرت بعد وفاته آراء لكبار تلاميذه خالفوه فيها، و دونوا تلك المخالفة. و الشواهد كثيرة على مخالفة أصحاب مالك له من بعده، فهذا يحيى الأندلسى يخالفه فى مسألة الشاهد و يمين صاحب الحق، و هذا أشهب تروى مخالفته حتى أن أسد بن الفرات لما أراد أن يدون آراء مالك و لجا إلى أشهب لم يستطع عند التدوين التفرقة بين آراء التلميذ و شيخه مالك فعدل عنه و عاب مسلكه و لجا إلى عبد الرحمن بن القاسم يأخذ منه، فقد جاء فى مقدمات ابن رشد ما نصه: قدم أسد يسأل مالكا رحمه الله فألفاه قد توفى، فأتى أشهب ليسأله، فسمعه يقول: أخطأ مالك فى مسألة كذا، و أخطأ فى مسألة كذا فتنقصه بذلك و عابه و لم يرض قوله، و التجأ إلى ابن القاسم ليأخذ عنه آراء مالك و فقهه فقد كان أيضا يخالف مالكا و قد دون ذلك، فقد جاء فى مدونة سحنون آراء صريحة فى مخالفة مالك. و أهم الأصول التى كان يعتمد عليها مالك فى منحاه الاجتهادى كثيرة منها:

### عمل أهل المدينة:

كان مالك قد أعطى ما جرى عليه العمل فى المدينة أهمية كبرى، و هو يرد الحديث لأنه لم يجر عليه عمل، و يرى أن أهل المدينة أدرى بالسنة و بالناسخ و المنسوخ كما أشار لذلك فى رسالته إلى الليث بن سعد إذا يقول فيها: فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، و بها نزل القرآن و أحل الحلال و حرم الحرام، إذ رسول الله بين أظهرهم، إلى أن يقول: فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولاً به لم أر لأحد خلافه للذى فى أيديهم من

ص: 545

تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة، ولم يكن من ذلك الذي جاز لهم. . . إلى آخر الرسالة. وقد رد عليه الليث برسالة طويلة ناقشه فيها بمناقشة علمية ذكرها ابن القيم الجوزية في أعلام الموقعين بكاملها. وقال في بعض فصولها: وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت و حضرت قولك فيه، وقول ذوى الرأى من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغيره كثير ممن هو أسنّ منه حتى اضطررك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت. وكان من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه فى الشىء الواحد على فضل رأيه و علمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك. . . إلى آخر الرسالة، وقد ناقشه فيها بكثير من المسائل العلمية التى نقض بها قول مالك، وكذلك الشافعى ناقش مالك مناقشة علمية قيمة فى كتاب الأم، لأن مالك لا يفرق فى لزوم اتباع أهل المدينة بين العمل النقلى، والعمل الاجتهادى، لذلك وجهوا إليه تلك المؤاخذات المعقولة. «أما العمل النقلى فلا خلاف فى حجتيه عند مفسرى مذهب مالك كنقل أهل المدينة تعيين محل منبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وتعيينهم مقدار المدد والصاع والأوقية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونقلهم كيفية الأذان والإقامة. أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيه سواء بين مجتهدى الصحابة. والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين، والمصريين (1). وقد رد ابن حزم على هذه القاعدة بقوله: و أما من قال إن الإجماع إجماع أهل المدينة لفضلها، ولأن أهلها شهدوا نزول الوحي فقول خطأ من وجوه. نذكر منها:

ص:546

1- إن الذين شهدوا الوحي، إنما هم الصحابة رضی اللہ عنہم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة، وعن الصحابة أخذ التابعون من أهل كل مصر. 2- إن الخلفاء الذين كانوا لا- يخلو حالهم من أحد وجهين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد بينوا لأهل الأمصار من رعيتهم حكم الدين أو لم يبينوا. فإن كانوا قد بينوا لهم الدين فقد استوى أهل المدينة وغيرهم في ذلك. وإن كانوا لم يبينوا لهم فهذه صفة سوء أعادهم اللہ تعالیٰ منها، فبطل قول هؤلاء بيقين. 3- إنه إنما قال ذلك قوم من المتأخرين ليتوصلوا بذلك إلى تقليد مالك بن أنس دون علماء المدينة جميعا ولا- سبيل لهم إلى مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفون من الصحابة و التابعين خالفهم فيها سائر الأمصار (1).

### المصالح المرسله:

و من أصول مذهب مالك: القول بالمصالح المرسله كما نسب إلى الحنفية القول بالاستحسان، وقد تسمى هذه المصالح بالاستصلاح، و معنى المصالح المرسله المصالح التي لم يشهد لها من الشرع بالبطلان و لا بالاعتبار نص معين، و محل النزاع في العمل بها إذا صادمت دليلا آخر من نص أو قياس. و مثال ذلك الضرب بالتهمة للاستنطاق بالسرقة، فقد قال بجوازه مالك و يخالفه غيره. لأن هذه المصلحة تعارضها أخرى، و هي مصلحة المضروب، لأنه ربما يكون بريئا، و ترك الضرب في مذنب أهون من ضرب بريء، فإن كان فيه فتح باب يعسر معه انتزاع الأموال. ففي الضرب فتح باب إلى تعذيب البريء. و من ذلك المفقود زوجها إذا اندرس خبر موته و حياته و قد انتظرت سنين و تضررت بالعزوبة، و المرأة تباعد حيضها سنين و تعوقت عدتها في النكاح و بقيت ممنوعة منه، أخذ مالك برأى عمر فيهما فقال: تنكح زوجة المفقود بعد أربع سنين من انقطاع الخبر مراعاة لمصلحة الزوجة، و عدم الالتفات إلى مصلحة الغائب، و في المتباعد حيضها تعتد بثلاثة أشهر بعد أن تمر عليها مدة الحمل و هي تسعة أشهر

ص: 547

فالمجموع سنة راعوا مصلحة الزوجة مع المخالفة للنص الصريح، وهو قوله تعالى: **وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** [البقرة:228] وهي لم تصل لسن اليأس حتى تعتد بالأشهر. والخلاصة أن المصلحة المرسله مصلحة ترجع إلى حفظ مقصود شرعى بالكتاب أو السنة أو الإجماع إلا أنها لا يشهد لها أصل معين بالاعتبار، وإنما يعلم كونها مقصودة لا بدليل واحد بل بمجموع أدلة وقرائن أحوال و تفاريق الإمارات. ومن أجل ذلك تسمى مصلحة مرسله، و لا خلاف عندهم فى اتباعها إلا عند ما تعارضها مصلحة أخرى، و عند ذلك يكون الخلاف فى ترجيح أحد المصلحتين (1).

### الاستحسان:

كان مالك بن أنس يأخذ بالاستحسان و روى ابن القاسم عن مالك أنه قال: الاستحسان تسعة أعشار العلم، و فى رواية أخرى عن مالك أنه قال: تسعة أعشار العلم الاستحسان. و كان القرافي يفتى بالاستحسان و يقول فيه: «قال به مالك رحمه الله فى عدة مسائل فى تضمين الصناع المؤثرين فى الأعيان بصنعهم و تضمين الحمالين للطعام و الادم دون غيرهم». و قد عرفه ابن العربى: إن الاستحسان إيثار ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء و الترخيص لمعارضة ما يعارض به فى بعض مقتضياته و أقسامه أربعة: 1- ترك الدليل للعرف. 2- تركه للإجماع. 3- تركه للمصلحة. 4- للتيسير و رفع المشقة و إيثار التوسعة. و يقول ابن الأنبارى: الذى يظهر من مذهب مالك القول بالاستحسان لا على المعنى السابق- أى تعريف ابن العربى له- بل هو استعمال مصلحة جزئية فى مقابل قياس كلى، فهو يقدم الاستدلال المرسل على القياس، و مثاله لو اشترى سلعة بالخيار ثم مات فاختلف ورثته فى الإمضاء و الرد، قال أشهب: القياس الفسخ، و لكننا

ص:548

نستحسن إذا قبل البعض الممضى نصيب الراد إذا امتنع البائع من قبوله أن نمضيه. وعلى أى حال فإن الاستحسان فى الفقه المالكي قد استعمل بكثرة، ونقلوا ذلك من مالك، وقد اختلفوا فى تعريفه وفى بيان المواضع التى يجيز مالك الأخذ به ويعتمد عليه فى بناء الأحكام، وسيأتى بيان ذلك بصورة واسعة عند حديثنا عن أصول الفقه الجعفرى ومقارنته مع غيره. وقد حمل الشافعى على مالك فى مسألة الاستحسان وعقد بابا فى الأم سماه كتاب إبطال الاستحسان. ولقد بنى إبطال الاستحسان: أولا: على أن الشارع ما ترك أمر الإنسان سدى، بل جاء فى الشريعة بما فيه صلاحه ونص على الأحكام الشرعية الواجبة الاتباع وما لم ينص عليه قد أشير إليه وحمل على النصوص بالقياس فلا شىء لم يبينه الشارع، وترك بيانه للاستحسان، وإلا كان ثمة نقص فى البيان. ثانيا: لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا نزلت به حادثة لم يجد بها نصا ولا حملا على نص سكت حتى ينزل وحى بالبيان، كما فعل عند ما جاءه من ينكر نسب ولد جاءت به امرأته فسكت حتى نزلت آية اللعان، لأنه لم يجد نصا، ولا حملا على نص فانتظر، ولو كان الإفتاء بغير النص أو الحمل عليه جائزا من أحد لجاز من النبى صلى الله عليه وآله وسلم. ثالثا: إن الله سبحانه أمر بإطاعته سبحانه وتعالى وإطاعة رسوله، وذلك باتباع ما جاء فى كتاب الله تعالى، ثم ما جاء فى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يكن نص فيهما كان الاتباع بالحمل على النص فى أحدهما والاستحسان ليس واحدا منهما. رابعا: إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد استنكر تصرف من اعتمد على استحسانه من الصحابة لأنه لم يعتمد على نص. خامسا: إن الاستحسان لا ضابط له ولا مقياس يقاس بها الحق من الباطل. فلو جاز لكل مفت أو مجتهد أن يستحسن فيما لا نص فيه لكان الأمر فرطا، ولاختلفت الأحكام فى النازلة الواحدة على حسب استحسان كل مفت، فيقال فى الشىء ضروب من الفتيا والأحكام، وما هكذا تفهم الشرائع ولا تفسر الأحكام الدينية (1).

ص: 549

## القياس:

و هو أصل من أصول الفقه المالكي، وقد أجمع المالكيون أن مالكا كان يقيس بعض المسائل التي تقع على مسائل قد علم فيها أفضية الصحابة كما قاس حال زوجة المفقود إذا حكم بموته فاعتدت عدة الوفاة وتزوجت بغيره ثم ظهر حيا، بحال من طلقها زوجها وأعلمها بالطلاق ثم راجعها ولم تعلم بالرجعة، فتزوجت بعد انتهاء العدة، وذلك لأن عمر أفتى في هذه بأنها لزوجها الثاني دخل أو لم يدخل، لأن الحاليتين متماثلتين، فلا بد أن يكون الحكم متحدا، وكثيرا ما كان يقيس على القضايا، وأكثر قياسه على قضايا عمر لأنه يجعل ذلك نصا في الحكم كما على سائر الأدلة، إذ لم يقتصر قياسهم على الأحكام الثابتة من الكتاب والسنة بل يقيسون على الفروع المستنبطة، و القياس حجة عند المالكية، كما هو حجة عند الحنفية ولكن هناك فرق بين القياسين وإن كان المدرك واحدا إذ لا يختلفان إلا في اتساع الدائرة وضيقها، فأبو حنيفة كان يتسع في استنباطه فيبحث عن أحكام المسائل التي لم تقع، ويتصور وقوعها، فهو يستنبط العلل الباعثة للأحكام، والغايات المناسبة لشرعيتها، ويبني عليها ويجعل العلل مطردة في كل ما تنطبق عليه، وعلى هذا فأخذه بالرأى لا بد وأن يجعل علة في القياس لأن قلة حديثه وسعت دائرة الرأى والقياس عنده كما يأتي بيانه إن شاء الله. وقد كان أبو حنيفة يقدم القياس على خبر الواحد فكذلك كان مالك بن أنس كما في كثير من فتواه التي نقلها أصحابه.

## الرأى:

والشئ الذى يجب الالتفات إليه: ان الذين كتبوا فى تاريخ الفقه الإسلامى قد قسموا الفقه إلى فقه أثر وفقه رأى ويعدون مالكا فقيه أثر وأبا حنيفة فقيه رأى. وقد رأينا ابن قتيبة فى معارفه يعد مالك بن أنس فقيه رأى كما ذكر منهم: ربيعة الرأى أستاذ مالك، والأوزاعى والثورى و ابن أبى ليلى، وزفر، وأبو يوسف، وعد مالكا من جملتهم (1) كما أنه لم يذكره فى أصحاب الحديث إذ عد منهم: شعبة و جرير بن حازم، و حماد بن زيد، و حماد بن سلمة وغيرهم.

ص:550



وزيادة على ذلك ان اشتهار مالك بالرأى كان معروف في عصره، و يعتبرونه فقيه رأى، حتى ليسأل بعضهم من للرأى فى المدينة بعد ربعة و يحيى بن سعيد؟ فيجاب بأن مالكا من بعدهما. يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: و إن مقدار أخذ مالك بالرأى ليبدو جليا فى أمرين. أحدهما فى مقدار المسائل التى اعتمد فيها على الرأى سواء أكان بالقياس، أم بالاستحسان، أم بالمصالح المرسله أم بالاستصحاب، أم بسد الذرائع. . . إلى أن يقول: و إن ذلك لكثير و افتح المدونة تجد الكثرة بينه و واضحة بل ان تعدد طرائق الرأى عنده أكثر من غيره، ليجعل له القدر المعلى فيه، فإن كثرتها تشير إشارة واضحة إلى كثرة اعتماده على الرأى لا إلى قلته. ثانيهما عند تعارض خبر الآحاد مع القياس و هو أحد وجوه الرأى، و هنا نجد أنه يقرر الكثيرون من المالكية انه يقدم القياس، و انهم بالإجماع يذكرون أنه أحيانا قد أخذ بالقياس، و رد خبر الآحاد، و لقد أحصى الشاطبى فى الموافقات طائفة من المسائل أخذ فيها مالك بالقياس أو المصلحة أو القاعدة العامة و ترك خبر الآحاد، لأنه رأى الأصول التى أخذ بها قطعية أو تعود إلى أصل قطعى و الخبر الذى رده ظنى. و من ذلك حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعا إحداهن بالتراب فقد قال فيه مالك: جاء الحديث و لا أدري ما حقيقته و كان يضعفه و يقول: يؤكل صيده فكيف يكره لعابه (1)؟!!

ص: 551

1-1) و من هذا الباب قضية أكل الكلاب، فقد اشتهر عن المالكية جوازه كما يقول المقدسى فى أحسن التقاسيم: إنها تباع فى المغرب جهرا و تطرح فى عرائس مصر و قال ابن حزم فى المحلى بعد ذكر حرمة أكل السباع و منها الكلب: و أنكر المالكيون تحريم أكل السباع، و موهوا بأن قالوا: قد صح عن عائشة أنها سألت عن أكل لحوم السباع؟ فقرأت: قُلْ لا أجد فى ما أُوحىَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا. . . الآية. و قال القرطبى: روى ابن القاسم عن مالك أنها مكروهة، و على هذا القول عول جمهور أصحابه و هو الرأى المنصور عندهم، و قد فرق أصحاب مالك بين كلب الماشية و الزرع فاتفقوا على أن ما لا يجوز اتخاذه لا يجوز بيعه أما من أراده للأكل فاختلّفوا فيه فمن أجاز أكله أجاز بيعه فهو عندهم طاهر العين غير محرم الأكل. انظر بداية المجتهد و المحلى فى باب الأطعمة و كتاب الطهارة و البيوع تجد هناك الأقيسة المعارضة للآثار الصحيحة.

وقد رد خيار المجلس الذي يوجب أن يكون لكلا العاقدين الحق في فسخ الخيار ما دام المجلس لم يتفرق، فقد قال مالك بعد روايته الحديث ليس لهذا عندنا معروف ولا أمر معمول فيه (1). ولم يأخذ بخبر من مات وعليه صيام عنه وليه، ولا بالخبر الذي جاء عن ابن عباس أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أفرأيت لو كان علي أبيك دين فقضيته؟ قالت: نعم، قال: فدين الله أحق أن يقضى، وقد رد مالك ذلك استناداً لقوله تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام:164]. ولم يعتبر للرضاع نصاباً مقررًا عشراً ولا خمسا إطلاقاً للقاعدة المستفادة من الآية الكريمة: وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ [النساء:23] فالرضاع عنده على القليل والكثير فليس له حد أدنى. ورد خبر المصراة وهو ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا تصروا الإبل والغنم ومن ابتاعها بخير النظرين بعد أن يحلبها إن شاء أمسك وإن شاء ردها، وصاعاً من تمر (2). وبهذا يتضح أن مالكا كان يعمل بالرأى والقياس ولم يكن الاختصاص فيه لأبي حنيفة. فالقول بأن مالكا كان متمسكاً بالحديث حتى عرف به غير وجهه. ومن هذا يتضح أن معركة أهل الرأى وأهل الحديث كانت تحوم حول نقطة سياسية لا شرعية وهي معارضة مدرسة أهل البيت التي انهال الناس عليها في عصر الإمام الصادق وقد تمسكت بالحديث ولم تجعل للقياس والرأى دخل في الأحكام الشرعية.

### إنكار الإمام الصادق للقياس:

وكان الإمام الصادق عليه السلام ينكر أشد الإنكار على ذلك كما مر بيانه في أقواله لأبي حنيفة ونهيه له عن القياس والقول بالرأى.

ص:552

1-1 (الموطأ ج 2 ص 94. [1])

2-2 (مالك ص 300-301).

و من أقواله المأثورة: إن أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحق إلا بعدا. وقال فى رده على ابن شبرمة: لو علم ابن شبرمة من أين هلك الناس ما دان بالمقاييس ولا عمل بها. وقال لأبى حنيفة: ويحك إن أول من قاس إبليس لما أمره الله بالسجود لآدم، قال خلقتنى من نار و خلقتة من طين. وقال لأبى حنيفة مرة أخرى: اتق الله و لا تقس، فإننا نقف غدا بين يدى الله فنقول: قال الله و قال رسوله و تقول أنت و أصحابك سمعنا و رأينا (1). و دخل عليه أبان بن تغلب فقال: يا أبا عبد الله رجل قطع اصبع امرأة؟ فقال فيها عشرة من الإبل. فقال أبان: قطع اثنين. قال الصادق: فيهما عشرون من الإبل. قال: قطع ثلاث أصابع. قال الصادق: فيهن ثلاثون من الإبل. قال: قطع أربعاً. قال الصادق: فيهن عشرون. قال أبان: أ يقطع ثلاثا و فيهن ثلاثون من الإبل، و يقطع أربعاً و فيهن عشرون من الإبل؟! قال: نعم إن المرأة إذا بلغت الثلث من دية الرجل سفلت المرأة و ارتفع الرجل، إن السنة لا تقاس، ألا ترى أنها تؤمر بقضاء صومها، و لا تؤمر بقضاء صلاتها، يا أبان أخذتني بالقياس و إن السنة إذا قيست محق الدين. إلى كثير مما ورد عنه عليه السلام فى شدة الإنكار على العمل بالقياس و الأخذ بالرأى، و قد انتشر ذلك فى عصره فوجه إليهم رسالة ينهاهم عن ذلك و بين لهم الأخطاء التى يؤدى إليها العمل بالرأى و القياس، و إليك نص الرسالة:

ص:553

أما بعد فإنه من دعا غيره إلى دينه بالارتياح والمقاييس لم ينصف ولم يصب حظه لأن المدعو إلى ذلك لا يخلو من الارتياح والمقاييس، ومتى ما لم يكن بالداعي قوة في دعائه على المدعو لم يؤمن على الداعي أن يحتاج إلى المدعو بعد قليل، لأننا قد رأينا المتعلم الطالب ربما كان فائقا لمعلم ولو بعد حين! ورأينا المعلم الداعي ربما احتاج في رأيه إلى رأى من يدعو، وفي ذلك تحير الجاهلون وشك المرتابون، وظن الظانون! ولو كان ذلك عند الله جائزا لم يبعث الرسل بما فيه الفصل، ولم ينه عن الهزل، ولم يعب الجهل، ولكن الناس لما سفهوا الحق وغمطوا النعمة، واستغنوا بجهلهم وتدابيرهم عن علم الله، واكتفوا بذلك دون رسله، والقوامين بأمره قالوا: لا شيء إلا ما أدركته عقولنا وعرفته ألبابنا، فولاهم الله ما تولوا، وخذلهم حتى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون. ولو كان الله رضى منهم اجتهادهم وارتياحهم فيما ادعوا من ذلك لم يبعث إليهم فاصلا لما بينهم ولا زاجرا عن وصفهم، وإنما استدللنا أن رضى الله غير ذلك، ببعثه الرسل بالأمور القيمة الصحيحة والتحذير عن الأمور المشككة المفسدة، ثم جعلهم أبوابه وصراطه والأدلاء عليه بأمور محجوبة عن الرأى والقياس. فمن طلب ما عند الله بقياس ورأى لم يزد من الله إلا بعدا، ولم يبعث رسولا قط وإن طال عمره قابلا من الناس خلاف ما جاء به حتى يكون متبوعا مرة، وتابعا أخرى، ولم ير أيضا فيما جاء به استعمل رأيا أو مقياسا حتى يكون واضحا عنده كالوحي من الله، وفي ذلك لكل ذى لب وحجى أن أصحاب الرأى والقياس مخطئون مدحضون. . . الخ الرسالة. والغرض أن مالكا كان يعد من أهل الرأى وقد نهاه أستاذه ابن هرمز عن الأخذ به كما حدث مالك عنه. قال مطرف: سمعت مالكا يقول: قال ابن هرمز: لا تستمسك على شيء مما سمعته من هذا الرأى إنما افتجرتة أنا وربيعة فلا تتمسك. وكما صرح مالك بذلك فى قوله: إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين (1) وكذلك كان تلاميذه وحملته حديثه وناشرى مذهبه يحذرون من الأخذ بأرائهم قال عبيد الله بن يحيى بن يحيى: كنت أتى ابن القاسم فيقول لى: من أين جئت؟ فأقول

ص: 554

من عند وهب فيقول: اتق الله فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العلم. ثم أتى ابن وهب فيقول: من أين؟ فأقول: من عند ابن القاسم. فيقول: اتق الله فإن أكثر هذه المسائل رأى (1). وقال العقبي: دخلت على مالك في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه فرأيت يبيكي فقلت: يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب و مالي لا أبكي و من أحق بالبكاء مني و الله لوددت أني ضربت بكل مسألة سوطا و قد كانت لي السعة فيما سبقت إليه و ليثني لم أفت بالرأى (2). و على كل حال فإن المذهب المالكي توسع في استعمال القياس كالمذهب الحنفي، كما أنه توسع في اعتبار المصلحة و جعلها أصلا قائما بذاته. و كذلك مذهب أحمد بن حنبل كما يأتي بيانه، فقد قرر أن نصوص الشارع لم تأت في أحكامها إلا بما هو المصلحة، و ما كان بالنص عرف به. بل لقد زاد بعض الحنابلة و المالكية فخصص النصوص القرآنية و النبوية بالمصالح، إذا كان موضوع هذه النصوص من المعاملات الإنسانية، لا من العبادات. و قال الطوفي (3)- و هو أحد علماء الحنابلة- : إن رعاية المصلحة إذا أدت إلى مخالفة حكم مجمع عليه أو نص من الكتاب و السنة و جب تقديم رعاية المصلحة بطريق التخصيص لهما بطريق البيان (4). و قد رد الإمام كاشف الغطاء-تغمده الله برحمته- على ذلك بمقال قيم ذكر فيه: أن تقديم المصلحة على إطلاقها ففيها توسع غريب أدهى من توسع بعضهم في القول بالمصالح المرسلة، و ربما جر ذلك إلى الهرج و المرج و الفوضى في أحكام الشريعة الإسلامية، و التلاعب حسب الأهواء فيتسنى للفقهاء على هذا أن يحكم بحلية الربا مثلا، لأن فيه مصلحة، و الفائدة و المصلحة تعارض النص و تقدم عليه في

ص: 555

- 
- 1-1 (1) نفس المصدر ص 159. [1]
- 2-2 (2) ابن خلكان ج 3 ص 246. [2]
- 3-3 (3) هو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الحنبلي البغدادي المتوفى سنة 716 هـ. و قد اتهم في التشيع لتأليفه كتاب العذاب الواصب على أرواح النواصب و لقوله الشعر في مدح علي، فعذب لذلك و عزز و طرد من وظيفة التدريس-شذرات الذهب ج 2 ص 39.
- 4-4 (4) رسالة الإسلام السنة الثانية العدد الأول ص 94 تحت عنوان من ذخائر الفكر الإسلامي.

المعاملات، و هل ذلك إلا الفوضى و التلاعب بأحكام الشريعة؟ (1) إلى آخر مقاله القيم الذى اقتصرنا منه على هذه الجملة. هذا ما يتعلق ببيان بعض أصول الفقه المالكي و سياأتى الكلام على ذكر بعض المسائل الفقهية عند حديثنا عن فقه المذاهب. و لا بد لنا من الإشارة لعصر مالک و ما فيه من التطور الذى نستطيع أن نعرف موقفه عند تلك الحوادث فقد كان سابقا من المنكرين على العباسيين اختصاصهم بالأمر دون بنى على و هو كغيره من المفكرين الذين أنكروا ذلك و نالوا جزاءهم.

### عصر مالک و حوادثه:

كانت ولادة مالک فى عهد الوليد بن عبد الملك فى سنة 93-99 هـ و وفاته فى عهد الرشيد هرون سنة 179 هـ فهو قد أدرك شطرا من العهد الأموى و مثله فى العهد العباسى، و قد شاهد الكثير من حوادث العصر الأموى مما لا حاجة إلى بيانه فقد مرت الإشارة إليه. و لا بد أن نشير هنا إلى العهد العباسى إشارة موجزة لحوادث عصره فإنه قد عاصر منهم: السفاح، و المنصور، و المهدي، و الهادى و طرفا من عصر الرشيد، فهذا هو أهم عهد فى العصر العباسى الأول، ففيه تم انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين بعد اضطراب و حروب طاحنة ذهبت بكثير من النفوس و الأرواح، و قد شاهد مالک أهم حوادث ذلك العهد، و عرف نصيب المدينة المنورة من تلك الثورة الماحقة، و ذلك الانقلاب الهائل، كما أنه طمع كما طمع كثير من الناس أن ينال المجتمع سعادة تحت ظل دولة جاءت ساخطة على ظلم الأمويين، و سوء سيرتهم و جور عمالهم، و انتهاكهم لحرمت الإسلام، و اعتدائهم على مقدسات الدين، و معاملتهم السيئة لأهل بيت الرسول و شاهد كما شاهد كثير من الناس اتحاد العباسيين و العلويين و اتفاقهم على محاربة عدو مشترك، ليعالجوا الوضع الذى عظم على المسلمين تحمله. و كان العباسيون ينظمون لجانب أهل البيت، و ينظمون حزبهم وسط ذلك

ص: 556

الجو، و هم أشد الناس انتقادا لوضع الدولة الجائر، و يتألمون لما نال المسلمين بصورة عامة و لأبناء عمهم بصورة خاصة و هم موتورون من الأمويين و ناهيك بما فى قلب الموتور من و اتره، و كانت الهتافات باسم الرضا من آل محمد و قد اتجهت الأنظار لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و حامت عليهم الآمال، و اتسع نطاق الثورة باسمهم و تمت بيعة محمد بن عبد الله بن الحسن، و قد بايعه السفاح و المنصور و بقية العباسيين، و كثير من العلويين، و كان مالك ممن يرى لزوم تلك البيعة و صحتها. و على أى حال فقد استقر حكم بنى العباس بعد ذلك الاضطراب و قامت دولتهم على أساس الانتماء لأهل البيت و الانتقام من أمية الظالمة. و بطبيعة الحال أن يكون ذلك العصر مقرونا بتطورات و حوادث هامة، و قد شاهد مالك أكثرها، و لعلنا نستطيع أن نستكشف رأيه و موقفه عند ما ننظر إلى مظاهر الدولة الجديدة التى كانت تنتقد أعمال الأمويين و إقامة عرشها على اطلال دولتهم. فهل تبدل ذلك الوضع الذى بعث الاستياء فى نفوس العباسيين من الأمويين فى معاملتهم القاسية مع أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم؟ و هل وجدوا فى ظل دولة أبناء عمهم راحة بعد ذلك العناء الذى شاهده فى عهد الأمويين؟ و هل ظفر الناس ببيعتهم فى إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله و سنة نبيه حتى يصبح مالك بن أنس من مؤازرى الدولة و أعوانها؟ و يسعد برضاها لأنها دولة عادلة تسير على كتاب الله و سنة رسوله، كل ذلك لم يكن بل كان الأمر معكوسا. و قد تضاعف الجور و ازداد العنف. كان عهد السفاح عهد حروب و مذابح، و لكنه يعد فى الواقع أحسن العهود، و عصره خير عصر على أهل البيت و أنصارهم، و ذلك واضح بيانه، لأن الدولة فى عهدها الجديد لا يمكنها ارتكاب ما يكدر الصنف و يغير الوضع و تكشف عن وجهها فيحدث من ذلك خطر لا يمكن تلافيه، و مع هذا فقد أعطانا أبو مسلم صورة عن سياسة السفاح بكتابه للمنصور: أما بعد فقد كنت اتخذت أخاك-يعنى السفاح-إماما و جعلته على الدين دليلا لقرابته، و الوصية التى زعم أنها صارت إليه، فأوطأ بى عشوة الضلالة، و أرهقنى فى ربة الفتنة، و أمرنى أن آخذ بالظنة، و أقتل على التهمة، و لا أقبل المعذرة، فهتكت

بأمره حرمت حتم الله صونها، وسفكت دماء فرض الله حقنها وزويت الأمر عن أهلها، ووضعت في غير محله (1). ويقول في كتاب آخر للمنصور أيضا: أما بعد فإني اتخذت رجلا إماما ودليلا على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلا، وفي قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريبا، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعا في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دلى بغرور، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقبل العثرة، ففعلت توطيدا لسلطانكم، حتى عرفكم من كان يجهلكم، وأطاعكم من كان عدوكم، وأظهركم الله بي بعد الإخفاء والحقارة والذل، ثم استنقذني بالتوبة. . . (2). والشئ الذي يلفت النظر في هذه المراسلة هو اعتراف أبي مسلم بخطئه في تأويل الآيات التي حاول العباسيون انطباقها عليهم تمويها على الناس، كآية التطهير التي نزلت في آل محمد دون غيرهم، وادعى العباسيون أنهم أهل البيت الذين تنطبق عليهم هذه الآية، وغيرها كآية المودة، لذلك تنبه أبو مسلم لهذا الخطأ في التأويل، وحاول أن يتدارك أمره بالتوبة، وإرجاع الأمر لآل علي، فراسل الإمام الصادق- كما ذكره غير واحد- بأن يدعو له، ويرجع الأمر إليه، ولكن الإمام رفض طلبه للأمر التي مر بيانها، فكان ذلك أعظم شئ على المنصور وقامت قيامته حتى استطاع أن يعجل على أبي مسلم قبل اتساع الخرق، وانتشار الأمر. وهذا هو السبب الوحيد في قتله بتلك الصورة كما قتل من قبله أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد لأنه حاول إرجاع الأمر لآل علي فقتله السفاح غيلة. وجاء المنصور من بعده وهو اليقظ الذي أعطته المشاكل درسا، فكان قوى السطوة عظيم البطش، يخشى زوال ملكه، وتتصور أمامه أيام محتته وكده ونكده، يوم كان خائفا متخفيا يسعى في الأرض لإثارة الشعور، وتحريك عواطف الأمة بما نال أهل البيت من الجور الأموي، فسفكوا دماءهم ولم يراعوا بهم حرمة الدين وقرابة النسب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يتوجع لمصائب الأمة ومحنها في عهدهم. فلما نال غرضه وما يقصده من وراء ذلك فكان مثالا للظلم والعدوان، وفتح

ص: 558

[1-1] تاريخ بغداد ج 10 ص 208. [1]

[2-2] البداية والنهاية ج 10 ص 14. [2]



على الأمة أبواب الجور، وأطلق عليهم عقاب الفتنة وخالف بأعماله أقواله حتى انتشر الجور في عهده، وقد أسرف في إراقة الدماء حتى قال له عمه عبد الصمد: لقد لججت في العقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو. فقال المنصور: لأن بنى مروان لم تبل رممهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة فكيف تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو. فهو يحاول تركيز دعائم ملكه بتلك القسوة الهائلة من جهة، وبالتظاهر بالتدين من جهة أخرى، ليدفع عن نفسه خطر المؤاخذات، وقد كثرت عليه لإسرافه في القتل وسوء معاملته لأهل البيت حتى قال أكثر الناس: ما على هذا بايعنا آل محمد أن نسفك الدماء التي حرمها الله. وأنكر جماعة من القواد سياسة المنصور وقسوته فأظهروا الدعوة لآل علي عليه السلام فحاربهم عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي عامل خراسان سنة 140 هـ - فقتلهم وحبس منهم آخرين (1) وعظم الأمر على الأمة وسار العمال في العسف والجور كما كان في العهد الأموي. وقال عمرو بن عبيد للمنصور: «إنه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه. قال المنصور: فما أصنع؟ قد قلت لك: خاتمي بيدك فتعال وأصحابك فاكفني، قال عمرو: ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك، إن يبابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق» (2). وعلى أى حال فإن الإمام مالك قد عاصر من خلفاء العباسيين: السفاح والمنصور، والمهدى، وموسى الهادى، و هرون الرشيد. وقد طلع نجمه في عهد المنصور، وكان ذلك العصر الذى عاش فيه مالك هو من أزهر العصور، ولكن لم يجد الناس فيه ما كانوا يأملونه من الأمن والاستقرار والعدل والمساواة، بل كانت هناك أثرة واستبداد وتحكم فى مقدرات الأمة و كبت للحريات.

### الخراج فى عهد مالك:

أما مسألة الخراج التى عظم أمرها فى العهد الأموي، وانتقد العباسيون سياسة

ص: 559

1-1 (1) ابن كثير ج 10 ص 75. [1]

2-2 (2) عيون الأخبار 2-337. [2]

الأمويين فيها و وعدوا الناس خيرا، و قطعوا على أنفسهم عهدا في تخفيفها، و العمل فيها بما أمر الله و رسوله، فكانت نتيجة الأمر أن يتضاعف البلاء و يكون الحال فيها أعظم مما كان في العهد الأموي، حتى التجأ بعضهم إلى الاحتماء باسم رجال الدولة كالوزير مقابل ذلك مقدار من المال في السنة. يقول الجهشيارى: إن من أهل الخراج من يلجئ أرضه و ضياعه إلى خاصة الملك و بطانته لأحد أمرين: إما للامتناع من جور العمال و ظلم الولاة و إما لدفع ما يلزمهم من الحق و الكسر له. و يعطى الجهشيارى مثلا لذلك بقوله: جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبي أيوب المورياتى و هو وزير المنصور فقال له: إن ضيعتى بالأهواز قد حمل علىّ فيها العمال، فإن رأى الوزير أن يعيرنى اسمه أ جعله عليها، و أحمل له كل سنة مائة ألف درهم. فقال له: «قد وهبت لك اسمى فافعل ما بدا لك». و فى العام التالى أحضر الرجل المال و دخل على أبي أيوب و أعلمه أنه قد انتفع باسمه، و أنه قد حمل المال فسر أبو أيوب كثيرا (1). و كان أبو أيوب عبدا للمنصور اشتراه صبيا قبل الخلافة، و قلده الوزارة فى خلافته، ثم غضب عليه فقتله سنة 153 هـ - و استصفى أمواله، و قلده الوزارة من بعده للربيع بن يونس مولى آل عثمان بن عفان، و لم يزل وزيرا إلى أن مات المنصور (2). و ليس فى وسعنا أن نتوسع فى قضية الخراج و تلاعب الجباة فى ذلك و ما نال أهل الخراج من الشدة و التعذيب، بالسباع و الزنابير و السنانير (3) و ذلك فى عهد المهدي العباسى. و اشتد الأمر كلما امتد الزمن بالدولة العباسية، فقد كان عمال الخراج يستعملون وسائل الشدة و أنواع التعذيب، كما وصفوا بأنهم: عتاة ليس فى قلوبهم رحمة و لا إيمان، شر من الأفاعى يضربون الناس و يحسونهم، و يعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يموت.

ص: 560

1-1 (1) الوزراء و الكتاب ص 83. [1]

2-2 (2) أبو أيوب اسمه سليمان المورياتى من قرية موريات من قرى الأهواز.

3-3 (3) الجهشيارى ص 103. [2]

و من أظرف ما جرى في عهد الوزير ابن الفرات قصة ملخصها: أنه أراد إجراء الحساب مع محمد بن جعفر بن الحجاج سنة 296 هـ-فطلب رجلا لا يؤمن بالله و اليوم الآخر، فانتدب له رجل يكنى بأبي منصور فأحضر ابن الحجاج بين يديه و شتمه أبو منصور و افترى عليه، ثم أمر بتجريده و إيقاع المكروه به. و ابن الحجاج يقول: يكفى الله، ثم أمر أبو منصور بنصب دقل و جعل في رأسه بكرة فيها حبل، و أمر برفع ابن الحجاج إلى أعلى الدقل و هو يستغيث و يقول: يكفى الله، فما زال معلقا و أبو منصور يقول: المال المال. و هو غضبان حتى اختلط من شدة الغضب، و قال لمن يمسك الحبال: أرسلوا ابن الفاعلة و هو يرى أنهم يتوقفون، و هو يحاول بذلك تهديده فأرسلوا ابن الحجاج و كان بديننا فسقط على عنق أبي المنصور، فدقها و خرّ على وجهه و سقط ابن الحجاج مغشيا عليه، فحمل أبو منصور إلى منزله في محمل فمات في الطريق، و رد ابن الحجاج إلى محبسه و قد تخلص من التلف (1). و كان أحد عمالهم يشتد في المطالبة بالأموال، فكان يضع على بطون الناس أطسات الجمر، و منهم من يستعمل الدبابيس يضربون بها رؤوس أهل الخراج، إلى غير ذلك من أعمال القسوة و الشدة مما لم يكن أكثره في العهد الأموي. هذه نظرة موجزة لسياسة العباسيين و سيرتهم التي ساروا فيها بالرعية، و هي امتداد لسيرة الأمويين بل فيها ما هو أشد من ذلك. و الغرض أن الأمة لم تحقق أمانيتها في ظل الدولة العباسية، و قد أنكر الناس سوء المعاملة، و كانت ظلمة السجن قد حجبت شعاع الحرية، و لغة السيف أخرست المتظلم، و قد وقف أهل البيت و أتباعهم موقف الحزم و البطولة، و لم يتنازلوا عن المعارضة و شدة الإنكار، فكانت معاملة بنى العباس لهم و لأنصارهم بقسوة و سياستهم متجردة عن معانى الرحمة، و راقبوهم أشد المراقبة و ضيقوا عليهم سعة الدنيا ليحملوهم على التنازل عن مبادئهم. فكان نصيب بنى العباس و أعوانهم التمتع بمسرات الحياة و لذائذ الدنيا و جمع الأموال و نشر السلطان، و إزهاق النفوس و حصد الرقاب.

ص: 561

وكان نصيب أهل البيت وأنصارهم ألم الحديد، و ثقل القيود، و ظلمة السجون، و التحلى بابراد الشهادة و هى مطرزة بدمائهم الزكية.

## رسالة مالك:

و لا نحتاج إلى أكثر من هذا البيان لذلك العصر و ما فيه من تبدل و تطور. هذا و لم يؤثر عن مالك بن أنس معارضة للوضع، و لا دعوة إلى إصلاحه. نعم هناك رسالة تنسب إلى الإمام مالك تحتوى على جملة من المواعظ و السنن، يقال: أرسلها مالك إلى الرشيد أو إلى يحيى البرمكى، فلما وصلت أمر الرشيد بكتابتها بالذهب (1). و قد ذكرها القاضى عياض فى ضمن ما ذكره من كتب مالك، و أول من حدث عنها بالأندلس ابن حبيب. و ينحصر سند هذه الرسالة بأبى بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس، أنه كتب بهذه الرسالة إلى يحيى البرمكى، و مرة أخرى إلى هرون الرشيد، فالذى عن أبى بكر مختلف فى من وجهت إليه. فمرة إلى خالد و مرة إلى هرون، و قد حاولوا الجمع لذلك بتكرارها و أنها وجهت لكل منهما، و هو أمر غير مستساغ من فحوى الرسالة، و بالإعراض عن مناقشة السند، فقد أراحنا كثير من علماء المالكية عن فحصه و نقاشه منهم: القاضى إسماعيل المالكى، و الأبهرى، و أبو محمد بن أبى زيد، فقد قالوا: إنها لا تصح و أن طريقها إلى مالك ضعيف، و فيها أحاديث لا نعرفها. و قال الأبهرى: فيها أحاديث لو سمع مالك من يحدث بها لأدبه، و أحاديث منكرة تخالف أصوله، و قالوا فيها أشياء أخرى لا تعرف من مذهب مالك، و قد أنكرها أصبغ بن الفرج أيضا، و حلف ما هى من وضع مالك. و الحقيقة أن الرسالة موضوعة، لأنها خالية عما يخص العدل و الالتزام به و ترك الظلم اللذين هما أخص ما يخاطب به الملوك إلا قليلا، بل الرسالة تذكر المستحبات

ص: 562

---

1-1) طبعت هذه الرسالة فى مصر مستقلة فى المطبعة الأميرية سنة 1311 هـ- و طبعت بالمطبعة المحمودية سنة 1343 هـ- و طبعت فى خاتمة كتاب سعد الشموس و هى لا تتجاوز 28 صفحة.

كقوله فى الصفحة الرابعة: وصل من النهار اثنى عشر ركعة وقرأ فيهن ما أحببت إن شئت صلهن جميعا وإن شئت متفرقات، وقوله: وصم ثلاثة أيام من كل شهر، ويتعرض للغسل فى الحمام و سائر المستحبات، وقوله فى الصفحة السابعة: أقلل طلب الحوائج من الناس فإن فى ذلك غضاضة، وبلغنى عن النبى أنه قال لرجل: لا تسأل الناس. و مثل هذا كيف يخاطب به الملوک؟ و يقول: لتكن يدک العليا على كل من خالطت، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: اليد العليا خير من اليد السفلى. ثم يتعرض إلى سنن الأكل و الشرب و استحباب الجلوس فى المسجد، إلى غير ذلك من الأمور التى تدل بكل وضوح على أن الرسالة منتحلة و لا أصل لها، و يقرأها الوعاظ و المرشدون. و مهما يكن من أمر فإن عصر مالک اشتد فيه الوضع المؤلم و الجور على الرعية و لم يرد عن مالک- مع عظمته و نفوذ سلطته- ما يدل على إنكاره لتلك الأوضاع. و كان العباسيون يعتمدون على ما يفتى به مالک، حتى حملوا الناس على الأخذ بأقواله و مناديتهم ينادى: ألا يفتى إلا مالک. و لما قدم إبراهيم بن سعد الزهرى العراق سنة 184 هـ فأكرمه الرشيد و أظهر بره. و قال له الرشيد: من كان من فقهاءكم يكره السماع؟ قال: من ربطه الله. قال: فهل بلغك عن مالک بن أنس فى هذا شىء؟ قال: لا و الله إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مدعاة كانت فى بنى يربوع، و هم يومئذ جلة و مالک أقلهم فى فقهه و قدره، و معهم دفوف و معازف و عيذان يغنون و يلعبون، و مع مالک دف مربع و هو يغنيهم: سليما أجمعت بينا فأين لقاؤها أينا

وقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا

تعالين فقد طاب ل- -نا العيش تعالينا

(1) و كان المنصور يعظمه و يوجه الأنظار إليه، و يعلن بأن مالكا هو أعلم الناس، كما أن مالكا يعلن بأن المنصور أعلم الناس بالكتاب و السنة.

ص: 563

1-1) تاريخ بغداد ج 6 ص 84. [1]

و كذلك المهدي، و الهادي، و الرشيد لحظوه بالعناية و التقدير، فتوجهت إليه أنظار الناس، و ازدحموا على بابه، و انتشرت أقواله في الحجاز و كثر المنتمون لمدرسته، و استماع الموطأ منه، و لهذا اختلفت روايات الموطأ لكثرة روايته. و قد حمل مذهب مالك في الحجاز فأظهره القاضي إبراهيم المعروف بابن فرحون (1). كما أن مذهب مالك دخل الأندلس بواسطة زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 193 هـ- و تولى الأمويون نشره هناك، و تزلف الناس إليهم بقوله و كان قاضي القضاة يحيى بن يحيى لا يولى قاضيا إلا من كان ينتمي للمذهب المالكي كما كان أبو يوسف بالعراق بالنسبة لمذهب أبي حنيفة. و قد أشرنا من قبل لعوامل انتشار المذاهب أن القضاة هم الذين يتولون نصره المذهب و انتشاره. و الخلاصة: أن الإمام مالك بن أنس قد ارتفع شأنه و علت منزلته عند ما اتجهت إليه الدولة بالعناية بعد محنته و تعذيبه و طلبوا وضع كتاب تقررته الدولة و يحملون الناس عليه بالسيف (2) و هو كتاب الموطأ الذي سنتكلم عنه الآن تحت عنوان (تدوين العلم) لنرى هل أن مالكا هو أسبق من دؤن في العلم أم غيره؟ و ما هو نصيب الشيعة في تدوين العلم؟ و ما هو أثرهم في نشاط الحركة العلمية؟ و لا بد لنا قبل الشروع في ذلك من القول: بأننا قد تركنا التعرض لآراء مالك و أقواله، فإن له آراء في السياسة و أقوال في أمور مختلفة لأن ذلك يستدعي الإطالة في القول و التوسع في البحث. و لكننا سنتكلم حول رأيه في التفضيل فإن له رأيا يكاد ينفرد به عن علماء الإسلام، و ذلك أنه يذهب إلى تفضيل أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، و يسكت، و يقول: هنا يتساوى الناس و هذا أمر غريب و سنبحث هذه المسألة قريبا تحت عنوان مشكلة التفضيل. و من الله التوفيق و السداد.

ص: 564

1-1) نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب ص 24.

2-2) الديباج المذهب لابن فرحون ص 25.

أول من دون العلم:

هذا تمهيد لأبحاث تأتي فيما بعد حول علم الحديث و سائر العلوم، فإن لعلم الحديث أهمية كبرى، فهو المدار لتفصيل الأحكام و تبين الحلال من الحرام، و قد اعتنى رجال الأمة في معرفة الأحاديث النبوية، و سنتعرض لبيان أقسامه و صفات رواته بما له تمام الصلة بموضوعنا، و الكلام هنا يقع حول أمرين: 1- في أى عصر ظهر التدوين، هل هو فى الصدر الأول، أم فى العهد الأموى، أم فى العهد العباسى؟ 2- فى تعيين أول من دون فى الإسلام. اختلفت أقوال المؤرخين فى ذلك، فمن قائل: إن التدوين ظهر فى عهد الصحابة، و منهم من يقول: إنه فى آخر العهد الأموى و أن عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة 101 هـ-أمر بجمع السنن فكتب دفاتر فبعث بها إلى كل بلد، أو أنه أمر ابن شهاب الزهري بالتدوين، إلى غير ذلك من الاختلاف فى الأقوال. و ها نحن ذا ندرس الموضوع لنقف على حقيقة الأمر و الواقع، و لا مشاحة فإن حركة التأليف كانت فى العصر العباسى قوية و النزعة إلى ذلك شديدة، لتشجيعهم الحركة العلمية، و انتعاش العلوم فى ظل سلطانهم، لأنهم يحاولون أن يصبغوا الدولة صبغة دينية و جعل أمورها على منهاج شرعى كما اقتضت سياستهم لذلك، و قد مر بيانه. و هنا لا بد لنا أن نتعرض للأقوال فى تدوين العلم لاستكشاف الحقائق و معرفة السابق إلى التدوين فى الإسلام. قال السيوطى فى شرح الموطأ: أخرج الهروى فى ذم الكلام من طريق

الزهرى: أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن و استشار فيه أصحاب رسول الله. فأشار عليه عامتهم في ذلك، فلبث شهرا يستخير الله في ذلك شاكا فيه، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال: إني ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم كتبوا مع كتاب الله كتبا، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء. فترك كتابة السنن (1). و كان كثير من الصحابة و التابعين يكره كتابة العلم و تخليده في الصحف كعمر، و ابن عباس، و الشعبي، و قتادة و من ذهب مذهبهم. قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم: «من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين: أحدهما أن يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به، و لئلا يتكل الكاتب على ما يكتب، فلا يحفظ فيقل الحفظ». و هذا هو رأى عمر و ما أدى إليه اجتهاده في ذلك. و قال ابن عبد البر أيضا: كان اعتماد الصحابة أولا على الحفظ و الضبط في القلوب غير ملتفتين إلى التدوين، فلما انتشر الإسلام و تفرقت الصحابة و مات معظمهم مست الحاجة إلى تدوين الحديث و تقييده بالكتابة (2). و بهذا يظهر أن التدوين عندهم متأخر عن الصدر الأول، كما مر من رأى عمر في ذلك، و يذهب الغزالي إلى أن حدوث التدوين كان في سنة 120 هـ- و بعضهم يرى أنه قبل ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز. جاء في الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم و ذهاب العلماء، و أوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية و القاسم بن محمد بن أبي بكر. و أخرج أبو نعيم في تاريخ أصفهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الآفاق: «انظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه». و أبو بكر بن محمد بن عمر هذا كان أنصاريا مدينا، و لى القضاء على المدينة لسليمان بن عبد الملك و لعمر بن عبد العزيز، و توفي سنة 120 هـ، و كانت ولاية

ص:566

1-1) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص 35.

2-2) جامع بيان العلم ج 2 ص 34.



عمر بن عبد العزيز سنة 99 هـ- إلى سنة 101 هـ، فعلى هذه الرواية قد يكون أمر أبو بكر بالجمع حوالى سنة 100 هـ. يقول الدكتور أحمد أمين: ولكن هل نفذ هذا الأمر؟ كل ما نعلمه أنه لم تصل إلينا هذه المجموعة ولم يشر إليها-فيما نعلم-جامعو الحديث بعد. ومن أجل هذا شك بعض الباحثين من المستشرقين في هذا الخبر، إذ لو جمع شيء من هذا القبيل لكان من أهم المراجع لجامعى الحديث، ولكن لا داعى إلى هذا الشك فالخبر يروى لنا أن عمر أمر. ولم يرو لنا أن الجمع تم. فلعلّ موت عمر سريعاً عدل بأبى بكر عن أن ينفذ ما أمر به (1) فلما جاء العصر العباسى و انتصف القرن الثانى بدأ التأليف فى الحديث، كما بدأ فى العلوم الأخرى، و وجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث فى أمصار مختلفة وفى عصور متقاربة، ففى مكة جمع الحديث ابن جريح المتوفى سنة 150 هـ-(الرومى الأصل) ولم يوثقه البخارى، وقال: «إنه لا يتابع فى حديثه» وفى المدينة محمد بن إسحاق المتوفى سنة 151 هـ-و مالك بن أنس المتوفى سنة 179 هـ، و بالبصرة الربيع بن صبيح المتوفى سنة 160 هـ، و سعيد بن أبى عروبة المتوفى سنة 156 هـ، و حماد بن سلمة المتوفى سنة 176 هـ، و بالكوفة سفيان الثورى المتوفى 161 هـ، و بالشام الأوزاعى المتوفى سنة 156 هـ، و باليمن معمر المتوفى سنة 153 هـ، و بخراسان ابن المبارك المتوفى سنة 181 هـ، و بمصر الليث بن سعد المتوفى سنة 175 هـ. قال فى كشف الظنون: و اعلم أنه اختلف فى أول من صنف فى الإسلام فقيل للإمام عبد العزيز بن جريح البصرى المتوفى سنة 155 هـ، و قيل أبو النصر سعيد بن عروبة المتوفى سنة 156 هـ، ذكرهما الخطيب البغدادى. و قيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة 160 هـ-ثم صنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 هـ-و مالك بن أنس بالمدينة، و عبد الله بن وهب المتوفى سنة 198 هـ-بمصر، و عبد الرزاق باليمن، و محمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة، و حماد بن سلمة و روح بن عباد بالبصرة، و هيثم المتوفى سنة 183 هـ-بواسط، و عبد الله بن المبارك المتوفى سنة 182 هـ- بخراسان. قال الغزالي فى الاحياء: بل الكتب و التصانيف محدثة لم يكن شيء منها فى

ص:567

زمن الصحابة و صدر التابعين، و إنما حدثت بعد سنة 120 هـ-من الهجرة و بعد وفاة جميع الصحابة و جل التابعين، و بعد وفاة سعيد بن المسيب و الحسن و خيار التابعين، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث و تصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ و عن القرآن و عن التدبر و التذكر و قالوا: احفظوا كما كنا نحفظ. . . و كان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيف الموطأ، و يقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة، و قيل أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريح في الآثار و حروف التفاسير عن مجاهد و عطاء و أصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني المتوفى سنة 154 هـ-باليمن جمع فيه سننا ماثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك، ثم جامع سفيان الثوري، ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات في الكلام، و كثر الخوض في الجدل، و الخوض في إبطال المقالات (1). و قال ابن عبد البر عن عبد العزيز الداروردي قال: أول من دون العلم و كتبه ابن شهاب. و عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: كنا نكتب الحلال و الحرام. و كان ابن شهاب يكتب كل ما سمع. و قال السيوطي: أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه سليم بن عز: قضى في ميراث و أشهد فيه، و كتب كتابا بالقضاء و أشهد فيه شيوخ الجند، فكان أول القضاة تسجيلا، و كانت ولايته من سنة 40 هـ-إلى موت معاوية، فترى من هذا أن الجمع بدأ في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني-غالبا-و أن الفكرة فشئت في الأمصار المختلفة، و من الصعب تحديد أى مصر كان له سبق، إلا إذا اعتبرنا أن ابن جريح في مكة كان أسبق هؤلاء العلماء موتا، فيكون أسبقهم تأليفا، و ربما قلد في ذلك، و عمت الفكرة في الأمصار من طريق الحج، فالعلماء الذين رحلوا إلى مكة أخذوا فكرة جمع الحديث منها أثناء حجهم، و نشروها في بلادهم، و جمعوا ما في مصرهم من الحديث، كما جمع ابن جريح أحاديث مصره.

### الشيعة و التدوين:

هذا ملخص ما في الباب من الاختلاف و كثرة الأقوال. و من المؤسف له أن

ص:568

أكثرهم أهمل ناحية سبق أهل البيت و أتباعهم إلى التدوين فى جميع العلوم الإسلامية. و لا يستغرب هذا فالظروف قد اقتضت ذلك، نظرا لسياسة الوقت، فعدم تعرضهم لذلك لا لجهة عدم، وإنما هى أمور لا تخفى على المتتبع. و الحق الذى لا غبار عليه: أن أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم هم الحائزون على قصب السبق، و قد وجهوا عنايتهم التامة فى تدوين العلوم، و احتفظ تلامذتهم و المختصون بهم بذلك. فسجلوا ما تلقوا عنهم، و حفظوا ما أخذوه منهم. يقول العلامة مصطفى عبد الرازق عند ذكره لأول من دون الفقه: و على كل حال فإن ذلك لا يخلو من دلالة على أن النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة، لأن اعتقادهم العصمة فى أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حريا أن يسوقهم إلى الحث على تدوين أفضيتهم و فتاواهم (1). و إن أسبق كتاب فى الفقه هو كتاب قضاء الإمام على بن أبى طالب الذى كان عند ابن عباس منه نسخة يعتمد عليها.

### أهل البيت أول من دون العلم:

رأينا كيف اختلفت الأقوال فى تعيين السابق إلى تدوين العلم فى الإسلام و المحاولة التى تقضى بظاهاها صرف الحق فى ذلك عن أهله، كغيرها من المحاولات التى اتخذت ضدهم من قبل المناوئين لهم، و خصومهم الذين كان يزعمهم ذكر آل محمد بخير، لأن ذلك يدخل على خصومهم القلق، و عدم الاستقرار و التمتع فى ملاذ الحياة. و لكن أكثر المسلمين احتفظوا بالولاء لهم رغم كل محاولة. و إن لأهل البيت قدما راسخا فى العلم، و آثارا خالدة فى الإسلام. و فى الواقع أن أول من دون العلم هو سيد الأوصياء و إمام البلغاء على بن أبى طالب عليه السلام، و إن أسبق كتاب فى الفقه هو كتاب الإمام على عليه السلام و أحكامه، فقد كانت عند ابن عباس منه نسخة ينظر فيها لأخذ أهم القضايا فى القضاء عنه و كان عند الإمام الباقر عليه السلام نسخة من كتاب على عليه السلام بخطه يرجع إليه و توارثه أولاده و أحفاده كما أن عندهم صحف بمختلف الفنون و العلوم يتوارثونها عنه واحدا بعد واحد. و دون

ص: 569

تلاميذه في عصره ما سمعوه منه و تلقوه عنه من الأحكام في الدين. كعبد الله بن أبي رافع، و الأصبغ بن نباتة، و غيرهم الذين يأتي ذكرهم.

### عهد الإمام عليّ لمالك الأشتر:

إن أعظم أثر خالد دونه الإمام علي بن أبي طالب هو عهده لمالك الأشتر الذي يحتوى على أهم القواعد و الأصول التي تتعلق بالقضاء و القضاة، و إدارة الحكم في الإسلام، و قرر فيه قواعد مهمة في التضامن الاجتماعي، بل التعاون الإنساني في إقامة العدل، و حسن الإدارة، و السياسة و بيان صلاح الهيئة الاجتماعية، و تنظيم الجيش، و بيان الخراج و أهميته، و كيف يجب أن تكون المعاملة فيه، و النظر في عمارة الأرض و ما يتعلق بذلك من أصول العمران، و ما فيه صلاح البلاد و منابع ثروته، و ما للتجارة و الصناعة من الأثر في حياة الأمة إلى غير ذلك من القواعد الهامة التي تهدف إلى أسمى هدف في العدل الإسلامي، و هو لا يعد في عداد الرسائل أو العهود القصيرة الموجزة، بل هو يعتبر في الواقع كتابا مستقلا له أهميته في التشريع الإسلامي، حتى أصبح موضع العناية من رجال الفكر، و أعطوه كبير العناية بالشرح و الإفاضة و اعتنى به علماء القانون و سياسة الأمم، فهو أثر خالد و مفخرة الإسلام على ممر الدهور، إذا فليس من الصحيح إهماله و جعله جزءا من كتاب، بل هو كتاب برأسه، و قانون للتشريع الإداري بذاته. و لهذا العهد شروح عديدة، منها: 1- شرح العلامة المصلح مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده المتوفى سنة 1323 هـ- الموسوم «مقتبس السياسة» المطبوع سنة 1317 هـ. 2- شرح السيد الماجد البحراني، و سماه «التحفة السليمانية» شرحه في ستين فصلا، طبع في طهران. 3- شرح المولى محمد صالح الروغني القزويني من علماء القرن الحادى عشر. 4- شرح المولى محمد باقر، و قد يظن أنه المجلسي المتوفى سنة 1111 هـ. 5- شرح سلطان محمد المتوفى سنة 1354 هـ- الموسوم أساس السياسة في تأسيس الرئاسة. 6- شرح العلامة الهادى البرجندى المطبوع سنة 1355 هـ.

7- شرح الحسين الهمداني الموسوم «هدية الحسام لهداية الحكام». 8- ترجمة الفاضل محمد جمال الدين لهذا العهد الشريف إلى اللغة التركية منظوما نظما لطيفا. 9- شرح العلامة الشيخ عبد الواحد المظفر، أسماء (السياسة العلوية) مخطوط يقع في ثلاثة أجزاء. 10- وشرحه شراح نهج البلاغة بشروح وافية، كابن أبي الحديد، والشيخ ميثم، وغيرهما من العلماء الأعلام، ويزيد عدد شروح نهج البلاغة على المائة شرح باللغة العربية وغيرها. 11- شرح القانوني الكبير الأستاذ توفيق الفكيكي الموسوم بـ «الراعي والرعية» وهو شرح يمتاز عن غيره بكثير من النواحي، أهمها تطبيقه تلك القواعد على نظم العصر الحاضر من القوانين الحديثة. وقد طبع في النجف سنة 1358 هـ- ويقع في مجلدين. كما أن لهذا العهد شروحا كثيرة لا يمكن الإحاطة بها، ذكرها شيخنا الحجة الشيخ محسن الطهراني في كتابه «الذريعة». فكتاب عهد الإمام علي بن أبي طالب هو المثل الأعلى للحكم في الإسلام لما فيه من أهم القواعد السياسية، والإدارية، والقضائية، والمالية، والنظريات الدستورية، التي تتضمن السعادة لما فيها من نظام عادل. فجدير إذا اعتنى به علماء الأمة، ورجال الحكم، وأرباب السياسة والتشريع والقضاء وأعطوه أهمية كبرى وعناية عظيمة. وسار أولاده وأحفاده في تشجيع حركة التدوين، واحتفظ التاريخ بكثير من تلك الآثار الخالدة.

### رسالة الحقوق للإمام زين العابدين:

ويجب أن لا يغيب عن بالنا ما لرسالة الحقوق التي كتبها الإمام زين العابدين عليه السلام، فهي في الواقع من أعظم الكتب التي دونت في القرن الأول، وهي تحتوي على خمسين فصلا في بيان أهم الحقوق التي يلزم الإنسان القيام بها، لما في

ذلك من صلاح الهيئة الاجتماعية في سياسة الإنسان نفسه، وسيرته مع أبناء جنسه، وما يلزم على الحكام في سيرتهم مع الرعية، وما يجب على الرعية للحكام، وما يجب على العبد من العبودية لله وشكره، والقيام بما يجب عليه إلى غير ذلك من بيان أهم الحقوق والواجبات كحق الصلاة وحق السلطان، وحق الرعية، وحق الرحم، وحق الوالد، وحق الولد، وحق الجليس والصاحب، وحق الخصم، وحق الغريب. . . إلى آخر فصولها القيمة. وهي كبيرة. وقد طبعت في طهران في ضمن كتاب تحف العقول، وشرحها الخطيب السيد حسن القبانجي شرحا وافيا في مجلدين طبعا في النجف الأشرف.

### مسند زيد بن عليّ و مدونته الفقهية:

ولزيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام مسند كبير، جمع فيه الحديث عن آبائه وأخيه الباقر عليهم السلام، وهو لا يزال محل اعتماد المحدثين. ونقلوا عنه في كتب الحديث، ويرمزون له بـ(ز)، وعده في كتاب مفاتيح كنوز السنة من الكتب المعتمدة المنقولة عنها، وكذلك لمحمد بن الحنفية مسند في الحديث، له ذكر مشهور. ولزيد بن علي مدونة فقهية اكتشفت بين المخطوطات القديمة في المكتبة الامبروزية بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية. وهذا المخطوط يعد أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي. وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الإسلامي (1). ولا مشاحة في أن سبق أهل البيت إلى تدوين الفقه وسائر العلوم الإسلامية أمر لا يمكن إنكاره. فقد دونوا العلم وأمروا تلامذتهم في ذلك، فكانوا يأمرونهم بالكتابة فدونوا ما تلقوه منهم في سائر العلوم. وليس من شك أن نزعة التدوين عند الشيعة كانت من عهد الإمام علي عليه السلام. فهذا علي بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان من تلامذة أمير المؤمنين

ص: 572

و خواصه، ذكره النجاشى فى الطبقة الأولى من مصنفى الشيعة، و جمع كتابا فى فنون الفقه، تلقى ذلك عن أمير المؤمنين عليه السّلام و كانوا يعظمون هذا الكتاب. و له كتاب السنن و الأحكام. و أبو سليمان زيد الجهنى الذى شهد حروب الإمام على عليه السّلام و ألف كتاب الخطب فى عصر أمير المؤمنين عليه السّلام. و عبيد الله بن أبى رافع كاتب أمير المؤمنين عليه السّلام له كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السّلام يرويه الشيخ الطوسى، و له كتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين عليه السّلام الجمل و صفين و النهروان، و هو أول مصنف فى الرجال ذكره الشيخ محسن الطهرانى فى مصفى المقال فى علم الرجال. و سليم بن قيس من أصحاب أمير المؤمنين عليه السّلام له كتاب يرويه عنه أبان بن عياش، و سيأتى الحديث حول هذا الكتاب. و غير هؤلاء من أصحاب أمير المؤمنين ممن سبقوا إلى التدوين، و لما نشطت الحركة العلمية فى عهد الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق، كثر تدوين الفقه و الحديث و سائر العلوم عنهم، و اتجه تلامذتهما إلى التأليف، و لا بد من الإشارة إلى ذلك بموجز من البيان.

### عصر الإمام الباقر:

كان لانتعاش العلم فى ذلك العصر أثر فى اتجاه الناس إلى الأخذ عن أهل البيت، و قد مرت الإشارة إلى اتساع مدرسة الإمام الباقر، فكان عليه السّلام قد وّحد جهوده إلى نشر العلم، فاتجهت إليه طلاب الحقيقة، لأنه خير رائد و أعظم مرشد. و هو أول من أسس علم الأصول و فتح بابه و فتق مسائله، و من بعده ولده الإمام الصادق عليه السّلام، و قد أمليا على أصحابهما قواعد و جمعوا من ذلك مسائل دونها المتأخرون حسب ترتيب المصنفين فيه برواية مسندة إليهما من دون دخل لأرائهم فيها، و لا وضع قول إلى جنب قولهما، و تلك الكتب موجودة إلى هذا الوقت. فالإمام الباقر عليه السّلام هو واضع علم الأصول و فاتح بابه. و أول من صنف فيه هو هشام بن الحكم: صنف كتاب الألفاظ و مباحثها، و هو أهم مباحث علم الأصول، ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين صنف كتاب اختلاف

الحديث و مسائله، و هو مبحث تعارض الحديثين و مسائل التعادل و التراجيح، ثم أخذت حركة التأليف فى الأصول من بعدهما بالتوسعة، و اشتهر منهم أئمة أعلام: منهم أبو سهل النوبختى و الحسن بن موسى النوبختى و هما من علماء القرن الثالث، و من بعدهما ابن الجنيد و أبو منصور الصرام، و ابن داود و الشيخ المفيد و السيد المرتضى و غيرهم عدد كثير. فالقول بأن الشافعى هو واضع علم الأصول ظلم للحقيقة و خروج عن حدود الإنصاف، على أن هذا القول لا يؤيده بقية العلماء من سائر المذاهب فلاحنفية أصول و للمالكية أصول. نعم لا ينكر أن الشافعى ألف فى الأصول و وسع دائرة بحثه و يعتبر عندهم أول من صنف فيه، و هو متأخر عن مصنفى الشيعة الذين سبقوا للتصنيف فى علم الأصول، و قد ذكر ابن النديم كتاب مباحث الألفاظ فى تعداد مؤلفات هشام بن الحكم. على أن نجد فى كتاب الفهرست أيضا فى ترجمة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ذكر كتاب له يسمى أصول الفقه. و تدعى الحنفية أيضا أن أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة هو أبو يوسف (1). و الغرض أن دعوى وضع الشافعى لعلم الأصول غير صحيحة، بل يقول الأ-كثر: إنه أول من صنف فى أصول الفقه صنف كتاب الرسالة و كتاب أحكام القرآن كما جاء فى البحر المحيط للزركشى. و يقول ابن خلدون: أول من كتب فى علم الأصول الشافعى أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى الأوامر و النواهى و البيان و النسخ و حكم العلة المنصوصة من القياس. و قال فى كشف الظنون: أول من ألف فيه الشافعى، إذا فالشافعى مؤلف واضح، و نحن لا ننكر ذلك. و لكن هشام بن الحكم كان أسبق من الشافعى لأنه ألف مباحث الألفاظ من الأوامر و النواهى و البيان و النسخ، و غير ذلك الذى تلقى معلوماتها عن أستاذه الإمام الصادق عليه السلام قبل ولادة الشافعى. و كانت وفاة هشام سنة 179 هـ- و وفاة الشافعى سنة 204 هـ- فرسالة هشام بن الحكم- فى علم الأصول التى ذكرها النجاشى و الكشى و ابن النديم- أقدم من رسالة الشافعى أخذها و تأليفها. و قد وصف

ص: 574



الشهرستاني صاحب الملل والنحل هشاما بأنه صاحب غور في الأصول. ورسالة الشافعي نقضها أبو سهل النوبختي من علماء القرن الثالث، وهو من علماء الشيعة. وإن للإمام الباقر عليه السلام كتاب في التفسير يرويه عنه أبو الجارود وقد مرت الإشارة إليه. أما تلامذته الذين ألفوا في عصره فعددهم كثير: منهم- ثابت بن دينار له كتاب يرويه الشيخ الطوسي بطريق واحد، و له كتاب النوادر و كتاب الزهد، رواهما حميد بن زياد عن محمد بن عياش. و أبان بن تغلب و هو من المؤلفين بشتى العلوم، و كان من تلامذة الباقر و الصادق عليه السلام، ذكره ابن النديم. و حجر بن زائدة الحضرمي له كتاب في الحديث يرويه عنه النجاشي بست و سائط. و سلام بن أبي عمرة الخراساني له كتاب رواه عنه عبد الله بن جبلة و النجاشي بإسناده إلى ابن جبلة عنه، و هو من الكتب الموجودة بالبقية بالهيئة الأصلية. و كليب بن معاوية بن جبلة الصيداوي الأسدي له كتاب في الحديث يرويه عنه جماعة: منهم عبد الرحمن بن أبي هاشم، و يرويه النجاشي بخمس و سائط عنه. و غيرهم كثير لا يسع المقام ذكرهم.

### عصر الإمام الصادق:

و هو أزهى العصور في نشاط الحركة العلمية و النزوع إلى التدوين. و الإمام الصادق عليه السلام هو زعيم تلك الحركة و المعلم الأول في ذلك العهد، فقد انتمى لمدرسته عظماء الأمة، و رجال العلم و رؤساء المذاهب. و كان بيته كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث و التفسير و الحكمة و الكلام، فكان يحضر درسه في أغلب الأوقات ألقان، و في بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، و قد ألف تلاميذه من جمع الأحاديث و الدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفرى، و قد بلغ عددها في أيام الإمام الحسن العسكري أربعمئة كتابا.

فهشام بن الحكم، والطاقي، و زرارة، و أبو بصير، و محمد بن مسلم من نوابغ تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام، و هم فى الحقيقة المرجع الأصيلى لفقهاء المذهب الجعفرى أو مذهب الشيعة و حكمته، و كان خلفاء الإمام جعفر الصادق يعدون مورداً فىاضاً للاستفادة المذهبية و العلمية للشيعة (1). و تسابق أعيان تلامذته إلى تدوين الحديث و المسائل الفقهية، فكان مجموع ما أحصى من التأليف فى عصره أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف. و ذكر الشيخ آغا بزرك (2) من مصنفى تلامذة الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث فقط أكثر من مائتى رجل مع تراجمهم عدا المؤلفين من سائر أصحاب الأئمة عليهم السلام و مجموع ما ذكره سبعمائة و تسعة و ثلاثون كتاباً، عدا الكتب التى ذكرها بعنوان الأصول. و قال فى خاتمة البحث: «هذا آخر ما ظفرنا به من فهرس كتب قدماء الأصحاب التى لم تسم إلا باسم الكتاب و عبرنا عنها بكتب الحديث لاشتمالها على أحاديثهم التى يروونها عن الأئمة عليهم السلام قد أودعت تلك الروايات بعين ألفاظها فى المجاميع الأربعة التى ألفها المحمدون الثلاثة القدماء: الكافى، و التهذيب، و الاستبصار و الفقيه، و المحامدة المتأخرة أى: الوافى، و البحار، و الوسائل و مستدركه، و غيرها من المجاميع المخطوطة الموجودة فى خزائن الكتب فى العالم مثل جامع المعارف و الأحكام، و جوامع الكلم، و درر البحار، و الشفاء فى أخبار آل المصطفى، و مستدرک الوافى، و مستدرک البحار، و غير ذلك من الكتب. . .» .

### حركة التدوين عند الشيعة:

و خلاصة القول أن أهل بيت الرسول عليهم السلام هم أسبق الناس إلى التدوين و تشجيع الحركة العلمية، فهم أهل الفضل فى كل علم، حفظوا أحكام الرسول و أخبروا عن أنباء التنزيل. فكانوا معدن العلم، و خزان الوحي، و ورثة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم، و هم عدل القرآن و تراجمته.

ص: 576

1-1) رسالة الإسلام العدد 4 السنة السادسة من مقال للأستاذ السيد صادق نشأت الأستاذ بكلية الآداب بالقاهرة.

2-2) الذريعة ج 6 ص 301-374. [1]

و من الظلم و عدم إنصاف الحق الإعراض عن ذكرهم فى السبق إلى تدوين العلم، و تعليم الأمة، و لو فسح المجال و تخلت السلطة عن التدخل فى شئون العلم لأغراضها لتحررت الأفكار من ذلك الجمود الذى فرضته السلطة و ذكرت الحقيقة التى ترعب الحكام. و مما لا شك فيه أن حركة التدوين عند الشيعة كانت أسبق من غيرهم، و إثبات ذلك لا يستدعى كثير مشقة و مزيد عناء، و لكن الشئ الذى أدى إلى أن يتأخر ذكرهم فى السبق: هو أن فقهم و حديثهم مأخوذ عن أهل البيت الذين أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم باتباعهم، و لا يخفى على المتتبع المنصف معارضة الأمويين و العباسيين لإظهار ذكر آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و نشر مآثرهم، فإنهم يرون إظهار ذلك إضعافا لحكمهم و معارضا لسياستهم، و قد منع الأمويون جميع المحدثين أن يذكروا عليا و أهل بيته بخير و لا يروون حديثهم، فكان العلماء إذا أرادوا أن يحدثوا عن على كنهه بأبى زينب أو أشاروا إليه بإشارة متفق عليها. و لما جاء الدور العباسى و نشطت الحركة العلمية و ظهرت النزعة إلى التدوين و قاموا فى تشجيعها، كانت الشيعة فى طليعة السابقين لذلك، و لكن سياسة الدولة و تطور الزمن أدى إلى أن يصبح المتتبع لآثار آل محمد فى الأحكام- بل المعروف بحبهم- متهما بجرم لا يغفر، حتى امتحن كثير من العلماء. فهذا الإمام الشافعى على ما هو فيه من اتضاح الحالة و النزعة اتهم فى التشيع، و حوسب على ذلك، لأنه كان يظهر حب على و يعتمد على أحكامه فى أحكام البغاة على الإمام. و كذلك الحاكم صاحب المستدرک لأنه كان يطعن على معاوية و روى فى كتابه حديث الموالاة و غيره. و الحافظ الدارقطنى اتهم بالتشيع لأنه كان يحفظ ديوان السيد الحميرى. و الحافظ النسائى عذب بل مات من أثر ذلك لأنه حدث بفضائل على و لم يحدث بفضائل معاوية، إلى عدد كثير من العلماء المعذبين باتهامهم فى التشيع، و ليسوا كذلك. و إنما الشئ الذى أوجب اتهامهم هو: إما رواية مناقب أهل البيت، أو استنباط مسألة من الأحكام من طريقتهم و تلك حقيقة ملموسة، أبرزها التاريخ فى مرآته

بأجلى صورة وأوضح بيان. فلقى أكثر المحدثين محناً. وواجهوا مصاعب. أما الذين أرادوا أن يؤكدوا للسلطة القائمة في زمانهم بأنهم منحرفون عن أهل البيت، فتجنبوا الرواية عنهم، و لم يخرجوا فضائلهم، فكانوا موضع عناية السلطة و محلاً لتقتها التامة. هذا ما أردنا بيانه من حركة التأليف عند الشيعة في الصدر الأول بياجاز، أما نشاط الحركة العلمية فقد بدأ في القرن الثاني، و أشهر الكتب التي ألفت في ذلك: مصنف شعبة بن الحجاج المتوفى سنة 160 هـ، و مصنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 هـ، و مصنف الليث بن سعد المتوفى سنة 175 هـ، و موطأ مالك بن أنس المتوفى سنة 179 هـ، و مسند الشافعي المتوفى سنة 204 هـ، و مختلف الحديث له، و الجامع للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، و مجموعات من عاصرهم من حفاظ الحديث كالأوزاعي و الحميدى.

## موطأ مالك:

لا بد و أن نذكر هنا نبذة يسيرة عن موطأ مالك وفاء بالوعد و إتماما للغرض و قد تقدم أن المنصور لقي مالكا من قبل في موسم الحج، و فاتحه في كثير من المسائل، و اعتذر إليه عما لقي من عامله على المدينة، و أمره أن يدون كتابا يحمل الناس عليه، ليوحد بذلك نظام التشريع و يحمل الناس على الجمود على قول مفت واحد، إلى آخر ما هنالك من أقوال حول تأليف الموطأ، و قد اشترط المنصور عليه أن لا يروى عن علي، فوفى مالك بالشرط، إذ لم يرو عن علي عليه السلام في موطأه (1). و قد نال موطأ مالك شهرة حتى قالوا: إنه لا مثيل له و لا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز و جل (2).

ص:578

1 - 1) إذا أحصينا ما في الموطأ وجدنا ذكر الإمام عليه السلام، و يبدو أن تنفيذ مالك لشرط المنصور- كما هو رأى المالكية- تحاشى الإكثار من فتاوى الإمام عليه السلام أدى إلى ذلك. و لذا فإن رواية مالك عن أستاذه الإمام جعفر الصادق عليه السلام في طريقها يرد اسم الإمام علي فمن السلسلة الذهبية التي هي سند أحاديث أهل البيت كما جاءت في حديث الإمام الصادق [1] الذي ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد و [2] الكليني في الكافي و [3] غيرهما من علمائنا: «حديثي حديث أبي و حديث أبي حديث جدي و حديث جدي حديث الحسين و حديث الحسين حديث الحسن و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين و حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله و حديث رسول الله قول الله». .

2- 2) مقدمة النص لابن عبد البر ص 9. [4]

ووضعوا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منامات في مدحه وأنه قال: ليس بعد كتاب الله عز وجل ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ (1). وقالوا: إن النبي سمي الموطأ بهذا الاسم. إلى غير ذلك. وقد روى عن مالك أنه قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ. وكان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث ثم هذبه ونقحه فلم يبق من ذلك العدد إلا ألف وسبعمائة حديث وقيل خمسمائة (2) وقيل أقل وأكثر لاختلاف النسخ زيادة ونقصا وإسنادا وإرسالا. وختلفوا في منزلة الموطأ من كتب السنة فمنهم من جعله مقدما على الصحيحين كابن العربي، وابن عبد البر والسيوطي. وقال الحافظ ابن حجر: إن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده، على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع (3) وغيرهما. وجملة ما في الموطأ 1720 حديث، المسند منها 600، والمرسل 228، والموقوف 613، ومن قول التابعين 285. وقد وصلت مراسيله من طرق أخرى بواسطة أصحابه. قال ابن حزم: في الموطأ سبعون حديثا قد ترك مالك نفسه العمل بها، وفيه أحاديث ضعيفة قد رواها جمهور العلماء (4). وهكذا نرى العلماء يختلفون في صحة كل ما اشتمل عليه الموطأ، لاختلافهم في قبول المرسل ونحوه، فالمالكية إذ يقبلونه يحكمون بأن كل ما في الموطأ صحيح وغيرهم إذ لا يقبل المرسل إلا بقيود لا يقبلون مراسلاته ولكن بعض المالكية ندب نفسه لوصل ما ليس متصل السند. وعلى كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي ألفت في الحديث لا

ص: 579

- 
- 1-1) كشف المغطى في فضل الموطأ ص 2.
  - 2-2) شرح الزرقاني على الموطأ ج 1 ص 7.
  - 3-3) المرسل من الحديث ما سقط من مسنده الصحابي بأن يرويه التابعي عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مباشرة. والمنقطع ما سقط من أثناء سنده راو أو أكثر مع عدم التوالى فإن كان مع التوالى فذلك المعضل.
  - 4-4) مفتاح السنة للخولى ص 24.

أولها. وقد نشره الآخذون عن مالك في الأمصار: كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان. هذه هي أهم الكتب المدونة في القرن الثاني عند السنة، وأما حركة التدوين عند الشيعة في ذلك القرن، فنشاطها مستمر-كما تقدم-من جميع الوجوه وفي جميع العلوم. وفي القرن الثالث اتجه الناس إلى التدوين بنشاط ملموس، وحركة قوية، واتجه رواة الحديث في جمعه إلى طريقة الأفراد إذ كان قبل ذلك ممزوجا بأقوال الصحابة، وفتاوى التابعين. وأشهر الكتب المؤلفة لأهل السنة هي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وصحيح الترمذي، وسنن ابن ماجه. وهذه هي التي يطلق عليها الصحاح الست، وأقدمها وأهمها صحيح مسلم والبخاري، ويطلق عليهما الصحيحان، وعلى مؤلفيهما الشيخان. وقد وقع الاختلاف في تفضيل أحدهما على الآخر وأيهما أصح وأشد قبولا. ولنلق على كل واحد من أصحاب الصحاح نظرة إجمالية.

### صحيح البخاري:

البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن (بردزبه) ولد سنة 194 هـ- ومات سنة 256 هـ. انحدر من سلالة فارسية تدين بالمجوسية وأول من أسلم من أجداده المغيرة على يد اليمان الجعفي، فهو مولى الجعفيين لذلك يقال للبخاري: الجعفي لأنه مولى لهم. وقد نشأ يتيما في حجر أمه، ورحل إلى البلدان في طلب الحديث. ووضع كتابه وخطا فيه خطوة جديدة في جمع الحديث، إذ لم يقتصر على رواية بلد واحد كغيره من علماء الحديث. والذي يظهر أن تلك الخطوة أخذها عن علي بن المديني، وذلك أن ابن المديني ألف كتاب العلل، وكان ضنينا به، فغاب يوما في بعض ضياعه، فجاء البخاري إلى بعض بني علي بن المديني، وراغبه بالمال على أن يرى الكتاب يوما واحدا، فأعطاه له، فدفعه إلى النساخ فكتبوه وردوه إليه، ولما علم ابن

المديني اغتم لذلك حتى مات بعد يسير، واستغنى البخارى عنه بذلك الكتاب، و خرج إلى خراسان، و وضع كتابه الصحيح (1). و بهذا يتضح أنه سلك طريقة ابن المديني و أخذ كتابه و استغنى فيه، و لا حاجة إلى إطالة القول حول البخارى و صحيحه. فقد أشرنا لذلك فى الجزء الأول، و ذكرنا المؤاخذات من قبل المفكرين عليه كانتقادهم عليه 120 حديثا، و فى الواقع أنها أكثر، و فى تقطيع الأحاديث و غير ذلك، و عدة ما فى البخارى من الأحاديث بالمكرر 7397، سوى المعلقات و المتابعات و الموقوفات (2) و بغير المكرر من المتون الموصولة 2602 و من المتون المعلقة المرفوعة التى لم يصلها فى موضع آخر منه 159. و قد تقدم الكلام حول البخارى فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

### صحيح مسلم:

و هو يعد فى الدرجة كصحيح البخارى. و الناس يختلفون فى تقديم صحيح البخارى أو مسلم. و كان مسلم من تلامذة البخارى و شاركه فى مشايخه. و مسلم هو ابن الحجاج القشيري النيسابورى ولد سنة 204 هـ و توفى سنة 261 هـ، و كان مخلصا للبخارى، و حصل بينهما فتور آخر أيامه، دعاه لأن ينتقد من طريقة البخارى فى مقدمة صحيحه. و قد انتقده الحفاظ بكثرة روايته عن الضعفاء، و قد طعنوا فى مائة و ستين رجلا من رواة مسلم. و مع ذلك فقد فضلوا كتاب مسلم على كتاب البخارى من وجوه: 1- إن مسلما ألف كتابه فى بلده بحضور أصوله فى حياة شيوخه، من أن يتحرز فى الألفاظ، و يتحرى فى السياق. 2- إن مسلما لا يقطع الحديث كما يفعل البخارى، لأنه يروى جزءا من

ص: 581

1-1) تهذيب التهذيب ج 9 ص 54. [1]

2-2) المعلق من الحديث: ما كان فى سنده سقط من أوله. كأن يقول البخارى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم: كذا. و الموقوف: ما انتهى سنده إلى الصحابى فلم يذكر فيه قولاً للنبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لا فعلا، و لا وصفا، و لا تقريرا. و المقطوع: ما انتهى سنده إلى من دون الصحابى كالتابعى، و قد يطلق على المقطوع (موقوف على فلان) أى الذى انتهى إليه السند.

الحديث بسند، وقد يروى جزءاً آخر بسند آخر في مكان آخر، فيصعب على المحدث معرفة الحديث كاملاً بأسانيده المختلفة. 3- إن البخاري قد يقع له الغلط في أهل الشام وذلك أنه أخذ كتبهم، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته. ويذكره في موضع آخر باسمه، ويتوهم أنهما اثنان. أما مسلم فقلما يقع له الغلط (1) وقال الطيبني: كان من شيوخى من يفضل كتاب مسلم على كتاب البخاري (2). وقال أبو على النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث. وعدد أحاديثه 7375 بالمكرر، ومن غير المكرر نحو أربعة آلاف، وقد أجمع الحفاظ على أن البخاري ومسلم لم يستوعبا تخريج الأحاديث الصحاح.

### صحيح الترمذى:

والترمذى هو: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى المتولد سنة 200 هـ- والمتوفى سنة 271 هـ فى أواخر رجب. سمع الحديث من البخاري، وغيره من علماء بخاري، وكان ضريراً وألف الصحيح، وعرضه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، وسلك طريقة فى تأليفه لم يسلكها من قبله، وهو بيانه حول درجة الحديث، وبين الصحيح منه والمعلول، كما ميز المعمول به من المتروك، وساق اختلاف العلماء وكتابه جليل القدر كثير الفائدة قليل التكرار. وقد فضله بعض الحفاظ على صحيح البخاري. والترمذى لم يتجنب الرواية عن النواصب والخوارج، كغيره من أصحاب الصحاح، وقد أحصينا عليه جملة منهم، كما أن فى رجاله كثير من الضعفاء والكذابين منهم: سيف بن عمر البرجمي، ويقال السعدى، ويقال الضبيعى صاحب كتاب الردّة والفتوح، كان يروى الموضوعات عن الإثبات، وأنه يضع الحديث واتهم بالزندقة.

ص: 582

[1-1] تاريخ بغداد ج 13 ص 102. [1]

[2-2] شرح ألفية العراقي ج 1 ص 16.



و الشيء الذي يلفت النظر أن هذا الرجل وهو سيف بن عمر قد اعتمد عليه ابن جرير في تاريخه، فروى عنه بواسطة مكاتبات السرى عن شعيب عنه في الحوادث الواقعة من سنة 11 هـ- إلى سنة 37 هـ. وقد ضبطت تلك الموضوعات والأكاذيب- التي تواتت عليها السنين، ولم تنلها يد التنقيب- شيخنا فقيه التاريخ العلامة الأميني (1). فقد ذكر الطبري في ج 2 من تاريخه في حوادث سنة 67، 11 حديثاً عن سيف بن عمر، وأخرج في ج 4 في حوادث سنة 12، 427 حديثاً عن سيف بن عمر، وأورد في ج 4 في حوادث سنة 23، 207 أحاديث-المجموع 701. وهذه القائمة العظيمة- التي ذكرها الطبري عن هؤلاء المجاهيل والكذابين- لها تمام الأثر الفعال في تمويه الحقيقة، ومخالفة الحق، وإثارة نار البغضاء بين المسلمين. ولو وسع المجال لأعطينا أنموذجاً منها. وقد سار على ذلك المؤرخون من بعد الطبري، كابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون بدون تحقيق، بل تقليداً للطبري. كما أن أسطورة ابن سبأ كانت من اختراع سيف بن عمر، رواها الطبري وأخذها عنه المؤرخون و سنشير لذلك في الجزء السادس إن شاء الله.

### صحيح أبي داود:

أبو داود هو: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي المتولد سنة 202 هـ-و المتوفى سنة 275 هـ- كان من الحفاظ، وعده الشيرازي في الطبقات من تلامذة أحمد وصحيحه المعروف بسنن أبي داود. قال فيه الخطابي: كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين مثله، وقد رزق القبول من كافة الناس، فصار حكماً بين فرق الناس، وعليه معول أهل العراق، وأهل مصر، وبلاد الشام وكثير من أقطار الأرض.

### صحيح النسائي:

النسائي هو: أحمد بن شعيب بن علي أبو عبد الرحمن النسائي المتولد سنة 215 هـ-و المتوفى سنة 303 هـ-، كان من أئمة الحديث، وقد برع في علم الحديث

ص: 583

و تقرد بالمعرفة و علو الإسناد، و كان أحفظ من مسلم بن الحجاج، و سننه أقل السنن ضعفا. قاله: الذهبي. و لما دخل دمشق فسئل عن معاوية و فضائله، فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس، حتى يفضل. و فى رواية: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله بطنك» - و هو دعاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم عليه فصار يأكل و لا يشبع - فما زالوا يدافعونه فى خصيته، و داسوه، ثم حمل إلى مكة فتوفى بها، و هو مدفون بين الصفا و المروة. و قال الحافظ أبو نعيم: لما داسوه بدمشق، مات بسبب ذلك الدوس فهو مقتول (1). و كان قد صنف كتاب الخصائص فى فضل على بن أبى طالب و أهل البيت عليهم السلام، و أكثر روايته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل، و كذلك صنف كتاب مسند الإمام على عليه السلام، و يرمزون له فى التخرىج ب-(عس) و لخصائص على عليه السلام ب-(صلى الله عليه و آله).

### صحيح ابن ماجه:

ابن ماجه هو: محمد بن يزيد بن ماجه أبو عبد الله القزوينى المتولد سنة 209 هـ - و المتوفى سنة 273 هـ - ارتحل إلى العراق، و الكوفة، و مكة و الشام و ألف كتابه فى الحديث، و هو أحد الصحاح الست. و قدموا كتابه على موطأ مالك. هذه هى الصحاح الست التى يخصها أهل السنة بالثقة على اختلاف فى درجاتها فى الصحة. على أن هناك كتب توصف بالصحة، لأن الصحيحين لم يستوعبا جميع الأخبار الصحيحة، فألفت كتب توصف بالصحاح: كصحيح إسحاق بن خزيمة و صحيح أبى حاتم المتوفى سنة 354 هـ، و صحيح أبى عوانة، و غيرها. و قد استدرک الحاكم النيسابورى على الصحيحين أحاديث خرجها على شرطهما (2).

ص: 584

[1-1] الشذرات ج 2 ص 240. [1]

[2-2] اصطلاح الرجاليون على الإشارة لمن خرج له البخارى ب-(خ) و مسلم (م) و الترمذى (ت) و النسائى (س) و أبو داود (د) و ابن ماجه (ق) و لمن خرج حديثه أصحاب الصحاح الست (عليه السلام) و إذا اجتمع الأربعة (ع-) فإذا وجدت العلامة فى أول الترجمة، عرف أنه حديث صاحب الترجمة رواه من أشير إليه.

ذكرنا سبق أهل البيت عليهم السلام إلى تدوين العلم، واهتمام الشيعة في حفظ آثارهم، والانتهاال من عذب غديرهم، إذ وجدوا سنداً قويا ومرعى خصيبا تتصل سلسلة أحاديثهم بصاحب الرسالة، وهى السلسلة المعروفة بالذهبية، أو هى الترياق المعجرب، فكان الإمام الصادق عليه السلام عند ما يحدث بإسناده، يقول: حدثنى أبى محمد الباقر عن أبىه زين العابدين عن أبىه الحسين بن على عن أبىه على بن أبى طالب عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وهناك تتصل هذه السلسلة بالوحي الإلهى، وكذا كل واحد من الأئمة عليهم السلام. وكان الإمام الصادق عليه السلام إذا أرسل حديثه، فهو اتصال بهذه السلسلة، لأنه كان يقول: حديثى حديث أبى، وحديث أبى حديث جدى، وحديث جدى حديث أبىه، وحديث أبىه حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (1). وفى هذا يقول الشاعر: ووال أناسا ذكرهم وحديثهم روى جدنا عن جبرئيل عن البارى

ولكن بمزيد الأسف أن البخارى قد تحرج وتضايق من تخريج حديث الإمام الصادق عليه السلام، وتوسع وتساهل لقبول رواية عمران بن حطان وداود بن الحصين، وأضرابهم من الفسقة الذين عرفوا بالعداء لله ولرسوله وكذلك خرج لرجال دخلوا فى الإسلام لللدس والتضليل، ولم يخرج حديث الإمام الصادق عليه السلام، لأن ظروفه اقتضت ذلك ونزعتة ضربت بسطانها عليه. وقد عظم على خصوم الشيعة اختصاصهم بذلك التراث العظيم. ولم يستطع أحد أن يطعن فى حديث أهل البيت عليهم السلام فالتجئوا إلى الطعن على حملة آثارهم ورواة حديثهم، كما لا ينكر تدخل عملاء السلطة والدخلاء فى الإسلام أن يدخلوا على أهل البيت عليهم السلام مما لم يحدثوا به ويتقولوا عليهم ما لم يقولوه، يقصدون بذلك تنفير الناس واشمئزاز النفوس من تلك الروايات المدسوسة، لذلك كانت الشيعة

ص: 585

---

1-1) الروضة [1] للحافظ أبى على النيسابورى، وروى فى ص 175 عن الإمام الباقر [2] عليه السلام كذلك عند ما سئل عن إرساله الحديث فقال: حديثى حديث أبى. . .

أشد تنقية للرجال و تصحيحا للأحاديث، فألفوا بذلك كتباً، و تشددوا في قبول الرواية، و هذا بحث واسع لا يمكننا أن نخوضه الآن.

## الكتب الأربعة:

### إشارة

و خلاصة القول: أن الشيعة احتفظت بأثار أهل البيت عليهم السلام و سبقت جميع الأمة إلى تدوين علومهم، فكانت حركة التدوين عندهم قوية في جميع العلوم و الفنون. أما ما يختص بالفقه و الحديث، فكانت أصولهم أربعمئة أصل، و هي التي سمعها تلامذة الأئمة منهم، و جمعت هذه الأصول في الكتب الأربعة و هي:

### 1-الكافي:

للشيخ المجدد محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة 329 هـ- و قد ألفه في عشرين سنة، و قد دخل إلى الأقطار الإسلامية في طلب الحديث، و جمع فيه من الأحاديث ستة عشر ألفاً و مائة و تسعين حديثاً، و هو أكثر من مجموع ما في الصحاح الست. و ليس هذا محل التوسع في البحث عن الكافي و مكانته.

### 2-من لا يحضره الفقيه:

للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الشهير بالصدوق المتوفى سنة 381 هـ- بالري، و ورد بغداد سنة 355 هـ- و حدث بها، و كان جليلاً حافظاً للأحاديث بصيراً بالرجال ناقداً للأخبار كثير التأليف، و قد أحصيت مؤلفاته فكانت 300 كتاباً على اختلاف العلوم، و أهمها كتابه الجليل «من لا يحضره الفقيه» الذي هو من أهم كتب الحديث عند الشيعة و عدد أحاديثه 5963 حديثاً.

### 4-3-التهذيب و الاستبصار:

لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي المولود سنة 385 هـ- و المتوفى سنة 460 هـ- في النجف الأشرف. هاجر إلى بغداد سنة 408 هـ- في أيام علم الشيعة و رئيسها محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد فاتصل به و استفاد منه، و لما توفي سنة 413 هـ- اتصل من بعده بعلم الهدى السيد المرتضى المتوفى سنة 436 هـ-، و بعد وفاة السيد استقل الشيخ

بالزعامة، و كانت كمدرسة جامعة تأوى إليها طلاب العلوم، فكان عدد تلامذته ثلاثمائة من الشيعة و كثير من سائر المذاهب، لذلك ترجم له السبكي فى طبقات الشافعية (1) وغيره، لأنه كان يملى على أهل المذاهب و يجيبهم عن مسائلهم لغزارة علمه وسعة اطلاعه، فكان يفيد الأمة بعلومه، و أملى كتابه المعروف بالأمالى على تلامذته، يقع فى مجلدين و كانت له منزلة علمية عظيمة فى بغداد، و قد جعل له خليفة عصره-القائم بأمر الله عبد الله بن القادر-كرسى الكلام و الإفادة، لأنه فاق أقرانه فتعين هو لتلك المنزلة، و لما هبت عواصف الطائفية و اشتد النزاع بين المذاهب و بين السنة و الشيعة بالأخص، و كان الموقف فى الوقت على أشد ما يكون من الخصام، و لم تزل الدولة تنضم لجانب السنة فأحرقت كتب الشيخ بأمر طغربك أول ملوك السلاجقة، قال السبكي: و قد أحرقت كتبه-أى الشيخ الطوسى-عدة نوب بمحضر من الناس. و كذلك أمر السلجوقى بإحراق مكتبة الشيعة فى محلة الكرخ، و كانت تحتوى على أكثر من عشرة آلاف مجلد من أهم الكتب كلها بخطوط الأئمة المعتمدة و أصولهم المحررة كما ذكر ذلك ياقوت الحموى وغيره. و فى سنة 448 هـ-نهبت داره و كبست و أخذت كتبه و الكرسى الذى كان يجلس عليه للكلام فأحرقت (2) و هاجر الشيخ إلى النجف فقصده طلاب العلم، فأصبحت دار هجرة لانتهاج العلم و لم تزل حركتها بنشاط من ذلك العهد تقصدها و فود العالم الإسلامى لأخذ العلم و الانتماء لمعهدهما على ممر الدهور. فالشيخ الطوسى يعد فى الواقع هو واضع الحجر الأساسى لمعهد النجف الأشرف، و قبره فيها قريباً من المرقد المطهر. و له مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين مؤلفاً فى شتى العلوم. و أهمها التهذيب و الاستبصار فى الحديث. و الحديث عن حياة شيخ الطائفة واسع، و ناحية البحث عنها لا يمكننا الإلمام بها فى هذا العرض الموجز.

ص:587

- 
- 1-1) طبقات الشافعية للسبكي ج 3 ص 51 و ترجم له فى الشذرات و فى البداية و النهاية لابن كثير و ابن الجوزى فى المنتظم وغيرهم.  
2-2) المنتظم لابن الجوزى ج 8 ص 173 و 179. [1]

أما التهذيب: فهو أحد الكتب الأربعة و المجاميع القديمة المعول عليها، وقد أنهيت أبوابه إلى 390 بابا و احصيت أحاديثه في 13590، و توجد منه نسخة بخط المؤلف. و أما الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار فهو أحد الكتب الأربعة التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند فقهاء الشيعة، و قد احصيت أحاديثه فكانت 5511 حديثا. و الغرض أن تلك الأصول و الكتب التي ألفت في زمن الأئمة قد جمعت في هذه الكتب الأربعة و في غيرها كالوفاي للمحقق الكاشاني، و البحار للعلامة المجلسي، و الوسائل للمحدث محمد بن الحسن الحر العاملي، و مستدرك الوسائل للشيخ النوري. و على هذا سارت حركة التدوين عند الشيعة باتباع آثار أهل البيت نزولا على حكم الأدلة و البراهين و تعبدا بسنة النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم. و قد احتفظت الشيعة باستقلالها الروحي و لم ترتبط يوما ما بسلطة لتشجيع حركتها العلمية أو تأييد مبادئها، بل كان ولاية الأمر يحاولون اكتساح ما لهذه الطائفة من أثر، و لكن الشيعة وقفوا أمام ذلك السيل الجارف، و استطاعوا تركيز مبادئهم بقواهم الروحية، و نبغ منهم المحدثون و المفسرون و اللغويون و النسابون و الشعراء و الأدباء مما يطول ذكره، و كان لهم الأثر العظيم في جميع فنون الإسلام و علومه، و قد أحصينا من علماء الحديث الذين خرج حديثهم أصحاب الصحاح عددا لا يقل عن مائتين و خمسين رجلا أكثرهم حفاظ حديث و أعلام في الفقه، و قد اعترف الكل لهم بذلك. إذا فالتدوين على ما قررناه لم يكن السبق لأحد سوى أهل البيت و شيعتهم، و ليس لمالك و لا لغيره.

## مسألة التفضيل

### مالك و مسألة التفضيل:

سبقت الإشارة إلى رأى مالك في التفضيل و أنه يذهب إلى مساواة الإمام على عليه السلام لسائر الناس، و أن أفضل الأمة الخلفاء الثلاثة، ثم يقف و يقول: هنا

ص: 588

يتساوى الناس. فهو لا يرى لعلى عليه السلام ميزة عن سائر الصحابة كما يروى عنه، و من الغريب ذلك، فهو يكاد ينفرد بهذا الرأي، ويمتاز عن سائر علماء الأمة بهذه النزعة، كما أنه لم يرو عن على في موطنه. ولم تكن مسألة التفضيل من الأمور الاعتيادية التي يمر عليها المؤرخ أو الكاتب فلا يعطيها مزيدا من البيان، فهي من أعظم المشاكل التي حلت في المجتمع الإسلامي، ولها تمام الأثر في تطور الأوضاع و إثارة نار البغضاء بين المسلمين، لتدخل السياسة فيها، و ما تدخلت السياسة في أمر إلا و جعلته عرضة للاضطراب و التقلب، و لو انفردت القضية عن ذلك لما كان من ورائها ما كان، و لسارت على ضوء العلم و الواقع، و تجردت عن الظنون و الاتهامات و انتهت بالدليل و الإقناع، و لكنها في الواقع كانت بالإرهاب و القهر و العسف، أو الإغراء و الخداع السياسي. و قد حاولنا بقدر الإمكان أن لا نتعرض للأمور التي أثارها أغراض المتعاطشين على السيادة، لتفريق كلمة الأمة، و إيجاد مشاكل يحاولون من وراء إيجادها حل مشاكلهم السياسية، لأنهم يريدون أن يرغبوا الأمة على اتباع آرائهم، و تصديق أقوالهم، و لا يكون هناك رأى إلا ما تراه الدولة، فإذا وقف المفكرون إلى جانب غير جانبها فهناك الخطر العظيم من الاضطهاد و الاتهام بالعقائد الفاسدة، لأن الاستقلال في الرأى لم يكن من صالح الدولة، و هم يحاولون توجيه الناس إلى حيث اتجهوا. فالمخالف لذلك يتهم بالخروج على الدولة مرة، و عن الدين أخرى. و من أعظم المسائل في تاريخ الإسلام هي مسألة التفضيل، فقد جعلوا عنوان الرفض هو: محبة الإمام على عليه السلام و تفضيله على الصحابة. يقول ابن حجر في مقدمة فتح البارى: و التشيع محبة على و تقديمه على الصحابة فمن قدمه على أبى بكر و عمر فهو غال في تشيعه و يطلق عليه رافضى، و إلا فشيعى. فالشيعى في عرفهم هو محبة على عليه السلام. أما إذا فضله على أبى بكر و عمر فهو الرافضى. و ناهيك ما وراء كلمة الرافضى من خطر عظيم، فقد اتخذته السلطة ذريعة للقضاء على كثير من رجال الأمة الذين لم ينحازوا إليها، و لم يتعاونوا معها و يقفوا إلى جانبها، و اتخذت هناك الخدع و المكائد التي تؤدي إلى سفك الدماء، و قام المتمرغون على أعتاب الظلمة، و المتنعمون في خيرات الدولة بما يجلب قلوب ولاة الأمر إليهم في الصاق العيوب بالشيعة، و ذمهم و الطعن في عقائدهم، حتى قال

بعضهم: آكل ذبيحة اليهودى و لا آكل ذبيحة الراضى (1) وقد عرفت أن الراضى هو الذى يفضل عليا عليه السلام على أبى بكر و عمر فقط. و لم تكن المسألة فى حقيقتها مسألة حب لأبى بكر و عمر أو تفضيل بموجب الفضائل و المناقب و إنما كانت قضية أوجدتها فى الأصل القبلية التى حقدت على الإمام على و وجدت فيه و اترها الذى جندل فرسانها و أهلك شجعانها فكيف تترك له الأولية و الصدارة فى الدين و القيادة. ثم توطأ الحكام من الأمويين و غيرهم فأكدوا ذلك المنهج لأن المنزع واحد و الغاية لا تختلف، و قد جرت القضية على الأمة الويلات.

### الاختلاف فى التفضيل:

و الغرض أن الأمة اختلفت فى مسألة التفضيل على ثلاثة أقوال: 1- تفضيل الإمام على بن أبى طالب عليه السلام على جميع الصحابة، و هو رأى أهل البيت و جميع الصحابة و التابعين-إلا- القليل النادر- و جميع الهاشميين و أهل الحجاز و أهل الكوفة، و وافقهم كثير من المتأخرين من علماء السنة تصريحاً أو تلميحاً، نظراً للظروف التى قضت على المفكرين من رجال الأمة بمجاراتها. 2- إن على بن أبى طالب أفضل الأمة بعد الشيخين. 3- إنه أفضلهم بعد الثلاثة و عليه رأى الجمهور من السنة. قال القرطبي: و المسألة اجتهادية و مستندها، إن هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيه و إقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم بالخلافة. و نحن هنا لا نريد أن نتعرض للأقوال و نقضها، و لا نريد أن نتساءل عن صحة الدليل، و لا نناقش رواية ابن عمر التى أصبحت هى دليل الإجماع و مستند التفضيل و هى قاصرة عن الدلالة، فلنترك ابن عمر و رأيه-أو روايته-و لننظر إلى رأى مالك بن أنس فى جعل على عليه السلام كسائر الناس، لا يمتاز عنهم بصفة و لا بفضيلة، و هو رأى انفرد به و لا يوافقه أحد من علماء الإسلام. روى مصعب و هو تلميذ مالك أنه سأل مالكا: من أفضل الناس بعد

ص:590



رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم؟ فقال مالك: أبو بكر. قال: ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. قال: ثم من؟ قال: هنا وقف الناس. ودخل مالك على المنصور فسأله المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم؟ فقال مالك: أبو بكر وعمر. فقال المنصور أصبت وهذا رأى أمير المؤمنين-يعنى نفسه. وفي رواية ابن وهب: أنه قال-أى مالك-: أفضل الناس أبو بكر وعمر، ثم أمسك. فقال له ابن وهب: ثم من؟ فأمسك فقال له: إني امرئ أقتدى بك في ديني فقال مالك: عثمان. فهو في هذا يتردد في ضم عثمان إلى الشيخين ولذلك أمسك ولم يذكر عليا عليه السّلام بعدهم. وسأله أحد العلويين في مجلس درسه: من خير الناس بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم؟ قال مالك: أبو بكر. قال: ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. فقال العلوي: لا جالستك أبدا. يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: إن مالكا رضى الله عنه يخالف بذلك إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسن منه ومات قبله، و ثانيهما أصغر منه وهو تلميذه الشافعي، فإن أبا حنيفة لا يعد عليا كسائر الناس بل يرفعه إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء، ويقدمه في الترتيب على عثمان رضى الله عنه، والشافعي يعلن محبته لعليّ ويحكم على خصومه بأنهم بغاة، ويعتمد في استنباط أحكام البغاة على ما كان يفعله على رضى الله عنه مع الخارجين عليه والذين بغوا على حكمه، حتى لقد اتهم بأنه شيعي وحوسب على ذلك وتعرض للتلف ولكنه كان يذكر مناقب أبي بكر ويفضله على عليّ، ولذلك لم يكن رافضيا (1). ولما ذرأى مالك عدم ذكر عليّ في مقام المفضلين، بل كان يقف بعد عثمان ويقول: هنا يتساوى الناس. فما كان عليّ كسائر الناس، فهل جهل ذلك الإمام الجليل مناقبه وسابقتها في الإسلام، وجهاده وحسن بلائه ومقامه من النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم؟ لا نظنه أنه جهل شيئا من ذلك أو أنكروه، إنما هو يعرف عليا رضى الله عنه

ص: 591

1-1) هذه نقطة يجب الالتفات إليها وهي أن حب علي عليه السّلام والاعتماد على قوله في استنباط الأحكام من علامات التشيع و يوجب الاتهام وإجراء الحساب، وقد افتخر الشافعي بهذه التهمة. وقد بسطنا القول في ذلك بكتابتنا (الشريعة في قفص الاتهام) وهناك نقطة أخرى، وهي أن من يفضل عليا على أبي بكر فهو رافضي، وناهيك ما للرافضي من صفات أقلها الخروج عن الدين.

و يعرف مقامه، ولكنه عند ما يجيب عن المسألة كان يجيب فيما يتعلق بالخلافة والخلفاء، ولعل لجوابه بعض المبررات وإن كنا لا نوافق في جوابه (ثم يذكر المبررات لقول مالك) إلى أن يقول: وهو في هذا القول يضرب على نعمة معاوية والأمويين. ومهما تكن المبررات التي تدفع إلى ذلك الحكم على سيف الإسلام أخى رسول الله، وزوج ابنته، ومن كانت منه الذرية الطيبة النبوية عليها السلام فإن ذلك الحكم يدل على نزعة أموية (1)

### العباسيون والتفضيل:

ونحن نقول: إنها نزعة عباسية أيضا، وذلك لأن العباسيين سرت إليهم نزعة العداة لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم: بصورة أشد مما كانت عند الأمويين، فإنهم بعد أن كانوا يتفقون مع العلويين في الرأي ويتحدون معهم في الغضب على أعمال أمية، و ينتصرون للعلويين ويخلصون لهم الود، ويذهبون لأحقية علي بالخلافة وأفضليته على جميع الأمة، وكان المنصور نفسه يحدث بفضائل علي، وهو أحد رواة حديث الغدير (2)، وكانوا يأمرون الدعاة بأول ما يظهرونه للناس هو فضل علي وأولاده، فلما استجابت الأمصار لهم، وتم زوال الدولة الأموية، وتربعوا على دست الحكم حصل ذلك التبدل السريع، والتحول الغريب، فأظهروا العداة لأهل البيت، وساموهم الخسف والهوان، وأصبح العلويون يطاردون من قبل الدولة، ولا ذنب لهم إلا أنهم المرشحون للخلافة، وإليهم تتجه الأنظار، وعليهم تحوم الآمال، فهم أهل الزعامة الدينية والحق الشرعي، وقد سبق الاعتراف من العباسيين لهم بذلك. حقا أنه تحول غريب ولكنه الملك، والملك عقيم. دخل المهدي على أبي عون بن عبد الملك يعوده وطلب إليه أن يعرض عليه حوائجه، فقال أبو عون: يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون وتدعوه به فقد طالت موجدتك عليه. وكان عبد الله يرى رأى الشيعة في الخلافة، وأن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال المهدي: يا أبا عون إنه على غير الطريق، وعلى خلاف رأينا.

ص: 592

1-1) مالك لأبي زهرة ص 69-71.

2-2) تاريخ بغداد ج 12 ص 344.

فقال أبو عون: هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه و دعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا حتى نطيعكم. وعرضت على المهدي وصية القاسم بن مجاشع التميمي وقد جعل المهدي وصيه وكان قد كتب فيها: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام. ثم كتب: والقاسم بن مجاشع يشهد بذلك ويشهد أن محمدا عبده ورسوله وأن علي بن أبي طالب وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و وارث الإمامة من بعده. فلما بلغ المهدي إلى هذا الموضع رمى بالوصية ولم ينظر فيها (1) وعظم عليه ذلك، لأنه مخالف لرأى الدولة الجديد. ومن هنا نعرف الفرق بين الماضي والحاضر بذلك التحول السريع والتطور الغريب، كل ذلك بغضا للعلويين وكراهة لموافقتهم في الرأي، حتى أصبحوا يعظمون الأمويين ويعاقبون من ينتقصهم. فقد عذب يحيى بن كثير - وهو أحد الأعلام - وضرب وحلق رأسه لأنه انتقص الأمويين (2) وكثير من أمثال ابن كثير، كما عظم على العباسيين ثبوت الخلافة لعلوي بغضا للعلويين. قال أبو معاوية: دخلت على هرون الرشيد، فقال لي: لقد هممت أن من يثبت خلافة علي فعلت به وفعلت. قال: فسكت فقال لي: تكلم، قلت: إن أذنت لي تكلمت. قال: تكلم. فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول الله. وقالت عدى: منا خليفة خليفة رسول الله. وقالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء. فأين حظكم فيها يا بني هاشم؟ والله ما حظكم فيها إلا ابن أبي طالب (3). ثم تطورت الحالة واشتد الأمر من قبل العباسيين حتى أدى الأمر إلى قتل من عرف بحب علي وأهل بيته، واتخذوا لذلك شتى الطرق ومختلف الأساليب، وأقرب طريق سلكوه للوصول إلى إيقاع الفتك بمن عرف بحب أهل البيت هو مسألة تفضيل

ص: 593

- 
- 1-1 (1) الطبري ج 6 ص 397 [1] حوادث 169 هـ.
  - 2-2 (2) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 121.
  - 3-3 (3) تاريخ الخطيب ج 5 ص 244. [2]

على عليه السّلام على الخلفاء، و جعلوا قاعدة مطردة عندهم و هي: أن من فضل عليا عليه السّلام فقد طعن على الصحابة، و من طعن على الصحابة طعن على رسول الله، و من طعن على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فهو زنديق. و جعلوا مدح على و ذكره بما خصه الله و رسوله من الفضائل التي امتاز بها على غيره طعنا على الصحابة، و موهوا على السذج بذلك، و انخدع أكثر الناس و استجاب آخرون تحت الضغط، و لقي المفكرون من الأمة عناء، و واجهوا مشاكل عند محاولتهم الوقوف أمام تيار ذلك السيل الجارف، فساير أكثرهم تلك الأوضاع، و جرى تلك الظروف دفاعا عن النفس و طمعا في الحياة، فخضعوا لرأى الدولة و تجنبوا الحديث عن أهل البيت و فضائلهم و درج الناس على ذلك، و نظروا إلى الشيعة بعيون مزورة و قلوب تتقد بنار العدا، فكانوا لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت، و إذا رأوا أحدا يذكرهم بخير رموه بالرفض، و اتهموه بالزندقة، و قد أعطانا الإمام الشافعي صورة عن تلك الأوضاع بقوله: إذا في مجلس ذكروا عليا و سبطيه و فاطمة الزكية

يقال تجاوزوا يا قوم عنه فهذا من حديث الرافضية

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية

و ستلمس عزيزي القارئ أن حقيقة تكالب الحكام على مقاومة آثار أهل البيت و مناوأة محبيهم كانت من أعظم الجنايات التي تركت آثارها على حركة العلم و حالت دون الاستفادة من نتاج الأفكار بحريّة، كما أنها من أكثر الظواهر إثارة للألم لتمكن الحكام من توجيه الآراء و انقياد الناس إليهم في ذلك دون وعي، فلذلك سيكون فشل سياسة الحكام تجاه أهل البيت من محاور البحث الأساسية.

### نطور الخلاف في مسألة التفضيل:

و يصف لنا ابن قتيبة (1) أوضاع عصره و نصبهم العدا لأهل البيت و بغضهم للشيعة في تفضيلهم عليا عليه السّلام على جميع الأمة بقوله:

ص: 594

1 - 1) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة المروزي المتوفى سنة 276 هـ - كان من علماء الحديث في القرن الثالث و له مؤلفات كثيرة، يعرف بالدينوري لأنه أقام بالدينور قاضيا مدة من الزمن فنسب إليها و قد وصفه ابن حجر بالانحراف عن أهل البيت.

وقد رأيت هؤلاء أيضا كلما رأوا غلو الرافضة في حب علي و تقديمه، قابلوا ذلك أيضا بالغلو في تأخير علي كرم الله وجهه، وبخسه حقه، و لحنوا في القول وإن لم يصرحوا إلى ظلمه، و لم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، و أوجبوا ليزيد بن معاوية لاجتماع الناس عليه، و اتهموا من ذكره بخير و تحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه، أو يظهروا ما يجب له و كل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح. . . و ساووا بينه في الفضل و بين أهل الشورى، لأن عمر لو تبين له فضله لقدمه عليهم و أهملوا من ذكره أو روى حديثا من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها، و عنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص و معاوية، كأنهم لا يريدونها و إنما يريدونه، فإن قال قائل: «أخو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليّ و أبو سبطيه الحسن و الحسين و أصحاب الكساء عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين» تمعرت الوجوه، و تنكرت العيون، و ظهرت حسائلك الصدور. و إن ذكر ذاكر قول النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «من كنت مولاه فعلى مولاه» و: «أنت منى بمنزلة هرون من موسى» و أشباه هذا، التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينتقصوه و يبخسوه حقه بغضا منهم للرافضة و إلزاما لعلي عليه السلام ما لا يلزمه. و هذا هو الجهل بعينه، و السلامة من ذلك أن لا تهلك بمحبته و لا تهلك ببغضه و أن لا- تحتمل ضغنا عليه بجناية غيره فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه، و أن تعرف مكانه من الرسول بالتريبة و الأخوة و الصبر، و الصبر في مجاهدة أعدائه، و بذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانه في العلم، و الدين، و البأس، و الفضل. . . إلى أن يقول: و لو كان إكرامك لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هو الذى دعاك إلى محبة من نازع عليا و حاربه و لعنه إذ صحب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم-يعنى معاوية-لأنت بذلك فى عليّ أولى لسابقته و فضله و خاصيته و قرابته و الدناوة التى جعلها الله بينه و بين رسوله عند المباهلة حين قال تعالى: **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ [آل عمران: 61]** فدعا حسنا و حسينا «و نساءنا و نساءكم» فدعا فاطمة عليها السلام «و أنفسنا و أنفسكم» فدعا عليا عليه السلام، و من أراد الله تبصيره بصره، و من أراد به غير ذلك حيره (1). هكذا تأثر ذلك المجتمع و تكيف بمزاج الدولة، و لم تجر الأمور طبقا للحقيقة،

ص: 595

مما أدى إلى مخالفة الواقع والابتعاد عن الحق، كما وصف ذلك ابن قتيبة وغيره، ولا يسع المجال لسط القول في ذكر تلك الأوضاع السياسية التي سار عليها ولاة الأمر، و حملوا الناس على الخضوع لها، ولا يستغرب أن تكون نزعة الدولة نزعة عداء لأهل البيت، ولكن الغريب أن يتأثر فيها بعض من عرف بالفهم، و وسم بالعلم، و لم يمنح عينا تدرك الحقائق. و لا نريد أن نرجع إلى الماضي، و نقف عند تلك المحاولات التي اتخذها خصوم أهل البيت في العصر الأموي ليمحووا بذلك ذكرهم، فقد مر كثير من الإشارة إليها، كما أنا لا نريد أن نحاسب ابن عمر (1) على روايته في التفضيل التي كانت سببا لإيجاد تلك المشاكل، و لا نريد أن ندرس نفسيته لنعرف الأسباب التي حملته على ذلك القول، و ادعائه أمرا لم يكن له أهلية الاتصاف به لحدائثة سنه و خمولى ذكره. أخرج البخارى من طريق ابن عمر أنه قال: كنا نخير بين الناس فنخير أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان بن عفان رضى الله عنهم (2). و فيه أيضا بلفظ: كنا فى زمن النبى لا نعدل بأبى بكر أحدا، ثم عمر ثم عثمان (3). و هذه الرواية هى عمدة ما تمسك به القوم فى بحث الإمامة، تقليدا لابن عمر، و جريا مع الظروف و سياسة الزمن، فنحن لا نريد أن نطيل الوقوف على هذه الرواية، و لا نريد أن نناقشها سندا و دلالة، و قد كفانا البحاث الكبير العلامة الأمينى نقاشها فى

ص: 596

1-1) كان من رأى عمر فى ابنه أنه لا يحسن أن يطلق امرأته، و لم يره أهلا لشيء، و ليس فيما (وقدته العبادة) شهادة له بل من جملة ما كان يبعد عمر عن ابنه، و قد كان ظن الوالد بابنه صحيحا حتى أنه بمرور الأيام لم ينصر الحق و لم يميز بين إمام الهدى و قائد البغاة فامتنع عن بيعه الإمام على و طرق على الحجاج بابه ليلا ليبيع عبد الملك كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام فأخرج الحجاج رجله من الفراش و قال لابن عمر: أصفق بيدك عليها!! و يبدو أن الحجاج علم حقيقة ابن عمر مما اشتهر عنه بعد موقعة الحرّة أو مأساتها و دعوته إلى عدم خلع الطاعة و نكث البيعة فيما خلع الناس يزيد بن معاوية. راجع صحيح مسلم ج 2 ص 121. و مسند أحمد ج 2 ص 48.

2-2) البخارى ج 5 ص 242. [1]

3-3) البخارى ج 5 ص 262. [2]

غديره. وبين نفسية ابن عمر ومؤهلاته ومقدار تحمله لذلك، وقيمة ما يروى عنه في نظر حفاظ الحديث و علماء الأمة (1). ولا نعود إلى مسألة مالك بن أنس عن الأسباب التي حملته على رأى المساواة، ولعلها لا تخفى على المتتبع، فهو لا يجهل مكانة عليّ عليه السلام في الإسلام من البداية إلى النهاية، كما أنه لا يجهل اختصاص عليّ عليه السلام بمزيد فضل وعظيم شرف لم يشاركه أحد في ذلك. وقد امتاز عليّ غيره من أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله وسلم، الذين كانوا على جانب عظيم من الصفات الفاضلة والمزايا الجليلة: من الإيمان والصلاح والورع والزهد والجهاد. . . فقد كان أسبقهم إلى الإسلام، وأقربهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، و أشدهم جهادا في الحرب، وأعلمهم بالدين، وأعظمهم منزلة، فهو أفضى الأمة، وأعلم الصحابة، وأول من أسلم، وقد آزر النبي صلّى الله عليه وآله وسلم في نشر الدعوة وغير ذلك. و امتاز عنهم بأنه أخو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ومنه الذرية الطيبة. وهو نفس محمد صلّى الله عليه وآله وسلم وهو مطهر من الرجس، ومنزه عن المعاييب، يمثل النبي صلّى الله عليه وآله وسلم في زهده وورعه و خلقه وهديه وفعله و علمه وفضله. وهو رسول الله ركيضا رحم، ورضيعا لبين واحد، إلى غير ذلك من المميزات التي اختص بها الإمام عليّ عليه السلام، و امتاز بها على غيره، فذاته صيغت من فضيلة. ولا يمكننا أن نعطي صورة واقعية عن شخصية الإمام بدراسة حياته بجميع نواحي عظمتها فليس ذلك بمستطاع.

### فضل عليّ و امتياز ه و خصاله:

رأينا كيف تدخلت السياسة في تشويه الحقائق، و حمل الناس على مخالفة الواقع بأشكال و ألوان مختلفة، مما أفسد على المجتمع ما صلح، وقامت بسبب ذلك فتن و حروب، و ليس ذلك بعجيب، و لكن الأعجب منه حمل من خالف تلك الأوضاع الشاذة، و وقف لجانب الحقيقة على الشذوذ و الانحراف، و أن يصبح غرضا ترشقه سهام التهم بدون تثبيت في الحكم. و تدبر في الأمر. و قد كانت مسألة التفضيل من أهم الأسباب التي تذرع بها ولاة الأمر للقضاء على المفكرين من الأمة، و جعلتهم

ص:597

عرضة لخطر غضب الرأى العام من الذين أغواهم شيطان السياسة الفاسدة ليلقوا بأنفسهم فى مهاوى الهلكة، حتى أصبح الأمر بأشد ما يكون من الخطر، و التنبأ الكثير إلى الدفاع عن النفس بالمجاراة للرأى العام الذى تكيف بسياسة الدولة بدون تدبر و تفكير. و لو تجردت المسألة عن ذلك التدخل لما كان أى شىء من ذلك، لأن الحقيقة فى جانب، و ما يذهبون إليه فى جانب آخر. و إنما هى أقوال يرددونها اتباعا لقائلها بدون تحقيق من صحتها. و إذا أردنا أن نسألهم عن التطبيق العملى يصعب عليهم ذلك، و لا يجدون للإجابة عن طريق المنطق الصحيح سبيلا. و أقل قدر من التجرد من دواعى التقليد و عوامل التعصب يساعد فى اكتشاف جذور إظهار هذه المسألة و دفع الإمام عن مكانته الدينية و التاريخية، فقريش التى أوصل سيف على الحزن إلى قلوبها و فجعها بصناديد الكفر لا تريد ذلك و الأميون الذين استخذوا تحت أقدام جند النبى عام الفتح و أظهروا الإسلام تفاقم حقدها الجاهلى و عظم شركها و لم تكنف بسنة شتم الإمام بل امتدت أيديها القذرة إلى العترة الطاهرة قتلا و سببا و تشريدا. و إذا استكشفنا حقيقة الأمر على ضوء الأحاديث النبوية و الآيات القرآنية الواردة فى فضل على عليه السلام و اختصاصه بمزايا لم يشاركه فيها أحد، لوجدنا تلك الآراء التى ذهبوا إليها فى مسألة التفضيل، بعيدة عن الصواب، إذ هى تعطينا صورة واضحة، لمقام على عليه السلام و أنه أفضل الأمة لأنها حقائق ملموسة لا يمكن لأحد أن يحيد عنها، فهى تقضى بأفضليته على جميع الأمة. كيف؟ و قد ملأ سمع الدنيا نداء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يوم غدیر خم: «من كنت مولاه فهذا علىّ مولاه، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» و قد رواه جمع من الصحابة يربو عددهم على المائة (1). و فى حديث الثقلين كفاية للدلالة على علو شأن على و فضله و اختصاصه دون

ص:598



سائر الصحابة باقتراءه مع القرآن في وجوب الاتباع، فهو مع القرآن والقرآن معه (1). إذا كيف يصح لقائل أن يقول بمساواته لسائر الناس، و عدم امتيازه عنهم بمؤهلات الفضل؟ ولا غرابة في ذلك بعد أن وقفنا على الأسباب التي أدت إلى هذا الرأي. ألعلى يقال هذا؟ وهو نفس محمد بنص الوحي الإلهي بقوله تعالى: **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهُلْ فَتَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** [آل عمران: 61] ودعا النبي عليا وفاطمة والحسن والحسين وقال: اللهم هؤلاء أهلي (2). فهو بنص القرآن الكريم نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولو وجد صلى الله عليه وآله وسلم نظيرا لعلي عليه السلام لضمه إليه، كما صنع في الحسن والحسين، إذا ليس في أمته من يكون نفسه غير علي. وقد احتج علي يوم الشورى بذلك، فقال لهم: أنشدكم الله هل أحد أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الرحم مني. ومن جعله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، و ابنه أبناءه، و نساءه نساءه غيري؟ قالوا: اللهم لا، وقد أصبح ذلك من المقرر عند الناس والمشهور بينهم، ولم يستطع أحد إنكاره. ولو أصغى إلى قواعد البيان وأدلة اللسان لوضح الحق وبان الهدى ولم تصرف كلمة في محكم التنزيل وسفر الإعجاز عن دلالتها ومعناها كذلك قول الله عز وجل: **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ** [التوبة: 120] فلو كان المقصود بنفسه هنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاقتضى البيان تعبيرا يتسق مع الإعجاز والبلاغة بضمير دال عليه صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن التصريح بالنهاي عن التخلف عن وصي رسول الله الإمام علي وهو نفسه كان سبب ذلك. ومن حق كتاب اليوم أن يروا أن بعض مناقب أمير المؤمنين الإمام علي لم تأخذ مكانها من الاهتمام، أو أن الشيعة لم يجعلوا بعضها بدرجة اهتمامهم في المناقب الأخرى كقضية مبيت الإمام في فراش النبي الأعظم التي تعد من أعظم فضائل الإمام وأقوى دلائل الاختصاص بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرب

ص: 599

1-1 (1) نفس المصدر ج 1. [1]

2-2 (2) صحيح مسلم ج 5 ص 176 من شرح النووي، و تفسير الرازي ج 2 ص 488. [2]

منه (1). و لكن ما يؤلم الشيعة و يحز في نفوس الآخرين من غير الشيعة الذين ابوا الاستسلام و التقليد أن تكون قضية إبراز فضل الإمام على و إظهار مناقبه من اهتمامات الشيعة فحسب، و النظرة البسيطة توضح بجلاء من هو الإمام على و ما دوره في نصرة الإسلام و حماية نبيه صلى الله عليه و آله و سلم. قام رجل في مجلس ابن عائشة، فقال: يا أبا عبد الرحمن من أفضل أصحاب رسول الله؟ فقال: أبو بكر و عمر و عثمان و عبد الرحمن و طلحة و الزبير. فقال الرجل: فأين على بن أبي طالب؟ فقال ابن عائشة: تستفتيني عن أصحابه أم عن نفسه؟ . فقال الرجل: عن أصحابه. قال: إن الله تبارك و تعالى يقول: **فَقُلْ تَعَالَوْا تَدْعُ أِبْنَاءَنَا وَ أِبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ** [آل عمران: 61] فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟ (2). و قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبو بكر، و عمر، و عثمان. فقلت: فعلى؟ قال: يا بني على بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (3). و كان النبي في مختلف الظروف و شتى المناسبات قد بين للناس أن عليا كنفسه، و هو منه بمنزلة رأسه من بدنه (4). كقوله صلى الله عليه و آله و سلم: لينتهين بنو ربيعة، أو لأبعثن إليهم رجلا كنفسى (5). و كقوله صلى الله عليه و آله و سلم: على منى و أنا منه. و يحدث ابن عباس عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: يا أم سلمة على منى و أنا من على، لحمه من لحمي و دمه من دمي و هو منى بمنزلة هرون من موسى.

ص: 600

1-1) انظر: الإمام على بن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب. ط بيروت.

2-2) البيهقي في المحاسن ج 1 ص 39. [1]

3-3) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج 2 ص 120. [2]

4-4) انظر الخطيب البغدادي ج 7 ص 41. [3]

5-5) الرياض النضرة ص 64. [4]

وكان صَلَّى الله عليه وآله وسلم يظهر للملأ في المواقف العامة فضل على صَلَّى الله عليه وآله وسلم وأنه كنفسه ففي الحج أشركه في نحر البدن: وهي الهدى. قال عرفة بن الحرث الكندي: شهدت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وأتى بالبدن فقال: «ادعوا لى أبا حسن فدعى له على عليه السلام فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: خذ بأسفل الحربة. وأخذ صَلَّى الله عليه وآله وسلم بأعلاها ثم طعنا بها البدن فلما فرغ ركب وأردف عليا عليه السلام (1). وكان صَلَّى الله عليه وآله وسلم يأمر عليا بأن يقوم على البدن وأن يتولى تقسيم لحومها بنفسه (2). وكان صَلَّى الله عليه وآله وسلم يخطب الناس فى الحج على ناقته الشهباء وعلى عليه السلام يعبر عنه (أى يفهمها الناس). رواه ابن حجر فى المواهب (3) وأخرجه أبو داود، والنسائى والبغوى والطبرانى. والنبي الأعظم يرى عليا كما لو كان يرى نفسه فى جميع الأحوال، أخرج الطبرانى عن إبراهيم بن رفاع بن رافع بن مالك بن عجلان الأنصارى عن أبيه عن جده قال: أقبلنا يوم بدر تفقدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فنادت الرفاق بعضها بعضا أفيكم رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم معه على بن أبى طالب، فقالوا: يا رسول الله: فقدناك، فقال: «إن أبا حسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفت عليه» (4). وكثير من هذا الباب الذى يدل بالبرهان القاطع أنه عليه السلام نفس محمد صَلَّى الله عليه وآله وسلم وشريكه فى مميزاته وصفاته، إلا ما علم بالضرورة استثناءه. وكان أصحاب النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم يعرفون عليا بتلك المنزلة، ولا يجهلون ذلك الاختصاص. أخرج الطبرى عن ابن عباس: أنه مر بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون عليا، فقال لقائده: أما سمعت هؤلاء ما يقولون؟ قال: سبوا عليا. قال: فردنى إليهم فرده. فقال: أيكم الساب لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم؟ قالوا: سبجان الله من سب رسول الله فقد كفر، فقال: أيكم الساب لعلى؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال ابن عباس: فأنا أشهد

ص: 601

1-1 (1) شرح المواهب اللدنية ج 8 ص 194. [1]

2-2 (2) البخارى ج 2 ص 201.

3-3 (3) شرح المواهب ج 8 ص 205. [2]

4-4 (4) المعجم الكبير ج 5 ص 46.

بالله لسمعت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم يقول: من سب عليا فقد سبني، و من سبني فقد سب الله، و من سب الله عز و جل أكبه الله على منخره (1). و أخرج النسائي عن عبد الله الجدلي. قال: دخلت على أم سلمة، فقالت لي: أيسب رسول الله فيكم؟ قلت: سبحان الله أو معاذ الله. قالت: سمعت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم يقول: من سب عليا فقد سبني (2). فامتياز شخصية علي عليه السلام اقتضت أن يختص بأمور لا يشاركه فيها أحد لذلك كان أخا للنبي من دون أصحابه يوم آخى النبي بينهم و أخذ بيد علي فقال: هذا أخي (3). و قالت عائشة لرجل من بني ضبة-و هو أخذ بخطام جملها-: أين ترى علي بن أبي طالب؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء. قالت: ما أشبهه بأخيه. قال الضبي: و من أخوه؟ قالت: رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم. فقال الضبي: فلا أراني أقاتل رجلا هو أخو رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فنبذ خطام جملها و مال إلى علي عليه السلام (4). و قد أراد الله إظهار فضل علي، و أراد أن يعرف الناس منزلته فخصه بتلك المزايا التي لا يمكن حصرها، و كيف تجهل مكانة عليّ و عظيم منزلته فيساوى مع سائر الناس؟ و قد جعل النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم حب علي علامة الإيمان، و بغضه علامة النفاق بقوله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن، و لا يبغضك إلا منافق» و قال علي عليه السلام: «إنه لعهد النبي الأُمى صَلَّى الله عليه وآله وسلم إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن، و لا يبغضني إلا منافق» (5). و كان أصحاب النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم يعرفون إيمان الإنسان بحبه لعلي، و نفاقه ببغضه له، متخذين من قوله قاعدة مطردة على الدوام في معرفة الناس، و تمييز الأشخاص. قال أبو سعيد الخدري: كنا نحن معشر الأنصار نعرف المنافقين ببغضهم علي بن أبي طالب (6) و قال جابر بن عبد الله الأنصاري: ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم عليا (7).

ص: 602

- 
- 1- (1) الرياض النضرة ج 2 ص 219. [1]  
2- (2) الخصائص ص 24 و الرياض النضرة ج 2 ص 219. [2]  
3- (3) مصابيح السنة ج 2 ص 203.  
4- (4) المحاسن و المساوى للبيهقي ج 1 ص 35. [3]  
5- (5) صحيح مسلم شرح النووي ج 1 ص 64 و خصائص النسائي ص 27 و [4] ذخائر العقبى ص 91 و [5] الاستيعاب [6] بهامش الإصابة ج 3 ص 37 و [7] شرح الشفاء للخفاجي ج 3 ص 457.  
6- (6) صحيح الترمذي ج 2 ص 299. [8]  
7- (7) الذخائر ص 91 و الاستيعاب ج 3 ص 46. [9]

فبنص هذا الحديث الشريف أن محب علي مؤمن، و مبغضه منافق. و المنافق هو المؤمن بلسانه و الكافر بجنانه و «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار». قال أحمد بن منصور: كنا عند أحمد بن حنبل، فقال رجل: يا أبا عبد الله ما تقول في هذا الحديث الذي يروى أن عليا قال: «أنا قسيم النار»؟ فقال أحمد: و ما تنكرون من ذا؟! ليس رويانا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: «لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق» قلنا قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: و أين المنافق؟ قلنا: في النار. قال أحمد: فعلى قسيم النار (1). و قد امتاز علي عليه السلام على جميع أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه نظيره في الأداء و التبليغ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. و ذلك لما أرسل أبا بكر ليقرأ براءة على أهل مكة، أوحى الله إليه أن يرجعه، و يرسل عليا ليقوم مقام النبي في الأداء، فانصرف أبو بكر كئيبا، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنزل فى شىء؟ قال: لا، إلا أنى أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتى. و فى رواية سعد: لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. و فى رواية أبى هريرة: لا يبلغ غيرى أو رجل منى (2). فالإرسال كان بوحي من الله تعالى. و قد رشحه لمقام التبليغ، و اسمه النبي بذلك الوسام، و ميزه بتلك الصفة. كما ميزه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه باب مدينة علمه لما بينهما من المشاركة و المجانسة بقوله: «أنا مدينة العلم و على بابها» (3). قال الهيثمى: رواه جماعة و صححه الحاكم، و حسنه الحافظان العلاءي و ابن حجر. و قال ابن حجر فى شرح الهمزية فى تعداد فضائل على عليه السلام: و منها العلوم التى أشار إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أنا مدينة العلم و على بابها» و فى رواية من أراد العلم فليأت الباب. و فى أخرى عند الترمذى: «أنا دار الحكمة و على بابها». و فى أخرى عند ابن عدى: «على باب علمى» (4). و قال أيضا: مما يدل على أن الله سبحانه و تعالى اختص عليا من العلوم ما تقصر عنه العبارات كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم على» و هو

ص: 603

- 
- 1- (1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 320. [1]
- 2- (2) الرياض النضرة ج 2 ص 228 و [2] الخصائص ص 20.
- 3- (3) لهذا الحديث طرق معتبرة صحيحة، و قد أفرد له الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق المغربى مؤلفا يقع فى 102 صفحة ذكر فيه طرق الحديث و تعرض لجميع الأقوال فيه.
- 4- (4) شرح الهمزية ص 302.

حديث لا نزاع فيه. وقوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «أنا دار الحكمة وعليّ بابها» وقوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم و عليّ بابها» (1). واختص على عليه السلام بأنه أحب الخلق إليه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم وأقربهم منه، ووجوب محبته ولزوم اتباعه، وأنه مع الحق والحق معه، وكان يحل له ما يحل لرسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يوم أمر النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم بسد أبواب أصحابه إلا باب علي. أخرج النسائي من طريق زيد بن أرقم: كان لنفر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أبواب شارعة في المسجد، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: سدوا الأبواب إلا باب علي عليه السلام فتكلم بذلك الناس، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي. وقال فيه قائلكم: والله ما سدته ولا فتحتة، ولكنني أمرت فاتبعته (2). أخرجه أحمد والطبراني وما ذلك إلا لميزة في شخص علي اقتضت هذا التخصيص. وقد أكبر عمر بن الخطاب هذه الخصلة، وكانت من أهم الخصال التي كان يتمناها، فكان يقول: لقد أوتى ابن أبي طالب ثلاث خصال لئن يكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم: زوجه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ابنته، وسد الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم حنين (3). وكم تمنى عمر بن الخطاب بعض ما اختص به علي عليه السلام، كما يحدثنا عن نفسه في عدة موارد: كيوم خيبر، يوم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ (4)، وكان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن (5). ولم يشهد المسلمون شخصية برزت في ذلك العصر بمؤهلات الفضل والكمال كشخصية الإمام علي بن أبي طالب، فلا يستطيع أي أحد أن يتناول إليها في الشرف. وقد بذل النبي عنايته في تربيته، وكان يغمره بالحب ويأمر بحبه، ويوجه الناس إلى

ص: 604

1- (1) انظر ص 303.

2- (2) الخصائص ص 13. وشرح المواهب اللدنية ج 8 ص 253. [1]

3- (3) ذخائر العقبى ص 77. و [2] مسند أبي يعلى ص 251.

4- (4) أخرجه البخاري ومسلم، والترمذي في الصحيح، والنسائي في الخصائص، وغيرهم.

5- (5) الإصابة ج 2 ص 509. [3]

معرفة مميزاته، وصفات الكمال التي اجتمعت فيه، فكان يعلن للملا بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أنت منى بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» (على منى وأنا من على ولا يؤدي عنى إلا أنا أو على) أخرجه الترمذى فى صحيحه (1) والنسائى فى خصائصه (2) وغيرهما. «ما تريدون من على إن عليا منى وأنا من على وهو ولى كل مؤمن و مؤمنة» (3). وأخرجه الترمذى بلفظه: «ما تريدون من على ما تريدون من على ما تريدون من على إن عليا منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن من بعدى» (4). «من أحب عليا فقد أحببني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن آذى عليا فقد آذى الله» (5). «يا على طوبى لمن أحببك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك و كذب فيك» (6). وروى عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أوصى من آمن بى وصدقنى بولاية على بن أبى طالب، فمن تولاه فقد تولانى، و من تولانى فقد تولى الله، و من أحبه فقد أحببني، و من أحببني فقد أحب الله، و من أبغضه فقد أبغضني، و من أبغضني فقد أبغض الله عز و جل، أخرجه الطبرانى فى الكبير و ابن عساكر فى تاريخه (7). و أخرج أحمد رواية الإمام على عليه السلام: و الله إنه مما عهد إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه لا يبغضني إلا منافق و لا يحببني إلا مؤمن (8). و نكتفى بهذا البيان الذى لم تقصد به التوسع و الإحاطة لتعذر ذلك، و لكنها إشارة موجزة من حيث الارتباط فى الموضوع، كما و أنا لم نتعرض لذكر الآيات الواردة فى فضل على عليه السلام مما أجمع المفسرون على أنها نزلت فيه، و قد أفرد

ص: 605

1-1 (1) الترمذى ج 13 ص 169. [1]

2-2 (2) الخصائص ص 20.

3-3 (3) الإصابة لابن حجر ج 2 ص 509. [2]

4-4 (4) صحيح الترمذى ج 13 ص 165. [3]

5-5 (5) الاستيعاب ج 3 ص 37 [4] بهامش الإصابة.

6-6 (6) الرياض النضرة 2 ص 285. [5]

7-7 (7) كنز العمال ص 145 ج 6.

8-8 (8) مسند أحمد ج 1 ص 84. [6]

علماء الإسلام-في فضائله و مناقبه التي اختلف بها و امتاز عن سائر الصحابة-مؤلفات كثيرة، عدا ما أودع في مضامين الكتب التي لا تحصى. و أفرد الحافظ أبو نعيم الأصفهاني كتابا في بيان ما نزل من القرآن في علي، و له كتاب الخصائص أيضا. و ألف النسائي و الإمام أحمد و عبد الرحمن السكري و غيرهم كتباً في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام التي اختلف بها دون سائر الصحابة، و عسى أن تتاح لي الفرصة إلى العودة في البحث عن حياة الإمام علي بن أبي طالب، لنقتبس من حياته نظرة واسعة. و نكتفي هنا بهذه النظرة الخاطفة عن بقية مميزاته و صفاته التي يعجز أي أحد عن الإحاطة بها، و إعطائها حقها من البيان، فإن لشخصيته منزلة مرموقة، و ما رسمت ريشة التاريخ في صفحة الوجود كصورته بعد صاحب الرسالة.

## أقوال الصحابة في علي:

ولا- بد لنا و نحن في معرض البحث عن مسألة التفضيل أو مشكلته، من الرجوع لأقوال الصحابة و لمعرفة ما لمسوه من الحقائق في شخصية الإمام علي عليه السلام و امتيازه بتلك الصفات التي اختلف بها من بين الأمة. و لنا بذكر أقوال البعض كفاية عن الإحاطة بأقوال الجميع. لما بويح علي و عادت الخلافة إليه بعد أن تخطته زمانا، قام خطباء الصحابة في مجلس البيعة، و تكلموا بما يحق لهم أن يتكلموا فيه: منهم ثابت بن قيس قال (1): و الله يا أمير المؤمنين لئن تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين، و لئن كانوا سبقوك إليها أمس لقد لحقتهم اليوم، و كنت لا- يخفى موضعك، و لا تجهل مكانتك، يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، و ما احتجت إلى أحد مع علمك. و قام خزيمه ذو الشهادتين فقال: يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، و لا كان المنقلب إلا إليك، و لو صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً، و أعلم الناس بالله، و أولى المؤمنين برسول الله، لك ما لهم و ليس لهم ما لك.

ص:606

---

1- 1) ثابت بن قيس بن الحطيم بن عدى الأنصاري، توفي في خلافة معاوية شهد مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم وقعة أحد و ما بعده من المشاهد، و استعمله على عليه السلام على المدائن و شهد معه حروبه، و قد نسب بعض المؤرخين هذه الكلمة لثابت بن شماس الأنصاري خطيب الأنصار، و هو اشتباه؛ لأن الشماس قتل يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر.



وقام صعصعة بن صوحان فقال: و الله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة و ما زانتك، و رفعتها و ما رفعتك، و لهى إليك أحوج منك إليها. و قام مالك بن الحرث فقال: أيها الناس هذا وصى الأوصياء، و وارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن العناء، الذى شهد له كتاب الله بالإيمان، و رسوله بجنة الرضوان، من كملت فيه الفضائل، و لم يشك فى سابقته و علمه و فضله الأوائل و لا الأواخر. و قام عقبة بن عمر فقال: من له يوم كيوم العقبة، و بيعة كبيعة الرضوان و الإمام الأهدى الذى لا يخاف جوره. و العالم الذى لا يخاف جهله (1). و تتابع الخطباء و الشعراء فى ذلك اليوم، و بما لا يتسع المجال لذكره و لا يمكن الإحاطة بجميع أقوالهم فى على بشتى المناسبات، و مختلف المقامات. و على الإجمال، فإن أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم كانوا يعترفون لعلى بالفضل الذى لا يتناول إليه أحد، و يرجعون إليه فى مهماتهم، و يحدثون بفضله، و علو منزلته. فهذا أبو بكر كان يكثر النظر إلى وجه على، فقالت له عائشة: يا أبة إنك لتدبم النظر إلى وجه على، فقال: يا بنيه سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول: النظر إلى وجه على عبادة. أخرج ابن السمان فى الموافقة. و أخرج أبو الحسن الحربى مثله عن عبد الله بن مسعود، و الأبهري عن عمرو بن العاص مثله. و اشتهرت عن أبى بكر أحاديث كثيرة فى فضله كما اشتهر عنه رجوعه إليه فى أهم المسائل. و هذا الخليفة الثانى كان يعترف بعلم على و أفضليته. و جاءت عنه أقوال كثيرة فى ذلك: منها أنه قال لرجل: لا تذكر عليا إلا بخير فإنك إن تنقصه أذيت صاحب هذا القبر فى قبره-يعنى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم-خرجه أحمد فى المناقب و ابن السمان فى الموافقة (2). و قال: أقضانا على. أخرج الحافظ السلفى (3) و فى لفظ ابن عبد البر أنه قال: على أقضانا. أخرج عن ابن عباس (4).

ص:607

- 
- 1-1 (1) تاريخ اليعقوبى ج 2 ص 155. [1]
  - 2-2 (2) الرياض النضرة 220 ج 2. [2]
  - 3-3 (3) الذخائر ص 83.
  - 4-4 (4) الاستيعاب ج 3 ص 39. [3]

وقال سعيد بن المسيب: كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن. وقال في المجنونة التي أمر عمر بـرجمها، وفي التي وضعت لسته أشهر فأراد عمر رجمها فقال له علي عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا. . . [الأحقاف:15]». وقال في المجنونة: «رفع القلم عن المجنون. . . الحديث» فكان عمر يقول: لو لا- علي لهلك عمر. وقال أذينة العبدى: أتيت عمر بن الخطاب، فسألته من أين أعتمر؟ فقال: أتت علي بن أبي طالب فأسأله. وقال له: ما أجد لك إلا ما قال علي عليه السلام (1) وأقواله في علي كثيرة منها: قوله: لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر. وقوله: اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب. وقوله: اللهم لا تنزل بي شديدة، إلا وأبو الحسن إلى جنبي. وقوله: كاد يهلك ابن الخطاب، لو لا علي بن أبي طالب. وقوله: عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب. و قوله: ردوا قول عمر إلى علي عليه السلام، لو لا- علي لهلك عمر. وقوله: يا ابن أبي طالب، فما زلت كاشف كل شبهة، و موضع كل علم. قال ابن الأثير في أسد الغابة: و لو ذكرنا ما سأله الصحابة به مثل عمر وغيره رضی الله عنهم لأطلنا (2). وجاء رجل إلى معاوية بن أبي سفيان فسأله عن مسألة، فقال: سل عنها علي بن أبي طالب، فهو أعلم. قال: يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إلي من جواب علي. قال: بس ما قلت. لقد كرهت رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغزره بالعلم.

ص:608

- 
- 1-1) الاستيعاب ج 2 ص 43. [1]
- 2-2) راجع الاستيعاب لابن عبد البر و شرح الهمزية لابن حجر. و تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة. و الفتح لأحمد بن محمد الصديق. و الغدير للأميني [2] تجد هذه الأقوال الواردة عن عمر.

غزارا ولقد قال له: أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إن أشكل عليه شيء أخذ منه. أخرجه أحمد بن حنبل في المناقب (1). وقال ابن عباس: لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي، صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي كان لوائه معه في كل زحف. وهو الذي صبر معه يوم فّر غيره. وهو الذي غسله وأدخله قبره. أخرجه أبو عمر. ولما حضرته الوفاة، قال: اللهم إني أتقرب إليك بولاية علي بن أبي طالب. أخرجه أحمد في المناقب (2). وقيل له: أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط (3). وقال ابن مسعود: أفضى أهل المدينة علي بن أبي طالب (4). وقال سعد بن أبي وقاص -عند ما طلب منه معاوية أن يسب عليا-: أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلن أسبه، لئن تكون لي واحدة منهم أحب إلي من حمر النعم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: «أما ما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى...». وكانت عائشة تقول: علي أعلم الناس بالسنة (5). ودخل عليها جابر بن عبد الله الأنصاري، فقال لها: ما تقولين في علي فأطرقت رأسها ثم رفعتة فقالت: إذا ما التبر حك علي محك تبين غشه من غير شك

وفينا الغش والذهب المصفي علي بيننا شبه المحك

(6) وقال معاوية بن أبي سفيان: لما بلغه قتل الإمام علي عليه السلام: لقد ذهب العلم

ص: 609

1- (1) الرياض النضرة ج 2 ص 257. [1]

2- (2) الرياض النضرة ج 2 ص 227. [2]

3- (3) شرح النهج ج 2 ص 6. [3]

4- (4) الاستيعاب ج 3 ص 41. [4]

5- (5) الاستيعاب بهامش الإصابة ج 3 ص 40. [5]

6- (6) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص 193. [6]

و الفقه بموت ابن أبي طالب. و سئل عطاء: أكان في أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم أحد أعلم من علي قال: و الله ما أعلمه (1). إلى كثير مما لا يصعب على المتتبع الوقوف عليه لاستجلاء الحقائق منه. و إظهار ما خفى على كثير من السذج و البسطاء الذين استولت على شعورهم الدعايات الكاذبة و الأقوال الفارغة. و على أي حال، فإن مسألة التفضيل لم تقم على سند من العلم و البحث أو التفكير السليم، و لم يكن هناك دليل إقناعي أو برهان قاطع، بل المسألة تعود لآراء ذوى السلطة كما تقدم بيانه. و إن الإجماع المدعى لم يحصل إلا في زمن أحمد بن حنبل في عهد المتوكل (2) و قد كانت بشكل حتمي لا ترجع للواقع من حيث هو، و إذا رجعنا لذلك بدون تحيز و تعصب، بل يترك الأمر و حرية الرأي، و يجرى البحث على ضوء الأدلة و الدراسات الصحيحة الخالية من نزعة التعصب و الهوى، و تدخل السياسة لما كان أي شيء و لم يحصل الاختلاف في أفضلية علي عليه السلام على جميع الأمة، كما عليه السلف و أكثر علماء الإسلام، و لكن التدخل في الآراء و المعتقدات من قبل ولاة الأمر أوجد تلك المشاكل، و سلب الناس حرية الرأي، لذلك أصبح الكثير منهم يتكتم في إبداء رأيه لما وراء ذلك من الخطر، كما تحامى أكثر المحديثين ذكر فضائل علي و أهل بيته، و تركوا الرواية عنهم. و يذكر ابن حجر القول في ذلك: و كان سبب ذلك بغض بني أمية، فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يشبهه و كلما أرادوا إخماده و هددوا من حدث بمناقبه لا يزداد إلا انتشارا (3). و يحدثنا الخطيب البغدادي. أن نصر الجهمي المتوفى سنة 250 هـ - حدث عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم أنه: أخذ بيد حسن و حسين فقال: «من أحبني و أحب هذين و أباهما و أمهما كان معي في درجتي يوم القيامة» فلما حدث بهذا الحديث أمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلمه جعفر بن عبد الواحد و جعل يقول للمتوكل: هذا رجل من أهل السنة و لم يزل به حتى تركه.

ص: 610

1-1 (1) كتاب ألف بلاء للبلوي 1 ص 222. [1]

2-2 (2) الاستيعاب ج 3 ص 54.

3-3 (3) الإصابة ج 2 ص 59. [2]

قال الخطيب البغدادي: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضيا، فلما علم أنه من أهل السنة تركه (1). و من هذا نعرف عظيم الخطر الذي تلاقيه الشيعة أو الروافض، كما يقولون، فقد أصبح في عرف أهل ذلك العصر أن من روى منقبة لعلي وأهل بيته يعد رافضيا، وكم اتهم بذلك من العلماء فأصبحوا عرضة للبلاء، و محلا للنقمة، و ما أكثر الشواهد على تأثر المجتمع بتلك النزعة السياسية، فلا نستغرب تلك الأقوال التي كان يتخذها أصحابها ضد أهل البيت و شيعتهم وسيلة للنجاة و طريقا لاستمالة قلوب ولاة الأمر إرضاء لهم، و إن غضب الله عليهم بما يفترون.

### خلاصة البحث في مسألة التفضيل:

هذا ما تعلق الغرض ببيانه حول مسألة التفضيل. بعد أن وقفنا على رأى مالك بن أنس و انفراده برأى يبعث على الاستغراب، فلا حاجة لنا في الاستمرار برده و مناقشته بعد معرفة الأسباب التي دعت لذلك (2)، و إلا- كيف يتساوى عليّ مع سائر الناس؟ بعد اختصاصه بمزيد فضل و علو منزلة لا يدانيه أحد. فقد ربه النبي صلى الله عليه و آله و سلم في حجره و نشأ في ظلمه، و تغذى تعاليمه منه، و نمت مواهبه في تربيته، فتأدب بآدابه، و تخلق بأخلاقه، و اهتدى بهداه، و لازمه طول حياته، و سبق إلى تصديقه في الرسالة قبل كل أحد، و لبي دعوته في مؤازرته يوم نزلت: **وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** [الشعراء: 214] و فداه بنفسه يوم أزمع كفار قريش على قتله و أمره الله بالهجرة (3) و اختص النبي بمؤاخاته من بين أصحابه يوم آخى بينهم، فأخذ بيد علي و قال: هذا أخي (4) و ذلك على سبيل المشاكلة و المجانسة. و على نفس محمد بنص القرآن الكريم، و هو منه بمنزلة رأسه من بدنه. و هو أعلم الأمة و أقضاهم و أقربهم و أشدهم جهادا. قال أبان بن عياش: سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام فقال ما أقول فيه؟ كانت له السابقة و الفضل و العمل، و الحكمة و الفقه، و الرأى و الصحبة و النجدة و البلاء

ص:611

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 13 ص 287. [1]

2-2 (2) سنلتقى في الجزء الثامن مع مالك في تكملة البحث عن رؤساء المذاهب.

3-3 (3) سيرة ابن هشام ج 2 ص 95.

4-4 (4) كنز العمال و الرياض النضرة و تذكرة الخواص و غيرها.

و الزهد و القضاء و القرية إلى أن قال: وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة عليه السَّلَام: زوجتك خير أمتي، فلو كان في أمته خيرا منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله بين أصحابه، فأخى بين عليّ و نفسه فرسول الله خير الناس نفسا و خيرهم أخوا (1). و سأله رجل عن علي أيضا، و كان يظن بالانحراف عنه، فقال: ما أقول في من جمع الخصال الأربع؟ ائتمانه على براءة، و ما قاله له في غزوة تبوك، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه، و قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: الثقلان كتاب الله و عترتي، و أنه لم يؤمر عليه أمير قط. و قد أمرت الأمراء على غيره. و قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: اجتمعت جماعة عند أبي، فخاصوا في الخلافة، فرفع أبي رأسه، و قال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي و الخلافة. إن الخلافة لم تزين عليا. بل عليّ زانها. و عن عبد الله أيضا، قال: سمعت أبي يقول: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما ورد لعلي عليه السَّلَام (2). و لسنا بحاجة إلى ذكر أقوال التابعين و غيرهم من العلماء في مدح عليّ و فضله. و نكتفي بهذه النظرة الخاطفة و لا يمكن التوسع في ذلك. و قصارى القول في مسألة التفضيل: أنها أهم مسألة و أعظم مشكلة. و قد اتخذها-خصوم الشيعة في عصر احتدام النزاع بين الطوائف-ذريعة للوقوع فيهم، و الطعن في عقائدهم، و أصبحوا بتقديمهم عليا عليه السَّلَام مبتدعة لا تحل الرواية عنهم، و هم-في نظر طائفة من السلف-كفار لا يجوز الأخذ عنهم (3). و قالوا: إن من يقدم عليا على عثمان فهو من أهل البدع. و إنه لمما يثير الأسي و الشجون أن يضطر المسلم إلى النقاش و إيراد الأدلة و الحجج في هذه المسألة التي تتظافر على تأكيدها الحقائق التاريخية و الشرعية و من المؤلم أن ينساق مسلم إلى ما اختلقتة الأغراض و ادّعتة القوى التي هدم الإسلام عزّها في الجاهلية و نالها على يد الإمام علي ما نالها من ويلات و ليسأل من استسلم

ص:612

1-1) ابن أبي حديد ج 1 ص 369. [1]

2-2) مناقب أحمد لابن الجوزي ص 163.

3-3) الكفاية للخطيب البغدادي ص 48.

للاختلافات و الادعاءات ما للغير فى أن يحتل على ما أراه الله له و رسوله؟ و لو أن قريشا تخلت عن أحقادها و لم تخضع للموتورين منها هل ستكون هذه القضية بمثل هذه الخطورة و المشكلة بمثل هذه الصورة و تصبح من المرتكزات. لكنها الجاهلية التى استسلمت للإسلام لتسلم رءوسها و كانت أمية تقودها، و بواعث الملك و التسلط لذلك كان قول أحمد بن حنبل و قد سأله ولده عن على و معاوية: «اعلم أن عليا كان كثير الأعداء ففتش له أعداؤه شيئا فلم يجدوا فجاءوا إلى رجل قد حاربه و قاتله فأطروه كيذا منهم له» (1). و فى قوله ما يصف سنة العداة التى اتبع بها العباسيون أسلافهم من الحكام و جهود زبائنتهم. هذا ما أردنا بيانه حول مسألة التفضيل التى هى من أهم المشاكل- كما قدمنا- و بيان رأى مالك بن أنس، و بهذا تنتهى دراستنا لحياة مالك، و بيان آرائه، و لنا عودة للبحث عنه إن شاء الله فى الأجزاء القادمة. و حيث كنا على موعد مع القراء- فى آخر الجزء الأول- بأن نتعرض للبحث عن اتهام الشيعة فى الطعن على جميع الصحابة، أو تكفيرهم أجمع (و العياذ بالله). و لمناسبة الموضوع نتحول لموضوع الشيعة و الصحابة و سنتعرض لما أثير حول الشيعة من زوايع التهم و ما لفته خصومهم من ادعاءات كاذبة و أقوال فارغة، و من الله نطلب التسديد، و هو ولى التوفيق.

ص: 613

1-1) انظر شرح الهمزية لابن حجر الهيتمى ص 239.





إن موضوع الحديث عن عقيدة الشيعة في الصحابة هو أهم موضوع نريد أن نتحدث عنه، و كان بوجدنا التجنب عن ذلك و لكن من شرط هذا الكتاب هو التعرض لكل ما له علاقة بمذهب أهل البيت، و سائر المذاهب فإن هذه المسألة من أهم المسائل التي كانت ذريعة لمعارضة مذهب أهل البيت و انتشاره. فقد نسبوا إلى الشيعة ما لا يتفق مع الواقع في اعتقادهم حول الصحابة. و تقولوا عليهم بأنهم (أى الشيعة) يكفرون جميع الصحابة-و العياذ بالله-و أنهم لا يعتمدون على أحاديثهم، و يطعنون فيهم إلى غير ذلك. و جعلوا ذلك أساسا لقاعدة بنوا عليها الحكم بالزندقة و حلية إراقة الدماء فقالوا: من طعن في الصحابة فقد طعن على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و من طعن على رسول الله فهو زنديق. و قالوا: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب محمد فاعلم أنه زنديق، و جعلوا الخوض فيما جرى بين الصحابة و حرية الرأي في مناقشتهم هو انتقاص لهم. فلندرس هذا الموضوع بدقة، و رجاؤنا معقود على إيلاء هذه الدراسة جل عنايتها، و إعطائها وجهة النظر بصورة خاصة، لأن اتهام الشيعة بسب الصحابة، و تكفيرهم أمر عظيم، و معضلة شديدة اتخذها خصوم أهل البيت وسيلة للقضاء على مبادئهم و انتشار مذهبهم، عند ما بان عجزهم عن اللحوق بهم. و قد تدخل الدخلاء و أعداء الإسلام في اتساع شقة الخلاف بين صفوف الأمة ليجدوا طريقهم لبث آرائهم الفاسدة، حتى أصبح من المقرر في تلك العصور تكفير الشيعة و إبعادهم عن ذلك المجتمع، كل ذلك مبعثه آراء السلطة و أغراضها التي قضت على الأمة بكبت الشعور،

وكم الأفواه وسلب الأفراد حرية الرأي لأن الجمود الفكرى هو الذى يخدم مصالحهم، عند ما حاولوا ربط العقائد بالدولة وإناطة الآراء بما تراه السلطة لا غير، وفرضوا ربط التعليم بهم، وضربوا سلطانهم على بعض العلماء، ووجهوهم حيث شاءت إرادتهم، إلى غير ذلك من المحاولات التى كانوا يقصدون بها القضاء على أهل البيت ومعارضة مذهبهم ولكن شاء الله أن تذهب تلك المحاولات أدراج الرياح، و يبقى ذكر أهل البيت على ممر الدهور والأعوام، ولم تقف تلك الدعايات الكاذبة والتهم المفتعلة أمام انتشاره، وإن اتهم الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم أمر عظيم حاول خصومهم فيه تشويه سمعتهم، لأنهم خصوم الدولة وأنصار أهل البيت ونحن لا نريد أن نرغم خصوم الشيعة على الاعتراف بالأخطاء التى ارتكبوها فى تعبيرهم عنهم بعبارات التهجم التى تشتمز منها النفوس، وتنفر منها الطباع. ولا نريد منهم أن يغالطوا أنفسهم فى مجاراتهم للأوضاع الحاضرة. ولا نريد منهم أن يتركوا الخطأ الذى وقفوا عليه فى زاوية الإهمال، ولا إسدال الستر على العيوب التى عثروا عليها فى المجتمع الشيعى. والنقص الذى لمسوه. ولكننا نريد منهم أن لا يكذبوا أو يتقولوا. ونريد منهم أن يتحرروا من تقليد أقوام أعمتهم المادة وأخضعتهم السلطة، فحملتهم على الافتعال والأكاذيب. ونريد منهم أن يصرحوا لنا بلغة العلم والمنطق الصحيح عن الأمور التى استوجبت أن يرتكبوا من الشيعة ما ارتكبوه، وليحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب، إن أهملوا محاسبة الوجدان والضمير الحر. ونريد منهم أن يصرحوا لنا عن نقاط الضعف التى وقفوا عليها فيما تدعيه الشيعة فأباح لهم ذلك التهجم، وليقولوا بكل صراحة فإننا نتقبل قول الحق، ولا يهيم الشيعة أقوال أهل التهريج والهوس، ولا يعبتون بأقلام المستأجرين من قبل أعداء الإسلام الذين عظم عليهم انتشاره وأخضعهم بقوة برهانه، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فالتجئوا إلى لغة الدس والخيانة. ونريد منهم أن يتنبهوا رويدا إلى التباين بين ما يدعونه أو يفتعلونه على الشيعة وبين الواقع. ونريد من الباحث أن يتحرى ببحثه الدقة والتمحيص وأن يتثبت قبل الحكم، وأن يعرف الخطر الذى ينجم من وراء ذلك، فقد بلغ الأمر إلى أشد ما يكون من الخطورة.

و من المؤلم أن تروج هذه الدعايات المغرضة أو الأكذوبة الكبرى فتصبح من الأمور المسلمة بها لا تحتاج إلى نقاش، و الواقع أن اتهام الشيعة كان سياسيا قائما على مخالفة الواقع و إنكار الحقائق و الجهل الفاضح. <الشيعة و الصحابة: > نحن أمام مشكلة كبرى، وقف التاريخ أمامها ملجما و اختفت الحقيقة فيها وراء ركام من الادعاءات الكاذبة، و الأقوال الفارغة فالتوت الطرق الموصلة إليها. كما أثرت حولها زوايع من المشاكل و المالبسات. و لم تعالج القضية بدراسة علمية ليبدو جوهر المسألة واضحا و تظهر الحقيقة كما هي. و على أى حال فقد تولع كثير من المؤرخين بدم الشيعة، و نسبت أشياء إليهم بدون تثبت، فهم يكتبون بدون قيد و شرط، و يتقولون بدون وازع ديني أو حاجز وجداني، و قد اتسعت صدور الشيعة لتحمل أقوالهم، بل تقولوا تههم كما اتسعت سلة المهملات لقبر شخصياتهم، و ترفعوا عن المقابلة بالمثل، و إن أهم تلك التهم هي مسألة الصحابة و تكفيرهم (و العياذ بالله) مما أوجب أن يحكم عليهم بالكفر و الخروج عن الإسلام كما يأتي بيانه. قال السيد شرف الدين: «إن من وقف على رأينا فى الصحابة علم أنه أوسط الآراء إذ لم نفرط فيه تفریط الغلاة الذين كفروهم جميعا، و لا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثقوهم جميعا، فإن الكاملة و من كان فى الغلو على شاكلتهم قالوا: بكفر الصحابة كافة، و قال أهل السنة بعدالة كل فرد ممن سمع النبى أوراها من المسلمين مطلقا، و احتجوا بحديث «كل من دب أو درج منهم أجمعين أكتعين». أما نحن فإن الصحبة بمجردنا و إن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هي من حيث هي غير عاصمة، فالصحابه كغيرهم من الرجال، فيهم العدو و هم عظماءهم و علماءهم، و فيهم البغاة و فيهم أهل الجرائم من المنافقين، و فيهم مجهول الحال، فنحن نحتج بعدولهم و تتولاهم فى الدنيا و الآخرة. أما البغاة على الوصى و أخى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و سائر أهل الجرائم كابن هند، و ابن النابغة، و ابن الزرقاء، و ابن عقبة، و ابن أرتاة، و أمثالهم فلا كرامة لهم و لا وزن لحديثهم، و مجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين أمره.

هذا رأينا في حملة الحديث من الصحابة و الكتاب و السنة بنينا على هذا الرأى كما هو مفصل فى مظانه من أصول الفقه. لكن الجمهور بالغوا فى تقديس كل من يسمونه صحابيا حتى خرجوا عن الاعتدال، فاحتجوا بالغث منهم و السمين، و اقتدوا بكل مسلم سمع من النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو رآه اقتداء أعمى، و أنكروا على من يخالفهم فى هذا الغلو، و خرجوا فى الإنكار على كل حد من الحدود. و ما أشد إنكارهم علينا حين يروننا نرد حديث كثير من الصحابة مصرحين بجرحهم أو بكونهم مجهولى الحال عملا بالواجب الشرعى فى تمحيص الحقائق الدينية و البحث عن الصحيح من الآثار النبوية. و بهذا ظنوا بنا الظنون فاتهمونا بما اتهمونا رجما بالغيب و تهافتا على الجهل. و لو ثابت إليهم أحلامهم و رجعوا إلى قواعد العلم لعلموا أن أصالة العدالة فى الصحابة مما لا دليل عليها، و لو تدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحونا بذكر المنافقين منهم. و حسبك منه سورة التوبة و الأحزاب. . .

## مسألة الصحابة:

### إشارة

و على أى حال فإن فروض المسألة ثلاثة: الأول: أن الصحابة كلهم عدول أجمعين، و ما صدر منهم يحتمل لهم، و هم مجتهدون. و هذا هو رأى الجمهور من السنة. الثانى: أن الصحابة كغيرهم من الرجال و فيهم العدول، و فيهم الفساق، فهم يوزنون بأعمالهم، فالمحسن يجازى لإحسانه، و المسىء يؤخذ بإساءته. و هذا رأى الشيعة. الثالث: أن جميع الصحابة كفار- و العياذ بالله- و هذا رأى الخارجين عن الإسلام و لا يقوله إلا كافر، و ليس من الإسلام فى شىء. هذه ثلاثة فروض للمسألة و هنا لا بد أن نقف مليا لنفحص هذه الأقوال: أما القول الثالث فباطل بالإجماع و لم يقل به إلا أعداء الإسلام أو الدخلاء فيه. و أما القول الأول و هو أشبه شىء بادعاء العصمة للصحابة، أو سقوط التكاليف عنهم، و هذا شىء لا يقره الإسلام، و لا تشمله تعاليمه. بقى القول الوسط و هو ما تذهب إليه الشيعة، من اعتبار منازل الصحابة حسب الأعمال، و درجة الإيمان و ذلك:

إن الصحبة شاملة لكل من صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو رآه أو سمع حديثه، فهي تشمل المؤمن والمنافق، والعادل والفاسق، والبر والفاجر، كما يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك عند ما أخبره جبرئيل بما قاله المنافقون: إن محمداً يخبر بأخبار السماء ولا يعلم الطريق إلى الماء، فشكا ذلك إلى سعد بن عبادة فقال له سعد: إن شئت ضربت أعناقهم. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا». فالصحبة إذن لم تكن بمجرد عاصمة تلبس صاحبها ابراد العدالة، وإنما تختلف منازلهم وتتفاوت درجاتهم بالأعمال. ولنا في كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كفاية عن التمثل في الاستدلال على ما نقوله، والآثار شاهدة على ما نذهب إليه، من شمول الصحبة وإن فيهم العدول من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ورسخت أقدامهم في العقيدة، وجرى الإيمان في عروقهم، وأخلصوا لله فكانوا بأعلى درجة من الكمال، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا بِهِمْ وَمِنْ فِيهِمْ فِئَةٌ مَعَهُمْ مِنَ الَّذِينَ اسْتَدَلُّوا عَلَى سُبُلِهِمْ فِي السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (1). وهم المؤمنون: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (2). وقد أمر الله تعالى باتباعهم والافتداء بهم بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (3). هؤلاء هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن يستطيع أن يقول فيهم ما لا يرضى الله تعالى ويخالف قوله.

ص: 619

1-1 (1) سورة الفتح، آية: 29. [1]

2-2 (2) سورة الحجرات، آية: 15. [2]

3-3 (3) سورة التوبة، آية: 119-100. [3]

كما أن الصحبة تشمل من مردوا على النفاق، و الذين ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا لرسول الله الأمور، و أظهروا الغدر، حتى جاء الحق و ظهر أمر الله و هم كارهون. و فيهم من كان يؤذى رسول الله و قد وصفهم الله بقوله: وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ (1)، إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا، وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. و فيهم المخادعون و الذين يظهرون الإيمان و قد وصفهم الله تعالى بقوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (2)، وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (3). وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَمُنَّا مِنْ فَضْلِهِ لَنْصَدَّقَنَّهُ وَ لَنْكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ. فَاعْتَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (4). و الحاصل أن الصحبة منزلة عظيمة، و فضيلة جلييلة، و هي بعمومها تشمل من امتحن الله قلبه للإيمان، و أخلص لله، و جاهد و ناصر، و من رقى درجة الكمال النفساني. فكان مثالا لمكارم الأخلاق، و هم يخشون الله و يمشلون أوامره، كما وصفهم تعالى بقوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (5). كما أنها لم تشمل من لم يدخل الإيمان قلبه يقولون بِاللَّسْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ (6).

ص:620

1-1 (1) سورة التوبة، آية:61. [1]

2-2 (2) سورة البقرة، الآيتان:8 و 9. [2]

3-3 (3) سورة البقرة، آية:14. [3]

4-4 (4) سورة التوبة، الآيات:75-77. [4]

5-5 (5) سورة الأنفال، الآيات:2-3-4. [5]

6-6 (6) سورة الفتح، آية:11. [6]

و من الحقيقة، التي تتجلى بسهولة لكل من نزع عن عينيه التعصب و تمرد على تأثير الدعايات و إيحاءات الباطل، أن شروط الصحة و صفات المؤمن التي نص عليها القرآن و خصائص القرب من الرسول الأعظم لم تكن تشمل كل أفراد عصر الرسالة، فإن المغالاة في التعميم تقوم على غرض لا- يختلف في شىء عن الغرض الذي أعيى الحكام الظلمة تحقيقه و هم يواجهون أهل البيت بمكانتهم و عظيم منزلتهم بين الناس باعتبار الأئمة منهم أهل الولاية الشرعية و نواب صاحب الرسالة و الأوصياء المؤتمنين على أمور الدين و الرعية فكانت مسألة تقديس كل من ضمته تسمية الصحة بعد توسيعها و تعميمها هي مضاهاة منزلة أهل البيت و عدم تمييزهم و إرغام الناس على عدم ذكر الحقائق و الأحداث إذ كانت العملية تنص على التقديس بغض النظر عن الأفعال، فكم شملت الصحة أناسا ما زال التاريخ يذكر ما اقترفوه، و ما زالت أفعالهم مثالا- للظلم، و ما ذا نصنع بما نص عليه القرآن من ذكر المنافقين؟ و ما أثبتته التاريخ من أفعال، كذلك فإن الجانب الآخر لعملية التقديس يتفق مع روح الحكام في تحجير الأفهام و تقييد حرية الفكر، إذ فرضت العملية تلقى ما صدر عن الذين شملتهم عملية توسيع الصحة بالقبول، و إن ما كان منهم ليس لأحد قدرة على أن يرقى إليه فهو في أعلى مستوى من الكمال، مهما كانت مؤاخذات الواقع، و ناهيك بما في هذا من استهانة بنعمة العقل التي ركبها الله للإنسان، ثم كان ادعاء العصمة. ليت شعري ما هذه العصمة، أكانت في حياة النبي صلى الله عليه و آله و سلم أم بعده؟! فإن كانت في حياته فما أكثر الشواهد على نفي ذلك: أخرج البيهقي بسنده عن أبي عبد الله الأشعري عن أبي الدرداء قال: قلت: يا رسول الله بلغني أنك تقول: ليرتدن أقوام بعد إيمانهم. قال صلى الله عليه و آله و سلم أجل و لست منهم (1). و من الغريب أن البعض علل ذلك بأن المراد من هؤلاء المرتدين، هم الذين قتلوا عثمان، و أن أبا الدرداء مات قبل قتل عثمان، و بهذا التأويل يتوجه الطعن على أكثر الصحابة، فإنهم اشتركوا بقتل عثمان، و المتخلفون عن ذلك عدد لا يتجاوز أصابع الكف. و بمقتضى هذا التأويل يدخل في قائمة الحساب عدد كثير هو أضعاف

ص: 621

ما فى قائمة الشيعة من المؤاخذات. و من الشواهد على نفى العدالة فى زمان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. 1- كان رجل يكتب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و قد قرأ البقرة و آل عمران، فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يملى عليه غفورا رحيمًا، فيكتب عليهما حكيمًا فيقول له النبي: اكتب كذا و كذا. فيقول: أكتب كيف شئت، و يملى عليه عليهما حكيمًا فيكتب سميعًا بصيرًا و قال: أنا أعلمكم بمحمد. فمات ذلك الرجل فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: الأرض لا تقبله. قال أنس: فحدثني أبو طلحة، أنه أتى الأرض الذى مات فيها الرجل، فوجده منبوذا فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل؟ قالوا: دفناه مرارا فلم تقبله الأرض. قال ابن كثير: و هذا على شرط الشيخين و لم يخرجاه (1). 2- و هذا الوليد بن عقبة بن أبى معيط الذى سماه الله فاسقا حينما أرسله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على صدقات بنى المصطلق فعاد و أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنهم خرجوا لقتاله فأراد أن يجهز لهم جيشا فأنزل الله فيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ. . الآية [الحجرات:6] فقد كان فى عداد الصحابة فأين العدالة من الفاسق؟! (2). 3- و هذا الجعد بن قيس أحد بنى سلمة نزلت فيه: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذَنْ لِي وَ لَا تَقْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (3). 4- و هذا مسجد ضرار و ما أدراك ما مسجد ضرار قد بناه قوم، و سمو بالصحبة يتظاهرون فيه بأداء الصلاة فى أوقات لا يسعهم الوصول إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و لكن فضح الله سرهم و أبان أمرهم فهم منافقون. و أنزل الله فيهم: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَ اللَّهُ يَسْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (4) و كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين منهم خدام بن خالد بن عبيد، و من داره أخرج المسجد، و معتب بن قشير، و أبو حبيبة بن أبى الأزعر و غيرهم (5).

ص:622

1-1 (1) تاريخ ابن كثير ج 6 ص 170.

2-2 (2) تفسير ابن كثير ج 4 ص 212. [1]

3-3 (3) سيرة ابن هشام ج 2 ص 332. [2]

4-4 (4) سورة التوبة، آية:107. [3]

5-5 (5) سيرة ابن هشام ج 1 ص 341 و [4] تفسير ابن كثير ج 2 ص 388. [5]



6- وهذا ثعلبة بن حاطب بن عمر بن أمية ممن شهد بدرًا وأحدًا، فقد منع زكاة ماله، فأنزل الله فيه: **وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (1)**. وكان ثعلبة هذا من الصحابة ملازما لأداء الصلاة في أوقاتها، وكان فقيرا معدما، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ادع الله لى أن يرزقنى مالا فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ويحك يا ثعلبة قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه فقال ثعلبة: والذى بعثك فى الحق نبيا لأن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم ارزق ثعلبة مالا، فزاد وفره وكثر ماله و امتنع من أداء زكاته فأعقبه نفاقا إلى يوم يلقاه بما أخلف وعده وكان من الكاذبين. 7- وهذا ذو الثدية كان فى عداد الصحابة متنسكا عابدا، وكان يعجبهم تعبده واجتهاده فأمر النبى بقتله وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنه لرجل فى وجهه لسفعة من الشيطان، وأرسل أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلى رجع و أرسل عمرا فلم يقتله ثم أرسل عليا عليه السلام فلم يدركه (2) وهو الذى ترأس الخوارج وقتله على عليه السلام يوم النهروان. 8- وهؤلاء قوم وسموا بالصحبة كانوا يجتمعون فى بيت سويلم يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمر من أحرق عليهم بيت سويلم (3). 9- وهذا قرمان بن الحرث شهد أحدا وقاتل مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم قتالا شديدا، فقال أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما أجزأنا أحد كما أجزأنا فلان فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: أما إنه من أهل النار، ولما أصابته الجراحة و سقط فقتل له: هنيئا لك بالجنة يا أبا الغيداق. قال: جنة من حرمل والله ما قاتلنا إلا على الأحساب (4). 10- وهذا الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس طريد رسول الله ولعينه وهو والد مروان وعم عثمان. حدث الفاكهى بسند عن الزهرى وعطاء الخراسانى أن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم

ص: 623

1-1 (1) الاستيعاب بهامش الإصابة ج 1 ص 201. [1]

2-2 (2) الإصابة ج 1 ص 429. [2]

3-3 (3) سيرة ابن هشام ج 1 ص 332. [3]

4-4 (4) الإصابة ج 3 ص 235. [4]

دخلوا عليه و هو يلعن الحكم فقالوا: يا رسول الله ما باله؟ فقال: دخل علي شق الجدار و أنا مع زوجتي فلانة. و مرّ النبي بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي بإصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغا فزحف مكانه (1) و كان يسمى خيط الباطل و قال صلّى الله عليه و آله و سلّم فيه: و بيل لأمتي مما في صلب هذا. و من حديث عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: أشهد أن رسول الله لعن أباك و أنت في صلبه. 11- و هذه أم المؤمنين عائشة لم يثبت لها صلّى الله عليه و آله و سلّم الإيمان كما حدث كثير بن مرة عنها: أن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: أطعمينا يا عائشة قالت: ما عندنا شيء، فقال أبو بكر: إن المرأة المؤمنة لا تحلف أنه ليس عندها شيء و هو عندها. فقال النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم: ما يدريك أنها مؤمنة؟ إن المرأة المؤمنة في النساء كالغراب الأبقع في الغربان (2). و هذا إنكار من النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم على القطع بالعدالة و الإيمان. و لو كان كما يدعى لقال مؤيدا لقول أبي بكر. نعم إنها مؤمنة و زوجة نبي و من أهل الجنة و لكنه صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يرض بذلك الاعتقاد و إنما الأمور منوطة بالعمل و حسن الخاتمة. و يدل على ذلك أنه صلّى الله عليه و آله و سلّم عاد كعبا في مرضه فقالت أم كعب: هنيئا لك الجنة يا كعب، فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: من هذه المتألية على الله عز و جل. قال كعب: هي أمي يا رسول الله. فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: و ما يدريك يا أم كعب؟ لعل كعبا قال ما لا يعنيه و منع ما لا يعنيه (3). 12- و أخرج النسائي في صحيحه عن ابن عباس في نزول قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْاِنْسَانَ الْاَسْمَاءَ تَأْخِيرِينَ أنه قال: كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حسناء من أحسن الناس، و كان بعض القوم يتقدم لئلا يراها و يستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ليراها. فأنزل الله فيهم ذلك.

ص: 624

1-1 (1) الإصابة ج 1 ص 346. [1]

2-2 (2) علل الحديث لابن أبي حاتم ج 1 ص 439.

3-3 (3) تاريخ بغداد ج 4 ص 273. [2]

13- وأخرج ابن حنبل من طريق ابن عباس وابن عمر أنهما سمعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَنْبَرِهِ يَقُولُ: لِيَنْتَهِينَ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجَمَاعَاتِ أَوْ لِيَخْتَمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لِيَكْتَبَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ (1). 14- وأخرج أحمد في مسنده: عن عبد الله بن مسعود عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَلَأَنَازَعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لِأَغْلِبَنَّ عَلَيْهِمْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّي أَصْحَابِي، يَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ (2). وأخرج عن ابن مسعود أيضا بلفظ: وَإِنِّي مَمْسُكٌ بِحُجُورِكُمْ إِنْ تَهَافَتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافَتِ الْفَرَاشُ (3). وأخرج الترمذي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: وَيُؤْخَذُ مِنْ أَصْحَابِي بِرِجَالِ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشَّمَالِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّي أَصْحَابِي فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَزَالُوا مُرْتَدِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ (4) وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ عَائِشَةَ بَلْفِظٍ: إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ فَوَاللَّهِ لَيَنْقَطِعَنَّ رِجَالُ فَلَأَقُولَنَّ أَيُّ رَبِّي... الْحَدِيثُ. وَأَخْرَجَ مِثْلَهُ مِنْ طَرِيقِ أُمِّ سَلَمَةَ (5). وَلَعَلَّ الْإِسْتِمْرَارَ بِذِكْرِ الشَّوَاهِدِ- وَمَا أَكْثَرَهَا- يَوْجِبُ الْإِطَالَةَ، وَالْإِطَالَةُ تَوْجِبُ الْمَلَلَ، فَلِهَذَا نَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنَ الْبَيَانِ حَوْلَ الشَّوَاهِدِ عَلَى نَفْيِ الْعَدَالَةِ الْمَزْعُومَةِ: «لِكُلِّ مَنْ دَبَّ وَدَرَجَ». وَالحَقُّ أَنَّ الصَّحْبَةَ بِمَا هِيَ فَضِيلَةٌ جَلِيلَةٌ لَكِنَّهَا غَيْرُ عَاصِمَةٍ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْعَدُولَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَالصَّدِيقِينَ، وَهُمْ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ وَحَمَلَةُ الْحَدِيثِ، وَفِيهِمْ مَجْهُولُ الْحَالِ وَفِيهِمُ الْمُنَافِقُونَ وَأَهْلُ الْجَرَائِمِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ

ص: 625

1-1 (1) مسند أحمد ج 5 ص 40. [1]

2-2 (2) مسند أحمد ج 5 ص 231. [2]

3-3 (3) مسند أحمد ج 6 ص 51. [3]

4-4 (4) صحيح الترمذي ج 2 ص 67.

5-5 (5) صحيح مسلم ج 4 ص 65-67.

وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَاءَ نِعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (1) وفيهم من كان يؤذى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (2) فإلى الله نبرأ من هؤلاء و ممن اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (3) و الذين يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَ مَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (4). و الكتاب العزيز يعلن بصراحة عن وجود طائفة تستمع إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لكن طبع الله على قلوبهم لأنهم اتبعوا الهوى فقال تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (5). كما أعلن تعالى لعن طائفة منهم و هم الذين فى قلوبهم مرض و الذين يفسدون فى الأرض و يقطعون أرحامهم أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (6). أجل أين ذهب أولئك بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ و قد جرعه الغصص فى حياته، و دحرجوا الدباب، فهل انقلبت حالهم بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من النفاق إلى الإيمان؟ و من الفساد إلى الصلاح، و من الشك إلى اليقين، فأصبحوا فى عداد ذوى العدالة من الصحابة الذين طبعت نفوسهم على التقى و الورع و عفة النفس و العلم و الحلم و التضحية فى سبيل الله و هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (7). فنحن لا- نرتاب فى ديننا و لا- نخالف قول الحق فى تمييز منازل الصحابة

ص:626

1-1 (1) سورة التوبة، آية: 101. [1]

2-2 (2) سورة التوبة، آية: 61. [2]

3-3 (3) سورة المجادلة، آية: 16. [3]

4-4 (4) سورة النساء، الآيتان: 142 و 143. [4]

5-5 (5) سورة محمد، آية: 16. [5]

6-6 (6) سورة محمد، الآيتان: 23 و 24. [6]

7-7 (7) سورة الحجرات، آية: 15. [7]

و درجاتهم فنتبع الصادقين منهم، و نوالى من اتصف بتلك الصفات التى ذكرها الله ورسوله، كما أنا لا نأتمن أهل الخيانة لله ورسوله، ففى ذلك جناية على الدين و خيانة لأمانة الإسلام و لا نركن لمن ظلم منهم، و لا نود من حاد الله ورسوله. هذا هو قول الحق. و الحق أحق أن يتبع. و قد اختلفوا فى تعريف الصحابة و من هو الصحابى الذى يطلق عليه هذا الاسم و إليك بيان ذلك:

### تعريف الصحابى و نقطة الخلاف:

اختلفت الأقوال فى حد الصحبة و من هو الصحابى فقيل: من صحب النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو رآه من المسلمين، فهو من أصحابه. و إليه ذهب البخارى فى صحيحه و سبقه إليه شيخه على بن المدينى و قال: من صحب النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو رآه و لو ساعة من نهار فهو من أصحابه. و هذا التعريف ينطبق على المرتدين فى حياة النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بعده، و على كل راء له و إن لم يعقل و هذا أمر لا يقره العقل و الوجدان، فإن الردة محبطة للعمل فلا مجال لبقاء سمة الصحبة، و قد ذهب أبو حنيفة إلى الإحباط، و نص عليه الشافعى فى الأم. و قال الزين العراقى: الصحابى من لقي النبى مسلماً ثم مات على الإسلام. و قال سعيد بن المسيب: من قام مع النبى سنة كاملة، أو غزا معه غزوة واحدة. و هذا القول لم يعملوا به لأنه يخرج بعض الصحابة الذين لم تطل مدتهم مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لم يغزوا معه. قال ابن حجر: و العمل على غير هذا القول (1). و حكى ابن الحاجب قولاً لعمر بن يحيى أنه يشترط فى الصحابى طول الصحبة، و الأخذ عنه (2). كما أنهم جعلوا من الصحابة من لم ير النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو مسلم أو له رؤية قصيرة.

ص: 627

[1-1] المواهب شرح الزرقانى 8-26. [1]

[2-2] شرح ألفية العراقى 4-32.

و مهما تكن الأقوال و التعاريف فإن هذا الاسم يطلق على كل من سمع النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو رآه من المسلمين مطلقا و هم كلهم عدول عندهم و ما صدر منهم يحتمل لهم بحجة أنهم مجتهدون. و هذه هي النقطة الجوهرية التي وقع الاختلاف فيها، إذ الشيعة لا يذهبون لهذا القول فلا يثبتون العدالة إلا لمن اتصف بها، و كانت فيه تلك الملكة، و أصالة العدالة لكل صحابي لا دليل عليه، و لا يمكن إثباته. فالشيعة تناقش أعمال ذوى الشذوذ منهم بحرية فكر، و تزن كل واحد منهم بميزان عمله فلا يوادون من حاد الله و رسوله و يتبرءون ممن اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله. و الشيعة لا يخالفون كتاب الله و سنة رسوله و عمل السلف الصالح فى تمييز الصحابة، و من هو مصداق هذا الاسم حقيقة. . . فيكون عمله بحسب قوله و قوله بحسب إيمانه و يجعل بينه و بين شعائر الجاهلية و أحلاف المشركين حاجزا و يلود بأفياء شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله و يتبرأ مما يسىء إلى عقيدته أو يمس إيمانه، و لا يلغى الشيعة قوانين الطبيعة البشرية القاضية بتفاوت مدارك الناس و اختلاف قابلياتهم. و من هذا فتحت على الشيعة باب الاتهامات الكاذبة، التي لفقها خصومهم، و لو كان هناك صباغة إنصاف، و مسكة من عقل، و قليل من تتبع و إعطاء الفكر حريته، لما وقعت تلك الملابس، و حلت تلك المشاكل. و من الغريب أن تتهم الشيعة بسب الصحابة و الطعن عليهم أجمع، و بذرة التشيع نشأت فى مجتمع الصحابة، و منهم أبطال التشيع و حاملو دعوته، و هم الذين عرفوا بالولاء لعلى عليه السلام و ناصروه فى حربه لمن بغى عليه، و هم خيار الأئمة، و سيأتى ذكر بعضهم فى الأجزاء القادمة، كما أن من الغريب أن يطالبوا بمخالفة مقاييس الإيمان و السلوك، و لكن الشيعة يأبون إلا حفظ شرف الصحبة و عدم الإساءة إلى مقام الحظوة عند النبي و الإخلاص له و التمسك بهداه، و إذا طرح علماء السوء أردية التعصب و العداء لتبين لهم أن الشيعة مثال ما قادت إليه عقول الكثير الكثير من رجال السنة كابن عيينة الذى قال: نظرت فى أمر الصحابة و أمر ابن المبارك فما رأيت

لهم عليه فضلا إلا بصحبتهم النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم و غزوهم معه (1). و الشيعة تتحرى التقوى و الاستقامة على أمر محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم.

### موالاة الشيعة للصحابة:

و الشيعة يوالون أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم الذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره الدين، و جاهدوا بأنفسهم و أموالهم. و إن الدعاء الذى تردده الشيعة لأصحاب محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم لهو دليل قاطع على حسن الولاء و إخلاص المودة. نعم إن الشيعة ليدعون الله لأتباع الرسل عامة و لأصحاب محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم خاصة بما ورثوه من أئمتهم الطاهرين، و من أشهر الأدعية هو دعاء الإمام زين العابدين عليه السَّلام فى صحيفته المعروفة بزبور آل محمد الذى يقول فيه: «اللهم و أتباع الرسل و مصدقوهم من أهل الأرض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب و الاشتياق إلى المرسلين، بحقائق الإيمان فى كل دهر و زمان، أرسلت فيه رسولا، و أقمته لأهله دليلا، من لدن آدم إلى محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم، من أئمة الهدى و قادة أهل التقى على جميعهم السلام. اللهم و أصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحابة، و الذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره، و كاتفوه و أسرعوا إلى وفادته، و سابقوا إلى دعوته، و استجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، و فارقوا الأزواج و الأولاد فى إظهار كلمته، و قاتلوا الآباء و الأبناء فى تثبيت نبوته، و الذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، و انتفت منهم القرابات إذ سكنوا فى ظل قرابته، اللهم ما تركوا لك و فيك، و أرضعهم من رضوانك و بما حاشوا الحق عليك، و كانوا من ذلك لك و إليك، و اشكرهم على هجرتهم فيك ديارهم و خروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه. . .» . هؤلاء هم أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم الذين تعظمهم شيعة آل محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم و يدينون بموالاتهم و يأخذون تعاليم الإسلام فيما صح و روده عنهم. و لكن التلاعب السياسى و احتدام النزاع بين الطوائف خلق كثيرا من المشاكل فى

ص: 629

عصور قامت بها فئات لإثارة الفتن حبا للسيطرة وطمعا في النفوذ من باب فَرْق تسد. و صفوة القول إن عصور التلاعب بالمبادئ و التواحن حول بغية ذوى الأطماع قد ولت، و نحن فى عصرنا الحاضر عصر انطلاق الفكر من عقاله و التقدم و الرقى، أ يصح لنا أن نستمر على ضرب وتر العصبية؟ و نظرب لنغمات النزعة الطائفية، و نكرع بكأس الشذوذ عن الواقع، و نهمل ما يجب علينا من مكافحة خصوم الإسلام و أعدائه، فقد وجهوا إلينا سيلا جارفا من الآراء الهدامة و المبادئ الفاسدة. أ ليس من الذوق السليم الترفع عن التعبير بتلك العبارات التى اتخذها ضعفاء العقول، و أهل الجمود الفكرى عند ما يكتبون عن الشيعة فينبزونهم بكل عظيمة، أ ليس من الحق أن يتبينوا من صحة ما يقولون؟ و إن اتهم الشيعة بسب الصحابة و تكفيرهم أجمع إنما هو اتهام بالباطل و رجم بالغيب، و خضوع للعصبية و تسليم لنزعة الطائفية، و جرى وراء الأوهام و الأباطيل.

### الصحابة فى حدود الكتاب و السنة:

و هل تجاوزت الشيعة فى نقد أعمال بعض الصحابة حدود الكتاب و السنة؟ إذ وجدوا فى أعمالهم مخالفة ظاهرة، لا يمكن لها التأويل و التسامح، لأن عموم الصحبة لا يمنحهم سلطة التصرف بالأحكام، و لا تسوغ لهم مخالفة تلك الحدود، و إن الاجتهاد فى مقابلة النص هو فى الحقيقة طرح للأحكام، و نبذ للقرآن وراء الظهور، و إن كثيرا منهم حديثو عهد فى الإسلام. قد ألفت نفوسهم أشياء و طبعت عليها، و من الصعب عليها أن تتحلل منها بسرعة. و ليس من الإنصاف أن يكونوا هؤلاء بمنزلة أهل السبق، و من رسخ الإيمان فى قلوبهم فنشروا الإسلام و حملوا ألوية العدل، و نشروا العقيدة الإسلامية، و جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم و أنفسهم عن نية صادقة، و هاجروا عن إيمان خالص. و قد قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «إنما الأعمال بالنيات، و إنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله، و من كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (1).

ص: 630



وسأله ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما من أحسن منكم فى الإسلام فلا يؤاخذ به، ومن أساء أخذ فى الجاهلية والإسلام» (1). وعن صهيب مرفوعاً: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» (2) وعنه صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ: «من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ومن أساء فى الإسلام أخذ فى الأول والآخر» (3). وعن ابن عمر قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم. من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله» (4). وهكذا يتضح لنا على ضوء الأحاديث النبوية وآى القرآن الكريم مساواة الناس وشمول الأحكام لهم، وأن ثبوت العدالة بالعمل ولا أثر لها بدونه والصحابة هم أولى بتنفيذها، والقول فى اجتهادهم مطلقاً يحتاج إلى مشقة فى الإثبات، والنتيجة عقيمة لا تثمر كثير فائدة، والتأويل فى مقابلة النص معناه طرحاً للأحكام. فلا يصح أن يتأولوها على خلاف ظاهرها ثم يستبيحوا لأنفسهم مخالفة الظاهر منها، بل الأحكام شرعة واحدة بين الناس لتشملهم عدالتها، فلا مجال لأحد عن الخضوع لها وتطبيقها. ولنا فى سياسة الإمام على بن أبى طالب وسيرته فى عصر الخلفاء وفى عصره لأكبر دليل على ما نقول، فقد كان يقيم الحد على من تعدى حدود الله ويعامل كل واحد بما يقتضيه عمله، وبقدر منزلته عند الله تعظم منزلته عنده، وكم كان يدعو على أولئك الذين وسموا بالصحبة وخالفوا كتاب الله وسنة رسوله ونصبوا له الحرب. وقد أعلن عليه السلام البراءة منهم بل أعلن سب بعضهم على منبره لأنهم خالفوا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم. ومن وقف على عهوده عليه السلام لعماله وصاياه لأمرأ جيشه ورسائله لولاية أمره

ص: 631

1-1) صحيح مسلم ج 1 ص 77.

2-2) صحيح الترمذى ج 2 ص 151. [1]

3-3) صحيح مسلم ج 1 ص 77.

4-4) صحيح الترمذى ج 1 ص 365. [2]

يعرف هناك عدم الالتزام بما أُلزموا الأمة به من القيود التي فرضتها ظروف خاصة، و هو القول بعدالة الصحابي وإن ارتكب ما حرم الله. و التحدث عن سيرة عليّ لا يتسع له مجال هذا الموضوع الذي خضناه بهذه العجالة، و الغرض أن أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله و سلم لا بد أن يلتزموا باجتنب ما حرم الله تعالى و يهتدوا بهدى رسوله صلّى الله عليه وآله و سلم و لم يفتحوا المجال لمتأول في مقابلة النص، و للاجتهاد شروط، و لعل في قصة قدامة أكبر دليل على ذلك.

### قدامة بن مضعون:

قدامة بن مضعون بن حبيب المتوفى سنة 36 هـ- كان من السابقين الأولين و هاجر الهجرتين و استعمله عمر بن الخطاب على البحرين، فقدم الجارود سيد عبد القيس على عمر بن الخطاب من البحرين و شهد على قدامة أنه شرب الخمر فسكر، فقال: من يشهد معك، فقال الجارود: أبو هريرة، فقال عمر لأبي هريرة: بم تشهد؟ قال: لم أراه شرب و لكن رأيته سكران يقيء. فقال عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم، فقال الجارود: أقم على هذا حد الله. فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟ فقال: شهيد. فقال: قد أديت شهادتك. ثم غدا الجارود على عمر فقال: أقم على هذا حد الله فقال عمر: ما أراك إلا خصما و ما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود: أنشدك الله. فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوأئك. فقال: يا عمر ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر و تسوأني، فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها- و هي امرأة قدامة- فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة على زوجها. فقال عمر لقدامة: إنى حدّك، فقال قدامة: لو شربت كما تقول ما كان لكم أن تحدوني. فقال عمر: لم؟ قال قدامة: قال الله عز و جل: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا. . . الآية فقال عمر: أخطأت التأويل أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله، ثم أقبل عمر على الناس فقال: ما ترون في جلد قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام مريضا. فسكت على ذلك أياما ثم أصبح و قد عزم على جلده، فقال: ما ترون في جلد

قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام وجعا. فقال عمر: لأن يلقى الله تحت السياط أحب إليّ من أن ألقاه وهو في عنقي، اتتوني بسوط تام. فأمر به فجلد (1). هذه قصة قدامة وإقامة الحد عليه وتأويله فيما ارتكبه ولم نورها لنحط من كرامته أو نطعن عليه في دينه، فله شرف الهجرة والسبق، و لكننا ذكرناها ليتضح لنا عدم صحة ما يقولون بعدم مؤاخذه المتأول وإن خالف الإجماع وما هو معلوم بالضرورة كقضية أبي الغادية و قتله لعمار بن ياسر مع اعترافه بأن ما ارتكبه جريمة توجب دخول النار. وهناك جماعة من الصحابة تأولوا فأخطوا فلم يدرأ تأويلهم الحد لوقوعهم في الخطأ. منهم: أبو جندل و ضرار بن الخطاب و أبو الأزور فقد و جدهم أبو عبيدة قد شربوا الخمر فأنكر عليهم فقال أبو جندل: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا . . . الآية و لم ينفعهم ذلك و أقام عليهم الحد. فأين العدالة من إقامة الحد. و كان عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر بمصر فأقام الحد عليه عمرو بن العاص إلى كثير من ذلك.

### سياسة عمر تجاه بعض الصحابة:

و هذا عمر بن الخطاب لم يثبت العدالة لأبي هريرة عند ما استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله و عدو كتابه، فقال أبو هريرة: لست بعدو الله و لا عدو كتابه و لكن عدو من عاداهما. فقال عمر: من أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، و غلة و رقيق لى و أعطية تتابعت (2). و في لفظ ابن عبد ربه أن عمر دعا أبا هريرة فقال له: علمت أنى استعملتك على البحرين و أنت بلا نعلين، ثم بلغنى أنك ابتعت أفراسا بألف دينار و ستمائة دينار. قال: كانت لنا أفراس تناتجت و عطايا تلاحقت، قال عمر: قد حسبت لك رزقك و مؤونتك و هذا فضل فأده، قال أبو هريرة: ليس لك ذلك. قال: بلى و الله أوجع ظهرى، ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ثم قال: ائت بها. قال: احتسبتها عند الله. قال: ذلك

ص: 633

1-1 (1) الإصابة ج 3 ص 228. [1]

2-2 (2) تاريخ ابن كثير ج 8 ص 113.

لو أخذتها من حلال وأديتها طائعا، أجنّت من أقصى البحرين تجبى الناس لك لا لله ولا للمسلمين؟ ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر، وأميمة أم أبي هريرة (1). هكذا رأينا عمر يقابل أبا هريرة بشدة ويتهمه بخيانة أموال المسلمين وينسبه لعداء الله وعداء كتابه ولا يصدقه فيما يدعيه. ولو كان أبو هريرة عادلا في نظر عمر لصدق قوله. ولقال: أنت عادل أو مجتهد مخطئ، وكذلك موقف عمر مع خالد بن الوليد في جنائته الكبرى مع مالك بن نويرة. ويحدثنا البلاذري أن أبا المختار يزيد بن قيس رفع إلى عمر بن الخطاب كلمة يشكو بها عمال الأهواز وغيرهم يقول فيها: أبلغ أمير المؤمنين رسالة فأنت أمين الله في النهي والأمر

وأنت أمين الله فينا ومن يكن أمينا لرب العرش يسلم له صدرى

فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر

ولا تتسين النافعين كليهما ولا ابن غلاب من سرارة بنى نصر

(2). إلى آخر الرسالة وذكر فيها جماعة من عماله الذين استأثروا بالأموال وجلهم من الصحابة فعاقبهم عمر واتهمهم بالخيانة والخيانة لا تجتمع مع العدالة. ولا نطيل الحديث حول قاعدة أصالة العدالة لكل صحابى أو تأويل الأخطاء لهم على وجه يلزم السكوت عليه. ما ذلك إلا تحد لنواميس الدين ومقدسات الشريعة، ومجادلة بالباطل لحفظ كرامة معاوية وحزبه ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يُجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً (3).

### رواية الصحابي:

وواضح مما تقدم أن الشيعة لا يذهبون إلى عدالة كل من وسم بالصحبة وتحقيقها لا يكون إلا بالعمل الذى يصح أن يتصف الراوى بشروط العدالة المقررة،

ص:634

[1-1] العقد الفريد ج 1 ص 26. [1]

[2-2] فتوح البلدان ص 377. [2]

[3-3] سورة النساء، آية: 109. [3]

و اصاله العدالة فى حق الصحابة لا أصل له و إثبات ذلك يحتاج إلى مشقة و النتيجة عقيمة لا تثبت أى ثمرة هناك. أما السنة فقد أثبتوا العدالة لكل صحابى و استدلوا بأدلة ذكرت فى محلها و مع ذلك فقد اختلفوا، فذهب طائفة إلى عدالة الصحابة أجمع بدون استثناء و آخرون ذهبوا إلى عدالة من لم يلبس الفتنة «أى من حين مقتل عثمان». و ذهبت المعتزلة: إلى فسق من قاتل عليا عليه السلام منهم و حكى ابن الصلاح إجماع الأمة على تعديل من لم يلبس الفتنة. و حكى الأمدى و ابن الحاجب قولاً أنهم كغيرهم فى لزوم البحث عن عدالتهم إلى غير ذلك من الأقوال (1). أما الشيعة فلا يذهبون لعدالة الجميع كما تقدم. فهم يثبتون فى قبول الرواية فلا يروون إلا عن ثقة و لهم شروط مقرررة فى محلها، إذ الحديث هو دستور الإسلام، و منهاج حياة المسلمين الدينية و الاجتماعية، لذلك اجتهد المسلمون فى دراسته من حيث السند و الدلالة. و قد سمعنا و سمع كل أحد تلك التقولات على الشيعة: بأنهم يردون أحاديث الصحابة و لا يأخذون عنهم، و هذا طعن على أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم. و قد ذكر بعضهم أن الشيعة لا يعتمدون على شريعة المسلمين لأنهم يردون أخبار الصحابة إلى غير ذلك من الأقوال بل التقولات. و واضح أن مقتضى تلك الأقوال تهدف لشيء خلاف الواقع اتباعاً لظروف قضت على الأمة بذلك، و لبت شعري أمن الإنصاف و الواقع أن تؤاخذ الشيعة فى التثبت عند قبول الرواية، و هل جاءوا بشيء نكرا إذا لم يقبلوا رواية من اتضح حاله لسوء عمله و مجارة هواه؟ بل ترد أقوالهم و عدم الاعتماد على رواياتهم و لا كرامة. هذا من جهة. و من جهة أخرى أن هناك أمور تقتضى الوقوف عن قبول كثير من الأحاديث من حيث السند و الدلالة، فإن هناك سيلا جارفا يسبق إلى الذهن إنكاره و يقضى العقل السليم برده.

ص:635

و على أى حال فإن رواية الصحابي وقبولها عند الشيعة لم يكن كما يذهب إليه غيرهم من عدم الاعتماد مطلقا. وليس من الحق أن يقال لمن احتاط لدينه و تثبت فى أخذ أحكامه أنه طعن على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإذا أردنا أن ننشئ فى قبول رواية أبى هريرة مثلا و نقف أمام أحاديثه موقف التثبت لاستجلاء الواقع و ظهور الحقيقة يقال هذا طعن على الصحابة. أليس من الحق أن نقف موقف الإنكار على كثرة أحاديثه الهائلة و نساءل عن اختصاصه بمنزلة لم تكن لأحد من الصحابة قط، و هو حديث عهد فى الإسلام. فإنه أسلم بعد خبير فى السنة السابعة، و ذهب إلى البحرين مع العلاء فى السنة الثامنة، و بقى فيها إلى أن توفى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فتكون صحبته أقل من سنتين. فكيف يختص بما لم يختص به من هو أسبق إسلاما، و أكثر ملازمة منه للنبى صلى الله عليه وآله وسلم و أفرغ بالا لقبول ما يسمع؟ فقد كان أبو هريرة مشغولا بسد رمقه، و يصرع من الجوع مرة بعد أخرى، و كان يتعرض للناس يسألهم عن مسائل، و ما كان يقصد إلا أن يتعطفوا عليه بشيء يسد رمقه، لما ذا كانت هذه الكثرة الهائلة عند أبى هريرة دون غيره من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقد كانت كثرة أحاديثه تبعث على الاستنكار و التساؤل، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم 5374 حديثا، و قد أنكر الصحابة عليه ذلك و كذبوه، و كان يعتذر بأن غيره من الصحابة تشغلهم التجارة. روى الأعرج عن أبى هريرة أنه قال: إنكم تقولون ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الأحاديث، و إن أصحابى من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم فى الأسواق، و إن أصحابى من الأنصار كانت تشغلهم أراضيهم و القيام عليها، و إنى كنت امرأ معتكفا أكثر من مجالسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحضر إذا غابوا و أحفظ إذا نسوا (1). و هذا لاعتذار لا يمكن قبوله إذ لم يقبله أصحاب النبى، و قد أنكرت عليه عائشة و ابن عمر، و نهاه عمر بن الخطاب عن الحديث.

ص: 636

إن أبا هريرة يدعى أنه كان معتكفا لا يشغله شىء عن حفظ الحديث، لأنه من أهل الصفة وبالإعراض عن شغله بسد رمقه وكثرة صرعه من الجوع كما يحدث هو عن نفسه، فإننا نسانله عن اختصاصه بذلك ولم يشاركه المعتكفون معه وهم أسبق وأقدم إسلاما، فلم تكن لهم هذه الخصوصية. وإليك أنموذجا عن حديث أهل الصفة. بذكر البعض منهم:

### حديث أهل الصفة:

حجاج بن عمر المازنى الأنصارى شهد صفين مع على عليه السلام له فى الصحاح حديث واحد. حازم بن حرملة الأسلمى له حديث واحد رواه ابن ماجة عن مولاہ أبى زینب. زید بن الخطاب العدوى قتل يوم الیمامة له حديث واحد يرويه عنه ابن عمر. سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له أربعة عشر حديثا انفرد له مسلم بحديث واحد. شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له عند الترمذى حديث واحد. طنخفة-بكسر أوله وإسكان المعجمة-ابن قيس الغفارى مختلف فى اسمه، له حديث واحد أخرجه أصحاب الصحاح. عبد الله بن أنيس أبو يحيى المتوفى سنة 80هـ-بالشام له أربع وعشرون حديثا انفرد له مسلم بحديث واحد. عبد الله بن الحرث بن جزع-بفتح الجيم-الزييدى المتوفى سنة 80هـ-بمصر، وهو آخر من مات بها من الصحابة، له أحاديث قليلة خرجها أبو داود و الترمذى و ابن ماجة. عبد الله بن قرط الثمالى المتوفى سنة 56هـ-له عند أبى داود و النسائى حديث واحد، و لعله حديث المعراج. عقبة بن عامر الجهنى المتوفى سنة 58هـ-له خمس و خمسون حديثا، انفرد البخارى بواحد و مسلم بتسعة، و هو ممن حضر صفين مع معاوية. عمر بن تغلب العبدى له حديثان رواهما عنه البخارى. عمر بن عنيسة السلمى له ثمانية و أربعون حديثا انفرد مسلم بحديث واحد.

عتبة بن عبد السلمى المتوفى سنة 87 هـ - له ثمانية وعشرون حديثا. عتبة بن الندر - بضم النون وفتح الدال المشددة - له حديثان عند ابن ماجة. عياض بن حماد المجاشعي البصرى له ثلاثون حديثا انفرد له مسلم بحديث واحد. فضالة بن عبيد الأنصارى المتوفى سنة 53 هـ - شهد أحدا وبيعة الرضوان، له خمسون حديثا انفرد له مسلم بحديثين. فرات بن حيان العجلي له عند أبي داود حديث واحد، وهو الذى كان عينا لأبي سفيان و حليفه، فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقتله فمر على حلقة من الأنصار وقال: إني مسلم. فقال رجل منهم: يا رسول الله يقول: إني مسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن منكم رجالا - نكلهم إلى إيمانهم منهم الفرات بن حيان». السائب بن خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمر الخزرجى المتوفى سنة 71 هـ، له خمسة أحاديث، وغير هؤلاء من أهل الصفة.

### حديث أبي هريرة:

فهؤلاء كانوا يشاركون أبا هريرة فيما ادعاه من تلك الخصوصية التي امتاز بها على جميع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ضرب الرقم القياسى فى الكثرة وهو فى الدرجة الأولى من الصحابة فى ذلك، مع أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وقد اعتذر عن ذلك بقوله كما أخرجه أحمد فى مسنده: حضرت يوما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجلسا فقال: من بسط رداءه حتى أفضى مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئا سمعه منى، فبسطت بردة على حتى قضى مقالته ثم قبضتها إلى الذى نفسى بيده ما نسيت شيئا سمعته منه (1). ولنا أن نساؤه عن إعراض من كان فى المجلس عن هذه المكرمة، ولأى شىء لم يتسابقوا لهذه الفضيلة؟ أكانوا يشكون بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حاشا وكلا، أم أنهم لم يملكوا رداء يبسطونه كما بسط أبو هريرة رداءه! فهل يصح لنا أن نتساءل عن ذلك، أم لا يسوغ و نرجع إلى العصور الماضية فنسكت خوفا من الوقوع فى الزندقة وليس وراءها إلا السيف والنطع؟

ص: 638



كما حدّث الخطيب البغدادي: ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة: أن موسى لقي آدم فقال: أنت آدم الذى أخرجتنا من الجنة؟ فقال رجل من قريش: أين لقي آدم موسى؟ فغضب الرشيد وقال: النطع و السيف زنديق يطعن فى حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم (1). ومن هذا نعرف شدة الأمر و خطر الموقف، فهذا رجل يسأل عن المكان الذى لقي موسى آدم ليتضح له أمر لعله كان يجهله فلقي ما لقي و طبقت عليه مادة الفناء و هى الاتهام بالزندقة، لأنه يستفسر عن غموض حصل له فى حديث أبي هريرة، فأدت الحالة أن اتهم بالطعن على حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم. فكيف إذا أراد الاستفسار عن حديث أبي هريرة الذى أخرجه مسلم و البخارى: إن جهنم لا تمتلئ حتى يضع الله رجله فتقول قط قط. الحديث (2). إذا لا يصح للمسلم الذى ينزه الله تعالى عن تلك الصفة أن يسأل لأن فى السؤال و تنزيه الله طعن على أبي هريرة، و الطعن على أبي هريرة طعن على النبي. و كيف إذا أراد أن يستفسر عن المحل الذى ينزل إليه الله جل و علا فى سماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل، فقد روى ذلك أبو هريرة كما أخرجه الشيخان (3) إلى غير ذلك من أحاديثه التى يطول الحديث بالتحدث عنها (4). و غرضنا من هذا العرض أن أحاديث أبي هريرة تحوط بها أشواك من التشكيك لحصول تلك الكثرة الهائلة، و لأنه كان أمياً لا يقرأ و لا يكتب، و هو حديث عهد فى الإسلام، و أقل الصحابة صحبة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، فهو يحدث عن وقائع لم يحضرها، و مشاهد لم يشهدها إجماعاً. فمن ذلك ما حدث به عن سهو النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فى الصلاة (و هو منزّه عن ذلك).

ص: 639

1-1 (1) تاريخ بغداد ج 14 ص 7. [1]

2-2 (2) و أخرجه أحمد فى ج 3 ص 314.

3-3 (3) أخرجه البخارى فى باب الدعاء و مسلم فى باب الترغيب فى الدعاء.

4-4 (4) و قد جمع قسماً منها سيدنا الحجة شرف الدين فى كتابه (أبو هريرة) و أعطى صورة صادقة عنه و قد جمع قسماً منها سيدنا الحجة شرف الدين فى كتابه (أبو هريرة) و أعطى صورة صادقة عنه يبحث علمى يتركز على حرية الفكر فكان موضع عناية المفكرين و نال القبول لما فيه من إظهار للحقائق الضائعة.

قال أبو هريرة: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظهر أو العصر فسلم في ركعتين، فقال له ذو اليمين: أنقصت الصلاة أم نسيت؟! وفي لفظ كما أخرجه مسلم: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الحديث. مما يدل على حضوره الواقعة، و مما لا شك فيه أن إسلام أبي هريرة كان بعد خيبر سنة 7هـ و وفاة ذو اليمين في بدر في السنة الثانية. وقد حاولوا التوجيه لذلك و لم يتوجه جواب شاف كما يقول ابن عابدين (1). و يحدث عن رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه دخل عليها و سألها عن فضيلة لعثمان. و رقية ماتت قبل إسلام أبي هريرة في السنة الثالثة من الهجرة. كما أنه لم يكن حاضرا في المدينة و يحدث عن أشياء يدعى أنه اشترك بها كقوله: كنت مع علي عليه السلام حينما بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببراءة (2). و مرة يقول: كنت مع أبي بكر، مع أن التاريخ يشهد بأنه لم يكن حاضرا في المدينة، لأنه كان مؤذنا في البحرين. نسوق هذا من باب المثال للتناقض الذي حصل في روايات أبي هريرة. و نحن إذ نتثبت و نرد الرواية التي ليس لها نصيب من الصحة فإن ذلك مما يوجب الإسلام و يقره العقل. و على أي حال فأبو هريرة هو في الدرجة الأولى من المكثرين. فالوقوف عند تلك الكثرة للتثبت لا يوجب طعنا في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك لا يستوجب أن يقال إن الشيعة لا يعتمدون على أحاديث الصحابة. و لا نريد هنا أن نتحدث عن حديث عبد الله بن عمر و اختصاصه بما لا يكون لأحد من الصحابة، فهو في الدرجة الثانية بعد أبي هريرة، فقد روى 2630 حديثا و هذا لم يكن عند من هو أكبر منه سنا و أشد منه ملازمة، فقد كان حدث السنن لأن

ص: 640

---

1-1) حاشية ابن عابدين على الدر المختار 1-643.

2-2) أخرجه النسائي في الحج.

عمره يوم توفى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يتجاوز العشرين سنة، فهذه الكثرة تبعث على الاستغراب، كما أن هناك أموراً لا تسبغ لنا قبول كثير من رواياته. و التوقف في ذلك لا يدعو إلى الطعن في الصحابة. ولا نريد أن نعتذر عن رد أحاديثه عند الثبوت لمعرفة حاله فإضبارة عمله كافية لكشف الحقيقة. فلنطو صحيفة البحث عن ذلك طلباً للاختصار هنا ونتركه لمحل آخر. أما أم المؤمنين عائشة فلا نريد أن نساير موكب حياتها من البداية إلى النهاية، فاستقصاء البحث يقصينا عن الموضوع (1). و لكننا نريد أن نتحدث عن حديثها بصورة موجزة، فإن لشخصيتها مكانة في المجتمع وأثر في التشريع الإسلامي، وقد اختصت دون سائر أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بكثرة الرواية عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما لا نسبة له بين مجموع رواياتهن ورواياتها، وإليك ما يلي:

### حديث أمهات المؤمنين:

زينب بنت جحش سنة 20 هـ، لها 11 حديثاً. صفية بن يحيى بن أخطب المتوفاة سنة 50 هـ-اتفق مسلم و البخارى على حديث واحد. سودة بنت زمعة المتوفاة في خلافة عمر انفرد البخارى لها بحديث. هند بنت أمية المخزومية وهي آخر أزواج النبي وفاة، لها 378 حديثاً. حفصة بنت عمر بن الخطاب المتوفاة سنة 41 هـ-لها 60 حديثاً. جويرية بنت الحرث المتوفاة سنة 56 هـ-لها أحاديث انفرد لها البخارى بحديثين. رملة بنت أبي سفيان المتوفاة سنة 44 هـ-لها 65 حديثاً. ميمونة بنت الحرث الهلالية المتوفاة سنة 51 هـ-لها 40 حديثاً. عائشة بنت أبي بكر الصديق المتوفاة سنة 57 هـ-لها 2210 أحاديث، فارتفع هذا الرقم و حصول تلك الطفرة في الكثرة يستوجب التريث و الثبوت و عدم الإسراع في

ص: 641

---

1-1) ذكرنا أطوار حياتها و منزلتها في التشريع الإسلامي في كتابنا (عائشة و التشريع الإسلامي) مخطوط.

قبول ذلك، ولا حرج على المفكر لو أعطى النظر حرته مع حصول أشياء تؤيد هذا التفكير من شغلها وشواغلها، وصغر سنها ولعبها باللعب و منادمة صويحباتها (1) والقيام بخدمة البيت إلى كثير من ذلك. فالوقوف هنا لاستجلاء الحقيقة لا يوجب الطعن على أمهات المؤمنين ليستوجب الكفر والخروج عن الدين، على أن هناك شيئاً يدعو إلى التثبت وهو أمر رواة أحاديثها، فإنهم اتخذوا الرواية عنها سبباً للتقرب إلى بنى أمية، وقد طعن على هشام بن عروة وغيره، ممن تقربوا للأمويين بوضع الأحاديث عن عائشة خدمة لمصالحهم. ولا نطيل نقاشنا للأحاديث الواردة عنها التي فيها من الدخل الشائن لروح الإسلام والمنافية لمقام النبي الأعظم، كما يروى البخاري عنها في الأدب المفرد، أنها قالت: كنت آكل حيساً مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت يده إصبعي فقال عمر: خس لو أطاق فيكن ما رأيتك عين (2). أليس في ذلك حط لمقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونقصه؟ وهو الإنسان الكامل والمثل الأعلى لمكارم الأخلاق، أكانت داره أطروقة للذاهب والجائي؟! أم كان يأكل هو وزوجته على قارعة الطريق؟! أم أن عمر كان لا يحترم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيدخل عليه دخول عابر سبيل؟! كل هذا نسكت عنه لا خوفاً من القول بأنه طعن على ما يروى عن عائشة، و الطعن عليه خروج عن ملة المسلمين كما يقولون! ولكن ضيق المجال يحول دون بسط القول في ذلك. أليس لنا حق التثبت بما يروى عن عائشة؟ أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يجمع أهله ثم يكسل هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل (3). كيف يصح هذا؟ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثال الغيرة و مجمع الفضائل والإنسان الكامل، فالعقل يمتنع عن قبوله احتراماً لمقام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لذاته وخلته

ص: 642

1-1 (1) البخاري في الأدب المفرد ص 54.

2-2 (2) الأدب المفرد ص 152. [1]

3-3 (3) البخاري ج 1 ص 161 وصحيح مسلم ج 1 ص 187 و سنن البيهقي ج 1 ص 164.

الشخصية فما بالك إذا كان رسول الله وأمينه على وحيه وخير خلقه؟ وليكن من وراء عدم قبول ذلك اتهام بالكفر ورمى بالزندقة. كما يحق لنا أن نناقش ما يرويه مسلم في صحيحه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: إن النبي كان مسحورا يخيل إليه أنه يفعل الشيء و ما يفعله (1). فسل صحيح مسلم عن صحة ذلك، و سل عروة وابنه إن كنت رجلا لا تخاف الاتهام بالزندقة، وإلا فترك مسؤولية البحث لمن لا يتقيد بالأوهام ولا يخضع لسلطان العاطفة العمياء ولا يبالي بتوجيه التهم ما دمنا محافظين على كرامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن طعنا بألف صحابي و صحابي وكذبنا ألف صحيح وصحيح، حاشا للنبي الأعظم و منقذ الإنسانية و هو الإنسان الكامل في كل صفاته، و هو المثل الأعلى لكل مكرمة، كيف يعتريه النقص و يخيل إليه أنه يفعل الشيء و لا يفعله؟! ليت شعري أيتم نظام العالم و هو مصلحه مع اتصافه بهذه الصفة؟ كلا إنه (ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى). فلنترك مناقشة كثير من الأحاديث و لا نمضى فى هذا الموضوع بأكثر مما ذكرناه، و نكتفى بذكر ما دعت الحاجة إلى عرضه بدون استقصاء فى البحث و لا تتبع شامل لنقاط الموضوع، و غرضنا من ذلك إعطاء صورة عن تلك الاتهامات التى وجهت للشيعة بأنهم لا يأخذون برواية الصحابة. نعم الشيعة لا يأخذون إلا عن الصادقين فى القول، و يتشددون فى قبول الرواية أكثر من غيرهم.

### تهمة سب الصحابة:

إن تهمة سب الصحابة قد استأصل داؤها فعز علاجه، و نفذ حكمها فعظم نقضه، و سرت تلك الدعاية فى مجتمع تسوده عاطفة عمياء و عصبية هوجاء، و قد وقفت الحقيقة أمام ذلك الوضع المؤلم مكتوفة اليد، و أسدلت دونها أبرد التمويه، و أحيطت بأنواع الحواجز و أقيمت فى طريق الوصول إليها آلاف من العقبات و سلاح القوة فوق ذلك، إذ السلطة قررت نظام انطباق الكفر و الزندقة على المعارضين لسياستها، و لم يمكنهم تحقيقه إلا باتهام سب الصحابة أو أبى بكر و عمر بصورة خاصة.

ص: 643

وإذا حاول المفكرون أن يقفوا على حقيقة الأمر و الواقع أخذوا بتلك التهمة و شملهم ذلك النظام الجائر. فكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيا لمذهبه لم تذكر اسم عليّ بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر و عمر. قاله في المنتظم، و قال ابن الأثير في حوادث سنة 407: و في هذه السنة قتلت الشيعة في جميع بلاد إفريقيا و جعل سبب ذلك اتهامهم بسب الشيخين (1). و ما أكثر تلك الفظائع السود الأعمال الوحشية التي وقعت طبقا لنظام السياسة و لا علاقة لها بنظام الإسلام الذي يقضى على مرتكبها بالخروج منه. و إن المسألة مكشوفة لا تحتاج إلى مزيد بيان لشرح الأسباب التي أدت إلى حدوث تلك الحوادث المؤلمة، و ارتكاب تلك الجرائم الفادحة، و معاملة شيعة أهل البيت بتلك المعاملة القاسية. و ليس هناك من شك بأن استقلال الشيعة الروحي و عدم اعترافهم بشرعية سلطان لا يحترم نواميس الدين و لا يلتزم بأوامر الشرع جعلهم خصوما للسلطة. فكانت مشكلة التشيع من أعظم المشاكل التي تواجهها الدولة. فلقيت الشيعة بسبب خصومتها للدولة و معارضتها لحكام الجور انتكاسات في سبيل نشر الدعوة، كما لقيت انتصارات إذ لم تكن تلك الانتكاسات لتعود بهم القهقري، أو تلقى بهم في نطاق الفشل الضيق، و اليأس من المضي في سبيل إظهار عقيدتهم، فقد كان لهم من الحيوية و رسوخ العقيدة ما ساعدهم على المضي في استرجاع مكانتهم في التاريخ، لحمل رسالة يلزمهم أداءها و يجب عليهم مواصلة الكفاح لتحقيقها تلك هي رسالة الإسلام، تحت ظلال دعوة أهل البيت عليهم السلام. فكان لهم الأثر العظيم في نشر الوعي الإسلامي و إطلاق الفكر من عقال الجمود. و على أي حال فإن أعداءهم لم يجدوا حلاً لهذه المشكلة إلا بأن يلصقوا بهم تهماً يتلقاها المجتمع بالقبول، فتوسعوا في التهم و اتخذوا مرتزقة لتحقيق ذلك

ص:644

الغرض، فقالوا: إن الشيعة تكفّر جميع أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ويطعنون عليهم، وبذلك يتوجه الطعن على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنهم يرمون أمهات المؤمنين وغير ذلك. ووضعوا قاعدة قررها علماء سوء وهي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم فاعلم أنه زنديق. وذلك أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة (1). وحكموا على من اتهم بسب الشيخين بالكفر، فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلا الله، ويدفع بالخشب حتى يوارى في حفرته (2). وإنه إذا تاب لا- تقبل توبته بل يجب قتله (3). وقال بعضهم بحرمة ذبيحته وحرمة تزويجه. ومن هذا وذاك سرت فكرة كفر الشيعة، لأن الدولة قضت بنظامها القضاء عليهم، وأن يسندوا ذلك إلى الشرع- وحاشاه من ذلك- ولكن السياسة عمياء، والحق لا قيمة له عند علماء سوء الذين اندفعوا لمؤازرة السلطة وإغواء العامة. ومن الغريب أن بعض أولئك المرتزقة احتاط لدينه واستشكل في تنفيذ ذلك النظام المخالف للشرع، فجاء بحكم جديد فأفتى بوجوب قتل من سب الصحابة سياسيا لدفع فسادهم وشهرهم، وإن كانوا لا يجوزونه شرعا للحديث الشريف: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه (4) خرج جميع الحفاظ وصححوه... هكذا أفتى هذا الماجور. وكم حكمت السياسة على نصوص الشريعة ونسخت أحكامها المقررة لأن السياسة اقتضت ذلك، وعلماء سوء قد فتحوا باب الارتزاق بالدين وأعمتهم المادة واستغواهم شيطان اللذة وحب التمتع بالحياة، فلم يقفوا عند حدود الله، وحكموا بغير ما أنزل الله.

ص: 645

- 
- 1-1 الكفاية للخطيب البغدادي ص 49.
  - 2-2 الصارم المسلول ص 575.
  - 3-3 رسائل ابن عابدين ج 1 ص 364.
  - 4-4 رسائل ابن عابدين ج 1 ص 367.

و طغى طوفان الافتعالات و تلاطمت أمواج الأكاذيب على الله و رسوله من أولئك القوم الذين ساروا على غير هدى، و لم يستمعوا لمرشد و لم يقفوا عند حد، بل الأمر منوط لرأى السلطة كيف شاءت. و نود هنا أن نشير لببذة من بحث للإمام كاشف الغطاء حول ذكر الفروق الجوهرية بين الطائفتين (1). قال رحمه الله-بعد ذكر الاختلاف فى الخلافة-: نعم و نريد أن نكون أشد صراحة من ذلك، و لا نبقى ما لعله يعتلج أو يختلج فى نفس القراء فنقول: لعل قائلاً يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، و قد يتجاوز البعض إلى السب و القدح مما يسهى الفريق الآخر طبعاً و يهيج عواطفهم فيشتد العداء و الخصومة بينهم. و الجواب أن هذا لو تبصرنا به قليلاً و رجعنا إلى حكم العقل بل و الشرع أيضاً لم نجد مقتضياً للعداء أيضاً. أما أولاً: فليس هذا من رأى جميع الشيعة و إنما هو رأى فردى من بعضهم، و ربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف و فى أخبار أئمة الشيعة النهى عن ذلك. فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءات بعض المتطرفين منهم. و ثانياً: إن هذا على فرضه لا- يكون موجبا للكفر و الخروج عن الإسلام، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية و ما أكثر العصاة فى الطائفتين. و معصية المسلمين لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً. و ثالثاً: قد لا يدخل هذا فى المعصية أيضاً و لا يوجب فسقاً إذا كان ناشئاً عن اجتهاد و اعتقاد و إن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع فى باب الاجتهاد أن للمخطئ أجراً و للمصيب أجرين. و قد صحح علماء السنة الحروب التى وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول، كحرب الجمل و صفين و غيرهما، بأن طلحة و الزبير و معاوية اجتهدوا و إن أخطأوا فى اجتهادهم، و لكن لا يقدح ذلك فى عدالتهم و عظيم مكانتهم. و إذا كان الاجتهاد يبرر و لا يستنكر قتل آلاف النفوس و إراقة دمائهم فبالأولى

ص:646

---

1-1) انظر هذا البحث القيم الذى نشرته مجلة رسالة الإسلام تحت عنوان (بيان للمسلمين) ص 227-228 السنة الثانية العدد الثالث.



أن يبرر ولا يستنكر معه (أى مع الاجتهاد) تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة، إلى آخر البحث. وليس فى وسعنا نقل كلمات علماء الشيعة حول هذه النقطة المهمة التى لها أثرها العظيم فى تكدير صفو الأخوة الإسلامية، فأصبحت طريقا لأعداء الدين يدخلون فيه لأغراضهم.

### نهاية البحث:

إن فكرة اتهام الشيعة بسب الصحابة و تكفيرهم -كونتها السياسة الغاشمة، و تعاهد تركيزها أناس مرتزقة باعوا ضمائرهم بئس بخس و تمرغوا على أعتاب الظلمة، يتقربون إليهم بدم الشيعة. و قد استغل أعداء الدين هذه الفرصة فوسعوا دائرة الانشقاق لينالوا أغراضهم، و يشفوا صدورهم من الإسلام و أهله، و راح المهرجون يتحمسون لإثارة الفتن و إيقاد نار البغضاء بين المسلمين بدون تدبر و تثبت، و قد ملئت قلوبهم غيظا. و بفعل السياسة و تحكمها أصبحت الشيعة و هى ترمى بكل عظمة و تهاجم بهجمات عنيفة، و اندفع ذوو الأطماع يعرضون ولاءهم للدولة فى تأييد ذلك النظام و الاعتراف به، و أنه قد أصبح جزءا من حياة الأمة العقلية و هم يخادعون أنفسهم. و لم يفتحوا باب النقاش العلمى و حرّموا الناس حرية القول، و أرغموهم على الاعتراف بكفر الشيعة و الابتعاد عن مذهب أهل البيت عليهم السلام و لو سألهم سائل عن الحقيقة و طلب منهم أن يوضحوا لهم ذلك، فليس له جواب إلا شمول ذلك النظام له، و نحن نسألهم: 1- أين هذه الأمة التى تكفر جميع الصحابة و يتبرّءون منهم؟ 2- أين هذه الأمة التى تدعى لأئمة أهل البيت عليهم السلام منزلة الربوبية؟ 3- أين هذه الأمة التى أخذت تعاليمها من المجوس فمزجتها فى عقائدها؟ 4- أين هذه الأمة التى حرفت القرآن و ادعت نقصه؟ 5- أين هذه الأمة التى ابتدعت مذاهب خارجة عن الإسلام؟ إنهم لا يستطيعون الجواب على ذلك، لأن الدولة قررت هذه الاتهامات فلا

يمكنهم مخالفتها. و لا- يمكن إقناعهم بلغة العلم. و ما أقرب الطريق إلى معرفة الحقيقة لو كان هناك صباغة من تفكير و بقايا من حب الاستطلاع و خوف من الله و حماية للدين. أليس التشيع مبدأ يشمل عددا وافرًا من أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم و هم من البدرين و أهل بيعة الرضوان؟ ممن و الى عليا عليه السلام و يرى أحقيته بالخلافة. أليس من الشيعة علماء اعترف الكل بعلو منزلتهم و غزارة علمهم، و احتاج الناس إليهم، و هم من شيوخ كبار العلماء و رجال الصحاح كأي حنيفة، و الشافعي، و أحمد، و البخاري و غيرهم، و قد خرج أصحاب الصحاح لعدد وافر من رجال الشيعة، يربو عددهم على ثلاثمائة رجل، و لا يسع المقام لنشر أسمائهم فتركهم لفرصة أخرى (1). أليس من الشيعة رجال حملوا رسالة الإسلام و تحملوا المصاعب في أديانهم و منهم حملة فقه لولا هم لصاع الفقه و ذهبت تعاليم الإسلام؟ و إن للشيعة يدا في المحافظة على التراث الإسلامي و صيانته عن تلاعب السياسة.

### التبث قبل الحكم:

لم نسهب في بيان الموضوع عبثا و استطرادا، و لم نقصد به خوض بحث لا علاقة له بموضوع الكتاب، بل الواقع أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب أن نتطرق إليها في هذا الكتاب الذي أقدمنا عليه لبيان مذهب أهل البيت عليهم السلام. فمما لا شك فيه أن أهم مشكلة تقف أمام الباحث هي مسألة اتهام الشيعة بسب الصحابة أو تكفيرهم. و قد بينا مرارا أن ذلك يعود إلى عوامل سياسية لا صلة لها بالواقع، لأن اسم الشيعة ارتبط بآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم و هم أنصارهم و آل محمد هم الشجى المعترض في حلق أولئك الحكام الذين استبدوا بالحكم و جاروا على الأمة، فكان من دواعي السياسة أن تطع في قلوب الناس طابع البغض للجانب الذي ينافسهم و يعارضهم، أو من لا يؤازرهم، و هو يقف موقف المعارضة لأعمالهم.

ص: 648

---

1-1) ذكر منهم سيدنا شرف الدين في كتاب المراجعات مائة رجل. و ذكر العلامة الأميني في كتاب الغدير في ج 3 عددا وافرًا منهم. و بأيدينا قائمة تقارب ثلاثمائة رجل قد اعتمد رجال الصحاح عليهم.

و هل من شك فى معارضة الشيعة و عدم مؤازرتهم الدولة، و إنهم لا يعترفون بشرعيتها فى تلك العصور، لأنهم لا يتنازلون عن الاعتقاد بأحقية أهل البيت للخلافة، لما طبعوا عليه من صفاء النفس و التضحية فى سبيل المصلحة العامة، و هم أولى الناس بالأمر و أعدلهم بالحكم. لذلك نرى أن تشريع نظام الحكم على من اتهم بسب الصحابة يهدف إلى عقاب الشيعة فقط. أما غيرهم فلا يشملهم هذا الحكم و لو كان ملحدا كما مر بيانه. و قد تسرع المخدوعون بالظواهر إلى الاعتراف به، و قاموا بتنفيذه، فحكموا على الشيعة بالفسق مرة و بالكفر أخرى، و لیتهم حددوا لذلك حدا حتى يعرف الناس كيفية المؤاخذه، و لكنهم وسعوا الدائرة و اختلفت الصور، كما أنهم قرروا عدم قبول توبة المتهم بسب الصحابة أو الشيخين بصورة خاصة، و قرروا انطباق الآراء الفردية على مجموع الأمة. من دون تثبيت فى الحكم و تورع فى الموضوع. و لهذا فإن المرتزقة-من العلماء الذين أصبحوا مصدرا للفتوى و حكاما فى السلطة التشريعية-قد أخذوا على عاتقهم مسئولية إغواء العامة و حملهم على خلاف الحق، فكانوا دعاة فرقة و أئمة ضلال فحكموا على الشيعة بالأخص-من دون بيان لمستند الحكم و دليل للفتوى-بأن قتالهم (أى الشيعة) جهاد أكبر، و من قتل فى حربهم فهو شهيد. و يقول فى خاتمة الفتوى: و من شك فى كفرهم-أى الشيعة- كان كافرا. و آخر يقول كما فى الخلاصة: الرافضى إذا كان يسب الشيخين و يلعنهما، فهو كافر، و إن كان يفضل عليا عليهما، فهو مبتدع (1). و هكذا زينوا للناس حب الوقعية بعضهم ببعض، و أباحوا قتل المسلم بيد أخيه المسلم بدون تثبيت فى الحكم و وقوف أمام حرمة ذلك، و ليس غرضهم إلا إرضاء السلطة و إن غضب الله عليهم. و لا حاجة بنا إلى نقل عبارات تعبر عن عقلية قائلها و مقدار إدراكهم للواقع فلا نطيل الوقوف على تلك الخرافات و الأباطيل، فلنسدل الستار عنها و لا بد لنا أن نلحظ نقطتين: الأولى: هل الطعن على مجموع الصحابة موجب لهذه الأحكام القاسية، أم أن

ص:649

هناك فرقا و تمييزا؟ فإن كان هذا الحكم على كل من طعن صحابيا أو وصفه بصفة لا تليق به، فلما ذا لم يحكموا على من طعن على عدد كثير من الصحابة و وصفهم بما لا يليق بهم؟ و هم من كبار الصحابة و أعيانهم، لأنهم أنكروا على عثمان أوضاع بنى أبيه الشاذة و مسيرته لهم، أو خالفوا معاوية بن أبي سفيان. أليس من الطعن و التنقيص و صفهم للصحابة: بأنهم أجلاف أخلاط من الناس، لا شك أنهم مفسدون فى الأرض بغاة على الإمام (1). و يقول ابن تيمية: بأنهم خوارج مفسدون فى الأرض إلى أن يقول: و لم يقتله- أى عثمان- إلا طائفة قليلة باغية ظالمة. و أما الساعون فى قتله فكلهم مخطئون بل ظالمون باغون معتدون (2). و يقول ابن حجر فى وصف المعترضين عليه: إن المجتهد لا يعترض عليه فى الأمور الاجتهادية، لكن أولئك الملاحين المعترضون لا فهم لهم و لا عقل (3). و قد قرروا فى بحث العدالة أن الصحابة عدول إلى وقوع الفتن. أما بعد ذلك فلا بد من البحث عن ليس ظاهر العدالة. هذا هو أحد الأقوال (4). و لا نريد التعرض لجميع الأقوال التى وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا فى معارضة عثمان، و حرصوا الناس عليه، و لكننا نورد بعضا من رأى المعاصر فى هذه القضية و نأخذ قول رفيق بك العظم إذ يقول: « . . . فإن أولئك الثائرين على عماله (عثمان) الناقلين منه مهما كان الدافع لهم إلى ذلك العمل فإن غايتهم التى يقصدون إليها بحسب الظاهر هى العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح و منافع الأمة». و يستطرد فيقول: « . . . فوقوف الناس على أخبارهم (الصحابة) و الأخذ و الرد فيما حدث بينهم يحيى فى القلوب روح الحرية و يبعث على استظهار عامة الناس للحجة التى يصادمون بها الآن الاستبداد من الخلفاء و الملوك الذين حوّلوا الخلافة إلى الملك العضوض و أمعنوا فى التمكن من رقاب المسلمين، و لهذا و لما كثر خوض الناس فى

ص:650

1-1 (1) تاريخ ابن كثير ج 1 ص 176.

2-2 (2) منهاج السنة ج 3 ص 191-206.

3-3 (3) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 68. [1]

4-4 (4) شرح ألفية العراقي ج 4 ص 36.

أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها، فأوعزوا إلى الوضع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنتره وأشباهها في عصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق» (1). وكان من السهل على الأستاذ رفيق بك أن يعلم أعصر وأزمان حركات الوضع والقصاص التي لجأ إليها من ذكرهم من المتسلطين والتي انصبت على الإساءة إلى رموز العدل وأهل الإيمان إلى جانب الأخبار والمغازي. الثانية: إن الشيعة لا تتكتم في بغض من عادى عليا، فإن مبغض علي منافق بنص الحديث الشريف: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» وإن المنافقين لفي الدرك الأسفل من النار، وقد ثبت أن بعض من وسموا بالصحبة كانوا يبغضون عليا عليه السلام ويسبونونه. وقد اشتهر ذلك عنهم: فالله يشهد إنا لا نحبهم لله ما نخشئ في ذاك من غضبا

و بدون شك أن معاوية و حزبه كانت تتجلى بهم صفة البغض لعليّ و أهل البيت أجمع، و قد قابله بالعداء و أعلنوا الحرب عليه. كما أعلن معاوية شتم عليّ و جعله سنة، و تتبع أنصاره من الصحابة و التابعين، فأذقهم أنواع الأذى و المحن، و جرعههم الغصص و قتلهم تحت كل حجر و مدر بما لا حاجة إلى بيانه. على أن أعماله لا يمكن السكوت عنها، و لا طريق إلى حملها على وجه صحيح. و ليس من الإنصاف أن يقال: إن معاوية مجتهد متأول، و قد عطل الحدود، و أبطل الشهود، و قتل النفس المحرمة. و سبى نساء المسلمين، و عرضهن في الأسواق، فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقا اشترت على عظم ساقها (2) إلى كثير من تلك الفظائع و الفجائع. و هذا أبو الغادية الجهني، كان من الصحابة، و ممن سمع النبي صلّى الله عليه و آله و سلم، و روى عنه، و هو أحد رواة حديث «يا عمار تقتلك الفئة الباغية» .

ص: 651

1-1) انظر: عثمان، لمحمد رضا ص 214-215.

2-2) الاستيعاب ج 1 ص 157. [1]

و هو الذى قتل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، وقد أنكر الناس عليه ارتكابه لهذه الجريمة، واعترف هو على نفسه بأنه من أهل النار، و كان يقول: و الله لو أن عمارا قتله أهل الأرض لدخلوا النار (1). فكيف يتهم بالخروج عن الدين من تبرأ من هذا المجرم الذى اعترف على نفسه بأنه عدو الله، و لكن بعض المحدثين تأولوا له ذلك، و أنه مجتهد أخطأ و يلزم حسن الظن بالصحابة (2). و نحن لا نعرف هذا المنطق الذى يقضى بطرح الأحكام، و هجر الكتاب فى جانب حسن الظن بالصحابة و السكوت عما ارتكبه. و هل يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر و موبقاته؟ إذ وسم بالصحبة أيضا، و هو قائد جيش معاوية. و قد ارتكب جرائم لم يشهد التاريخ مثلها فظاعة، حتى أنكرت النساء عليه عند ما دخل اليمن، و قتل الشيوخ و الأطفال و سبى النساء، فقالت له امرأة من كندة: يا ابن اوطاة إن سلطانا لا يقوم إلا بقتل الصبى الصغير و الشيخ الكبير و نزع الرحمة و عقوق الأرحام إنه لسلطان سوء (3). فكيف يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر، و نصم أسماعنا عن صوت ثكلى تردد نغماتها موجات الحق، و ترفع ظلامتها إلى رجال العدل، و تدعو هائمة مذهولة؟ يا من أحس بابنى اللذين هما كالدريتين تشظى عنهما الصدف

يا من أحس بابنى اللذين هما سمعى و عقلى فعقلى اليوم مختطف

من دل والدة حيرى مدلهة على صببين ذلا إذ غدا السلف

نبئت بسرا و ما صدقت ما زعموا من إفكهم و من الإثم الذى اقترفوا

أحنى على و دجى ابنى مرهفة مشحودة و كذاك الإثم يقترف

فهذا صوت يبعث فى القلب شجى، و فى العين قذى، يصدر من أم والهة- و هى زوجة عبيد الله بن العباس- فقدت وليدها و هما قثم و عبد الرحمن. أخذهما بسر بن أوطاة و هما صغيرين، فذبهما بين يدي أمهما، فهامت على وجهها مذهولة،

ص: 652

1-1 (1) أسد الغابة 5-267. [1]

2-2 (2) الإصابة 4-151.

3-3 (3) الكامل لابن الأثير ج 3 ص 195. [2]

فكانت تأتي الموسم وتشد هذا الشعر وتهيم على وجهها (1). إذا فليس من أنصاف الحق أن يؤاخذ المسلم عند ما يغضب لسماع صوتها وينسب الظلم لمن قتل ولديها فيرمى بالزندقة والإلحاد لأنه طعن على معاوية، إذ القتل بأمره وهو صحابي، وله في ذلك اجتهاد مقبول أو تأويل صحيح، إذا ليجرى معاوية في ميدان الحياة وليفعل ما شاءت له نفسه، فقد ضربت الصحبة عليه حصانة لا يمكن مؤاخذته فليأمن من كل خطر و ليسفك الدماء، وليقتل على الظنة والتهمة، فقد انهارت الحواجز كلها في وجهه واندكت العقبات أمامه، فلا تشمله تلك النظم والأحكام التي قررها الشارع المقدس، وفيها سعادة البشر ونظام الحياة، لأنه صحابي وله حرية التصرف في الأحكام. ولو كان له ذلك لما أنكر الصحابة عمله، وفي طليعتهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري، فقد أعلن للملأ انحراف سيرة معاوية ومخالفته لنظم الدين. وقد أنكرت عائشة على معاوية قتله لحجر وأصحابه وغضبت عليه ومنعته من الدخول عليها ولم تقبل بأعداره إذ قال: إن في قتلهم صلاحاً للأمة، وفي مقامهم فساداً للأمة فقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سيقتل بعداء الناس يغضب الله لهم وأهل السماء (2). وكثر الإنكار على معاوية لما ارتكبه من الأعمال ولا يتسع المجال للإسهاب في هذا الموضوع. وخلاصة القول أن الصحبة بشروطها في الإخلاص في الدين والولاء في الإسلام وليست منزلة توجب العصمة وتلزم الاعتراف بالتفرد دون نظر وتدقيق، قال سفيان بن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر بن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم و غزوهم معه (3). فليست مقرونة بمواهب خارقة وخصال خاصة وقد تكون اصطحاباً بلا أثر وغزواً في الظاهر، وفي السريرة أغراض نفع و رياء فعن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام

ص: 653

- 
- 1-1) الاستيعاب ج 1 ص 156 و [1]الكامل لابن الأثير ج 3 ص 195.  
2-2) تاريخ ابن كثير 8/55.  
3-3) صفة الصفوة لابن الجوزي ج 1 ص 111 و [2]تاريخ ابن كثير.

وأنفق الكريمة واجتنب الفساد فإن نومه ونبهته أجر كله، وأما من غزارياء وسمعة وعصى الإمام وفسد في الأرض فإنه لا يرجع بالكفاف (1). فإذا كان ذلك في حياته عليه أفضل الصلاة والسلام فما ظنك بعد أن قبض صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أولئك-كما روى عن ابن مسعود وأنس وآخرين: «يرفع إلى أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: بعدا وسحقا». وسنعود إن شاء الله تعالى للبحث عنه مرة أخرى في الأجزاء القادمة. وها نحن أولاء نعيد تأكيد الطلب من الكتاب الذين يهمهم خدمة الحق وإظهار الحقيقة، أن يتثبتوا قبل الحكم حول تلك الاتهامات الموجهة إلى الشيعة (2) وأن يستعملوا لغة المنطق ولا يخضعوا للتقاليد واستعمال الأقيسة المعكوسة ومؤاخذاة الأمة بالفرد. نقول هذا ولنا كبير أمل فيما نلمسه من وعى في المجتمع الإسلامي لنبد الحزازات، وقبر تلك الآراء التي أوجدت الخلافات. ومن الله نسأل تحقيق الآمال فهو الموفق وعليه الاتكال. ونسأله تعالى أن ينصر المسلمين ويوحد كلمتهم وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . والحمد لله هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

و الصلاة على محمد وآله الطيبين وأصحابه المنتجبين

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

ص:654

1-1) النسائي في السنن ج 7 ص 155.

2-2) استقصينا البحث عن التهم الموجهة إلى الشيعة في كتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) وقد حالت الظروف بيننا وبين طبعه.



## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي  
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباه اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الالكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
اصبحان  
الغمامة



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

